

زبدة التفاسير

تأليف

المولى فتح الله بن شكر الله الشريف الكاشاني ﷺ المتوفّى سنة ٩٨٨ هـ . ق

الجزء الثالث



تحقيق ونشر مؤسّسة المعارف الإسلاميّة . . š 9.k.L. كاشاني ، فتح الله بن شكر الله ،

زيدة التفاسير / تأليف فـتح الله بـن شكـر الله الكـاشاني الشـريف ؛ تـحقيق مـؤسسة

المعارف الاسلامية ـ [ويرايش ٢٢]. ـ قم : مؤسسة المعارف الاسلاميّة ، ١٤٢٣ ق = ١٣٨١ . ISBN: 964 - 7777 - 02 - 5: (دوره)_ ISBN

ISBN: 964 - 7777 - 03 - 7 (\ a) ISBN: 964 - 7777 - 04 - 3 (YZ)

ISBN: 964 - 7777 - 05 - 1 (TZ) ISBN: 964 - 7777 - 06 - x (& z) ISBN: 964 - 7777 - 07 - 8 (02) ISBN: 964 - 7777 - 08 - 6 (FZ)

ISBN : 964 - 7777 - 09 - 4 (Y =)

فهر ستنویسی بر اساس اطلاعات فییا . عربی ـ کتابنامه .

١. تفاسير شيعه ـ قرن ١٠ ق . الف . بنياد معارف اسلامي . ب . عنوان .

۲ ز ۲ک BP ۹۶ 1441 797 / 177F - X1 - 750ET كتابخانه ملى ايران



149

هويّة الكتاب:

إسم الكتاب : زيدة التفاسين /ج ٣. تحقيق ونشر: المعارف الإسلامية . عترت. ۲۰۰ نسخة .

> جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لمؤسسة المعارف الإسلامية

ايران _قم المقدّسة

ص. ب ۷۲۸ / ۳۷۱۸۵ تلفون ۷۷۳۲۰۰۹ فاکس ۷۷٤۳۷۰۱

E - mail: m islamic@aYna.com





سورة الأنفال

سورة الأنفال مدنيّة. وآيها خمس وسبعون.

وفي خبر أبيّ عن النبيّ ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له، وشاهد يوم القيامة أنّه بريء من النفاق، وأعطي من الأجر بعدد كلّ منافق ومنافقة، في دار الدنيا عشر حسنات، ومحيى عنه عشر سيتات، ورفع له عشر درجات. وكان العرش وحملته يصلّون عليه أيّام حياته في الدنيا».

وعن الصادق ﷺ: «من قرأهما في كلّ شهر لم يدخله نفاق أبداً. وكان من شيعة أمير المؤمنين ﷺ حقًاً. ويأكل يوم القيامة من موائد الجنّة معهم. حتّى يفرغ الناس من الحساب».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَا تَقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ

نَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

ولمّا قصّ الله سبحانه في سورة الأعراف قبصص الأنبياء وخبتمها بـذكر

واختلف في الأنفال ما هي؟ فقال ابن عبّاس وجماعة: إنّها غنيمة بدر. وقال قوم: هي أنفال السرايا. وقيل: هي ما شدّ عن المشركين من عبد وجارية من غير قتال. وقال قوم: هو الخمس.

والصحيح ما قال الباقر والصادق الله الله المنظفة أنها كلّ ما أخذ من دار الحرب بغير قتال وكلّ أرض انجلى أهلها عنها بغير قتال أيضاً، ويسمّيها الفقهاء فيئاً. والأرضون الموات، والآجام، وبطون الأودية، وقطائع الملوك إذا لم تكن مغصوبة. وميرات من لا وارث له.

﴿ قُلِ الْأَنْقُالُ بِثِهِ وَالرَّسُولِ﴾ ولمن قام مقامه بعده من الأثبيّة المعصومين صلوات الله عليهم، يصرفونها حيث شاؤا من مصالحهم ومصالح عبالهم. وقالا ﷺ: «إنَّ غنائم بدر كانت للنبيّ ﷺ خاصة، فقسّمها بينهم تفضّلاً منه ﷺ». وهدو مذهب أصحابنا الإماميّة. ويؤيّده أنّ الأنفال جمع نفل، وهي الزيادة على الشيء، سمّي به لكونه زائداً على الغنيمة، كما سمّيت النافلة نافلة لزيادتها على الفرض، وسمّي ولد الولد نافلة لزيادته على الأولاد. وقيل: سمّيت النافلة نفلاً، لأنّ هذه الأمّة فضّلت بها على سائر الأمه.

واختلفوا في نسخ هذه الآية، فقال جماعة من المفسّرين: نعم، نسخت بآية ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّهَا عَنِفْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١) الآية. وقال الطبري (٢) وأصحابنا: ليست منسوخة. وهو الحقّ، لعدم المنافاة بينها وبين آية الخمس، لما ذكرنا من المغايرة بين الموضوعين.

⁽١) الأنفال: ٤١.

⁽٢) تفسير الطبري ٩: ١١٩.

وقال سعيد بن المسيّب وجماعة: لا نفل بعد الرسول ﷺ. ومنعه جماعة من الفقهاء وأصحابنا، لما بيّنًا أنّها للامام القائم مقامه.

وفائدة الجمع بين الله ورسوله ﷺ كفائدته في قوله: ﴿فَأَنَّ بِنِهِ خُـمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ (١) على وجه يأتي إن شاء الله. فالمعنى: حكمها مختص بالله تعالى ورسوله. وتخصيصها علم بفعل الرسول، فإنَّ فعله حجّة كقوله. وفي الكشّاف(٢)؛ أن حكمها مختص بهما، الله حاكم، والرسول منفذ.

عن ابن عبّاس: أنّ رسول الله ﷺ قال يوم بدر: من فعل كذا فله كذا. فتسارع الشبّان فقتلوا سبعين وأسروا سبعين، ثمّ طلبوا نفلهم، وبقي الشيوخ والوجوه تحت الرايات. فلمّا كانت الغنيمة جاء الشبّان يطلبون نفلهم. فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإنّا كنّا ردءًا، أي: عوناً لكم، ولو وقعت عليكم الهزيمة لرجعتم إلينا. وجرى التشاجر بينهم، فنزلت، فقسّم رسول الله ﷺ النفل بينهم بالسويّة.

وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر، فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجئت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت له: إنّ الله قد شفى صدري من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: ليس لي هذا ولا لك. فما جاوزت إلاّ قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزلت سورة الأنفال، فقال: يا سعد إنّك سألتنى السيف وليس لى، وإنّه قد صار لى، فاذهب فخذه.

وقال عبادة بن الصامت: اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا. فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ. فقسّمه بسيننا عملى السواء. فخاطبنا بـقوله: ﴿فَاتَقُوا الله﴾ في الاختلاف والمشاجرة في الأنفال ﴿وَاصْلِهُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال

⁽١) الأنفال: ٤١، وسيأتي تفسيرها في ص: ٤٢.

⁽٢) الكشّاف ٢: ١٩٥.

٨..... زيدة التفاسير ـ ج ٣

الَّتي بينكم من المنازعة بالمحابَّة والائتلاف. والمساعدة والمواساة فيما رزقكم الله تعالى. وتسليم أمره إلى الله والرسول.

وقال الزجّاج: «ذات بينكم» أي: حقيقة وصلكم، ومنه: ﴿لَـقَدْ تَـقَطُعُ بَيْنَكُمْ﴾ (١) أي: وصلكم واجتماعكم على أوامر الله.

﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيه ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإنّ الإيمان يقتضي ذلك. أو إن كنتم كاملي الإيمان، فإنّ كمال الايمان بطاعة الأوامر، والاتّقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكُرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قَلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلَيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَنُهُمْ إِيَّانًا وَعَلَى رَبِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزُقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولِنَكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عندَ رَبِهِمْ وَمَنْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَانَ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ كَيَا أَخْرَجَكَ رَبُكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَانَ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمُؤْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٢﴾

ثم بين صفة خلّص المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكاملون في الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا نُكِرَ اللهُ ﴿ ذَكر عندهم عقوبته وعدله، ووعيده على المعاصي بالعقاب، واقتداره عليه ﴿ وَجِلْتَ قُلُوبُهُمْ ﴾ فزعت لذكره تهيباً من جلاله، واستعظاماً

⁽١) الأنعام: ٩٤.

سورة الأنفال، آية ١-٦.....

له. وأمّا إذا ذكرت نعمة الله على عباده، وإحسانه إليهم، وفضله ورحمته عـليهم. وثوابه على الطاعات. اطمأنّت قلوبهم، كـما قـال تـعالى: ﴿ أَلَا بِـذِكْرِ اللهِ تُـطَفّئنِنُ الظُّلُوبُ﴾ (١/، وسكنت نفوسهم إلى عفو الله، فلا تنافى بين الآيتين.

وقيل: هو الرجل يهمّ بمعصية فيقال له: اتّق الله، فينزع عنها خــوفاً مــن عقامــه.

﴿ وَإِذَا تَلِيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتُهُمْ إِيهَاناً﴾ لزيادة المؤمن به، أي: ازدادوا يقيناً وطمأنينة نفس وتصديقاً بها، منضماً إلى يقينهم بما أنزل قبل ذلك من القرآن، كما روي عن ابن عبّاس أنّ المعنى زادتهم تصديقاً مع تصديقهم بسما أنزل إليهم قبل ذلك. يعني: أنّهم يصدّقون بالأولى والثانية والثالثة، وهكذا فكل ما يأتي من عند الله فيزداد تصديقهم كميّة لا كيفيّة، لأنّ الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان عندنا.

وقيل: إنّ المراد ازدياد الايمان، لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلّة، أو بالعمل بموجبها، وهو قول من قال: إنّ الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بناءً على أنّ العمل داخل فيه.

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكِّلُونَ﴾ يفوّضون إليه أمورهم، ولا يخشون ولا يرجون إلّا إيّاه.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إنّما خـصّ فـرض الصـلاة والزكاة بالذكر لعظم شأنهما، وتأكّد الأمر فيهما.

﴿ أَوْلَئِكَ ﴾ المستجمعون لهذه الخصال الحميدة ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ مَقًا ﴾ هم الذين استحقوا إطلاق اسم الإيمان حقيقة عليهم، لأنهم حققوا إيمانهم، بأن ضمّوا

⁽١) الرّعد: ٢٨.

إليه مكارم أعمال القلوب، من الخشية والإخلاص والتوكّل، ومحاسن أفعال الجوارح التي هي المعيار عليها، من الصّلاة والصدقة. و«حقّاً» صفة مصدر محذوف، أي: إيماناً حقّاً. أو مصدر مؤكّد للجملة التي هي «أولئك هم المؤمنون» كما تقول: هو عبدالله حقّاً، أي: حقّ ذلك حقّاً.

﴿ لَهُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ شرف وكرامة وعلق منزلة. وقيل: درجات الجنّة يرتقونها بأعمالهم. ﴿ وَمَغْفِرَةُ ﴾ وتجاوز لما فرط منهم من السيّئات ﴿ وَرِزْقُ كَرِيمُ ﴾ أي: حظّ عظيم أعدّ لهم فيها على سبيل التعظيم لا ينقطع عدده، ولا ينتهي أمده. وهذا معنى النواب.

﴿ كَمَا أَخْرُجُكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ ﴾ الكاف في محل الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذه الحال كحال إخراجك. والمعنى: أنّ حالهم في كراهة ما حكم الله في الأنفال، مثل حالهم في كراهة خروجك من بيتك للح. ب.

ويجوز أن يكون في محل النصب، على أنّه صفة لمصدر الفعل المقدّر في قوله: «الأنفال الله وثبتت مع كراهتهم. ثباتاً مثل ثبات إخراج ربّك إيّاك من بيتك مع كراهتهم، يعني: من المدينة، لأنّها مهاجر، ومسكنه، أو بيته فيها.

﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي: إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب الّذي لا محيد عنه.

وسبب كراهتهم أنَّ عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون راكباً، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، فأخبر جبر ثيل رسول الله عليه الخبر المسلمين، فأعجبهم تلقي العير، لكثرة المال وقلّة الرحال.

فلمًا خرجوا بلغ أهل مكّة خروجهم، فنادي أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل

سورة الأنفال، آية ١٦٠٠.....

مكّة النجاء^(۱) النجاء على كلّ صعب وذلول، عيركم أموالكم، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً.

وقد رأت عاتكة أخت العبّاس بن عبدالمطّلب رؤيا قبل ذلك بثلاث ليال، فقالت لأخيها: إنّي رأيت عجباً، رأيت كأنّ ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثمّ حلق^(۱۲) بها، فلم يبق بيت من بيوت مكّمة إلّا اصابه حجر من تلك الصخرة. فحدّث بها العبّاس، فقال أبو جهل: ما يعرضى رجالهم أن يتنبّؤا حتّى تتنبّأ نساؤهم. وبرواية أخرى قال: هذه نبيّة ثانية من بني عبدالمطّلب.

فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة، وهم النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير. فقيل له: إنّ العير أخذت طريق الساحل ونجت، فارجع بالناس إلى مكّة. فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً حتّى ننحر الجزور، ونشرب الخمور، ونقيم القينات (٣) والمعازف ببدر، فيتسامع جميع العرب بمخرجنا، وإنّ محمداً لم يحسب العير، وإنّا قد أعضضناه (٤). فعضى بهم إلى بدر، وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة.

ونزل جبر ثيل فقال: يا محمّد إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين: إمّا العبر وإمّا قريشاً. فاستشار النبيّ ﷺ أصحابه وقال: ما تقولون: إنّ القوم قد خرجوا من مكّة على كلّ صعب وذلول. فالعبر أحبّ إليكم أم النفير ؟

⁽١) أي: أسرعوا أسرعوا.

⁽٢) أي: رمي بها إلى فوق.

⁽٣) أي: المغنيات، والواحدة: قينة.

 ⁽٤) في الصحاح (٣: ١٠٩١ _ ١٠٩٢): «أعضَضته الشيء فعضًه. ويقال: أعضضته سيفي، أي:
 ضربته به».

قالوا: بل العير أحبّ إلينا من لقاء العدوّ.

فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، ثمّ ردّد عليهم فقال: إنّ العير قد مـضت عــلـى ساحـل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل.

فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدوّ.

فقام عند غضب النبيّ النبيّ أبو بكر وعمر وقالا فأحسنا.

ثمّ قام سعد بن عبادة فقال: أنظر أمرك فامض، فوالله لو سرت إلى عدن أبين (١) ما تخلّف عنك رجل من الأنصار.

ثمّ قال: أشيروا عليّ أيّها الناس وهو يريد الأنصار، لأنّهم كانوا عدده، وقد قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنّا برآء من ذمامك حتّى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك ممّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان النبر الله على عدة دهمه بالمدينة.

فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنّك تريدنا يا رسول الله ؟

قال: أجل.

قال: قد آمنًا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو العبق. وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، ضامض يا رسول الله لعبا

⁽١) في الصحاح (٥: ٢٠٨٢): «أبين اسم رجل نسب إليه عدن، يقال: عدن أبين».

⁽٢) المائدة: ٢٤.

أردت، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا، وإنّا لصُهُر عند الحرب، صُدّق عند اللقاء، ولعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

ففرح رسول الله ﷺ، ونصَّطه قول سعد ثم قــال: ســيروا عــلى بــركة الله وأبشروا، فإنّ الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وروي أنّه قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء. فناداه العبّاس وهو في وثاقه: لا يصلح. فقال له النبيّ ﷺ: لِمَ؟ قال: لأنّ الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك.

وكانت تلك الكراهة من بعضهم لقوله: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ وهو في موقع الحال، أي: أخرجك في حال كراهتهم خروجك من بيتك إلى حرب مشركي مكّة في بدر.

﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ ينازعونك في إيثارك الجهاد بإظهار الحقّ ، لايثارهم تلقّي العير عليه. ﴿ بَعْدَ مَا تَبَقَنَ ﴾ لهم أنهم ينصرون أينما توجّهوا، وذلك بإعلام الرسول. وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلّا للعير ، وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهّب؟ وذلك لكراهتهم القتال.

ثمّ شبّه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة، بحال من يجذب إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن، فقال: ﴿ كَانَّمَا يُسَاقُونَ إِنِي الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي: يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه. وكان ذلك لقلّة عددهم، وعدم تأهيهم، إذ روي أنهم كانوا رجّالة، وما كان فيهم إلّا فارسان. وفيد إيماء إلى أنّ مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

وَإِذْ مَعدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّآفَتُين أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَذُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَات الشُّوكَة تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحقَّ الحَقَّ بكَلَمَاته وَيَقْطَعَ دَابَرِ الْكَافرينَ ﴿٧﴾ لَيْحِنَّ الْحَقَّ وَيُنْبِطُلُ الْبَاطِلُ وَلَوْ كُرَهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغيثُونَ رَّبُّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمدُّكُم بِأَلْفَ مَنَ الْمَلَآتِكَة مُرْدَفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ تُشْرَى وَلَتُطْمَنَّ به قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ منْ عند اللَّه إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ تُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مَّنْهُ وَتُنَزِّلُ عَلَيْكُم مَن السَّمَآء مَآءٌ لَيْطَهِّرُكُم بِهِ وَيُكْذُهبَ عَنكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلَيْرِبطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وُبُنَّبتَ به الأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إذْ يُوحي رَّبُكَ إلَى الْمَلَآتُكَة أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبْتُواْ الَّذينَ آمَنُواْ سَأَلْقي في قَلُوب الْذينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاق وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُنَّ بَنَان ﴿ ١٢ ﴾ ۚ ذَلَكَ بأَنُّهُمْ شَآقُواْ اللَّهَ وَرَسُولُهُ وَمَن يُشَاقق اللَّهَ وَرَسُولُهُ فَإنَّ اللَّهَ شَديدُ الْعَقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ للْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

﴿ وَإِذ يَعِدُكُمُ اللهُ إِخْدَى الطَّائِقَتَيْنِ ﴾ إِمَّا النفير أو العير. وهذا على إضمار «اذكر». و«إحدى» ثاني مفعولي «يعدكم». وقد أبدل منها قوله: ﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ بدل الاشتمال ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَيْزَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ يعني: العير، فإنَّه لم يكن فيها إلاّ أربعون فارساً، ولذلك يتمنونها، ويكرهون الطائفة ألتي هي ذات الشوكة، لكثرة

عددهم وعدَّتهم. والشوكة الحدَّة، مستعارة من واحدة الشوك.

﴿ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أن يثبته، أي: يعزّ الاسلام ويعليه ﴿ بِكِلِمَاتِهِ ﴾ بآياته المنزلة في محاربتهم، أو بأوامره للملائكة بالإمداد ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ باستئصالهم وقتلهم وأسرهم وطرحهم في قليب بدر. والدابر: الآخر، من: دبر إذا أدبر. وقطم الدابر عبارة عن الاستئصال.

والمعنى: أنكم تريدون الفائدة العاجلة. ولا تريدون مكروهاً، والله يريد ما يرجع إلى علق أمور الدين وإظهار الحقّ، وما يحصل لكم من فوز الدارين. فشتّان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قـوّتهم، وغـلّبكم عليهم مع كثرتهم وقلّتكم، فأذلّهم وأعزّكم.

﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متملّق بمحدوف ، تقديره : فعل ذلك لتشبيت دين الحق ﴿ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلُ ﴾ أي : الشرك . وليس بتكرير ، لأنّ الأوّل لبيان المراد ، وما بينه وبين مرادهم من التفاوت ، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول ﷺ على اختيار ذات الشوكة ونصر تهم عليها ﴿ وَلَوْ كَرَهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك .

روي عن أبي جعفر ﷺ قال: «إنّ النبيّ ﷺ لمّا نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، فاستقبل القبلة ومدّ يده وقال: اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف كذلك حتّى سقط رداؤه من منكبيه، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ﴾ وهذا بدل من «إذ يعدكم»، أو متعلّق بقوله: «ليحقّ الحقّ»، أو على إضمار «اذكر».

وقيل: استغاثتهم أنّهم لمّا علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي ربّ انصرنا على عدوّك، أغثنا يا غياث المستغيثين.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأغاثكم وأجاب دعوتكم ﴿ انِّي مُمِدُّكُمْ﴾ بأنّي ممدّكم. فحذف الجارّ وسلّط عليه الفعل.

وقرأ أبو عمرو بالكسر(١) على إرادة القول، أو إجبراء «استجاب» مجرى

⁽١) أي: بكسر: إنّ .

«قال»، لأنّ الاستجابة من القول.

﴿ بِالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ عليهم ثياب بيض وعمائم بيض، قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ متبعين المؤمنين، أو متبعين بعضهم بعضاً، من: أردفته إيّاه فردفه. بعدد، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين، من: أردفته إيّاه فردفه. وقرأ نافع ويعقوب: مردفين بفتح الدال، أي: متبعين أو متبعين، بمعنى: أنّهم كانوا مقدّمة الجيش أو ساقتهم.

﴿ وَمَا جَعْلَهُ اللهُ أَي: إمدادكم بالملائكة ﴿ إِلَّا بُشْرَى ﴾ إلّا بشارة لكم بالنصر ﴿ وَمَا النَّمْشُ ﴾ ﴿ وَلِتَطْفَئِنْ بِهِ قُلُوبُكُمُ ﴾ فيزول ما بها من الوجل، لقلّتكم وذلّتكم ﴿ وَمَا النَّمْشُ ﴾ بالملائكة وغيرهم من الأسباب ﴿ إلَّا مِنْ عِنْدِاللهِ ﴾ فينصر من يشاء، قلّ العدد أم كثر ﴿ إِنَّ اللهُ عَزِيزٌ ﴾ لا يمنع عن مراده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله، يجريها على ما تقتضيه الحكمة، وإمداد الملائكة وكثرة العدد والأهب وتحوهما وسائط، فلا تحسبوا النصر منها حقيقة، ولا تياسوا منه بفقدها.

واختلف في أنّ الملائكة هل قاتلت يوم بدر أم لا؟ فقيل: ما قاتلت ولكن شجّعت وكثّرت سواد المسلمين وبشّرت بالنصر، وإلّا فملك واحد كافي في إهلاك أهل الدنيا كلّهم، فإنّ جبرئيل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة.

وقيل: إنّها قاتلت. وروي عن ابن مسعود أنّه سأله أبو جهل من أين يأتينا الضرب ولا نرى الشخص؟ فقال: من قبل الملائكة. فقال: هم غلبونا لا أنتم.

وعن ابن عبّاس أيضاً: أنّ الملائكة قاتلت يوم بدر. وفي رواية: قاتلت يوم بدر، ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين.

وروي: أنَّ رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه، فنظر إلى المشرك قد خرَّ مستلقياً وشقَّ وجهه، فحدَث الأنصاري رسول الله اللَّلِيُّةِ فقال: صدقت ذلك من مدد السّماء. وعن أبي داود المازني: تبعت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر، فـوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي.

وقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّفَاسَ﴾ بدل ثانٍ من «إذ يعدكم»، أو متعلّق بالنصر، أو بما في «عند الله» من معني الفعل، أو يجعل «أو» بإضمار «اذكر».

وقرأ نافع بالتخفيف. من: أغشيته الشيء إذا غشّـيته إيّــاه. والفــاعل عــلـى القراءتين هو الله تعالى. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: يَغْشَاكُمُ النَّعاسُ بالرفع.

﴿أَمَنَةُ مِنْهُ﴾ أَمناً من الله تعالى. وهو مفعول له باعتبار المعنى، فإنّ قبوله
«يغشّيكم النعاس» متضمّن معنى: تنعسون، و«يغشاكم» بمعناه، فيكون فاعل الفعل
المعلّل والعلّة واحداً. و«منه» صفة أدامنة». والمعنى: إذ يتغشّون لأمنكم الحاصل
من الله بإزالة الرعب من قلوبكم، فإنّ الانسان لا يأخذه النوم في حال الخوف،
فآمنهم الله تعالى بزوال الرعب عن قلوبهم، كما يقال: الخوف مسهر، والأمن منيم.
والأمنة الدعة التى تنافى المخافة.

وعن ابن عبّاس: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة وسموسة الشيطان.

﴿ وَيُنذِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ من الحدث والجنابة ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ يعني: الجنابة، لأنّه من تخييله أو وسوسته وتخويفه إيّاهم من العطش، وذلك أنّ المشركين قد سبقوهم إلى الماء، ونزل المسلمون في كشيب (۱) أعفر تسوخ فيه الأقدام، وناموا فاحتلم أكثرهم، فتمثّل لهم إبليس وقال: يا أصحاب محمد أنتم تزعمون أنكم على الحق، وأنتم تصلون على الجنابة، وقد عطشتم، ولو كنتم على حقّ ما غلبكم هؤلاء على الماء، وهاهم الآن يمشون إليكم، فيقتلونكم ويسوقون بقيّتكم إلى مكّة. فحزنوا لذلك، فأنزل الله المطر، فعطروا ليلاً حتى جرى

⁽١) الكثيب: التلّ من الرمل.

الوادي، واغتسلوا وتوضّؤوا، واتّخذوا الحياض عملى عمدوة (١١ الوادي، وتملئد (٢) الرمل الّذي كان بينهم وبين العمدوّ حمتّى ثمبتت عمليه الأقمدام ، وزالت وسموسة الشيطان، وطابت النفوس.

﴿ وَلِيَزْدِطْ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ وليشد عليها. ومعناه: يشجّع قلوبكم، ويزيدكم قوّة قلب وسكون نفس، والثقة على لطف الله ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامُ ﴾ أي: بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل. أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة، فإنّ الجرأة تثبت الله على القلوب حتى تثبت في المعركة، فإنّ الجرأة تثبت

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ ﴾ بدل ثالث، أو متعلّق ، «يثبّت» ﴿إِلَى الْمَلَاتِّكَةِ انَّي مَعَكُمْ ﴾ في إعانتهم وتثبيتهم. وهو مفعول «يوحي». ﴿ فَقَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالبشارة، أو بتكثير سوادهم، أو بمجاهدة أعدائهم.

وقوله: ﴿سَالَقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ كالتفسير لقوله: «أنّي معكم فنبّوا»، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفّار، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم. ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعاليها الّتي هي المذابح، لأنها مفاصل، فكان إيقاع الضرب فيها حزّاً وتطييراً للرؤوس، لأنّها فوق الأعناق ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلُّ بَنَانٍ﴾ أصابع، أي: حزّوا رقابهم واقطعوا أطرافهم من البدين والرجلين، فإنّ الضرب إمّا واقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً.

وفيه دليل على أنّهم قاتلوا. ومن منع ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين، إمّا على تغيير الخطاب، أو على أنّ قوله: «سألقىي» إلى قىوله: «كلّ بـنان» تـلقين للملائكة ما يثبّتون المؤمنين به، كأنّه قال: قولوا لهم قولي هذا.

﴿ ذَٰكِ ﴾ إشارة إلى ما وقع بهم من القتل أو الأمر به. والخطاب فـي «ذلك»

⁽١) العُدوة : المكان المتباعد، أو المرتفع .

⁽٢) تلبُّد الرمل أي: تجمُّع ولصق بعضه ببعض.

للرسول. أو لكلّ أحد من المخاطبين قبلُ ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا الله وَرَسُولَهُ ﴾ أي: ذلك العقاب العاجل أو أمر الملائكة به بسبب مشاقتهم ومخالفتهم لهما. واشتقاقه من الشق، لأنّ كلاً من المعاندين في شقّ خلاف شقّ الآخر، كالمعاداة من العدوة بمعنى الجانب، والمخاصمة من الخصم، وهو أيضاً الجانب.

وقوله: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهُ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ تقرير للتعليل. أو وعيد بما أعدّ لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

﴿ ذَلِكُمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات. ومحلّه الرفع، أي: الأمر ذلكم، أو ذلكم واقع، أو نصب بفعل دلّ عليه قوله: ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ أو غيره، مثل: باشروا أو عليكم، فتكون الفاء عاطفة ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ عـطف عـلى «ذلكم»، أو نصب على المفعول معه. والمعنى: ذوقوا ما عجّل لكم مع ما أجّل لكم في الآخرة، ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أنّ الكفر سبب العذاب الآجا،، أو الجمع بينهما.

يَا أَيُهَا الَّذِينَ آمَنُواً إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُولُوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿ ١٥﴾ وَمَن يُولِهِمْ يَوْمَنْد دُبُرهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقَال أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِنْهَ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَب مَنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِثْسَ الْمَصِيرُ ﴿ ١٩﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَ اللّهَ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَ اللّهَ رَمَى وَلِيْبُلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ ١٩﴾ فَلَمْ أَنْفُومِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنا إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ ١٧﴾ ذَلَكُمْ وَأَنَ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿ ١٨﴾

ولمّا أمدّ سبحانه المسلمين بالملائكة ، ووعدهم النـصر والظـفر بـالكفّار. نهاهم عقيبه عن الفرار، فقال: ﴿ يَا أَيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفُرُوا زَشَـفًا﴾ متزاحفين. حال من «الذين كفروا». والزحف: الجيش الدهم(١) الذي يرى لكثرته كأنّه يزحف. أي: يدبّ دبيباً، من: زحف الصبيّ إذا دبّ على إسته قـليلاً قـليلاً، سمّي بالمصدر. والجمع زحوف. والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جمّ وأنتم قليل. ﴿ فَلَا تُولُوهُمُ الْآذَبُازِ﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين من العدرّ.

ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل والمفعول، أي: إذا القيتموهم متزاحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم فلا تنهزموا. أو حال من الفاعل، كأنهم أخبروا بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين وهم زحف اثنا عشر ألفاً.

﴿ وَمَنْ يُولَعُهُ يَوْمَنْدِ نُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرَّفاً لِقِتَالٍ ﴾ يريد الكرّ بعد الفرّ، يخيّل عدوّه أنّه منهزم ثمّ يعطف عليه، وهو باب من خدع الحرب ومكائدها. أو يكون التحرّف لأجل إصلاح لأمته (٢) وسائر اسلحته ﴿ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستمين بهم، وانتصابهما على الحال، و«إلاّ» لغو لا عمل لها. أو على الاستثناء من المولّين، أي: ومن يولّهم إلاّ رجلاً منهم متحرفاً أو متحيّرًا. ووزن متحيّر متفيعل لا متفعّل، لأنّه من: حاز يحوز، فبناء متفعّل منه متحوّد.

﴿فَقَدُ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَاوَيْهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هذا إذا لم يزد العدوّ على الضعف، لقوله: ﴿الْآنِ خَقِّفَ اللهُ عَنْكُمْ﴾ (٣) الآية.

وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

وعن ابن عبّاس: أنّ الفرار من الزحف من أكبر الكبائر.

روى أنَّه لمَّا طلعت قريش من العقنقل قال ﷺ داعياً لله تعالى: هذه قريش

⁽١) الدُّهم: العدد الكثير.

⁽٢) اللَّأمة: الدرع.

⁽٣) الأنفال: ٦٦.

جاءت بخيلائها وفخرها يكذّبون رسولك. اللّهم إنّي أسألك ما وعدتني. فأتاه جبرئيل وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها. فلمّا التقى الجمعان قال لعليّ ﷺ: أعطني قبضة من حصباء الوادي. فأعطاه فرمى بها في وجوههم، وقال: شاهت الوجوه. فلم يبق مشرك إلّا شغل بعينيه فانهزموا، وردفهم المؤمنون يمقتلونهم ويأسرونهم.

ثمّ لمّا انصرفوا أقبلوا على النفاخر، فيقول الرجل: قتلت وأسرت، فنزلت: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم بقوّتكم ﴿ وَلَكِنَّ الله قَلَلُهُمْ ﴾ بإنزال الملائكة والقاء الرعب في قلوبهم.

﴿ وَهَا رَهَيْتَ ﴾ يا محمّد رمية توصلها إلى أحداقهم ، ولم تقدر عليه ﴿إذْ رَهَيْتَ ﴾ آي: أتيت بصورة الرمي ﴿ وَلَئِنَّ اللهُ رَهَيْ ﴾ أتى بما هو غاية الرمي، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتّى انهزموا ، وتمكّنت من قطع دابرهم. وهذا من عجائب المعجزات. واللفظ كما يطلق على المستّى، يطلق على ماهو كماله والمقصود منه.

وقيل: معناه: ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء، ولكنّ الله رمى بالرعب في قلوبهم.

وقيل: إنّه نزل في طعنة طعن بها أبيّ بن خلف يوم أحد ولم يخرج منه دم، فجعل يخور حتّى مات. أو في رمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كنانة بن أبي الحقيق على فراشه. وأكثر المفسّرين على القول الأوّل.

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: ولكمن بمالتخفيف ورفع ما بعده في الموضعين.

﴿ وَلِيُبِينِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً ﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة من ذلك النصر والغنيمة ومشاهدة الآيات، أو من عنده تعالى. ﴿ إِنَّ اللهُ سَمِيعٌ ﴾ لاستغاثتهم

٢٢...... زيدة التفاسير ـج ٣

ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتهم وأحوالهم.

﴿ ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي. ومحلّم الرفح، أي: الغرض أو الأمر ذلكم. وقوله: ﴿ وَانَّ اللهُ مُوهِنُ كَثِيْهِ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف عليه، أي: المقصود إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين، وإبطال حيلهم.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: موهّن بـالتشديد. وحـفص : مـوهن كـيد بالإضافة والتخفيف.

إِن تَسْنَفْخُواْ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتُهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ لَعُدْ وَإِن تَعْهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ لَعُدْ وَإِنَ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَآ لَيُهُا اللّذِينَ آمَنُواْ أَطْبِعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوْلُوا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلاَ تَكُونُواْ كَالّذِينَ قَالُوا سَمْعُنَا وَهُمُ لاَ يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبَ عندَ اللّهِ الصَّمُ الْبَكْمُ الَّذِينَ قَالُوا سَمْعُنَا وَهُمُ لاَ يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبَ عندَ اللّهِ الصَّمَ الْبُكُمُ الذِينَ لاَ يَعْقُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ وَلُو أَسْمَعُهُمْ وَلَوْ السَّمَعُهُمْ وَلَوْ السَّمَعُهُمْ مَنُونُونَ ﴿٢٢﴾

ثمّ خاطب أهل مكّة على سبيل التهكّم بقوله: ﴿إِن تَسْتَقْتِكُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَقْحُ﴾ وذلك أنّهم حين أرادوا الخروج تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللّهمّ انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين. وبرواية أخرى: اللّهمّ انصر أقرانا للضيف، وأوصلنا للرحم، وأفكّنا للعاني، إن كان محمّد على حقّ فانصره، وإن كنّا على حقّ فانصرنا. سورة الأنفال، آية ٦٩ ــ ٢٣...... ٢٣..... ٢٣

وروي أنّ أباجهل قال يوم بدر: اللّهمّ أيّنا كان أهجر وأقطع للرحم فأحــنه اليوم. أي: فأهلكه.

﴿ وَانْ تَنْتَهُوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لتضمند سلامة الدارين وخير المنزلتين، و«إن تستفتحوا» خطاب للسؤمنين، و«إن تستهوا» للكافرين، ﴿ وَانْ تَخْبَيُ ﴾ لمحاربته ﴿ نَعْنَ ﴾ لنسمره ﴿ وَلَنْ تُخْبَيُ ﴾ ولن تسدفع ﴿ عَنْكُمْ فِفَتَكُمْ ﴾ جماعتكم ﴿ شَيْناً ﴾ من الإغناء أو المضارّ ﴿ وَلَقَ كَثُرَتْ ﴾ فئتكم ﴿ وَانَّ اللهُ مَعْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والمعونة.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص: وأنّ بالفتح، على تقدير: ولأنّ الله مع المؤمنين كان ذلك.

وقيل: الآية خطاب للمؤمنين. والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النـصر. وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عمّا يستأثره الرسول ﷺ فهو خـير لكم. وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تهييج العدق. ولن تغني حينئذٍ كثر تكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر، فإنّ الله مع الكاملين في إيمانهم.

ويؤيّد ذلك أمر الله سبحانه المؤمنين بالطاعة الّتي هي سبب النصرة، ونهيهم عن التولّي عن رسول الله ﷺ بعد تلك الآية، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطبعُوا الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَـوَلُوا عَـنْهُ ﴾ أي: لا تتولّوا عن الرسول، فإنّ المراد بالآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه. وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على أنّ طاعة الله تعالى في طاعة الرسول، لقوله: ﴿مَنْ يُبطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهُ لاللهُ (للهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ (للهُ اللهُ اللهُ

وقيل: الضمير للجهاد، أو للأمر الّذي دلّ عليه الطاعة.

⁽۱) النساء: ۸۰.

٢٤..... زيدة التفاسير _ج ٣

﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق.

﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالكفرة أو المنافقين الذين ادّعوا السماع ﴿ وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماعاً ينتفعون به، لانّهم ليسوا بمصدّقين، فكأنّهم لا يسمعون رأساً.

والمعنى: أنكم تصدّقون بالقرآن والنبوّة، فإذا تولّيتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور ـ من قسمة الغنائم وغيرها ـ كان تـصديقكم كـلا تـصديق، واشـبه سماعكم سماع من لا يؤمن به.

ثمّ قال ذمّاً للمعرضين عن أمر الله ورسوله: ﴿إِنَّ شَنَّ الدَّوَابُ عِندَ اللهِ ۗ أَي: شرّ ما يدبّ على الأرض. أو شرّ البهائم ﴿الصَّمَّ ﴾ عن سماع الحقّ ﴿ الْلُكُمُ ﴾ عن قراءته ﴿الَّذِينَ لَا يَـعْقِلُونَ ﴾ شيئاً منه. عدّهم من البهائم أوّلاً ثممّ جـعلهم شـرّها. لإبطالهم ما ميّزوا به وفضّلوا لأجله، وهو العقل.

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِهُ ﴾ في هـؤلاء الصـمّ البكـم ﴿ خَيْراً ﴾ انتفاعاً باللطف ﴿ لأَسْمَعَهُمُ ﴾ أي: ولو ﴿ لأَسْمَعَهُمُ ﴾ أي: الله الله بهم حتى يسمعوا سماع المصدّقين ﴿ وَلَوْ السّمَعَهُمُ ﴾ أي: ولو لطف بهم لطف بهم وقد علم أن لا خير فيهم ﴿ لتَوَلَّوْا ﴾ عنه ولم ينتفعوا به. أو ولو لطف بهم فصدّقوا لارتدّوا بعد التصديق والقبول، وكذّبوا فلم يستقيموا ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ لعنادهم. وفي هذا دلالة على أنّه سبحانه لا يمنع أحداً اللطف، إذا علم أنّه ينتفع به.

وقال الباقر ﷺ: «بنو عبد الدار لم يسلم منهم غير مصعب بن عمير وسويد بن حرملة». وكانوا يقولون: نحن صمّ بكم عمّا جاء به محمدﷺ، وقـد قـتلوا جميعاً بأحد، وكانوا أصحاب اللواء.

وقيل: قالوا للنبيّ: أحي لنا قصيّاً. فإنّه كان شيخاً مباركاً حـتّى يشـهد لك فنؤمن بك. فالمعنى: لأسمعهم كلام قصيّ.

وعن ابن جريج: هم المنافقون. وعن الحسن: هم أهل الكتاب.

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَحِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَٰئِنَ الْمَرْءِ وَقُلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَانَّقُواْ فَنْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

ثمّ أمر سبحانه عباده بطاعة رسوله، فقال: ﴿ يَا أَيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا بِشِهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ بالطاعة والامتثال ﴿إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ وحد الضمير فيه لما سبق، ولأنّ دعوة الله تسمع من الرسول ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ من العلوم الدينيّة والأحكام الشرعيّة، فإنّها حياة القلب، والجهل موته، قال:

لَا تعجبنّ الجهول حلَّته

فذاك ميت وثبوبه كيفن

أو ممّا يورثكم الحياة الأبديّة في النعيم الدائم، من العقائد الحسنة المرضيّة والأعمال السنيّة. أو من الجهاد، فإنّه سبب بقاء المؤمنين، إذ لو تركوه لغلبهم العدوّ وقتلهم. أو الشهادة، لقوله: ﴿ بَلُ أَحْيَاءُ عِندَ رَبِّهمْ يُزِزَقُونَ﴾ (١).

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَزْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد، كقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنَ حَبْلِ الْفَوِيدِ ﴾ (٢)، فإنَّ الحائل بين الشيء وغيره أقرب إلى ذلك الشيء من ذلك الغير. وتنبيه على أنَّه مطّلع على مكنونات القلوب وضمائرها، متا عسى يغفل عنه صاحبها، فكأنَّه بينه وبين قلبه.

أو حثٌ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله تعالى بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة.

أو تصوير وتخييل لتملُّكه على العبد قلبه، فيفسخ عزائمه، ويغيّر مقاصده.

⁽١) آل عمران: ١٦٩.

⁽۲) ق: ۲۱ .

ويبدله بالخوف أمناً، وبالأمن خوفاً، وبالذكر نسياناً، وبالنسيان ذكراً، وما أشبه ذلك منا هو جائز عليه تعالى. ومنه قول أمير المؤمنين ﷺ: «عرفت الله بفسخ العزائم». وما جاء في الدعاء: يا مقلّب القلوب.

وروى يونس بن عمّار عن أبي عبدالله الله على قال: «أنّ الله يحول بسين المسرء وقلبه» معناه: لا يستيقن القلب أنّ الحقّ باطل أبداً، ولا يستيقن القلب أنّ الباطل حقّ أبداً».

وروى هشام بن سالم عنه قال: «معناه: يحول بينه وبين أن يعلم أنَّ الباطل حتَّ». أوردهما العيَّاشي في تفسيره(١٠).

﴿ وَأَنَّهُ إِنَيْهِ تُخْشُرُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم عملى حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة.

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيئِنُ الَّذِينَ طَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: اتّقوا ذنباً يعمّكم أثره، كترك النهي عن المنكر، والمداهنة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة، وإظهار البدع، والتكاسل في الجهاد. وقيل: الفتنة العذاب.

وقوله: «لا تصيبنّ» لا يخلو: إما أن يكون جواباً للأمر، أو نـهياً بـعد أمـر معطوفاً عليه بحذف الواو، أوصفة لافتنة».

فإذا كان جواباً فالمعنى: إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة، بل تعدّكم. وإنّما جاز دخول النون في جواب الشرط، مع أنّه متردّد لا يليق به النون المؤكّدة، لأنّ فيه معنى النهي فساغ، كقوله: ﴿انْ خُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَخْطِمَنَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ (٣)، وكما تقول: إنزل عن الدابّة لا تطرحك، ويجوز، لا تطرحنك.

وإذا كانت نهياً _ بعد أمر باتقاء الذنب _ عن التعرّض للظلم، فإنّ وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه. فكأنّه قيل: واحذروا ذنباً أو عقاباً. ثمّ قيل: لا تتعرّضوا

⁽١) تفسير العيّاشي ٢: ٥٢ ح٣٦ و٣٩.

⁽٢) النمل: ١٨.

للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصّة. وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول، كأنّه قيل: واتقوا فتنة مقولاً فيها: لا تصيبنّ. ونظير، قوله: حــــتني إذا حـــر، الظــلام واخــتلط ____جاءوا بمذق هل رأمت الذئب قط

والمذق اللبن المخلوط بالماء. والمعنى: بمذق مقول فيه هذا القول، لأنّ فيه لون الورقة(۱) التي هي لون الذئب. ويعضده قراءة ابن مسعود: لتصيبنّ، على جواب القسم المحذوف، ويكون «من» للتبيين على هذا، لأنّ المعنى: لا تصيبنّكم خاصّة على ظلمكم، لأنّ الظلم أقبح منكم من سائر الناس، وللتبعيض على الوجه الأوّل.

وروي: أنّ الزبير كان يساير رسول الله ﷺ يوماً، إذ أقبل عليّ ﷺ، فضحك إليه الزبير، فقال رسول الله بأبي أنت وآمّي، إني أحبّه كحبّي لوالدي أو أشدّ حبّاً. قال: فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله ؟». (٣)

وقال في المجمع^(٣): «روى الثعلبي بإسناده عن حذيفة أنّه قال: أتتكم فتن كقطع الليل المظلم، يهلك فيها كلّ شجاع بطل، وكلّ راكب موضع، وكلّ خطيب مصقم^(٤)».

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري أن النبيّ ﷺ قال لعمّار: «إنّـه سيكون بعدي هنات، حتى يختلف السيف فيما بينهم، وحتى يقتل بعضهم بعضاً، وحتى يبرأ بعضهم من بعض، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني على بن أبي طالب،

⁽١) الوُرْقةُ: سواد في غبرة، والأورق: الذي لونه لون الرماد.

⁽٢) الكشّاف ٢: ٢١٢.

⁽٣) مجمع البيان ٤: ٥٣٤.

⁽٤) راكب مُوضِع أي: مسرع، والبصقع: البليغ.

فإن سلك الناس كلّهم وادياً وسلك عليّ وادياً فاسلك وادي علي. وخلّ عن الناس. يا عمّار إنّ عليّاً لا يردّك عن هدى. ولا يدلّك على ردى. يا عممّار طاعة عليّ طاعتي، وطاعتي طاعة الله»^(۱). رواه السيّد أبو طالب الهروي بإسناده عن علقمة والأسود عن أبي أيّوب الأنصاري.

وفي كتاب شواهد التنزيل للحاكم أبي القاسم الحسكاني رحمه الله، وحدّ ثنا عنه السيّد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني، حدّ ثني محمد بن القاسم ابن أحمد، قال: حدّ ثني أبو سعيد محمّد بن الفضيل بن محمّد، قال: حدّ ثنا محمّد ابن صالح العرزمي، قال: حدّ ثنا عبدالرحمن بن أبي حاتم، قال: حدّ ثنا أبو سعيد الأشجّ، عن أبي خلف الأحمر، عن إبراهيم بن طهمان، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيّب، عن ابن عبّاس قال: «لمّا نزلت هذه الآية: «واتّقوا فتنة» قال النبي النبيّ النبيّ عد نبوّتي ونبوّة الأنبياء قبلي»(٢).

وعن ابن عبّاس: أنّه سئل عن هذه الفتنة فقال: أبهموا ما أبهم الله. ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتّق المعاصي والمظالم.

وَاذَّكُرُواَۚ إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَاوَاكُمُ وَأَيْدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيْبَاتِ لَفَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ثمّ عاد سبحانه إلى وقعة بدر، وبيّن حالتهم السالفة في القلّة والضعف، وإنعامه عليهم بالنصر والتأييد والتكثير، فقال ﴿وَانْكُرُوا﴾ معشر المهاجرين ﴿إنْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي: وقت كونكم أقلّة أذلّة ﴿مُسْتَضَعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكّة.

⁽١) مجمع البيان ٤: ٥٣٤.

⁽٢) شواهد التنزيل ١: ٢٧١ ح ٢٦٩.

يستضعفكم قريش قبل الهجرة. و«إذ» هنا مفعول به، وليس بظرف لـ«مستضعفون». وقيل: الخطاب للعرب، كانوا أذلاًء في أيدي الفرس والروم.

﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَفَتُمُ النَّاسُ﴾ يستلبكم كفّار قريش إن خرجتم من مكّه. أو من عداهم، فإنَّهم كانوا جميعاً معادين مضادّين لهم.

﴿ فَآوَاكُمْ ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تتعضنون بـه عـن أعـاديكم ﴿ وَالْيَدُكُمُ بِنَصْرِهِ ﴾ وقوّاكم على الكفّار بعظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطّّيْبَاتِ ﴾ من الغنائم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إرادة أن تشكروا هذه النعم.

وعن قتادة: كانت العرب أذلّ الناس وأشقاهم عيشاً. وأعراهم جلداً. يؤكلون ولا يأكلون، فمكّن الله لهم في البلاد، ووسّع عليهم في الرزق والغنائم. وجعلهم ملوكاً.

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُواْ أَنمَآ أَمُوالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِثْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عَبدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾

روي عن أبي جعفر وأبي عبدالله على: أنَّ رسول الله عليه حاصر يسهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله عليه الصلح عليه ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام. فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله عليه إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن

فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة. وكان مناصحاً لهم، لأنَّ عياله وماله وولده كانت عندهم.

فبعثه رسول الله ، فأتاهم . فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه أنّه الذبح فلا تفعلوا . فأتاه جبرئيل ﷺ فأخبره لذلك .

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنّي قد خنت الله ورسوله. فنزلت في شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ ﴾ من الخون، وهو النقص، كما أنّ أصل الوفاء التمام. ومنه: تخوّنه، أي: تنقصه، شمّ استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء، لآنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه.

والمعنى: لا تخونوا الله بترك أوامره، والرسول بترك سننه وشرائعه.

وعن الحسن: أنَّ من ترك شيئاً من الدين وضيَّعه فقد خان الله ورسوله.

﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ ولا تخونوا الأمانات فيما بينكم، بأن لا تحفظوها. وهو مجزوم بالعطف على الأوّل، أو منصوب على الجواب بالواو. ﴿ وَانتَمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَنْكم تخونون. أو أنتم علماء تميّزون الحسن من القبيح. أو أنتم تعلمون ما في الخيانة من الذمّ والعقاب.

ولمتا نزلت هذه الآية شدّ أبولبابة نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيّام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً، حتّى خرّ مغشيّاً عليه. ثمّ تاب الله عليه. فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك. فقال: لا والله لا أحلّ نفسي حتّى يكون رسول الله هو الذي يحلّني، فحلّه بيده.

ثمُ فال أبو لبابة: إنَّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي الَّتي أصبت فيها

الذنب، وأن انخلع عن مالي. فقال النبيّ: يجزيك الثلث أن تتصدّق به.

وهذه الرواية مرويّة أيضاً عن الكلبي والزهري.

وقال عطاء: سمعت جابر بن عبدالله يقول: إنّ أبا سفيان خرج من مكّـة. فأتى جبرئيل ﷺ النبي ﷺ فقال: إنّ أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا. قال: فكتب إليه رجل من المنافقين: إنّ محمّداً يريدكم فخذوا حـدركم.

وقال السدّي: كانوا يسمعون الشيء من النبيّ اللَّيِّي فيفشونه حتّى يبلغ المشركين، فنزلت.

وقيل: المراد بالخيانة الغلول في المغانم.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةً﴾ لآنهم سبب الوقوع في الاثم أو العقاب، أو محنة من الله تعالى ليبلوكم فيهم، فلا يحملنكم حبّهم على الخيانة، كأبي لبابة ﴿ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر رضا الله تعالى عليهم، وراعى حدوده فيهم، فعليكم أن تزهدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحبّ الأولاد، ولا تؤثر وهما على نعيم الأبد.

قال في المجمع: «بين سبحانه بهذه الآية أنه يختبر خلقه بالأموال والأولاد، ليتبين الراضي بقسمه متن لا يرضى به، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن ليظهر الأفعال السي بها يستحق الشواب والعقاب. وإلى هذا أشار أمير المؤمنين على في قوله: «لا يقولن أحدكم: اللّهم إنّي أعوذ بك من الفتنة. لأنّه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإنّ الله سبحانه يقول: «وَاعْلَمُوا أَنْمَا أَمُوالُكُم وَأُولَادُكُمْ فِتْنَة». وقد روي هذا المعنى عن ابن مسعود أيضاً»(١).

⁽١) مجمع البيان ٤: ٥٣٦.

¹⁷¹¹

٣٢..... زيدة التفاسير ـج ٣

يَّ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواً إَن تَتَقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرُ عَنكُمُ سَيِّنَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْمُظِيمِ ﴿٢١﴾

ولمّا أمر الله سبحانه بالطاعة وترك الخيانة، بيّن بعده ما أعدّه لمن امتثل أمره في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا اللَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَقُوا الله ﴾ إن تتقوا عقابه باتقاء معاصيه وأداء فرائضه ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ هُرْقَاناً﴾ هداية ونوراً في قلوبكم، وشرحاً في صدوركم بوسيلة التوفيق واللطف، تفرّقون به بين الحقّ والباطل، أو نصراً وفتحاً كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ (۱) لأنّه يفرّق بين المحقّ والمبطل، بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجاً من الشبهات، أو نجاة عمّا تحذرون في الدارين، أو ظهراً يشهر أمركم في أقطار الأرض ويبثّ صيتكم، من قوله: بتّ أفعل كذا حتى سطع الفرقان، أي: الصبح.

﴿ وَيُكَفَّزُ ﴾ ويستر ﴿ عَنْكُمْ سَيِّفَاتِكُمْ وَيَفْقِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم بالتجاوز والسفو عنها. قيل: السيِّئات الصغائر، والذنوب الكبائر. وقيل: المراد ما تقدّم وما تأخّر، لأنها في أهل بدر، وقد غفرهما الله تعالى لهم.

و وَالله ذُو الفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ على خلقه بما أنعم عليهم في الدنيا من أنواع النعم من غير سبق استحقاق منهم، وفي الآخرة بما زاد على قدر استحقاقهم.

وَإِذْ يَنْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُشْتُوكَ أَوْ يَفْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَسْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكُوينَ ﴿٣٠﴾

روي أنّ قريشاً _ لمّا أسلمت الأنصار وبايعوه _ خافوا أن يعلو أمره ويعظم

⁽١) الأنفال: ٢١.

شأنه، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من تهامة، دخلت مكّة فسمعت باجتماعكم. فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا متّى رأياً ونصحاً.

فقال أبو البختري: رأيي أن تحبسوه في بيت. وتشدّوا وثاقه. وتسدّوا بابه غير كوّة، تلقون إليه طعامه وشرابه منها. وتتربّصوا به ريب المنون.

فقال إبليس: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلّصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بمين أظهركم، فلا يضرًكم ما صنع واسترحتم.

فقال إبليس: بئس الرأي، يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم.

فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كلّ بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً صارماً، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرّق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلّهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا.

فقال الشيخ: هذا الفتى هو أجودكم رأياً.

فتفرّقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ بذلك، وأمره بالهجرة وأن يبيّت في مضجعه عليناً، فنام في مضجعه، وقال له: اتّسح ببردتي، فإنّه لن يصل إليك أمر تكرهه، وخرج مع أبي بكر إلى الغار. وباتوا مترصدين، فلمنا أصبحوا ساروا إلى مضجعه فأبصروا عليناً فبهتوا، وخيب الله سعيهم، واقتصوا أثره، وأرسلوا في طلبه، فلمنا بلغوا الجبل ومرّوا بالفار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو كان هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكت فيه ثلاثاً، ثمّ قدم المدينة، فأبطل الله تعالى مكرهم.

فذكر ﷺ هاهنا رسوله إنجاءه إيّاه من مكرهم حين كان بمكة ، ليشكر الله على خلاصه من مكرهم واستيلائه عليهم، فقال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُو بِكَ الَّذِينَ كَفُرُوا﴾ أي: اذكر إذ يحتال كفّار قريش في إبطال أمرك، ويدبّرون في هـلاكك ﴿ لِينْفِئِقُوكَ﴾ بالوثاق أو الحبس أو الإثخان بالجرح، من قولهم: ضربه حتّى أثبته لاحراك به ولا

٣٤..... زيدة التفاسير ـ ج ٣

براح (١١). والأوّل مرويّ عن ابن عبّاس. ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم وخـناجرهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكّة.

﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ ويخفون المكائد لك ﴿ وَيَمْكُرُ الله ﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة. أو العراد بمكر الله مجازاته إيّاهم على مكرهم، أو معاملته معهم معاملة الماكرين. ﴿ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً. أو لانّه لا ينزل إلّا ما هو حقّ وعدل. وإسناد أمثال هذا ممّا يحسن للمزاوجة، أو لضرب من التأويل. ولا يجوز إطلاقها ابتداءً، لتضمّنه القبح والذمّ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وَإِذَا تُنَّلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءٌ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَآ اِنْ هَذَآ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّابِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ اِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرُ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْبَنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن عناد هؤلاء الكفّار في الحقّ، فقال: ﴿ وَإِذَا تَتُلَكَ عَلَيْهِمْ الْجَالُولُ اللّهُ السلام الله النظر اللهُ الل

وقيل: هو قول الّذين التمروا في أمره ﷺ. وهذا غاية مكــابرتهم وفــرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم عن أن يقولوا مثله؟! وقد تحدّاهم وفرعهم

⁽١) أي: لم يبرح ولم يزل من مكانه.

بالعجز عشر سنين، ثمّ قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سـورة، مـع أنـفتهم وفـرط استنكافهم أن يغلبوا، خصوصاً في باب البلاغة والفصاحة.

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا﴾ القرآن ﴿ هُوَ الْحَقَّ ﴾ منزلاً ﴿ مِنْ عِندِكَ فَاَمْطِوْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي: حجارة من سجّيل عقوبة على إنكاره، كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿ أَوِ اثْقِتَا بِعَدَابٍ أَلِيمٍ ﴾ بنوع آخر من أنواع العذاب.

هذا أيضاً من كلام النضر. روي أنّه لمّا قال: «إن هذا إلّا أساطير الأوّلين» قال له النبيّ ﷺ: ويلك إنّه كلام الله. فقال ذلك. ومراده من هذا القول التهكّم وإظهار اليقين والجزم التامّ على كونه باطلاً، فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنّه ليس بحقّ كتعليقه بالمحال عنده، كما في قولك: إن كان الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة.

وفائدة تعريف الحقّ الدلالة على أنّ المعلّق به كونه حقّاً بالوجه الذي يدّعيه النبيّ ﷺ، وهو تنزيله، لا الحقّ مطلقاً، لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل، كأساطير الأولين.

روي أنّ معاوية قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملّكوا عليهم المرأة !! قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله حين دعاهم إلى الحقّ: «إن كان هذا هو الحقّ فأمطر علينا حجارة» ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحقّ فأمطر علينا حجارة» ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحقّ فأمطر علينا حجارة»

وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَعَذَّبِهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذَّبِهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفُرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذَّبُهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجَدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوَاْ أَوْلِيَآءُهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُنَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يُعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

ثمّ ذكر سبحانه سبب إمهالهم، وموجب التوقّف في إجابة دعائهم، مع فرط

عنادهم وشقاهم، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبُهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ اللّام لتأكيد النفي، والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي الشيخ بين أظهرهم خارج عن عادة الله تعالى، غير مستقيم في قضائه، لفضله وحرمته، قال ابن عبّاس: إنّ الله تعالى لم يعذّب قومه حتى أخرجوه من مكة. وكذا لا يعذّبهم حين الاستغفار عن الذنوب، لقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَنَّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفُرُونَ ﴾ .

والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين بعد خروجه ﷺ عن مكّة، كما روي أنّ النبي ﷺ لمّا خرج من مكّة بقيت فيها بقيّة من المؤمنين، ولم يهاجروا لعذر، وكانوا على عزم الهجرة، فرفع الله العذاب عن مشركي مكّة لحرمة استغفارهم، فلمّا خرجوا أذن الله في فتح مكّة.

وهذا منقول عن ابن عبّاس وعطيّة والضحّاك. واختاره الجبائي.

وقيل: معناه: وما كان الله ليعذّبهم بعذاب الاستئصال في الدنيا وهم يقولون: اللّهم غفرانك، وإنّما يعذّبهم في الآخرة. أو العراد فرض الاستغفار على معنى: لو الستغفروا لم يعذّبوا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْـقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَاهْلُهَا مُضْلِحُونَ﴾ (١) أي: لو أصلحوا.

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَما يمنع تعذيبهم متى لم تكن فيهم، ولم يسمكن الاستغفار؟ وكيف لا يعذّبون ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ﴾ ؟ وحالهم صدّ الناس عنه، ومن صدّهم عنه إلجاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة، وإحصارهم عام الحديبية. روي أنّهم قالوا: نحن ولاة البيت والحرم، فنصد من نشاء، وندخل من نشاء.

﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَآءَ ﴾ أي: مستحقين ولاية أمره مع شركهم ﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ من الشرك، الذين لا يعبدون فيه غير الله تحالى. أو إلّا المتقون من

⁽١) هود: ١١٧.

المسلمين، فليس كلّ مسلم أيضاً منن يصلح لأن يلي أمره، بل إنّما يستأهل ولايته من كان برّاً تقيّاً، فكيف بالكفرة وعبدة الأصنام؟

﴿ وَلَكِنَّ **أَعْثَرَهُمْ لَا يَطْلَمُونَ﴾** أن لا ولاية لهم عليه. كأنّه استثنى من كان يعلم ويعاند لطلب الرئاسة. أو أراد بالأكثر الجميع، كما يراد بالقلّة العدم.

وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَآءٌ وَتَصْدِيَةً فَدُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكُفُرُونَ ﴿٣٥﴾

روي أنهم كانوا يطوفون عراة ، الرجال والنساء ، مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفّقون ، فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ﴾ أي: دعاؤهم ، أو ما يستونه صلاة ، أو ما يضعون موضعها ﴿ إِلاَّ مُكَانَهُ ﴾ صفيراً ، من : مكا يمكو إذا صفر ﴿ وَتَصْدِينَهُ ﴾ تصفيقاً . وهو ضرب البد على البد. تفعلة من الصدى ، أو من : صدّ يصدّ ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (١) أي: يصيحون ، على إبدال أحد حرفى التضعيف بالياء .

واعلم أنَّ مساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب، أو عدم ولايتهم للمسجد. فإنها لا تليق ممّن هذه صلاته.

⁽١) الزخرف: ٥٧ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفقُونَ أَمُوالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفقُوهَا ثُمَّ لَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالّذِينَ كَفَرُواً إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لَيُميزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِن الطَّيْبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

روي أنّ أبا سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش، وهم فرق مختلفون من قبائل شتّى، ومنه يقال: عندي أحبوش منهم، أي: جماعة منهم، سوى من استجاش (١) من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية، والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً، أو استأجرهم لأصحاب العير، فإنّه لمّا أصيب قريش ببدر قيل لهم: أعينوا بهذا المال على حرب محمد ﷺ، لعلنا ندرك منه تأرنا، ففعلوا، فنزلت: ﴿إِنَّ الدِّينَ كَفُرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالْهُمْ﴾ في قتال رسول الله ﷺ والسؤمنين ﴿لِيصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ ليمنعوا بذلك الناس عن دين الله ألذي أتى به محمد ﷺ.

وقيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا إثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كلَّ واحد منهم كلَّ يوم عشر جزر (٢٠). وغرضهم في هذا الإنفاق الصدَّ عـن اتّباع محمّد، وهو سبيل الله.

وإنّما قال: ليصدّوا، وإن كانوا لم يقصدوا ذلك. من حيث لم يعلموا أنّ ذلك دين الله. لأنّ فعلهم ذلك كان صدّاً عن دين الله وإن لم يقصدوا ذلك.

﴿ فَسَيْنَفِقُونَهَا ﴾ بتمامها. ويحتمل أن يكون الأُوّل إخباراً عن إنفاقهم في تلك الحال، وهو إنفاق يوم بدر، والثاني إخباراً عن إنفاقهم فيما يستقبل. وهو الإنفاق في يوم أحد. أو يراد بهما واحد، على أنّ مساق الأوّل لبيان غرض الإنفاق.

⁽١) أي: جمع الجيش منهم.

⁽٢) الجُزُرُ جمع الجزور ، وهو من الابل يقع على الذكر والأنثى . ـ

ومساق الثاني لبيان عاقبته، وأنَّه لم يقع بعد.

﴿ ثُمُّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةُ ﴾ ندماً وغمّاً. لفواتها من غير مقصود. وجعل ذاتها حسرة _ وهي عاقبة إنفاقها _ مبالغة. ﴿ ثُمَّ يُغْلَيُونَ ﴾ آخر الأمر، وإن كان الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالاً قبل ذلك، أي: مرّة تكون لهم ومرّة عليهم.

وفي هذا دلالة على صحّة نبوّة النبيّ. لأنّه أخبر بالشيء قبل كونه. فوجد على ما أخبر به.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ثبتوا على الكفر منهم، إذ أسلم بعضهم ﴿ إلى جَـهَٰذُهُ يُخشَئُرُونَ﴾ يساقون.

﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: الفريق الخبيث ـ وهم الكافرون ـ من الفريق الطبيب. وهم المؤمنون. أو يميز الفساد من الصلاح. واللام متعلَّقة ب«يحشرون» أو «يغلبون»، أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله منا أنفقه المسلمون في نصرته. وحيناذٍ اللام متعلَّقة بقوله: «ثمّ تكون عليهم حسرة».

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: ليميّز من التمييز. وهو أبلغ من الميز.

﴿ وَيَجْعَلَ الْخَبِيتَ ﴾ ويجعل الفريق الخبيث من الكفّار ﴿ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْض فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً ﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكبوا، لفرط ازدحامهم، أُو يضمّ إلى الكافر ما أنفقه، ليزيد به عذابه، ليعاقبهم به، كما قال: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمُ ﴾ (١) الآية. ﴿ فَيَجْعَلَهُ ﴾ كلّه ﴿ فِي جَهَنَّمُ أَوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى الخبيث، لأنّه مقدّر بالفريق الخبيث، أو إلى المنفقين ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون في الخسرا، لأنّهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواۚ إِن يَنتُهُواْ يُغَفَّرُ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فَنْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلُّهُ

⁽١) التوبة: ٣٥.

لِلهِ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلُّواْ فَاعْلَمُواَّ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمُ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ التَصِيرُ ﴿٤٠﴾

ثمَ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بدعائهم إلى التوبة والإيمان، فقال: ﴿قُلْ لِللَّذِينَ
كَفُرُوا﴾ يعني: أبا سفيان وأصحابه. والمعنى: قل لأجلهم، لقوله: ﴿إِنْ يَنتَهُوا﴾ على
صيغة الغائب، أي: ينتهوا عن معاداة الرسول بالدخول في الإسلام ﴿ يُفْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ
سَلْفَ﴾ من الشرك وعداوة الرسول وسائر ذنوبهم. ومنه قوله ﷺ: «الاسلام يجبّ
ما قبله».

﴿ وَإِن يَعُودُوا﴾ إلى قتاله ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوْلِينَ﴾ الَّذين تـحزَّبوا عـلى الأنبياء بالتدمير ، كما جرى على أهل بدر ، فليتوقّعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا.

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ مَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتَنَةً﴾ لا يوجد فيهم شرك ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ شِهِ ﴾ ويضمحلٌ كلّ دين، ويبقى دين الإسلام وحده.

عن الصادق ﴿ أَنَّه قال: «لم يجىء تأويل هذه الآية، ولو قد قام قائمنا بعد سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمّد ﷺ ما بلغ الليل، حتّى لا يكون مشرك على ظهر الأرض».

﴿ فَإِن انتَهَوْ ا ﴾ عن الكفر ﴿ فَإِنَّ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنى التهائهم عنه وإسلامهم. وعن يعقوب: تعملون بالتاء، على معنى: فإنَّ الله بما تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير، فيجازيكم عليه أحسن الجزاء. ويكون تعليقه بانتهائهم دلالة على أنَّه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة، يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبّب.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ وإن لم ينتهوا ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ ناصركم فنقوا بولاية الله ونصرته، ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ فِعْمَ الْمَوْلَيْ ﴾ لا يضيع من تولّاه ﴿ وَفِيعْمَ النَّصِيرُ ﴾ لا يغلب من نصره.

وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنْمْتُم مَن شَيْء فَأَنَّ لَله خُمُسَهُ وَللرَّسُولِ وَلذي الْقُرْبَى وَالْيَنَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبيلِ إِن كُنتُمُ آمَنتُمُ بِاللَّهِ وَمَاۤ أَنْزُلْنَا عَلَى عَبْدَنَا يَوْمَ الْفُزُقَانَ يَوْمَ الْنَقَى الْجَمْعَان وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُم بِالْعُدُورَة الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدُوةَ الْقَصْوَى وَالزُّكْبُ أَسْفَلَ منكُمْ وَلَوْ نَوَاعَدْتُمْ لاَخْنَلْفُتُمْ في الْسيعَاد وَلَكَن لْيَقْضَىَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لَيْهُلكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَة وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَميعٌ عَليمٌ ﴿ ٤٢﴾ إِذْ يُوبِكُهُمُ اللَّهُ في مَنَامك قَليلاً وَلَوْ أَرَاكُهُمْ كَثَيْرًا لَّفَشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكَنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إنَّهُ عَليمٌ بذَات الصُّدُور ﴿٣٦﴾ وَإِذْ يُرِيكُنُوهُمْ إِذْ الْتَقَيُّتُمْ فِي ۖ أَعْيُنكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ في أَعْيُنهُمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَلِلَى اللَّهِ تُرْجِعُ الأُمُورُ ﴿ ١٤ ﴾

وبعد الأمر بالجهاد بين ما يلحقه من حكم الغنيمة، فقال مخاطباً للمسلمين: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنْمًا غَنِفَتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ «ما» موصولة، و«من شيء» بيانه، أي: ممّا يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط، لا في الكنز والمعدن والغوص، فإنّ النصاب شرط فيه، كما صرّح به فقهاؤنا في كتبهم. فلفظ «شيء» وإن اقتضى العموم، لكن البيان من الأثمّة ﴿ عَصْمه.

والغنيمة لغة: هي الفائدة. واصطلاحاً: ما أخذ من الكفّار بقتال، وإلا فهو في ع ونفل. وهو مذهب أصحابنا والشافعي، ويروى عن الباقر والصادق ﷺ . وقيل: ٤٢...... زبدة التفاسير ـ ج ٣

إنهما بمعنى واحد.

ثم إنّ عند أصحابنا أنّ الفيء للإمام خاصة، والغنيمة يخرج منها الخمس. كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَنَّ بِشِحْمُسُهُ ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي: فثابت أنّ لله خمسه ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِمِذِي المُقْرَبَيٰ ﴾ وهذه الأسهم الشلاثة اليوم للإسام القائم مقام الرسول الله ﴿ وَالنّيْتَاهِي وَالْمُسَاكِينِ وَابْنِ السَّيِيلِ ﴾ أي: ليتامى آل محمد الله ومساكينهم وأبناء سبيلهم، لا يشركهم في ذلك غيرهم، لأنّ الله سبحانه حرّم عليهم الصدقة، لكونها أوساخ الناس، وعوضهم عن ذلك الخمس. وروى ذلك الطبري (١٠) عن علي بن الحسين زين العابدين ومحمد بن على الباقر.

وعن أبي عبدالله بهي أيضاً أنّه قال: «لمّا حرّم الله علينا الصدقة أنـزل لنـا الخمس، فالصدقة علينا حرام، والخمس لنا حلال».

ورووا عن أمير المؤمنين ﷺ أنّه قيل له: «إنّ الله تعالى قال: «واليتامى والمساكين» فقال: أيتامنا ومساكيننا» (٢٠). فثلاثة أسهم أخر للطوائف المذكورين من بني هاشم.

واعلم أيدك الله تعالى أنّ علماء الجمهور على أنّ اسم الله هنا للتبرّك. وأنّ المراد قسم الخمس على الخمسة المذكورين في الآية في حياة الرسول ﷺ، وأنّ المراد بذي القربى هم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل، لقوله ﷺ؛ «إنّ بني المطلب ما فارقونا في جاهليّة ولا إسلام، وبنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبك بين أصابعه». وأن الثلاثة الباقية في باقي المسلمين.

وأمّا بعد حياة الرسول ﷺ فقال مالك: الأمر فيه إلى الإمام، يصرفه إلى ما يراه أهمّ من وجوه القرب.

⁽١) راجع تفسير الطبري ج١٠: ٧.

⁽٢) رواه في الكشّاف ٢: ٢٢٢.

وقال أبو حنيفة: يسقط سهمه ﷺ وسهم ذوي القربي، وصار الكلّ مصروفاً إلى الثلاثة الباقية من المسلمين.

وقال الشافعي: إنَّ سهم الرسول ﷺ يصرف إلى ما كان يصرفه الرسول ﷺ إليه من مصالح المسلمين. وقيل: إلى الإمام. وقيل: إلى الأقسام الأربعة.

وقال أصحابنا الإماميّة: إنّه يقسّم ستّة أقسام: ثـلاثة للـرسول ﷺ فـي حياته، وبعده للإمام القائم مقامه، وهو المعنيّ بذي القربى، والثلاثة البـاقية لمـن سـمًاهم الله من بني عبدالمطّلب خاصّة دون غيرهم.

وقولهم هو الحقّ. أمّا أوّلاً: فلأنّه لا يلزمهم مخالفة للآية الكريمة بسبب إسقاط سهم الله من البين. وكذا إسقاط سهم الرسول بعد حياته.

وأمّا ثانياً: فلما ورد من النقل الصحيح عن أثمّتنا ﷺ. وكذا نقله الخصم عن على عن الكمّناف(١).

وأمّا تالناً: فلاّتنا إذا أعطينا لفقراء ذي القربى من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل جاز بالإجماع، وبرثت الذمّة يقيناً، وإذا أعطينا غيرهم لم يجز عند الإماميّة، فكان التخصيص بذي القربى أحوط. ولفظة الآية وإن كانت أعمّ، لكن ما من عامّ إلّا وقد خصّ كما في الأصول، فهذا مخصوص بما رويناه عن أثمّة الهدى كما مرّ. على أنّا نقول لفظة الآية عام مخصوص بالاتفاق، فإنّ ذا القربى مخصوص ببني هاشم، واليتامى والمساكين وابن السبيل عامّ في المشرك والذمّي وغيرهم، مع أنّه مخصوص بمن ليس كذلك.

قال السيد(٢) ين : كون ذي القربي مفرداً يدلُّ على أنَّه الاسام القائم مقام

⁽١) الكشّاف ٢: ٢٢٢.

⁽٢) الانتصار: ٨٧.

النبيِّ ﷺ ، إذ لو أراد الجمع لقال: ذوي القربي.

وفيه نظر، لجواز إرادة الجنس.

قوله: إذ لو كان المراد جميع قرابات بني هاشم، لزم أن يكون ما عطف عليه ـ أعني: البتامي والمساكين وابن السبيل ـ من غيرهم لا منهم، لأنَّ العطف يقتضي المغايرة.

وأجيب بجواز عطف الخاصّ على العامّ. لمزيد فائدة ووفور عناية. فالأولى حينئذٍ الاعتماد في هذه المحتملات على بيانه ﷺ ، وبيان الأثمّة بعده.

وفي الآية المذكورة من التوكيد ما ليس في غيرها، فإنّه صدّرها بالأمر بالعلم، أي: تحقّق عندكم ذلك حتّى إنّه لم يرد لها ناسخ اتفاقاً. ثمّ أتمى ب«أنّ» المؤكّدة في موضعين. ثمّ قال: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله ﴾ وهو متعلّق بمحذوف دلّ عليه «واعلموا» أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنّه جعل الخمس لهؤلاء، فسلّموه إليهم، واقطعوا عنه أطماعكم، واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، فإنّ العلم للعمل، فإذا أمر به لم يرد منه العلم المجرّد، لأنّه مقصود بالعرض، والمقصود بالذات هو العمل.

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ معطوف على «بالله» أي: إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل على عبدنا من الآيات والملائكة والنصرة ﴿ يَوْمَ الْفُوْقَانِ ﴾ يوم بدر، فإنّه فرّق فيه بين الحقّ والباطل ﴿ يَوْمَ الْتَقَىٰ الْمُهْعَانِ ﴾ المسلمون والكفّار، بدل منه ﴿ وَاللهُ عَلَىٰ كُلُ شَعْعٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير، والإمداد بالملائكة.

عن الكلبي: أنّها نزلت ببدر. وقال الواقدي: نزل الخمس في غزوة بـني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيّام، للنصف من شوّال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة.

﴿إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدُوّةِ الدُّنْمَا﴾ من المدينة. وهو بدل ثانٍ من «يبوم الفرقان».

سورة الأنفال، آية ٤١ ــ ٤٤ ٥٤

والعدوة بالحركات الثلاث شطّ الوادي. والمشهور الضمّ والكسر. وهو قـراءة ابـن كثير وأبي عمرو ويعقوب.

﴿ وَهُمْ بِالْعُدُوةِ الْقُصْوَى ﴾ البعدى من المدينة. تأنيث الأقصى. وكان قياسه قلب الواو ياءً، كالدنيا والعليا، تفرقة بين الاسم والصفة، فجاء على الأصل شاذاً كالقود، وهو أكثر استعمالاً من القصيا، كما كثر استعمال «استَصْوَب» مع مجيء «استصاب» و«أغْيَلَت» مع «أغالت»(١٠).

﴿ وَالرَّحْبُ ﴾ أي: العير أو قوّادها ﴿ أَسْفُلَ مِنْحُمُ ﴾ في مكان أسفل من مكانكم، يعني: الساحل. قال الكلبي: كانوا على شطَّ البحر بثلاثة أميال. وهـو منصوب على الظرف، واقع موقع خبر المبتدأ، والجملة حال من الظرف قبله.

والفائدة في ذكر هذه المراكز الإخبار عن الحال الدالّة على قوّة المشركين وشوكتهم، وتكامل عدّتهم، وضعف المسلمين، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلّا بأمر إلهي، لم يتيسّر إلّا بحوله وقوّته، وذلك أنّ العدوة القصوى الّتي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، والعدوة الدنيا رخوة تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلّا بتعب ومشقّة، وما كان فيها ماء، وكانت العير وراء ظهور العدوّ، مع كثرة عددهم، وفرط حمايتهم وحميتهم، وغاية جهدهم في أن لا يبرحوا بهم إلى مكّة.

وأيضاً لمثل هذه الفائدة قال: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدُتُمْ ﴾ أي: لو تواعدتم أنتم وهـم القتال، ثمّ علمتم حالهم وحالكم ﴿ لَا شَتَلَفَتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ أي: لشبّطكم قـلّتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد. هيبة منهم، ويأساً من الظفر عليهم. لتتحقّقوا أنّ مـا اتّفق لكم من الفتح ليس إلّا صنعاً من الله تعالى خـارقاً للـعادة، فـتزدادوا إيـماناً وشكراً.

﴿ وَلَكِنْ ﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد، بل حين وعدكم إحدى

⁽١) أغالَت أو أغْيَلَت المرأةُ ولدَها: أرضعته وهي حامل.

الطانفتين مبهمة غير مبيّنة، حتّى خرجتم لتأخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص (١) بقريش مخوّفين ممّا بلغهم من تعرّض رسول الله الله الله الموالهم، حتّى نفروا ليمنعوا عيرهم، وسبّب الأسباب حتّى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى، ووراءهم العير يحامون عليها، حتّى قامت الحرب على ساق وكان ما كان.

﴿ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ﴾ أي: حقيقاً بأن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه.

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ ﴾ بدل منه، أو متعلَّق بـقوله: «مفعولاً». والمعنى: ليموت من يموت عن بيّنة عاينها ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيُّ عَن بَيْنَةٍ ﴾ ويعيش من يعيش عن حجّة شاهدها، لئلا يكون له حجّة ومعذرة، فإنَّ وقعة بدر من الآيات الواضحة والمعجزات الباهرة للنبي ﷺ.

أو المعنى: ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بيّنة وقيام حجّة عليه. ويصدر إسلام من أسلم عن يقين وعلم بأنّه الدين الحقّ الذي يجب التمسّك به. فالهلاك والحياة مستعارتان للكفر والاسلام. والمعنيّ ب«من هلك» و«من حيّ» المشارف للهلاك الأبدي والحياة السرمدي.

وقرأ ابن كثير برواية البرِّي ونافع وأبو بكر ويعقوب: من حيي بفكّ الإدغام. للحمل على المستقبل.

﴿ وَإِنَّ اللهُ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوال من كفر وآمن ﴿ عَلَيمٌ ﴾ بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه. فالجمع بـين الوصفين لاشــتمال الأمــرين عــلى القــول والاعتقاد.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ مقدّر براذكر». أو بدل ثانٍ من ريوم

⁽١) في هامش النسخة الخطّية: «شخص به إذا أخرجه. منه».

الفرقان». أو متعلَق برهمليم». أي: يعلم المصالح، إذ يقلّلهم في عينك في رؤياك. وذلك أنّ الله سبحانه أراه إيّاهم في رؤياه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه. فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدرّهم.

﴿ وَلَوْ أَرَاكُهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ ﴾ لجبنتم ﴿ وَلَقَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ أمر القتال. وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَمْ ﴾ أنعم بالسلامة من الفسل والتنازع ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ ﴾ يعلم ما سيكون وما يغيّر أحوالها، من الجرأة والجبن والصبر والجزع.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولا «يري» ﴿إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُرْتُمُ قَلِيلاً﴾ حال من المفعول الثاني. وإنّما قلّلهم في أعين المسلمين لا غير، لما روي عن ابن مسعود أنّه قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ فقال: أتراهم مائة؟ تصديقاً لرؤيا رسول الله وتثبيتاً لهم.

﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي اعْيَيْنِهِمْ﴾ حتّى قال أبو جهل: إنّ محمداً وأصحابه أكلة جزور. وروي أيضاً أنّه كان يقول: خذوهم بالأيدي أخذاً. ولا تقاتلوهم.

وإنّما قلّلهم في أعينهم قبل القتال ليجترؤا عليهم، ولا يستمدّوا لهم بعد اللقاء، ثم كثّرهم حتّى يرونهم مثليهم، لتفجأهم الكثرة فتبهتهم، وتكسر قلوبهم، وتفلّ^(۱) شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم. وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة، فإنّ البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحدّ، وإنّما يتصوّر ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض، مع التساوى في شروط الرؤية.

﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَقْفُولاً﴾ كرّره لاختلاف السعلّل بله. أو لأنّ السراد بالأمر ثَمَّ الاكتفاء على الوجه المحكي، وهاهنا إعزاز الاسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه. ﴿ وَإِلَى اللهُ تُرْجَعُ الْأَمُورُ﴾ أمور العباد، فيجازيهم على ما يستحقّرنه.

⁽١) أي: تكسر.

مَا أَنُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقيتُمْ فَنَةً فَالْثَبُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمُ تُفَلَّحُونَ ﴿ ٤٥﴾ وَأَطيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنازَعُواْ فَتَفْشُلُواْ وَتَدْهَبَ ريحُكُمُ وَاصْبُرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿ ٤٦﴾ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ من دَيارهم بَطَرًا وَرِثَآءَ النَّاس وَيَصُدُّونَ عَن سَبيل اللَّه وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحيطٌ ﴿ ٤٧﴾ وَإِذْ زَيِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ وَقَالَ لاَ غَالبَ لَكُمُ الْيَوْمَ منَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمُ فَلَمَا ۚ تَرَاءَت الْفَتَان نَكُصَ عَلَى عَقَبَيْه وَقَالَ إِنِّي بَرِيَّ ۗ مَّنكُمُ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنْيَ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَديدُ الْعَقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافَقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ لَهَٰؤُلآء دينُهُمْ وَمَن يَتَّوكَّلُ عَلَى اللَّه فَإِنَّ اللَّهَ عَزيزٌ حَكيمٌ ﴿٤١﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَوَفَى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلَآئَكَةُ يَضْرُبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلَكَ بِمَا قَدَّمَتُ أَيدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامَ لَلْمَبِيدِ ﴿ ١٥ ﴾ كَنَأْبِ آلَ فَرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَات اللَّه فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُّوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعَقَابِ ﴿ ٢٠ ﴾ ذَلَكَ بأَنَّ اللَّهَ لَمُ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيْرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَميعٌ عَليمٌ ﴿٣٠﴾ كَدَأْبِ آلَ فرْعَوْنَ وَالَّذينَ من قَبْلهمْ كَذُّبُواْ بِآنَات رَّبهمْ فَأَهْلَكُنَاهُم

بِذَنَّوْبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ٓ آلَ فِرْعَونَ وَكُلِّ كَانُواْ طَالِمِينَ ﴿ ٤٥ ﴾

ثمّ أمر سبحانه بالقتال والنبات في الحرب. فقال: ﴿ يَا لَيُهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِفَةً ﴾ أي: إذا حاربتم جماعة كافرة. ولم يصفها، لأنّ المؤمنين ما كانوا يحاربون إلّا الكفّار. واللقاء منا غلب استعماله في القتال. ﴿ فَانْبُنُوا ﴾ للقائهم، ولا تفرّوا.

﴿ وَاذْكُرُوا اللهُ كَثِيراً﴾ في مواطن القتال، مستعينين به، مستظهرين بذكره، مترقبين لنصره، داعين له على عدو كم، بأن تقولوا: اللّهمّ اخذلهم، اللّهمّ اقطع دابرهم ﴿ لَعَلَكُمْ تُقْلِحُونَ ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة.

وفيه تنبيه على أنّ العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى، وأن يلتجىء إليه عند الشدائد، ويقبل عليه بشراشره (١١) فارغ البال، واثقاً بأنّ لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه في أيّام صفّين. وفي مشاهده مع البغاة والخوارج ـ من البلاغة والبيان. ولطائف المعاني. وبليغات المواعظ والنصائح ـ دليلاً على أنّهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل وإن تفاقم الأمر.

﴿ وَالْطِيعُوا اللهَ وَرَسُولُهُ وَلا تَتَازَعُوا ﴾ لا تتنازعوا فيما بينكم باختلاف الآراء. كما فعلتم ببدر أو أحد ﴿ فَتَقْشَلُوا ﴾ فتجبنوا، وتضعفوا عن قتال عدو كم. هذا جواب النهي منصوب بإضمار «أن». ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ والربح مستعارة للدولة، شبهت في تمشّي أمرها ونفاذه بهبوب الربح ونفوذها. فقيل: هبّت رباح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره، وركدت ربحه إذا أدبر أمره.

⁽١) الشَّراثِير : النفس وجميع الجسد .

وقيل: المراد بها الحقيقة، فإنّ النصرة لا تكون إلّا بريح يبعثها الله تعالى. وفي الحديث: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ على قتال الأعداء ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالحفظ والنصر.

﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرجُوا مِن دِيَارِهِم ﴾ يعني: أهل مكّة حين خرجوا منها لحماية العير ﴿ بَعَلَوا ﴾ للبطر والطرب والفخر، أو بطرين طربين متفاخرين ﴿ وَرِئاة النّاسِ ﴾ ليتنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنّهم لمّا بلغوا الجحفة وإفاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم. فقال أبو جهل: لا والله حتّى نقدم بدراً، ونشرب بها الخمور، وتعزف علينا القيان (١١، وتطعم بها من حضرنا من العرب. فوافوها فسقوا كأس المنايا، وناحت عليهم النوائح مكان غناء القيان. فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص، من حيث إنّ النهي عن الشيء أمر بضدة.

﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ ويمنعون غيرهم ﴿ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ معطوف على «بطراً» إن جعل مصدراً في موضع الحال. وكذا إن جعل مفعولاً له، لكن على تأويل المصدر. ﴿ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُجِيعً ﴾ عالم بأعمالكم، فيجازيكم على وفقها.

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْمَانُ ﴾ أي: اذكر وقت تزيين الشيطان ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ في معاداة الرسول وغيرها ﴿ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْنَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴾ لا يغلبكم أحد سن الناس ، لكثرة عددكم وقوّتكم . و «لكم » خبر «لا غالب» أو صفته ، تقديره : لا غالب كائن لكم . وليس مفعوله ، وإلّا لانتصب ، فقيل : لا غالباً لكم ، بمعنى : لا غالباً إيّاكم ، كقولك : لا ضارباً زيداً عندنا .

﴿ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ أي: ناصركم ودافع عنكم السوء. وهذه وسوسة نفسائية. والمعنى: أنّه ألقى في خاطرهم وخيّل إليهم أنّهم لا يخلبون ولا يبطاقون، لكشرة

⁽١) القيان جمع القَيْنَة ، وهي المغنّية .

عددهم وعُددهم، وأوهمهم أنّ اتّباعهم إيّاه فيما يظنّون أنّها قربات مجير لهم، حتّى قالوا: اللّهمّ انصر أهدى الفتتين، وأفضل الدينين، كما ذكر.

﴿ فَلَمَّا تَرْآءَتِ الْفِلْتَانِ﴾ أي: تلاقى الفريقان ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴿ رَجِعِ القَهقرى، أي: بطل كيده، وعاد ما خيّل إليهم أنّه مجيرهم سبب هلاكهم ﴿ وَقَالَ إِنّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ من إمداد الملائكة للمسلمين ﴿ إِنّي أَخَافُ الله ﴾ أخاف عذاب الله على أيدي من أراهم. يعني: تبرّأ منهم، وخاف عليهم، وأيس من حالهم، لنّا رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة.

قيل: لمّا اجتمعت قريش على المسير ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب، وكاد ذلك يتبّطهم، فتمثّل لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك بن جـعشم الشاعر الكناني _ وكان من أشرافهم _ في جند من الشياطين معه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم، وإنّى مجيركم من بنى كنانة، فلمّا رأى الملائكة تنزل نكص.

وروي: كانت يده في يد الحارث بن هشام. فلمّا نكص قال له الحارث: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال؟ قال: إنِّي أرى ما لا ترون. ودفع في صدر الحارث وانطلق. وانهزموا، فلمّا بلغوا مكّة قالوا: هزم الناس سراقة. فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتَّى بلغتني هزيمتكم. فلمّا أسلموا علموا أنّه الشيطان.

وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله ﷺ. ونقل عن الكلبي. وهـذا هــو المشهور بين المفسّرين.

وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: «إنّي أخاف الله» أنّي أخافه أن يصيبني مكروها من الملائكة، أو يهلكني. ويكون الوقت في قوله: ﴿إِلَىٰ يَـوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (١) هذا الوقت الموعود، إذ رأى فيه ما لم ير قبله، فإنّ الملائكة لا ينزلون إلّا لقيام الساعة أو للمذاب. والأوّل قول الحسن، واختيار ابن بحر.

⁽١) الحجر: ٣٨.

وفي الحديث: «ما رؤي إبليس يوماً اصغر ولا أدحر ولا أغيظ مـن يــوم عرفة. لما راى من نزول الرحمة. إلاّ ما رؤي يوم بدر».

﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون من كلامه، وأن يكون مستأنفاً.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَالَّذِينَ قِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ واللذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد، وبقي في قلوبهم شكّ وشبهة في الاسلام، وقيل: هم المشركون، وقيل: المنافقون، والعطف لتغاير الوصفين.

﴿ غَرَّ هَوُلَامِ﴾ يعنون المؤمنين ﴿ بِينَهُمَ ﴾ أي: اغترّوا بدينهم، وأنّهم ينصرون من أجله، حتّى تعرّضوا لما لا يديّ^(١) لهم به. فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف.

ثمّ قال جواباً لهم: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ ﴾ في أموره ﴿ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يذلُ من استجار به وإن قلّ، فيسلّط القليل الضعيف على الكثير القويّ. ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

﴿ وَلَوْ تَزَىٰ﴾ ولو رأيت، فإنّ «لو» تجعل المضارع ماضياً عكس «إن» ﴿إِذْ يَتَوَفّى الَّذِينَ كَفُرُوا الْمَاكَثِكَةُ ﴾ ببدر. و«إذ» ظرف «ترى» والمفعول محذوف، أي: ولو ترى الكفرة أو حالهم حيئندٍ. و «الملائكة» فاعل «يتوفّى». ويدلّ عليه قراءة ابن عامر بالتاء.

ويجوز أن يكون الفاعل ضميراً لله ، وقوله: «الملائكة» مبتدأ خبره: ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ والجملة حال من «الذين كفروا» واستغني فيه بالضمير عن الواو. وهو على الأوّل حال منهم، أو من الملائكة، أو منهما، لاشتماله على الضيرين.

⁽١) يُدِيُّ ويَدِيُّ جمع اليد، وجمع الجمع الأيادي، يقال: لا يدين لك بـهذا، أي: لا فـوّة ولا طاقة لك به.

﴿ وَالنَّبَارَهُمُ ﴾ ظهورهم أو أستاههم. وقيل: المراد تـعميم الضـرب. أي: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر.

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ عطف على «يضربون» بإضمار القول. أي: ويقولون: ذوقوا، بشارة لهم بعذاب الآخرة. وقيل: كانت مع الملائكة مقامع من حديد كلّما ضربوا التهبت النار منها في جراحاتهم. وجواب «لو» محذوف، لتفظيع الأمر وتهويله، تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً منكراً.

﴿ ذَلِكَ ﴾ الضرب والعذاب ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي. وهو خبر ا«ذلك». ﴿ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ عطف عليه، أي: ذلك العذاب بسببين: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأن الله يعذب الكقار بالعدل، لأنّه لا يظلم عباده في عقوبتهم، وقد بالغ في نفي الظلم عن نفسه بقوله: «ظلّام» فإنّه صيغة المبالغة. أو تكثير الظلم لأجل كثرة العبيد. أو لأنّ العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذّب بمثله ظلّاماً بليغ الظلم متفاقمه.

وقوله: ﴿ كَتَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ مرفوع المحلّ بالخبر، تقديره: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وطريقهم الّذي دأبوا فيه ، أي: دامو! عليه. ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَتْلُهِمْ ﴾ من قبل آل فرعون.

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ تفسير لدأبهم ﴿ فَاخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿ إِنَّ اللهَ قَوْئُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما حلّ بهم، أي: ذلك العذاب ﴿ بِإِنَّ اللهَ ﴾ بسبب أنّ الله ﴿ لَمْ يَكُ مُغَيِّرُ بِغَمْهُ أَنْعَمَهُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ مبدّلاً إياها بالنقمة ﴿ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِهم من الحال إلى حال بانفسهِمْ ﴾ أي: لا يصحّ ذلك في حكمته حتّى يبدّلوا ما بهم من الحال إلى حال أسواً ، كتغيير قريش حالهم في صلة الرحم والكفّ عن تعرّض الآيات والرسل بمعاداة الرسول ومن تبعه منهم، والسعى في إراقة دمائهم، والتكذيب بالآيات

٥٤..... زيدة التفاسير ـ ج ٣

والاستهزاء بها، إلى غير ذلك ممّا أحدثوه بعد البعث.

وعن السدّي: النعمة محمدﷺ، أنعم الله بـه عــلى قــريش، فكــفروا بــه وكذّبوه، فنقله إلى الأنصار.

وهذا من جري عادة الله تعالى، فإن عادته سبحانه جارية على تغيير نعمته متى غير العبد أعماله بأسوأ منه، فإنّه كما تغير الحال العرضيّة إلى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها. فكفرة قريش كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلمّا بعث إليهم النبيّ بالآيات البيّنات، فكذّبوه وعادوه، وتحرّبوا عليه ساعين في اراقة دمه، غيروا حالهم إلى أسوأ ممّا كانت، فغير الله ما أنعم به عليهم من إمهالهم، وعاجلهم بالعذاب.

وأصل «يك» يكون، فحذفت الحركة للجزم، ثمّ الواو لالتقاء الساكنين، ثمّ النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفًا. مع أنّ كثرة الاستعمال أيضاً مقتضية للتخفيف. ﴿ وَأَنَّ اللهُ سَمِعةٌ ﴾ لما يقول مكذّبوا الرسل ﴿ عَلَيمٌ ﴾ بما يفعلون.

وقوله: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالنَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَاهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَاغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ تكرير للتأكيد، ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: «بآيات ربّهم»، وبيان ماأخذ به آل فرعون.

وقيل: الأوّل لتشبيه الكفر والأخذ به، والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم.

﴿ وَكُلُّ ﴾ من الفرق المكذّبة. أو من غرقى القبط وقـتلى قـريش ﴿ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، فلم يعاقبوا إلّا عن استحقاق.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ثمّ ذمّ الله سبحانه الكفّار، فقال: ﴿إِنْ شَوْ الدَّوَابُ عِنْدُ اللهِ ﴾ إنّ شرّ من يدبّ على وجه الأرض في معلوم الله أو في حكمه ﴿الَّذِينَ كَفُرُوا﴾ أصرّوا على الكفر ورسخوا فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإصرارهم على الكفر، ولجاجهم وعنادهم فيه، فلا يتوقّع منهم إيمان، وهم قوم مطبوعون على الكفر بأنّهم لا يؤمنون. وذكر الفاء العاطفة للتنبيه على أنّ تحقّق المعطوف عليه مستدع لتحقق المعطوف.

وقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ بدل من «الذين كفروا» بدل البعض، للبيان والتخصيص. وهم بنو قريظة، عاهدهم رسول الله ﷺ على أن لا يمالئوا عليه عدواً فنكثوا، بأن أعانوا مشركي مكّة بالسلاح، وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثمّ عاهدهم فنكثوا ومالأوا عليه الأحزاب يـوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكّة فحالفهم.

و«من» لتضمين المعاهدة معنى الأخذ. والمراد بالمرّة مرّة المعاهدة أو مـرّة المحاربة، أي: كلّما عاهدتم نقضوا المهد ولم يفوا به. وجعلهم الله شرّ الدواب، لأنّ شرّ الناس الكفّار، وشرّ الكفّار المصرّون منهم، وشرّ المصرّين الّذين ينقضون العهد.

﴿ وَهُمْ لَا يَتَقُونَ ﴾ لا يخافون عاقبة الغدر وتبعته، ولا يبالون ما فيه من العار والنار، أو نصر الله للمؤمنين وتسليطه إيّاهم عليهم.

فَامِّنَا تَشْقَفَتُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدُ بِهِم مَّنُ خَلْفَهُمُ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿ ٧٥ ﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذُ الِْيَهِمْ عَلَى سَوَآءٍ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُ الحَاتَنينَ ﴿ ٨٥ ﴾

ثمّ حكم سبحانه في هؤلاء الناقضين للعهود، فقال لنبيّه عليه وفَامًا

تَتَقَفَنَهُمْ ﴾ فإمّا تصادفتهم وتظفرن بهم ﴿ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدْ مِهِمْ ﴾ ففرق عن محاربتك ومناصبتك يقتلهم والنكاية فيهم ﴿ مَنْ خَلَفَهُمْ ﴾ من وراءهم من الكفرة. والتشريد تفريق على اضطراب. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكُونَ ﴾ لعلّ المشرّدين يتّعظون، فلا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتباراً بهم، واتعاظاً بحالهم.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنُ مِنْ قَوْمٍ ﴾ معاهدين ﴿ خِيَانَهُ ﴾ نقض عهد بأمارات تبلوح لك ﴿ فَانْبِذَ إِلَيْهِمْ ﴾ فاطرح إليهم عهدهم ﴿ عَلَى سَوْاَءٍ ﴾ على طريق مقتصد مستو في العداوة، وذلك بأن تخبرهم بنبذ العهد إخباراً ظاهراً مبيناً لهم أنّك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تبدأهم بالقتال وهم على توهم بقاء العهد، فيكون ذلك خيانة منك، أو على سواء في الخوف، أو العلم بنقض العهد. وهو في موضع الحال من النابذ على الوجه الأوّل، أي: ثابتاً على طريق سويّ، أو من المنبوذ إليهم، أو منهما على غيره، أى: حاصلين على استواء في الخوف أو العلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهُ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبذ، والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال، على طريقة الاستثناف. والمعنى: فلا تخنهم، بأن تناجزهم القتال من غير إعلامهم بالنبذ.

قال الواقدي: هذه الآية نزلت في بني فينقاع، وبهذه الآية سار النبئ ﷺ إليهم.

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا السُّطَعْتُم مِّن قُوَةً وَمِن رَبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تَنفقُواْ مِن شَيْءٌ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَتَّمُ لاَ تُظْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِن جَنحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْتَحُ لَهَا وَتَوَكَّلُ عَلَى اللّهِ إِنّهُ إِلَّهُ إِلَيْكُمْ

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ٦١﴾ وَإِن يُرِيدُواَ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٦٢﴾ وَأَلْفَ بَئِنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَقْتَ بَئِنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهُ أَلْفَ بَئِنَهُمْ إِنّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ ٦٢﴾

ولمّا تقدّم الأمر بقتال الكفّار، عقبه سبحانه بوعد النصر والأمر بالإعداد لقتالهم، فقال مخاطباً لنبيّه ﷺ : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ اللَّهِينَ كَفُرُوا سَبَقُوا ﴾ مفعولا «يحسبنّ»، أي: لا تحسبن يا محمّد الكافرين قد سبقوا أمر الله وأعجزوه، وأنهم فاتوك، فإنّ الله تعالى يظفرك بهم كما وعدك، ويظهرك عليهم. والسبق والفوت بمعنى واحد.

وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص بالياء، على أنّ الفاعل ضمير أحد، أو «من خلفهم»، أو «الّذين كفروا» والمفعول الأوّل أنفسهم، فحذف للتكرار.

وقيل فيه: أصله أن سبقوا. وهو ضعيف، لأنَّ «أن» المصدريّة كالموصول. فلا تحذف.

وقيل: وقع الفعل على ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْجِزُونَ﴾ بالفتح على قراءة ابن عامر ، وأنّ «لا»(١) صلة ، و«سبقوا» حال ، بمعنى: سابقين أو مفلتين .

والأظهر أنّه تعليل للنهي، أي: لا تحسبتُهم سبقوا فأفلتوا، لأنّهم لا يفوتون الله، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم. وكذا إن كسرت «إنّ» إلاّ أنّه تعليل على سبيل الاستئناف. ولعلّ الآية إزاحة لما يحذر به من نبذ العهد وإيقاظ العدوّ. وعن الزهري أنّها نزلت فيمن أفلت من فلّ المشركين.

⁽١) أي: زائدة، فيكون المعنى: ولا يحسبنّ الذين كفروا أنهم يعجزون.

﴿ وَأَعِدُوا ﴾ أَيِّهَا المؤمنون ﴿ لَهُمْ ﴾ لناقضي العهد أو الكفّار ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوّٰةٍ ﴾ من كلّ ما يتقوى به في الحرب، من العدد وسائر آلات الحرب.

وعن عقبة بن عامر سمعته ﷺ يقول على المنبر: «ألا إنّ القوّة الرمي. قالها ثلاثاً». ومات عقبة عن سبعين قوساً في سبيل الله. ولعلّه ﷺ خصّه بالذكر لاتّه أقواه.

﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَدِلِ﴾ اسم للخيل التي تربط في سبيل الله. فعال بمعنى مفعول، أومصدر ستي به. يقال: ربط ربطأ ورباطأ، ورابط مرابطة ورباطأ، أو جمع ربيط، كفصيل وفصال. وعطفها على «قوّة» إذا فسّرت بكلّ ما يتقوّى به، كمعطف جبر ئيل، وميكائيل على الملائكة.

وجاء في الحديث: «أنّ الشيطان لا يقرب صاحب فرس، ولا داراً فيها فرس عتيق». وروي: «أنّ صهيل الخيل يرهب الجنّ».

﴿ تُزْهِبُونَ بِهِ ﴾ تخوفون به. وعن يعقوب: ترهبون بالتشديد. والضمير الاما استطعتم» أو للإعداد ﴿ عَدُو الله وَ عَدُوتُكُمْ ﴾ كفار مكّة ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ وَترهبون كفّاراً آخرين من غيرهم من الكفرة. قيل: هم اليهود. وقيل: المنافقون. وقيل: الفرس. وقيل: كفرة الجسن. ﴿ لاَ تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ الله يَعْلَمُونَهُمْ ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ الله يَعْلَمُونَهُمْ ﴾ يعرفهم، لأنّه المطّلع على الأسرار.

﴿ وَمَا تُنقِقُوا مِن شَنِيمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ في الجهاد ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ يوفّر عليكم ثوابه ﴿ وَانتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب.

﴿ وَإِن جَنْحُوا لِلسَّلْمِ ﴾ وإن مالوا للصلح أو الاستسلام، ومنه الجناح. وقد يعدّى باللام وإلى. وقرأ أبو بكر بكسر السين. ﴿ فَاجْنَحُ لَهَا ﴾ وعاهد معهم. وتأنيث الضمير لحمل السلم على نقيضها وهي الحرب، أو لأنّه بمعنى المسالمة.

﴿ وَتَوَكُّلُ عَلَى اللهِ ﴾ ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه، فإنَّ الله يعصمك من مكرهم، ويحيقه بهم. ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم ﴿ الْفَلِيمُ ﴾ بنيّاتهم.

والآية مخصوصة بأهل الكتاب، لاتصالها بقصتهم. وقيل: عامّة نسختها آية السيف (١). والأصحّ أنّها ليست بمنسوخة، لأنّها في الموادعة لأهل الكتاب، وآيــة السيف لعبّاد الأوثان.

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُونَ ﴾ في الصلح، بأن يقصدوا به دفع أصحابك عن القتال، حتى يقوى أمرهم فيبدؤوكم بالقتال بالاستعداد التام ﴿ فَإِنْ حَسْبَكَ الله تعالى وكافيك من مكرهم ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ جميعاً، ينصرونك على أعدائك، يريد الأنصار، وهم الأوس والخزرج.

﴿ وَاللَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ مع ما فيهم من العصبيّة والضغينة في أدنى شيء، والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، فإنّه لم يكن حيّان من العرب بينهما من العداوة مثل ما كان بين هذين الحيّين، فألّف الله بين قلوبهم حتّى صاروا كنفس واحدة في التحابّ والتوادّ، وهذا من معجزاته ﷺ.

وبيانه قوله: ﴿ لَوْ الْنَقْفَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا اللَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: كان تناهي عداوتهم بحيث لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح، وإزالة ضفائن الجاهليّة ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ اللَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ بقدرته البالغة، فإنّه المالك للقلوب، يقلبها كيف يشاء، فتصافوا، وصاروا أنصاراً بحيامن الاسلام، وبركة سيّد الأنام عليه وآله أفضل الصلاة والسلام.

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ تامُ القدرة والغلبة، لا يعصي عليه ما يريد ﴿حَكِيمُ﴾ يعلم أنَّه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده.

⁽١) التوبة: ٥ و ٢٩.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَن اتَّبَعَكَ منَ الْمُؤْمِنينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبيُّ حَرَّض الْنُؤْمِنينَ عَلَى الْقَالَ إن يَكُن مَّنكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يُغْلَبُواْ سَّتَيْن وَإِن يَكُن مَنكُم مَّنَّةٌ يَعْلَبُواۚ أَلْفًا مَنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَلْهُمْ قَوْمٌ لاَ يُفْقَهُونَ ﴿ ٦٠ ﴾ الآنَ خَفَفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلمَ أَنَّ فيكُمْ ضَعُفًا فَإِن يَكُن مَنكُم مَثُمٌّ صَابِرَةٌ يَعْلَبُواْ مُنْتَين وَإِن يَكُن مَنكُمْ أَلفٌ يَعْلَبُواً أَلْفَيْن بِإِذْنِ اللَّه وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لنبيِّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ في الأَرْض تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكيمٌ ﴿٦٧﴾ ۖ لَوْلاَ كَتَابٌ مَّنَ اللَّهَ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيمَا ٓ أَخَذَتُمُ عَذَابٌ عَظيمٌ ﴿٣٨﴾ فَكُلُواْ مَمَّا غَنمُتُمُ حَلَالًا طَيْبًا وَاتْقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحيمٌ ﴿ ٦٩ ﴾

ثمَ أمر سبحانه بقتال الكفّار، وحتَّ عليه بقوله: ﴿ يَا أَيُهَا النَّبِيُّ حَسَبُكَ اللهُ كَافِيكَ. وَوَله: ﴿ وَمَن التَّبِعُ حَسَبُكَ اللهُ كَافيك. وقوله: ﴿ وَمَن اتَبَعْكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إمّا في محلّ النصب على المفعول معه. والمعنى: كفاك الله مع متّبعيك من المؤمنين ناصراً. أو في محلّ الجرّ عطفاً على المكنيّ عند الكوفيّين. أو الرفع عطفاً على اسم الله تعالى، أي: كفاك الله عزّ وجلّ والمؤمنون. وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرَّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ بالغ في حتّهم عليه. وأصله الحرض، وهو أن ينهكه العرض حتّى يشفى - أي: يشرف - على العوت ﴿إنْ يَكُنْ

مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ ﴾ على القتال ﴿ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنَ ﴾ من العدوَ ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِانَةُ يَغْلِبُوا أَلْفَا مِنَ النَّذِينَ كَقُرُوا ﴾ اللفظ لفظ الخبر ، والمراد منه الأمر . وهذه عدة من الله بأنّ الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفّار بتأييد الله وعونه .

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: تكن بالتاء في الآيتين. ووافقهم البصريّان في «وإن تكن منكم مائة».

﴿ بِانْهُمْ قَوْمُ لا يَفْقَهُونَ ﴾ بسبب أنّ الكفّار جهلة بالله واليوم الآخر، لا يتبتون ثبات المؤمنين، رجاء الثواب وعوالي الدرجات قتلوا أو قتلوا، ولا يستحقّون من الله تعالى إلّا الهوان والخذلان، فيقاتلون على غير احتساب ثواب كالبهائم.

وقال في المجمع: «أراد به ضعف البصيرة والعزيمة، ولم يرد ضعف البدن، فإنَّ الَّذِينَ أُسلموا في الابتداء لم يكونوا كلَّهم أقوياء البدن، بل كان فيهم القمويّ والضعيف، ولكن كانوا أقوياء البصيرة واليقين، ولمّا كثر المسلمون واختلط بهم من كان أضعف يقيناً وبصيرة نزل: «الآن خقف الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفاً»»(٢٠.

⁽١) أي: في «ضعفاً».

⁽٢) مجمع البيان ٤: ٥٥٧ .

﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِافَةٌ صَابِرَةٌ ﴾ على القتال ﴿ يَغْلِبُوا مِانْتَيْنِ ﴾ من العدة ﴿ وَإِنْ يَغْلِبُوا الْفَقْنِ ﴾ منهم ﴿ مِإِذْنِ اللهِ ﴾ بعلم الله أو بأمر الله ﴿ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصر والمعونة، فكيف لا يغلبون ؟ قيل: كان فيهم قللة فأمروا بذلك، ثمّ لمّا كثروا خقف عنهم. وتكرير المعنى الواحد بدذكر الأعداد المتناسبة قبل التخفيف وبعده، للدلالة على أنّ حكم القليل والكثير واحد لا يتفاوت، لأنّ الحال قد يتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائتين والألف الألفين.

واعلم أنّ هذه الآية ناسخة للأولى كما مرّ، والمعتبر في الناسخ والمنسوخ بالنزول دون التلاوة. وعن الحسن: أنّ التغليظ كان على أهــل بــدر، ثــمّ جــاءت الرخصة.

روي أنّه كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين، قتل منهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه سبعة وعشرين. وكان الأسرى أيضاً سبعين، ولم يؤسر أحد من أصحاب رسول الله، فجمعوا الأسارى وقرنوهم في الحبال، وساقوهم على أقدامهم. وقتل من أصحاب رسول الله ﷺ تسعة رجال، منهم سعد بن خيشمة، وكان من النقباء من الأوس.

وعن محمّد بن إسحاق: استشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلاً، أربعة من قريش وسبعة من الأنصار، وقيل: ثمانية. وقتل من المشركين بـضعة وأربعون رجلاً.

وعن ابن عبّاس قال: لمّا أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والناس محبوسون بالوثاق بات ساهراً أوّل الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام؟ فقال عليه الصلاة والسلام: سمعت أنين عمّي العبّاس في وثاقه. فأطلقوه فسكت، فنام رسول الله عليه .

وفي كتاب عليّ بن إبراهيم (١): لمّا قتل رسول الله ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول الله قتلنا سبعين منهم وهم قومك وأسرتك، فخذ من هؤلاء الفداء، وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش.

وروي أنّ النبيّ ﷺ يوم بدر كره أخذ الفداء، حتّى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه، فقال: يا رسول الله هذا أوّل حرب لقينا فيه المشركين، والإثخان في القتل أحبّ من استبقاء الرجال. وكذا قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك، فقدّمهم واضرب أعناقهم، ومكنّ عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، ومكنّي من فلان أضرب عنقه، فإنّ هؤلاء أئمة الكفر. وقال أبو بكر: أهلك وقومك؛ استبقهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوّة على الكفّار.

وأيضاً في كتاب عليّ بن إبراهيم (١٠)؛ كان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم، وأقلّه ألف درهم، فبعثت قريش بالفداء أوّلاً فأوّلاً، فبعثت زينب بنت رسول الله كليّ من فداء زوجها أبي العاص بن الربيع، وبعثت قلائد لها كانت خديجة جهرّ تها بها، وكان أبو العاص ابن أخت خديجة، فلمّا رأى رسول الله كليّ تلك التلائد قال: رحم الله خديجة هذه قلائد هي جهرّ تها بها، فأطلقه رسول الله كلي بشرط أن يبعث إليه زينب، ولا يمنعها من اللحوق به، فعاهده على ذلك ووفى له. وكان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم، وأقلّه ألف درهم.

ثمّ نزلت: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾ ما استقام لنبيّ وما صحّ له ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾

⁽١) تفسير القمّى ١: ٢٧٠.

⁽٢) لم نجده في تفسير علي بن إبراهيم، والظاهر أنه من كلام الطبري ﴿ إِذْ نقل أُولاً عن كتاب علي بن إبراهيم، والظاهر أنه من كلام الطبري ﴿ أنه من تتمّة المنقول عن تفسير القبي، راجع مجمع البيان ٤: ٥٥٩.

من المشركين ليفديهم أو يمن عليهم. وقرأ البصريّان بـالتاء. ﴿خَــَّتَّي يُـخْفِنَ فِـي الأَرْضِ﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه بإشاعته. حتّى يذلّ الكفر ويقلّ حزبه، ويعزّ الاسلام ويستولى أهله، من: أثخنه المرض إذا أثقله. وأصله الثخانة.

﴿ فَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّمْنِيا﴾ حطامها بأخذكم الفداء. ستى عرضاً لأنّه حدث قلبل اللبث. والخطاب للمؤمنين الذين رغبوا في أخذ الفداء من الأسرى. ﴿ وَاللهُ يُوِيدُ الآخِرَةَ ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة ، أو سبب نيل ثواب الآخرة ، من إعزاز دينه وقعم أعدائه.

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ يغلَّب أولياءه على أعدائه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يعلم ما يليق بكلِّ حال ويخصّه بها، ولهذا أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين. وخير بينه وبين المنّ لمّا تحوّلت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين.

﴿ نَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ أَي: حكم فيه ﴿ سَبَقَ ﴾ في اللوح بإباحة الغنائم لكم، ومن ذلك الفداء، ورفع التعذيب عن أهل بدر، أو عن قوم لم يصرّح لهم بالنهي عنه، أو عن الخطأ في اجتهادهم لائهم نظروا في أنّ استبقاءهم ربّما كبان سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأنّ فداءهم يتقرّى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعرّ للاسلام، وأهيب لمن وراءهم، وأفل لشوكتهم. ﴿ لَمَسْكُمْ ﴾ لنالكم ﴿ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ من الفداء ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ قال ابن زيد: قال رسول الله ﷺ عظيمٌ عند نزول هذه الآية: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منكم غير وسعد بن معاذ».

وقيل: معناه: لولا كتاب من الله في القرآن أنّه لا يعذّبكم والنبيّ بين اظهركم. حيث قال: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّنُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِهُ ﴾ (١).

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِفَتُمْ ﴾ من الفدية، فإنَّها من جملة الغنائم. وقيل: أمسكوا عن

⁽١) الأنفال: ٣٣.

الغنائم ولم يمدّوا أيديهم إليها بعد العتاب على الفداء، فـنزلت. والفـاء للـتسبيب. والسبب محذوف، تقديره: أبحت لكم الغنائم فكلوا. وبنحوه تشبّث من زعـم أنّ الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة.

﴿ حَلَالاً ﴾ حال من المغنوم أو صفة للمصدر، أي: أكلاً حلالاً. وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، ولذلك وصفه بقوله: ﴿ طَيِّباً وَاتَّقُوا الله ﴾ في مخالفته ﴿ إِنَّ الله عَفُورٌ ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ أباح لكم ما أخذتم.

يَآ أَيُّهُا النَّبِيُّ قُلُ لِمَن فِي أَيْدِيكُم مِنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِنَّا أَخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَلِن يُوبِدُواْ خِيَانَتُكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكيمٌ ﴿٧١﴾

روي أنّ رسول الله ﷺ كلّف العبّاس أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث.

فقال: يا محمّد تركتني أتكفّف (١) قريشاً ما بقيت.

فقال: فأين الذهب الذي دفعته إلى أمّ الفضل وقت خروجك. وقلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبدالله وعبيدالله والفضل وقدم.

فقال: وما بدريك؟

⁽١) تكفّف الناس: مدّ كفّه إليهم يستعطى.

٦٦..... زيدة التفاسير _ج٣

قال: أخبرني به ربّي.

قال: فأشهد أنّك صادق. لا إله إلّا الله وأنّك رسوله. والله لم يطّلع عليه أحد إلّا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل. ولقد كنت مرتاباً في أمرك. وإذ أخبرتني بذلك فزال ريبي وشكّي في نبوّتك.

فنزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ ﴾ أي: ايديكم قابضة عليهم، وقرأ أبو عمرو: من الأسارى، والقراءة الأولى أولى، لأنّ الأسير فعيل بمعنى المفعول، وذلك يجمع على فعلى، نحو جريح وجرحى، وقيل: وجه القراءة الثانية تشبيهه بكسالى، كما شهوا كسلى بأسرى.

﴿إِنْ يَعْلَمُ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً ﴾ خلوص عقيدة وصحّة نيّة في الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أَخِذَ مِنْكُمْ ﴾ من الفداء إمّا بأن يخلفكم في الدنيا أضعافه ، أو يثيبكم في الآخرة. قال العبّاس: فأبدلني الله خيراً من ذلك ، لي الآن عشرون عبداً، إِن أدناهم ليضرب _أي: ليسافر _ في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحبّ أن لي بها جميع أموال أهل مكّة، وأنا أنتظر المغفرة من ربّكم، يعني: السوعود بقوله: ﴿وَيَنْفُولْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وروي أنّه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضّأ لصلاة الظهر، وما صلّى حتّى فرّقه، وأمر العبّاس أن يأخذ منه، فأخذ ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير متا أخذ منّى، وأرجو المففرة.

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ يعني: الأسرى ﴿ خِيَانَتَكَ ﴾ نقض ما عاهدوك من الاسلام ﴿ فَقَدْ خَانُوا الله مِنْ قَبْلُ ﴾ بأن خرجوا إلى بدر وقاتلوا مع المشركين، أو بأن نقضوا الميثاق المأخوذ بالعقل ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ أي: فأمكنك منهم كما فعل يوم بدر، وسيمكنك منهم ثانياً إن خانوك ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بما يقولونه، وبما في نفوسكم، وبجميع الأشياء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يفعله.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَاهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَنَصَرُواْ أُوْلِئِكَ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَا ۗ بَعْضِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيْتِهِم مِّن شَيْءٌ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَلِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدّينِ فَعَلْيُكُمُ النصرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ ٧٧﴾ وَالذِينَ كَفَرُواْ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَا ۗ بَعْضٍ إِلاَ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِئْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿ ٧٧﴾

ثمّ ختم الله سبحانه السورة بإيجاب موالاة المؤمنين وقطع موالاة الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ النَّهِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ﴾ أي: فارقوا أوطانهم حبًا لله تعالى ولرسوله، وهم المهاجرون من مكّة إلى المدينة. ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمُوالِهِمْ ﴾ فصرفوها في الكراع (١) والسلاح، وأنفقوها على المحاويج ﴿ وَأَشْفُسِهِمْ ﴾ بمباشرة القتال ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالنَّيْنِ آوَوَا وَنَصَرُوا ﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم، ونصروهم على أعدائهم ﴿ أَوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِينَا ءُ بَعْضِ ﴾ أي: يتولّى بعضهم بعضاً في الميراث. وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب، أو بالمؤاخاة، وهذا مرويً عن أبي جعفر ﷺ، ثمّ نسخ بقوله: ﴿ وَأُولُوا الأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ (٣) مرويً عن أبي جعفر ﷺ، ثمّ نسخ بقوله: ﴿ وَأُولُوا الأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ (٣) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا نَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ أي: من

⁽١) الكُراع: اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير، أو اسم لجماعة الخيل خاصّة.

⁽٢) الأنفال: ٥٧.

تولّيهم في العيراث. وقرأ حمزة: وِلاَيتِهم بالكسر. قال الزجّاج: هي بفتح الواو من النصرة والنسب، وبالكسر هي بمنزلة الإمارة. ووجه الكسر أنّه شبّه تولّي بعضهم بعضاً بالصناعة والعمل، لأنّ كلّ ما كان من هذا الجنس مكسور. كالصياغة والكتابة، فكأنّ الرجل بتولّيه صاحبه يباشر أمراً ويزاول عملاً.

﴿ وَإِنِ اسْتَنْضَرُوكُمْ ﴾ أي: وإن طلب المؤمنون اللذين لم يهاجروا منكم النصرة لهم على الكفّار ﴿ فِي الدُّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿ إِنَّهُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ من المشركين ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ عهد، فلا يجوز لكم نصرهم عليهم، لأنهم لا يبتدؤن بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ نَصِيرٌ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفُرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءً بَعْضٍ ﴾ في السيراث أو السؤازرة. وهمو بمفهومه يدل على نهي المسلمين عن موالاة الكفّار ومعاونتهم، وإن كانوا أقارب ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوه ﴾ أي: إلّا تفعلوا ما أمرتم به من تواصل المسلمين وتولّي بعضهم بعضاً حتّى في التوارث، وقطع العلائق بينكم وبين الكفّار، وجعل قرابتهم كلا قرابة في التوارث ﴿ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ تحصل فتنة عظيمة فيها، وهي ضعف الايسمان وظهور الكفر ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ في الدين.

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَيَصَرُواَ أُولَكِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَكَ مِنكُمْ وَأُولُواْ الأَرْحَامِ بَعْضَهُمْ أُولَى بِبَعْضِ فِي كَتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ ٧٠﴾ ولتا قسّم المؤمنين ثلاثة أقسام، بين أنّ الكاملين في الايمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاللّذِينَ آمَوْا وَمَاجَرُوا أَوْلَئِكَ هُمُ المُوْمِنُونَ حَقّاً﴾. ثمّ وعدلهم الموعد الكريم بقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفَرَةُ وَرِدْقُ كَرِيمٌ﴾ لاتبعة ولا منّة فيه، وذلك لائهم حققوا إيمانهم بالهجرة والنصرة، والانسلاخ من الأهل والمال لأجل الدين. وليس بتكرار، لأنّ هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم، والآية الأولى للأمر بالتواصل.

ثمّ ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد فتح مكّة. وقيل: من بعد إيمانكم. ﴿ وَهَاجَرُوا﴾ بعد هجر تكم ﴿ وَجَاهَدُوا﴾ في الجهاد وبذل الأموال فيه ﴿ مَعَكُمْ ﴾ أيّها المؤمنون. يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة، كقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَآءوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبّنَا المُخْوَلِنَا اللّهِينَ سَبَقُونًا بِالْإِيمَانِ ﴾ (١) فألحقهم الله بهم تفضّلاً منه وترغيباً، فقال: ﴿ فَاوَلْئِكَ مِنْكُمْ ﴾ أي: من جملتكم أيّها المهاجرون والأنصار، وحكمهم كحكمكم في وجوب موالاتهم ونصرتهم وإن تأخّر إيمانهم وهجرتهم.

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ وأُولُوا القرابات ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضِ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ في حكمه، أو في اللوح، أو في القرآن. وهذا نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة كما مرّ آنفاً. وفيه دلالة على أن من كان أقرب إلى الميّت في النسب كان أُولى بالميراث. ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلَّ شَيْعٍ عَلِيمٌ ﴾ من المواريث والحكمة، في إناطتها بنسبة الاسلام والمظاهرة أُولاً، واعتبار القربة ثانياً.

⁽١) الحشر: ١٠.





سورة التوبة

بَرَآءٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدَتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرَبَعَةَ أَشُهُرٍ وَّأَغَلَمُواْ أَنَكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

مدنيّة، وآياتها مائة وتسع وعشرون.

ولها أربعة(١١) عشر اسماً:

البراءة، لأنَّها مفتّحة بها، ونزلت بإظهار البراءة من الكفّار.

والتوبة، لكثرة ما فيها من ذكر التوبة، كقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَنْ يَشْلَهُ﴾ (٣) ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ ﴾ ﴿ فُمُ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (٣).

والفاضحة، لأنَّها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم.

 ⁽١) ذكر الشارح الله عشر اسمأ فقط، وسقط الرابع عشر من قلمه، وهو _كما في تفسير
 البيضاوى ٣: ٥٨ _ المخزية، لما فيها مما يخزى المنافقين.

⁽٢ ــ ٤) التوبة: ١٥ و ٧٤ و ١١٨ .

٧٢..... زيدة التفاسير _ج ٣

والمبعثرة، لأنَّها تبعثر عن أسرار المنافقين، أي: تبحث عنها.

والمنقّرة لذلك. لأنّ التنقير بمعنى البحث والتفتيش.

والمقشقشة، لأنّها تبرىء من آمن بها من النفاق والشرك. لما فيها من الدعاء إلى الإخلاص. يقال: قشقشه إذا برّأه، وتقشقش المريض من علّته إذا برىء منها وأفاق.

> والبحوث، لأنها تتضمّن ذكر المنافقين والبحث عن سرائرهم. والمدمدمة، أي: المهلكة، ومنه قوله: ﴿ فَدَهْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ (١٠. والحافرة، لأنّها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسرّونه.

> > والمثيرة، لأنَّها أثارت مخازيهم ومقابحهم.

والمنكّلة، لأنّها تنكّلهم.

والمشرّدة، إذ تشرّدهم.

وسورة العذاب، لأنّها نزلت بعذابهم.

وإنّما تركت التسمية فيها، لأنّها نزلت لرفع الأمان، وبسم الله أمان، كما ورد عن أمير المؤمنين ﷺ أنّه قال: «لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم راس سورة براءة، لرفع الأمان وللسيف». وهذا منقول عن سفيان بن عيينة. واخـتاره أبـو العـبّاس المبرّد.

وقيل: كان النبي ﷺ إذا نزلت عليه سورة أو آية بين موضعهما، وتوقّي ولم يبين موضعهما، وتوقّي ولم يبيّن موضعها. وكانت قصّتها تشابه قصّة الأنفال وتناسبها، لأنّ في الأنفال ذكر العهود، وفي براءة نبذها، فضمّت إليها، ولهذا سمّيتا قرينتين، وتعدّان السابعة من السبع الطوال.

وقيل: لمَّا اختلفت الصحابة في أنَّهما سورة واحدة ــ وهــي ســابعة الســبع

⁽١) الشمس: ١٤.

الطوال _ أو سورتان تركت بينهما فرجة، ولم يكتب «بسم الله» لقول من قال: هما سورة واحدة.

ويؤيّد الأوّل ما روي عن أبي عبدالله الله قال: «الأنفال وبراءة واحدة». وروي ذلك عن سعيد بن المسيّب، عن أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له». الخبر بتمامه مضى ذكـره فـي صـدر سـورة الأنفال(۱).

وعلى قول من قال إنهما سورتان قيل: ولمّا ختم الله سبحانه سورة الأنفال بإيجاب البراءة من الكفّار، افتتح هذه السورة بأنّه تعالى ورسوله بريئان منهم، كما أمر المسلمين بالبراءة منهم في سورة الأنفال، فقال: ﴿بَرَآءَةُ مِنَ الله﴾ أي: هذه براءة. و«من» ابتدائيّة متعلّقة بمحذوف تقديره: واصلة من الله ﴿وَرسُولِهِ﴾ أي: انقطاع منهما للعصمة، ورفع الأمان، وخروج من العهود. ويجوز أن تكون براءة مبتدأ، لتخصّصها بصفتها، والخبر قوله: ﴿إِلَى النّبِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْوِكِينَ ﴾ كما تقول: رجل من قريش في الدار. والمعنى: أنّ الله ورسوله برئا من العهد الّذي عاهدتم به المشركين.

وإنّما علّقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين، للمدلالة عملى أنّم يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم، وإن كانت صادرة بإذن الله واتّفاق الرسول. فإنّهما برئا الآن منها. وذلك أنّهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا إلّا أناساً، منهم بنو ضمرة وبنو كنانة. فأمرهم بنبذ العهد إلى الناكثين، وأمهل المشركين أربعة أشمهر

⁽١) راجع ص: ٥.

ليسيروا أين شاؤا، فقال خطاباً للمشركين: ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَـعَةَ اللَّهُ ۗ ﴾ شؤال وذي القعدة وذي الحجّة والمحرّم، آمنين أين شئتم، وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها.

وقيل: إنّ براءة نزلت في شوّال سنة تسع من الهجرة، وفتح مكّة سنة ثمان. وقيل: كان ابتداؤها من النحر إلى العاشر من ربيع الآخر، لأنّ التبليغ كان يوم النحر. وهو الأصحّ، لآنّه مرويّ عن أبى عبدالله ﷺ.

وقال ابن عبّاس: إنّما أجّلهم الأشهر الأربعة من شوّال إلى آخر المحرّم، لأنّ هذه الآية نزلت في شوّال.

قال في الكشّاف: «كان نزول براءة سنة تسع من الهجرة، وفتح مكّة سنة ثمان، وكان الأمير عتّاب بن أسيد، فأمّر رسول الله ﷺ أبا بكر على موسم العج سنة تسع، ثمّ أتبعه عليّاً ﷺ راكباً العضباء _ وهي ناقة رسول الله ﷺ _ ليقرأها على أهل الموسم. فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر. فقال: لا يؤدّي عنّي إلاّ رجل منّي. فلمّا دنا عليّ ﷺ سمع أبو بكر الرغاء فوقف، فقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلمّا لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور.

وروي: أنّ أبا بكر لمّا كان ببعض الطريق هبط جبرئيل، فقال: يا محمّد لا يبلّغ رسالتك إلّا رجل منك، فأرسل عليّاً عليه السلام، فرجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أشيء نزل من السماء؟ قال: نعم، فسر وأنت على الموسم، وعليّ ينادي بالآي، فلمّا كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدّ تهم عن مناسكهم، وقام عليّ يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يبا أيّها الناس إنّي رسول الله ﷺ إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقراً عليهم ثلاثين أو أربعين آية، وعن مجاهد ثلاث عشرة آية. ثمّ قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عربان، ولا يدخل الجنّة إلا كلّ نفس مؤمنة، وأن يتمّ كلّ مشرك، ولا يطوف بالبيت عربان، ولا يدخل الجنّة إلاّ كلّ نفس مؤمنة، وأن يتمّ كلّ

ذي عهد عهده. فقالوا عند ذلك: يا عليّ أبلغ ابن عمّك أنّا قـد نـبذنا العـهد وراء ظهورنا، وأنّه ليس بيننا وبينه عهد إلّا طعن بالرماح وضرب بـالسيوف، (١١ انـتهى كلامه.

وقال في المجمع: «روى عاصم بن حميد، عن أبي بصير، عن الباقر ﷺ قال: خطب عليّ ﷺ الناس يوم النحر، واخترط سيفه فقال: لا يطوفن بالبيت عريان، ولا يحجّن بالبيت مشرك، ومن كانت له مدّة فهو إلى مدّته، ومن لم يكن له مدّة فهد أربعة أشهر، وقرأ عليهم سورة براءة» (٢).

وقيل: إنّه أخذها من أبي بكر قبل الخروج ودفعها إلى عليّ ﷺ، وقال: لا يبلّغ عنّى إلّا أنا أو رجل منّى.

وروى أصحابنا: أنّ النبيّ ﷺ ولّاه ايضاً الموسم، وأنّه حين أخذ البراءة من أبي بكر رجع أبو بكر.

﴿ وَاهَـ لَمُوا أَنْكُـمْ غَـيْرُ مُعْجِزِي اللهِ لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْعَافِرِينَ ﴾ أي: مذلَّهم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخــرة بالعـذاب الأليـم.

⁽١) الكشّاف ٢: ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

⁽٢) مجمع البيان ٥: ٣ ـ ٤.

⁽٣) شواهد التنزيل ١: ٣٠٥ ح ٣٠٩.

وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيَ ۚ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُو حَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَوْلَيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشْرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلاَّ الذِينَ عَاهَدتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنتُصُوكُم شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمُ أَحَدًا فَأَنتُوا أَلِيهِمُ عَهْدَهُمُ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُ النَّقِينَ ﴿٤﴾

ولمّا أخبر بثبوت البراءة أخبر بعد ذلك بوجوب الإعلام بما ثبت، فقال: ﴿ وَاذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ ﴾ أي: إعلام منهما إليهم. فعال بمعنى الإفعال، أي: الإيذان، كالأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. والمراد من الناس الناكثون، أو جميع الناس من عاهد منهم ومن لم يعاهد. ورفعه كرفع براءة بعينه على الرجهين، فالجملة معطوفة على مثلها.

﴿ يَوْمَ الْحَجَّ الْآَكْتِرِ﴾ قبل: يوم النحر، لأنّ فيه تمام الحجّ ومعظم أفعاله، ولأنّ الإعلام كان فيه، ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عندالجمرات في حجّة الوداع، فقال: هذا يوم الحجّ الأكبر. وروي أنّ عليّاً ﷺ أخذ رجل بلجام داتته فقال: ما الحجّ الأكبر؟ فقال: يومك هذا، خلّ عن دابّتي. وقبل: يوم عرفة، لقوله ﷺ: «الحجّ عرفة».

ووصف بالحجّ الأكبر لأنّ العمرة تسمّى الحجّ الأصغر. أو لأنّ المراد بالحجّ ما يقع في ذلك اليوم من أعماله، فإنّه أكبر من باقي الأعمال. أو لأنّ ذلك الحسجّ اجتمع فيه المسلمون والمشركون، ووافق عيده أعياد أهل الكتاب، ولم يتّفق ذلك قبله ولا بعده، فعظم في قلب كلّ مؤمن وكافر، وظهر فيه عـزّ المسلمين وذلّ المشركين.

﴿ أَنَّ اللهُ ۚ أَي: بأنَّ الله ، حذف الباء تخفيفاً . ﴿ بَرِيءُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: من عهودهم ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ عطف على الضمير المستكن في «بريء» ﴿ فَإِنْ تُبْتُمُ ﴾ من الاكفر والغدر ﴿ فَهُوَ ﴾ فالتوب ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من الإقامة عليهما ، لأنكم تنجون به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمُ ﴾ عن التوبة ، أو تبتم على التولّي والإعراض عن الاسلام والوفاء ﴿ فَاعْلَمُوا أَنْتُمْ غَيْرٌ مُعْجِزِي اللهِ ﴾ غير سابقين الله هرباً ، ولا فائتين أخذه وعقابه . وفي هذا إعلام بأنّ الإمهال ليس بعجز ، بل إنّما هو لاظهار الحجّة والمصلحة .

ثمّ أوعدهم بعذاب الآخرة فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـِعَدَابِ ٱلِـيمِ﴾ فـي الآخرة. وذكر البشارة مكان النذارة للتهكّم.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدَتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استئناء من المشركين أو استدراك، فكأنّه قيل لهم بعد أن أمروا بنبذ العهد إلى الناكثين: ولكن الّذين عاهدوا منهم ﴿ ثُمُّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ من شروط العهد أصلاً ولم ينكثوه، أو لم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط ﴿ وَلَمْ يُطَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحْداً﴾ من أعدائكم ﴿ فَاتِمُوا إلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلَى مُدَّتِهِمْ ﴾ إلى تمام مدّتهم الّتي وقع العهد إليها، ولا تجروهم مجرى الناكثين، ولا تجملوا الوفي كالغادر ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ تعليل وتنبيه على أنّ إتمام عهدهم من باب التقوى.

 فَإِذَا ٱلْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَبْثُ وَجَدَّتُمُوهُمْ وَخَدُوهُمْ وَآقَعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدِ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّوَاْ الرَّكَاةَ فَخَلُواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ ﴿ ﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مَنَ الْمُشْرِكِينَ الزَّكَاةَ فَخَلُواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ ﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مَنَ الْمُشْرِكِينَ السَّجَارِكَ فَأَجُرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَلِيْفُهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿ ٩ ﴾

ثمّ بين سبحانه الحكم في المشركين بعدانقضاء المدّة، فقال: ﴿فَإِذَا الْسَلَحَ ﴾ انقضى، وأصل الانسلاح خروج الشيء ممّا لابسه، من سلخ الشاة ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ الّتي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها، وقيل: هي رجب وذو القعدة وذوالحجّة والمحرّم، ثلاثة سرد، وواحد فرد. وهذا مخلّ بالنظم، لأنّ اللام في الأشهر الحرم إشارة إلى أربعة أشهر في قوله: «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» فصرفه إلى غيرها مخلّ بالنظم، وأيضاً مخالف للاجماع.

﴿ فَاقَتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ الناكثين، وضعوا السيف فيهم ﴿ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ من حل أو حرم ﴿ وَقُدُوهُمْ ﴾ وأسروهم. والأخيذ الأسير. ﴿ وَاقْضُرُوهُمْ ﴾ واحبسوهم. أو حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام. أو امنعوهم من التصرّف في البلاد. ﴿ وَاقْفُدُوا لَهُمْ كُلُّ مَرْصَدٍ ﴾ كل ممرّ وطريق ترصدونهم، أي: ضيّقوا المسالك عليهم لثلاً يتبسّطوا في البلاد، فتتمكّنوا من أخذهم. والأمر للتخيير، وانتصابه على

الظرف، كقوله: ﴿ لِأَقْفَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١١). وهذا ناسخ لكلَّ آية وردت في الطرف، كقولت عنهم.

﴿ فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك بالإيمان ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلْوَةَ وَآتَوُا الزَّعُوةَ ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم. والمعنى: قبلوا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لأنّ عصمة الدم لا تقف على إقامة الصلاة وأداء الزكاة، فئبت أنّ المراد به القبول. ﴿ فَخَفُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ فدعوهم ولا تتعرّضوا لهم بشيء من ذلك، أو دعوهم يحجّوا ويدخلوا المسجد الحرام. وفيه دليل على أنّ تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلّى سبيله ﴿إنَّ اللهُ غَفُورُ رَحِيمٌ، غفر لهم ما قد سلف من رَحِيمٌ ، غفر لهم ما قد سلف من كغرهم وغدرهم، ووعد لهم الواب بالتوبة.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْعِرِكِينَ ﴾ المأمور بالتعرّض لهم ﴿ السَـتَجَازَكَ ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك. و «أحدٌ » رفع بفعل يفشره ما بعده، لا بالابتداء، لأنّ «إن» من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. فتقدير الكلام: وإن استجارك أحد ﴿ فَأَجِرْهُ ﴾ فأمّنه ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ ويتدبّره، ويطّلع على حقيقة الأمر ﴿ فَمُ اللهِ فَمَامَنَهُ ﴾ موضع أمنه بعد ذلك _ يعني: داره الّتي يأمن فيها _ إن لم يسلم، ثمّ قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة. وهذا الحكم ثابت في كلّ وقت. وعن الحسن على محكمة إلى يوم القيامة. وإنّما خص كلام الله لأنّ معظم الأدلّة فيه.

﴿ ذَٰلِكَ﴾ الأمن أو الأمر بالاجارة ﴿ بِانْهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بسبب أنّهم قوم جهلة لا يعلمون ما الايمان، وما حقيقة ما تدعوهم إليه؟ فلا بدّ من أمانهم ريشما يسمعون ويتدبّرون.

وعن سعيد بن جبير: «جاء رجل من المشركين إلى علي الله فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله. أو يأتيه لحاجة

⁽١) الأعراف: ١٦.

۸۰...... زبدة التفاسير ــج ۳

قتل؟ قال: لا، لأنَّ الله يقول: «وإن أحد من المشركين استجارك» الآية».

وعن السدّي والضحّاك: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْوِكِينَ﴾ (١٠).

كَيْفَ يَكُونُ للْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عندَ اللَّه وَعندَ رَسُولِه إلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُهُ عندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا ٱلسُّتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَوْثُبُواْ فيكُمْ إلاًّ وَلاَ ذَمَّةً يُرْضُونَكُم بَأَفْوَاههمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسْقُونَ ﴿ ٨ ﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللَّه تُمَنَّا قَليلًا فَصَدُّواْ عَن سَبيله إَنُّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَوْفَبُونَ فِي مُؤْمِن الْأ وَلاَ ذَمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعُنَّدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزُّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآياتِ لِقُوْمَ يُعْلَمُونَ ﴿ ١١ ﴾ وَإِن نَّكُثُوٓأُ أَيَّمَا لَهُم مّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوٓاْ أَنْتَةَ الْكُفُّرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ ىَنْتُهُونَ ﴿ ١٢ ﴾

ولمّا أمر سبحانه بنبذ العهود إلى المشركين، بيّن أنّ العلّة في ذلك ما ظهر منهم من الغدر، وأمر بإتمام العهد لمن استقام على الأسر، فقال: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ

⁽١) التوبة: ٥.

سورة التوبة، آية ٧ ـ ١٢

لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدُ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴾ استفهام بمعنى الانكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وغرة(١) صدورهم وغدرهم، أو لأن يـفي الله ورسـوله بالعهدوهم نكثوه. وخبر «يكون»: «كيف»، وقدّم للاستفهام، أو «للمشركين» أو «عند الله». وهو على الأولين صفة للعهد، أو ظرف له، أو لقوله: «يكون». و «كيف» على الأخيرين حال من العهد. وقوله: «للمشركين» إن لم يكن خبراً فتبيين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ هم المستثنون قبل من بني كنانة وبني ضمرة ونظرائهم. ومحلَّه النصب على الاستثناء، أو الجرِّ على البدل، أو الرفع على أنَّ الاستثناء منقطع، أي: ولكنَّ الَّذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام.

﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَـ هُمْ ﴾ ما تحتمل الشرطيّة والمصدريّة ، أي: فتربُّصوا أمرهم فلا تقاتلوهم، فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء. أو ما داموا باقين معكم على الطريقة المستقيمة فكونوا معهم كذلك. وهذا كقوله: ﴿ فَأَتِهُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ﴾ (٢) غير أنَّه مطلق وهذا مقيِّد. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ للنكث والغدر، فإنّ التربّص بهم من أعمال المتقين.

﴿ كُنِفَ ﴾ تكرار الستبعاد ثباتهم على العهد، أو بقاء حكمه، مع التنبيه على العلَّة. وحذف الفعل للعلم به، أي: كيف يكون لهم عهد؟ ﴿ وَإِنْ يَطْهُرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي: وحالهم أنَّهم إن يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ لا يراعوا ولا يحفظوا ﴿إِنَّا﴾ حلفاً. وقيل: قرابة. وقيل: ربوبيّة. ولعلَّه اشتقّ للحلف من الألِّ، وهو الجؤار(٣). يقال: له أليلٌ، أي: أنين يرفع به صوته، لأنَّهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم، ثم استعير للقرابة، لأنَّها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثمّ للربوبيّة والتربية. وقيل: اشتقاقه من: ألَّل الشيء إذا حدَّده، أو من: ألَّ

⁽١) الوَغَرُ: الحقد والعداوة والضغن، ووَغْرَةُ الصدر: شدّة غنظه. (٢) التوبة: ٤.

⁽٣) جَأْر يجأر جُواراً إلى الله: رفع صوته بالدعاء.

البرق إذا لمع. ﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ عهداً أو حقّاً يعاب على إغفاله وإهماله.

وقوله: ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِالْقُواهِهِمْ ﴾ كلام مستأنف في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرّر لاستبعاد الثبات منهم على العهد، وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل، وهذه المخالفة موجبة لعدم مراقبتهم عند الظفر. والمعنى: يتكلّمون بكلام الموالين لترضوا عنهم ﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ ما تتفوّه به أفواههم، للعداوة والغدر ونقض العهد.

﴿ وَأَخْثُوهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ متمرّدون في الكفر والشرك، لأنّمه لا عقيدة لهم
تمنعهم، ولا مروءة تردعهم، وهم رؤساء الكفرة. أو خارجون عن طريق الوفاء
بالعهد. وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التباعد عن الغدر، والتعفّف عمّا
يجرّ إلى أحدوثة السوء. ولا يجوز جعل هذه الجملة الفعليّة حالاً من فاعل «لا
يرقبوا»، فإنهم بعد ظهورهم لا يرضون.

﴿اشْتَزَوْا بِآيَاتِ اشِ﴾ استبدلوا بالقرآن والاسلام ﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ عرضاً يسيراً، وهو اتّباع الأهواء والشهوات ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ فعدلوا عن دينه الموصل إلى رحمته، وصرفوا غيرهم عنه، أو سبيل بيته بحصر الحجّاج والعمّار. والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أدّاهم إلى الصدّ.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بئس العمل عملهم هذا، أو ما دلَّ عليه قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنِ إِلَّا وَلَا رِمْقَ﴾ فهو تفسير لا تكرير. وقبل: الأوَّل عامٌ في الناقضين، وهذا خاصٌ بالذين اشتروا، وهم اليهود أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم. ﴿وَأَوْلَاَئِكَ هُمُ المُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة،

﴿ فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر والصدّ ونقض العهد ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزِّحَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ فهم إخوانكم ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿ وَنُـفَصُلُ الْآيَاتِ ﴾ ونبيّنها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ اعتراض للحثّ على تأمّل ما فصّل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين ، فكأنّه قيل : ومن تأمّل تفصيلها فهو العالم . ﴿ وَإِن نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ وإن نقضوا ما بايعوا عليه من الأيمان أو الوفاء بالعهود
﴿ مِنْ بَخْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ من بعد أن عقدوها ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ بصريح التكذيب
وتقبيح الأحكام ﴿ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكَفْرِ ﴾ أي: فقاتلوهم. فوضع أئئة الكفر موضع
الضمير، للدلالة على أنّهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدّم في الكفر والضلالة،
أحقّاء بالقتل. وقيل: المراد بالأئمّة رؤساء المشركين. فالتخصيص إمّا لأنّ قتلهم
أهمّ، وهم أحقّ به، أو للمنع من مراقبتهم.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: أثمّة، بتسهيل(١١) الثانية بلا فـصل بـينهما. وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وروح عن يعقوب: أثمّة، بتحقيق الهــمزتين على الأصل. والتصريح بالياء لحن.

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ ، أي: لا عهود لهم على الحقيقة _ يعني: لا يحفظونها _ وإلّا لما طعنوا ولم ينكثوا، فلا تعطوهم الأمان بعد النكث والردّة. وفيه دليل على أنّ الذّمي إذا طعن في الاسلام فقد نكث عهده. وقرأ ابن عامر: لا إيمان، بمعنى: لا أمان أو لا إسلام.

وعلى القراءة الأولى استشهد الحنفي على أنّ يمين الكافر ليس يميناً. وهو ضعيف. لأنّ المراد نفي الوثوق عليها، لا أنّها ليست بأيمان.

وعلى الثانية تشبّث بها من لم يقبل توبة المرتدّ. وهو أيضاً ضعيف، لجواز أن يكون بمعنى: لا يؤمنون، على أنّ الإخبار عن قوم معيّنين، إذ ليس لهـم إيـمان فيراقبوا لأجله.

⁽١) أي: تلفُّظ الهمزة الثانية بين بين، أي: بين مخرج الهمزة والياء.

وقوله: ﴿لَعَلَهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ متعلق ب«قاتلوا» أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم أن ينتهوا عمّا هم عليه، لا إيصال الأذيّة بهم كما هو طريقة المؤذين. وهذا من غاية كرمه العميم وفضله الجسيم، جلّ كرمه وعظم فضله.

أَلاَ نَمَّا تَلُونَ قَوْمًا نَكَثُواْ أَيْمَا ثَهُمْ وَهَمُواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَوُّوكُمْ أَوَل مَرَّةٍ أَنَخْشَوْهُمْ فَاللّهُ أَحَقُ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُتُم مُّومِنِينَ ﴿١٣﴾

ثمّ حرّض المؤمنين على القتال، فقال: ﴿ الا تَقَاتِلُونَ ﴾ دخول الهمزة على «لا» للإنكار، فأفادت المبالفة في الفعل والتحريض فيه، أي: هلا تقاتلون ﴿ قَوْما نَكَثُوا الْمِفَائِمَ ﴾ الّتي حلفوها مع الرسول والمؤمنين على أن لا يمعاونوا عليهم، فعاونوا بني بكر على خزاعة ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْزَاجِ الرَّسُولِ ﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة، فأذن الله له في الهجرة، فخرج بنفسه، على ما مرّ ذكره في قوله: ﴿ وَإِذْ يَعْدُوا ﴾ الله وقيل: هم اليهود نكثوا عهد رسول الله، وهمّوا بإخراجه من المدينة.

﴿ وَهُمْ بَدُوْكُمُ أَوْلَ مَرَّةٍ ﴾ بالمعاداة والمقاتلة، لأنه ﷺ بدأهم بالدعوة وإلزام الحجّة بالكتاب والتحدّي به، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة، والبادي أظلم، فما يمنعكم أن تقابلوهم وتقاتلوهم ؟ ﴿ أَتَخْشُونَهُمْ ﴾ الهمزة للتوبيخ اللذي يتضمّن التشجيع، أي: أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم ؟ ﴿ فَاللهُ أَحَقُ أَنْ تَخْشُونُ ﴾ فقاتلوا أعداءه ولا تتركوا أمره ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن قضية الايمان أن لا يخشى المؤمن إلا ربّه، ولا يبالي بمن سواه، كقوله: ﴿ وَلا يَخْشُونَ أَحَداً إلا اللهُ ()).

⁽١) راجع ص: ٣٣ ذيل الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

⁽٢) الأحزاب: ٣٩.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ يِأَيدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْف صَدْورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُدْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ ١٥﴾

ثمّ أمرهم بالقتال بعد بيان موجبه، والتوبيخ على تركه، والتوعيد عليه، فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِالْبِيكُمْ ﴾ تَتلاً ﴿وَيُخْرِهِمْ ﴾ أسراً ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِالْبِيكُمْ ﴾ قتلاً ﴿وَيُخْرِهِمْ ﴾ أسراً ﴿وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ غلبة، هذا وعد للمؤمنين إن قاتلوهم بالنصر عليهم، والتمكّن من قتلهم وإذلالهم، لينبّت قلوبهم ويصحّح نيّاتهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُوْمِنِينَ ﴾ طائفة منهم، يعني: بني خزاعة، وعن ابن عبّاس: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكّة وأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أبشروا فإنّ الفرج قريب.

﴿ وَيُدْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ لما لقوا منهم من المكروه، وقد أوفى الله تعالى بما وعدهم به. والآية من المعجزات. ﴿ وَيَقُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ استئناف كلام. وفيه إخبار بأنَّ بعضهم سيتوب عن كفره. وقد كان ذلك أيضاً، فإنَّ كثيراً منهم قد أسلموا وحسن إسلامهم. ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ يعلم ما سيكون كما يعلم ما كان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلاً على وفق الحكمة والمصلحة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتَرَّكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

ثمّ نبّه سبحانه على جلالة موقع الجهاد، فقال خطاباً للمؤمنين حـين كـره

بعضهم القتال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَتُوْكُوا﴾ أم منقطعة. ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على الحسبان. والمعنى: لا تظنّوا أنكم تتركون على ما أنتم عليه ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمُ اللهُ اللَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ والحال أنّه لم يبيّن الله ولم يميّز الخلّص منكم، وهم المجاهدون في سبيل الله لوجه الله. نفى العلم وأراد نفي المعلوم للمبالغة، فإنّه كالبرهان عليه، من حيث إنّ تعلّق العلم به مستلزم لوقوعه، كما يقال: ما علم الله ما قيل في فلان، أي: ما وجد ذلك. و«للمّا» معناها التوقع، فدلّت على أنّ تميّز ذلك وإيضاحه متوقّم كائن.

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا ﴾ عطف على «جاهدوا» داخل في الصلة ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلاَ المُغْوَمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ هـ و اللّذي يحرّفه الرجل أسراره ثقة به. شبّه ببطانة الثوب، كما شبّه بالشعار. فعيلة من: ولج، كالدخيلة من: دخل. يعني: بطانة وأولياء يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. ﴿ وَاللهُ خَعِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعلم أعمالكم فيجازيكم عليها. وهو كالمزيح لما يتوهم من ظاهر قوله: «ولمّا يعلم أثمالهُ».

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى ۖ أَنفُسِهِمُ الْكُفُرِ أُوْلِيَكَ حَبِطَتُ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيُومِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآمَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ الِلّا اللهَ فَعَسَى ۖ أُوْلِيكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

ولمّا أمر الله تعالى بقتال المشركين، وقطع العصمة والموالاة عنهم، أمر بمنعهم عن المساجد، فقال: ﴿ هَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ما صحّ لهم وما استقام ﴿ أَنْ يَعْفُرُوا مَسَاجِدَ الله الله شيئاً من المساجد، فضلاً عن المسجد الحرام الذي هو صدرها ومقدّمها. وقيل: هو المراد، وإنّما جمع لأنّه قبلة المساجد كلّها وإمامها، فعامره كعامر الجميع، أو لأنّ كلّ موضع منه مسجد. ويدلّ عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بالتوحيد.

﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ حال من الواو في «يعمروا». ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وتكذيبهم الرسول، وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون حول البيت عراة، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها.

وقيل: هو قولهم: لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هو لك، تـملكه ومـاملك. والمعنى: ما استقام أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة بيت الله تعالى، وعبادة غيره.

روي أنّ المهاجرين والأنصار عيروا أسارى بدر، ووبّخ عليّ الله العبّاس حين أسر بقتال رسول الله وقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول. فقال العبّاس: تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا. فقالوا: ألكم محاسن؟ قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجراً، إنّا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني. فنزلت: ﴿ أَوْلَئِكَ حَبِطَتُ اعْمَالُهُمْ ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك، لأنهم أرقعوها على الوجه الذي لا يستحقّ لأجله الثواب عليها عند الله. ﴿ وَفِي النّاوِهُمُ خَالِدُونَ ﴾ مقيمون مؤبّدون لأجله.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مُسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلُوةَ ﴾ بحدودها المعتبرة في شرع الاسلام ﴿ وَآتَى الزَّكُوةَ ﴾ إن وجب عليه إلى مستحقها. والمعنى: إنَّما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلميّة والعمليّة، لا لغيرهم. ومن عمارتها: رمَّ ما استهدم منها، وكنسها وتنظيفها، وتزيينها بالفرش، وتنويرها

٨٨..... زيدة التفاسير ـج٣

بالسرج، وزيارتها للعبادة، وإدامة العبادة والذكر ودرس العلم، وصيانتها ممّا لم تبن له، كحديث الدنيا.

وفي الحديث: يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد يقعدون فيها حلقاً، ذكرهم الدنيا وحبّ الدنيا، لا تجالسوهم، فاليس لله بهم حاجة.

وروي أيضاً عن النبيِّ ﷺ: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش».

وقال أيضاً ﷺ: «قال الله تعالى: إنّ بيوتي في أرضي المساجد، وإنّ زوّاري فيها عمّارها، فطوبى لعبدٍ تطهّر في بيته ثمّ زارني في بيتي، فحقّ على المزور أن يكرم زائره».

وعنه ﷺ: «من ألف المسجد ألفه الله».

وقال ﷺ : «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان».

وعنه أيضاً برواية أنس: «من أسرج في مسجد سراجـاً لم تـزل المـلائكة وحملة العرش تستففر له ما دام في ذلك المسجد ضوءً».

وإنّما لم يذكر الايمان بالرسول لما علم أنّ الايممان بـالله قـرينه، وتـمامه الإيمان به، ولدلالة قوله: «وأقام الصلاة وآتي الزكاة» عليه.

﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا الله ﴾ أي: في أبواب الدين، فإنّ الخشية عن المحاذير جليّة لا يكاد الرجل يتمالك عنها. قيل: كانوا يخشون الأصنام ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم. ﴿ فَعَسَىٰ أَوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوييخاً لهم بالقطع بأنّهم مهتدون، فإنّ هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعلّ فما ظنك بأضدادهم؟ ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها.

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَآجِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيُوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لَا يَسْتَوُونَ عَندَ اللّهِ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّه بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُولِئَكَ هُمُ الْفَاتَّزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُولِئَكَ هُمُ الْفَاتَّزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَة مِنْهُ وَرَضُوانٍ وَجَنَات لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبِدًا إِلَى اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

روي عن الحسن والشعبي ومحمّد بن كعب القرظي: أنَّ عليَّ بن أبي طالب على العبرظي: أنَّ عليَّ بن أبي طالب على العبّاس بن عبدالمطّلب وطلحة بن شيبة افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، وبيدي مفتاحه، ولو أشاء بتّ فيه. وقال العبّاس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال عليّ على: ما أدري ما تقولان، لقد صلّيت إلى القبلة ستّة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد. فنزلت: ﴿ الْجَعَلْتُمُ سِقَايَةَ الْمَاجُ وَعِمَارَةَ الْمَاجُ وَعِمَارَةَ الْمَاجِ وَعَلَا الْسَبِيلِ اللهِ .

السقاية والعمارة مصدران من: سقى وعمر ، فلا يشبّهان بالجثث، بل لابدٌ من إضمار، تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاجّ كمن آمن؟ أو أجعلتم سقاية الحاجّ كايمان من آمن؟ ويؤيّد الأوّل قراءة من قرأ: سقاة الحاجّ وعمرة المسجد الحرام. ومعنى الهمزة إنكار أن يشبّه المشركون وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المنتبة.

لاَ يَهْدِي﴾ إلى طريق النواب ﴿الْقَوْمُ الظَّلِمِينَ﴾ أي: الكفرة ظلمة بالشرك ومعاداة الرسول الله الله الله ووفّعهم الله ووفّعهم لله ووفّعهم للحق والصواب؟! وقيل: العراد بالظالمين الذين يسؤون بينهم وبين المؤمنين.

عن ابن سيرين: أنَّ عليّاً ﷺ قال للعبّاس: يا عمّ ألا تهاجر ، ألا تلحق برسول الله ؟ فقال: ألست في أفضل من الهجرة: أعمر المسجد الحرام، وأسقي حاجً بيت الله ؟ فنزلت.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن بريدة، عن أبيه قـال: «بينا شيبة والعبّاس يتفاخران إذ مرّ بهما عليّ بن أبـي طـالب ﷺ، فـقال: بـماذا تتفاخران؟

> فقال العبّاس: لقد أو تيت من الفضل ما لم يؤت أحد، سقاية الحاجّ. وقال شبية: أو تيت عمارة المسجد الحرام.

> فقال عليّ ﷺ: استحييت لكما، فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا. فقالا: وما أوتيت يا عليّ؟

قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتَّى آمنتما بالله ورسوله ﷺ.

فقام العبّاس مغضباً يجرّ ذيله حتّى دخل على رسول الله ﷺ، وقال: أمـــا ترى إلى ما يستقبلني علىّ ؟

فقال: ادعوا عليًا . فدعي له، فقال: ما حملك على ما استقبلت به عمّك ؟ فقال: يا رسول الله صدمته بالحقّ، فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض.

فنزل جبرئيل وقال: يا محمّد إنّ ربّك يقرأ عليك السلام ويقول: اتل عمّك: «أجعلتم سقاية الحاجّ» الآيات.

فقال العبّاس: قد رضينا، ثلاث مرّات»(١).

⁽١) شواهد التنزيل ١: ٣٢٨ - ٣٣٨.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِاهْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةُ عِنْدَ اللهِ ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة منن لم يستجمع هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ المختصّون بالفوز بالثواب ونيل الحسنى عند الله دونكم.

﴿ يُبَشَّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضُوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا﴾ في الجنَّات ﴿ نَعِيمُ مُقِيمَ﴾ دائم لا يزول. وقرأ حمزة: يبشرهم بالتخفيف. وتنكير المبشّر به من الرحمة والرضوان والنعيم المقيم، إشعار بانها وراء صفة الواصف وتعريف المعرّف.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبْدَأَ﴾ أكّد الخلود بالتأبيد، لأنّه قد يستعمل للمكث الطويل ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجُرٌ عَظِيمٌ ﴾ يستحقر دونه ما استوجبوه لأجله، أو نعم الدنيا.

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَخذُواْ آبَآءُكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولِيَآءَ إِن ٱسْتَحَبُواْ الْكُفُرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَوَلَّهُم مِنكُمْ فَأُولِيَكَ هُمُ الظَّالِلُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْعَالُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْعَالُونَ وُ٣٣﴾ قُلْ إِن كَانَ تَخْشُونُ كُمْ وَأَبْعَالُونُ مُواللَّهُ وَيَسُولُهِ وَجِهَادُ فِي تَخْشُونَ كَمَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضُونَهَا أَحْبَ إِلْيُكُم مِنَ الله وَرَسُولِه وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَّبُصُواْ حَتَى يَأْتِيَ الله إِنَّمْرِهِ وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٢﴾

٩٢...... زيدة التفاسير ـ ج ٣
 وحراضه اغير هم عليه.

وقيل: نزلت نهياً عن موالاة التسعة الذين ارتدّوا ولحقوا بمكّة. والمعنى: لا

وفيل: نزلت نهيا عن موالاه التسعة الدين ارتدوا ولحقوا بمكه. والمعنى: لا تتّخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدّونكم عن الطاعة.

وقيل: نزلت في المهاجرين . فإنّهم لمّا أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا، وذهبت تجاراتنا. وبقينا ضائعين.

وروي: أنَّ من المهاجرين من تعلَّقت به زوجته، ومنهم من تعلَّق به أبواه وأولاده، فكانوا يمنعونهم من الهجرة، فيتركونها لأجلهم. فبهذه الآية بين سبحانه أنَّ أمر الدين مقدّم على النسب، وإذا وجب قطع قرابة الوالدين والولد فالأجنبي أولى. وبعد نزولها هاجروا، فجعل الرجل يأتيه أبوه وابنه وأخوه أو بعض أقربائه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، وبعد ذلك رخص لهم في الإنفاق.

ثمّ قال تأكيداً لهذا النهي بقوله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ﴾ فترك طاعة الله لأجلهم، أو اطّلعهم على أسرار المسلمين ﴿ فَأُونَئِكَ هُمُ الظّلِمُونَ ﴾ بوضعهم الموالاة في غير محلّها. وفي الحديث: «لا يجد أحد طعم الإيمان حتى يحبّ في الله ويبغض في الله أقرب الناس إليه».

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَالْبَنَاؤُكُمْ وَاخْوَاتُكُمْ وَازْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ أقرباؤكم. مأخوذ من العشرة، وعلى: من العشرة، فإنّ العشيرة جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة، وقرأ أبو بكر: عشيراتكم. ﴿ وَأَمْوَالُ اقْتَرْفَتُمُوهَا ﴾ اكتسبتموها واقتطعتموها وجمعتموها ﴿ وَيَجْارَةُ تَخْشُونَ كَسَادَهَا ﴾ تخافون أنّها تكسد إذا اشتغلتم بطاعة الله تعالى والجهاد ﴿ وَمَسَائِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ اخترتموها لأنفسكم، ويعجبكم المقام فيها ﴿ وَجَهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ﴾ الحبّ الاختياري ﴿ وَنَا الطّبيعي، فإنّه لا يدخل تحت التكليف في التحفّظ عنه ﴿ فَقَرَبَصُوا ﴾ فانتظروا ﴿ حَتَّى يَاتِي اللهُ إِنْهِ فِي ﴿ وَاللهِ السَرِع من العمقوبة العقوبة المعتبى العقوبة المنظرة المنظرة المنظرة المنظرة المنظرة المنظرة المنظرة المنظرة المناطقة المنظرة ا

سورة التوبة. آية ٢٥_٧٧٩٣

العاجلة أو الآجلة. وقيل: فتح مكّة. ﴿ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمُ الْفَاسِقِينَ ﴾ لا يرشدهم، بل يخلّيهم لعنادهم.

وفي الآية تشديد عظيم، فإنّ فيها تكليف المؤمن أن يتجرّد من الآباء والأبناء والعشائر وجميع حظوظ الدنيا لأجل الدين، وقلّ من يتخلّص منه. اللّهمّ وفّقنا لما يوافق رضاك، حتى نحبّ فيك الأبعدين، ونبغض فيك الأقربين.

لَقَدُ نَصَرَّكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَلْيَرَةِ وَيُوْمَ حُنَيْنِ إِذْ أَعْجَبَكُمُ كُثْرَتُكُمْ فَلْرَيْنَ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَصَاقَتُ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتُ ثُمَّ وَلَيْتُم مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزلَ جُنُودًا لَّمُ تَوْهَا وَعَذَبَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزلَ جُنُودًا لَّمُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَنُورٌ وَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

ولمّا تقدّم أمر المؤمنين بالقتال. ذكّرهم بعده ما أتاهم من النصرة حالاً بعد حال. فقال: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ عَشِيرَةٍ ﴾ يعني: مواطن الحرب، وهـي مواقعها ومواقفها. وروي عن الصادقين ﷺ أنّهم قالوا: أنّها كانت ثمانين موطناً. وروي أنّ المتوكّل اشتكى في مرضه شكاية شديدة، فنذر أن يتصدّق بمال

وروي ان المتوكل اشتكى في مرضه شكاية شديدة، فنذر ان يتصدّق بمال كثير إن شفاه الله، فلمّا عوفي سأل العلماء عن حدّ المال الكثير، فاختلفت أقوالهم، فأشير عليه أن يسأل أبا الحسن عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى عليه ، وقد كان حبسه في داره، فأمر أن يكتب إليه، فكتب: يتصدّق بثمانين درهماً. ثمّ سألوه عن العلّم في ذلك، فقرأ هذه الآية، وقال: عدّدنا تلك العواطن فبلغن ثمانين موطناً.

﴿ وَيَوْمَ شَنْتَنِ ﴾ وموطن يوم حنين. ويجوز أن يقدّر: في أيّام مواطن، أو يفسّر الموطن بالوقت، كمقتل الحسين الله ولا يمنع إسدال قوله: ﴿ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثَرْتُكُمْ ﴾ من «يوم حنين» أن يعطف على موضع «في مواطن» فإنّه لا يقتضي تشاركهما فيما أضيف إليه المعطوف، حتى يقتضي كثرتهم وإعجابها إيّاهم في جميع المواطن.

وهذا قول القاضي في تفسيره (١١، ردّ بذلك قول الزمخشري في الكشّاف حيث قال: «الواجب أن يكون «يوم حنين» منصوباً بفعل مضمر لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أنّ قوله: «إذ أعجبتكم» بدل من «يوم حنين» فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصحّ، لأنّ كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن، ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به، إلّا إذا نصبت «إذ» بإضمار: اذكر»(٢٠).

وحنين وادٍ بين مكّة والطائف، كانت فيه الوقعة بين المسلمين ــ وهــم اثــنا عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف حضروا فتح مكّة، وقد انضمّ إليهم ألفان من الطلقاء ــ وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف.

فلمًا التقوا قال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلّة. فساءت مقالته رسول الله عليه . وقيل: قائلها أبو بكر. وقد روي عن أصحابنا: أن أبا بكر عانهم، وعلمًا على أعانهم. فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المسلمون حتى بلغ فلهم (٣) مكّة، وبقي رسول الله عليه في مركزه، وبقي علي على ومعه الراية يقاتلهم، والعبّاس بن عبدالمطّلب آخذ بلجام بغلة رسول الله عليه عن يمينه، وأبو سفيان بن الحارث بن

⁽١) أنوار التنزيل ٣: ٦٤.

⁽٢) الكشَّاف ٢: ٢٥٩.

⁽٣) فلِّ القوم: هزمهم، ورجل فلِّ وقوم فلِّ: منهزم ومنهزمون.

سورة التوبة، آية ٢٥ ـ ٧٧

عبدالمطّلب عن يساره في تسعة من بني هاشم، وعاشرهم أيمن بن أُمّ أيمن.

وقال عليه المعبّاس وكان صيّتاً: صح بالناس. فنادى: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرّون؟ هذا رسول الله عليه البياض الله الله عليه البياض على خيول بلق، فنظر رسول الله عليه الله قتال المسلمين فقال: الآن حمي الوطيس(١٠).

أنا النبيّ لاكذب أنا ابن عبد المطّلب

ثمّ أخذ كفّاً من تراب فرماهم به، ثمّ قال: انهزموا وربّ الكعبة ، فانهزموا ونزل النصر من عند الله ، وانهزمت هوازن ، كما حكى الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ فَلَمْ تَعْنَى عَنْكُمْ ﴾ أي: الكثرة ﴿ شَيْئِنا﴾ من الإغناء ، أو من أمر العدر ﴿ وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبُتُ ﴾ . «ما » مصدريّة ، والباء بمعنى «ممع» ، أي: مع رحبها _ أي: سعتها _ لا تجدون فيها مفرّاً قطمئن إليه نفوسكم من شدّة الرعب ، أي: لا تشبتون فيها ، كمن لا يسعه مكانه ، فكأنّها ضافت عليكم . والجار والمجرور في موضع الحال ، أي: منتبسة برحبها ﴿ فَمُ وَلَيْتُمْ ﴾ الكفّار ظهوركم ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ منهزمين . والإدبار الذهاب إلى خلف ، خلاف الإقبال .

﴿ ثُمَّ الْذَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ ﴾ رحمته الّتي سكنوا بها وآمنوا ﴿ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ السُّولِهِ وَعَلَى السُّولِهِ وَعَلَى السُّولِهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُواللهُ اللهُ ا

وروى الحسن بن عليّ بن فضّال عـن أبـي الحسـن الرضـا ﷺ أنّـه قـال: «السكينة ريح من الجنّة تخرج منها طيّبة، لها صورة كصورة وجه الانسان. تكون

⁽١) في هامش النسخة الخطّية : «الوطيس: التنّور، مثل في شدّة الحرّ. فجعله رسول الله ﷺ كناية عن شدّة الحرب. منه».

٩٦..... زيدة التفاسير ـ ج ٣

مع الأنبياء». رواه العيّاشي(١) مسنداً.

﴿ وَانْزُلَ جُنُوداً لَمْ قَرَوْهَا ﴾ بأعينكم، يعني: الملائكة. وكانوا خمسة آلاف. أو ثمانية آلاف، أو ستّة عشر ألفاً، على اختلاف الأقوال. عن الجبائي: أنّ الملائكة نزلوا يوم حنين بتقوية قلوب المؤمنين وتشجيعهم، ولم يباشروا القتال يومئذٍ، ولم يقاتلوا إلا يوم بدر.

﴿ وَعَذَّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر، وسبي النساء والذراري، وسلب الأموال ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي: ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا.

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءً﴾ منهم بالتوفيق للاسلام ﴿ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضّل عليهم.

روي: أنّ ناساً منهم جاءُوا فبايعوا رسول الله ﷺ على الاسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّ الناس، وقد سبي أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، وقد سبى يومئذ ستّة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والفنم ما لا يحصى.

فقال: إنّ عندي ما ترون، إنّ خير القـول أصـدقه، اخــتاروا إمّــا ذراريكــم ونساءكم وإمّا أموالكم.

فقالوا: ما كنّا نعدل بالأحساب شيئاً.

فقام رسول الله عليه فقال: إنّ هؤلاء جاءوا مسلمين، وإنّا خيرناهم بين الذراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يردّه فشأنه، ومن لا فليعطنا، وليكن قرضاً علينا حستّى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه.

فقالوا: رضينا وسلَّمنا.

فقال: إنّى لا أدرى لعلّ فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك

⁽١) تفسير العيّاشي ٢: ٨٤ - ٣٩.

إلينا. فرفعت إليه العرفاء أنَّهم قد رضوا.

يَّا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنِّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسْ فَلاَ يَقْرُبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

ولمًا تقدّم النهي عن ولاية المشركين، أزال سبحانه ولايتهم عن المسبحد الحرام، وحظر عليهم دخوله، فقال: ﴿يَا أَيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسُ﴾ مصدر، يقال نجس نجساً، وقذر قذراً. ومعناه: ذووا نجس. فجعلوا نجاسة بعينها مبالغة في وصفهم لفرط خبث باطنهم وظاهرهم لها، كقولهم: زيد فسق، فإنّ معهم الشرك الذي هو رأس النجاسات التي يجب الاجتناب عنها، فالاجتناب عنه بطريق أولى، ولأنهم لا يجتنبون الأحداث والأخباث.

وعن ابن عبّاس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير. وعن الحسن: من صافح مشركاً توضّاً. وعن الصادقين ﷺ: من صافح مشركاً توضّاً. وعن الصادقين ﷺ: من صافح الكافر ويده رطبة غسل يده. وبه قال فقهاؤنا، فإنّ الكفّار بأنواعهم كافر نجس العين، وظاهر الآية يــدلٌ عــلى ذلك، وبه أيضاً روايات متظافرة مرويّة عن أثمّتنا ﷺ.

﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ لنجاستهم. وإنّما نهى عن الاقتراب للمبالغة، أو للمنع عن دخول الحرم، فلا يحجّوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهليّة ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ وهو سنة براءة الّتي نادى فيها عليّ على البراءة، وقال: لا يحجّن بعد هذا العام مشرك، وهو عام تسع من الهجرة. وقيل: سنة حجّة الوداع. وعندنا أنّهم كما منعوا من المسجد الحرام منعوا من جميع المساجد، لاشتراك العلّة، وهي النجاسة.

وقال قتادة: سمّاهم نبجساً لأنّهم يبجنبون ولا يبغنسلون، ويبحدثون ولا يتوضّؤن، ولم يجتنبوا عن أنواع النجاسات، فمنعوا من دخول المسبجد، كما أنّ الجنب وصاحب النجاسات لا يجوز لهم دخول المسجد.

وروي عن عمر بن عبدالعزيز أنّه كتب: امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله تعالى: «إنّما المشركون نجس» الآية. للعلّة المشتركة.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْنَةً ﴾ فقراً بسبب منع المشركين من الحرم، وانقطاع ما كان لكم في قدومهم عليكم من الارفاق والمكاسب ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضَلِهِ ﴾ من عطائه، أو تفضّله على وجه آخر. وقد أنجز الله وعده، أن أرسل السماء عليهم مدراراً أكثر به خيرهم، ووفّق أهل جدّة وصنعاء وتبالة (١) وجُرش فأسلموا وامتاروا(١) لهم، ثمّ فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجّه إليهم الناس من أقطار الأرض، فحملوا الطعام إلى مكّة، وكان ذلك أعود عليهم ﴿إِنْ شَامَ ﴾ إن أوجبت الحكمة إغناءكم، وكان مصلحة لكم في دينكم.

وفي الأنوار: «قيّده بالمشيئة لتنقطع الآمال إلى الله. ولينبّه على أنّه متفضّل في ذلك، وأنّ الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام»^(٣).

﴿إِنَّ اللهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع على وفـق الحكـمة والمصلحة.

 ⁽١) في هامش النسخة الخطية: «التبالة _ بفتح التاء، و تخفيف الباء الموحّدة _ بلدة صغيرة في اليمن . والجرش _ بضمّ الجيم، وفتح الراء _ مخلاف من مخاليف اليمن . منه» . والمِخلاف :
 الكورة من البلاد _ وهي : البقعة التي تجتمع فيها المساكن والقرى .

⁽٢) امتار أي: جمع الطعام والمونة. والميرة: الطعام الذي يدَّخره الانسان.

⁽٣) أنوار التنزيل ٣: ٦٥.

قَاتُلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيُوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدِ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

وعن ابن عبّاس: أنّ الشيطان ألقى في قىلوبهم الخوف وقىال: من أين تأكلون؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب، وأغناهم بالجزية. ثم بيّن أنّ من الكفّار من يجوز تبقيته بالجزية، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْنَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا يؤمنون بهما على ما ينبغي، كما بيّناه في أوائل(١) سورة البقرة، فإنّ إيمانهم كـلا إيمان، ولأنّ اليهود مثيّة والنصاري مثلّة.

﴿ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنّة.

وقيل: رسوله هو الّذي يزعمون اتّباعه. والمعنى: أنّهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً.

﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقَ ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها. فالمعنى: ولا يعتقدون دين الاسلام الذي هو الحقّ. يقال: فلان يدين بكذا إذا اتّخذه دينه ومعتقده.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْجَتَابَ﴾ بيان لرالَّذين لا يؤمنون» ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجَزْيَةَ﴾ ما تقرّر عليهم أن يعطوه. مشتقّ من: جزى دينه إذا قضاه، فإنها قطعة من المال على أهل الذمّة أن يجزوه، أي: يقضوه ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ حال من الضمير، أي: عن يدمواتية غير معتنعة، بمعنى: مسلّمين بأيديهم غير

⁽١) راجع ج ١ : ٥٩.

باعثين بأيدي غيرهم، ولذلك منع من التوكيل فيه. أو عن غنى ، ولذلك قبل: لا تؤخذ من الفقير. أو عن يد قاهرة عليهم، بمعنى: أذلاء عاجزين. أو حال من الجزية، بمعنى: نقداً مسلّمة عن يد إلى يد أو عن إنعام عليهم، فإنّ إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة.

﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أَذلاء. وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلّمها وهو قائم والآخــذ جــالس، وأن يــؤخذ بـتلبيبه(١١ ويــقال له: أدّهـا. وعــن ابــن عبّاسﷺ: تؤخذ الجزية من الذبّي وتوجأ(٢٦ عنقه.

ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية بأهل الكتاب. ويؤيده أنَّ عمر لم يكن يأخذ الجزية من المجوس، حتَّى شهد عبدالرحمن بن عوف أنَّ رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر، وأنَّه قال: سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب، وذلك لأنَّ لهم شبهة كتاب، فالحقوا بالكتابيّن. وهذا موافق لمذهب فقهائنا الاماميّة.

وأمّا سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا وعند الشافعي. وأمّـا عـند الحنفيّة فتؤخذ منهم إلّا من مشركي العرب. وعند مالك تؤخذ منهم إلّا من كـلّ كـافر إلّا المرتدّ. وبيان كميّة الجزية وسائر ما يتعلّق بها من كيفيّة الأخذ وغيرها مذكور في كتب الفقه.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ آئِنُ اللهِ وَقَالَتُ النَّصَارَى الْمَسْيِحُ ابْنُ اللهِ ذَلكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلُهُمُ اللهُ أَنَى يُؤْفَكُونَ

⁽١) لبّبت الرجل تلبيباً. إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة ثم جررته.

⁽٢) أي: تضرب باليد أو غيرها.

﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُواٞ أَخْبَارَهُمْ وَرُهُبَالَهُمْ أَرْبَابًا مَن دُونِ اللَّه وَالْمَسيحَ ٱبنَ مَرْبَمَ وَمَا أَمُرُواۚ إِلاَّ لِيَعْبُدُواۚ إِلَّهَا وَاحدًا لاَّ إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ُ يُرِيدُونَ أَن يُطْفَؤُواْ فَورَ اللَّه بَأَفْوَاهِهُمْ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَن يُتَم نُورُهُ وَلَوْ كَرَه اْلُكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِيُّ أَرْسَلَ رَسُولُهُ بِالْهَدَى وَدِينِ الْحَقِّ لَيُظْهِرُهُ عَلَى الدَّين كُلُّه وَلَوْ كُوهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَآ أَيُّها الَّذينَ آمَنُواۚ إِنَّ كَثِيرًا مَنَ الأَحْبَار وَالرُّهْبَانَ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْمَزُونَ الذَّهَبَ وَالْفَضَّةَ وَلاَ يُنفَقُونَهَا في سَبيل الله فَبَشَرْهُم بِعَذَابِ أَليم ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخْمَى عَلْيُهَا في نَار جَهَنَّمَ فَتُكُوِّى بِهَا جَبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزُتُمْ لأَنفُسكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُتُمُ تَكْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

ثمّ حكى الله سبحانه عن اليهود والنصارى أقوالهم الشنيعة، فقال: ﴿ وَقَالَتِ النَّيْهُودُ ﴾ أي: بعضهم لا كلّهم ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ مِبَدا وخبر. وهو اسم أعجمي، كمازر وعيزار وعزرائيل، ولعجمته وتعريفه امتنع من الصرف، وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب منوناً على أنّه عربيّ، وإنّما قالوا ذلك لأنّه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة، وهو لمّا أحياه الله تعالى بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً، فتعجّبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلّا لأنّه ابن الله. والدليل على أنّ هذا القول كان فيهم أنّ الآية قرئت عليهم فلم يكذّبوا، مع تهالكهم على التكذيب.

وعن ابن عبّاس: جاء رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بــن أوفـــى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك.

وقيل: قائله فنحاص. وسبب هذا القول أنّ اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى ﷺ ، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض، فأتاه جبرئيل فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم، فحقظه التوراة، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلّا لأنّه ابنه.

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ﴾ أي: بعضهم ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ﴾ وإنَّما قالو، استحالة لأن يكون ولد بلا اب، أو لأنَّه لا يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً.

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ إمّا تأكيد لنسبة هذا القول إليهم، ونفي للتجوّز عنها، أو إشعار بأنّه قول مجرّد عن برهان وتحقيق، مماثل للمهمل الّذي يوجد في الأقواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان ﴿يُضَاهِوُنَ قَوْلَ اللّذِينَ كَفُرُوا ﴾ أي: يضاهي قولهم قول الّذين كفروا، بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. والمضاهاة المشابهة، والهمزة لفة فيه، وقد قرأ به عاصم، ومنه قولهم: امرأة ضهياً على فَفينل، للّتي شابهت الرجال في أنّها لا تحيض ﴿ فِنْ قَبْلُ ﴾ أي: من قبلهم، والمعنى: أنّ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، على معنى أنّ الكفر قديم فيهم، أو قول المشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله، أو قول المشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله،

﴿ قَائَلَهُمُ اللهُ عاء عليهم بالإهلاك، فإنّ من قاتله الله تمالى هلك، أو تعجّب من شناعة قولهم. وقال ابن الأنباري: المقاتلة من القتل، فإذا أخبر عن الله بها كانت بمعنى اللعنة، لأنّ من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك. ﴿ النِّي يُمْ فَكُونَ ﴾ كيف ﴿اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ بأن اطاعوهم في تحريم ما أُحلِّ الله وتحليل ما حرّم الله، أو بالسجود لهم، كما تطاع الأرباب في أوامرهم. ولهذا يسمّى أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده، كما قال الله تعالى: ﴿يَغْبُدُونَ المَّنْهُ (١). ﴿نَا أَنْتَ لا تَعْدُد الشَّمْطَانَ ﴾ (٢).

روى التعلبي بإسناده عن عديّ بن حاتم قال: «أتيت رسول الله عليه وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عديّ اطرح هذا الوثمن من عنقك. قال: فطرحته، ثمّ انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة براءة هذه الآية: «أتّخذوا أحبارهم ورهبانهم». فقلت: إنّا لسنا نعبدهم، فقال: أليسوا يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّمه فتحلّونه؟ قلت: بلي. قال: فتلك عبادتهم.

وروي عن أبي جعفر ﷺ وأبي عبدالله ﷺ أنّهما قالا: «أما والله ما صاموا لهم ولا صلّوا، ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً، فاتّبعوهم فعبدوهم من حيث لا يشعرون».

وعن فضيل: ما ابالي أطعت مخلوقاً في معصية الخمالق، أو صلّيت لغمير القملة.

﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَزْيَمَ ﴾ أهّلوه للعبادة حين جعلوه ابناً لله تعالى. الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدُ قَانَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (٣). ﴿ وَمَا أَمِرُوا ﴾ وما أمر المتّخذون أو المتّخذون أو بالباً، فيكون كالدليل على بطلان الاتّخاذ ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا ﴾ ليطيعوا ﴿ إِلْهَا وَاجِدا ﴾ وهو الله تعالى. وأمّا طاعة الرسول وسائر من أمر الله تعالى

⁽١) سبأ: ٤١.

⁽٢) مريم: ٤٤.

⁽٣) الزخرف: ٨١.

بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله تعالى. والأمر هو أدلّة العقل والنصوص في الانجيل ﴿ لا الله الله والنصوص في يُنْدِيكُ إِلهُ إِلَّا اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَمّا للهُ عَمْا للهُ عَمْا للهُ عَمْا للهُ عَمْا للهُ عَمْا أَنْ يكون له شريك.

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِنُوا﴾ يخمدوا ﴿ نُـورَ اللهِ ﴾ حجّته الدالّة عـلى وحـدانيته وتقدّسه عن الولد، أو القرآن، أو نبورة محتد الله ﴿ فِإِفْوَاهِمِهُ ﴾ بشركهم، أو بتكذيبهم ﴿ وَيَائِي الله ﴾ الإباء في الأصل المنع والامتناع، وقد جرى مجرى عدم الإرادة والرضا هاهنا. فالمعنى: ولا يريد ولا يرضى ﴿ إِلّا أَنْ يُتِمْ نُـورَهُ ﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الاسلام. وإنّما صحّ الاستثناء المفرّغ والفعل موجب، لأنّه في معنى النفى كما فشر.

﴿ وَلَوْ كُرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ محذوف الجواب، وهو: لأتمّ، لدلالة ما قبله عليه.

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ بالحجج والدلائل المبيّنة ﴿ وَدِينِ الْحَقّ ﴾ أي: الاسلام وما تضمّنه من أحكامه ﴿ لِيُطْهِرَهُ عَلَى الدَّينِ كُلُهِ ﴾ كالبيان (١١) لقوله: «ويابى الله إلا أن يتم نوره» ولذلك كرّر ﴿ وَلَوْ كَوِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ غير أنّه وضع «الكافرون» للدلالة على أنهم ضعّوا الكفر بالرسول إلى المسرك بالله و والضعير في «ليظهره» للدّين الحقق أو للرسول و واللام في الدين للجنس، أي: ليعلي دين الاسلام على سائر الأديان بالحجّة والغلبة فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم حتّى لا يبقى على وجه الأرض إلاّ مغلوب، فلا يغلب أحد أهل الاسلام بالحجّة، وهم يغلبون أهل سائر الأديان بالحجّة، وأمّا الظهور بالغلبة،

⁽١) خبر لقوله: وقوله، في أوّل العبارة.

سورة التوبة، آية ٣٠ـ ٣٥.......٣٥

فهو أنَّ كلُّ طائفة من المسلمين قد غلبواعلى ناحية من نواحي أهل الشرك، ولحقهم قهر من جهتهم.

وقيل: أراد عند نزول عيسي ﷺ لا يبقى أهل دين إلّا أسلم أو أدّى الجزية.

وقال أبو جعفر ۓ: «إنّ ذلك يكون عند خروج المهديّ من آل محمدﷺ. فلا يبقى أحد الا أقرّ بمحمدﷺ.

وقال الكلبي: لا يبقى دين إلاّ ظهر الاسلام عليه، وسيكون ذلك ولم يكـن بعد، ولا تقوم الساعة حتّى يكون ذلك.

قال المقداد بن الأسود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلّا أدخله الله كلمة الاسلام إما بعرّ عزيز وإمّا بذلّ ذليل. أمّا بعرّهم فبجعلهم الله من أهله فيعرّوا به. وأمّا بذلّهم فيدينون له».

وعن ابن عبّاس: أنّ الهاء في «ليـظهره» عـائد إلى رسـول الله ﷺ ، أي: ليعلّمه الله الأديان كلّها حتّى لا يخفى عليه شيء منها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَاكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ

إِلْبَنَاطِلِ﴾ أي: يأخذونها ويتناولونها من الجهة الَّتي يحرم منها أخذه. وسمّى أخذ

المال أكلاً لأنّه الغرض الأعظم منه، والمعنى: أنّهم كانوا يأخذون الرشا في تبديل

الأحكام وتخفيف الشرائع والمسامحة فيها من عواسهم ﴿ وَيَسْصُدُونَ ﴾ ويسمنعون
غيرهم ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ عن اتّباع دينه الذي هو الاسلام.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ يقتنون ويجمعون ﴿ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ يحتمل أن يراد به الكثير من الأحبار والرهبان، فيكون مبالغة فـي وصفهم بالحرص على المال والضنّ بها. وأن يراد المسلمون الَّذين يجمعون المال ويقتنونه ولايؤدّون حقّه. وحينئذٍ اقترانه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ. ويدلّ عليه أنّه لمّا نزل كبر على المسلمين، فذكر عمر لرسول الله ﷺ وقال: «إنّ الله لم ١٠٦ زيدة التفاسير _ ج٣

يفرض الزكاة إلاّ ليطيب بها ما بقي من أموالكم».

وقوله ﷺ: «ما ادّي زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً، وما بلغ أن يــزكّى فلم يزكّ فهو كنز وإن كان ظاهراً» معناه: فليس بكنز أوعد الله عليه، فإنّ الوعــيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله تعالى أن ينفق فيه.

وكذلك قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها». وقوله: «تباً للذهب وتباً للفضّة. قالها ثلاثاً. فقالوا له: أيّ مال نتخذ؟ قال: لساناً ذاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجة تعين أحدكم على دينه». وتوفّي رجل فوجد في مئزره دينارا، فقال عليه الصلاة والسلام: «كَيّته (۱)، وتوفّي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال عليه الصلاة والسلام: «كيّتان». معناه: ما لم يؤدّ حقّها، لقوله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضّة لا يؤدّي منها حقّها، إلّا إذا كان يوم القيامة صفّحت له صفائح من نار، فيكوى بها جينه و جنبه وظهره».

والضمير في «ولا ينفقونها» إلى المعنى، لأنّ العراد بهما دنانير ودراهم كثيرة. كما قال عليّ ﷺ: «أربعة آلاف وما دونها نفقة، وما فوقها كنز».

وقيل: الضمير راجع إلى الأموال التي يتضمنها الذهب والفضّة. أو معناه: ولا ينفقونها والذهب، كما أنَّ معنى قوله: فإنِّي وقيّار بها لغريب، أي: وقيّار كذلك. وحينئذٍ تخصيص الضمير بالفضّة لقربها، ودلالة حكمها على أنَّ الذهب أولى بهذا الحكم.

وإنّما خصّ الذهب والفضّة من بين الأموال بالذكر، لأنّهما قـانون التـموّل، وأثمان الأشياء، ولا يكنزهما إلّا من فضلا عن حاجته.

﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمِ ﴾ وهو الكيّ بهما.

قوله: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ أي: يوم توقد النار ذات حمى شديد

⁽١) الكَيَّةُ: اسم المرّة من: كوي.

عليها، من قوله: نار حامية. ولو قيل: يوم تحمى، لم يعط هذا المعنى. وأصله: تحمى بالنار، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجارّ والمجرور، تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير، كما تقول: رفعت القصّة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصّة قلت: رفع إلى الأمير.

﴿ فَتَكُونَى بِهَا ﴾ بتلك الكنوز السحماة ﴿ جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ تخصيص هذه المواضع، لأنّ جمعهم وإمساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى عند الناس، والتنمّ بالمطاعم الشهيّة، بحيث يتضلّعون منها وينفخون جنوبهم، وبالملابس البهيّة الّتي يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك. أو لأنّهم كانوا يعبسون وجوههم للسائل ويولّونه جنوبهم وظهورهم في المجالس. أو لانّها أشرف الأعضاء الظاهرة، فإنّها المشتملة على الأعضاء الرئيسة الّتي هي الدماغ والقلب والكبد. أو لانّها أصول الجهات الأربع الّتي هي مقاديم البدن ومآخيره وحناه.

﴿ هَذَا مَا كَنَزْتُمُ ﴾ على إرادة القول، أي: يقال لهم: هذا ما كنزتم ﴿ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ لمنفعتها، وكان عين مضرّتها وسبب تعذيبها ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي: وبال كنزكم والمال الذي تكنزونه وتجمعونه وتمنعون حقّ الله منه، فحذف لدلالة الكلام عليه.

أورد مسلم بن الحجّاج في الصحيح (١) أنّه قال رسول الله ﷺ : «وما من عبد له مال لا يؤدّي زكاته إلّا جمع يوم القيامة صفائح يحمى عليها في نار جمهنّم. فتكوى بها جبهته وجنباه وظهره، حتّى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة منا تعدّون، ثم يرى سبيله إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار».

⁽۱) صحیح مسلم ۲: ۱۸۰ - ۲۶.

وروى ثوبان عن النبيّ ﷺ قال: «من ترك كنزاً مثّل له يوم القيامة شجاعاً ١٠ أقرع له ذنبان يتبعه . ويقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الّذي تركت بعدك، فلا يزال يتبعه حتّى يلقمه يده فيقضمها. ثمّ يتبعه سائر جسده».

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شُهُرًا فِي كَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا ۖ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلكَ الدِّينُ الْقَيْمُ فَلاَ تَظْلَمُواْ فِيهِنَّ أَنْهُسَكُمُ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَنَا يُقَاتِلُونَكُمُ كَافَّةً وَآغَلُمُوَا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

ولمّا ذكر سبحانه وعيد الظالم لنفسه بكنز المال من غير إخراج الزكاة وغيرها من حقوق الله منه، اقتضى ذلك أن يذكر النهي عن مثل حاله، وهو الظلم في الأشهر الحرم الذي يؤدّي إلى مثل حاله أو شرّ منه في المنقلب، فقال: ﴿إنَّ عِدَّة الشَّهُورِ﴾ مبلغ عدد شهور السنة ﴿عِنْدَ اللهِ ﴾ في حكم الله وتقديره. وهو معمول «عدّة» لأنّها مصدر ﴿اثْنَا عَشْرَ شَهْرا فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، أو في جميع الكتب المنزلة على أنبيائه، أو فيما أثبته في حكمه ورآه حكمة وصواباً. وهو صفة لواثنا عشر».

وقوله: ﴿ يَوْمَ خُلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ متعلّق بما فيه من معنى الثبوت. أو بالكتاب إن جعل مصدراً. والمعنى: أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر مذ خلق الله تعالى الأجرام والأزمنة. وإنّما تعبّد الله المسلمين أن يجعلوا سنتهم اثني عشر شهراً

⁽١) الشُجاع: ضرب من الحيّات.

سورة التوبة، آية ٣٦٠٠٠٠

ليوافق ذلك عدد الأهلة ومنازل القمر، دون ما دان به أهل الكتاب. والشهر مأخوذ من شهرة الأمر، لحاجة الناس إليه في معاملاتهم وغير ذلك من مصالحهم المعلّقة بالشهور.

﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةً هُوُمُ ﴾ واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سرد: ذوالقعدة وذوالحجّة والمحرّم.

﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ النَّقِيمُ ﴾ أي: تحريم الأشهر الحرم هو الدين المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل ﷺ. والعرب قد تمسّكت به وراثة منهما، فكانوا يعظّمون الأشهر الحرم، ويحرّمون القتال فيها، حتّى لو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجه.

﴿ فَلَا تَعْلَمُوا فِيهِنَّ الْنَفُسَكُمُ ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرامها. وأكثر الأمّة على أنّ حرمة المقاتلة فيها منسوخة. وأولوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهنّ، فإنّه أعظم وزراً، كارتكابها في الحرم وحال الإحرام. وعن عطاء أنّه لا يحلّ للناس أن يغزوا في الحرم وفي الأشهر الحرم، إلّا أن يقاتلوا، وما نسخت. ويؤيّد الأوّل ما روي أنّه ﷺ حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين في شوّال وذي القعدة.

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَقُ ﴾ جميعاً مؤتلفين غير مختلفين ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّتُ ﴾ جميعاً. وهي مصدر: كفَّ عن الشيء، فإنَّ الجميع مكفوف عن الزيادة، وقع موقع الحال من الفاعل أو المفعول ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ حمَّهم على التقوى بضمان النصر لأهلها.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ الاعتبار في السنين بالشهور القمريّة لا الشمسيّة، والأحكام الشرعيّة معلّقة بها، وذلك لما علم الله تعالى فيه من المصلحة. ولسهولةمعرفة ذلك على الخاصّ والعامّ. إِنَّمَا النَّسِيُ ۚ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلَّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُونَهُ عَامًا وَيُحْرَمُونَهُ عَامًا وَيُحْرَمُونَهُ عَامًا لَيُواطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَمَ اللّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوَّءُ أَلْكُونِنَ ﴿٣٧﴾

ولمّا قدّم سبحانه ذكر السنة والشهر، عقبه بذكر ما كانوا يفعلونه من النسيء، فقال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيء﴾ أي: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر. وذلك أنّهم كانوا أصحاب حروب وغارات، وكانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون شقّ عليهم ترك المحاربة، فكانوا يحلّونه ويحرّمون مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرّد العدد، وربما زادوا في عدد الشهور، فيجعلونها ثلاثة عشر شهراً يتسع لهم الوقت، ولذلك قال تعالى: «إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً» يعني: من غير زيادة زادوها. وعن نافع برواية ورش: إنّما النسيّ بقلب الهمزة ياءً وإدغام الياء فيها. ﴿ زِيادَةً فِي النَكْوِ ﴾ لأنّه تحريم ما أحلّه الله تعالى وتحليل ما حرّمه الله، وهو كفر آخر ضعّوه إلى كفرهم.

﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَقُرُوا﴾ ضلالاً زائداً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: يُضَلَّ على البناء للمفعول. وعن يعقوب: يُمِلُّ على أنَّ الفعل لله تعالى على سبيل التخلية. ﴿ يُحِلُّونَهُ عَاماً﴾ يحلّون النسيء من الأشهر الحرم سنة ﴿ وَيُحرَّمُونَهُ عَاماً﴾ ويحرَّمون مكانه شهراً آخر في سنة أخرى، فيتركونه على حمته.

ويروى أنّه حدث ذلك في كنانة . لأنّهم كانوا فقراء محاويج إلى الفارة . وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهليّة . وكان يقوم على جمل في الموسم فينادي: إنّ آلهتكم قد أُحلّت لكم المحرّم فأحلّوه ، ثمّ ينادي في القابل: إنّ آلهتكم قد حرّمت عليكم المحرّم فحرّموه. والجملتان تفسير للضلال أو حال.

﴿ لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله ﴾ ليوافقوا عدّة الأربعة المحرّمة ولا يـخالفوها. وقد خالفوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم. واللام متعلّقة بديحرّمونه»، أو بما دلّ عليه مجموع الفعلين ﴿ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ الله ﴾ بمواطأة العدّة وحدها من غير مراعاة الوقت.

﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة ﴿ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء، تخلية وخذلاناً، أي: لا يلطف بهم، بل يخذلهم. أو هداية موصلة إلى الجنّة، لفرط كفرهم وعنادهم.

قال ابن عبّاس: أوّل من سنّ النسيء عمرو بن يحيى بن قمعة بن جندب، وقال مجاهد: كان المشركون يحبّون في كلّ شهرين، فحجّوا في ذي الحجّة عامين، ثمّ حجّوا في المحرّم عامين، ثمّ حجّوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور، حتّى وافقت الحجّة الّتي قبل حجّة الوداع في ذي القعدة، ثمّ حجّ النبي ﷺ في العام القابل حجّة الوداع فوافقت ذا الحجّة، فذلك حين قال النبي ﷺ في خطبته: «ألا إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذوالحجّة، والمحرّم، ورجب الّذي بين جمادى وشعبان». أراد ﷺ بذلك أنّ الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها، وعاد الحجّ إلى ذي الحجّة، وبطل النسيء.

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفُرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَاقَلُتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفرُواْ يُعذَبِّكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهَ إِذْ أَخْرَجُهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لَصَاحِبِهِ لاَ تَخْرَنُ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلَيْمَ اللهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿﴿٤٤﴾

روي أنّ رسول الله عليه الله الله الله الله الله الله المحاد لغزوة الروم، وذلك في زمان عسرة وقيظ وقحط ووقت إدراك الثمار، فأحبّوا المقام في المسكن والمال، وشقّ عليهم الخروج إلى القتال، وكان الله الله خرج في غزوة إلّا كنّى عنها وورّى بغيرها إلّا غزوة تبوك، لبعد شقّتها وكثرة العدوّ، ليتأهّب الناس، فأخبرهم بالذي يريد واستنفرهم. فلمّا علم الله سبحانه تثاقل الناس عاتبهم فقال: فأخبرهم بالذي أمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا الخرجوا في سبيل الله في الجهاد للقربة، وهو هنا غزوة تبوك (اشاقلتُم الماله: تناقلتم، فأدغمت التاء في الله الناء ثم أدخلت همزة الوصل، أي: تباطأتم فإلى الأقامة بأرضكم ودياركم معنى الإخلاد والميل فعدّي بوالي» أي: ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم فراضيئم بالمخيئة بالمنيئة بها في الآخرة ونعيمها فقامة منائغ مستحقر. في جنب الآخرة ونعيمها فقاباً اليما المتنقرة الم المتنفرة م إليه في عنب الآخرة في المنابئة عنها المنابئة بها في المنابئة عنها في المنابئة عنها في المنابئة عنها في منابئ الميما بالإهلاك بسبب فظيم، كقحط وظهور عدر في في منب الهد في غنبئة عناباً الميما بالإهلاك بسبب فظيم، كقحط وظهور عدر في في في منب المنابئة في في مستجل بكم

آخرين مطيعين. كأهل اليمن وأبناء فارس ﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَمَيْنا﴾ أي: لا يقدح تثاقلكم في نصر دينه شيئاً، فإنه الغنيّ عن كلّ شيء وفي كلّ أمر. وقيل: الضمير للرسول ﷺ، أي: ولا تضرّوا الرسول، فإنّ الله وعد له بالعصمة والنصرة ووعده حقّ. وفيه سخط عظيم على المتثاقلين، حيث هدّدهم بعذاب عظيم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنّه يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنّه غنيّ عنهم في نصرة دينه.

﴿ وَاللهُ عَلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على التبديل و تغيير الأسباب والنصرة بلا مدد، كما قال جلّت قدرته: ﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ﴾ أي: إن تركتم نصرته فسينصره الله، كما نصره وجعله منصوراً على أعدائه ﴿ إِذْ أَخْرَجُهُ الَّذِينَ كَفُرُوا ثَانِينَ الثَّيْنِ ﴾ حال كونه أحد اثنين، أي: لم يكن معه إلّا رجل واحد وهو أبو بكر فلن يخذله من بعد، فحذف الجزاء وأقيم ما هو كالدليل عليه _ أعني: قوله: «فقد نصره الله » _ مقامه. وإن لم تنصره فقد أوجب الله له النصر حتّى نصره في ذلك الوقت، فلن يخذله في غيره. وإسناد الاخراج إلى الكفرة لأنّ همتهم بإخراجه أو قتله قلن يخذله في غيره. وإسناد الاخراج إلى الكفرة لأنّ همتهم بإخراجه أو قتله تسبيب، لإذن الله له بالخروج.

﴿إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ﴾ بدل من «إذ أخرجه» بدل البعض، إذ السراد بــه رمــان متسع. والغار النقب العظيم في الجبل. وهو هاهنا نقب في أعلى ثور. وثور جبل في يمنى مكّة على مسيرة ساعة، مكنا فيه ثلاثاً.

﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثانٍ أو ظرف ارداني» ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وهو أبو بكر ﴿لاَ تَحْزَنُ الله مَ الله مَ علينا وعالم بحالنا، يحفظنا وينصرنا. ولمّا دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه. وقال رسول الله ﷺ: اللهم أعم أبصارهم. فلمّا طلع سراقة بن مالك ونظراؤه فوق الغار جعلوا يتردّدون حوله، ولم يروه ولا يفطنون و فد أخذ الله بأبصارهم عنه، وسراقة لمّا رأى بيض الحمام

١١٤ زيدة التفاسير ـج٣

وبيت العنكبوت قال: لو دخله أحد لانكسر البيض وتنفسّخ بيت العنكبوت. فانصرفوا.

وروى عليّ بن إبراهيم بن هاشم قال: «كان رجل من خزاعة فيهم يقال له أبو كرز، فما زال يقفو أثر رسول الله على حتى وقف بهم على باب الحجر، فقال: هذه قدم محمد، هي والله أخت القدم التي في المقام، وهذه قدم أبي قحافة أو ابنه. وقال: ما جازوا هذا المكان، إمّا أن يكونوا قد صعدوا في السماء، أو دخلوا في الأرض. وجاء فارس من الملائكة في صورة الإنس فوقف على باب الغار، وهو يقول لهم: أطلبوه في الشعاب فليس هاهنا، وكانت العنكبوت نسجت على باب الغار. ونزل رجل من قريش فبال على باب الغار، فقال أبو بكر: قد أبصرونا يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ: لو أبصرونا ما استقبلونا بعوراتهم».

﴿ فَأَنْزُلَ اللهُ سَكِينَقَهُ ﴾ أمنته الَّتي تسكن عندها القالوب ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على النبيّ ﷺ ، فأيقن أنّهم لا يصلون إليه.

وقال بعضهم (۱۱: يجوز أن تكون الهاء التي في «عليه» راجعاً إلى أبي بكر. وهذا بعيد، لأن الضمائر قبل هذا وبعده تعود إلى النبي ﷺ للا خلاف، وذلك في قوله: «إلا تنصروه فقد نصره الله» وفي قوله: «إذ أخرجه» وفي قوله: «لصاحبه» وقوله نعد: «وأيده» فكيف يتخلّلها ضمير عائد إلى غيره ؟! هذا، وقد قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) وقال في سورة الفتح: ﴿ قَانِزُلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ يعني: الملائكة أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو

⁽١) أنوار التنزيل ٣: ٦٨ - ٦٩.

⁽٢) التوبة: ٢٦.

⁽٣) الفتح : ٢٦ .

ليعينوه على العدوّ يوم بدر والأحزاب وحنين. وعلى هذا الوجه، الجملة معطوفة على قوله: «نصره الله». ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ اللَّذِينَ كَفَرُوا السُّفَلَىٰ ﴾ يعني: الشرك، أو دعوة الكفر ﴿ وَكَلِمَةَ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ يعني: التوحيد، أو دعوة الاسلام. والمعنى: وجعل ذلك بتخليص الرسول عن أيدي المشركين إلى المدينة، فإنّه المبدأ له، أو بتأييده إيّاه بالملائكة في هذه المواطن، أو بحفظه ونصره له حيث حضر.

وقرأ يعقوب: كلمة الله بالنصب، عطفاً على «كلمة الدين». والرفع أبلغ، لما فيه من الاشعار بأن كلمة الله عالية في نفسها وإن فاق غيرها، فلا ثبات لتفوقه ولا اعتبار. وفي توسيط ضمير الفصل تأكيد زيادة فضل كلمة الله في العلم. وأنها المختصة به دون سائر الكلم.

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ في أمره وتدبيره.

اْنفرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ لَوْكَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتُ عَلَيْهِمُ الشُّقَةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجُنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَادْبُونَ ﴿٤٢﴾

ثمّ بين تأكّد وجوب الجهاد على العباد فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافا ﴾ لنشاطكم له ﴿وَثِقَالا ﴾ عنه لمشقّته عليكم، أو لقلّة عيالكم ولكثرتها، أو ركباناً ومشاة، أو خفافاً وثقالاً من السلاح، أو صحاحاً ومراضاً، أو شبّاناً وشيوخاً، ولذلك لمّا قال ابن أمّ مكتوم لرسول الله ﷺ؛ «أعليّ أن أنفر؟ قال: نعم، حتى نزل قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى

١١٦ زبدة التفاسير ـج ٣

الْأَغْمَىٰ حَرَجٌ﴾ (١٠). الآية. وعن ابن عبَّاس نسخت بقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّـعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَىٰ﴾ (٢٠).

﴿ وَجَاهِدُوا بِامْوَالِكُمْ وَانْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما على حسب الحال، وهذا يدلّ على أنّ الجهاد بالنفس والمال واجب على من استطاع بهما أو بأحدهما ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من تركه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الخير، أو علمتم أنّه خير، إذ إخبار الله به صدق فبادروا إليه.

﴿ نَوْ كَانَ ﴾ ما دعوا إليه ﴿ عَرْضا ﴾ نضاً دنيويّاً ﴿ قَرِيباً ﴾ سهل المأخذ ﴿ وَسَفَراً قَاصِداً ﴾ وسطاً ﴿ لَا تَبْعُوكَ ﴾ لوافقوك طمعاً في المال ﴿ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَةُ ﴾ المسافة الّتي تقطع بمشقّة .

﴿ وَسَيَطِفُونَ بِاللهِ أَي: المتخلّفون يحلفون بالله إذا رجعت من تبوك معتذرين ﴿ لَوَ اسْتَطَعْنَا ﴾ يقولون: لو كان لنا استطاعة العدّة أو البدن، فاتِهم تمارضوا ﴿ لَكَنْ جَنَا مَعْكُمُ ﴾ هو ساد مسدّ جوابي القسم والشرط. وهذا من المعجزات، ذَنّه إخبار عمّا وقع قبل وقوعه. ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بإيقاعها في العذاب للأيمان الكاذبة، فإنّ الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك، أو لما أسروا به من الشرك، وهو بدل من «سيحلفون» أو جال من فاعله. ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنّهُمْ لَنَاهُمْ فَى ذَلْك، لاَنْهم كانوا مستطيعين الخروج.

عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنِتَ لَهُمْ حَتَّى يَبَّيَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِينَ ﴿٤٢﴾

⁽١) النور : ٦١ .

⁽٢) التوبة: ٩١.

ثمّ خاطب النبي ﷺ بما فيه شوب العتاب في إذنه لمّا استأذنوه في التأخّر عن الخروج معه إلى تبوك، فقال: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ﴾ هو من لطيف المعاتبة فيما غيره منه أولى، لا سيّما للأنبياء. وقد أخطأ جار الله (١١) في أن «عفا الله عنك» كناية عن الجناية والخطأ، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت جانياً. وحاشا سيّد الأنبياء وخير المرسلين أن ينسب إليه جناية وخطأ وسوء فعل، لثبوت عصمته بالأدلّة العمقليّة المانعة عن الجناية والخطأ. وقيل: معناه: أدام الله لك العفو.

﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ بيان لما كنّي عنه بالعفو من ترك الأولى. والمعنى: لأيّ شيء أذنت لهم في القعود والتخلّف عنك حين استأذنوك واعتلّوا بأكاذيب؟! وهللا توقّفت! ﴿ مَثَّىٰ يَتَبَيْنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فيه، فإنّه أولى من إذنك في التخلّف.

قيل: إنّما فعل رسول الله شيئين والحال أنّ تمركهما أولى وأحسس: أخذه الفداء، وإذنه للمنافقين، فعاتبه تعالى عليهما ليلتزم بما هو أولى في الأمور.

لاَ يَسْتَأْذُنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمُوالِهِمْ وَأَنْسَهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ۚ إِنَّمَا يَسْتَأْذَنَكَ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رئيبِهِمْ يَرَدَدُونَ ﴿٤٥﴾

ثمّ بيّن سبحانه حال المؤمنين والمنافقين في الاستئذان، فقال: ﴿ لَا يَسْتَاذِنْكَ ﴾ لا يطلب منك الإذن في القعود عن الجمهاد معك بالمعاذير الفاسدة ﴿ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِالْهَوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ أي: ليس من

⁽١) الكشَّاف ٢: ٢٧٤.

عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، فإنّ الخلّص منهم يبادرون إليه ولا يوقفونه على الإذن فيه. فضلاً أن يستأذنوك في التخلّف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلّف كراهة أن يجاهدوا ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالانتظام في زمرة أهل التقوى، وعدة لهم بأجزل الثواب.

﴿إِنَّمَا يَسْتَاذِنَكَ ﴾ في التخلّف ﴿الَّذِينَ لَا يُـوَّبِنُونَ بِاشْ وَالْـيَوْمِ الْآخِرِ ﴾
تخصيص الإيمان بالله واليوم الآخر في الموضعين ، للإشعار بأنّ الباعث على الجهاد
والمانع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما ﴿وَارْتَابَثُ ﴾ واضطربت وشكّت ﴿قُلُوبُهُمْ
فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ ﴾ في شكّهم ﴿ يَتَرَدُونَ ﴾ يتحيّرون ، فإنّ التردّد صفة المتحيّر ، كما أنّ
الثبات صفة المستبصر . والمراد منهم المنافقون .

وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاتُهُمْ فَتَبَطَهُمْ وقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن هؤلاء المنافقين، فقال: ﴿ وَلَـوْ أَوَانُوا الْـخُرُوجَ ﴾ إلى الجهاد ﴿ لَا عَدُّوا لَهُ لَا لَحُروج ﴿ عَدُّهُ ﴾ أهبة ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ الْبِعَاثَهُمْ ﴾ نموضهم للخروج إلى الغزو، لعلمه تعالى بأنهم لو خرجوا لكانوا يمشون بالنميمة بين المسلمين ﴿ فَتَبْطَهُمْ ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل وخذلهم، لما علم منهم من الفساد. وإنّما وقع الاستدراك بدلكن » لأنّ قوله: «ولو أرادوا الخروج » يعطي معنى النفي، وكأنّه قبل: ما خرجوا ولكن تتبطوا عن الخروج ، لأنّ الله كره انبعائهم، فضعفت رغبتهم في الانبعاث.

﴿ وَقِيلَ الْقَدُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ النساء والصبيان والزمنى. هذا ذمّ لهم وتعجيز. وهو إذن رسول الله ﷺ لهم في القعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ إذنه ﷺ لهم غير قبيح، وإن كان الأولى أن لا يأذن، ليظهر للناس نفاقهم.

لَوْ حَرَجُواْ فيكُم مَّا زَادُوكُمْ إلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خلاَلَكُمْ يُبِغُونَكُمُ الْفُنْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَليمٌ بِالظَّالمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَد ٱبْبَعُوا الْفُنْنَةَ من قَبْلُ وَقَلْبُواْ لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَآءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّه وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿ ٤٨ ﴾ وَمُنْهُم مَّن يَقُولُ أَنْذَن لَي وَلاَ تَفْتَنيَّ أَلاَ في الْفُنَّة سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحيطَّةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصبُكَ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمُ وَإِن تُصبُكَ مُصيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَدُنَّا آَمُرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوْلُواْ وَهُمْ فَرحُونَ ﴿ ٥٠ ﴾ قُل أَن يُصِيبَنَا إلاَّ مَا كَتُبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ قُلُ هَلْ تَرَّبَصُونَ بِنَا ٓ إِلَّأ إِحْدَى الْحُسْنَيْيْنِ وَنَحْنُ نَتَرْبَصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مَنْ عنده أَوْ بأَيدينَا فَتَرَبَّصُوٓاً إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَّبِصُونَ ﴿ ٢٥﴾

ثمّ بيّن سبحانه وجه الحكمة في تثبيطهم عن الخروج، فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُوا ﴾ لو خرج هؤلاء المنافقون إلى الجهاد ﴿ فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ ﴾ بخروجهم شبيئاً ﴿ إِلّا خَبَالاً ﴾ فساداً وشرّاً. ولا يستلزم ذلك أن يكون لهم خبال حتّى لو خرجوا زادوه، لأنّ الزيادة باعتبار أعمّ العامّ الذي وقع منه الاستثناء. ولأجل هذا التوهّم جعل

الاستثناء منقطعاً. وليس كذلك، لأنّ الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلّا خبالاً، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعمّ العامّ الذي هو الشيء، فكان استثناء منّصلاً، لأنّ الخبال بعض أعمّ العامّ.

﴿ وَ لَا وَ صَعُوا خِلَاكُمْ ﴾ ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة والتضريب والتفريق، أو الهزيمة والتخذيل، من: وضع البعير وضعاً إذا أسرع، وأوضعته أنا. والمراد السرعة بالفساد، لأنّ الراكب أسرع من الساشي. ﴿ يَبِغُونَكُمُ الْفِئْنَةَ ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نيّاتكم في غزواتكم، أو الرعب في قلوبكم، والجملة حال من الضمير في «أوضعوا». ﴿ وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ ﴾ ضعفة من المسلمين يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نمّامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم ﴿ وَالشّ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ ﴾ بالمصرّين على الفساد، فيعلم ضمائرهم وما يتأتّى منهم.

﴿ لَقَدِ الْبَتَعَوْا الْفِتْنَةَ ﴾ هي اسم يقع على كلّ شرّ وفساد، أي: نصبوا لك الفوائل، وسعوا في تشتيت شملك وتفريق أصحابك. ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني: يوم أحد، فإنّ ابن أبيّ وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ما خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى ذي جدة أسفل من ثنيّة الوداع، انصرفوا يوم أحد. وعن سعيد بن جبير: وقفوا في غزوة تبوك على الثنيّة ليلة العقبة ليفتكوا به، وهم اثنا عشر رجلاً.

﴿ وَقَلْبُوا لَكَ الْأَمُورَ ﴾ ودبّروا لك المكائد والحيل، واحتالوا في إبطال أمرك ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقَّ ﴾ أي: النصر والتأييد الإلهي ﴿ وَفَلَهَرْ أَهُوْ اللهِ ﴾ علا وغلب دينه وأهله ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ أي: على رغم منهم. وهو في موضع الحال. والآيتان لتسلية الرسول ﷺ على تخلّفهم، وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكره انبعائهم له، وهتك استارهم وكشف اسرارهم، وإزاحة اعتذارهم، تداركاً لإذن رسوله تخلّفهم، فعوتب عليه لترك الأولى. ﴿ وَهِنَهُمْ ﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿ مَنْ يَقُولُ انْذَنْ لِي ﴾ في القعود عن الجهاد ﴿ وَلا تَفْتِنُي ﴾ ولا توقعني في الفتنة. وهي الإثم الذي يلزم العصيان والمخالفة، بأن لا تأذن لي ، فإنّي إن تخلّفت بعد أمرك بالجهاد أثمت. وفيه إشعار بأنّه لا محالة متخلّف، أذن له أو لم يأذن. أو في الفتنة. بسبب ضياع المال والعيال، إذ لا كافل لهم بعدي. أو في الفتنة بنساء الروم، لما روي أنّ رسول الله الشيالي لما استنفر الناس إلى تبوك فقال: انفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر، يعني: نساء الروم، فقال جدّ بن قيس أخو بني سلمة من بني الخزرج: يا رسول الله أشذن لي ولا تنفتني ببنات الأصفر، ولكنّي أعينك بمالي، فاتركني فإنّي أخاف أن أفتن بهنّ، لأنّي مستهتر بالنساء. فقال: أذنت لك.

﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: الفتنة هي الّتي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلّف أو ظهور النفاق، لا ما احترزوا عنه ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ جامعة لهم يوم القيامة أو الآن، لأنّ إحاطة أسبابها يهم كوجودها، فكأنّهم في وسطها.

﴿إِنْ تُصِبِكَ ﴾ في بعض غزواتك ﴿حَسَنَةٌ ﴾ ظفر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمُ ﴾ لفرط حسدهم ﴿ وَإِنْ تُصِبِكَ ﴾ في بعضها ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ كسر وشدة وبليّة ، كما اصاب يوم أحد ﴿ يَقُولُوا قَدْ الْخَذْتَا أَسْوَنَا ﴾ الذي نحن متسمون به ، من الحذر والعمل بالحزم والتيقظ ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ من قبل ما وقع ، أي: تبجّحوا (١) بانصرافهم ، واستحمدوا رأيهم في التخلف ﴿ وَيَتَوَلُوا ﴾ عن مقام التحدّث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم ، أو عن الرسول مَن الله ﴿ وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون .

﴿ قُلْ لَنْ يُصِينِنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ إلّا ما اختصّنا بإثباته وإيجابه، من النصرة أو الشهادة، أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ، لا يتغيّر بموافقتكم ولا بمخالفتكم. ﴿ هُوَ مَوْلَانًا﴾ متولّي أمورنا وناصرنا ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوْكُلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

⁽١) تبجّح وتباجح أي: افتخر وتعظّم وتباهى.

١٢٢ زيدة التفاسير ـ ج ٣

لأنَّ حقَّهم أن لا يتوكَّلوا على غيره تعالى، فليفعلوا ما هو حقَّهم.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا﴾ تتظرون بنا ﴿ إِلَّا إِخْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ إحدى العاقبتين اللّتين كلّ منهما حسنى العواقب: النصرة والشهادة ﴿ وَنَحْنُ نَـتَرَبُّصُ بِحُمْ ﴾ أيضاً إحدى السوأيين ﴿ أَنْ يُصِيبِكُمُ اللهُ بِعَدَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ بقارعة من السماء، كما نزلت على عاد وشمود ﴿ أَوْ بِالنّدِينَا ﴾ أو بعذاب بأيدينا، وهو القتل على الكفر ﴿ فَتَرَبُّصُوا ﴾ ما هو عاقبتنا ﴿ إِنَّا مَعُكُمْ مُتَرَبِّصُون ﴾ ما هو عاقبتكم، فإنّه لابد أن يلقى كلّنا ما يتربّصه ولا يتجاوزه، والمراد بالأمر التهديد، كقوله: ﴿ الْفَمْلُوا مَا شَبْفُتُهُ ﴾ (١٠).

قُلْ أَفَقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرُهًا لَن يُقَتَّلَ مِنكُمْ إِنّكُمْ كُتُمُ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ وَمَا مَنعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَلَهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَتْقَوَنَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿ ٤٠ ﴾ فَلاَ يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿ ٤٠ ﴾ فَلاَ تُعْجِبُكَ أَمُوالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذَّبُهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تُعْجِبُكَ أَمُوالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَعَذَّبُهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَّوْمُ مَنكُمْ وَمَا هُمْ مَنكُمْ وَرَاهُ هُمْ مَنكُمْ وَكُمْ مَنكُمْ وَمَا هُمْ مَنكُمْ وَكُمْ مُومًا هُمْ مَنكُمْ وَكُمْ مَنكُمْ وَمُا هُمْ مَنكُمْ وَكُمْ مُؤْمَ يَوْمُ وَمُونُ ﴿ ٩٠ ﴾ وَيَجْلُفُونَ بِاللّهَ إِنَّهُمْ لَمَنكُمْ وَمَا هُمْ مَنكُمْ وَكُمْ مُؤْمَ وَمُو هُمْ كَاوِلُونَ وَهِ هُو يَجِدُونَ مُلْجَاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَخَلًا لَوْلُواْ إِلَيْهِ وَمُمْ مَنكُمْ وَمُا هُونَ ﴿ ٩٠ ﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَخَلًا لَوْلُواْ إِلَيْهِ وَمُمْ يَعْمُ مِن هُمْ يَعْمُ مُونَ وَمُ مَا مُعْمَونَ ﴿ ٩٠ ﴾

ثمّ بيّن سبحانه أنّ هؤلاء المنافقين لا ينتفعون بما ينفقونه مع إقامتهم على

⁽١) فصّلت: ٤٠.

الكفر، فقال: ﴿ قُلُ انْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْها ﴾ طائعين أو مكرهين ﴿ لَنْ يُتَقَبَّلُ مِنْكُمْ ﴾ نفقاتكم. والأمر في معنى الخبر، كقوله: ﴿ مَنْ كَانَ فِي الظَّلَالَةِ فَالْيَعْدُدُ لَكُ الرَّحْمَنُ ﴾ (١). ومعناه: لن يتقبّل منكم، أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه قوله: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرُ اللهُمَ ﴾ [١] لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ﴾ (١) أي: لن يغفر الله لهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وفي تساوي الإنفاقين مبالغة في عدم القبول. وهذا جواب قول جدّ بن قيس: وأعينك بمالي، ونفي التقبّل يحتمل أمرين: أن لا يؤخذ منهم، وأن لا يثابوا عليه.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف، وما بعده بيان وتقرير له، أعني: قوله: ﴿وَمَا مَنْعَهُمْ أَنْ تُخْبَلُ نَفْقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفُرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: أن يقبل بالياء، لأنّ تأنيث النفقات غير حقيقي ﴿ وَلاَ يَاتُونَ الصَّلَاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَائِي ﴾ متناقلين ﴿ وَلاَ يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ لأنّهم لا يرجون بهما ثواباً، ولا يخافون على تركهما عقاباً.

﴿ فَلَا تُعْجِبْكُ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَالُهُمْ ﴾ الإعجاب بالشيء أن يسرّ به سرور راضٍ به متعجّب من حسنه. والخطاب للنبيّ الشيء والمراد جميع المؤمنين. والمعنى: فلا تستحسنوا ما أوتوا به من زينة الدنيا، فإنّ ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال: ﴿إِنْمَا يُرِيدُ اللهُ لِلْمُقَدِّبُهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك استدراجاً لهم. وأصل الزهوق الخروج بصعوبة.

﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ أي: لمن جملة المسلمين ﴿ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ لكفر قلوبهم ﴿ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بمهم ما تفعلون

⁽١) مريم: ٧٥.

⁽٢) التوبة : ٨٠.

۱۲۶ زیدة التفاسیر ـج ۳

بالمشركين، فيظهرون الاسلام تقيّة.

﴿ نَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأَ﴾ حصناً يلجؤون إليه، متحصنين به من راس جبل أو قلعة ﴿ أَوْ مَخَارَاتٍ ﴾ غيراناً () من: أغار الرجل وغار إذا دخل الغور. وقيل: هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا، يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم. ﴿ أَوْ مُدَّخَلاً ﴾ مفتعل من الدخول. وأصله: مدتخلاً، أبدل التاء بعد الدال دالاً، أي: نفقاً ينجحرون () فيه. وقرأ يعقوب: مَدْخلاً ، من: دخل، أي: موضع دخول يأوون إليه. ﴿ لَوَلُوا إِلَيْهِ ﴾ لأقبلوا نحوه ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء، كالفرس الجموح.

وَمِنْهُم مَن يُلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَات فَإِنْ أَعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن نَّمْ يُعْطُؤاْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن نَّمْ يُعْطُؤاْ مِنْهَا آِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَوْ أَلْهُمْ رَضُواْ مَاۤ آَنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ ﴿٩٥﴾

روى الثعلبي في تفسيره: أنّ رسول الله ﷺ كان يقسّم غنائم حنين، فاستعطف قلوب أهل مكّة بتوفير الغنائم عليه. فقال ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج: اعدل يا رسول الله. فقال: ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟ فقال عمر: يا رسول الله اثلان لي فأضرب عنقه. فقال النبي ﷺ: دعه، فإنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الديمن كما يمرق السهم من الرمية. ثمّ قال: رأسهم رجل أسود في إحدى ثديه أو إحدى يديه مثل

⁽١) جمع الغار.

⁽٢) انجحر أي: دخل الجحر.

ثدي المرأة. أو مثل البضعة (١) تَدَرْدَرُ (٢). يخرجون على فـترة مـن النـاس. وفـي حديث آخر: فإذا خرجوا فاقتلود. . ثمّ إذا خرجـوا فـاقتلوهم، ثـمّ إذا خـرجـوا فاقتلوهم.

قال أبو سعيد الخدري: أشهد أنّي سمعت هذا من رسول الله 歌禮، وأشهد أنّ علياً ﷺ حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الّذي نعته رسول الله.

وفي ابن أبي خويصرة نزلت: ﴿وَمِثْهُمْ مَنْ يُلْمِزُكَ﴾ يعيبك ويـطعن عـليك. وقرأ يعقوب: يُلْمُزُكُ بالضمّ، وابن كثير: يلامزك. ﴿ فِي الصَّدْقَاتِ﴾ في قسمتها.

ثمّ وصفهم بأنّ رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين، فقال: ﴿ فَإِن أَعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ وطابت نفوسهم وأقرّوا بالله ﴿ وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ «إذا» للمفاجأة نائب مناب الفاء الجزائيّة.

وقيل: إنّها نزلت في أبي الجواظ المنافق، قال: الا ترون إلى صاحبكم إنّما يقسّم صدقاتكم في رعاة الغنم وينزعم أنّه يعدل. وقال ابن زيد: قال المنافقون: ما يعطيها محمّد ﷺ إلّا من أحبّ، ولا يـؤثر بـها إلّا من هـواه، فنـزلت.

﴿ وَلَوْ النَّهُمْ رَضُوا مَا آقَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ بما أعطاهم الرسول من الغنيمة أو الصدقة. وذكر الله للتعظيم، وللتنبيه على أنّ ما فعله الرسول اللّه الله كان بأمره تعالى ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا الله ﴾ كفانا فضله ﴿ سَيُوْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا الله ﴾ في قتينا أكثر ممّا آتانا اليوم ﴿ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ﴾ في أن يغنينا من فضله. والآية بأسرها في حيّز الشرط، والجواب محذوف، تقديره: لكان خيراً لهم.

⁽١) البَضعة: القطعة من اللحم.

⁽٢) أي: ترجرج وتجيء وتذهب. راجع لسان العرب ٤: ٢٨٣.

إِنْمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفَقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الزِقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٠٠﴾

ثمّ بين مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ، ودلالة على أنّ أهل النفاق ليسوا من مستحقيها، وأنّهم بعداء عن مصارفها، فمالهم التكلّم فيها ولمن قاسمها، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ أي: الزكوات لهؤلاء الأصناف الثمانية مختصّة بهم، ولا يجوز صرفها في غيرهم، ونحوه: إنّما السخاء لحاتم، أي: ليس لفيره، ويحتمل أن يصرف إلى بعضها. وعن حذيفة وابن عبّاس وغيرهما من الصحابة أنّهم قالوا: في أيّ صنف منها وضعتها أجزأك. وهو مذهبنا. فأتم بلاصح للدلالة على أنّه لا يستحقها سوى هؤلاء المذكورين.

واختلف في اللام في الفقراء هل للتمليك أو لبيان المصرف؟ فقال الشافعي: بالأوّل، فيجب البسط على الأصناف، ويعطى من كلّ صنف ثلاثة لا أقلّ. وقال مالك وأبو حنيفة بالثاني، فلا يجب البسط، بل لو أعطى زكاته واحداً من أيّ صنف كان جاز، لكن أبو حنيفة لا يعطي ما يؤدّى إلى الغنيّ، فلو خالف فعل مكروهاً، وملكه المعطى، وبرثت الذمّة. ومالك يجوّز ذلك إذا أمّل إغناءه.

وقال أصحابنا: يجوز أيّ صنف كان ولو واحداً منهم. لكنّ البسط افىضل، وبذلك قال ابن عبّاس وحذيفة وغيرهما من الصحابة. لأنّ كون اللام للمتعليك لا وجه له. فإنّ المستحقّ لا يملك قبل الأخذ. ولأنّ حملها على بيان المصرف مو فق لقول النبئ ﷺ الذي عابه المنافقون. فيكون أولى.

والفقير من لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته، من الفقار، كأنَّه أصيب

سورة التوية، آية ٦٠ ٢٠٠١. ١٢٧

فقاره. والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه، من السكون، كأنّ العجز أسكنه. ويدلّ عليه قوله: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ (١٠). وأنّه ﷺ كان يسأل المسكنة ويتموّد من الفقر. وقيل: بالعكس، لقوله تعالى: ﴿ أَو مِسْكِيناً ذَا مَتْزَبَةٍ ﴾ (١٠). أو الفقير الزمن المحتاج، والمسكين الضحيح المحتاج. أو الفقير هو المتعقّف اللّذي لا يسأل، والمسكين الذي يسأل، وروي ذلك عن أبي جعفر ﷺ، ومنقول عن ابن عبّاس والحسن والزهري ومجاهد. وقيل: بالعكس، وقيل: إنّهما قسم واحد، والثاني تأكيد الأول، كمطشان نطشان (١٣). والتحقيق: أنّهما يشتركان في معنى عدمي، وهو عدم ملك مؤونة السنة له ولعياله الواجبي النفقة لوكان غنيّاً.

﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ توم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه، فيستألف قلوبهم، أو أشراف من العرب يترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم، وقد أعطى رسول الله الله عينة بن حصن والأقرع بن حابس والعبّاس بن مرداس لذلك، وقيل: أشراف يستألفون على أن يسلموا، فإنّه الله عالى عطيهم، وقيل: كان سهم المؤلّقة لتكثير سواد الاسلام والاستعانة بهم، فلمّا أعزّه الله وأكثر أهله سقط.

﴿ وَفِي الرَّقَابِ ﴾ وللصرف في فك الرقاب. وهم المكاتبون يعانون بشيء من الزكاة على أداء النجوم ليفكّوا رقابهم من الرق. والعبيد إذا كانوا في شدّة يشترون منها ويعتقون، ويكون ولاؤهم لأرباب الزكاة. وعندنا يجوز ابتياع العبيد مطلقاً من الزكاة مع عدم المستحقّ، أمّا مع وجوده فلا. والعدول عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة للدلالة على أنّهم أحقّ بأن توضع فيهم الصدقات متن سبق ذكره، لأنّ «في» للوعاء، وعلى أنّ المستحقّين قسمان: قسم يقبض لنفسه، وهم الفقراء

⁽١) الكهف: ٧٩.

⁽٢) البلد: ١٦.

⁽٣) النطش: شدَّة جَبِّلة الخلق. وعطشان نطشان: إتباع. راجع لسان العرب ٦: ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

والمساكين والعاملون والمؤلّفة. فهؤلاء يصرفونه في أيّ جهة شاؤا، فهم مختصّون به، فناسب ذلك اللام. وقسم يقبض لأجل جهة معيّنة يصرفه فيها، ولا يجوز صرفه في غيرها. وهم الرقاب والغارمون وابن السبيل، فناسب ذلك «في».

﴿ وَالْفَارِمِينَ ﴾ هم الذين ركبتهم الديون في غير معصية ، إذا لم يكن لهم وفاء ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على ابتياع الكراع(١) والسلاح إجماعاً ، وقبل: يدخل فيه بناء القناطر والمصانع وسائر مصالح المسلمين .

﴿ وَإِنْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله في الغربة، وإن كان غنياً في بلده. وإنّما سمّي ابن السبيل للزومه الطريق، فنسب إليه. ويشترط في استحقاقه كون سفره مباحاً. والضيف إن كان منقطعاً به في غير بلده فهو داخل في ابن السبيل. وإنّما كرّر «في» في الأخيرين، ولم يعطف على الرقاب كما عطف الفارمين عليه، لفضل ترجيح لهما.

﴿ فَرِيضَةُ مِنَ اللهِ ﴾ مصدر لما دلَّ عليه الآية ، أي: فرض لهم الصدقات فريضة. أو حال من الضمير المستكن في «للفقراء». ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء في مواضعها.

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْدُونَ النَّبِيِّ وَيَعُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَكُمُّ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيَكُمِنُ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمُ وَالَّذِينَ يُؤْدُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلَيْمٌ ﴿ ٦٦﴾

روي أنّ جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد وشاس بن قبيس

⁽١) الكُرَاع: اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير .

سورة التوبة، آية ٦١٠٠٠ ١٢٩.

ومخشى بن حمير ورفاعة بن عبدالمنذر وغيرهم قالوا ما لا ينبغي للنبيّ الله وذروء. فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإنّا نخاف أن يبلغ محمّداً ما تقولون فيوقع بنا. فقال الجلاس بن سويد: بل نقول ما شئنا ثمّ نأتيه فيصدّقنا بما نقول، فإنّ محمّداً أذن سامعة، فنزلت: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤَذُونَ النّبِيّ وَيَقُولُونَ هُو اَذُن ﴾ الأذن الرجل الذي يصدّق كلّ ما يسمع كلّ ما يقال له ويصدّقه. سمّي بالجارحة للمبالغة، كأنّه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع، كانف كما سمّي الجاسوس عيناً لذلك. أو اشتق له فعل من: أذن اذناً إذا استمع، كأنف

﴿ قُلْ أَذُنُ خَنِرٍ لَكُمْ﴾ تصديق لهم بأنّه أذن ولكن لا على الوجه الذي دمّوا به. بل من حيث إنّه يسمع الخير ويقبله.

ثمّ فسر ذلك بقوله: «يُؤْمِنُ بِاللهِ» يصدّق به، لما قام عنده من الأدلّة ﴿ وَيُؤْمِنُ لِللهُ وَمِنْوَمِنُ لِللهُ وَمِنْ مِن خلوصهم، واللام مزيدة للتفرقة بين إيمان التصديق، فإنّه بمعنى التسليم، وإيمان الأمان، كما في قوله: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ (١).

﴿ وَرَحْمَةُ ﴾ أي: هو رحمة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِثْكُمُ ﴾ لمن اظهر الايمان، حيث يقبله ولا يكشف سرّه ولا يفضحه، فلا يفعل به ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليه. وفيه تنبيه على أنّه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم، بل رفقاً بكم وترحّماً عليكم.

وقرأ حمزة: ورحمةٍ بالجرّ، عطفاً على «خير» أي: هو أذن خير ورحـمة. ولا يسمع غيرهما. وقرأ نافع: أذن بالتخفيف فيهما.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴾ بإيذائه. وقيل: نزلت هذه الآية

⁽١) يوسف: ١٧.

في رجل من المنافقين يقال له: نبتل بن الحارث، وكان رجلاً أدلم (١) أحمر العينين أسفو (٢) الخدّين مشوء الخلقة، وكان ينم حديث النبيّ الشيّ إلى المنافقين. فقيل له: لا تفعل. فقال: إنّما محمد أذن، من حدّثه شيئاً صدّقه، نقول ما شئنا شمّ نأتيه ونحلف له فيصدّقنا. وهو الّذي قال فيه النبيّ الشيّ من اراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ

مُؤْمِنِينَ ﴿ ٦٢ ﴾

وقيل: إنّ جلاس بن سويد وغيره من المنافقين قالوا: لئن كان ما يقول محمد حقّاً فنحن شرّ من الحمير. وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له: عامر بن قيس، فقال: والله ما يقول محمد حقّ، وأنتم شرّ من الحمير. ثمّ أتى النبي الله النبي الله وأخبره، فلدعاهم فسألهم، فحلفوا أنّ عامراً كذب. فنزلت: ﴿ يَخْفُونَ بِاللهِ لَكُمْ ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا ﴿ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ لشرضوا عنهم، والخطاب للمؤمنين ﴿ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُ أَنْ يُرْضُوهُ أَحقَ بالإرضاء بالطاعة والوفاق. وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين. أو لأنّ التقدير: والله أحق أن يرضوه، والرسول كذلك. ﴿ إنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ باطناً وظاهراً، مذعنين بنبوة محمد مقرّين به.

وقيل: إنّها نزلت في رهط من المنافقين تخلّفوا عن غزوة تبوك. فلمّا رجع رسول الله ﷺ من تبوك أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم من تخلّفهم ويحلفون.

⁽١) الأدلم: الذي اشتد سواده في ملوسة.

⁽٢) الأسفع: أسود اللون إلى حمرة.

أَلَمْ يَعْلَمُواً أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولُهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّهُمْ بِمَا فِي قَلُوبِهِم قُلِ اسْمَهْزِؤُواً إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

ثمّ قال سبحانه على وجه التقريع والتوبيخ لهؤلاء المنافقين: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا الْمُنَافِقِينَ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا الْمُنَافِّينَ الْمَدَّ ﴿ فَانَ لَهُ فَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ﴾ على حذف الخبر، أي: فحقّ أنّ له، أو على تكرير «أنّ» للتأكيد. ويجوز أن يكون معطوفاً على «أنّه»، ويكون الجواب محذوفاً، تقديره: من يحادد الله ورسوله يهلك فأنّ له نار جهنّم خالداً فيها ﴿ ذَلِكَ الْجَزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ يعني: الهلاك الدائم.

روي: أنَّ المنافقين كانوا يستهزؤن بالاسلام، فكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي، فنزلت في شأنهم: ﴿ يَخْذُرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُخَزُّلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: عملى المؤمنين ﴿ سُورَةٌ تُنَبِّمُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وتهتك عليهم أستارهم. ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين، فإنَّ النازل فيهم كالنازل عليهم، من حيث إنّه مقروء ومحتج به عليهم.

وقيل: اللفظ لفظ الخبر ومعناه الأمر، أي: ليحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تخبرهم بما في قلوبهم من النفاق. وهذا حسن، لأنّ موضع الكلام على التهديد، لقوله: ﴿قُلِ السَّقَفِزَوَا﴾ أي: اطلبوا الهزء، هو وعيد بلفظ الأمر ﴿إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ﴾ مبرز أو مظهر ﴿مَا تَحَذَرُونَ﴾ ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم.

وقيل: هذا الحذر أظهروه على وجه الاستهزاء لا على سبيل التصديق. لأنَّهم

حين رأوا رسول الله ﷺ ينطق في كلّ شيء عن الوحي، قـال بـعضهم لبـعض: احذروا ألّا ينزل وحي فيكم، يتناجون بذلك ويضحكون به.

وَلَنْ سَأَلَّهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُلًّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَباللَّه وَآمَاته وَرَسُوله كُتُمْ تَسْنَهْزَؤُونَ ﴿٦٥﴾ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانَكُمْ إِن نَعْفُ عَن طَآثَهَة مّنكُمْ نُعَذَّبْ طَآتَهَةً بِأَنْهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافقُونَ وَالْمُنَافقَاتُ بَعْضُهُم مَن بَعْض يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوف وَيَقْبضُونَ أَيدَيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ لِنَ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافَقِينَ وَالْمُنَافَقَاتَ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالدينَ فيهَا هيَ حَسُّبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقيمٌ ﴿مه ﴾ كَالَّذينَ من قَبْلَكُمُ كَانُواًّ أَشَدَّ منكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْنَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْنَعُتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْنَعَ الَّذِينَ من قَبلكُمُ بِخَلَاقِهُمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَٰتُكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ ٦٩ ﴾

روي عن ابن كيسان: أنّ اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على العقبة ليفتكّوا برسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل ﷺ رسـول الله سورة التوبة، آية ٦٥ ــ ٦٦١٣٣

بذلك، وأمره أن يرسل إليهم أحداً ويضرب وجوه رواحلهم. وعمار كان يمقود دابة رسول الله عليه وحذيفة يسوقها. فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم. فضربها حتى تحاهم. فلمّا نزل قال لحذيفة: من عرفت من القوم ؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول الله عليه : إنّه فلان وفلان، حتى عدّهم كلّهم. فقال حذيفة: ألّا تبعث إليهم فتقتلهم ؟ فقال: أكره أن تقول العرب: لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم.

وروي عن أبي جعفر ﷺ مثله، إلّا أنّه قال: ائتمروا بينهم ليقتلوه، وقال بعضهم لبعض؛ إن فطن نقول: إنّما كنّا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن نقتله. فنزلت: ﴿ وَلَئِنْ سَالْنَهُمْ لَيَقُولُنُ إِنَّمَا كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ قيل: نزلت في ركب المنافقين مرّوا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات. فأخبر الله تعالى به نبيّه ﷺ فدعاهم، فقال: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: لا والله ما كنّا في شيء من أمرك وأمر أصحابك، ولكن كنّا في شيء منا يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر، أي: مشقّته.

﴿ قُلُ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ ﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصحّ الاستهزاء به، وإلزاماً للحجّة عليهم، وإشعاراً بعدم الاعتداد باعتذارهم الكاذب.

ثمَ أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يقول لهـؤلاء المنافقين: ﴿لاَ شَعْتَذِرُوا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم، فإنّها معلومة الكذب ﴿قَدْ كَفْرَتُم﴾ قد أظهر تم الكفر بايذاء الرسول ﷺ والطعن فيه ﴿بَعْدَ إِيمَائِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الايمان ﴿إِنْ نَعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِثْكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنّهم عن الإيذاء والاستهزاء ﴿نَعَدُبُ طَائِفَةٌ بِالنّهُمْ عَن الإيذاء والاستهزاء ﴿نَعَدُبُ طَائِفَةٌ بِالنّهُمْ وَصَرّين على النفاق، أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء. وقرأ

ثمّ بيّن أحوال المنافقين منهم بقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ
بَعْضِ﴾ أي: متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان، كأبعاض الشيء الواحد. وهو
تكذيب لهم فيما حلفوا ﴿ إِللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ (٣) وتقرير لقوله: ﴿ وَمَا هُمْ مِنكُمْ ﴾ (٣). وما
بعده كالدليل عليه، فإنّه يدلّ على مضادة حالهم لحال المؤمنين، وهبو قبوله:
﴿ يَامُرُونَ بِالمُنكَرِ ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ وَيَنتَهَوْنَ عَنِ النَّمَعْرُوفِ ﴾ عن الإيمان
والطاعات ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيهُمْ ﴾ عن المبرّات. وقبض اليد كناية عن الشحّ، أي:
شحّوا بالخيرات أو الصدقات والإنفاق في سبيل الله ﴿ نَسُوا الله ﴾ أغفلوا ذكر الله
وتركوا طاعته ﴿ فَنَسِيهُمْ ﴾ فتركهم من لطفه وفضله ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾
الكاملون في التمرّد والانسلاخ عن دائرة الخير.

﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكَفَّارَ ذَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: مقدرين الخلود فيها ﴿ هِنَي حَسْبُهُمْ ﴾ عقاباً وجزاءً. وفيه دليل على عظم عذابها، وأنّمه لا شيء أبلغ منه، نعوذ بالله منها ﴿ وَلَعَمْهُمُ اللهُ ﴾ أبعدههم من رحمته وأهانهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ ﴾ ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار ﴿ مُقِيمٌ ﴾ دائم لا ينقطع في الآخرة عنهم، وهو عذاب النار. أو عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكّون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، وما يخافونه من الفضيحة.

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ محلّ الكاف رفع، تقديره: أنتم مثل الّذين من قبلكم. أو نصب، تقديره: فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم.

ثمّ بين تشبيههم بهم، ومثّل حالهم بحالهم، فقال: ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِهُ لَصِيبهم من ملاذ الدنيا. واشتقاقه من الخلق

⁽١) أي : قراءة «نعف» و«نعذَّب» بالنون . وقرىء بالياء وبناء الفاعل فيهما .

⁽٢ و ٣) التوبة: ٥٦.

بمعنى التقدير، فإنّه ما قدّر لصاحبه ونصب، أي: أثبت. ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ فِخُلاقِهِمْ ﴾ ذمّ الأولين بحظوظهم الناقصة من الشهوات الفائية، والتهائهم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقيّة، تمهيداً لذمّ المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم.

﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ دخلتم في الباطل ﴿ كَالَّذِي خَاصُوا ﴾ كالَّذين خاضوا. وإفراده باعتبار الفوج أو الخوض، أي: كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الَّذي خاضوا. ﴿ وَلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة ﴾ لم يستحقّوا عليها ثواباً في الدارين ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة.

عن ابن عبّاس أنّه قال في هذه الآية: ما أشبه الليلة بالبارحة. «كالّذين من قبلكم» هؤلاء بنو إسرائيل شبّهنا بهم، لا أعلم إلاّ أنّه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتبعنّهم، حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضبّ لدخلتموه».

وروي مثل ذلك عن أبي هريرة، عن أبي سعيد الخدري، عـن النـبيّ ﷺ قال: «لتأخذنّ كما أخذت الأمم من قبلكم، ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً (۱) بباع، حتى لو أنّ أحداً من أولئك دخل جحر الضبّ لدخلتموه. قالوا يا رسول الله: كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلّا هم؟!».

وقال عبدالله بن مسعود: أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمتاً وهدياً، تتُبعون عملهم حذو القذّة(^{٣)} بالقذّة. غير أنّي لا أدري أتعبدون العجل أم لا؟

وقال حذيفة: المنافقون الذين فيكم اليوم شرّ من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. قلنا: وكيف؟ قال: أولئك كانوا يمخفون نفاقهم، وهمؤلاء أعلنوه. أورد جميعها التعلبي في تفسيره.

⁽١) الباع: قدر مدّ اليدين، وجمعه أبواع.

 ⁽٢) القُذَّةُ: ريش السهم. وحذو القدَّة بالقدَّة يضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان. كما
 أن كلّ واحدة من القدَّة تقدَّر على قدر صاحبتها.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأْ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثُمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدَّيْنَ وَالْمُؤْفَنِكَاتِ أَتَنْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمُهُمْ وَلَكِنَ كَانُواْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

ثمّ قال سبحانه تهديداً للمنافقين: ﴿ النّمْ يَاتِهِمْ ﴾ ألم يأت هـؤلاء المنافقين ﴿ نَبُأُ اللّهِ يَا وَمُ عَاد أهلكوا بالريح ﴿ نَبُأُ اللّهِ يَعْنِهُ مِ قَوْمٍ مُوْحٍ ﴾ أغرقوا بالطوفان ﴿ وَعَادٍ ﴾ وقوم عاد أهلكوا بالريح الصرصر(١) ﴿ وَنَعُودَ ﴾ وقوم صالح أهلكوا بالرجفة ﴿ وَقَدْمٍ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نسرود وأصحابه، فإنّهم أهلكوا بالبعوض ﴿ وَأَصْحَابٍ عَدْيَنَ ﴾ وأهل مدين، وهم قوم شعب، أهلكوا بالنار يوم الظلّة ﴿ وَاللّهُوْتَوْعَاتِ ﴾ ثلاث قريات قوم لوط، ائتفكت بهم، أي: انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجّيل. وقيل: قريات المكذّبين المتمرّدين، وائتفاكهنّ انقلاب أحوالهنّ من الخير إلى الشرّ.

﴿ اَتَنْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالبراهين والحجج والمعجزات ﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي: لم يكن من عادة الله ما يشابه ظلم الناس، كالمقوبة بلا جرم، لآنه حكيم لا يجوز أن يفعل القبيح ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب وسائر أنواع المعاصى، واستحقوا المقاب.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءٌ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُتَمِمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَيْك

⁽١) الريح الصرصر: الشديدة الهبوب أو البرد.

سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ ١٧﴾ وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتِ تَجْرِي مِن تَحْيَهَا الْأَبْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيْبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانْ مِّنَ اللّهِ أَكْبُرُ ذَلِكَ هُوَ الْفُوزُ الْمُظْلِمُ ﴿ ٧٧﴾

ولمّا ذكر الله سبحانه المنافقين ووصفهم بقبيح خصالهم، اقتضت الحكمة أن يذكر المؤمنين ويصفهم بضد أوصافهم، ليتصل الكلام بما قبله اتّصال النقيض بالنقيض، فقال: ﴿ وَالْمُوْمِنُونَ وَالْمُوْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءً بَعْضٍ ﴾ في مقابلة قوله: «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض» أي: يلزم كلّ واحد منهم موالاة بعض ونصرته، فهم يد واحدة على سواهم ﴿ يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكُو

﴿ أَوْلَٰذِكَ سَيْرَحَمُهُمُ اللهُ لا محالة، فإنّ السين مؤكّدة للوقوع، مفيدة لوجود الرحمة لا محالة، ونحوه: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرُحْمَنُ وُدَا ﴾ (() ﴿ سَوْفَ يُوْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ ﴾ (٢) ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (٣) ﴿ إِنَّ اللهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب على كلّ شيء، لا يمتنع عليه ما يريده، فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿ حَكِيمُ ﴾ يضع الأشياء مواضعها على حسب الاستحقاق.

﴿ وَعَدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيْبَةً ﴾ تستطيبها النفس، أو يطيب فيها العيش. وفي الحديث: أنّها قصور

⁽۱) مريم: ٩٦.

⁽٢) النساء: ١٥٢.

⁽٣) الضحي: ٥.

بناها الله من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ إقــامة وخلود.

وفي الكسّاف: «هو علم، لما روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ: عدن دار الله تعالى الّتي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيّون، والصدّيقون، والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك. وقيل: مدينة في الجنّة. وقيل: نهر جنّاته على حافّاته»(١١).

وفي الأنوار: «مرجع العطف فيها يحتمل أن يكون إلى تعدّد الموعود لكلّ واحد، أو للجميع على سبيل التوزيع. أو إلى تغاير وصفه، فكأنّه وصفه أوّلاً بأنّه من جنس ما هو أبهى الأماكن الّتي يعرفونها، لتميل إليه طبائعهم أوّل ما يقرع أسماعهم. ثمّ وصفه بأنّه محفوف بطيب العيش، معرّى عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين. ثمّ وصفه بأنّه دار إقامة وثبات في جوار علّيين، لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيّر. ثمّ وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: ﴿وَيضَوْانُ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كلّه، لأنّ رضاه مبدأ لكلّ سعادة، وسبب لكلّ فوز وكرامة»(٢).

وروي عن النبي ﷺ: «أنّ الله تعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم أبداً».

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرضوان، أو جميع ما تقدّم ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الّذي تستحقر دونه الدنيا وما فيها.

⁽١) الكشّاف ٢: ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

⁽٢) أنوار التنزيل ٣: ٧٤.

يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُلَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِنْسَ الْمَصِيرُ ﴿٣٧﴾

ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بالجهاد الذي هو من أعظم الأسباب الموصلة إلى النعم المذكورة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكَفَّارَ ﴾ بالسيف ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ بالزام الحجّة وإقامة الحدود ﴿ وَالْحَلُظُ عَلَيْهِمْ ﴾ في الجهادين جميعاً، ولا ترقّ بهم ﴿ وَمَاوَاهُمْ ﴾ ومأوى الفريقِين ﴿ جَهَنَّمُ وَبِفْسَ الْمُصِيرُ ﴾ .

يَحْلَفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلَمَةَ الْكُفُرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُواْ بِعَدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُواْ بِعَالُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ وَهَمُواْ بِهَا فَإِن يَتُوبُواْ يَعَذَّبُهُمُ اللّٰهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَ وَلِا ضَيرٍ ﴿ ٤٧﴾ الأَرْضِ مِن وَلِيْ وَلاَ نَصِيرٍ ﴿ ٤٧﴾

وروي عن ابن عبّاس: أنّ رسول الله المُثِلِثِ كان جالساً في ظلّ حجرته، فقال: إنّه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم نظر الشيطان. فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فنزلت: ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا﴾ ما حكى عنهم ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْمُقْوِ وَكَفُرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ وأظهر وا الكفر بعد إظهار الاسلام.

روي: أنَّه عليه الصلاة والسلام أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلَّفين. فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمَّد لإخواننا حقًّا لنحن شرّ من الحمير ، كما مرّ (١) آنفاً. فبلغ رسول الله ﷺ فاستحضره ، فحلف بالله ما قاله . فنزلت هذه الآية . فتاب الجلاس ، وحسنت توبته .

وروي أن اتني عشر أو خمسة عشر منافقاً توافقوا عند مرجمة 新華 من تبوك، أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنّم العقبة بالليل، على نحو ما مرّ. فأخذ عمّار بن ياسر بخطام (٢) راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، كما سبق. فينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقعة (٢) السلاح، فالتفت فإذا قوم متلمّون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا. وعن الباقر 變: ثمانية منهم من قريش، وأربعة من العرب. فنزلت فيهم: ﴿وَهَمُوا بِمَا لَمْ يَمَالُوا﴾ من قتل رسول الله ﷺ.

وقيل: نزلت عند إرادتهم إخراجه ﷺ وإخراج المؤمنين من العمدينة، أو عند إرادتهم أن يتوّجوا عبدالله بن أبيّ، أي: يجعلوه أميراً وإن لم يسرض رسول الله ﷺ.

﴿ وَمَا نَقَمُوا﴾ وما أنكروا وعابوا، أو ما وجدوا ما يمورث نقمتهم ﴿ إِلَّا أَنْ الْمُعْدُاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَصْلِهِ﴾ فإنّ أكثر أهل المدينة كانوا محاويج في ضنك من الميش، فلمّا قدمهم رسول الله ﷺ صاروا ذوي ثروة وغناء بالغنائم. وقتل مولى للجلاس، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألف درهم، فاستغنى. والاستثناء مغرّغ من أعمّ المفاعيل أو العلل. والمعنى: أنّهم جعلوا موضع شكر النعمة كفرانها، وكان الواجب عليهم أن يقابلوها بالشكر.

﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ ﴾ أي: التوب ﴿ خَيْراً لَهُمْ ﴾ هو الَّذي حمل الجلاس على التوبة ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا ﴾ بالإصرار على النفاق ﴿ يُعَدِّبُهُمُ اللهُ عَذَابِاً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا

⁽۱) في ص: ۱۳۰.

⁽٢) الخِطامُ: حبل يجعل في عنق البعير ويثنى في خطمه، وهو مقدّم أنف الدابّة وفمها.

⁽٣) قعقع السلاح: صوّت.

وَالْآخِرَةِ﴾ بالقتل والنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِـيٍّ وَلَا نَـَصِيرٍ﴾ فـينجيهم مـن العذاب.

وَمِنْهُم مَّنُ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنُ آتَانًا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَقَنَ وَلَنَكُونِنَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّآ آتَاهُم مِّن فَضْلِه بَخُلُواْ بِهِ وَوَلَواْ وَهُم مُعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَعْفَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمَ يُلْقُونَهُ بِمَآ أَخْلُفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكُذَبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَبَجُواهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلَيْمُ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَبَجُواهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهَ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهَ عَلَيْمُ اللّهَ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهَ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهَ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ مَنْ اللّهُ عَلْمُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ وَاللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُو

روي أنّ ثعلبة بن حاطب قال: «يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال: قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطبقه. فراجعه، فقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كلّ ذي حقّ حقّه. فدعا له، فاتّخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود حتّى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة. فسأل عنه رسول الله كالله فقال: يا ويح ثملبة. فبعث رسول الله مصدّقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرا بمعلبة فسألاه وأقرآه كتاب رسول الله الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: ارجعا حتّى أرى رأيي. فلما رجعا قال لهما رسول الله قبل أن يكلّماه: يا ويح ثعلبة مرّتين. فنزلت: ﴿ وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ الله لَهْنَ آتَاناً مِنْ فَضلِهِ يَكَلّماه: يا ويح ثعلبة مرّتين. فنزلت: ﴿ وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ الله لَهْنَ آتَاناً مِنْ فَضلِهِ لَنْ الصَّالِحِينَ ﴾ بإنفاقه في طاعة الله.

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَصْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾ منعوا حقّ الله تعالى منه ﴿ وَتَـوَلُّوا ﴾ عن

١٤٢ زيدة التفاسير ـ ج ٣

طاعة الله ﴿ وَهُمْ مُغْوِضُونَ ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها. وبعد نزول هذه الآية جاء ثعلبة بالصدقة، فقال ﷺ : «إنّ الله منعني أن أقبل منك». فجعل يحثوا النراب على رأسه. فقال: هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني. فقبض رسول الله ﷺ ، فجاء بها إلى أبي بكر فلم يقبلها، ثمّ جاء بها إلى عمر في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان.

﴿ فَاعَقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم، وتخلية وخذلاناً، يعني: خذلهم حتى نافقوا فتمكن النفاق في قلوبهم، لا ينفك عنها إلى أن يموتوا، وعن الحسن وقتادة: أن الضمير للبخل. والمعنى: فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم ﴿إلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ يلقون عملهم، أي: جزاءه، وهو يوم القيامة ﴿ بِمَا أَخْلَقُوا اللهُ مَا وَعَدُوهُ ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدّق والصلاح ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَخْذِبُونَ ﴾ ويكونهم كاذبين فيه، فإنّ خلف الوعد متضن للكذب مستقبح، ومنه جعل خلف (١) الوعد ثلث النفاق. أو في المقال، مطلقاً.

﴿ أَلَمْ يَطْلَعُوا ﴾ أي: المنافقون، أو من عاهد الله تعالى ﴿ أَنَّ اللهَ يَطْلُمُ سِرَّهُمْ ﴾ ما أسرّوه في أنفسهم من النفاق، أو العزم على الإخلاف ﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، أو تسمية الزكاة جزية ﴿ وَأَنَّ اللهُ عَلَّامُ اللهُ كُوبِ ﴾ فلا يخفى عليه ذلك.

الَّذِينَ يُلْمِزُونَ الْمُطَّوِعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخُرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

⁽١) في هامش النسخة الخطّية: «لأن المنافق هو الذي إذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خانَ. وإذا حدّث كذب».

روي أنه ﷺ حتّ على الصدقة فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب، وقبل: بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربّي أربعة، وأمسكت لعيالي أربعة. فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت. فبارك الله له حتّى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم.

وتصدّق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر. وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر فقال: بتّ ليلتي أجرّ بالجرير (١١ على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع. فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات.

فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبدالرحمن وعاصم إلا رياءً، ولقد كان الله ورسوله لغنين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحبّ أن يذكّر بنفسه ليعطى من الصدقات. فنزلت: ﴿النَّدِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ذمّ مرفوع أو منصوب، أو بدل من الضمير في «سرّهم»، أي: الّذين يعيبون ويطعنون ﴿الْمُطَوَّعِينَ﴾ المتطوّعين المتبرّعين ﴿مِنَ المُفُوّعِينَ﴾ المتطوّعين المتبرّعين ﴿مِنَ المُفُوّعِينَ ﴾ المتطوّعين المتبرّعين ﴿مِنَ المُفُوّعِينَ ﴾ المتطوّعين المتبرّعين ﴿مَنْ أَلْهُ مُؤْمَهُ ﴾ إلا طاقتهم، فيتصدّقون بالقليل ﴿فَيَسْتَوُونَ مِنْهُمْ ﴾ يستهزؤن بهم ﴿مَنْ فِنْ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ جازاهم على سخريتهم، كقوله تعالى: ﴿اللهُ يُسْتَهْزَى مُهمْ ﴿ اللهُ فَيْ عَذَابُ البِيهُ ﴾ على كفرهم.

اسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنْهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

روي أنَّ عبدالله بن عبدالله بن أبيّ _ وكان من المخلصين _ سأل رسول

 ⁽١) في هامش النسخة الخطية: «الجرير: الحبل الذي يجرّ به البعير. ومعناه: استقى للمناس على أجر صاعين. منه».

⁽٢) البقرة: ١٥.

الله علي مرض أبيه _ لعنه الله _ أن يستغفر له، فنزلت: ﴿ اسْ تَغْفِز لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِز لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِز لَهُمْ ﴾ الأمر والنهي في معنى الخبر. والمعنى: لن يغفر الله لهم استغفرت أم لم تستغفر لهم. وفيه معنى الشرط والجزاء. والمراد به المبالغة في اليأس من المغفرة بأنّه لو طلبها طلب المأمور بها وتركها ترك المنهيّ عنها لكان ذلك سواء في أنّ الله تعالى لا يفعلها، فيريد التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم، كما نصّ عليه بقوله: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ وقد شاع في كلامهم استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير دون التحديد.

وما قيل: من أنّه قال: لأزيدن على السبعين، فنزلت سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لن يبغفر الله لهم. وذلك لآنه ﷺ فهم من السبعين العدد المخصوص، لأنّه الأصل، فجوّز أن يكون ذلك حدّاً يخالفه حكم ما وراءه، فبين له أنّ المراد به التكثير دون التحديد.

ضعيف (١٠) لانّه خبر واحد لا يعوّل عليه، لأنّه يتضمّن أنّ النبيّ ﷺ السبق المنتفر للكفّار، وذلك غير جائز بالاجماع. وكذا أورد في الآحاد أنّه قال النبيّ اللّه علمت أنّه لو زدت على السبعين مرّة غفر لهم لفعلت. ويحتمل أن يكون النبيّ الله يوجو أن يكون لهم لطف يصلحون به، فعزم على الاستغفار لهم قبل أن يعلم بكفرهم ونفاقهم. ويمكن أن يكون قد استغفر لهم قبل أن يخبر بأنّ الكافر لا يغفر له، أو قبل أن يمنع منه. ويجوز أن يكون استغفاره لهم واقعاً بشرط التوبة من الكفر، فمنعه الله منه، وأخبره بأنّهم لا يؤمنون أبداً، فلا فائدة في الاستغفار لهم.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: اليأس من المغفرة وعدم جواز استغفارك ليس لبخل منّا، ولا قصور فيك، بل ﴿ بِأَنَّهُمْ مَقَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ بسبب الكفر الصارف عنها ﴿ وَاللهُ لَا

⁽١) خبر لـ«ما قيل» قبل أسطر .

يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ المتمرّدين في كفرهم. وهو كالدليل على الحكم السابق، فإنّ مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي. ويجوز أن يكون ذلك تنبيهاً على عنر الرسول ﷺ في استففاره، وهو عدم يأسه عن إيمانهم ما لم يعلم أنّهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم، لقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيِّنَ لَهُمْ أَشْهُمْ أَصْحَابُ الْجَجِيمِ (١٠).

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدهِمْ خلافَ رَسُولِ الله وَكَرِهُوا أَن يُجَاهدُوا إِنْمُوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَقَالُواْ لاَ تَنفُرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَمَ أَشَدُ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿ ٨٨ ﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وُلَيْبُكُواْ كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَكْسَبُونَ ﴿ ٨٧ ﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَافَقَة مَنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ للْخُرُوحِ فَقُل لَن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبْدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِي عَدُوًا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْفُعُودِ أَوَلَ مَرَةٍ فَافْعُدُواْ مَعَ الْخَالَفينَ ﴿ ٨٣ ﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن المنافقين المخلّفين عن تبوك وابتهاجهم بذلك. فقال: ﴿ فَرِحَ المُخَلِّقُونَ﴾ أي: الّذين خلّفهم النبيّ ولم يخرجهم معه إلى تبوك، لأنّهم استأذنوه في التأخّر فأذن لهم، ففرحوا ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﴾ بقعودهم عن

⁽١) التوبة: ١١٣.

الغزو خلفه. يقال: أقام خلاف الحيّ. أي بعدهم. ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة. لأنّهم خالفوه حيث قعدوا. فيكون انتصابه على العلّة أو الحال. أي: قعدوا عن تبوك لمخالفة رسول الله. أو مخالفين.

﴿ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَانْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ إيثاراً للدعة والراحة على طاعة الله. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج ﴿ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً وإقعاداً عن الجهاد. ﴿ قُلْ نَازُ جَهَنَّمْ ﴾ التي وجبت لهم بالتخلف عن أمر الله ﴿ الشَدُّ حَرَا ﴾ من هذا الحرّ بمراتب غير متناهية، وقد آثر تموها بهذه المخالفة ﴿ فَقَ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أن مآبهم إليها، أو أنها كيف اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

ثمّ أخبر عمّا يؤل إليه حالهم في الدنيا والآخرة: ﴿فَنْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلَيْنِكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنّه حتم واجب. ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغمّ. والمراد من القلّة المدم.

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَىٰ طَائِقَةٍ مِنْهُمْ ﴾ فإن ردّك إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلّفين، يعني: منافقيهم، فإنّ كلّهم لم يكونوا منافقين، أو من بقي منهم، وكان المتخلّفون اثني عشر رجلاً أو ثمانية عشر ﴿ فَاسْتَأَذَنُوكَ لِللّحُرُوجِ ﴾ المن غزوة أخرى بعد تبوك ﴿ فَقُلُ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبْداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُواً ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿ فَقُلُ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبْداً وَلَنْ مَثَوَّةٍ ﴾ تعليل له. وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلّفهم. وأوّل مرّة هي الخرجة إلى غزوة تبوك ﴿ فَاقْدُدُوا مَعَ النّجَالِفِينَ ﴾ أي: المتخلّفين، لعدم لياقتكم للمجهاد، كالنساء والصيان.

وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَد مِنْهُم مَّاتَ أَبْدًا وَلاَ نَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِتُونَ ﴿ ٤٨﴾ وَلاَ نَتْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يَعَذَّبُهُم بَهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿ ٨٠﴾

روي أنَّ ابن أبيّ المنافق دعا رسول الله ﷺ في مرضه، فلمّا دخل عليه سأله أن يستغفر له، ويكفّنه في شعاره الذي يلي جسده ويصلّي عليه، فلمّا مات أرسل قميصه ليكفّن فيه، وذهب ليصلّي عليه، فأخذ جبرئيل بثوبه وتلا عليه: ﴿وَلاَ تُصَلُّ عَلَىٰ احْدِهِ وَاللهِ عَلَيه اللهُ وَاللهُ لَا يَعْنَىٰ أَخِدُ وَالنّفاق.

واعلم أنّ «مات» وقع صفة للنكرة وهو «أحد». وأتى بصيغة الماضي. وإن كان متعلّق النهي مستقبلاً، نظراً إلى وقت إيقاع الصلاة، فإنّه بعد الموت، فيكون الموت ماضياً بالنسبة اليه.

وإنّما قال: «أبداً» وإن كان رسول الله ﷺ ليس بأبديّ، لأنّ المراد: لا تصلّ أنت ولا أمّنك أبداً، أو يكون المراد أنّهم لا يستحقّون الصلاة أبداً لكفرهم. والأولى أنّه قيّده بالثانية قطعاً لأطماعهم في ذلك، أو قطعاً لتجويز النسخ، وفي بعض الروايات أنّه صلّى عليه، فقال له عمر: أتصلّي على عدو الله ؟ فقال له: «وما يدريك ما قلت؟ فإنّى قلت: اللّهمّ احش قبره ناراً، وسلّط عليه الحيّات والعقارب».

وإنّما لم ينه عن التكفين في قميصه ونهي عن الصلاة عليه، لأنّ الضنّة بالقميص كان مخلاً بالكرم، ولأنّه كان مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين أسر ببدر. روي أنّه قبل له: لم وجّهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: إنّ قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً، وإنّي أؤمّل من الله تعالى أن يدخل في الاسلام كثير بهذا السبب. فيروى أنّه أسلم ألف من الخزرج.

﴿ وَلاَ تُعْجِبُكُ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُويِدُ اللهُ أَن يُعَذَّبُهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ كرّر للتأكب. والأمر حقيق به، فان الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد، والنفوس مغتبطة عليها. ويجوز أن تكون هذه في فسريق غير الأول.

وَإِذَآ أَنزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُواْ بِاللهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَلَكَ أُولُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿ ٢٨﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَطَبُعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقُهُونَ ﴿ ٧٨﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَ مُعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَاهُمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ هَمْ اللهُ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولِكَ هُمُ الْفَفْلِحُونَ ﴿ ٨٨﴾ أَعَدُ اللهُ لَهُمُ جَنَاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفُوزُ الْعَظِيمُ ﴿ ٨٨﴾

ثمّ بيّن سبحانه تمام أخبار المنافقين، فقال: ﴿ وَإِنَّا أَسْوِلَتُ سُورَةُ ﴾ من القرآن. ويجوز أن يراد بها بعضها، كما يقع القرآن والكتاب على كلّه وعلى بعضه. ﴿ أَن آمِنُوا بِهِ أَن آمنوا. ويجوز أن تكون «أن» المفسّرة. ﴿ وَجاهِدُوا مَعْ رَسُولِهِ

سورة التوية، آية ٩٠٩٠

اسْتَأذَنَكَ أَوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ ذووا الفضل والسعة، من: طال عليه طولاً ﴿وَقَالُوا
زَنْنَا نَكُنُ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ الذين قعدوا عن الحرب.

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع النساء. جمع خالفة. وقد يقال: الخالفة للّذي لا خير فيه. ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ خذلاناً وتخلية ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول ﷺ من السعادة، وما في التخلّف عنه من الشقاوة.

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِالْمَوَالِهِمْ وَانْفُسِهِمْ ﴾ أي: إن تخلّف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ منافع الدارين: النصر والفنيمة في الدنيا، والجنّة والكرامة في الآخرة، وقيل: الحور، لقوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ (١٠). وهي جمع خيرة تخفيف خيّرة، ﴿ وَأَوْلُـلَاّكَ هُمُ الْمُعْلِكُونَ ﴾ الفائزون بالمطالب.

ثمّ بيّن ما لهم من الخيرات الأخرويّة بقوله: ﴿أَعَدُ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَـجْدِي مِـنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ .

وَجَآءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٠٠﴾

روي أنَّ أسداً وغطفان استأذنوا في التخلّف، معتذرين بالجهد وكثرة العيال، فنزلت فيهم: ﴿وَجُنَّةَ الْمُعَذُّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلّف. وقيل: هم فنزلت فيهم بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت طيّ على أهالينا ومواشينا. والمعذّر إمّا من: عذّر في الأمر إذا قصّر فيه موهماً أنَّ له عذراً ولا عذر له، أو من: اعتذر إذا مهد العذر، بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، وقرأ

⁽١) الرحمٰن: ٧٠.

۱۵۰ زیدة التفاسیر ـج ۳

يعقوب: المُعْذِرونَ.

﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهُ وَرَسُولَهُ ﴾ نزل في غيرهم، وهم منافقوا الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادّعاء الايمان. وإن كانوا هم الأوّلين فكذبهم بالاعتذار.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ عَقَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعذّرين، فإنّ منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿ عَذَابُ البِيمُ﴾ بالقتل والنار.

لَّيْسَ عَلَى الضَّعَفَآءَ وَلاَ عَلَى الْمُرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ للّهَ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ ١١ ﴾ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَنُوكَ لَتَحْمَلُهُمْ قَلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَخْمِلُكُمْ عَلَى الدَّمْ حَزَّنَا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿ ١٧ ﴾ إِنَّمَا عَلَيْهِ تَوَلُواْ وَأَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَّنَا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿ ١٧ ﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسِنَّأَذُنُونَكَ وَهُمُ أَغْنِيآ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْحَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلْمِهُمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿ ١٣ ﴾

قيل: إنّ عبدالله بن أمّ مكتوم _ وكان ضرير البصر _ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيّ الله إنّي شيخ ضرير خفيف الحال خفيف الجسم وليس لي قائد، فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبيّ ﷺ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ هم اللّذين قورتهم ناقصة بالزمانة والعجز، كالهرمى(١) ﴿ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَىٰ﴾ هم أصحاب العلل المانعة من الخروج ﴿ وَلاَ عَلَى الْمَرْفِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا

⁽١) جمع الهَرِم، وهو الضعيف البالغ أقصى الكبر.

يُنْفِقُونَ ﴾ لفقرهم، كجهينة ومزينة وبني عذرة ﴿ حَرَجٌ ﴾ إثم في التأخّر ﴿إِذَا نَصَحُوا يشِوَرَسُولِهِ ﴾ خلصوا لله ولرسوله بالإيمان والطاعة في السرّ والعلانية، كما يفعل الموالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلاً أو قولاً يعود على الاسلام والمسلمين بالصلاح.

﴿ مَا عَلَى الْمُصْبِئِينَ مِن سَبِيلِ﴾ أي: ليس عليهم جناح، ولا إلى معاتبتهم سبيل المؤاخذة. وإنّما وضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنّهم منخرطون في سلك المحسنين، غير معاتبين لذلك. ﴿ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لهم أو للمسيء، فكيف المحسن: ؟!

روي أنّ سبعة من الأنصار: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبدالله بن كعب، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبدالله بن مغفل، وعلية بن زيد. أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغز معك. فقال: لا أجد. فتولّوا وهم يبكون، فنزلت فيهم:

﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ ﴾ عطف على الضعفاء، أو على المحسنين ﴿ إِذَا مَا اتَـوْكَ لِبَحْمِلَهُمْ ﴾ أي: جاؤا يسألونك مركباً يركبونه فيخرجون معك إلى الجهاد، إذ ليس معهم من الأموال والظهر ما يمكنهم للخروج في سبيل الله ﴿ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلْيْهِ ﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار «قد» ﴿ تَوَلُوْا ﴾ جواب «إذا» أي: رجعوا عنك ﴿ وَأَعْيَنُهُمْ تَقِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ أي: من دمعها، فإنّ «من» للبيان، وهي مع المجرور في محل النصب على التمييز، وهذا ابلغ من: يفيض دمعها، لاتّه يدلّ على أنّ العين جعلت كأنّ كلّها دمعاً فيّاضاً ﴿ حَزَنا ﴾ نصب على العلّة أو الحال أو المصدر لفعل دلّ عليه ما قبله ﴿ الاَ يَجِدُوا ﴾ متعلّق بدحزناً » أو بدتفيض » على تقدير اللام، أي: لئلاً يجدوا ﴿ مَا يُنفِقُونَ ﴾ في مغزاهم.

عن الواقدي: أنَّهم لمَّا بكوا كثيراً حمل عثمان منهم رجلين، والعبَّاس بــن

عبدالمطَّلب رجلين، ويامين بن كعب النضري ثلاثة.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَاذِنُونَكَ وَهُمْ اَغْنِياءُ﴾ واجدون الأهبة ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخُوَالِقِ﴾ استئناف لبيان ما هو السبب لاستئنانهم من غير عذر، كأنّه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فيقيل: رضوا بالدناءة والانتظام في سلك الخوالف إيثاراً للدعة ﴿وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ خذلاناً وتخلية حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فَهُمْ لَا يُطْلَمُونَ﴾ عاقبته في التخلف.

يَعْتَذَرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذَرُواْ لَن قُمِنَ لَكُمْ قَدْ ثَبَأْنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَة فَيْنَبَّكُمْ مِمَا كُتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ١٤﴾ سَيَحْلَفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلْبَتُمْ وَالشَّهَادَة يَتْنَبُّكُمْ مِمَا كُتُمُ مَعْمَلُونَ ﴿ ١٤﴾ سَيَحْلَفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلْبَتُمْ الْمَهِمْ لِنَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَوَاتًا بِمَا كَانُواْ يَكُمْ لِنَوْضُواْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضُواْ عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضُواْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضُواْ عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضُونَ اللّهُ مِنْ اللّهُ مِنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿ ١٩٤﴾

قيل: إنَّ ثمانين رجلاً من المنافقين، منهم جدّ بن قيس ومعتب بن قشير، اعتذروا إلى النبيِّ ﷺ في تخلّفهم لمّا قدم راجعاً من تبوك، فقال: لا تجالسوهم ولا تكلّموهم، فنزلت: ﴿ يَعْتَنِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ في التخلّف بالأباطيل ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ الله عَلَمُ من هذا السفر ﴿ قُلْ لاَ تَعْتَنِرُوا ﴾ بالمعاذير الكاذبة، لاَنَه ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ لن نصدُقكم، لاَنَه ﴿ قَنْ نَؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ لن نصدُقكم، لاَنَه ﴿ قَنْ فَقَالَ الله ﴾ إعلمنا بالوحي ﴿ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ بعض أخباركم، وهو

ما في ضمائركم من الشرّ والفساد ﴿ وَسَيْرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ أتنوبون عن الكفر أم تثبتون عليه ؟ فكأنّه استتابة وإمهال للتوبة ﴿ شُمْ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْفَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي: إليه، فوضع الوصف موضع الضمير، للدلالة على أنّه مطّلع على سرّهم وعلنهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ﴿ فَيُنْبَغَنَّكُمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه.

﴿ سَيَحْلِقُونَ فِاشِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبَتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ لتصفحوا عن جرمهم، فلا تعاتبوهم ولا تعنفوهم ﴿ فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ إعراض رد وإنكار وتكذيب، فلا توبّخوهم ﴿ إِنَّهُمْ وِجْسٌ ﴾ نجس كالشيء الخبيث اللّذي يجب الاجتناب عنه، فاجتنبوهم كما تجتنب الأنجاس، فإنّه لا ينفع فيهم التوبيخ والتعيير، فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علّة الإعراض وترك المعاتبة ﴿ وَمَاوَاهُمْ جَهَنَمُ ﴾ من تمام التعليل، وكأنّه قال: إنّهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ والعتاب في الدنيا والآخرة، أو تعليل ثانٍ، والمعنى: أنّ النار كفتهم عتاباً، فلا تتكلّفوا عتابهم ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يجوز أن يكون مصدراً، وأن يكون علّة.

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوا عَنْهُمْ ﴾ بحلفهم، فتستديموا عليهم ماكنتم تفعلون بهم ﴿ فَإِن تَرْضَوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهُ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي: فإنّ رضاكم لا يستلزم رضا الله، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله تعالى وعقابه. أو إن أمكنهم أن يلبسوا عليكم، لا يمكنهم أن يلبسوا على الله تعالى، فلا يهتك سترهم، ولا ينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم، بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم.

وفي هذه الآية دلالة على أنَّ من طلب بفعله رضا الناس ولم يطلب رضا الله تعالى. فإنَّ الله يسخط الناس عليه. كما جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: ١٥٤ زيدة التفاسير _ ج ٣

«من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس. ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس».

الأَغْرَابُ أَشَدُ كُفُرًا وَيَفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَ يَفَلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللّهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتْخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا
وَيَرَّصُ بِكُمُ الدَّوَاثِرَ عَلَيْهِمْ دَاقَرَةُ السَّوْءِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨٨﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيُومِ الآخِرِ وَيَتْخِذُ مَا يُنفِقُ قُرْبَاتِ عندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدُخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحْمِيمٌ ﴿٩٩﴾

ولمّا تقدّم ذكر المنافقين بين سبحانه أنّ الأعراب منهم أشدٌ في ذلك وأكثر جهلاً، فقال: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو ﴿الشّدُ كَفْراً وَيْفَاقاً﴾ من أهل الحضر، لتوحّشهم وقساوتهم، وعدم مخالطتهم لأهل العلم، وقلّة استماعهم للكتاب والسنّة ﴿واجْتَلُ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من ألا يعلموا ﴿ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من الشرائع، فرائضها وسننها ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ يعلم حال كلّ أحد من أهل الوبر والمدر ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ ومن منافقي الأعراب ﴿ مَنْ يَتَّخِذُ ﴾ يعد ﴿ مَا يُنفِقَ ﴾ يصرفه في سبيل الله ويتصدّق به ﴿ مَعْزَماً ﴾ غرامة وخسراناً، ولا يحتسبه عند الله تعالى، ولا يرجو عليه ثواباً، وإنّما ينفق رياءً أو تقيّة من أهل الاسلام، لا

لوجه الله ﴿ وَيَعْتَرَبُّصُ مِكُمُ الدُّوَائِسَ ﴾ دوائس الزمان وحدوادث الأيّام وعواقب الأمور من نوب الشدائد، لينقلب الأمر عليكم ، وتذهب غلبتكم عليه، فيتخلّص من الإنفاق.

﴿ عَلَيْهِمْ دَائِزَةُ السَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربّصون، من قبيل: ﴿ وَقَالَتِ النَّهُودُ يَدُ اللهِ مَعْلُولَةٌ عُلَّتْ أيدِيهِمْ وَلُعِنُوا﴾ (١٠. أو بالإخبار عن وقوع ما يتربّصون عليهم. والدائرة في الأصل مصدر، أو اسم فاعل من: دار يدور. وسمّي به عقبة الزمان. والسَّوء بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة، كقولك: رجل صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: السُّوء، هنا وفي الفتح (٢٠) بضمّ السين، وهو العذاب.

﴿ وَاللهُ سَمِيعُ﴾ لما يقولون عند الإنفاق ﴿ عَلِيمٌ﴾ بما يضمرون. قـيل: هـم أعراب أسد وغطفان وتميم.

ثمّ بين سبحانه من الأعراب المؤمنين المخلصين، فقال: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُومِنُ بِاشْ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ ﴾ سبب قربات. وهي ثاني مفعولي «يتّخذ» ﴿ وَصَلْوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ وسبب صلواته، لأنّه كان يدعو للمتصدّقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، كقوله ﷺ : اللّهم صل على آل أبي أوفى، لنا أناه أبو أوفى بصدقته.

﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةَ لَهُمْ ﴾ تقرّبهم إلى ثواب الله. وهذا شهادة من الله تعالى بصحّة معتقدهم، وتصديق لرجائهم على الاستئناف، مع حرف التنبيه، و«إنَّ» المحقّقة للنسبة، والضمير لنفقتهم، وقرأ ورش: قَرُبة بضمّ الراء. ﴿ سَيْدُخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وعد لهم بإحاطة الرحمة عليهم، والسين لتحقيقه، وقوله: ﴿ إِنَّ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لتقريره، وهذه الآية في عبدالله ذي البجادين ورهطه.

⁽١) المائدة: ٦٤.

⁽٢) الفتح: ٦.

وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْنَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبْدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ ١٠٠﴾

ولمّا تقدّم ذكر الأعراب بقسميهم، عقبه بذكر السابقين إلى الايمان، فقال:
﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ ﴾ أي: السابقون إلى الايمان وإلى الطاعات. وإنّما مدحهم
بالسبق لأنّ السابق إلى شيء يتبعه غيره، فيكون متبوعاً وغير تابع له، فهو إمام فيه
وداعٍ إلى الخير بسبقه إليه، وكذلك من سبق إلى الشرّ يكون أسوأ حالاً لهذه العلّة.
﴿ مِنَ المُهَاجِرِينَ ﴾ من الّذين هاجروا من مكّة إلى المدينة وإلى الحبشة.
وهؤلاء السابقون هم الّذين صلّوا إلى القبلتين، وقيل: الذين شهدوا بدراً، أو الذين

﴿ وَالْأَنْصَادِ﴾ الذين سبقوا نظراءهم من أهل المدينة إلى الاسلام. وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة أو اثني عشر رجلاً، وأهل العقبة الشانية، وكانوا سبعين. والذين آمنوا حين قدم عليهم مصعب بن عمير، فعلّمهم القرآن.

أسلموا قبل الهجرة.

﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ لحقوا بالسابقين من القبيلتين، أو من اتّبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة.

﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بـما نالوا من نعمه الدينيّة والدنيويّة ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَشْهَارُ ﴾ . وقرأ ابـن كثير : من تحتها، كما هو في سائر المواضع . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبْداً ذٰلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الّذي يصغر في جنبه كلّ نعيم .

قال في المجمع: «وفي هذه الآية دلالة على فضل السابقين ومزيّتهم عملى

سورة التوية، آية ١٠٠١٠٠١٥٧

غيرهم، لما لحقهم من أنواع المشقّة في نصرة الدين، فمنها مفارقة العشائر والأقربين، ومنها مباينة المألوف من الدين، ومنها نصرة الاسلام مع قلّة العدد وكثرة العدو، ومنها السبق إلى الايمان والدعاء إليه.

واختلف في أوّل من أسلم من المهاجرين. قيل: أوّل من آمن خديجة بنت خويلد، ثمّ عليّ بن أبي طالب. وهو قول ابن عبّاس، وجابر بن عبدالله، وأنس، وزيد بن أرقم، ومجاهد، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

وقال أنس: بعث النبيّ ﷺ يوم الاثنين، وأسلم عليّ بن أبــي طــالبﷺ وصلّى خلف رسول الله يوم الثلاثاء.

وقال مجاهد وابن إسحاق: إنّه أسلم وهو ابن عشر سنين، وكان مع رسول الله ﷺ ، أخذه من أبي طالب وضمّه إلى نفسه يربّيه في حجره، وكان معه حتّى عث نمّاً.

وقال الكلبي: إنّه أسلم وله تسع سنين. وقيل: اثنتا عشرة سنة، عـن أبـي الأسود. قال السيّد أبو طالب الهروي: وهو الصحيح.

وفي تفسير التعلبي روى إسماعيل بن أياس بن عفيف، عن أبيه، عن جدّه عفيف، قال: كنت امرءاً تاجراً فقدمت مكة أيّام الحجّ، فنزلت على العبّاس بن عبدالمطّلب، وكان العبّاس لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر فيبيعه أيّام الموسم. فبينما أنا والعبّاس بمنى إذ جاء رجل شابّ حين حلّقت^(۱) الشمس في السماء فرمى ببصره إلى السماء، ثمّ استقبل الكعبة فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه، فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشابّ فركع الغلام والمرأة، فخرّ الشابّ ساجداً فسجدا معه، فرفع الشابّ فرفع الشابّ فرفع اللهم والمرأة.

⁽١) أي: ارتفعت.

فقلت: يا عبّاس أمر عظيم.

فقال: أمر عظيم.

فقلت: ويحك ما هذا؟

فقال: هذا ابن أخي محمّد بن عبدالله بن عبدالمطّلب يـزعم أنّ الله بعثه رسولاً، وأنّ كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذا الفلام عليّ بن أبـي طالب، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجة محمّد، تابعاه على دينه، وأيم الله ما على ظهر الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء.

فقال عفيف الكندي بعدما أسلم ورسخ الاسلام في قلبه: يا ليتني كنت رابعاً. وروي أنّ أبا طالب قال لعليّ ﷺ: أي: بنيّ ما هذا الدين الذي أنت عليه؟

قال: يا أبة آمنت بالله ورسوله. وصدّقته فيما جاء به. وصلّيت معه لله. فقال له: ألا إنّ محمّداً لا يدعو إلّا إلى خير فالزمه.

وروى عبيدالله بن موسى، عن العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عبدالله، وأخبو رسبوله، وأنبا عبدالله وأخبو رسبوله، وأنبا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدى إلا كذّاب مفتر، صلّيت قبل الناس سبع سنين».

وفي مسند السيّد أبي طالب الهروي مرفوعاً إلى أبي أيّوب عن النبيّ ﷺ قال: «صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين، وذلك أنّه لم يصلّ فيها أحـد غيرى وغيره».

وقيل: إنّ أوّل من أسلم بعد خديجة أبو بكر. عن إبراهيم النخعي. وقيل: أوّل من أسلم بعدها زيد بن حارثة. عن الزهري وسليمان بن يسار وعروة بـن أبـي الزير.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني(١) بإسناده مرفوعاً إلى عبدالرحمن بن

⁽١) شواهد التنزيل ١: ٣٣٣ ح ٣٤٢.

سورة التوبة، آية ١٠١١٠١

عوف في قوله تعالى: «والسابقون الأولون» قال: «هم عشرة من قريش، أوّلهم إسلاماً على بن أبي طالب هيه (١٠).

وَمَنَّنُ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النَّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمُ مَّدَّنَيْنِ ثُمَّ يُرِدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظَيمٍ ﴿ ١٠١﴾ عَظَيمٍ ﴿ ١٠١﴾

ثمّ عاد الكلام إلى ذكر المنافقين، فقال: ﴿ وَمِعْنَ حَوْلَكُمْ ﴾ من جملة من حول بلدتكم، يعني: المدينة ﴿ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ الّذين يسكنون البدو ﴿ مُنَافِقُونَ ﴾ وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿ وَمِن أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ عطف على خبر المبتدأ الّذي هو «ممّن حولكم». ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت: ومن أهل المدينة قوم. ﴿ مُرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ ﴾ أي تمرّنوا على النفاق، من قولهم: مرن فلان على عمله ومرد عليه، إذا درب به حتى لان عليه ومهر فيه. فعلى الوجه الأخير «مردوا» صفة موصوف محذوف. ونظيره في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، قوله: أنا ابن جلاوطلاع الثنايا، أي: أنا ابن رجل جلا ووضح أمره. وعلى الأوّل صفة للمنافقين فصّل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر، أو كلام مبتدأ لبيان تمرّنهم وتمهّرهم في النفاق.

ودلٌ على مهارتهم في النفاق قوله: ﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم، أي: مهارتهم فيه وتنوقهم في تحامي مواقع التهم إلى حدّ أخفى عليك حالهم، مع كمال فطنتك وصدق فراستك.

⁽١) مجمع البيان ٥: ٦٤ _ ٦٥.

ثمّ قال: ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لا يعلمهم إلّا الله العطّلع عملى البواطس، لأنّهم يبطنون الكفر في ضمائرهم، ويظهرون لك الايمان وظاهر الإخلاص الّذي لا تشكّ في أمرهم، فهم وإن لبسوا عليك لكن لم يقدروا أن يلبسوا علينا.

﴿ سَنُعَذَّبُهُمْ مَوَّقَتِنِ﴾ بالفضيحة والقتل على أيدي السلائكة، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان. عن ابن عبّاس أنّهم اختلفوا في هاتين المرّتين فقال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة، فقال: اخرج يا فلان فإنّك منافق، وأخرج ناساً وفضحهم، فهذا العداب الأوّل، منافق، عذاب القبر. ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَنَابٍ عَظِيمٍ ﴾ هو عذاب النار.

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذَنْوِهِمْ خَلَطُواْ عَمَالًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيَبًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَنُورٌ رَّحيمٌ ﴿١٠٢﴾

روي أنَّ ثلاثة من المتخلفين وهم: أبو لبابة مروان بن عبدالمنذر وأوس بن
ثعلبة ووديعة بن حزام، أو عشرة، وقيل: سبعة منهم هؤلاء الثلاثة، لمّا سمعوا ما
نزل في المتخلفين عن تبوك أيقنوا بالهلاك، وأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد
توبة وندماً على فعلهم، وكان سبب تأخّرهم اشتغالهم بإصلاح أموالهم. فقدم رسول
الله عليه الله الله الله الله من سفر فرآهم
موثقين فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلّوا أنفسهم حتّى يكون رسول
الله عليه هو الذي يحلّهم، فقال: وأنا أقسم أن لا أحلّهم حتّى أومر فيهم، فنزلت:

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِنُنُوبِهِمْ ﴾ ولم يعتذروا من تخلّفهم بالمعاذير الكاذبة ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيْنا﴾ أي: خلطوا العمل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب، بآخر سيّء هو التخلّف وموافقة أهل النفاق. والواو إما بمعنى الباء، كما في قولهم: بعت الشاء شاة ودرهماً، أي: بدرهم، أو واقعة بمعناه الأصلي للدلالة على أنّ كلّ واحد منهما مخلوط بالآخر. كما تقول: خلطت الماء واللبن. تريد خلطت كلّ واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن. لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنّك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وفيه دلالة على بطلان القول بالإحباط، لأنّه لو كان أحد العملين محبطاً لم يكن لقوله: «خلطوا» معنى، لأنّ الخلط يستعمل في الجمع مع امتزاج، كخلط الماء واللبن، وبغير امتزاج، كخلط الدنانير والدراهم.

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أن يقبل توبتهم. وهي مدلول عـليها بـقوله: «اعترفوا بذنوبهم». ﴿ إِنَّ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضّل عليه.

حُدْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُعَلِّمُهُمْ وَتُؤَكِّهِم بِهَا وَصَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنْ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٠٠﴾ أَلَمْ يَعْلَمُواً أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ النَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُدُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَشَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَشَيْرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

روي أنّه لمّا نزلت هذه الآية أطلقهم رسول ﷺ بنفسه النفيسة، ولمّا أطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا الّتي خلّفتنا فتصدّق بها وطهّرنا. فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فنزلت: ﴿ خَذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهُّرُهُمْ ﴾ من الذنوب، أو حبّ المال المؤدّي بهم إلى مثله. والفعل صفة للصدقة، أي: صدقة مطهّرة. ويجوز

١٦٢ زيدة التفاسير -ج ٣

أن يكون الناء للخطاب لرسول الله ﷺ، أي: تطهّرهم أنت.

﴿ وَتَزَكِيهِمْ بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم، وترفعهم إلى منازل المخلصين. وقيل: التزكية بمعنى التطهير تأكيداً. ولا شبهة أنّ التأسيس أولى. وإنّما لم يجزم الفعلين ليكون جواباً للأمر، لأنّ في جعلهما صفتين فائدة زائدة، وهي أنّ المأمور أخذ صدقة مطهّرة، وهي الّتي تكون عن طيب نفس وانشراح صدر بنيّة خالصة، لا مطلق الصدقة، ومع الجزم لا يفيد إلا مطلق الصدقة، فعلى هذا تكون التاء للخطاب.

﴿ وَصَلَّ عَلَيْهِمُ ﴾ وترحّم عليهم بالدعاء لهم بقبول صدقاتهم والاستغفار لهم ﴿ إِنَّ صَلَوَاتُكَ سَكَنْ لَهُمُ ﴾ هو ما يسكن إليه. والمراد أنّهم تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم، وتطيب بقبول صدقتهم، وجمعها لتعدّد المدعوّ لهم، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتوحيد. ﴿ وَاللهُ سَعِيعٌ ﴾ باعترافهم بذنوبهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغمّ لما فرط منهم.

والأمر للوجوب عند أكثر أصحابنا، وعند آخرين للمندب. وهمذه مسألة أصوليّة، من أراد تحقيقها فليرجع إلى الكتب الأصوليّة. وهذا الحكم ثمابت في أثمّتنا بيخ القائمين مقام رسول الله عليه الفقير والساعي، للتاسي، ولجريان علّة الصلاة فيهم، وهي تطييب النفوس وطمأنينة القلوب.

قال الزهري بعد ذكر ما تقدّم: قال أبو لبابة: يا رسول الله إنّ من توبتي أن أهجر دار قومي الّتي أصبت فيها الذنب، وأنا انخلع من مالي كلّه. قال الله قال يتخزيك يا أبا لبابة الثلث. فأخذ الله ثلث أموالهم وترك الثلثين، لأنّ الله تعالى قال: «خذ من أموالهم» ولم يقل: خذ أموالهم.

وعن الحسن: المراد بها الأمر بأن يأخذ الصدقة من أموال هؤلاء التائبين تشديداً للتكليف، وليست بالصدقة المفروضة، بل هي على سبيل الكفّارة للذنوب التي أصابوها. وعن الجبّائي وأكثر المفسّرين أنّ المراد بهذه الصدقة الصدقة المفروضة. أعني: الزكاة. وهو الظاهر، لأنّ حمله على الخصوص بغير دليل لا وجه له، فيكون أمراً بأن يأخذ من المالكين للنصاب الزكاة من الورق إذا بلغ مائتي درهم، ومن الذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً، ومن الإبل إذا بلغ خمساً، ومن البقر إذا بلغت ثلاثين، ومن الغنر إذا بلغت خمسة أوسق.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ الضمير إمّا للمتوب عليهم، والهمزة للتقرير والتنبيه على وجوب علمهم بأنّ الله تعالى هو يقبل التوبة، وهو الذي يأخذ الصدقة. والمعنى: ألم يعلموا قبول توبتهم ـ قبل أن يتوب عليهم وتقبل صدقاتهم ـ والاعتداد بصدقاتهم. أو الضمير لفيرهم، والمراد به التحضيض عليهما.

﴿ أَنَّ اللهُ هُوَ يَقْبُلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ إذا صحّت. وتعديته برهـن النصمنه معنى التجاوز. ﴿ وَيَلْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ يقبلها إذا صدرت عن خلوص النيّة، قبول من يأخذ شيئاً ليؤدّي بدله ﴿ وَأَنَّ اللهُ هُوَ التَّوَّالُ الرَّحِيمُ ﴾ وأنّ من شأنه قبول توبة التأبين والتفضّل عليهم.

ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار لعدم علمهم، وذلك أنّهم لمّا سألوا الرسول ﷺ أن يأخذ أموالهم ويقبل توبتهم كما تقدّم ذكره، ولم يعلموا أنّه لا يقبل التوبة غير الله ولا يأخذ الصدقة إلّا هو، أنكر ذلك عليهم. وفائدة لفظ «هو» للحصر، أي: لا يقبل إلّا هو.

وفي الآية من المبالغة في وجوب العلم بقبول التوبة وأخذ الصدقة، وأنّه كثير القبول للتوبة ورحيم بعباده، ما يظهر لمن تدبّر تركيبها بإيراد الاستفهام بالمعنيين المذكورين، وإردافه بالعلم، ثمّ الإتيان بالجملة المؤكّدة براأنّ وأداة الحصر، وذلك غاية رافته بعباده ورحمته لهم.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ ما شئتم ﴿ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فإنّه لا يخفى عليه ، خيراً كان

أو شرّاً ﴿ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ فإنّه تعالى لا يخفى عنهم كما رأيتم وتبيّن لكم. وإنّما أدخل السين لأنّ ما لم يحدث لا تتعلّق به الرؤية، فكانّه قال: كلّ ما تعملونه يراه الله تعالى. وقيل: أراد بالمؤمنين الشهداء، وقيل: الملآئكة الذين هم الحفظة الذين يكتبون الأعمال، وروى أصحابنا أنّ أعمال الأمّة تعرض على النبيّ ﷺ في كلّ اثنين وخميس فيعرفها، وكذلك تعرض على أثمّة الهدى ﷺ القائمين مقامه فيعرفونها، وهم المعنيّرن بقوله: «والمؤمنون». ﴿ وَسَمَّرُدُونَ إِلَىٰ عَالِم اللهَيْبِ المُعنينِ بالمجازاة عليه.

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكيمٌ ﴿١٠٦﴾

﴿ وَآخَرُونَ ﴾ من المتخلّفيين ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ مؤخّرون، أي: موقوف أسرهم، من: أرجأته إذا أخّرته. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص: مرجون بالواو. وهما لغتان (٢٠). ﴿ لِأَمْرِ اللهِ ﴾ في شأنهم ﴿ إِمّا يُعَدِّبُهُهُ ﴾ إن بقوا على الإصرار على النماق

⁽١) السَّلْعُ: جبل بالمدينة.

⁽٢) أي: قراءة مُرجَون بالهمز ومُرْجَون.

ولم يتوبوا ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمُ ﴾ إن تابوا. والترديد للعباد. ﴿ وَاللهُ عَلِيمُ ﴾ بأحوالهم ﴿ حَكِيمُ ﴾ فيما يفعل بهم. ولمّا أخلصوا نيّاتهم وفوّضوا أمرهم إلى الله تعالى رحمهم وقبل توبتهم. وتصدّق كعب بثلث ماله شكراً لله على توبته.

وفي هذه الآية دلالة على صحّة مذهبنا في جواز العفو عن العصاة، لأنّـه سبحانه بيّن أن قوماً من العصاة يكون أمرهم إلى الله . إن شاء عذّبهم وإن شاء قبل توبتهم، فعفا عنهم. ويدلّ أيضاً على أنّ قبول التوبة تفضّل من الله سبحانه، لأنّه لو كان واجباً لما جاز تعليقه بالمشيئة.

وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا صَرَارًا وَكُفُرًا وَغُرِقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَارْصَادًا لَمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَ إِنْ أَرَدُنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذَبُونَ ﴿١٠٧﴾ لا تَقُمُ فِيه أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسْسَ عَلَى التَّقُوى مِنْ أُوَّلِ يَعْمُ أَحِقُ أَن تَقُومَ فِيه فِيه رِجَالٌ يُحبُّونَ أَن يَطَهَرُواْ وَاللهُ يُحبُ الْمُطَهّرِينَ فَمْ أَن تَقُومَ فِيه فِيه رِجَالٌ يُحبُّونَ أَن يَطَهَرُواْ وَالله يُحبُ الْمُطَهّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفًا جُرُف هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقُوْمَ الطَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾ لاَ يَوَالُ بُنْيَاتُهُمُ الَّذِي بَنُواْ رِبِيةً فِي قُلُومِهِمْ إِلاَّ أَن تَعَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ لاَ يَعْدِي الْقُوْمَ وَاللّهُ عَلَى مَكَمَا مَن اللهِ عَرِيفًا فِيهُمْ إِلاَّ أَن تَعَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلَى مَكَمَا مَن اللهُ عَلَيْ مَعْلَعُ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلَى مَكَمَا مَا مُن اللهِ عَلَى عَلْمَ عَلَيْ مَكَمَا مَا لَهُ اللهُ عَلَيْ مَا مَنْ اللهُ عَلَى عَلَيْمُ مَكِيمٌ هُواللهُ عَلَى مَعْمَا عَلُومُ وَاللّهُ عَلَى عَلَيْمَ حَكِيمٌ وَاللهُ عَلَى عَلَيْمُ مَكِيمٌ وَاللّهُ عَلَيْمُ مَاللهُ عَلَيْمُ مَكِيمٌ فَي اللهُ عَلَيْمُ مَكِيمٌ فَرَالُ مُنْكُونُ مِنْ اللهِ عَلَيْمُ عَلَيْمٌ حَكِيمٌ وَلِيلَاهُ عَلَى مَنْ اللهُ عَلَيْمٌ مَكَيمٌ فَاللهُ عَلَيْمُ مَكِيمٌ فَي اللّهُ عَلَى مُنْ اللهُ عَلَيْمٌ حَكِيمٌ وَاللّهُ عَلَيْمٌ مَكِيمٌ فَلَا اللهِ عَلَيْمٌ مَكِيمٌ وَاللّهُ عَلَيْمٌ مَكِيمٌ فَي اللهُ عَلَيْمٌ مَكِيمٌ وَاللّهُ عَلَيْمٌ مَكِيمٌ فَي اللّهُ عَلَيْمُ عَلَيْمٌ مَا اللّهُ عَلَيْمٌ مَا اللّهُ عَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمٌ عَلَيْمٌ مَا لِلْهُ اللّهُ عَلَيْمٌ مَا اللّهُ عَلَيْمٌ مِنْ اللّهُ عَلَيْمٌ مِنْ اللهِ عَلَيْمُ اللّهُ الْعَلَمُ عَلَيْمُ عَلَيْمٌ اللّهُ اللّهُ الْعَلَمُ عَلَيْمُ عَلَيْمٌ عَلَيْمٌ اللّهُ الْعَلَيْمُ اللّهُ عَلَيْمُ عَلَيْمٌ عَلَيْمٌ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْمٌ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ الل

قال المفسّرون: إنّ بني عمرو بن عوف اتّخذوا مسجد قبا، وبعثوا إلى رسول

وكانوا اثني عشر رجلاً. وقيل: خمسة عشر رجلاً، منهم ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، ونبتل بن الحارث، فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا، فلمّا فرغوا منه أتوا رسول الله إنّا قد بنينا منه أتوا رسول الله إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشائية، وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه وتدعو لنا بالخير والبركة. فقال: إنّي على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه. فلمّا انصرف رسول الله ﷺ من تبوك نزلت:

﴿ وَالنَّدِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ﴾ عطف على «وآخرون مرجون». أو مبتدأ خبره محذوف، أي: وممّن وصفنا الّذين اتّخذوا. أو منصوب على الاختصاص. وقرأ نافع وابن عامر بغير واو. ﴿ ضِرَاراً ﴾ مضارّة للمؤمنين ﴿ وَكُفُوا ﴾ وتقوية للكفر الّذي يضمرونه ﴿ وَتَقْدِيقاً بَيْنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ يريد الّذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قبا ﴿ وَإِرْصَاداً ﴾ ترقباً ﴿ لِهِنْ صَارَب الله وَرسوله من قبل أن يتخذوا المسجد، أو برهارت أي: لأجل من حارب الله ورسوله من قبل أن يتخذوا المسجد، أو براتّخذوا » أي: اتّخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلّف.

قيل: أبو عامر كان قد ترهب في الجاهليّة ولبس المسوح(١١)، فلمّا قدم

⁽١) المسوح جمع المِسْح، وهو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن زهداً وتقشَّفاً.

سورة التوبة، آية ١٠٧ ــ ١١٠١٦٧

النبي ﷺ المدينة حسده، وجمع الجيوش عليه يوم الأحزاب، فلمّا انهزموا خرج إلى الشام ولحق إلى الروم فتنصّر، ومات بقنّسرين وحيداً.

﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ يعني: هؤلاء المنافقين ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ ما أردنا ببنائه إلا الخصلة الحسنى، أو لإرادة الحسنى، وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿ وَاللهُ يَشْهُمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في حلفهم.

﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ آبَدا ﴾ للصّلاة ﴿ لَمَسْجِدُ أَسُسَ عَلَى النَّقْوَى ﴾ يعني: مسجد قبا أسسه رسول الله ﷺ وصلّى فيه أيّام مقامه بقبا من الاثنين إلى الجمعة. وقبا اسم قرية من قرى المدينة. وهذا أوفق للقصّة. وقبل: إنّه مسجد رسول الله ﷺ. لقول أبي سعيد: سألت رسول الله ﷺ عنه فقال: هو مسجدكم هذا مسجد المدينة. ﴿ مِنْ أَيُل سَعِد: سألت رسول الله ﷺ عنه فقال: هو مسجدكم هذا مسجد المدينة. ﴿ مِنْ أَيُل مِنْ مِنَ أَيّام وجوده، و«من» يعمّ الزمان والمكان. ﴿ احقَّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ أولى بأن تصلّى فيه ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحبُّونَ أَن يَتَطَهُّرُوا ﴾ من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله. وقيل: من الجنابة، فلا ينامون عليها. ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه إدناء المحبّ حبيبه.

وبعد نزول الآية عند قدوم رسول الله عليه من تبوك دعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشي فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه، ففعل واتّخذ مكانه كناسة.

قيل: لمّا نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتّى وقف على باب مسجد قبا، فإذا الأنصار جلوس، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فأعادها.

فقال عمر : إنَّهم مؤمنون وأنا معهم.

فقال الشين : أترضون بالقضاء؟

قالوا: نعم.

قال: أتصبر ون على البلاء؟

١٦٨ زيدة التفاسير ــج ٣

قالوا: نعم.

قال: أتشكرون في الرخاء؟

قالوا: نعم.

قال ﷺ: مؤمنون وربّ الكعبة. فجلس ثمّ قال: يا معشر الأنـصار إنّ الله عزّ وجلٌ قد أثنى عليكم فما الّذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟

فقالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاث. ثم نتبع الأحجار الماء.

فتلاﷺ «رجال يحبّون أن يتطهّروا والله يحبّ المطّهّرين».

﴿ أَفَمَنْ أَسُسَ بُنْيَانَهُ ﴾ بنيان دينه ﴿ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ ﴾ على قاعدة محكمة ، هي التقوى من الله تعالى وطلب مرضاته بالطاعة ﴿ خَيْرُ أَم مَنْ أَسُسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفًا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلّها بقاءً ، وهو الباطل. والشفا : الشفير ، وجرف الوادي : جانبه الّذي يتحفّر أصله بالماء وتجرفه السيول ، فيبقى واهياً . والهار : الهائر الَّذي أشفى على السقوط والتهدّم ، ووزنه فَيل ، قصر عن هائر ، كخلف من خالف . ونظيره : شاكٍ وصاتٍ في شائك وصائت . وألفه ليس بألف فاعل . وأصله : هور وشوك وصوت .

ولمّا جعل الجرف مجازاً عن الباطل قال: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي ذَارِ جَهَنَمْ﴾ يوقعه ذلك البناء ويؤدّي به _ لخوره (١١) وقلّة استمساكه _ إلى السقوط في النار. وإنّما وضع شفا الجرف _ وهو ما جرفه الوادي الهائر _ في مقابلة التقوى، تمثيلاً لما بنوا عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس، ثمّ رشّحه بانهياره به في النار، فكأنّ المبطل أسس بنياناً على شفير جهنّم فطاح به في قعرها. ووضعه في مقابلة الرضوان، تنبيهاً على أنّ تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار، ويوصله إلى رضوانه تعالى ومقتضياته الّتي الجنّة أدناها، وتأسيس هذا على ما هم بسببه على

⁽١) خَارَ خَوَراً: فتر وضعف وانكسر.

صدد الوقوع في النار ساعة فساعة، ثمّ إنّ مصيرهم إلى النار لا محالة.

وقرأ نافع وابن عامر: أُسّس على البناء للمفعول. وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر: جُرْف بالتخفيف.

وملخّص معنى الآية: أنّ الله تعالى شبّه بنيانهم على نار جهنّم بالبناء على جانب نهر هذا النهر فإنّه ينهار بناؤه في الماء ولا يثبت، فكذلك بناء هؤلاء ينهار ويسقط في نار جهنّم. يعني: أنّه لا يستوي عمل المنتقي وعمل المنافق، فإنّ عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم مبنيّ على أصل صحيح ثابت، وعمل المنافق ليس بنابت، بل وإو ساقط.

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الطَّالِمِينَ ﴾ إلى ما فيه صلاح ونجاة . روي عن جابر بن عبدالله أنّه قال: رأيت المسجد الّذي بنى ضراراً يخرج منه الدخان .

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بِنَوْهِ أَي: بناؤهم الذي بنوه. مصدر أريد به المفعول. وليس بجمع، ولذلك قد تدخله التاء، ووصف بالمفرد، وأخبر عنه بقوله: ﴿ وِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: شكاً ونفاقاً. والمعنى: أنّ بناءهم هذا لا يزال سبب شكّهم وتزايد نفاقهم، فإنّه حملهم على ذلك، ثمّ لمّا هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد، بحيث لا يزول وسمه (١٠) عن قلوبهم. ﴿ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قطعاً، وتفرق أجزاءً بحيث لا يبقى لها قابليّة الإدراك والإضمار، وحينئذٍ يسلون عنه. وهذا في غاية المبالغة. والاستثناء من أعمّ الأزمنة.

وقيل: المراد بالتقطّع ما هو كائن بالقتل، أو في القبر، أو في النار. وقـيل: التقطّع بالتوبة ندماً وأسفاً.

وقرأ يعقوب: إلى. بحرف الانتهاء ـ وروي ذلك عن الصادق ﷺ ـ و «تقطّع» بمعنى: تتقطّع. وهو قراءة ابن عامر وحمزة وحفص.

(١) أي: علامته.

١٧٠ زيدة التفاسير ـ ج ٣

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بنيّاتهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقَتَلُونَ وَعُدَّا عَلَيْهِ حَقَّا فِي النَّوْرَاةِ وَالإنجيلِ وَالْقُرُآنِ وَمَنُ أُوفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبُيْعِكُمُ الَّذِي بَايْغَتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ ١١١ ﴾ النَّآتُبُونَ الْعَابِدُونَ السَّآتِهُ وَنَ الرَّاكِمُونَ السَّاجِدونَ السَّآتِهُ وَنَ الرَّاكِمُونَ السَّاجِدونَ الرَّاكِمُونَ السَّاجِدونَ اللّهَ وَبُشِرِ الْمُمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبُشِرِ النَّمُونِ اللهِ وَبُشِرِ اللّهِ وَبُشِرِ اللّهُ مِنْ مِنْ اللّهِ وَالسَّوْمِينَ ﴿ ١١٢﴾

ولمّا تقدّم ذكر المؤمنين والمنافقين عقّب سبحانه بالترغيب في الجهاد، فقال: ﴿إِنَّ اللهُ الشَّنَوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ ﴾ عبر سبحانه عن إثابتهم بالجنّة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالاشتراء، وجعل الثواب ثمناً، وأعمالهم الحسنة مثمناً، تمثيلاً لإثابته إيّاهم الجنّة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله، عن الصادق ﴿ اللهِ اللهُ اللهِ المِلْمُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اله

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقَتُلُونَ﴾ استئناف ببيان ما لأجله الشراء. وقيل: «يقاتلون» في معنى الأمر. وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول. وقد عرفت أنَّ الواو لا توجب الترتيب، وأنَّ فعل البعض قد يسند إلى الكلِّ.

﴿ وَعْداً عَلَيْهِ مَقاً ﴾ مصدر مؤكّد لما دلّ عليه الشراء. فإنّه في معنى الوعد. يعني: أنّ الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت ﴿ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أي: وعداً مذكوراً فيهما كما أثبت في القرآن ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ مبالغة في الانجاز، وتقرير لكونه حقاً. أي: لا أحد أوفى بعهده من الله، لأنّ الخلف قبيح لا يقدم عليه كريم، فكيف بالكريم الغنيّ الّذي لا يجوز عليه فعل القبيح؟!

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾ فافرحوا به غاية الفرح، فإنّه أوجب لكم عظائم المطالب، كما قال: ﴿ وَذَٰكِ هُوَ الْفَوْزُ الْمَعْظِيمُ ﴾ ولا ترغيب في الجهاد أحسن وأبلغ منه.

ثمّ وصف الله تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم الأنفس والأموال بأوصاف جليلة ونعوت جميلة، فقال: ﴿التَّائِبُونَ﴾ رفع على المدح، أي: همم التنائبون الراجعون إلى طاعة الله، والمنقطعون إليه، النادمون على ما فعلوه من القبائح. والمراد بهم المؤمنون المذكورون. ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف، تقديره: التائبون من أهل الجنّة وإن لم يجاهدوا، لقوله: ﴿وَكُلاً وَعَدَ اللهُ المُصْنَفَ﴾ (١٠). أو خبره «العابدون» أي: التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال.

﴿الْعَابِدُونَ﴾ الله عبدوا الله مخلصين له الدين ﴿الْحَامِدُونَ﴾ لتعمائه، أو لكلّ ما أصابهم من السرّاء والضرّاء ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون، لقوله ﷺ: «سياحة أمّتي الصوم». شبّهوا بذوي السياحة في الأرض من حيث إنّ الصوم يعوق عن الشهوات كالسياحة، أو لانّه رياضة نفسائيّة يتوصّل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت، أو السائحون للجهاد أو لطلب العلم، أو الّذين يسيحون في الملك والملكوت، في الصلاة.

﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكِرِ ﴾ عن الشرك والمعاصي. والعاطف فيه للدلالة على أنّه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة، كأنّه قال: الجامعون بين الوصفين. وأمّا العاطف في قبوله تعالى:

⁽١) الحديد: ١٠.

١٧٢ زيدة التفاسير ــ ج ٣

﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ﴾ أي: فيما بيّنه وعيّنه من الحقائق والشرائع، فللتنبيه على أنّ ما قبله مفصّل الفضائل وهذا مجملها. وقيل: الإيذان بأنّ التعداد قد تمّ بالسابع، من حيث إنّ السبعة هو العدد التامّ عندهم، والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه، ولذلك سمّى واو الثامنة.

﴿ وَبَشُو الْمُوْمِنِينَ ﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بمتلك الفضائل. ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أنّ إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأنّ المؤمن الكامل من كان كذلك. وحذف المبشّر به للتعظيم، كأنّه قيل: وبشّرهم بما يجلّ عن احاطة الأفهام و تعبير الكلام.

روى أصحابنا أنّ هذه صفات الأثمّة المعصومين ﷺ . لأنّه لا يكاد يجمع هذه الأوصاف على تمامها وكمالها غيرهم.

ولقي الزهري عليّ بن الحسين ﷺ في طريق الحجّ فقال له: تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحجّ، والله سبحانه يقول: «إنّ الله اشترى من المؤمنين» الآية. فقال ﷺ: «أتمّ الآية الأخرى: ﴿التائبون العابدون...﴾ إلى آخرها، ثمّ قال: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ».

مَاكَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْكَانُواْ أُولِي قُرْبِى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿ ﴿ ١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ آبِاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنْهُ عَدُو لِلّهِ تَبْرَأُ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأُوْلَا حَلِيمٌ ﴿ ١١٤﴾

روي أنَّ المسلمين قالوا للنبيُّ ﷺ: ألا تستغفر لآبائنا الَّـذين مــاتوا فــي

الجاهليّة ؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِللَّهِ يَ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: لا ينبغي لنبيّ ولا لمؤمن أن يطلب المغفرة ويدعو للكافر، ولا يصح ذلك في حكم الله سبحانه. وهذا القول أبلغ من أن يقال: لا ينبغي للنبيّ، لأنّه يدلً على قبحه وأنّ الحكمة تمنع منه، فلو قال: لا ينبغي، لم يدلّ على أنّ الحكمة تمنع منه، فلو قال: لا ينبغي، لم يدلّ على أنّ الحكمة تمنع منه، وإنّما كان يدلّ على أنّه لا ينبغي أن يختاره، فمعناه: لم يجعل الله في دينه ولا في حكمه أن يستغفروا للمشركين.

﴿ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ أقرب الناس إليهم في النسب، ودعتهم رقّة القرابة وشفقة الرحم إلى الاستغفار لهم ﴿ مِنْ بَغْدِ مَا تَبَيْنَ لَهُمْ أَنَهُمْ أَصْحَالُ الْجَحِيمِ ﴾ أي: من بعد أن يعلموا أنّهم ماتوا على الشرك، فهم مستحقّون للخلود في النار، ويظهر أنّ لهم عذاباً عظيماً.

ثمّ بين سبحانه الوجه في استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافراً، سواء كان أباه الذي ولده كما قالت الهامّة، أو جدّه لأمّه أو عمّه على ما رواه أصحابنا، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَالُ اِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا ﴾ أي: لم يكن استغفاره له إلّا صادراً عن موعدة وعدها إبراهيم ﴿ إِيّاهُ ﴾ وهو قوله: لأستغفرن لك. ومعناه: لأطلبن لك التوفيق للإيمان الذي هو سبب الإيمان الذي يجبّ ما قبله. ويدل عليه قراءة العسن: وعدها أباه، وقيل: صاحب الموعدة أبوه، فإنّه وعد إبراهيم أنّه يؤمن إن استغفر له، فاستغفر له لذلك.

﴿ فَلَمَّا تَبَيْنَ لَهُ اللَّهُ عَنُو يِشِهُ أَي: أَنَّه مات مشركاً. أو أوحي إليه بأنّه لا يفي بما وعد ولن يؤمن ﴿ تَبَوَّا مِنْهُ ﴾ وترك الدعاء له. والقول الأوّل مرويّ عن ابن عبّاس. ومنقول عن أبي جعفر ﷺ. والثاني مرويّ عن مجاهد وقتادة. ﴿ إِنَّ إِبْوَاهِمِيمَ لَأَوَّاهُ ﴾ يكثر التأوّه. وهو كتاية عن فرط ترحّمه ورقّة قلبه. ﴿ حَلِيمٌ ﴾ صبور على الائذى. والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار له مع سوء خلقه معه، واستماع قوله:

٧٧٤ زيدة التفاسير ـ ج ٣

«لأرجمنّك» منه.

وعن ابن عبّاس: الأوّاه بمعنى الدعّاء الكثير الدعاء والبكاء. وهو السرويّ عن أبي عبدالله ﷺ. وعن كعب: أنّ الأوّاه هو الّذي إذا ذكر النار قال: أوّه. وروى عبدالله بن شدّاد عن النبيّ ﷺ أنّه قال: الأوّاه هو الخاشع المتضرّع.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

روي: أنّ قوماً من المسلمين ما توا على الاسلام قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا رسول الله إخواننا الله ين ما توا قبل الفرائض ما منزلتهم؟ فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُصْبِلُ قَوْماً﴾ أي: ليسمّيهم ضلّالاً، ويـوُاخـذهم مـوُاخـذة الكمّار ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ للإسلام ﴿ حَتَى يَبِيّن لَهُمْ مَا يَتَقُونَ ﴾ حتّى يبيّن لهم حظر ما يجب اتقاؤه، فقبل بيان ذلك لا سبيل عليهم، كما لا يـوُاخـذون ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم. وهذا دليل على أنّ الفافل غير مكلف. ولا يخفى أنّ المراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهي، فأمّا ما يعلم بالعقل، كالصدق في الخبر وردّ الوديعة، فغير موقوف على النقل. ﴿ إِنَّ اللهَ يَكُلُّ شَنيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم أمرهم في الحالين.

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُخْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيَ اللَّهِ مِن وَلِي ۚ وَلاَ نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

ولمّا منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قـربي. وتـضمّن ذلك وجوب التبرّء عنهم رأساً، قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ لِمُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيِّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ليبيّن لهم أنّ الله مالك كلّ موجود. ومتولّي أمره والغالب عليه، ولا يتأتّى لهم ولايـة ولا نـصرة إلّا مـنه، ليـتوجّهوا بشراشرهم إليه، ويتبرّؤا عمّا عداه، حتّى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه.

لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَة الْمُسْرَةِ مِن بَعْد مَا كَادَ يَزِيغُ قَلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَوُّوفَ رَّحِيمٌ ﴿٧١٧﴾ وَعَلَى الثَّالَاةِ الَّذِينَ ثَحَلَّهُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَت عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَت وَضَاقَت عَلَيْهِمْ أَنْسُهُمْ وَظَنَّواً أَن لاَّ مُلْجَأً مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُو التَّوَابُ الرِّحِيمُ ﴿١١٨﴾

ولمّا ذكر سبحانه أنّ له ملك السموات والأرض وما بينهما، ولا متولّي ومعطي نعمة ولا ناصر لأحد دونه، بيّن عقيبه رحمته بالمؤمنين ورأفته بهم في قبول توبتهم، فقال: ﴿ لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النّبِيّ ﴾ في ترك الأولى من إذن المنافقين في التخلّف قبل النهي عنه، كقوله تعالى: ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَنِنْتَ لَهُمْ ﴾ (١١ ﴿ وَاللّمُهَاجِرِينَ وَاللّمُهَاجِرِينَ وَاللّمُهَاجِرِينَ وَاللّمُهَاجِرِينَ وَاللّمُهَاجِرِينَ

وقيل: هو بعث على التوبة. والمعنى: ما من أحد إلّا وهو محتاج إلى التوبة. حتى النبئ ﷺ والمهاجرين والأنصار. لقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً﴾ (٣)

⁽١) التوبة: ٤٣.

⁽٢) النور: ٣١.

إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه، والترقي إليه توبة من تلك النقيصة، وإظهار لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده.

وقال في المجمع^(١) والجامع^(٣): «إنّما ذكر النبيّ ﷺ استفتاحاً باسمه، ولاّنَه سبب توبتهم، وإلّا فمن المعلوم أنّه لم يكن منه مـا يــوجب التــوبة. ويــؤيّده أنّ الرضاﷺ قرأ: لقد تاب الله بالنبئ على المهاجرين والأنصار».

﴿ الدِّينَ اتَبْعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ في وقتها. وقد تستعمل الساعة في معنى الزمان المطلق، كما تستعمل الغداة والعشيّة في اليوم. والمراد بالعسرة حالهم في غزوة تبوك، فإنَّهم كانوا في عسرة المركب، حتى يعتقب العشرة على بعير واحد. وفي عسرة الزاد، فإنَّ زادهم الشعير المسوّس (٢) والتمر المدوّد. وبلغت الشدّة بهم حتى قيل: إنَّ الرجلين كانا يقتسمان التمرة، ربّما مصّها جماعة ليشربوا عليها الماء. وفي عسرة من الماء في حمارة (٤) القيظ والضيق الشديد من القحط، حتى شربوا الفظ، وهو ماء الكرش (٥).

﴿ مِنْ بَغدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ عن الثبات على الجهاد واتباع الرسول في تلك الغزوة. ولم يرد بالزيغ هاهنا الزيغ عن الإيمان. وفي «كاد» ضمير الشأن أو ضمير القوم. والعائد إليه الضمير في «منهم». وقرأ حمزة وحفص: يزيغ بالياء، لأنّ تأنيث القلوب غير حقيقي. قيل: إنّ قوماً منهم همّوا بالانصراف عن غزاتهم بغير استئذان، فعصمهم الله تعالى حتى مضوا.

⁽١) مجمع البيان ٥: ٨٠.

⁽٢) جوامع الجامع ١: ٦٣٥.

⁽٣) المسوّس أي: الذي وقع فيه السوس. وهو دود يقع في الثياب والشعير والخشب ونحوها.

⁽٤) الحَمَارَّةُ: شدّة الحرّ .

⁽٥) الكِرْش: هي لذي الخفِّ وكلِّ حيوان مجترٌّ بمنزلة المعدة للانسان.

﴿ فُمُّ قَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ تكرير للتأكيد، وتنبيه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفُ رَحِيمٌ ﴾ تداركهم برأفته ورحمته.

﴿ وَعَلَى الذَّلَاتَةِ ﴾ وتاب الله على الثلاثة. وهم: كعب بن مالك، وهلال بمن أميّة، ومرارة بن الربيع. ﴿ الَّذِينَ خُلَقُوا ﴾ تخلّفوا عن الغزو، أو خلّف أمرهم، فإنّهم المرجون ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ مِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي: برحبها، لإعراض الناس عنهم بالكلّيّة. وهو مثل لشدّة الحيرة، كأنّهم لا يجدون في الأرض موضع قرار ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغمّ بحيث لا يسمها أنس وسرور ﴿ وَظَنُوا ﴾ وعلموا ﴿ أَن لا مَلْجًا مِنَ اللهِ ﴾ من سخطه ﴿ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ إلّا إلى استغفاره.

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ رجع عليهم بالقبول والرحمة كرّة بعد أخرى ﴿لِيتُوبُوا﴾ ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا، أو ليتوبوا أيضاً في المستقبل إن فرطت منهم خطيئة. أو المعنى: رجع عليهم بالتوفيق للتوبة ليتوبوا، أو أنزل قبول توبتهم، أو سهّل الله عليهم التوبة ليتوبوا. ﴿إِنَّ اللهُ هُوَ التَّوْابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة ﴿الرَّحِيمُ ﴾ المتفضّل عليهم بالنعم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

ثمّ خاطب سبحانه المؤمنين المصدّقين بالله المقرّين بنبوّة محمّد ﷺ. فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله ﴾ فيما لا يرضاه ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ في إيمانهم وعهودهم. أو في دين الله نيّة وقولاً وعملاً، أي: في توبتهم وإنابتهم، فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة وأضرابهم. مَا كَانَ لِأَهُلِ الْمَدينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مَنَ الأَعْرَابِ أَن يَخَلَّفُواْ عَن رَسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْعَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَفْسهِ ذَلكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَا ۚ وَلاَ نَصَب وَلاَ مَخْمَصَة فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَوُّونَ مَوْطناً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُو يَّ يُعْلَى اللّهَ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ ١٢٠﴾ وَلاَ يُفْقُونَ فَقَدُن فَقَدَ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادَّيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِئِهُمُ اللّهُ أَخْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿ ١٢١﴾

ولمّا قصّ الله سبحانه قصّة الذين تأخّروا عن الخروج مع النبيّ الله البوك، ثمّ اعتذارهم عن ذلك وتوبتهم منه، وأنّه قبل توبة من ندم على ما كان منه، لرأفته بهم ورحمته عليهم، ذكر عقب ذلك على وجه التوبيخ لهم والإزراء على ما كانوا فعلوه، فقال: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ المُدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَحَلّقُوا عَن رَسُولِ الله عن حكمه. نهي عبر عنه بصيغة النفي للمبالغة. ﴿ وَلا يَرْعَبُوا بِانفُسِهِم عَنا لم يصن رسول الله نفسه عنه، ويكابدوا ما يكابده من الأهوال.

روي أنّه كان أبو خيثمة عبدالله بن خيثمة تخلّف إلى أن مضى من مسبر رسول الله ﷺ عشرة أيّام، ثمّ دخل يوماً على امرأتين له في يـوم حـارّ في عربشين لهما، قد رشّتاهما وبرّدتا الماء، وهيّأتا له الطعام. فقام على العريشين، وقد بلغ بستانه، فيأكل منه الرطب ويشرب الماء البارد، فنظر فـقال: ظـلّ ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، ورسـول الله ﷺ _ مـع أنّـه قـد غـفر الله له مـا

تقدّم من ذنبه وما تأخّر في الضيّم (١) والربيح والحرّ والغزو . يتحمل سلاحه على عاتقه . وأبو خيثمة في ظلال بارد وطعام مهيّأ وامرأتين حسناوين . ما هذا بالنصف . ثمّ قال : والله لا أكلّم واحدة منكما كلمة . ولا أدخل عريشاً حتى ألحق بالنبيّ ﷺ . فأناخ ناضحه واشتدّ عليه وتزوّد وارتحل ، وامرأتاه تكلّمانه ولا يكلّمهما . ثم سار حتى إذا دنا من تبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق .

فقال النبيّ بَلَيْتِيّ : كن أبا خيثمة. فلمّا دنا قال الناس: هذا أبو خيثمة يا رسول الله. فأناخ راحلته وسلّم على رسول الله بَلَيْتِيّ . فقال بَلَيْتِيّ : أُولَى لك. فحدّته الحديث. فقال له خيراً واستغفر له.

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما دلّ عليه قوله: «ما كان» من النهي عن التخلّف أو وجوب المشايعة ﴿ إِنْهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ لا يُصبِيهُمْ ظَفَاً ﴾ عطش ﴿ وَلا يَصبِيهُمْ ظَفَاً ﴾ عطش ﴿ وَلا يَصبِيهُمْ ظَفَاً ﴾ عطش ﴿ وَلا يَصبُ ﴾ تمب ﴿ وَلا يَصبُ الله ﴿ وَلا يَصلُونَ ﴾ ولا يدوسون بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم ﴿ مَوْطِئاً ﴾ وطاً ، أو مكان وط ، ﴿ يَغِيظُ الْكَفَّارُ ﴾ يغضهم وطؤهم، ولا يتصرّفون في أرضهم تصرّفاً يضيق صدورهم ﴿ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُو نَيْلاً ﴾ كالقتل والأسر والنهب ﴿ إِلّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمْلُ صَالِحٌ ﴾ إلّا استوجبوا به النواب، وذلك ممّا يوجب المشايعة ﴿ إِنَّ الله يَفييعُ أَنَّ الجهاد أَجَّ المُحْسِينِينَ ﴾ على إحسانهم. وهو تعليل لا «كتب»، وتنبيه على أنّ الجهاد إحسان . أمّا في حقّ الكفّار، فلأنّه سعي في تكميلهم بأقصى ما يسمكن، كضرب المداوي للمجنون. وأمّا في حقّ المؤمنين، فلأنّه صيانة لهم عن سطوة الكفّار واستيلائهم.

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَقَقَةً صَغِيرَةً ﴾ ولو تمرة ﴿ وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً ﴾ في

⁽١) في هامش النسخة الخطّية: «الضحّ: ضوء السّمس إذا استمكن في الأرض. منه».

مسيرهم. وهو كلّ منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل. وهو في الأصل اسم فاعل من: ودى إذا سال، فشاع بمعنى الأرض، أي: ولا يسيرون ارضاً في ذهابهم ومسجيئهم ﴿إِلَّا كُتِبَ﴾ أثبت ذلك ﴿لَهُمْ لِيبَدِّرِيَهُمُ اللهُ متعلَق به كتب» أي: أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء بذلك ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أحسن جزاء أعمالهم.

ُ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً فَلُولًا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةً مَنْهُمُ طَآتِفَةٌ لِيَنَفَقَهُواْ فِي الدّبِنِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمُهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٧﴾

ولمّا تقدّم الترغيب في الجهاد بأبلغ أسباب الترغيب، وتأنيب من تخلّف عنه بأبلغ أسباب الترغيب، وتأنيب من تخلّف عنه بأبلغ أسباب التأنيب، بيّن موضع الرخصة في تأخّر من تأخّر عنه، فقال: ﴿ وَهَا كَانَ النَّوْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَةٌ ﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم، كما لا يستقيم أن يتنبّطوا جميعاً، فإنّه يخلّ بأمر المعاش وانتظام العالم غالباً. ولو صحّ وأمكن خروج الجميع ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب على الكافة، لأنّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم.

﴿ فَلَوْلاَ نَقَرَ مِنْ كُلُّ فِرْقَةً مِنْهُمْ طَافِقَةً ﴾ فهلا نفر من كلّ جماعة كثيرة - كقبيلة أو أهل بلدة _ جماعة قليلة ﴿ لِيَتَقَفَّهُوا فِي الدَّينِ ﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه، ويتحملوا أو أهل بلدة _ جماعة قليلة ﴿ لِيَتَقَفَّهُوا فِي الدَّينِ ﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه، ويتحملوا مشاق تحصيلها ﴿ وَلِيُنْذِرُ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إلنَهِمْ ﴾ وليجعلوا غاية سميهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم. وتخصيصه بالذكر لائم أهم، وفيه دليل على أنَّ التفقّه والتذكير من فروض الكفاية، وأنّه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم، لا الترقّع على الناس، والتبسّط في البلاد، والترأس فيهم، والتشبّه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْدُرُونَ ﴾ إرادة أن يحذروا عمّا ينذرون منه.

واستدلَّ به على أنَّ أخبار الآحاد حجَّة، لأنَّ عموم كلِّ فرقة يقتضي أن ينفر

من كلّ ثلاثة تفرّدوا بقرية طائفة إلى التفقّ. لتنذر فرقتها كي يتذكّروا ويحذروا. فلو لم يعتبر الإخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك.

قال في الكشّاف (١): وللآية معنى آخر، وهو أنّه لمّا نزل في المتخلّفين ما نزل استبق المؤمنون إلى النفير، وانقطعوا جميعاً عن التفقّه واستماع الوحي، فأمروا أن ينفر من كلّ فرقة طائفة إلى الجهاد، ويبقى أعقابهم يتفقّهون حتى لا ينقطعوا عن التفقّه الّذي هو الجهاد الأكبر، لأنّ الجدال بالحجّة هو الأصل والمقصود من البعثة. ويكون الضمير في «ليتفقّهوا» و«لينذروا» لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي «رجعوا» للطوائف، أي: ولينذر البواقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصّلوا في أيّام غيبتهم من العلوم. وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للنفقة.

يَآ أَيُهَا الّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غُلْظَةً وَأَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَلِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَنْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتُهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشُرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوهِم مَرضٌ فَزَادَتُهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ

ثمّ بين سبحانه ما يجب تقديمه في القتال والقتل، فقال: ﴿ يَا النَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ يقربون منكم ﴿مِنَ الكَفَّارِ﴾ فإنّ القتال وإن كان واجسباً سع

⁽١) الكشّاف ٢: ٣٢٣.

١٨٢ زيدة التفاسير ـج ٣

جميع الكفّار لكن الأقرب منهم فالأقرب، كما أمر رسول الله بَلَيْنِينَ أَوْلاً بالنذار عشيرته ثمّ غيرهم من العرب، فحارب قومه ثمّ غيرهم من عرب الحجاز، ثمّ غزا الشام، وذلك لأنّ الأقرب أحقّ بالشفقة والاستصلاح. وهكذا المفروض على أهل كلّ ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطرّ إليهم أهل ناحية أخرى.

وقيل: هم يهود حوالي المدينة ، كقريظة والنضير وخيبر . وقيل: الروم، فإنّهم كانوا يسكنون الشام، وهو قريب من المدينة .

والأول أصحّ. لأنّ السورة نزلت في سنة تسع، وقد فسرغ النبيّ ﷺ مسن أولئك. وكان الحسن إذا سئل عن قتال الروم والترك والديلم تلا هذه الآية.

﴿ وَلَيْجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ شدّة وشجاعة وصبراً على القتال. ونحوه: ﴿ وَاغْلُطْ
عَلَيْهِمْ ﴾ (١٠) ﴿ وَاغْلُمُوا أَنَّ اللهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ بالحراسة والإعانة.

﴿ وَإِذَا مَا أَنْذِلْتُ سُورَةً فَيَنْهُمْ ﴾ فمن المنافقين ﴿ مَنْ يَقُولُ ﴾ بعضهم لبعض إنكاراً واستهزاءً باعتقاد المؤمنين ﴿ أَيُكُمْ زَادَتُهُ هُذِهِ ﴾ السورة ﴿ إِيهَاناً ﴾ أي: تصديقاً ويقيناً ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتُهُمْ إِيمَاناً ﴾ بزيادة العلم الحاصل من تبدير السورة ، وانضمام الايمان بها وبما فيها إلى إسمانهم ﴿ وَهُمْ يَسْتَنِشِرُونَ ﴾ بمنزولها ، أي: يسرون ، ويبشر بعضهم بعضاً ، قد تهللت وجوههم وفرحوا بمنزولها ، لأنه سبب إزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ كفر ونفاق ﴿ فَرَادَتُهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها، فإنهم بتجديد الوحي جدّدوا كفراً ونفاقاً فازداد كفرهم عنده واستحكم ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ واستحكم وتضاعف ذلك منهم حتّى ماته ا عليه.

⁽١) التوبة: ٧٣.

أُولاَ يَرَوْنَ أَلَهُمْ يُفَتَّوْنَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَكُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا آنُزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدِ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبُهُم بِأَلَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

ثم نبّه سبحانه على إعراض المنافقين عن النظر والتدبّر لما ينبغي أن ينظروا ويتدبّروا فيه ، فقال: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ﴾ يعني: المنافقين. وقرأ حسزة بالتاء ﴿أنّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بأصناف البليّات، كالعرض والقحط، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ ويعاينون أمره وما ينزل عليه من النصرة والتأييد، أو ينفتهم الشيطان فينقضون عهودهم مع رسول الله ﷺ ، فيقتلهم وينكل بهم ﴿فِي كُلُ عَامٍ مَرَّةُ أَقْ مَرُّ تَيْنِ ثُمُّ لاَ يَتُوبُونَ﴾ لا يتنبّهون ولا يتوبون من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَدَدُّكُرُونَ﴾ ولا يعتبرون.

﴿ وَإِذَا مَا أَنْوِلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ ﴾ من المسلمين ﴿ إِلَىٰ بَعْضِ ﴾ أي: تغامزوا بعيونهم إنكاراً للوحي وسخريّة، أو غيظاً لما فيها من عيوبهم، قائلين: ﴿ هَلْ يَرَاكُمُ مِنْ أَحَدٍ ﴾ من المسلمين لننصرف، فإنّا لا نصبر على استماعه، ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم. أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لواذاً (١)، فإن لم يرهم أحد قاموا، وإن يرهم أحد أقاموا. ﴿ ثُمُّ انْصَرَفُوا ﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ عن الايمان خذلاناً وتخلية، وهو يحتمل الإخبار والدعاء. ﴿ فِإنّهُمْ ﴾ بسبب أنّهم ﴿ قَوْمٌ لاَ يَقْقَهُونَ ﴾ لا يتدرّ ون حتّى يفقهوا ويعلموا.

⁽١) أي: مستترين.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مَنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلُّواْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ ١٢٩ ﴾

ثمّ خاطب الله جميع الخلق، وأكد خطابه بالقسم، فقال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ وَسُولُ مِنْ الْفَسِكُمْ ﴾ من جنسكم من البشر، ثمّ من العرب، ثمّ من بني إسماعيل، وقيل: الخطاب للعرب، وليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي الليسي ، وله فيهم نسب. ﴿ عَزِيرٌ عَلَيْهِ ﴾ شديد شاق ﴿ عَاعَنَتُمْ ﴾ عنتكم ومشقّتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب بترك الإيمان ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ على إيمانكم وصلاح شأنكم، حتى لا يخرج أحد منكم من الاستسعاد به وبدينه الذي جاء به ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ وَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ قدّم الأبلغ منهما وهو الروف، لأنّ الرأقة شدّة الرحمة، محافظةً على الفواصل.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان بك ﴿ فَقُلْ حَسْمِيَ الله ﴾ فاستعن بالله وفوض إليه أمرك، فإنّه يكفيك معرّتهم (٣)، ويعينك عليهم ﴿ لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كالدليل عليه ﴿ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ مَوَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كالدليل عليه ﴿ عَلَيْهِ وَهُو رَبُّ الْعَرْشِ الْعَطْمِ ﴾ الملك العظيم، أو الجسم العظيم الذي تنزل منه الأحكام والمقادير.

قيل: إنّ هذه الآية آخر آية نزلت من السماء. وآخر سورة كاملة نزلت سورة براءة.

⁽١) البقرة : ١٤٣ .

⁽٢) المعَرَّةُ: الأذي والمساءة والإثم.



سورة يونس

مكّية، وهي مائة وتسع آيات. أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بيونس وكذّب به، وبعدد من غرق مع فرعون.

وروي عن أبي عبدالله ﷺ قال: «من قرأ سورة يونس في كــلّ شــهرين أو ثلاثة لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين. وكان يوم القيامة من المقرّبين».

بِسُمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلَرَ تَلُكَ آنَاتُ الْكَتَابِ الْحَكَيمِ ﴿ اَ ﴾ أَكَانَ لِلنَاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَلِنَآ اِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبِشَرِ الَّذِينَ آمَنُواَّ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاجِرٌ شُبِينٌ ﴿ ٢ ﴾

لمّا ختم الله سورة براءة بذكر الرسول، افتتح هذه السورة بذكره ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، فقال: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْفٰنِ الرَّحِيمِ الرَّ﴾ تعديد للحروف على طريق التحدّي. وقيل: معناه: أنا الله ارى. وبواقي وجوه التفسير فيه مذكورة في ١٨٦ زيدة التفاسير ـج٣

صدر سورة البقرة. فخّمها ابن كثير ونافع برواية قالون وحفص. وقرأ ورش بسين بين. وأمالها الباقون، إجراءً لألف الراء مجرى المنقلبة من الياء.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي ﴿ آيَاتُ الْعِتَابِ
السُحَكِيمِ﴾ المراد بالكتاب السورة، أو القرآن كلّه، أو اللوح المحفوظ، فإنّ القرآن
منزل منه، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم، أو لأنّه كلام حكيم، أو محكم
آياته لم ينسخ شيء منها.

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجْبا﴾ استفهام إنكار للتعجّب. و«عجباً» خبر «كان»، واسمه ﴿ أَنْ أَوْحَلِنَا ﴾ . وذكر اللام للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يموجّهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ من جنس رجالهم، دون أن يكون عظيماً من عظمائهم.

قبل: كانوا يقولون: العجب أنّ الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب. وهو من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم على الأمور العاجلة، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوّة، هذا وإنه عليه لله يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلّا في المال، وخفة الحال أعون شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك.

وقيل: تعجّبوا من أنّه عزّوجلّ بعث بشراً رسولاً. كما سبق^(١) فـي سـورة الأنعام.

﴿ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ «أَن » هي المفسّرة لداأن أوحينا » فيه معنى القول، أو المخفّفة من الثقيلة، فتكون في موضع معفول «أوحينا». وأصله: أوحينا أنّ الشأن قولنا: أنذر الناس.

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عمّم الإنذار، إذ قلمًا من أحد ليس فيه ما ينبغي أن

 ⁽١) راجع ج ٢ ص ٤٢٧ ذيل الآية ٩١ من سورة الأنعام.

ينذر منه. وخصّص البشارة بالمؤمنين، إذ ليس للكفّار ما يصحّ أن يبشروا به ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ بأنّ لهم ﴿قَدَمَ صِنْوَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة. سمّيت قدماً لأنّ السبق والسعي بها، كما سمّيت النعمة يداً، لأنّها تعطى باليد. وإضافتها إلى الصدق لتحقّقها، والتنبيه على أنّهم إنّما ينالونها بصدق القول والنيّة.

وعن أبي سعيد الخدري: أنّ معنى قدم صدق شفاعة محمّد ﷺ يـوم القيامة. وهو العرويّ عن أبي عبدالله ﷺ .

ولمّا قال: «أكان للناس عجباً» قالوا: وكيف لا نعجب ولا علم لنا بالمرسل ؟! فقال الكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا ﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول ﴿ لَسَاجِرٌ مُبِينٌ ﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيّون: لساحر، على أنّ الإشارة إلى الرسول، وفيه اعتراف بأنّهم صادفوا من الرسول أموراً خارقة للعادة، معجزة إيّاهم عن المعارضة، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً.

إِنَّ رَبِّكُمُ اللَّهُ الَّذِي حَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سَتَّة أَيَامٍ ثُمَّ السُّوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَّبِرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْد إِذْنِه ذَلَكُمُ اللَّهُ رَبُكُمُ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إَلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعُدَ اللَّه حَقًّا إِنَّهُ يَبُدَأُ الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَملُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَملُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكُفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضَيَا ً وَالْقَمْرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لَتَعْلَمُواْ عَدَدَ السَّنِينَ وَالْحَسَابَ مَا خَلَوْ اللّهُ ذَلِكَ إِلاً بِالْحَقِقِ يُفْصَلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ه﴾ إِنَّ فِي اخْتِلافِ خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفْصِلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ه﴾ إِنَّ فِي اخْتِلافِ

۱۸۸ زیدة التفاسیر ـج ۳

اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

ثمّ بين صفاته الكماليّة المنضمّة لاستحقاقه العبوديّة لا غير ، المقتضية للحكم والمصالح والتدابير الّتي من جملتها إعطاء النبوّة لمن يليق بحاله ، فقال: ﴿إِنَّ رَبُّكُمُ اللهُ الذّي خُلقَ السَّمْوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ التي أصول الممكنات ﴿فِي سِبِثَةِ السَّامَ مَ مقدرته على إنشائهما دفعة واحدة . والوجه في ذلك دلالة صريحة على أنّه قادر مختار لا موجب، وتعليماً لعباده التأتي في الأمور . وفي الحديث: «التأتي من الرحمٰن، والعجلة من الشيطان».

﴿ نَمُ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَعْرَشِ ﴾ مرّ تفسيره مراراً (١) ﴿ يُمنَبُّو الْأَمْوَ ﴾ يمقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته، ويهيّ ، بتحريكه أسبابها وينزلها منه والتدبير النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العاقبة . ﴿ عَامِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَغِيهِ إِنَّا مِنْ بَغِيهِ اللهُ عَند الله . إذْنِهِ ﴾ تقرير لعظمته وعزّ جلاله، وردّ على من زعم أنّ آلهتهم تشفع لهم عند الله . وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له .

﴿ذَلِكُهُ﴾ أي: الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية ﴿اللهُ وَبُكُهُ﴾ لا غير، إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿فَاعَبُدُوهُ﴾ وحدوه بالعبادة، ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان، فضلاً عن جماد لا يضر ولا يسنفع ﴿أَفَلا تَذَكُرُونَ﴾ تتفكّرون أدنى تفكّر، فينبهكم على أنّه المستحقّ للربوبيّة والعبادة لا ما تعبدونه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ في العاقبة بالموت أو النشور. لا إلى غيره، فاستعدّوا للقائه ﴿ وَعَدَاللهِ ﴾ مصدر مؤكّد لنفسه. لأنّ قوله: «إليه مرجعكم» وعد من الله تعالى ﴿ جَقاً ﴾ مصدر آخر مؤكّد لغيره، وهو ما دلّ عليه وعد الله عزّ وجلّ.

﴿إِنَّهُ يَبْدُأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد بدئه وإهلاكه ﴿لِيَجْزَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

⁽١) راجع ج ٢ / ٥٣١.

الصّالِخَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بعدله. أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم. أو بإيمانهم، لأنّه العدل القويم، كما أنّ الشرك ظلم عظيم. وهو الأوجه، لمقابلة قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفُرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ الِيمٌ بِمَاكَانُوا يَحْفُرُونَ﴾ فإنّ معناه: ليجزي الّذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم. لكنّه غيّر النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب، والتنبيه على أنّ المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة، والعقاب واقع بالعرض، وأنّه تعالى يتولّى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، ولذلك لم يعيّنه، وأمّا عقاب الكفرة فكأنّه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم.

والآية كالتعليل لقوله تعالى: «إليه مرجعكم جميعاً» فإنّه لمّا كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلّفين على أعمالهم، كان مرجع الجميع إليه لا محالة.

ثمّ زاد سبحانه في الاحتجاج للتوحيد، فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلُ الشَّمْسَ ضِياءً ﴾ أي: ذات ضياء. وهو مصدر كقيام، أو جمع ضوء، كسياط وسوط. والياء فيه منقلبة عن الواو، لكسرة ما قبلها، وعن ابن كثير برواية قنبل: ضئاء بهمزتين، في كلَّ القرآن، على القلب بتقديم اللام على العين. ﴿ وَالثَّقَمَرَ نُوراً ﴾ أي: ذا نور. وستي نوراً للمبالغة. وهو أعمّ من الضوء. وقيل: ما بالذات ضوء، وما بالعرض نور. ونبّه سبحانه بذلك على أنّه خلق الشمس نيّرة في ذاتها، والقمر نيّراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها.

﴿ وَقَدْرَهُ مَنَازِلَ ﴾ الضمير لكلّ واحد، أي: قدّر مسير كلّ واحد منهما منازل، كقوله: ﴿ وَالْقَمْرَ قَدْرَدًاهُ مَثَازِلَ ﴾ (١٠) أو قدّره ذا منازل، أو الضمير للقمر، وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازله، وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علّله بقوله:

⁽١) يَس: ٣٩.

﴿لِتَعْلَمُوا﴾ به وبمنازله ﴿ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي: حساب الأوقات من الأشهر والذيام في معاملاتكم وتصرّفاتكم.

﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ ﴾ أي: المذكور ﴿ إِلَّا ﴾ ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الّذي هو الحكمة البالغة، ولم يخلقه عبثاً ﴿ يُقَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنّهم المنتفعون بالتأمّل فيها. وقرأ أبن كثير والبصريّان وحفص: يفصّل بالياء.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَيْلِ وَالنَّهَادِ وَمَا خَلَقَ الللهُ فِي السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من أنواع الكائنات فيهما ﴿لَآيَاتِ ﴾ على وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته ﴿لِقَوْمِ يَتَقُونَ ﴾ العواقب. وخصهم لأنهم يحذرون العاقبة، فيدعوهم ذلك إلى النظر والتأمّل.

إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَوْجُونَ لِقَاءَمًا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأُنُواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آنَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلِئَكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

ثمّ إنّه سبحانه أوعد الفافلين عن الأدلّة المتقدّمة المكذّبين بالمعاد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآمَنَا﴾ لا يتوقّعون جزاءنا، لإنكارهم البعث، وذهـولهم بالمحسوسات عمّا وراءها ﴿وَرَضُوا بِالشَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة، لغفلتهم عنها، واختاروا القليل الفاني على الكثير الباقي ﴿وَاصْمَانُوا بِهَا﴾ وسكنوا إليها، مقصّرين هممهم على لذائذها وزخارفها. أو سكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ لا يتفكّرون فيها، لانهماكهم فيما يضادّها.

والعطف إمّا لتغاير الوصفين، والتنبيه على أنّ الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات والانهماك في الشهوات، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً. وإمّا لتغاير الفريقين، فإنّ المراد بالأوّلين من أنكر البعث ولم ير إلّا الحياة الدنيا، وبالآخرين من ألها، حبّ العاجل عن التأمّل في الآجل والإعداد له. ﴿ أَوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَحْسِبُونَ ﴾ بما واظبوا عليه، وتمرّنوا به من المعاصي.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يُهِدِيهِمْ رَّبُهُمْ بِإِيَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبُحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحَيِّنُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

ثمّ وعد سبحانه المؤمنين بعد ما أوعد الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ السَّذِينَ آصَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سببل يودّي إلى الجنّة. أو لإدراك الحقائق، كما قال: ﷺ: «من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم». أو لما يريدونه في الجنّة. ومفهوم الترتيب وإن دلّ على أنّ سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح، لكن دلّ منطوق قوله: «بإيمانهم» على استقلال الإسمان بالسببيّة، وأنّ العمل الصالح كالتتمة والرديف له.

وقوله: ﴿ تَجْدِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ استثناف، أو خبر ثمانٍ. أو حمال سن الضمير المنصوب على المعنى الأخير.

وقوله: ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّهِيمِ ﴾ خبر، أو حال أخرى منه أو من الأنهار. أو متعلَّق ب«تجري» أو ب«يهدي».

﴿ ذَعْوَاهُمْ ﴾ أي: دعاؤهم ﴿ فِيهَا سُنِحَانَكَ اللَّهُمْ ﴾ اللَّهم إنّا نسبّحك تسبيحاً. وذلك لا على طريق التلذّذ من غير وذلك لا على وجه العبادة، فإنّه لا تكليف في الجنّة، بل على طريق التلذّذ من غير كلفة. ﴿ وَتَحِيّتُهُمْ ﴾ ما يحيّي به بعضهم بعضاً، أو تحيّة الملائكة إيّاهم ﴿ فِيهَا سَلَامُ ﴾. قيل: هي تحيّة الله لهم. والمعنى: سلمتم من الآفات والمكاره التي ابتلي بها

﴿ وَآخِرُ نَعْوَاهُمْ ﴾ وآخر دعائهم ﴿ أَنِ الْمَعْدُيْةِ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: أن يقولوا ذلك. وقيل: إنّهم إذا دخلوا الجنّة وعاينوا عظمة الله وكبرياءه مجّدوه ونعتوه بنعوت الجلال، ثمّ حيّاهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات، أو الله تعالى (١٠)، فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام. و«أن» هي المخقّفة من الشقيلة. وأصله: أنّه الحمد، على أنّ الضمير للشأن.

وَلَوْ يُمَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ اِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لَقَاءَنَا في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

ثمّ عاد الكلام إلى ذكر الماثلين إلى الدنيا، المطمئنين إليها، الغافلين عن الآخرة، فقال: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلشَّاسِ الشَّرِ ﴾ ولو يسرعه إليهم إذا دعوا به على أنفسهم أو على أهاليهم عند الفيظ والضجر، مثل قول الانسان: رفعني الله من بينكم، وقوله لولده: اللهم العنه ولا تبارك فيه ﴿ اسْتِفْجَالُهُم بِالْخَيْرِ ﴾ أي: كما يعجّل لهم إجابة الدعوة بالخير إذا استعجلوها. فوضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير، حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم، أو بأنّ المراد شرّ استعجلوه، كقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء. وتقدير الكلام: لو يعجّل الله للناس الشرّ تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالاً كاستعجالهم بالخير، فحذف لدلالة الباقي عليه.

والمعنى: لو عجّلنا لهم الشرّ الذي دعوا به كما نعجّل لهم الخيرات ونجيبهم إليه ﴿لَقُضِي إِلَيْهِمْ إِلَيْهِمْ إِجَلُهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا. وقرأ ابن عامر ويعقوب: لقضى على

⁽١) أي: حيّاهم الله تعالى.

﴿ فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ عطف على فعل محذوف دلّت عليه الشرطيّة . كأنّه قيل: ولكن لا نعجّل ولا نقضي، فنذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً، لإلزام الحجّة عليهم.

وَإِذَا مَسَ الإِنسَانَ الضَّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَاتِمًا فَلَمَا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَأَن لَمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرْ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسُرِفِينَ مَا كَانُواْ تَعْمَلُونَ ﴿ ١٢﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن قلّة صبر الانسان على الضرّ والشدائد، فقال: ﴿ وَإِذَا مَسُ الْإِنسَانُ الضُّرُ ﴾ المشقّة والبلاء ﴿ دَعَانا ﴾ لإزالته مخلصاً فيه ﴿ لِجَنْبِهِ ﴾ ملقياً بجنبه، أي: مضطجماً ﴿ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ﴾ وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الأحوال. والمعنى: أنّه لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضرر، فهو يدعو في حالاته كلّها يستدفع البلاء. واللام في الانسان للجنس.

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ أزلنا ﴿ عَنْهُ ضُوَّهُ ﴾ ووهبنا له العافية ﴿ مَوْ ﴾ مضى على طريقته الأولى ، أي: استمرّ على كفره كما كان قبل أن يسمّه الضرّ . أو مرّ عن موقف الدعاء والتضرّع لا يرجع إليه . ﴿ كَانْ لَمْ يَدْعُنَا ﴾ أي: كأنّه لم يدعنا ، فخفّف وحذف ضمير الشأن ، كقوله :

ونــحر مشـرق اللـون كأن ثـــدياه حـــقّان

﴿إِلَىٰ ضُرِّ﴾ إلى كشف ضر ﴿مَسَّهُ كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التريين ﴿ زُيُنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: زين الشيطان بوسوسته لهم ﴿ هَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات والأماني الباطلة، والإعراض عن العبادات عند الرخاء.

وَلَقَدُ أَهْلَكُمُنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمُّ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتُهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيَنَاتِ
وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَرَهَنَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

ثمّ أخبر سبحانه عمّا نزل بالأمم الماضية من المثلات، وحدِّر هذه الأمّة عن مثل مصارعهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكُنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ يا أهل مكّة بأنواع العذاب ﴿ لَمُا ظَلَمُوا ﴾ حين ظلموا بالتكذيب وفرط العصيان، واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي. وهو ظرف لـ«أهلكنا». ﴿ وَجَآءَتُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيّنَاتِ ﴾ بالحجج الدالّة على صدقهم. وهو حال من الواو بإضمار «قد»، أو عظف على «ظلموا». ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُوْمِنُوا ﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: وما كانوا يؤمنون حقاً. والمعنى: أنّ السبب في هلاكهم تكذيبهم الرسل، وعلم الله إصرارهم على الكفر، وأنّه لا فائدة في إمهالهم بعد أن لزمهم الحجة بإرسال الرسل.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الجزاء، وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم عليه، بحيث تحقّق أنّه لا فائدة في إمهالهم ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ نجزي كلّ مجرم، أو نجزيكم. فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وأنّهم أعلام فيه، وهو وعيد لأهل مكّة.

﴿ فَمُ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِكَمْ فَكَالِئِكَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ استخلفناكم في الأرض من بعد القرون الّتي أهلكناها استخلاف من يختبر ﴿لِنَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: أتـعملون خيراً أم شرّاً؟ فنعاملكم على حسب أعمالكم. و«كيف» في محلّ النـصب حـالاً ب «تعملون»، فإنّ معنى الاستفهام فيه يحجب أن يعمل فيه ما قبله. والنظر هنا مستعار، بمعنى العلم المحقّق الذي هو العلم بالشيء موجوداً، شبّه بنظر الناظر وعيان المعاين في تحقّقه.

وَإِذَا تُنكَى عَلَيْهِمْ آلَاتُنَا بَيِنَاتِ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاعَا الْتَ بِقُرْآنَ عَنْدِ هَذَا أَوْ بَدَلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَبْدَلَهُ مِن تِلْقَاءَ نَفْسَيَ إِنْ أَنْبِعُ إِلاَّ مَا يُحُونُ إِلَيْ أَنْ أَبْدَلَهُ مِن تِلْقَاءَ نَفْسَيَ إِنْ أَنْبِعُ إِلاَّ مَا يُوحِئَ إِلَيْ إِنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِي عَذَابَ يَوْمٍ عَظَيمٍ ﴿ ١٥﴾ قُل لُو شَاءَ اللّهُ مَا تَلُوتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِشْتُ فِيكُمْ عُمُوا مِن قَبْلِهِ أَفَلا تَغْقُلُونَ اللّهُ مَا تَلُونُهُ عَلَيْكُمْ مِثَنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذَبًا أَوْ كَذَبَ بِآيَاتِهُ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ اللّهِ كُذَبًا أَوْ كَذَبَ بِآيَاتِهُ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ اللّهِ مُرَافِقَ ﴿ ١٧﴾

روي أنَّ خمسة نفر من المشركين، وهم: عبدالله بن أميّة المخزومي، والوليد ابن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبدالله بن ابي قيس العامري، والعاص ابن عامر بن هاشم، قالوا للنبي ﷺ: اثت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعرَّى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها، ولا ما نستبعده من الآخرة وأحوالها، أو بدّله فتكلّم بع عن تلقاء نفسك. فنزلت: ﴿ وَإِذَا تُتُلِّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيْفَاتٍ ﴾ واضحات الدلالات به عن تلقاء نفسك. فنزلت: ﴿ وَإِذَا تُتُلِّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيْفَاتٍ ﴾ واضحات الدلالات في الحلال والحرام وسائر الشرائع ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَزْجُونَ لِقَآمَنا ﴾ لا يؤمنون بالبعث والنشور وما يتعلق به، يعني: المشركين ﴿ اللهِ بقُرْآنٍ غَيْرٍ هَذَا ﴾ بكتاب آخر نقرؤه، وليس فيه ما نكرهه من معايب آلهتنا، وما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد

١٩٦ زيدة التفاسير ـ ج٣

الموت ﴿أَوْ بَدِّنُهُ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أُخرى. ولعلَّهم سألوا ذلك لكي يسعفهم إليه فيازموه.

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي ﴾ ما يصح لي ﴿ أَنْ أَبَدْلُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ من قبل نفسي. وهو مصدر استعمل ظرفاً. وإنّما اكتفى بالجواب عن التبديل لأنّ هذا داخل تحت مقدور الانسان، بأن يضع مكان آية عذاب آية رحمة ممّا أنزل، وأن يسقط ذكر الآلهة، فأمّا الإتيان بقرآن آخر فغير مقدور عليه للانسان.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِنِّيَ ﴾ تعليل لقوله: «ما يكون لي»، فإنَّ المتّبع لغيره في أمر لا يستبدّ بالتصرّف فيه بوجه. وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض، أي: إن نسخت آية تبعت التبديل، وليس إليّ نسخ وإن بدّلت آية مكان آية تبعت التبديل، وليس إليّ نسخ ولا تبديل. وردّ لما عرضوا له بهذا السؤال من أنَّ القرآن كلامه واختراعه، ولذلك قدّ التبديل في الجواب وسمّاه عصياناً فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أي: بالتبديل من عند نفسي ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وفيه إيماء بأنّهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ الله ﴾ غير ذلك ﴿ مَا تَلَوْتُهُ ﴾ ما قرأت هذا القرآن ﴿ عَلَيْحُمْ وَلاَ الْرَائِمْ بِه ﴾ ولا أعلمكم الله بعلى لساني بأن لا ينزله علي ، فلا أقرأ عليكم فلا تعلمونه . وعن ابن كثير برواية قنبل والبرّي مع خلاف : ولأدراكم بلام التأكيد ، أي : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم الله به على لسان غيري ، ولكنّه خصني بهذه الكرامة . يعني : أنّه الحقّ الذي لا محيص عنه ، لولم أرسل به لأرسل به غيري . وملخص المعنى : أنّ تلاوته ليست إلاّ بمشيئة الله ، لا بمشيئتي حتى أجعله على نعو ما تشتهونه .

ثمّ قرّر ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ﴾ فقد أقمت فيما بينكم ﴿عُمُوا﴾ مقدار عمر أربعين سنة ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه. فهذا دلالة على أنّ القرآن معجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهركم أربعين سنة لم يمارس فيها

علماً، ولم يشاهد عالماً، ولم ينشىء شعراً ولا خطبة، ثمّ قرأ عليهم كتاباً بدّت (١) فصاحته فصاحة كلّ منطيق فصيح، وعلا عن كلّ منثور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع، وأعرب عن أقاصيص الأوّلين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه، علم أنّه معلّم به من الله تعالى. ﴿ أَفَلَا تَمْ فَقِلُونَ ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبّر والتفكّر فيه لتعلموا أنّه ليس إلّا من الله تعالى ؟ !

﴿ فَمَنْ أَطْلَهُ مِمْنِ افْقَرَى عَلَى اللهِ كَذِبا﴾ أي: لا أحد أظلم من اخترع على الله كذباً. وهذا تفادٍ منا أضافوه إليه كناية، أو تظليم للمشركين بافترائهم على الله في قولهم: إنّه لذو شريك وذو ولد. ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ فكفر بها ﴿ إِنّهُ لَا يُفْلِحُ المُعْمِن ﴾ أي: المشركون المتوغّلون في الطغيان والعصيان.

وَيُعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمُ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَوَّلاً مَ اللهِ مَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَات وَلاَ فِي الأَرْضَ شُعْعَا وَيَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتَنبُّونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَات وَلاَ فِي الأَرْضَ سُبُحَانَهُ وَيَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَاسُ إِلاَّ أَمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلُولاً كَلْمَةٌ سَبَقَتُ مِن رَبِّكِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلَفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَعْدُونَ وَلاَ أَنْ مَعْكُم مَن وَيَعُولُونَ لَوْلاَ أَنْوِلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِن رَبِهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظُرُواْ إِنِّي مَعْكُم مَن المُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّشُهُم إِذَا لَهُم مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكُمْ إِنَ رُسُلَنَا يَكُثُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

⁽١) بَذَّ يبُذُ: غلب وفاق.

روي: أنّ أهل الطائف كانوا يحبدون اللّات، وأهل مكّة العرّى ومناة وهبل وأسافاً ونائلة، وكانوا يتقولون: هولاء شفعاؤنا عند الله، فنزلت فيهم: ويَعْبَدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ لاَنْه جماد لا يقدر على نفع ولا ضرّ، والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضرّ ﴿ وَيَقُولُونَ هَوُلاءِ شُفَعَاوُنَا عِنْدَاللهِ ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا أو الآخرة إن يكن بعث. وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد الضار النفع إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنّه لا يضرّ ولا ينفع، على توهم أنّه ربما يشفع لهم عنده.

﴿ قُلْ أَتُنَبُّونَ اللهُ ﴾ أتخبرونه ﴿ بِهَا لاَ يَعْلَمُ ﴾ وهو أنَّ له شريكاً. وفيه تقريع وتهكّم بهم، أو هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وما لا يعلمه العالم بالذات المحيط بجميع المعلومات لا يكون له تحقّق. ﴿ فِي السَّمْوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾ حال من العائد المحدوف في «لا يعلم» أي: لا يعلمه، مؤكّدة للنفي، منبّهة على أنَّ ما يعبدون من دو الله إما سماوي أو أرضي، ولا شيء من الموجودات فيهما إلا وهـو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به ﴿ سُبْخَانُهُ وَتَعَالَىٰ عَمًا يُشْرِكُونَ ﴾ «ما» مصدرية، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، وقرأ حمزة أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الموضعين في أوّل النحل (١) والروم (٢) بالتاء.

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أَمَّةً وَاجِدَةً ﴾ متفقين على ملّة واحدة، موحّدين كلّهم على الفطرة. وذلك في عهد آدم ه الى إلى أن قتل قابيل هابيل، أو بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديّاراً. أو مجتمعين على الضلال في فترة من الرسل. ﴿ فَاخْتَلَقُوا ﴾ بانّباع الهوى والأباطيل، أو ببعثة الرسل، فتبعتهم طائفة وأصرّت أخرى.

(١) النحل: ١.

⁽٢) الروم: ٤٠.

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بتأخير الحكم بينهم أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة. فإنّه يوم الفصل والجزاء ﴿ لَقُضِيّ بَنِنَهُ ﴾ عاجلاً ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحقّ، ولكنّ الحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار للتكليف، وتلك للثواب والعقاب.

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفّار فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أَنزِلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ
رَبِّهِ ﴾ أي: من الآيات التي اقترحوها. وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظيمة المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، لفرط عنادهم وتماديهم في الغيّ. ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْفَيْبُ بِشِ ﴾ هو المختصّ بعلمه، فلملّه في التمرّد، وانهماكهم في الغيّ. ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْفَيْبُ بِشِ ﴾ هو المختصّ بعلمه، فلملّه يعلم في إنزال الآيات المقترحة من مفاسد تصرف عن إنزالها ﴿ فَانتَظِرُوا ﴾ لنزول ما اقترحتموه ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنتَظِرِينَ ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم مانزل عليّ من الآيات العظام، واقتراحكم غيره.

ثمّ أخبر سبحانه عن ذميم فعالهم فقال: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ ﴾ يريد بالناس
 الكفّار ﴿ رَحْمَةٌ ﴾ صحّة وسعة ﴿ مِن بَعْدِ ضَوَّاءً مَسَّتَهُمْ ﴾ كمرض وقحط ﴿ إذا لَـهُمْ
 مَكُنْ فِي آيَاتِنَا ﴾ احتيال في دفعها والطعن فيها.

قيل: قحط أهل مكّة سبع سنين حتّى كادوا يهلكون، ثمّ رحمهم الله بغزارة المطر. فصاروا يطعنون في آيات الله. ويكيدون رسوله ويعادونه.

﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكُوا﴾ منكم، قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم في إطفاء نور الاسلام. وإنّما دلّ على سرعتهم المفضّل عليهاكلمة «إذا» المفاجأة الواقعة جواباً لاإذا» الشرطيّة. والمكر إخفاء الكيد. وهو من الله تعالى إمّا الاستدراج، أو الجزاء على المكر. ﴿ إِنَّ رُسُلنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ هذا إعلام للانتقام، وتنبيه على أنّ ما دبروا في إخفائه لم يخف على المفظة، فضلاً أن يخفى على الله تعالى. وعن يعفوب بمكرون بالياء، ليوافق ما قبله.

هُوَ الَّذِي يُستَيْرُكُمْ فِي الْبَرِ وَالْبَحْرِ حَتَى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفَلْكِ وَجَرْنِ بِهِم بِرِح طَيْبَة وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتُهَا رِبِح عَاصِفٌ وَجَآءُهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِ مَكَانِ وَطَنَّواً أَنَّهُمُ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَواْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ لَنْ أَجَيْنَنَا مِنْ هَذِه لَنكُونَنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿ ٢٢﴾ فَلَمَا آنُجَاهُمُ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَفْسِكُم مَّنَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إَلِينَا مَرْجِعُكُمُ فَتُنتَبُّكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ٣٣﴾

ثمّ امتنّ الله سبحانه على خلقه، بأن عدّد نعمه الّتي يعطيهم في كلّ حال، فقال: ﴿ هُوَ الْذِي يُسَيِّرُكُمْ ﴾ يحملكم على السير، ويمكّنكم منه بما هيّاً لكم من أسباب السير، وقرأ ابن عامر: ينشركم، بالنون والشين من النشر. ﴿ فِي الْبُرُ وَالْبَخْوِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِيها. عدل عن الخطاب إلى ختّى إذا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ في السفن ﴿ وَجَرَيْنَ فِهِمْ ﴾ بمن فيها. عدل عن الخطاب إلى الفيبة للمبالغة، كأنّه تذكرة لفيرهم ليتعجّب من حالهم وينكر عليهم. ﴿ بِرِيحٍ طَيْبَةٍ ﴾ لينه الهبوب يستطيبونها ﴿ وَقُوحُوا بِهَا ﴾ سرّوا بتلك الربح، لأنّها تبلغهم مقصودهم ﴿ جَراب «إذا». والضمير للفلك أو الربح الطيّبة. بمعنى: تلقّتها. ﴿ رِيتَ عَاصِفَ، شديدة الهبوب، هائلة.

﴿ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من أمكنة العوج. يعني: الموج من الجوانب الأربع. ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ أُجِيطَ بِهِمْ ﴾ وأيقنوا أنّهم دنوا من الهلاك. وهو مثل في الهلاك. أي: أنّهم أهلكوا، وسدّت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاطت به أعداؤه. ﴿ ذَعُوا الله ﴾ عند نزول هذه الشدائد ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ من غير إشراك. لتراجع الفطرة، وزوال المعارض من شدّة الخوف. وهو بدل من «ظنّوا» بدل الاشتمال، لأنّ دعاءهم من لوازم ظنّهم الهلاك، فهو ملتبس به. والجملة الشرطيّة بعد «حتّى» بما في حيّزها غاية للتسيير، فكأنّه قال: هو الذي يسيّركم حتّى وقعت هذه الحادثة، وكان كيت وكيت، من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج، والظنّ بالهلاك، والدعاء بالإنجاء خالصاً ومخلصاً.

﴿ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ يا ربّ ﴿ مِنْ هَذِهِ ﴾ الشدّة ﴿ لَلَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي: من جملة من يشكرك، على إرادة القول، أو مفعول «دعوا» لأنّه من جملة القول.

﴿ فَلَمَا أَنجَاهُمْ﴾ أخلصهم الله تعالى من تلك المحن إجابة لدعائهم ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فاجؤا الفساد فيها، وسارعوا إلى ما كانوا عليه ﴿بِغَيْرِ الْحَقُّ﴾ مبطلين فيه. وهو احتراز عن تخريب المسلمين ديار الكفرة وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم، فإنّها إفساد بحقّ.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اِنْمَا بَفَيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ فإنّ وباله عليكم ، وإنّما بغيكم على أمثالكم وأبناء جنسكم ﴿ مَتاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ منفعة الحياة الدُنيا لا تبقى، ويبقى عقابها. ورفعه على أنّه خبر «بغيكم» و«على أنفسكم» صلته، أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: ذلك متاع الحياة الدنيا، و«على أنفسكم» خبر «بغيكم» ونصبه حفص على أنّه مصدر مؤكّد، أي: تمتّعون متاع الحياة الدنيا. أو مفعول البغي، لأنّه بمعنى الطلب، فيكون الجارٌ من صلته والخبر محذوف، تقديره: بغيكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ضلال. أو مفعول فعل دلّ عليه البغي، و«على أنفسكم» خبر.

﴿ ذُمُ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ فَتُنَبِّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمُلُونَ ﴾ بالجزاء عليه. وروي عنه ﷺ: «ثنتان يعجّلهما الله في الدنيا: البغي، وعقوق الوالدين». وعن ابن عبّاس: لو بغي جبل على جبل لدك الباغي. إِنَّمَا مَثُلُ الْحَيَاةِ الدُّثِيَا كَمَآ أَنْوَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآ فَاخْتَلَطَ بِهِ بَبَاتُ الأَرْضُ رُخُرُفَهَا وَارَّيَنَتُ الأَرْضُ رُخُرُفَهَا وَارَّيَنَتُ الأَرْضُ رُخُرُفَهَا وَارَّيَنَتُ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَهْمُ اللَّهُ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَهُ لَا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَهُ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفْصِلُ الآياتِ لِعَنْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

ولمّا تقدّم ما يوجب الترغيب في الآخرة والتزهيد في الدنيا، عقبه سبحانه بذكر صفة الدارين، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ التَّنْيَا﴾ حالها السجيبة في سرعة تقضّها، وذهاب نعيمها بعد إقبالها، واغترار الناس بها ﴿كَمَاءٍ أَسْرَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاشْتَبك بسببه حتّى خالط بعضه بعضاً ﴿مِمَّا يَاكُلُ النَّاسُ وَالْاَنْعَامُ﴾ من الزروع والبقول والحشيش.

﴿ حَتُىٰ إِذَا اَخَذَتِ الآرْضُ رُخُرُفَهَا وَارْبَيْنَتُ وَالرِينة وَتريّنت بأصناف النبات وأشكالها وأولها المختلفة، كعروس أخذت ألوان التيباب والرينة وتريّنت بها. وأصل «ازَّيِّنت» تريّنت، فأدغم ثمّ أدخل عليه الهمزة المكسورة، لتعذّر الابتداء بالساكن. ﴿ وَظَنَّ الْمُلُهُ الْنَهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ متكنون من حصدها ورفع غلّتها ﴿ اَتَاهَا اَمْوَنَا هُو ضرب زرعها ببعض العاهات والآفات بعد أمنهم وإيقانهم أن قد سلم ﴿ لَيْلا أَق نَهُ الْمُوْنَا لَهُ عَلَيْهَا وَ لَمُنَا المُنْهَا فَهُ عَلَيْهَا وَ الله واستؤصل فَيَالُهُ مُنْ فَي رَعها، أَي: لم ينبت. والمضاف محذوف في الموضعين للمبالغة. ﴿ بِالْأَمْسِ ﴾ فيما قُبِينُك، وهو مثل في الوقت القريب، كأنّه قيل: كأن لم تغن آنفاً.

واعلم أنّ الممثّل به مضمون الحكاية، وهــو زوال خــضرة النــبات فــجأة. وذهابه حطاماً. بعد ما كان غضًاً والتفّ وزيّن الأرض حتى طمع فيه أهله. وظنّوا

أنّه قد سلم من الجوائح^(۱)، لا الماء وإن وليه حسرف التشسبيه. لأنّـه مـن التشسبيه المركّب.

﴿ كَذَٰلِكَ نُفُصُّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإنَّهم المنتفعون به.

وَاللّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صَرَاط مُسْتَقِيمٍ ﴿ ٥٠ ﴾ لَّلَذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وَجُوهَهُم قَتَرٌ وَلاَ فَلَا أُولَّكُ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا حَالِدُونَ ﴿ ٢٦ ﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيْئَاتَ جَزَاءً سَيْنَة بِمِثْلِهَا وَتَرْهَعَهُمْ ذَلَةٌ مَّا لَهُم مِن الله مِنْ عَاصِمٍ كَأَنْمَا أُولِينَ فُجُوهُهُمْ قَطَعًا مِن اللّهِ مُظْلِمًا أُولَيْكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ ٢٧ ﴾

ولمّا بيّن سبحانه أنّ الدنيا تنقطع وتفنى بالموت كما يفنى هذا النبات بفنون الآفات، ونبّه على التوقع لزوالها والتحرّز عن الاغترار بأحوالها، رغّب عقيبه في الآخرة، فقال: ﴿ وَاللهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ ﴾ دار السلامة من التقضّي والآفة، أو دار الله و الله و الملائكة فيها الله و تخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبيه على ذلك. أو دار يسلّم الله والملائكة فيها على من يدخلها والمراد الجنّة . ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءَ ﴾ بالتوفيق، وهو الّذي علم أنّ اللطف يجدي عليه، فإنّ مشيئته تابعة لحكمته . ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هو طريقها الذي هو الاسلام والتدرّع بلباس التقوي.

⁽١) الجوائح جمع الجائحة ، وهي البليّة والتهلكة .

والمعنى: يدعو العباد كلّهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلّا الّذي استرشد فوفّق بالاهتداء. فإنّ الحكمة الألهيّة مقتضية أن يوفّق طالب الحقّ ويهديه، ويخذل المعاند المكابر ويمنع لطفه وتوفيقه عنه.

تم بين حال أهل دار السلام فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ المحثوبة ﴿الْحُسْنَى وَزِيادَهُ﴾ وما يزيد على المتوبة تفضّلاً، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَصْلِهِ﴾ (١). وعن علي ﷺ «الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة، لها أربعة أبواب». وعن ابن عباس: الحسنى مثل حسناتها، والزيادة عشر أمثالها. وعن الحسن: عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر. وعن مجاهد: الزيادة مغفرة من الله ورضوان. وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم. وعن أبي جعفر ﷺ: «الزيادة هي ما أعطاهم الله تعالى من النعم في الدنيا، لا يحاسبهم به في الآخرة».

﴿ وَلَا يَزِهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها ﴿ قَتَرُ ﴾ غبرة فيها سواد ﴿ وَلَا ذِلَّةً ﴾ هوان وأثر كآبة. والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار، كقوله: ﴿ شَرْهَقُهُا شَتْرَةً ﴾ (٣) • ﴿ ثَهُ مَقُهُمْ ذَلَةً ﴾ (٣).

روى الفضيل بن يسار عن أبي جعفر ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ؛ ما من عين ترقرقت عن خشية الله المن على النار، فإن فاضت من خشية الله للم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلّة».

﴿ أَوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ دائمون لا زوال فيها، ولا انقراض

⁽١) النساء: ١٧٣.

⁽٢) عبس: ٤١.

⁽٣) القلم: ٤٣.

⁽٤) تر قر قت العينُ : دمعت .

﴿ وَالَّذِينَ تَسَبُوا السَّيِّفَاتِ جَزَاءَ سَيِّنَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ عطف على قوله: «للَّذين أحسنوا الحسنى» على مذهب من يجوز: في الدار زيد والحجرة عمرو. أو «الَّذين» مبتدأ، والخبر «جزاء سيّئة» على تقدير: وجزاء الَّذين كسبوا السيِّئات جزاء سيّئة بعيئة مثلها لا يزاد عليها. أو «اللَّذين» بمبتدأ، والخبر «كانَّما أغشيت» أو «أولئك أصحاب النار»، وما بينهما اعتراض. فرجزاء سيّئة بمثلها واقع، أو بمثلها، على فرجزاء سيّئة بمثلها واقع، أو بمثلها، على زيادة الباء أو تقدير مقدر: بمثلها.

وفي هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل، لأنّه دلّ بترك الزيــادة عــلى السيّئة على عدله، ودلّ ثنّة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله.

﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَةً مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمِ ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله ، أو من جهة الله تعالى ومن عنده، كما يكون للمؤمنين ﴿ كَانَمْنا أَغْشِيتَ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللّهَ لِمُ مَا لليل ، والعامل فيه «أغشيت»، لأنّه العامل في «قطعاً»، وهو موصوف بالجار والمجرور، والعامل في الموصوف عامل في الصفة ، أو العامل معنى الفعل في «من الليل».

وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: قِطْعاً بسكون الطاء. وعلى هذا يصحّ أن يكون «مظلماً» صفةله أو حالاً منه.

﴿ أَوْلَٰذِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذه الآية في المشركين، فلا تكون منّا يحتجّ به الوعيديّة.

وَيْوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَتَلْنَا بُنِنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَا كُمُتُمْ آلِيانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بُلِنَنَا وَبُلِيَكُمُ إِن كُمَّا عَنْ عَبَادَتِكُمْ لَفَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ نَّبُلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّواَۚ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

ولمّا تقدّم ذكر الجزاء بين سبحانه وقت الجزاء، فقال: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعا ﴾ نجمع الخلائق أجمعين من كلّ أوب إلى الموقف ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلْإِينَ الشَرْحُوا مَكَانَكُمْ ﴾ الزموا مكانكم حتّى تنظروا ما يفعل بكم ﴿ انتَهُ ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إليه من عامله، لأنّه سدّ مسدّ: الزموا ﴿ وَشُرْكَاؤُكُمْ ﴾ عطف عليه ﴿ فَزَيْلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ففرّقنا بينهم، وقطّعنا الوصل الّتي كانت بينهم ﴿ وَقَالَ شُرْكَاؤُهُم مَا كُنتُمْ إِيّانًا لَعْدُونَ ﴾ مجاز عن براءة ما عبدوه من عبادتهم، فإنّهم عبدوا في الحقيقة أهواءهم، لأنّها الآمرة بالاشراك لا ما أشركوا به.

وقيل: ينطق الله الأصنام فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي توقّعوا منها. وقيل: المراد بالشركاء الملائكة والمسيح. وقيل: الشياطين.

﴿ فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنّه العالم بكنه الحال ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَقَافِلِينَ ﴾ (إن » هي المخفّفة من الثقيلة، واللام هي الفارقة.

﴿ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المقام ﴿ تَبْلُواْ كُلُ نَفْسٍ مَا أَسْلَقُتْ ﴾ تختبر ما قدّمت من عمل، فتعاين نفعه وضرّه، مقبوله ومردوده، ومنه ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِدُ ﴾ (١١). وقرأ حمزة والكسائي: تتلو، من التلاوة، أي: تقرأ ذكر ما قدّمت، أو من التلو، أي: تتبع عملها فيقودها إلى الجنّة أو إلى النّار. ﴿ وَرُدُّوا إلنَى اللهِ ﴾ إلى جزائه إيّاهم بما اسلفوا ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ ربّهم الثابتة ربوبيّته، ومتولّي أمورهم على الحقيقة، لا ما اتّخذوه مولى. أو الذي يتولّى حسابهم، العدل الذي لا يجور. ﴿ وَصَلّا عَنْهُمْ ﴾ وضاع عنهم

⁽١) الطارق: ٩.

قُلْ مَن يُوزَقُكُم مِن السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أَمَن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيِّ وَمَن يُدَيِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ يُخْرِجُ الْحَيِّ وَمَن يُدَيِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٦﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَى تُصُرَفُونَ ﴿٣٣﴾ كَذَلِكَ حَقَّتُ كَلِمَتُ رَبِكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصُرَفُونَ ﴿٣٣﴾ كَذَلِكَ حَقَّتُ كَلِمَتُ رَبِكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

ثمّ قرّر سبحانه أدلّة التوحيد والبعث عليهم، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَـزَدُقُكُمْ مِنْ السَّفَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: منهما جميعاً، فإنّ الأرزاق تحصل بأسباب سماويّة وموادّ أرضيّة، أو من كلّ واحد منهما توسعة عليكم. وقيل: «من» لبيان «من» على حذف المضاف، أي: من أهل السماء والأرض.

﴿ أَمْنَ يَعْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْـصَارَ﴾ أم من يستطيع خلقهما وتسويتهما؟ أو مسن يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء؟

﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أي: ومن يحيي ويميت ؟ ومن ينشىء الحيوان من النطفة، والنطفة منه ؟ ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم، وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿ فَسَنِيقُولُونَ الله ﴾ إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك، لفرط وضوحه ﴿ فَقُلْ افْلَا مَتَّقُونَ ﴾ أنفسكم عقابه بإشراككم إيّاه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقِّ﴾ أي: المتولّي لهذه الأمور المستحقّ للعبادة هو ربّكم النابت ربوبيّته. لأنّه الّذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبّر أموركم ﴿ فَعَاذَا بَعْدَ الْحَقّ لِلّا الضّلَالُ﴾ استفهام إنكار، أي: ليس بعد الحقّ إلّا الضلال، فمن تخطّى الحـقّ _ الله عادة الله _ وعبادة الله _ وقع في الضلال ﴿ فَانَّى تُصْرَفُونَ﴾ عن الحقّ إلى الضلال.

﴿ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما حقّت الربوبيّة لله تعالى، أو أنّ الحقّ بعده الضلال، أو أنّهم مصروفون عن الحقّ ﴿ حَقَتْ كَلِمَةٌ رَبِّكَ﴾ أي: ثبت حكمه بالعذاب ﴿ عَلَى اللّذِينَ فَسَقُوا﴾ تمرّدوا في كفرهم، وخرجوا عن حدّ الاستصلاح ﴿ النّهُمْ لَا يُوْمِنُونَ ﴾ بدل من الكلمة، أي: حقّ عليهم انتفاء الإيمان. أو تعليل لحقيّتها، أي: حقّ عذاب الله على الذين فسقوا، لعدم إيمانهم.

قُلُ هَلْ مِن شُرِكَانِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قَلْ اللَّهُ يَعِدَهُ قَلْ اللَّهُ يَعِدَهُ فَأَنَى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُركَانَكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي الْمَحقِ أَحَقُ أَن يُتَبَعَ أَمَّن لاَ يَهِدَي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا يَهُدي اللَّهُ لَكُمُ كُنُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا يَتَبِعُ أَكْرُهُمُ إِلاَّ ظَنَا إِنَّ الظَّنَ لاَ يُعْنِي مِنَ الْحَقِ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَهْعَلُونَ ﴿٣٣﴾

ثم احتج سبحانه عليهم في التوحيد باحتجاج آخر، فقال: ﴿قُلُ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ من هذه الأصنام التي جعلتموها شركاء لله تعالى ﴿مَنْ يَبْدُوُا الْخُلُقُ لَمُّ يُعِيدُهُ﴾ جعل إعادة الخلق كالإبداء في الإلزام بها، لظهور برهانها، ومكابرة دافعها، وعدم مساعدته عليها، ولذلك أمر الرسول بأن ينوب عنهم في الجواب، فقال: ﴿قُل

اللهُ يَنِدُوُا الْخُلُقَ ثُمُّ يُعِيدُهُ﴾ لأن لجاجهم ومكابر تهم لا يدعهم أن يعترفوا بها ﴿فَانَّىٰ تُؤْفُكُونَ﴾ تصرفون عن قصد السبيل.

ثم استأنف الحجاج بنوع آخر، فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقَ ﴾ إلى الرشد وما فيه من الصلاح والنجاة، بنصب الحجج وإرسال الرسل، والتوفيق للنظر والتدبّر. و«هدى» كما يعدّى بدإلى» لتضمّنه معنى الانتهاء، يعدّى باللام، للدلالة على أنّ المنتهى غاية الهداية، وأنّها لم تتوجّه نحوه على سبيل الاتّفاق، ولذلك عدّي بها ما أسند إلى الله تعالى، وقال: ﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقّ ﴾ بما ركّب في المكلّفين من العقول، ومكّنهم من النظر في الأدلّة، ووقفهم على الشرائع.

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ اَحَقُّ اَن يُتَّبَعُ أَمْنَ لَا يَهِدِّي﴾ لا يهتدي ﴿إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ من قولهم: هدى بنفسه إذا اهتدى. أو لا يهدي غيره إِلّا أن يهديه الله. وهذا حال أشراف شركائهم، كالملائكة والمسيح وعزير.

وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر: لا يَهَدِّي، بفتح الهاء وتشديد الدال. ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد. والأصل: يهتدي، فأدغم، وفتحت الهاء بحركة التاء، إلو كسرت لالتقاء الساكنين. وروى أبو بكر: يهدِّي باتباع الهاء. وقرأ أبو عمرو بالإدغام المجرّد عن الفتحة أو الكسرة، ولم يكن يبال بالتقاء الساكنين، لأنّ المدغم في حكم المتحرّك. وعن نافع برواية قالون مثله.

﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْمُمُونَ ﴾ بما يقتضي صريح العقل بطلانه، كقولهم: إنّ هذه الأصنام آلهة، وأنّها شفعاء عند الله. والاستفهام للتعجيب.

﴿ وَمَا يَتَبِعُ أَفَرُهُمْ ﴾ فيما يعتقدونه ﴿ إِلَّا ظَنَا ﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة، كقياس الغائب على الشاهد، والخالق على المخلوق، بأدنى مشاركة موهومة. والمراد بالأكثر الجميع، أو من ينتمي إلى تمييز ونظر، ولا يرضى بالتقليد الصرف.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَعْنِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ من العلم والاعتقاد الحقّ الثابت ﴿شَينَا ﴾ من الإغناء. ويجوز أن يكون مفعولاً به، و«من الحقّ» حالاً منه، وفيه دليل على أنَّ تحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالتقليد والظنّ غير جائز. ﴿إِنَّ الله عَلِيمُ بِمَا يُفْعَلُونَ ﴾ وعيد على اتباعهم للظنّ، وإعراضهم عن البرهان.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرُآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ الله وَلَكِن تَصْدِيقِ الَّذِي بُنِنَ يَدِيْهِ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرُآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ الله وَلَكِن تَصْدِيقِ الَّذِي بُنِنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رُبِيبَ فِيهِ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلُ فَأَتُواْ بِسُورَة مَثْلُه وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ الله إِن كُتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَبُولَ كَذَبُ اللهِ يَن كُذَب الذّينَ مَن قَبْلهِمْ فَانظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقَبَهُ الظَّالَمِينَ ﴿٣٩﴾

ثمّ ردَّ الله سبحانه على الكفّار قولهم: «اثت بقرآن غير هذا أو بدّله»، وقولهم: إنّ النبيّ عَلَيْتُ افترى هذا القرآن، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ هٰذَا الْقُوْرَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ وما صحّ وما استقام وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترىً من الخلق ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الدِّي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ مطابقاً لما تقدّمه من الكتب الإلهيّة المشهود على صدقها، ولا يكون كذباً، كيف وهو _ لكونه معجزاً دونها _ عيار عليها، شاهد على صحّتها. ونصبه بأنّه خبر لا كان» مقدّراً، أو علّة لفعل محذوف، تقديره: لكن أنو الله تصديق الذي بين يديه.

﴿ وَتَفْصِيلَ الْجَتَابِ ﴾ وتفصيل ماحقّق وأثبت من العقائد وفرض الأحكام، وبيان سائر الشرائع ﴿ لَا رَبْيَ فِيهِ ﴾ منتفياً عنه الشكّ. وهو خبر ثالث داخـل فـي حكم الاستدراك. ويجوز أن يكون حالاً من «الكتاب»، فإنّه مفعول في المعنى، وأن يكون استئنافاً.

﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ خبر آخر، تقديره: كائناً من ربّ العالمين. أو متعلّق بداتصديق أو بدتفصيل»، و «لا ريب فيه» اعتراض. أو بالفعل المعلّل بالتصديق والتفصيل، أي: أنزله الله كائناً من ربّ العالمين. ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب، أو من الضمير في «فيه». ومساق الآية بعد المنع من اتّباع الظنّ لبيان ما يجب اتّباعه والبرهان عليه.

﴿ أَم يَقُولُونَ ﴾ بل أيقولون ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ محمد ﷺ ؟ ومعنى الهمزة فيه للانكار. ﴿ قُلُ ﴾ إن افتريته كما زعمتم ﴿ قَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ في البلاغة وحسىن النظم وقوّة المعنى على وجه الافتراء، فإنّكم مثلي في العربيّة والفصاحة، وأشد تمرّناً في النظم والعبارة ﴿ وَآدَعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمُ ﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ سوى الله تعالى، فإنّه وحده قادر على أن يأتي بمثله، ولا يقدر على ذلك أحد غيره ﴿ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنّ محمداً أختلقه.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب ﴿ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ بالقرآن الذي لم يعلموه من جميع وجوهه أوّل ما سمعوه، قبل أن يتدبّروا آياته، ويحيطوا بالعلم بشأنه وكنه أمره، من كيفيّة نظمه وصحّة معانيه. أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً، من ذكر البعث وسائر ما يخالف دينهم.

﴿ وَلَمُا يَاتِهِمْ تَاوِيلُهُ ﴾ ولم يقفوا بعد على حقيقته، ولم تبلغ أذهانهم معانيه، لنفورهم عمّا يخالف ما ألفوه من آبائهم. أولم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الإخبار بالغيوب حتّى يتبيّن لهم أنّه صدق أوكذب. والمعنى: أنّ القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى. ثمّ إنّهم فاجؤا تكذيبه قبل أن يتدبّروا نظمه ويتفحّصوا معناه.

ومعنى التوقّع في «لمّا» أنّه قد ظُهر لهم بالأخرة إعـجازه لمّــاكـرّر عــليهم التحدّي، فجرّبوا قواهم في معارضته فضعفت دونها، أو لمّا شاهدوا وقوع ما أخبر ۲۱۲ زيدة التفاسير ـج ٣

به طبقاً لإخباره مراراً، فلم يقلعوا عن التكذيب تمرّداً وعناداً.

﴿ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التكذيب ﴿ كَذَّبُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أنبياءهم ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَهُ الظَّلْمِينَ ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

وَمِنهُم مِّن يُؤْمنُ بِه وَمِنْهُم مِّن لاَّ يُؤْمنُ بِه وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿ ٤٠﴾ وَإِن كَذَبُوكَ فَقُل لَي عَمَلي وَلَكُمُ عَمَلُكُمْ أَنَّمُ بَرَيُّونَ مَنَّا أَغْمَلُ وَأَنَّا يَرِيٌّ مَّنَا تَعْمَلُونَ ﴿ ٤١﴾ وَمَنْهُم مَّن يَسُتَّمَعُونَ إَلَيْكَ أَفَّانَتَ تُسْمَعُ الصُّمَّ وَلُو كَانُواْ لاَ يَعْقَلُونَ ﴿ ٤٢﴾ وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُهْدِي الْعَمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبِصرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظُلُمُ النَّاسَ شَيِّنًا وَلَكَنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظُلُمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَعَارَفُونَ بَئِنَهُمُ قَدْ خَسرَ الَّذَينَ كَذَّبُواْ بلقاءَ اللَّه وَمَا كَانُواْ مُهْتَدينَ ﴿٥٤﴾ وَإِمَّا نُرِيَّكَ بَعْضَ الَّذي نَعدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْنَكَ فَالِّينَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَكُنَّ أَنَّهَ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضيَ بَئِنَهُم بِالْقَسْطِ وَهُمْ لاَ يُظلُّمُونَ ﴿٤٧﴾

ثمّ أخبر سبحانه أنّ من جملة هؤلاء الكفّار الّذين كذّبوا بالقرآن ونسبوه إلى الافتراء من سيؤمن به في المستقبل، ويصدّق بأنّه من عند الله، ومنهم من يموت

على كفره، فقال: ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ومن المكذّبين ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ من سيؤمن ويتوب عن كفره، أو يصدّق به في نفسه ويعلم أنّه حقّ ولكن يعاند ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ فيما يستقبل، بأن يموت على الكفر، أو لا يؤمن به في نفسه، لقلّة تدبّره فيه ﴿ وَرَبُكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ بالمعاندين أو بالمصرّين.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ بقوله: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ وإن اصرّوا على تكذيبك بعد إلزام الحجّة ﴿ فَقَل لِي عَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم، حقاً كان أو باطلاً ﴿ أَنتُمْ بَرِيتُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءً مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ لا تؤاخذون بعملي، ولا أواخذ بعملكم، ومثله: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمًّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١١. وقوله: ﴿ قَلْ اللهُ إِنّ اللهُ وَنَ ﴾ إلى آخر السورة.

وملخّص المعنى: إن عاندوا وأصرّوا على تكذيبك فتبرّأ منهم وخلّهم، فقد أعذرت في التبليغ إليهم. وهذا وعيد لهم من الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿اغْمُلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ (٢). ولا تنافي بين هذه الآية وآية القتال، لأنّـه بـراءة ووعـيد، وذلك لا ينافي الجهاد، فلا تكون منسوخة بإنزال آية (٢) السيف كما توهّم بعضهم.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكن لا يقبلون ولا يعون، كالأصم الذي لا يسمع أصلاً ﴿ اَفَانتَ تُسْمِعُ الصَّمَ ﴾ أتقدر على إسماعهم ﴿ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقّلهم، لأنّ الأصم العاقل ربما تفرّس واستدلّ وعلم إذا وقع في صماخه دويّ الصوت، فإذا اجتمع سلب العقل والسمع جميعاً فقد تمّ الأمر.

وفيه تنبيه على أنَّ حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه. ولذلك لا

⁽١) الشعراء: ٢١٦.

⁽٢) الأنعام: ١٣٥.

⁽٣) التوبة: ٥ و ٢٩.

توصف به البهائم، وهو لا يتأتّى إلّا باستعمال العقل السليم في تدبّره، وعقولهم لمّا كانت مؤفة بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليد تعذّر إفهامهم الحِكم والمعاني الدقيقة، فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق، وهو مجرّد استماع الصوت.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدّقونك ﴿ أَفَائْتُ تَهْدِي الْعُمْنِ ﴾ أتقدر على هدايتهم ﴿ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْمِعْرُونَ ﴾ وإن انضم إلى عدم البصيرة، فإنّ المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار، والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك يحدس الأعمى المستبصر ويتفطّن لما لا يدركه البصير الأحمق. يعني: أنّهم في اليأس من قبولهم وتصديقهم الحقّ كالصمّ والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر. والآية كالتعليل للأمر بالتبرّي والإعراض عنهم. والاستفهام في الآيتين للإنكار.

﴿إِنَّ اللهُ لاَ يَطْلِمُ النَّاسُ شَيْتُا﴾ بسلب حواسًهم وعقولهم ﴿وَلَكِنُّ النَّاسُ الْفُسَهُمْ يَطْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم. أو لا يظلمهم في تعذيبهم يوم القيامة، بل العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستحقاق. وقرأ حمزة والكسائي بتخفيف «لكن» ورفع الناس.

ثمّ بين حالهم يوم الجمع بقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَانَ لَمْ يَلْبَدُوا إِلّا سَاعَةً مِنَ النَّهارِ ﴾ يعني: يستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا أو في القبور، لهول ما يرون. والجملة التشبيهيّة في موضع الحال، أي: يحشرهم مشبّهين بمن لم يلبث إلّا ساعة. أو صفة لايوم»، والعائد محذوف تقديره: كأن لم يلبثوا قبله، أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله.

﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنّهم لم يتفارقوا إلّا قليلاً، وذلك عند خروجهم عن القبور، ثمّ ينقطم التعارف بينهم، لشدّة العذاب عليهم، وهي حال

أخرى مقدّرة، نحو: خرجت مع البازي صائداً، والصيد لا يكون حين الخروج بل بعده. أو بيان لقوله: «كأن لم يلبثوا». أو متعلّق الظرف، والتقدير: يتعارفون يــوم يحشرهم.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ على إرادة القول. والمعنى: يتعارفون بينهم قاتلين ذلك. أو هي شهادة من الله على خسرانهم. والمعنى: قد خسروا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر. ﴿ وَمَا كَانُوا مُهَدَّدِينَ ﴾ لطرق استعمال ما منحوا من القوى في تحصيل المعارف، فاستكسبوا بها جهالات أدّت بهم إلى الردى والعذاب الدائم، فما كانوا عارفين بالتجارة المربحة، والمثمرة للسعادة الأبديّة.

﴿ وَإِمَّا نُوِيَنَّكَ ﴾ نبصرتُك ﴿ بَغضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر ﴿ أَوْ نَتَوَقَّيْتُك ﴾ قبل أن نريك ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ فنريكه في الآخرة. وهو جواب «نتوفّيتُك». وجواب «نريتُك» محذوف، مثل: فذاك. ﴿ ثُمَّ اللهُ شَهِيدُ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي: مجاز عليه. ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها، فكأنّه قال: ثمّ الله معاقب على ما يفعلون، ولذا ربّبها على الرجوع به ثمّ ». أو معناه: مؤدٍّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة.

﴿ وَلِكُلُّ أَمْتِهِ مِن الأَمم الماضية ﴿ رَسُولَ ﴾ يبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق ﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ ﴾ بالبيّنات فكذّبوه ﴿ قُضِي بَـ يُنتُهُمُ ﴾ بين الرسول ومكذّبيه ﴿ بالقِسْطِ ﴾ بالمدل، فأنجى الرسول وأهلك المكذّبون ﴿ وَهُمْ لَا يُظلّمُونَ ﴾ .

وقيل: معناه لكلَّ أمَّة يوم القيامة رسول تنسب إليه، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بإنجاء المؤمن وعقاب الكافر، كقوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَةِاءِ وَقُضِينَ بَئِيْتُهُۥ (١٠).

⁽١) الزمر: ٦٩.

وَيُقُولُونَ مَنَّى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ٤٨ ﴾ قُل لاَّ أَمُلكُ لنفسى ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ لَكُلِّ أَنَّهَ أَجَلٌ إذا جَآءَ أَجَلَهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخُرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْنَقُدمُونَ ﴿ ٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَأَكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَغُجلُ مُنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ ۖ اَلَّئِنَ وَقَدْ كُتُتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿ ٥٠ ﴾ ثُمَّ قيلَ للَّذينَ ظَلَّمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلِّد هَلْ تُجْزَوْنَ إلاّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسُبُونَ ﴿ ٥٠ ﴾ وَيَسْتَنبُونَكَ أَحَقٌ هُوَ قُلُ إِي وَرَبِي إِنَّهُ لَحَقٌ وَمَا آ أَتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسِ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لأَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُواْ الْنَدَامَةَ لَمَّا رَأُواْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقَسْطِ وَهُمُ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ أَلَّا إِنَّ لَله مَا في السَّمَاوَات وَالأَرْضِ أَلَّا إِنَّ وَعُدَ اللَّه حَقٌّ وَلَكَنَّ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُعْلَمُونَ ﴿ ٥٠﴾ هُوَ يُحْسِي وَيُمسِتُ وَإِلَّيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ ٦٠ ﴾

ولمّا وعد سبحانه المكذّبين بيّن عقيبه أنّهم استعجلوا ذلك على سبيل التكذيب والردّ، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الْوَعْدُ﴾ استبعاداً له واستهزاءً به ﴿إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبيّ والمؤمنين.

﴿قُلُ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَوّاً﴾ من فقر أو مرض ﴿وَلَا نَفْعاً﴾ من غنى أو صحّة. فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب إليكم؟! ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ أن أملكه. أو ولكن ما شاء الله من ذلك كائن ﴿لِكُلُّ أَمَّةٍ أَجَلُ﴾ مضروب محدود مـن الزمـان لهلاكهم ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ قَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يـتأخّرون ولا يتقدّمون، فلا تستعجلوا فسّيحين(١) وقتكم وينجز وعدكم.

﴿ قُلُ أَزَائِتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ الّذي تستعجلون به ﴿ بَيَاتاً ﴾ وقت بيات واشتغال بالنوم. وهو بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم. ﴿ أَوْ نَهَاراً ﴾ حين كنتم مشتغلين بطلب معاشكم ﴿ مَاذَا يَسْتَغْجِلُ مِنْهُ السُجْرِمُونَ ﴾ أيّ شيء من العذاب يستعجلونه، وليس شيء منه يوجب الاستعجال، فإنّ كلّه مكروه، فلا يلائم الاستعجال؟! وهو متعلّق به أرأيتم الآنه بمعنى: أخبروني. والمجرمون وضع موضع الضمير، للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء الوعيد، لا أن يستعجلوه، ويجوز ان يكون معناه التعجّب، كأنّه قال: أي هول شديد يستعجلون

وقيل: الضمير في «منه» لله تعالى، وتعلّق الاستفهام بدأرأيتم». والمعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون؟ وجواب الشرط محذوف، وهمو: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه.

ويجوز أن يكون «ماذا يستعجل منه المجرمون» جواباً للشرط، كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ثمّ تتعلّق الجملة ب«أرأيتم» أو بقوله: ﴿ أَثُمُ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمُ بِيهِ ﴾ بمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. و«ماذا يستعجل» اعتراض. ودخول حرف الاستفهام على «ثمّ» لإنكار التأخير.

﴿الآنَ﴾ تؤمنون وقد اضطررتم لحلوله. وهو على إرادة القول، أي: قبل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: الآن آمنتم به. وعن نافع: الآن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ ﴾ أي: بالعذاب ﴿ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ تكذيباً واستهزاءً. ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّفْلَهُ اللهِ على اللهِ مَنْ عَلَى المقدّر ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّفْلَهِ ﴾

⁽١) أي: سيأتي ويقرب وقتكم، من: حان يحين أي: قرب.

المؤلم على الدوام ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿ وَيَسْتَتَبِوْنَكَ ﴾ ويستخبرونك ﴿ أَحَقَّ هُوَ ﴾ أَحقَ ما تقول من الوعد أو ادّعاء النبوّة، تقوله بجدٍّ أم باطل تهزل به . قاله حييّ بن أخطب لمّا قدم مكّة . والأظهر أنّ الاستفهام فيه على أصله ، لقوله : «ويستنبؤنك» . وقيل : إنّه للإنكار . و «أحقّ» مبتدأ ، والضمير مرتفع به ساد مسدّ الخبر ، أو خبر مقدّم ، والجملة في موقع النصب بريستنبؤنك» .

﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقَّ﴾ إِنّ العذاب لكائن لا شكّ فيه، أو ما ادّعيته لثابت. وقبل: كلا الضميرين للقرآن. و«إِي» بمعنى «نعم» وهو من لوازم القسم، كما كان «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصّة، ولذلك يوصل بواو، في التصديق فيقال: إي والله، ولا يقال: إي وحده. ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ فائتين العذاب، وهو لاحق بكم لا محالة.

﴿ وَلَوْ أَنْ لِكُلُّ نَفْسِ ظَلَمَتْ ﴾ صفة نفس، أي: لكلَّ نفس ظالمة بالشرك أو التعدّي على الغير ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من خزائنها وأموالها على كثرتها ﴿ لَا فَتَنَتْ بِهِ ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم: افتداه بمعنى: فداه ﴿ وَاسْرُوا الثَّذَامَةَ لَمَّا رَاؤًا الْغَذَابَ ﴾ لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهوله، ورأوا من تفاقم الأمر ما سلبهم قواهم، فلم يطيقوا عنده بكاة ولا صراخاً، ولم يتقدروا أن ينظقوا سوى إسرار الندامة في القلوب.

وقيل: أُسرُّ الرؤساء منهم الندامة مـن أتــباعهم، حــياءً مــنهم وخــوفاً مــن توبيخهم.

وقيل: أسرّوا الندامة أخلصوها، لأنّ إخفاءها إخلاصها، أو لأنّه يقال: سـرّ الشيء لخالصته، من حيث إنّها تخفى ويضنّ بها.

وقيل: معناه: اظهروها. من قولهم: أسرّ الشيء وأشرّه إذا أظهره. فهو مـن

ويؤيّد المعنى الأوّل ما روي عن أبي عبدالله ﷺ أنّه قال: «إنّما اسرّوا الندامة وهم في النار كراهية لشماتة الأعداء».

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُطْلَمُونَ ﴾ ليس فيه تكرار، لأنّ الأوّل قضاء بين الأنبياء ومكذّبيهم، والثاني مجازاة المشركين على الشرك، أو الحكومة بين الظالمين والمظلومين، والضمير إنّما يتناولهم والحال أنّهم لم يذكروا لدلالة الظلم عليهم.

﴿ أَلَا إِنَّ بِشِهُ مَا فِي السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب ﴿ أَلَا إِنَّ وَعَدَ اللهِ ﴾ من الثواب والعقاب ﴿ صَقَّ ﴾ ثابت كاثن لا خلف فيه ﴿ وَلَكِنُ أَكْثَرَهُمْ لَا يَطْلَمُونَ ﴾ لعدم تدبّرهم وتفكّرهم في العقبى، وقصر همتهم إلى متاع الحياة الدنيا.

﴿ هُوَ يُخْدِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا، فهر يقدر عليهما في العقبى، لأنّ القادر لذاته لا يزول قدرته، والمادّة القابلة للحياة والموت قابلة لهما أبداً ﴿ وَالنّهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت أو النشور.

يَا آئَيُهَا النَّاسُ قَدُ جَاءَتُكُم مَّوْعِظَةٌ مِن رَّبِكُمْ وَشِفَاءٌ لَمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرِحْمَتِهِ فَبِذَلْكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مَمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٨٥﴾

ولمَّا تقدّم ذكر القرآن وما فيه من الوعد والوعيد، عقّبه سبحانه بذكر جلالة موقع القرآن وعظم محلّه في باب الأدلّة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتُكُمْ مَوْعِظَةً مِنْ رَبُكُمْ وَشِفْآءٌ لِمَا فِي الصَّدُورِ وَهُدى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العمليّة الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها، والسرغّبة في المحاسن، والزاجرة عن القبائح، والحكمة النظريّة التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحقّ واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث أنزل عليهم فنجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدّلت مقاعدهم من دركات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتنكير في الجميع للتعظيم، وخصّ المؤمنين بالذكر، وإن كان القرآن عظة ورحمة لجميع الخلق، لأنهم الذين انتفعوا به.

﴿ قُلْ بِقَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ بإنزال القرآن. والباء متعلقة بفعل يفسره قبوله: ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ أصل الكلام: بفضل الله ورحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا. والتكرير لتأكيد التقرير، وللبيان بعد الاجمال، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا. فأحد الفعلين حذف لدلالة الآخر عليه. ودخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنّه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنّه لا مفروح به أحق منهما. وعن يعقوب: فلتفرحوا بالتاء على الأصل المرفوض.

وعن أبي سعيد الخدري والحسن: فيضل الله هنو القرآن، ورحمته هو الاسلام. وعن مجاهد وقتادة وغيرهما: فضل الله الاسلام، ورحمته القرآن.

وروى أنس عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «من هداه الله للاسلام، وعلّمه القرآن. ثمّ شكا الفاقة كتب اللهﷺ الفقر بين عينيه إلى يوم القيامة، ثمّ تلا: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا» إلى آخر الآية».

وروى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عبّاس: فضل الله رسول الله، ورحمته عليّ بن أبي طالب ﷺ. وهو أيضاً مرويّ عن الباقر ﷺ .

﴿ هُوَ خَيْرٌ مِثَا يَجْمَعُونَ ﴾ من حطام الدنيا، فإنّها منتهية إلى الزوال. وضمير «هو» راجع إلى ذلك. وقرأ ابن عامر: تجمعون، على معنى: فبذلك فليفرح

قُلُ أَرَأَيْتُم مَّا آَنَوَلَ اللَّهُ لَكُم مِن رَزْقِ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلُ ءَآلِلَهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴿ ٥٠ ﴾ وَمَا ظُنُّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذَبَ يَوْمَ الْقَيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿ ٢٠ ﴾

ثمّ أمر نبيّه ﷺ أن يخاطب كفّار مكّة، فقال: ﴿ قُلْ ازْ اَيْتُمْ مَا انْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ
رِزْقٍ ﴾ جعل الرزق منز لا لاّنه مقدّر في السماء، محصّل بأسباب منها، و«ما» في موضع النصب به أنزل» أو به (رأيتم»، فإنّه بعنى: أخبروني، و«لكم» دلّ على أنّ الرزق لا يكون إلاّ حلالاً، ولذا وبّخ على التبعيض فقال: ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَاكُمُ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَاكُمُ مِنْهُ وَلَمْ اللهُ حَلَالًا والمُحْرَمُ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ (١) وكالسائبة والبحيرة والوصيلة والحام ونحوها. وقُلُ اللهُ أَنِونَ لَكُمْ في التحريم والتحليل، فتقولون ذلك بحكمه ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَقْتُرُونَ ﴾ في التحريم والتحليل، فتقولون ذلك بحكمه ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ تَقْرَونَ ﴾ في نسبة ذلك إليه ؟ ا ويجوز أن تكون المنفصلة متصلة به أرأيتم »، و «قل» تكرير للتأكيد، وأن يكون الاستفهام للإنكار و «أم» منقطعة. ومعنى الهمزة فيها تقرير لا فترائهم على الله تعالى.

وكفى بهذه الآية زاجرة زجراً بليغاً عن التجوّز فيما يسأل عنه من الأحكام. وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز

⁽١، ٢) الأنعام: ١٣٨ _ ١٣٩.

إلَّا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتَّق الله وليصمت، وإلَّا فهو مفترٍ على الله .

﴿ وَمَا ظُنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ﴾ أيّ شيء ظنّهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: أيحسبون أنّهم لا يجازون عليه يوم الجزاء؟ وهو منصوب بالظنّ. وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم.

﴿إِنَّ اللهَ لَدُو فَضَلِ عَلَى الدَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل، وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الجليلة.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنِ وَمَا تَثْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنِ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُمَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تَفْيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِكَ مِن مَثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿13﴾

ثمّ بين سبحانه أنّ إمهاله إيّاهم ليس لجهل بحالهم، فقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَانٍ ﴾ أي، لا تكون يا محمّد في أمر من أمور الدين وحال من أحواله، من تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة وغير ذلك. وأصله الهمزة، من: شأنت شأنت أذا قصدت قصده. والضمير في قوله: ﴿ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ ﴾ للشأن، لأنّ تلاوة القرآن معظم شأن الرسول، أو لأنّ القرآن يكون لشأن، فيكون التقدير: من أجله. ومفعول «تتلو»: ﴿ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ على أنّ «من» تبعيضيّة، أو مزيدة لتأكيد النفي. أو للقرآن، وإضماره قبل الذكر ثمّ بيانه تفخيم له. أو للله تعالى.

﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ ﴾ أنتم جميعاً ﴿ مِنْ عَمَلٍ ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر حيث خصّ مافيه فخامة، وذكر حيث عمّ ما يتناول الجليل

والحقير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُمُهُوداً﴾ شاهدين مطَّلعين عليه ﴿إِذْ تُنفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون فيه وتندفعون، من: أفاض في العمل إذا اندفع فيه.

﴿ وَمَا يَعَزُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ ولا يبعد عنه، ولا يغيب عن علمه. وترأ الكسائي بكسر الزاي هنا وفي سبأ (۱۰ . ﴿ مِنْ مِثقَالِ دَرَّةٍ ﴾ في موضع الرفع، و «من» زائدة، والذرّة ما يوازن نملة صغيرة أو هباء . ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي: في الوجود والإمكان، فإنّ العامّة لا تعرف ممكناً غير هما ليس فيهما ولا متعلّقاً بهما و وتقديم الأرض لأنّ الكلام في شؤون أهلها وأحوالهم وأعمالهم، والمقصود منه هو البرهان على إحاطة علمه بها . ﴿ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ كلام برأسه مقرّر لما قبله . و«لاى كتاب » خبرها .

وقرأ حمزة ويعقوب بالرفع على الابتداء والخبر. ومَنْ عـطف عـلى لفـظ «مثقال ذرّة» وجعل الفتح بدل الكسر، لامتناع الصرف، أو على محلّه مع الجـارّ، جعل الاستثناء منقطعاً. والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

أَلَّا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ ٢٣﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿ ٣٣﴾ لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنُيَا وَفِي الآخرَةِ لاَ تُبْدِيلَ لَكُلَمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ ٣٤﴾ وَلاَ يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ٣٥﴾

ولمًّا ذكر أنَّه يحصى أعمال خلقه بشّر من تولّاه وذكر ما أعدّ لهم، فقال:

⁽۱) سبأ: ۳.

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآ اللهِ ﴾ الَّذين يتولُّونه بالطاعة، ويتولَّاهم بالكرامة.

وعن ابن عبّاس وسعيد بن جبير: هم قوم ذكرهم الله بما هم عليه من سيماء الخير والإخبات. وقيل: هم المتحابّون في الله. ذكر ذلك في خبر مرفوع.

وعن عليّ بن الحسين ﷺ: أنّهم الّذين أدّوا فرائض الله، وأخذوا بسنن رسول الله، وتورّعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل هذه الدنيا، ورغبوا فيما عند الله، واكتسبوا الطيّب من رزق الله لمعايشهم، لا يريدون به التفاخر والتكاثر، ثمّ أنفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فأولئك الّذين يبارك الله لهم فيما اكتسبوا، ويثابون على ما قدّموا لآخرتهم.

﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من لحوق مكروه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لفوات مأمول.

وعن ابن زيد: أولياء الله هم الّذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتْقُونَ﴾ . فالآية الأولى مجملة، وهذه مفسّرة لها.

﴿ لَهُمُ النَّشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما بشر به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيّه، وما يريهم من الرؤيا الصالحة، وما يسنح لهم من المكاشفات، وبشرى الملائكة لهم عند النزع بأن لا تخافوا ولا تحزنوا ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ بتلقي الملائكة إيّاهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة. وقيل: «الّذين آمنوا» بيان لتولّيهم لربّهم، وهذه الآية بيان لتولّيه لهم.

وروى عقبة بن خالد عن أبي عبدالله ﷺ أنّه قال: «يا عقبة لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلاّ هذا الدين الذي أنتم عليه، وما بين أحدكم وبين أن يرى ما تقرّ به عينه إلّا أن يبلغ نفسه إلى هذه ، وأومأ بيده إلى الوريد، ثمّ قال: إنّ هذا في كتاب الله، وقرأ : ﴿الّذين آمنوا وكانوا يتّقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ ».

ومحلّ «الّذين آمنوا» النصب أو الرفع على المدح. أو على وصف الأولياء. أو على الابتداء، وخبره «لهم البشرى».

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ لا تغيير لأقواله، ولا إخلاف لمواعيده ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة

إلى كونهم مبشّرين في الدارين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْـعَظِيمُ﴾ هـذه الجـملة والّـتي قـبلها اعتراض لتحقيق المبشّر به وتعظيم شأنه، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتّصل بما قبله.

﴿ وَلا يَحْرُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم وتدبيرهم في إبطال أمرك، وسائر ما يتكلّمون في شأنك. وقرأ نافع: يُحزِنك، من: أحزنه. وكالهما بمعنى. ﴿ إِنَّ الْعَزْةَ بِشِجَهِيعاً ﴾ استئناف بمعنى التعليل، كأنّه قيل: لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم، لأنّ الغلبة والقهر جميعاً لله وفي ملكه، لا يملك غيره شيئاً منها، فهو يقهرهم وينصرك عليهم ﴿ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بعزماتهم، فيكافئهم عليها.

أَلَآ إِنَّ لِلَهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَبِّعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَّكَاءَ إِن يَبِّعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

ولمّا سلّى الله سبحانه نبيّه بقوله: «ولا يحزنك قولهم» فإنّهم لا يفوتونني، بيّن بعد ذلك ما يدلّ على صحّته، فقال: ﴿ألا إِنْ ثِثْمِ مَن فِي السَّمْوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاء والثقلين. وإذا كان العقلاء عبيده وفي مملكته، ولا يصلح أحد منهم للإلهيّة، فما وراءهم ممّا لا يعقل ولا يميّز أحقّ أن لا يكون له نداً ولا شريكاً، فمن اتّخذ غيره ربّاً من ملك أو إنسيّ أو جنّيّ فضلاً عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر.

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُوكَآءَ﴾ أي شركاء على الحقيقة، وإن كانوا يسمّونها شركاء. ويجوز أن يكون «شركاء» مفعول «يدعون»، ومفعول «يتّبع محذوف دلّ عليه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتّبعون يقيناً، وإنّما يتّبعون ظنّهم أنّها شركاء. ويجوز أن تكون «ما» استفهاميّة منصوبة ب«يـتّبع»، أي: أيّ شـيء يتّبعون، وموصولة معطوفة على «من»، أي: ألا أنّ لله الّذي يتّبعونه من الأصنام. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فيما ينسبون إلى الله تعالى، أو يحزرون ويقدّرون أنّها شركاء تقديراً باطلاً.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسْكُتُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ كَآيَاتِ لِنَوْمِ يَسْمَعُونَ ﴿٧٧﴾

ثمّ نبّه على عظيم نعمه وكمال قدرته المتوحّد هو بهما، ليدلّهم على تفرّده باستحقاق العبادة، فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُّ اللّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ ممّا تقاسون في نهاركم من تعب التردّد في المعاش ﴿ وَالشّهَارُ مُنْصِراً ﴾ أي: مضيئاً تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم، وتهتدون بها. وإنّما قال: «مبصراً» ولم يقل: لتبصروا فيه، تفرقة بين الظرف المجرّد عن السبب والظرف الذي هو سبب. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ فِيه، يَشْمَعُونَ ﴾ سماع تدبّر واعتبار.

قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبُحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِن سُلُطَانِ هِهِذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿ ٢٨﴾ قُلُ الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِن سُلُطَانِ هِهِذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿ ٣٠﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا إِنَّ اللّهِ الْكَذَبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴿ ٣٠﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مُرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿ ٣٠﴾

ثمّ حكى الله سبحانه عن صنف من الكفّار بأنّهم أضافوا إليه اتّـخاذ الولد. وهم طائفتان: إحداهما: كفّار قريش والعرب. فإنّهم قـالوا: المــــلائكة بــنات الله. والأُخرى: النصارى الّذين قالوا: المسيح ابن الله ، فقال: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدَا﴾ أي: تبنّاه ﴿سُنِحَانَهُ﴾ تنزيه له عن التبنّي، فإنّه لا يـصحّ إلّا مـمّن يـتصوّر له الولد. وتعجّب من كلمتهم الحمقاء.

ثمَ علّل لتنزيهه عن الولد بقوله: ﴿ هُوَ الْمَغَنِيُ ﴾ فإنّ اتّخاذ الولد مسبّب عن الحاجة الّتي تنزّه الله سبحانه عنها، الآنه الغنيّ بالذات مستغنٍ عن جميع الممكنات ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمْوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تقرير لغناه ﴿إن عِندَكُمْ مِن سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ ما عندكم من حجّة بهذا القول. والباء متعلّق برسلطان»، أو بقوله: «إن عندكم» على أن يجعل القول مكاناً للسلطان، كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنّه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان. وهذا نفي لمعارض ما أقامه من البرهان، مبالغة في تجهيلهم، وتحقيقاً لبطلان قولهم.

ثمّ وبّخ وقرّع على اختلافهم وجهلهم، فقال: ﴿أَتَـقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . وفيه دليل على أنّ كلّ قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأنّ العقائد لا بدّ لها من دليل قاطع، وأنّ التقليد فيها غير جائز.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اشْ الْكَذِبَ﴾ باتّخاذ الولد وإضافة الشريك إليه ﴿ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار ، ولا يفوزون بالجنّة .

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: افتراؤهم متاع في الدنيا يقيمون
به رئاستهم في الكفر، أو حياتهم أو تقلّبهم عن الحقّ متاع. أو مبتدأ خبره محذوف،
أي: لهم تمتّع في الدنيا. ﴿ فَمُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبّد بعده
﴿ ثُمُ نُذِيقُهُمُ الْغَذَابُ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكَفُورَنَ ﴾ بسبب كفرهم.

وَّاتُلُ عَلْبَهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمٍ إِن كَانَ كَثِبَرَ عَلَيْكُم مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوۤأَ أَمْرَكُمْ وَشُرُكَا ۚكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنُ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ آقْضُواْ إِلَيْ وَلاَ تُنظِرُونِ ﴿٧٧﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مَنْ أَجُو إِنْ أَجُويَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمْرِتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَبُوهُ فَنَجَيْنَاهُ وَمَن مَعَهُ فِي الْفَلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَرَفْ وَأَغْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُو كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنا مِن بَعْدِهِ رُسُلا إِلَى قَوْمَهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيْنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعَدِينَ ﴿٧٤﴾

ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه أن يقرأ عليهم أخبار نوح وقومه ليعتبروا من حالهم ويدعوا الشرك، فقال: ﴿وَاقَلُ عَلَيْهِمْ نَبَا نُوحٍ﴾ خبره مع قومه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَثِرَ عَلَيْكُمْ﴾ عظم وشقّ عليكم ﴿مَقَامِي﴾ أي: نفسي، تسمية للشيء باسم لازمه، فإنّ المقام لازم للنفس ولا ينفكّ منه، كقولهم: فعلت كذا لمكان فلان، أي: لنفسه. أو يكون مصدراً ميميّاً، ومعناه: كوني وإقامتي بينكم مدّة مديدة، أو قيامي على القدمين بالدعوة، فإنّهم كانوا إذا وعظوا قاموا على أرجلهم ليكون كلامهم مسموعاً. ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إيّاكم ﴿ بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَـوَحُـلْتُ﴾ وثـقت به كلامهم مسموعاً. ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إيّاكم ﴿ بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَـوَحُـلْتُ﴾ وثـقت به

﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ فاعزموا عليه، من: أجمع الأمر وأزمعه إذا نبواه وعنزم عليه ﴿ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي: مع شركائكم، أي: احتشدوا كلّكم فيما تبريدون من إهلاكي، وابذلوا وسعكم فيه. وهذا على وجه التهكم، كقوله: ﴿ قُلِ الْنَهُوا شُوكَاءُكُمْ ثُمُّ كِيدُونِ (١٠). وقيل: إنّه معطوف على «أمركم» بحذف المضاف، أي: وأمر شركائكم. وقيل: إنّه منصوب بفعل محذوف، تقديره: وادعوا شركاءكم. وعن نافع: فاجْمَعُوا من الجمع. والمعنى: أمرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده، والسعي في إهلاكه على أيّ وجه يمكنهم.

﴿ ثُمُّ لاَ يَكُنُ أَمْرُكُمْ ﴾ قصدكم إلى إهلاكي ﴿ عَلَيْكُم غُمَّة ﴾ مستوراً، واجعلوه ظاهراً مكشوفاً، من: غمّه إذا ستره. وفي الحديث: «لا غمّة في الفرائض». وإنّما قال ذلك إظهاراً لقلّة مبالاته، وثقته بما وعده ربّه من كلاءته وعصمته إيّاه، وأنّهم لن يجدوا إليه سبيلاً. أو المعنى: ثمّ لا يكن حالكم عليكم غمّاً وهمّاً إذا أهلكتموني، وتخلّصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ﴿ ثُمُّ اقْضُوا ﴾ أدّوا ﴿ إِلْنَي ﴾ ذلك الأمر اللذي تريدون بي ﴿ وَلا تَنْظِرُون ﴾ ولا تمهلوني.

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمُ ﴾ أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي، وعن اتباع الحق ﴿ فَمَا سَالْتُكُمُ مِنْ الْجُرِ ﴾ يوجب توليّكم لثقله عليكم، واتهامكم إيّاي لأجله ﴿ إِن الْجَرِيّ ﴾ ما ثوابي في الآخرة على الدعوة والتذكير ﴿ إِلّا عَلَى اللهِ ﴾ لا تعلّق له بكم، يثيبني به آمنتم أو توليّتم، والمعنى: ما نصحتكم إلّا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا. ﴿ وَامِزْتُ أَنْ الْكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ المستسلمين المنقادين لحكمه، لا أخالف أمره ولا أرجو غيره.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فأصروا على تكذيبه بعدما ألزمهم الحجّة، وبيّن أنَّ تولّيهم ليس إلّا لعنادهم وتمرّدهم، لا جرم حقّت عليهم كلمة العذاب ﴿ فَنَجَيْنَاهُ وَمَن مَعَهُ ﴾ من الغرق ﴿ فِي الْفُلْكِ ﴾ في السفينة، وكانوا ثمانين ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ وجعلنا اللّذين نجوا مع نوح ﴿ خَلائِفَ ﴾ خلفاً لمن هلك بالغرق ﴿ وَاغْرَقْتَا ﴾ بالطوفان ﴿ النَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا فَانظَرْ ﴾ أيّها السامم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْفُنْذَرِينَ ﴾ . هذا تعظيم لما جرى

⁽١) الأعراف: ١٩٥.

٣٣٠ زېدة التفاسير ـج ٣

عليهم، وتحذير لمن كذَّب الرسول، وتسلية له اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

﴿ ثُمُّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد نوح ﴿ رُسُلَا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾
يعني: هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً، كل رسول إلى قومه ﴿ فَجَاءُوهُمْ

إِللْبَيْنَاتِ ﴾ بالمعجزات الواضحة، والحجج المبيّنة، المثبتة لدعواهم ﴿ فَمَا كَانُوا

لَهُوْمِنُوا ﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا، لشدة شكيمتهم في الكفر، وتصميمهم على

العناد والمكابرة، كما قال: ﴿ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: بسبب تعودهم تكذيب

الحق، وتمرّنهم عليه قبل بعنة الرسل إليهم. يعني: لم يكن بين حالتهم فرق قبل

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي: مثل ذلك الطبع والخذلان والتخلية ﴿ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ
الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي نخذلهم ونسدّ عليهم أبواب التوفيق وأسباب اللطف، لانهماكهم في
الضلال، وتوغّلهم في اتباع الغيّ والعناد واللجاج. أو نجعل على قلوبهم سمة
وعلامة على كفرهم ليعرفهم بها الملائكة فيلعنوهم، وباقي وجوه المعاني في الطبع
قد مرّ (١٠ في أوائل سورة البقرة.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فَرْعَوْنَ وَمَلَيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبُرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندَنَا قَالُوَّأَ إِنَّا مَنَا لَكُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمُ أَسِحْرٌ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ أَجِئْنَا لِتُلْفِينَا عَمَّا وَجَدُنَا عَلَيهِ آبَآءَنَا هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ أَجِئْنَا لِتَلْفِينَا عَمَّا وَجَدُنَا عَلَيهِ آبَآءَنَا

⁽١) راجع ج ١: ٥٤.

وَتَكُونَ لَكُمَا الْكَبْرِيَاءُ في الأَرْض وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ فَرْعَوْنُ انْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرِ عَلِيمِ ﴿٧١﴾ فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَّةُ قَالَ لَهُم مُوسَىَّ أَقُواْ مَا آَنُّهُ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقُواْ قَالَ مُوسَى مَا جُنْتُم به السّخرُ إِنَّ اللّه سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿ ١٨ ﴾ وَيُحقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بَكَلَمَاته وَلُوْ كُوهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿ ٨٧﴾ فَمَا آمَنَ لمُوسَى ٓ إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمه عَلَى خَوْف مِّن فَرْعَوْنَ وَمَلَمْهُمْ أَن يُفْتَنَهُمْ وَإِنَّ فَرْعَوْنَ لَعَال في الْأَرْض وَإِنَّهُ لَمَنَ الْمُسْرِفينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْم إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكُّلُواۚ إِن كُنتُم مُسْلمينَ ﴿ ٨٤ ﴾ فَقَالُواْ عَلَى اللَّه تَوَكَّلْنَا رَّبَنَا لاَ تَجْعَلْنَا فَنْنَةً لْلْقَوْمِ الظَّالِمينَ ﴿ ٨٥ ﴾ وَنَجَّنَا بِرَحْمَتُكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ ٨٦﴾

﴿ ثُمُّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَاهِ ﴾ رؤساء قومه وأهل مجلسه ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ بالآيات التسع ﴿ فَاسْتَغَبُرُوا ﴾ عن اتّباعهما بعد تبيّنها لهم ﴿ وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ معتادين الإجرام، فلذلك تهاونوا برسالة ربّهم، واجترؤا على ردّها.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِناً ﴾ وعرفوه بتظاهر الآيات الواضحة، وتتابع المعجزات القاهرة المزيحة للريب والشكّ ﴿ قَالُوا ﴾ من فرط تمردهم ﴿ إِنَّ هَذَا

٣٣٢ زيدة التفاسير -ج ٣

لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر أنَّه سحر ، أو فائق فيه ، واضح فيما بين إخوانه .

﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴾ للمعجز الثابت ﴿ لَمُنَا جَاءَكُمْ ﴾ إنّه لسحر، فحذف المحكي المقول لدلالة ما قبله عليه. ولا يجوز أن يكون ﴿ أسبخرُ هَذَا ﴾ ، لأنهم جزموا القول، بل هو استثناف بإنكار ما قالوه من عيبه والطعن عليه. اللّهم إلّا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكيّ مفهوم قولهم. ويجوز أن يكون معنى «أتقولون»: أتعيبونه وتطعنون فيه ؟ من قولهم: فلان يخاف القالة، أي: العيب، كقوله تعالى: ﴿ سَمِغنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ ﴾ (١)، فيستغنى عن المفعول.

﴿ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ من تمام كلام موسى ﷺ ، للدلالة على أنّه ليس بسحر ، فإنّه لو كان سحراً لاضمحلٌ ولم يبطل سحر السحرة ، ولأنّ العالم بأنّه لا يفلح الساحر لا يسحر . ويجوز أن يكون قوله: «أسحر هذا ولا يفلح الساحرون» حكاية من تمام قولهم ، كأنّهم قالوا: أجتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون ، كما قال موسى للسحرة : «ماجئتم به السحر إنّ الله سيبطله» .

﴿قَالُوا أَجِنْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ لتصرفنا. واللّفت والفيتل أخوان، ومطاوعهما الالتفات والانفتال. ﴿ وَتَكُونَ لَكُمّا الالتفات والانفتال. ﴿ وَتَكُونَ لَكُمّا الْكِبْرِيّاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: الملك فيها. ستي بها لأنّ الملوك موصوفون بالكبر أو التكبّر على الناس فيها باستتباعهم. ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمّا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدّفين فيما حتما به.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ انْتُونِي بِكُلِّ سَاهِرٍ ﴾ وَقَرَأُ حسمزة والكسائي: بكلِّ سخار ﴿ عَلِيمِ ﴾ حاذق فيه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَنْـقَوْا﴾ حبالهم

⁽١) الأنبياء: ٦٠.

وعصيّهم المجوّفة المملوءة بالزئبق، كما وقع في سورة طه(١) ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِنْتُمْ بِهِ السُّحْرُ﴾ أي: الّذي جئتم به هو السحر، لا الذي سمّيتموه سحراً من المعجزات الباهرة.

وقرأ أبو عمرو: السحر، على أنّ «ما» استفهاميّة مرفوعة بالابتداء، و«جئتم به» خبرها، و«ألسحر» بدل منه. أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: أهو السحر؟ أو مبتدأ خبره محذوف، أي: آلسحر هو؟ ويجوز أن ينتصب «ما» بفعل ينفسره ما بعده، تقديره: أيّ شيء جئتم به أهو آلسحر؟

﴿إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ سيمحقه ويدمّر عليه، أو سيظهر بطلانه ﴿إِنَّ اللهُ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لا يثبته ولا يقوّيه. وفيه دليل على أنّ السحر إفساد وتسويه لا حقيقة له.

﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ ﴾ ويثبته ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ بأوامره وقضاياه، ومواعيده بالنصر ﴿ وَلَوْ كُرةَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك.

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ ﴾ فما صدّقه في مبدأ أمر ، ﴿إِلَّا ذَرَّيَّةُ مِن قَوْمِهِ ﴾ إلَّا طائفة من دراري بني إسرائيل، وذلك أنّ موسى ﷺ دعا الآباء فلم يجيبوه إلّا طائفة من شبّانهم. وقيل: الضمير لفرعون، والذرّية: مؤمن آل فرعون، وامرأته آسية، وخازنه، وماشطته.

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَاهِمْ ﴾ أي: مع خوف منهم. والضمير لفرعون. وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو المراد بفرعون آله، كما يقال: ربيعة ومضر. أو للذريّة أو للقوم، أي: على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل، لأنّهم كانوا يمنعونهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم. ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ آي: يعذّبهم فرعون. وهو بدل منه، أو مفعول «خوف». وإفراده بالضمير

⁽۱) لله: ۲۲.

٢٣٤ زيدة التفاسير ـج ٣

للدلالة على أنّ الخوف من الملأكان بسببه.

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ لغالب فيها ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ في الكبر والعترّ والظلم والفساد. حتّى ادّعى الربوبيّة واسترق أسباط الأنبياء.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ لمّا رأى تخوّف المؤمنين به ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ ﴾ صدّقتم به وبآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكُلُوا ﴾ اسندوا أمركم في العصمة من فرعون واعتمدوا عليه ﴿ إِنْ كُنتُمُ مَسْلِمِينَ ﴾ مستسلمين منقادين لقضاء الله تعالى ، مخلصين له العبادة ، بعيث لاحظً للشيطان فيها أصلاً ورأساً . وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين ، فإنّ المعتقي له ، والمشروط بالاسلام حصول التوكّل ، فإنّه الا يوجد مع التخليط . ونظيره: إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت ، وإن ضربك زيد فاضربه إن كانت بك قوة .

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلُنَا﴾ لأنّهم كانوا مؤمنين مخلصين، ولذلك أجـببت دعوتهم، فنجّاهم من فرعون وقومه، وجعلهم خلفاء في أرضه. فمن أراد أن يصلح للتوكّل على ربّه والتفويض إليه، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص.

﴿رَبُّنَا لَا تَجْمَلُنَا فِتْنَةً﴾ موضع فتنة ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسلَّطهم علينا تخلية فيفتنونا عن ديننا أو يعذّبونا.

﴿ وَنَجُنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ من كيد فرعون وقومه، ومس شؤم مشاهدتهم واستعبادهم إيّانا. وفي تقديم التوكّل على الدعاء تنبيه على أنّ الداعي ينبغى أن يتوكّل أوّلاً لتجاب دعوته.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن نَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ فِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَبَشْرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَّبَنَآ إِنْكَ آتَيْتَ فَرْعَوْنَ وَمَلَاهُ زِينَةً وَأَمُوالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّثِيَّا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِك رَبَّنَا ٱطُّمِسُ عَلَى أَمُوالِهِمْ وَاشْدُدُ عَلَى قُلُوهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت ذَعُوتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَبِعَآنَ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿ وَاوْ حَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءً ﴾ أي: اتّخذا مباءةً ومرجعاً، كقولك:
توطّنه، إذا اتّخذه وطناً ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُهُوتا ﴾ تسكنون فيها، أوترجعون إليها
للعبادة ﴿ وَاجْعَلُوا ﴾ أنتما وقومكما ﴿ بُهُوتَكُمْ ﴾ تلك البيوت ﴿ قِبْلَةً ﴾ مصلّى. وقيل:
مساجد متوجّهة نحو القبلة، لما روي أنّه دخل موسى مصر بعدما أهلك الله فرعون،
أمروا باتّخاذ مساجد يذكر فيها اسم الله تعالى، وأن يجعلوا مساجدهم نحو القبلة،
يعني: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلّون إلى الكعبة. وقيل: معناه. اجعلوا
بيوتكم يقابل بعضها بعضاً. ﴿ واقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فيها، وداوموا على فعلها في
البيوت.

وعن ابن عبّاس: إنّ فرعون أمر بتخريب مساجد بني إسرائيل ومنعهم سن الصلاة، فأمروا أن يتّخذوا مساجد في بيوتهم يصلّون فيها خوفاً من فرعون، وذلك قوله: «واجعلوا بيوتكم قبلة» أي: صلّوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف. وهذا القول أنسب لسوق كلام ما قبله وما بعده.

﴿وَبَشْرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصرة في الدنيا والجنّة في العقبى. ثنّى الضمير أوّلاً لأنّ النبوّء للقوم واتّخاذ المعابد ممّا يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور. ثـم جـمع لأنّ جعل البيوت مساجد والصلاة فيها ممّا ينبغي أن يفعله كـلّ أحـد. ثـمّ وحّـد لأنّ البشارة في الأصل وظيفةصاحب الشريعة.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَاهُ زِينَةً ﴾ ما يتزيّن به من اللباس والمراكب ونحوهما ﴿ وَآمْوَالاً ﴾ وأتواعاً من المال ﴿ فِي الْخَيَاةِ اللَّذِينَا رَبّنا لِيُضِلُوا عَنْ سَبِيلِك ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر حين لم يبق له طمع في إيمانهم، فاشتد غضبه عليهم لما علم من ممارسة أحوالهم أنّه لا يكون غير الضلال، فدعا عليهم بما علم أنّه لا يكون غيره، ليشهد عليهم أنّهم لا يستحقّون إلّا الخذلان، وأن يخلّي بينهم وبين ضلالهم.

وقيل: اللام للعاقبة، وهي متعلّقة ب«آتيت». وقيل: للتعليل، على أنّهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال، فكأنّهم أعطوها ليضلّوا.

ويؤيد الأوّل قوله: ﴿ رَبَّنَا الْمُوسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ أهلكها. والطمس: المحق. قيل: المراد بالطمس على الأموال تغييرها عن جهتها إلى جهة لا ينتفع بها. قال مجاهد وقتادة وعائد أهل التفسير: صارت جميع أموالهم بعد ذلك الدعاء حجارة، حتى السكر والفانيذ (١).

﴿ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِم ﴾ أي: واقسها واطبع عليها على وجه الخذلان حتى لا تنشرح للايمان ﴿ فَلا يُوْمِنُوا حَقَّىٰ يَرَوُا الْغَذَابَ الْأَلِيم ﴾ جـواب للدعاء، أو دعاء عليهم بلفظ النهي، أو عطف على «ليضلّوا» وما بينهما دعاء معترض. وقرأ الكوفيون: لِيضِلّوا من الضلال. وفائدة هذا الدعاء إظهار التبري منهم.

﴿ قَالَ قَدْ أَجِيبَت دَعْوَتُكُمّا ﴾ يعني: موسى وهارون، لأنّه كان يؤمّن فسمّاهما داعيين ﴿ فَاسْتَقِيمًا ﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجّة، فقد لبث نوح في قومه ألف عام إلّا قليلاً. ولا تستعجلا، فإنّ ما طلبتماه كائن ولكن في وقته. روي عن أبي عبدالله ﷺ: «أنّه مكث ضرعون فيهم بعد

⁽١) الفانيذ: ضرب من الحلواء، فارسى معرّب.

﴿ وَلاَ تَتَبِعَانُ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ طريق الجهلة في الاستعجال، فإنَّ العجلة ليست بمصلحة. وهذا كما قال لنوح: ﴿ إِنِّي أَعِظُكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٠) أو في عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى.

وعن ابن عامر برواية ابن ذكوان: ولا تتّبعان بالنون الخفيفة وكسرها. لالتقاء الساكنين، تشبيهاً بنون التثنية. ولا تَتْبَعانَ من: تبع. ولا تتبعان أيضاً.

وَجَاوَزُنَا بِنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَنْبَعَهُمْ فَزْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوّاً حَتَّى إِذَا أَدْرَكُهُ الْغَرَقُ عَلَى الْمَنْ الْمَنْ الْمَنْ الْمَنْ الْمَنْ الْمَنْ فَيْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَأَنَّا مِنَ الْمُفْسِدِينَ هُوْ الْمُنْ خَلْفُكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ الْمَانِينَ الْمَنْ فَيْ لَكُونَ لِمَنْ خُلْفُكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَتِنَا لَفَافِلُونَ ﴿ ٩٠ ﴾ وَالنَّاسِ عَنْ النَّاسِ عَنْ النَّاسِ عَنْ النَّاسِ عَنْ النَّاسِ عَنْ النَّالِ اللَّهُ فَلُونَ ﴿ ٩٠ ﴾

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ أي: جوّزناهم في البحر، بأن يبسنا لهم البحر، وفرقنا لهم اثني عشر فرقة حتّى بلغوا الشطَّ حافظين لهم ﴿ فَالْنَبَعَهُمْ ﴾ فأدركهم. يقال: تبعته حتّى أتبعته. ﴿ فِزْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً ﴾ باغين وعادين، أو للبغي والعدو.

روي أنَّ الله سبحانه لمَّا أجاب دعاء موسى أمره بإخراج بني إسرائيل مـن

⁽١) هود: ٤٦.

مصر ليلاً، فخرج معهم، وتبعهم فرعون وجنوده مشرقين حتى انتهوا إلى البحر، وأمر الله سبحانه موسى ﷺ فضرب البحر بعصاه فانفلق اثني عشر فرقاً، وصار لكلّ سبط طريق يابس، وارتفع الماء بين كلّ طريقين كالجبل، وصار في الماء شبه الخروق، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض. فلمّا وصل فرعون بجنوده إلى البحر فرأوا البحر بتلك الهيئة فهابوا دخول البحر، وكان فرعون على حصان أدهم (١١، فجاء جبرئيل على فرس وديق (١٢)، وخاض البحر وميكائيل يسوقهم، فلمّا شمّ أدهم فرعون ربح فرس جبرئيل انسلّ (١٢) خلفه في الماء، واقتحمت الخيول خلفه، فلمّا دخر آخرهم البحر وهم أوّلهم أن يخرج انطبق الماء عليهم.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكُهُ ﴾ لحقه ﴿ الْغَرَقُ قَالَ آهَنْتُ أَنَّهُ ﴾ أي: بأنّه ﴿ لَا إِلَـــة إِلّا الَّــدِي آهَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي: إنّه بالكسر ، على إضمار القول، أو الاستئناف بدلاً وتفسيراً الآآمنت».

والمعنى: نكث فرعون عن الإيمان أوان القبول، وبالغ فيه حين لا يقبل، بأن كرّر المعنى الواحد ثلاث مرّات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، فلم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرّة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف. ويحكى أنّه حين قال: آمنت بالله وحده، أخذ جبرئيل من رمل البحر فدسّه في فيه، وقال: ﴿آلانَ﴾ أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك، ولم يبق لك اختيار؟! ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ قبل ذلك مدّة عمرك ﴿وَكُنْتُ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان.

روي أنّ جبرئيل أتاه على صورة مستفتٍ حال جلوسه على سرير السلطنة.

⁽١) أي: يضرب لونه إلى السواد، والدُهْمَة: السواد،

⁽٢) وَدِقَت ذات الحافر : أرادت الفحل، فهي وديق.

⁽٣) أي: خرج.

وقال: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته في حقّه وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه: يقول أبو العبّاس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيّده الكافر نعماءه أن يغرّق في البحر. فلمّا ألجمه (١) الغرق ناوله جبرئيل خطّه فعرفه ثمّ غرق.

وروى علىّ بن إبراهيم بن هاشم بإسناده عن الصادق هي قال: ما أتى جبرئيل رسول الله ﷺ إلّا كثيباً حزيناً، ولم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون، فلمّا أمره الله سبحانه بنزول هذه الآية نزل وهو ضاحك مستبسر، فقال: حبيبي جبرئيل ما أتيتني إلّا وتبيّنت الحزن في وجهك حتّى الساعة. قال: نعم يا محمّد لمّا أغرق الله فرعون قال: آمنت أنّه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فأخذت حمأة فوضعتها في فيه، فقلت: الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، ثمّ خفت أن تلحقه الرحمة من عند الله ويعذّبني على ما فعلت، فلمّا كان الآن وأمرني أن أودي

﴿ فَالْيَوْمَ نُنْجَيْكَ ﴾ ننقذك منا وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً، أو نلقيك على نجوة من الأرض _ وهي المكان المرتفع _ ليراك بنو إسرائيل. وقرأ يعقوب: ننجيك، من: أنجى. ﴿ بِبَدَئِكَ ﴾ في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، يعني: عارياً عن الروح، وإنّما أنت بدن فقط. أو كاملاً سوياً، لم ننقص منه شيئاً ولم يتغيّر. أو عرياناً من غير لباس. أو بدرعك، وكانت له درع من ذهب يعرف بها.

﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْقُكَ آيَةً ﴾ لمن وراءك علامة. وهم بنو إسرائيل، إذ كان في أنفسهم أنَّ فرعون أجلَّ شأناً من أن يغرق، حتَّى كذَّبوا موسى ﷺ حين أخبرهم بغرقه، فألقاه الله على الساحل حتّى عاينوه مطروحاً على ممرَّهم من الساحل. أو

⁽١) ألجم الماءُ فلاناً: بلغ فاه.

لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك، عبرة ونكالاً عن الطغيان، فلا يجترأ على نحو ما اجترأت عليه. أو حجّة تدلّهم على أنّ الانسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظانّ الربوبيّة، فما الظننّ بغيره ؟!

وَلَقَدُ بَوَأَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مُبَوَّاً صِدُق وَرَزُقْتَاهُم مِّنَ الطَّيَبَاتِ فَمَا اخْتَلُفُواْ حَتَّى جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلُفُواْ حَتَّى جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلُفُونَ ﴿٩٣﴾

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ لا يتفكّرون فيها، ولا يعتبرون با.

فَإِن كُنتَ فِي شَكَ مِّمَا آَنْزُلْنَا ٓ الْكِنَ فَاسْأَلِ الَّذَبِنَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدُ جَآءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿ ٩٤ ﴾ وَلاَ تَكُونَنَ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْحَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتُ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ جَآءَنُهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٧٧﴾

ثمّ بين سبحانه صحّة نبوّة محمد ﷺ، فقال: ﴿ فَإِنْ كُنتَ فِي شَكَّ مِمّا انزَلْنَا على سبيل الفرض والتقدير، كما تقول لعبدك: إن كنت عبدي فأطعني، ولأبيك: إن كنت والدي فتعطف عليّ، ولولدك: إن كنت ابني فبرّ بي، ويريد بذلك المبالغة. ﴿ فَاسَالِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْجَتَابَ مِنَ قَبْلِكَ ﴾ فاسأل علماء بي، ويريد بذلك المبالغة. ﴿ فَاسَالِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْجَتَابَ مِنَ قَبْلِكَ ﴾ فاسأل علماء أهل الكتاب، كعبدالله بن سلام وكعب الأحبار وتعيم الداري وغيرهم، فإنّه محقق عندهم، ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك. والمراد تحقيق ذلك، والاستشهاد بما في الكتب المتقدّمة، وأنّ القرآن مصدّق لما فيها، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحّة ما أنزل إليه، أو تهييج الرسول وزيادة تثبيته، كما ازداد إبراهيم بمعاينة إحياء الموتى، لا إمكان وقوع الشكّ له، ولذلك قال ﷺ: « لا أشك إبراهيم بمعاينة إحياء الصوتى، لا إمكان وقوع الشكّ له، ولذلك قال ﷺ: « لا أشك

وقيل: الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد أمّنه أو كلّ من يسمع، أي: إن كنت أيّهاالسامع في شكّ ممّا أنزلنا على لسان نبيّنا إليك. وفيه تنبيه على أنّ من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلّها بالرجوع إلى أهل العلم.

وعلى المعنى المذكور أيضاً قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ الْمَدَقُ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ثبت عندك بالآيات القاطعة والبراهين الساطعة أنّ ما أتاك هو الحقّ الواضح الّـذي لا مدخل للمرية فيه ﴿فَلَا تَكُونَنّ مِنَ الْمُفتَرِينَ﴾ بالتزلزل عمّا أنت عليه من الحرم واليقين. ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَنَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هذا أيضاً من باب التهييج والتنبيت وقطع أطماع الكفّار عنه، كقوله: ﴿ فَ لَا تَكُونَنُ ظُهِيراً لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتَ﴾ ثبتت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ قول الله الذي كتبه في اللـوح وأخبر به الملائكة من أنَّهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب ﴿لاَيُوْمِنُونَ﴾ إذ لا يكذّب كلامه.

﴿ وَلَوْ جَآءَتُهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ كلَّ معجزة ودلالة واضحة ممّا يقترحونها ﴿ حَتَّىٰ
يَرُوُا الْعَذَابَ الْآلِيمَ ﴾ فيصيروا ملجئين إلى الإيمان، وحينتذٍ لا ينفعهم كما لم ينفع فرعون.

فَلُوْلاَ كَانَتْ قَرِّيةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ إِلاَّ قَرْمَ يُونُسَ لَنَآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الحِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنُيَا وَمَنَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿ ١٨ ﴾

ولمّا ذكر سبحانه أنّ إيمان فرعون لم يقبل عند معاينة العذاب، وصل ذلك بذكر إيمان قوم يونس على قُبُيل نزول العذاب، فقال: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ فهلّا كانت قرية _ أي: أهل قرية _ من القرى الّتي أهلكناها ﴿ آمَنَتُ ﴾ وقت بقاء التكليف قبل معاينة العذاب، ولم يؤخّروا التوبة إليها كما أخّر فرعون ﴿ فَنَقَعْهَا إِيمَانُهَا ﴾ بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف العذاب عنها ﴿ إلَّا قَوْمَ يُونُسُ ﴾ لكن قوم يونس ﴿ لَمُنَا آمَنُوا ﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخّروه إلى حلوله ﴿ كَشَفْنًا عَنْهُمْ عَذَابَ الْجَرْي فِي النَّتِهَ النَّبُنَا ﴾ .

ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي، لتضمّن حرف التحضيض معناه،

⁽١) القصص: ٨٦.

فيكون الاستثناء متّصلاً. لأنّ المراد من القرى أهاليها، كأنّه قال: ما من أهل قرية من القرى العاصية الهالكة أهلها حين مشاهدة العذاب فنفعهم إيمانهم إلّا قوم يونس لمّا آمنوا رفعنا عنهم العذاب ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ جِينَ﴾ إلى آجالهم.

روي أنّ يونس الله بعث إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فكذبوه وأصرّوا عليه، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث، وقيل: إلى أربعين، فذهب عنهم مغاضباً، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنًا بك. فلمّا مضى اثنان أو مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً، ثمّ يهبط حتّى يغشى مدينتهم، ويسوّد سطوحهم، فهابوا وطلبوا يونس فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه، فلبسوا المسوح، وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودواتهم، وفرّوقوا بين النساء والصبيان، وبين الدوات وأولادها، فحنّ بعضها إلى بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرّعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة.

وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم. حـنّى إنّ الرجــل كــان ليأتي الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيردّه.

وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقيّة علمائهم، فقالوا: قد نزل بنا العـذاب فـما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيّ محيي الموتى، ويا حيّ لا إله إلّا أنت. فقالوها فكشف عنهم العذاب.

وعن الفضيل بن عياض: قالوا: إنّ ذنوبنا قد عظمت وجلّت، وأنت أعـظم منها وأجلّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

وروى عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل، قال: «قال أبو عبدالله ﷺ؛ كان فيهم رجلان، اسم أحدهما مليخا عابد، والآخر اسمه روبيل عالم، وكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم ينهاه ويقول له: لا تدع عليهم، فإنّ الله يستجيب لك، ولا يحبّ هلاك عباده. فقبل يونس قول العابد،

فدعا عليهم، فأوحى الله تعالى إليهم أنّه يأتيهم العذاب في شهر كذا في يوم كذا. فلمّا قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد، وبقي العالم فيهم. فلمّا كان اليوم الذي نزل بهم العذاب قال لهم العالم: افزعوا إلى الله لملّه يرحمكم ويردّ العنذاب عنكم، واخرجوا إلى المفازة، وفرّقوا بين النساء والأولاد وبين سائر الحيوانات وأولادها، ثمّ ابكوا وادعوا. فقعلوا فصرف عنهم العذاب، وكان قد نزل وقرب منهم.

ومرّ يونس على وجهه مغاضباً كما حكى الله تعالى عنه حتّى انتهى إلى ساحل البحر، فإذا سفينة قد شحنت (١) وأرادوا أن يدفعوها، فسألهم يونس أن يحملوه فحملوه، فلمّا توسّط البحر بعث الله عليهم حوتاً عظيماً فحبس عليهم السفينة، فتساهموا فوقع سهم يونس، وأخرجوه فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت ومرّ به في الماء»(٢).

وقيل: إنّ الملاحين قالوا: نقرع فمن أصابته القرعة ألقيناه في الماء. فبإنّ هاهنا عبداً عاصياً آبقاً، فوقعت القرعة سبع مرّات على يونس. فقام وقال الله: أنا العبد الآبق، وألقى نفسه في الماء وابتلعه الحوت، فأوحى الله إلى ذلك الحوت: لا تؤذ شعرة منه، فإنّي جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك، فلبث في بطنه ثلاثة أيّام، وقيل: أربعين يوماً.

وقد سأل بعض اليهود أمير المؤمنين على عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه. فقال: يا يهودي هو الحوت الذي حبس يونس في بطنه، فدخل في بحر قلزم، ثمّ خرج من الدجلة.

قال عبدالله بن مسعود: ابتلع الحوت حيوت آخير، فأهموى بـــه إلى قــرار الأرض، فكان في بطنه أربعين ليلة، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنّى كنت من الظّالمين. فاستجاب الله له، فأمر الحوت فنبذه على ساحل البــحر،

⁽١) أي: ملئت.

⁽٢) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣١٧.

وهو كالفرخ المتمقط^(۱)، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فبعل يستظل تحتها، ووكّل الله به وعلاً^(۱۲) يشرب من لبنها. فيبست الشجرة، فبكى عليها، فأوحى الله تعالى إليه: تبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم. فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنّك لقيت يونس. فأخبرهم الغلام، وردّ الله عليه بدنه، ورجع إلى قومه و آمنوا به. وقيل: إنّه ﷺ أرسل إلى قوم غير قومه الأوّلين.

وَلُوْ شَآءَ رَبُكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكُرِهُ النَاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ الِلَّا بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرّجُس عَلَى الّذينَ لاَ يَعْقَلُونَ ﴿ ١٠٠﴾

ولمّا تقدّم أنّ إيمان الملجأ غير نافع، بيّن سبحانه أنّ ذلك لو كان ينفع لأكره أهل الأرض عليه، فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكِ ﴾ مشيئة إلجاء وقسر ﴿ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ عَليه، فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءً رَبُّكِ ﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، كلُّهُمْ ﴾ بحيث لا يشا نَنزُلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آية فَظَلْتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِهِينَ ﴾ (٣). ولكنّ الراجاء منافٍ للتكليف الاختياري الذي هو مناط الأعمال ومدارها، ولو كان المراد بالمشيئة مشيئة أزليّة -كما قال الأشاعرة - لم يصحّ تعليقها بالشرط، ألا ترى أنّه لا يصحّ أن يقال: لو علم سبحانه ولو قدر، كما صحّ: لو شاء ولو أراد.

⁽١) أي: الساقط شعره، من: تمعّط الشعر، أي: سقط.

⁽٢) الوَعِل: تيس الجبل، له قرنان.

⁽٣) الشعاء: ٤.

﴿ أَفَانَتَ تَكُرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني: إنّما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو سبحانه لا أنت. وإيلاء حرف الاستفهام للإعلام بأنّ الاكراء ممكن مقدور عليه، وإنّما المكره هو وحده لا يشارك فيه، لأنّه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان، وذلك غير مستطاع للبشر. روي أنّه ويشي كان حريصاً على إيمان قومه، شديد الاهتمام به، فنزلت هذه الآلة.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسِ ﴾ من النفوس الله علم الله أنها تؤمن ﴿ أَن تُؤْمِنَ ﴾ بالله ﴿ إِلّا إِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي: بتسهيله ومنح الطافه وتوفيقه وتمكينه منه، ودعائه إليه بما خلق فيه

من العقل الموجب لذلك ﴿ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ ﴾ العذاب أو الخذلان، فإنّه سببه ﴿ عَلَىٰ

الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات عناداً ولجاجاً.

قابل الإذن بالرّجس وهو الخذلان، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون، وهم

المصرّون على الكفر، كقوله: ﴿ صُمَّ بُعَمْ عُفَى قَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآياتُ وَالنَّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿ ١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَامٍ الَّذِينَ خَلَواْ مِن فَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرِينَ ﴿ ١٠٢﴾ ثُمَّ نُنجِي رُسُلُنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلَكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُبِحِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١٠٢﴾

ثمّ بيّن سبحانه ما يزيد في تنبيه القوم وإرشادهم، فقال: ﴿ قُلِ انْظُرُوا﴾

⁽١) البقرة: ١٧١.

تفكّروا ﴿ مَاذَا فِي السَّفَوْاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من عجائب صنعه، كاختلاف الليل والنهار، ومجاري النجوم والأفلاك، وما خلق من الجبال والبحار، وأنبت من الأشجار والثمار، وأخرج من أنواع الحيوانات وغيرها، لتدلّكم على وحدته وكمال قدرته، فإنّ النظر في افرادها وجملتها يدعو إلى الإيمان إلى معرفة الصانع ووحدانيته وعلمه وحكمته وقدرته، و «ماذا» إن جعلت استفهاميّة علّقت «انظروا» عن العمل.

﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّدُرُ ﴾ الرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿ عَنْ هَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لا يتوقع إيمانهم، لعنادهم ولجاجهم ومكابرتهم. و«ما» نافية، أو استفهاميّة في موضع النصب.

﴿ فَهَلْ يَنْتَعَبُرُونَ إِلَّا مِثْلَ النَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مثل وقائعهم ونزول بأس الله تعالى بهم، إذ لا يستحقّرن غيره، من قولهم: أيّام العرب لوقائعها ﴿ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعْكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك. أو فانتظروا هلاكي، إنّي معكم من السنتظرين هلاككم.

﴿ فُمُ نَنُجُي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عطف على محذوف دلّ عليه «إلّا مثل أيّام اللّذين خلوا». كأنّه قيل: نهلك الأمم ثم تنجّي رسلنا ومن آمن بهم، على حكاية الحال الماضية. ﴿ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُفْجِ المُؤْمِنِينَ ﴾ أي: كذلك الإنجاء، أو إنجاء كذلك ننجّي محمداً وصحبه حين نهلك المشركين. و«حقاً علينا» اعتراض، ونصبه بفعله المقدّر، أي: حتّى ذلك علينا حقّاً. وقيل: بدل من «كذلك». وقرأ حفص والكسائى: ننجى مخفّفاً.

قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُمُتُمْ فِي شَكَّ مِن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعُبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١٠٠﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجُهَكَ لِلدَّيْنِ حَنِيقًا وَلاَ تَكُونَنَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ ١٠٠﴾ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الطَّالِمِينَ ﴿ ١٠٠﴾ الظَّالِمِينَ ﴿ ١٠٠﴾

ثمّ أمر سبحانه نبيته ﷺ بالبراءة عن كلّ معبود سواه، فقال: ﴿ قُلْ يَا أَيْهَا النَّاسُ ﴾ خطاب لأهل مكّة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكَّ مِن دِينِي ﴾ أي: من صحّته ﴿ قُلَا اعْبُدُ اللّهُ الّذِي يَتَوَقَّاكُمْ ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً النَّذِينَ تَغبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهُ الّذِي يَتَوَقَّاكُمْ ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً، فأعرضوها على العقل الصرف، وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا صحّتها، وهو أنّي لا أعبد ما تخلقونه _ كالأصنام المنحوتة من الحجارة والخشب _ وتعبدونه، ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم ويتوفّاكم، وإنّما خصّ التوفّي بالذي دلّ عليه بالذي للتهديد. ﴿ وَآمِرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ المصدّقين بالتوحيد الذي دلّ عليه المقل، ونطق به الوحي، وحذف الجارّ من «أن» و«أنّ» مطرد، ومع غيرهما غير مطّد، كقوله: أمرتك الغير، أي: بالخير،

﴿ وَأَن أَقِمْ وَجَهَكَ لِلدَّينِ ﴾ عطف على «أن أكون» غير أنَّ صلة «أن» محكية بصيغة الأمر، ولا فرق بينهما في الغرض، لأنَّ المقصود وصلها بما يتضمن معنى المصدر لتدلَّ معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك، سواء الخبر منها والطلب. والمعنى: وأمرت بالاستقامة في الدين والاستبداد فيه، وبإقبالي عليه، قائماً بأعباء الرسالة وتحمّل أمر الشريعة، من أداء الفرائض والانتهاء عن القبائح غير عوج عنه، أو في الصلاة باستقبال القبلة ﴿ حَنِيفاً ﴾ حال من الدين أو الوجه، أي: مستقيماً في الدين ﴿ وَلاَ تَكُونَنَ مِنَ المُشْورِكِينَ ﴾ .

﴿ وَلَا تَذَعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَتَفَعُكَ ﴾ إن أطعته ﴿ وَلا يَضُوُك ﴾ إن عصيته وتركته ﴿ فَإِن قَعَلْتَ ﴾ فإن فَعَلْتَ ﴾ فإن دعوته ﴿ فَإِنْكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴾ جزاء للشرط، وجواب لسؤال مقدّر عن تبعة الدعاء، كأنّ سائلاً سأل عن تبعة عبادة غير الله . وجعل من الظالمين، لأنّه لا ظلم أعظم من الشرك، ﴿ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١) والخطاب وإن كان متوجّهاً إلى النبي ﷺ في الظاهر لكنّ المراد به أمّه.

وَإِن يَمْسَسُكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلّا هُوَ وَإِن يُرِدُكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَ لِفَضْلِه يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عَبَادِهِ وَهُو الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

ثم عقب النهي عن عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ، بأنّ الله هـو الضارّ والنافع الذي إن اصابك بـضرّ لم يسدد على كشفه إلاّ هـو، وإن أرادك بـخير لم يسرد أحد، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسُكَ اللهُ بِضَرَّ ﴾ وإن يصبك بضرر، كالمرض والفقر ﴿فَلَا كَاللهُ بِنَفَ بِنُفَوْلَ لِيهِ اللهِ عَلَى إلاّ الله ﴿وَإِن يُصِبك بضرر، كالمرض والفقى ﴿فَلَا كَاللهُ فَلَهُ إلاّ الله ﴿وَإِن يُمِنِكُ بِخُورٍ ﴾ كالصحة والفنى ﴿فَلَا وَاللهُ فلا دافع ﴿لِفَضَلِهِ ﴾ الذي أرادك به، فهو الحقيق بأن يمعبد دون الأوثان. وللله ذكر الإرادة مع الخير والمسّ مع الضرّ مع تلازم الأمرين، للتنبيه على أنّ الخير مراد بالذات، وأنّ الضرّ إنّها مسّهم لا بالقصد الأوّل. ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنّه متفضّل بما يريد بهم من الخير، لا استحقاق لهم عليه.

﴿ يُصِيبُ بِهِ ﴾ بالخير ﴿ مَن يَشَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَهُـوَ الْـفَقُورُ ﴾ لذنوب عباده ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بهم. فتعرّضوا لرحمته بالطاعة، ولا تباسوا من غفرانه بالمعصية. والعراد بالمشيئة مشيئة المصلحة.

⁽١) لقمان: ١٣.

قُلْ يَا آَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءُكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِكُمُ فَمَنِ الْهَـَدَى فَايِّمَا يَهْمَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَاإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَاۤ أَنَّا عَلَيْكُم بِوكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعُ مَا يُوحَى ٓ إِلَيْكَ وَاصْبُرْ حَتَّى يَحْكُمُ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكَمِينَ ﴿١٠٩﴾

ثمّ ختم الله سبحانه السورة بالموعظة الحسنة، تسلية للنبي الشيّ ، والوعد للمؤمنين والوعيد للمشركين، فقال: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُ ﴾ أي: الرسول أو القرآن ﴿ مِنْ رَبُكُمْ ﴾ فلم يبق لكم عدر، ولا لكم على الله حجّة ﴿ فَمَنِ المُتَدَىٰ ﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَنِي لِنَفْسِهِ ﴾ لأنّ نفعه لها ﴿ وَمَن ضَلُ ﴾ بالكفر بهما ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُ عَلَى معنى النفع والضرّ. ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم على معنى النفع والضرّ. ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم لأحملكم على ما أريد، وإنّما أنا بشير ونذير، فليس عليّ إلّا البلاغ، ولا يلزمني أن أجعلكم مهتدين، وأن أنجيكم من النار، كما يجب على من وكّل على متاع أن يحفظه من الضرر.

﴿ وَاشَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ بالامتثال والتبليغ ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ على دعوتهم وتحمّل أَذيّتهم ﴿ حَشَّىٰ يَحْكُمُ اللهُ ﴾ بالأمر بالقتال ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ لا يحكم إلّا بالحقّ والعدل، إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطّلاعه على السرائر اطّلاعه على الظواهر.



سورة هود

مكيّة، وهي مائة وثلاث وعشرون آية. أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح وكـذّب به، وبهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى، وكان يـوم القيامة من السعداء».

وروى الثعلبي بإسناده عن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال: «قيل: يا رسول الله قد أسرع إليك الشيب. قال: شيّبتني سورة هود وأخواتها».

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك، عن أبي بكر قال: «قلت: يا رسول الله عجّل إليك الشيب. قال: شيّبتني سورة هود وأخواتها: الحــاقّة، والواقــعة، وعــمّ يتساءلون، وهل أتيك حديث الغاشية».

وروى الميّاشي عن الحسن بن عليّ بن الوشّاء، عن ابن سنان، عن أبي جعفر على قال: «من قرأ سورة هود في كلّ جمعة بعثه الله يدوم القيامة في زمرة النبيّين، وحوسب حساباً يسيراً، ولم يعرف له خطيئة عملها يوم القيامة»(١).

⁽١) تفسير العيّاشي ٢: ١٣٩ - ١٠.

٢٥٢ زيدة التفاسير -ج ٣

بِسُمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّرَ كَتَابٌ أَحْكَمَتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصَلَتُ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُواً إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ آسْتَغْفُرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُولُواْ إِلَيه يُمَنِّفُكُم مَّنَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى وَيُؤْتَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ وَإِن تَوَّلُواْ فَإِنْيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللهِ مَرْجِمُكُم وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٤﴾

ولمّا ختم الله سبحانه سورة يونس بذكر الوحي في قوله: «واتّبع ما يوحى إليك» افتتح هذه السّورة ببيان ذلك الوحي، فقال: ﴿ بِسُمِ اللهِ الرّحْفنِ الرّجِمِمِ السّورة ببيان ذلك الوحي، فقال: ﴿ لِمَنِمُ اللهِ الرّحْفنِ الرّجِمِمِ اللهِ كِتَابٌ ﴾ مبتدأ وخبر، أو «كتاب» خبر محذوف ﴿ الْحَكِمَةُ آيَاتُهُ ﴾ نظمت نظماً محكماً لا يعرضه نقض، ولا يعتريه خلل من جهة اللفظ والمعنى، كالبناء المحكم، أو منعت من الفساد والنسخ. من: أحكم الدابّة وضع عليها الحكمة (١١) لتمنعها من الجماح، أو جعلت حكيمة، منقول من: حكم بالضمّ إذا صار حكيماً، لأنّها مشتملة على أمّهات الحكم النظريّة والعمليّة.

﴿ نُـمَّ فُصَّلَتُ ﴾ بالفوائد، من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص. أو بجعلها سورة سورة وآية آية. أو بالإنزال نجماً نجماً. أو فعصل فيها ولخص ما يحتاج إليه العباد. و«ثمّ» للتفاوت في الحال، كما تقول: هي

⁽١) الحَكَمَة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه يمنعه من مخالفة راكبه.

سورة هود، آیة ۱ سک.......۲۵۳

محكمة أحسن الإحكام ثمّ مفصّلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل ثمّ كـريم الفعل.

﴿ مُنْ لَدُنْ حَكِيمٍ ﴾ أحكمها ﴿ خَبِيرٍ ﴾ فـصّلها وبيّنها. هـذه صفة أخرى الاكتاب»، أو خبر بعد خبر، أو صلة الاأحكمت» أو «فـصّلت». وهـو تـقرير الإحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي، باعتبار ما ظهر أمره وما خفي.

﴿ أَلَّا تَغَنِّدُوا إِلَّا اللهُ مفعول له ، أي: لأن لا تعبدوا . وقيل: «أن» مفسرة ، لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول ، كأنّه قيل: قال لا تعبدوا إلّا الله ، أو أمركم أن لا تعبدوا إلّا الله ، أي: أمركم بالتوحيد . ويجوز أن يكون كلاماً مبتداً للإغراء على التوحيد ، أو الأمر بالتبرّي من عبادة الغير ، كأنّه قيل: ترك عبادة غير الله ، بمعنى: الزموه . ﴿ إِنَّهِي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ من الله ﴿ نَذِيرٌ ﴾ بالعقاب على الشرك ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالثواب على التوحيد .

﴿ وَأَنِ اسْتَغَفَرُوا رَبُكُمْ ﴾ عطف على «أن لا تعبدوا» ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ ثمّ توصّلوا إلى مطلوبكم بالتوبة، فإن المعرض عن طريق الحقّ لابد له من الرجوع. والمعنى: استغفروا من الشرك ثمّ توبوا إلى الله تعالى بالطاعة. أو استغفروا، والاستغفار توبة، ثمّ أخلصوا التوبة _ الّتي هي الاستغفار _ واستقيموا عليها. فإيراد «ثمّ» لتفاوت ما بين الأمرين.

﴿ يُمَتَّعُكُمْ مَتَاعاً حَسَنا ﴾ يعيشكم في الدنيا بالنعم السابغة، والمنافع المتتابعة الدينيّة والماليّة ﴿ إِلَىٰ أَجَلِ مُسَمّى ﴾ هو آخر أعماركم المقدّرة، كقوله: ﴿ فَلَنْ تَعْبِيدُ الله الله والأرزاق والأرزاق والآرزاق السناطال، والأرزاق والآجال وإن كانت متعلّقة بالأعمار، كما ورد في الحديث أنَّ الصدقة تزيد

⁽١) النحل: ٩٧.

في العمر وتلاوة القرآن تزيد في الرزق، لكنّها مسمّاة بالإضافة إلى كلّ واحدٍ فــلا تتغيّر.

﴿ وَيُؤْتِ كُلُّ ذِي فَضَلِ فَضَلَهُ ﴾ ويعط كلَّ ذي فضل في دينه وعمله جزاء فضله في الدنيا والآخرة لا يبخس منه، أو فضله في الثواب والدرجات تتفاضل في الجنّة على قدر تفاضل الطاعات. وهو وعد للموحّد التائب بخير الدارين.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ وإن تتولّوا عمّا أمرتم به ﴿ فَإِنِّي اخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ كِبِيرٍ ﴾ أي : كبير شأنه. وهو يوم القيامة. وقيل: يوم الشدائد. وقد ابتلوا بالقحط حتّى أكلوا الجيفة.

﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم. وقياس المصدر الميمي أن يكون على وزن مفعل بالفتح، نحو مدخل، فالعرجع شاذً عن القياس. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبكم أشدٌ عذاب، وكأنّه تقرير لكبر اليوم.

أَلَآ إِنَّهُمْ يَشُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابُهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِئُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ ﴿٥﴾

روي أنّ طائفة من المشركين قالوا: إذا أرضينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم؟ وهذا من شدّة جهلهم بالله، فظنّوا أنّهم إذا ثنوا صدورهم على سبيل الإخفاء لم يعلم الله تعالى أسرارهم، فنزلت: ﴿الله إِنّهُمْ يَتَلْفُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يطوونها ويعطفونها على الكفر وعداوة النبيّ ﴿لِيسَتَخَفُوا بِيعَمْ مَنْ لله بسرّهم، فلا يطلع رسوله والمؤمنين عليه.

وقيل: إنَّ الأخنس بن شريق كان حلو الكلام، يلقى رسول الله ﷺ بما

يحبّ وينطوي بقلبه على ما يكره، ويضمر خلاف ما يظهر، فنزلت هذه الآية.

وقيل: نزلت في المنافقين. وفيه نظر، إذ الآية مكّيّة والنفاق حدث بالمدينة. ويؤيّد الأوّل ما روى العيّاشي بإسناده عن أبي جعفر ﷺ قال: «أخبرني جابر بن عبدالله أنّ المشركين إذا مرّوا برسول الله ﷺ طأطأ أحدهم رأسه وولّى ظهره وغطّى رأسه بثوبه حتّى لا يراه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية».

﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَقْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي: حين يتغطّون بثيابهم ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ في قلوبهم ﴿ وَمَا يُطِنُونَ ﴾ بأفواههم. يعني: يستوي في علمه سرّهم وعلنهم، فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه ؟! ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بأسرار ذات الصدور، أو بالقلوب وأحوالها.

وَمَا مِن دَآيَةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقَهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلِّ فِي كِنَّابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

ثمّ بين أنّه عالم بجميع المعلومات كلّها، تقريراً لعلمه بأسرار العباد وإعلانهم، فقال: ﴿ وَمَا مِنْ دَآئِةٍ فِي الْأَرْضِ إِلّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ غذاؤها ومعاشها، لتكفّله إيّاه تفضّلاً ورحمة. ولمّا ضمن سبحانه أن يتفضّل بالرزق عليهم وتكفّل به صار التفضّل واجباً، فلذلك جاء بلفظ الوجوب، كالنذور الواجبة على العباد.

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَهَا ﴾ مواضع قرارها ومسكنها من الأرض ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ حيث كانت مودعة. قيل: الاستقرار في أصلاب الآباء وأرحام الأتهات. أو المراد منهما أماكنهما في الحياة والممات. ﴿ كُلُّ ﴾ كلَّ واحد من الدوابٌ وأحوالها ﴿ فِي حِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ.

وَهُوَ الَّذِي حَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سَنَّة أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءَ لِيَبُلُوكُمُ أَيْكُمْ أَجُسَنُ عَمَلاً وَلِيْنِ قُلْتَ إِنِّكُمْ مَّبُعُوثُونَ مِن بَعْد الْمَوْتِ لَيُعَلِّقُ الْذِينَ كَفَرُواً إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مَّيِنٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَرُنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ لِللَّيْ الْذِينَ كَفَرُوفًا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أَمَّة مَعْدُودَة لَيْقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يُومَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

ثمّ بين كونه قادراً على الممكنات بأسرها تقريراً للتوحيد، فـقال: ﴿وَهُــوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي: خلقهما وما فيهما مقدار ستّة أيّام، لأنّها لم تكن هناك بعد، فإنّ اليوم عبارة عمّا بين طلوع الشمس وغروبها. أو ما في جهتي العلق والسفل. وجمع السموات دون الأرض، لاختلاف العلويّات بالذات دون الشفليّات.

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل خلقهما، لم يكن حائل بينهما، لا أنّه كان موضوعاً على متن الماء. واستدلّ به على إمكان الخلا، وأنّ الماء أوّل حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم، وأنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات والأرض، وأنّ الماء قائم بقدرة الله تعالى على غير موضع قرار، بل كان الله يمسكه بكمال قدرته. وقيل: كان الماء على متن الربح. وكيف كان، فالله ممسك كلّ ذلك بقدرته.

﴿ بِنِبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ متعلّق ب «خلق» أي: خلق ذلك ليعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم كيف تعملون؟ فإنّ جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم وما تحتاج إليه أعمالكم، ودلائل وأمارات تستدلّون بها وتستنبطون منها.

وإنّما جاء تعليق فعل البلوى برخلق» لما فيه من معنى العلم، من حيث إنّه طريق اليه، كالنظر والاستماع، كما في قولك: أنظر أيّهم أحسن وجهاً واسمع أيّهم أحسن صوتاً. وإنّما ذكر صيغة التفضيل والاختبار شامل لفرق المكلّفين باعتبار الحسن والقبح، للتحريض على أحاسن المحاسن، والتحضيض على الشرقي دائماً في مراتب العلم والعمل، فإنّ المراد بالعمل ما يحمّ عمل القلب والجوارح، ولذلك قال المجلّق؛ أيّكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله تعالى ؟». والمعنى: أيّكم أكمل علماً وعملاً؟

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنْكُمْ مَنِعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ فتوقّعوه ﴿ لَيَقُولَنَ الَّذِينَ كَفُرُوا إِنْ هَذَا ﴾ أي: ما البعث، أو القول به. أو القرآن المتضمّن لذكره ﴿ إِلَّا سِخرُ مُبِينٌ ﴾ إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة والكسائي: إلّا ساحر، على أنّ الإشارة إلى قائل هذا القول، وهو الرسول ﷺ.

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْغَذَابَ ﴾ الموعود ﴿ إِلَىٰ أَشَةٍ مَعْنُودَةٍ ﴾ إلى جماعة متعاقبة من الأوقات قليلة.

روي عن أبي جعفر وأبي عبدالله الله الله الله الله الله المعدودة هم أصحاب المهدي في آخر الزمان، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، كعدة أهل بدر، يجتمعون في ساعة واحدة كما يجتمع قرع (١) الخريف».

﴿ لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاء ﴿ مَا يَحْيِسُهُ ﴾ أيّ شيء يمنعه من الوقوع استعجالاً ﴿ أَلا يَوْمَ يَاتِيهِمْ ﴾ كيوم بدر ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ ليس العذاب مدفوعاً عنهم. و«يوم» منصوب بخبر «ليس» مقدّم عليه. وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها، وذلك لأنّه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها، إذ المعمول تابع للعامل، فلا يقع إلاّ حيث يقع العامل.

⁽١) الْفَرَع: قِطع من السحاب صغار متفرَقة

﴿ وَخَاقَ بِهِمْ ﴾ وأحاط بهم. وإنّما وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد. ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَقَرْءُونَ ﴾ أي: العذاب الذي كانوا به يستعجلون، فرضع «يستهزءُون» موضع: يستعجلون، لأنّ استعجالهم كان استهزاءً.

ثمّ بيّن سبحانه حال الانسان فيما قابل به نعمه من الكفران، فقال: ﴿ وَلَئِنْ الْفَقْا الْإِنْسَانُ مِنْاً رَحْمَةً ﴾ ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذّتها ﴿ ثُمُّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ ثمّ سلبنا تلك النعمة منه ﴿ إِنَّهُ لَيَوُسُ ﴾ قطوع رجاءه من فضل الله تعالى أن يعود إليه تلك النعمة المنزوعة، لقلّة صبره وعدم ثقته به ﴿ كَفُورُ ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

﴿ وَلَئِنْ انْقَنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَنَهُ ﴾ كصحّة بعد سقم، وغنى بعد فقر، وفي إسناد إذاقة النعماء إليه تعالى في قوله: «أذقناه» دون الضرّاء في قوله «مسّته» إيماء إلى أنّ النعمة من جانبه تعالى مقصود أصليّ له، والضرّاء كداء ساقه إليهم سوء أفعالهم.

﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّفَاتُ عَنِّي ﴾ أي: المصائب الّتي ساءتني ﴿ إِنَّهُ لَقَرِحٌ ﴾ بطر بالنعم مغنرٌ بها ﴿ فَخُورٌ ﴾ على الناس بما أنعم الله عليه، مشغول عن الشكر والقيام بحقها. وفي لفظ الإذاقة والمسّ تنبيه على أن ما يجده الانسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنَّه يقع في الكفران والبطر بأدني شيء،

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الضرّاء، إيماناً بقدره واستسلاماً لقضائه ﴿وَعَبَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ شكراً لآلائه السابقة واللاحقة ﴿أَوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْنَ كَمُ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْنَ كَبِيرٌ﴾ أقلّه الجنّه. والاستثناء من الانسان، لأنّ المراد به الجنس، فإذا كان محلّى باللام أفاد الاستغراق. ومن حمله على الكافر، لسبق ذكرهم، جعل الاستثناء منقطعاً.

فَلَمَلَكَ تَارِكْ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآتِنَ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَعُولُوا لَوْلاً أَنْنِ عَلَيْهِ كَدْ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكَ إِنْمَا آلْتَ مَذَيْرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿ ١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلُ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللّه إِن كُتُمُ صَادِقِينَ ﴿ ٣٣ ﴾ فَإِن لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمُ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللّه إِن كُتُمُ صَادِقِينَ ﴿ ٣٣ ﴾ فَإِن لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمُ فَاعْلُمُوا أَنْتُم تُسْلِمُونَ ﴿ ١٤ ﴾ فَاعْلَمُوا أَنْتُم تُسْلِمُونَ ﴿ ١٤ ﴾

روي عن ابن عبّاس: أنّ رؤساء مكّة من قريش أنوا رسول الله عَلَيْتَ فقالوا: يا محمّد إن كنت رسولاً فحوّل لناجبال مكّة ذهباً أو اثتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوّة، فنزلت: ﴿ فَلْعَلْكُ تَاوِكُ ﴾ أي: تترك ﴿ بَعْضَ مَا يُوحَى إلْيَكَ ﴾ وهو ما يخالف رأي المشركين، مخافة ردّهم واستهزائهم به. ولا يلزم من توقّع الشيء ـ لوجود ما يدعو إليه ـ وقعه، لجواز أن يكون ما يصرف عنه ـ وهو عصمة الرسل من الخيانة في النبلية ـ مانعاً.

﴿ وَضَائِقَ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ آي: عارض لك أحياناً ضيّق صدرك، بأن تناوه

عليهم مخافة _ فللدلالة على أنّه ضيق عارض غير ثابت عدل عن ضيّق إلى ضائق _ ﴿ أَنْ يَقُولُوالُولَا أَنْ أَنْوَلَ عَلَيْهِ كَنْزُ ﴾ ينفقه في الاستتباع كالملوك ﴿ أَوْ جَآءَ مَعُهُ مَلْكُ ﴾ يصدّقه. وقيل: الضمير في «به» مبهم يفسّره «أن يقولوا». ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ ليس عليك إلّا الإنذار بما أوحي إليك، ولا عليك ردّوا أو اقترحوا، فما بالك يضيق بم صدرك؟ ا ﴿ وَاللهُ عَلَى كُلُّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ فتوكّل عليه، فإنّه عالم بحالهم، وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم.

روى العيّاشي بإسناده إلى أبي عبدالله على : «أنّ رسول الله عَلَيْتُ قال لعليّ بن أبي طالب على : إنّي سألت ربّي أن يؤاخي بيني وبينك ففعل، وسألت ربّي أن يجعلك وصبّي ففعل. فقال بعض القوم: والله لصاع من تمر في شنٍّ (١) بال أحبّ إلينا ممّا سال محمّد ربّه، فهلا سأله ملكاً يعضده على عدوّه أو كنزاً يستغني بـه عـلى مقانزل الله تعالى هذه الآية».

ثمّ قال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْهُ ﴾ «أم» منقطعة، والهاء لاما يوحى» ﴿ قُلْ فَاتُوا يِعْشَرِ سُوْدٍ ﴾ كلّ واحدة منها ﴿ مِثْلِهِ ﴾ في البيان وحسن النظم. تحدّاهم أولاً بعشر سور، ثمّ لمّا عجزوا عنها سهّل الأمر عليهم وتحدّاهم بسورة. وتوحيد المثل مقام الأمثال باعتبار كلّ واحدة، لأنّه أراد مماثلة كلّ واحدة منها له. ﴿ مُسفّتَرَيّاتٍ ﴾ مختلقات من عند أنفسكم، إن صحّ أنّي اختلقته من عند نفسي كما زعمتم، فإنّكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على مثل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر، لتعلّمكم القصص والأشعار، وتعوّدكم نسق النظم وإنشاء الكلام المنثور الذي كاللآلي ﴿ وَادْعُوا ﴾ في المعارضة ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتُم عِن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنّه مفترى.

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ بإتيان ما دعوتم إليه. وجمع الضمير لأنّ المؤمنين أيضاً كانوا يتحذونهم، وكان أمر الرسول ﷺ متناولاً لهم، من حبيث إنّه يسجب

⁽١) الشُّنِّ: القربة الخَلَق الصغيرة.

اتّباعه عليهم في كلّ أمر إلّا ما خصّه الدليل. وللتنبيه على أنّ التحدّي ممّا يوجب رسوخ إيمانهم وقوّة يقينهم، فلا يغفلون عنه. ويـجوز أن يكـون الجـمع لتـعظيم رسول الله ﷺ.

ويؤيد الأوّل قوله بعد ذلك: ﴿ فَاعْلَمُوا ﴾ أيّها المؤمنون ﴿ أَنْمَا أَنْوِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ ملتبساً بما لا يعلمه إلّا الله، ولا يقدر عليه سواه، من نظم معجز لجميع الخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه ﴿ وَأَنْ لَا إِللهَ إِلَّا هُوَ ﴾ واعلموا أن لا إله إلّا الله وحده، لأنّه العالم القادر بما لا يعلم، ولا يقدر عليه غيره، ولظهور عجز آلهتهم، ولتنصيص هذا الكلام الثابت صدقه بإعجازه عليه. وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم. ﴿ فَهَلُ أَنشُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ثابتون على الاسلام، راسخون مخلصون فيه، إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً.

ويجوز أن يكون الخطاب للكفّار، والضمير في «لم يستجيبوا» ارسن استطعتم»، فيكون المعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونهم إلى السظاهرة على المعارضة لعجزهم، وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة، فاعلموا أنّه نظم لا يعلمه إلاّ الله، وأنّه منزل من عنده، وأنّ ما دعاكم إليه من التوحيد حقّ، فهل أنتم مسلمون داخلون في الاسلام، معتقدون للتوحيد، بعد قيام الحجّة القاطعة ؟! وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ، لما فيه من معنى الطلب، والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر.

مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنَيَا وَزِينَتَهَا نُوفَ إِلَيْهِمُ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلِيَكَ الَّذِينَ لَيسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلْ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴿ مَنْ كَانَ مُوِيدُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ وحسن بهجتها، بإحسانه تعالى وبرّه ﴿ نُوفُ النّهِمُ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا ﴾ نوقر عليهم أجور أعمالهم في الدنيا وما يرزقون فيها، من الصحّة وسعة الرزق والرئاسة وكثرة الأولاد ﴿ وَهُمْ قِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم، قيل: هذه الآية في أهل الرياء، وقيل: في المنافقين، وقيل: في الكفرة وبرّهم،

﴿ أَوْنَئِكَ النَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة، وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنعُوا ﴾ ما صنعوه، أي: لم يكن لصنيعهم ثواب ﴿ فِيهَا ﴾ في الآخِرَة، لأنهم لم يريدوا به وجه الله، والعمدة في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص. ويجوز تعليق الظرف بدسنعوا » على أنَّ الضمير للنّنيا. ﴿ وَبَاطِلٌ ﴾ في نفسه ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لأنّه لم يعمل على الوجه الصحيح الذي هو ابتغاء وجه الله، والعمل الباطل لا ثواب له. يعمل على اوحدة من الجملتين علّة لما قبلها.

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيْنَة مِن رَّبِهِ وَيُتْلُوهُ شَاهِدٌ مَنْهُ وَمِن فَبْلهِ كَتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلِيَكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكُفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا نَكُ فِي مِرْبَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِكَ وَلَكِنَ أَكْثَرُ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

﴿ أَفَهُنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْدَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ على برهان وحجّة من الله يمدلُه عملى أنّ دين الاسلام هو الحقّ والصواب فيما يأتيه ويمذره. وهمو دليسل العمقل. والهمزة لإنكار أن يتبع من هذا شأنه هؤلاء المقصّرين هممهم وأفكارهم على الدنيا، وأن يقارب بينهم في المنزلة. يريد أنّ بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيتناً، وهو الذي

سورة هود، آية ١٧٠٠٠٠

أغنى عن ذكر الخبر، وتقديره: أفمن كان على بيّنة كمن كان يريد الحياة الدنيا؟! وهو حكم يعم كلّ مؤمن مخلص. وقيل: المراد به النبيّ ﷺ. وقيل: مؤمنوا أهل الكتاب.

﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل ﴿ شَاهِدُ مِنْهُ ﴾ شاهد من الله يشهد بصحته، وهو القرآن ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ ومن قبل القرآن ﴿ حِبَابُ مُوسَى ﴾ يعني: التوراة، فإنّها أيضاً تتلوه في التصديق. أو البيّنة هو القرآن، و «يستلوه» من التلاوة، والشاهد جبرئيل، أو لسان الرسول، وهذا منقول عن الحسين بن عليّ عليه ومحمد بن الحنفية، أو من التلو، والشاهد ملك يحفظه.

وقيل: الشاهد عليّ بن أبي طالب الله ، يشهد للنبيّ اللُّهُ ، وهو منه.

وهذا مرويّ عن أبي جعفر وعليّ بن موسى الرضـا ﷺ . ورواه الطـبري (١٠) بإسناده عن جابر بن عبدالله عن على ﷺ .

والضمير في «يتلوه» إمّا لـ«من» أو للبيّنة باعتبار المـعنى، وهــو البــرهان. ويجوز أن يكون «ومن قبله كتاب موسى» جملة مبتدأة.

﴿إِمَاماً﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين ﴿ وَرَضْمَةٌ ﴾ ونعمة عظيمة على المنزل عليهم، لأنه الوسيلة إلى الفوز بخير الدارين.

﴿ أَوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى من كان على بيئة ﴿ يُؤْمِدُونَ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ وَمَنْ يَكَفُرُ بِهِ مِنَ الْأَخْرَابِ ﴾ من أهل مكّة ومن ضامّهم من المتحرّبين على رسول الله ﷺ ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُه ﴾ يردها لا محالة ﴿ فَلا تَكُ فِي مِزِيّةٍ مِنْهُ ﴾ من الموعد. أو القرآن ﴿ إِنَّهُ الْمَتَى فِي مَزِيّةٍ مِنْهُ ﴾ من الموعد. أو القرآن ﴿ إِنَّهُ الْمَتَى فَلَ المراد كلّ سامع ﴿ وَلَكِنَّ الْمُثَلِّ الْمُثَلِّ اللّهِ اللّهِ اللّهِ عَناداً وجعوداً ولجاجاً.

⁽١) تفسير الطبري ١٢: ١١.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِتَنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أُولِنَكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ لَمْؤُلَا وَ الْذَينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِهِمْ أَلَا لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿ ١٨ ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيُبْغُونَهَا عَوْجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافَرُونَ ﴿ ١٨ ﴾ أُولِنَكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجَزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِن دُونِ اللهَ مِنْ أُولِيَا ءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْمَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ أَوْلاً عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُشْتَولُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ لأ ﴿ ٢٠ ﴾ لأ جُرَمَ أَنْهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَحْسَرُونَ ﴿ ٢٧ ﴾

﴿ وَمَنْ أَطْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ كأن أسند إليه ما لم ينزله أو نفى عنه ما أنزله، أي: لا أحد أظلم منه. وإخراجه مخرج الاستفهام ليكون أبلغ.

﴿ اَوْلَتِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ في الموقف، بأن يحبسوا ويعرضوا ويوقفوا موقفاً يراهم الخلائق للمطالبة بما عملوا، أو تعرض أعمالهم ﴿ وَيَقُولُ الْأَسْهَادُ﴾ من الملائكة والحفظة والنبيّن، أو شهد كل إمام عصر من أسّة المومنين، أو من جوارحهم. وهو جمع شاهد كأصحاب، أو شهيد كأشراف. ﴿ هَوُلَاءِ النّبِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾. وقوله: ﴿ اللّه لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظّالِمِينَ ﴾ ابتداء كلام، أو تسمّة كلام الأشهاد. وفيه تهويل عظيم ممّا يحيق بهم حينئذٍ، لظلمهم بالكذب على الله تعالى.

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ عن دينه الاسلام ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوْجاً ﴾ ويصفونها بالاعوجاج عن الحقّ والصواب وهي مستقيمة. أو يبغون أهلها أن يعرَّوا عن الحقّ بالردّة، وهم الثابتة عليه. ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ والحال

أنَّهم كافرون بالآخرة. وتكرير «هم» لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿ أَوْلَتِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما كانوا معجزين الله تعالى في الدنيا أن يعاقبهم، بأن يفوتوا منه هرباً إذا أراد إهلاكهم، كما يهرب الهارب من عدق وقد جدّ في طلبه. وإنّما خصّ الأرض بالذكر وإن كانوا لا يفوتون الله ولا يخرجون عن قبضته على كلّ حال، لأنّ معاقل الأرض هي الّتي يهرب إليها البشر، فكأنّه سبحانه نفى أن يكون لهؤلاء الكفّار عاصم عنه ومانع من عذابه.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ بأن يتولّوهم فينصر وهم ويمنعوهم من العذاب، ولكنّه سبحانه أخّر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشدّ وأدوم.

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ استثناف. وقرأ ابن كثير ويعقوب وابن عامر: يضعف بالتشديد. ومعناه: أنّه لا يقتصر بهم على عذاب الكفر، بل يعاقبون عليه وعلى ساثر المعاصي، كما قال في موضع آخر: ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (١١). أو كلّما مضى ضرب من العذاب يعقبه ضرب آخر منه مثله أو فوقه، كذلك دائماً مُؤيداً، وكلّ ذلك على قدر الاستحقاق.

﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ لفرط تصامّهم عن استماع الحقّ وبغضهم له. كأنّهم لا يستطيعون السمع ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ لفرط تعاميهم عن آيات الله، وكأنّه العلّة لمضاعفة العذاب. وقيل: هو بيان ما نفاه من ولاية الآلهة بقوله: «وما كان لهم من دون الله من أولياء » فإنّ ما لا يسمع ولا يبصر لا يصلح للولاية. وقوله: «يضاعف لهم العذاب» اعتراض.

﴿ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى ﴿ وَضَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴾ من الآلهة وشفاعتها، أو خسروا بما بدّلوا، وضاع عنهم ما حصّلوا، فلم يبق معهم سوى الندامة والحسرة.

⁽١) النحل: ٨٨.

﴿ لَا جَرَمَ﴾ فال الزجّاج: «لا» نفي لما ظنّوا أنّه ينفعهم، فكأنّ السعنى: لا ينفعهم ذلك. و«جرم» بمعنى: حقّ وثبت. ﴿ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ بعيث لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم. وقال غير الزجّاج: معناه: لابدّ ولا محالة أنّهم. وقيل: معناه: حقّاً. ويستعمل في أمر يقطع عليه ولا يرتاب فيه، أي: لا شكّ أنّ هؤلاء الكفّار هم أخسر الناس في الآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِهِمُ أُوْلِكَ أَصْحَابُ الْجَنَةِ هُمْ فِيهَا خَالدُونَ ﴿٣٢﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالاَّعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلُ يَسْتَوَيَانِ مَثَلًا أَفَادَ تَذَكَّرُونَ ﴿٣٤﴾

ولئا تقدّم ذكر الكفّار وما أعدّ لهم من العذاب، عقبه سبحانه بذكر المؤمنين، إجراءً على عادته تعالى أنّه يذكر الوعد مع الوعيد وبالعكس، فقال: ﴿إِنَّ النّبِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالْحَبَّدُوا إِلَى رَبَّهِمْ﴾ اطمأنوا إلى، وخشعوا له وانقطعوا إلى عبادته، من الخبت، وهي الأرض المطمئنة ﴿أَوْلَـ ثِك أَصْحَابُ الْجَنّةِ هُمْ فِيهَا غَلِدُونَ﴾ دائمون.

ثمّ ضرب مثلاً للكافر والمؤمن بقوله: ﴿ مَثَلُ الْفَوِيقَيْنِ ﴾ الكافر والمؤمن والمومن والمؤمن من خرب مثلاً للكافر والمؤمن بقوله: ﴿ مَثَلُ النَّعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ فشبّه فريق الكفّار بالأعمى والأصمّ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ، وهو من اللفّ والطباق ، وفيه وجهان : أحدهما : تشبيه الكافر بالأعمى ، لتعاميه عن آيات الله تعالى ، وبالأصمّ لتصامّه عن استماع كلام الله تعالى ، وتأبيه عن تدبّر معانيه ، وتشبيه المؤمن بالبصير والسميع ، لأنّ أمره بالضد . فيكون كلّ منهما مشبّهين بائنين باعتبار وصفين . وثانيهما : أن يشبّه الكافر بالجامع بين العمى والصمم ، والمؤمن بين ضدّيهما .

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ هل يستوي الفريقان عند العقلاء ﴿ هَثَلاً ﴾ تمثيلاً. أو صفة أو حالاً ﴿ أَفَلَا تَذَكُرُونَ ﴾ بضرب الأمثال والتأمّل فيها، فتعلموا صحة ما ذكرنا.

وَلَقَدُ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِه إِنِي لَكُمْ نَدَيْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَ تَعْبُدُواَ إِلاَّ اللّهَ إِنِيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَدَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلاُ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قُوْمِهِ مَا نَوَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مَثْلَنَا وَمَا نَوَاكَ اَتَبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمُ أَرَادُلْنَا بَادِي الزَّأْي وَمَا نَوَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلِ بَلْ فَظَنْكُمْ كَاذِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَا قَوْمٍ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِن رَبِّي وَاتَّانِي رَحْمَةً مِنْ عَندهِ فَعَمِينَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمُؤمِّكُمُ فَاللَّهُمْ أَلْمُؤمِّكُمْ فَاللَّهُمْ أَلْمُؤمِّكُمُ أَلْمُؤمِّكُمْ أَلْمُؤمِّكُمْ وَاللَّهُ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٧٧﴾

ولمّا تقدّم ذكر الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، عقب ذلك سبحانه بذكر أخبار الأنبياء، تأكيداً لذلك، وتخويفاً للخلق، وتسلية للسنبي ﷺ، وبدأ بنقصة نوحﷺ، لأنّه شيخ الأنبياء وأبوهم بعد الطوفان وأسبقهم، فقال: ﴿وَلَـقَدُ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِه إِنِّي لَكُمْ﴾ بأنّي لكم، أي: ملتبساً بهذا الكلام. وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة بالكسر على إرادة القول ﴿ نَذِيقٍ مُعِينٌ ﴾ أبيّن لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص.

﴿ فَقَالَ الْمَلَا ﴾ أي: الأشراف، لانهم يملؤن القلوب هيبة وهيئة ﴿ النَّذِينَ كَفُرُوا مِنْ فَوْمِهِ مَا نَوَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا ﴾ لا مزيّة لك علينا تخصّك بالنبوة ووجوب الإطاعة، وذلك لظنّهم أنّ الرسول ينبغي أن يكون من غير جنس المرسل إليه ﴿ وَمَا نَرَاكَ النَّبَعْكَ إِلَّا النَّذِينَ هُمُّ أَرَاذِلْنَا ﴾ أخسّاؤنا، جمع أرذل، فإنّه بالغلبة صار معل الإسم، كالأكبر، أو أردل جمع ردل. ﴿ بَادِي الرَّاي ﴾ ظاهر الفكر من غير تعتق، من البدؤ بمعنى الظهور، أو أول الرأي من البدء، والباء مبدلة من الهمزة، لانكسار ما قبلها، وقر عمرو بالهمزة، وانتصابه بالظرف، على حذف المضاف، أي: وقت حدوث بادي الرأى، والعامل فيه «اتّبعك».

وإنّما استر ذلوهم لذلك أو لفقرهم، فإنّهم لمّا لم يعلموا إلاّ ظاهراً من الحياة الدنيا. كان الأحظّ بها أشرف عندهم، والمحروم منها أرذل، كما ترى أكثر المنسمين بالاسلام يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم. ولقد زلّ عنهم أنّ التقدّم في الدنيا لا يقرّب أحداً من الله، وإنّما يبعّده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً عن أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوة والتأهيل لها، على أنّ الأنبياء بعنوا مرعّبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصغّرين لشأنها وشأن من أخلد إليها.

﴿ وَمَا نَزَىٰ تَكُهُ لِكُ ولَمِنَ اتَّـبِعِكَ ﴿ عَلَيْنَا مِن قَضْلٍ ﴾ يبؤهّلكم للمنبوّة واستحقاق المتابعة ﴿ بَلْ نَظُنُكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ إيّاك في دعوى النبوّة، وإيّاهم في دعوى العلم بصدقك، فغلّب المخاطب على الغائبين.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرْأَيْتُمُ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ﴾ حجّة شاهدة بصحة دعراي ﴿مِنْ رَبِّي وَآقَائِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ بإيتاء المعجزة البيّنة، أو النبوّة ﴿فَعُمُيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم، فلم تهدكم، وتوحيد الضمير لأنّ البيّنة في نفسها هي الرحمة، أو لأنّ خفاءها يوجب خفاء النبوّة، أو على تقدير: فعميت بعد البيّنة، وحذفها للاختصار، أو لأنّه لكلّ واحدة منهما، وقرأ حمزة والكسائي وحفص: فعَبِيت، أي: أخفيت.

﴿ أَنُـ إِنْ مُكُمُوهَا ﴾ أنلزمكم قبولها. ونجبركم على الاهتداء بـها ﴿ وَأَنـتُمْ لَـهَا

كَارِهُونَ﴾ تكرهونها ولا تختارونها. ولا تتأمّلون فيها. وحيث اجـتمع ضـميران. وليس أحدهما مرفوعاً. وقدّم الأعرف منهما. جاز في الثاني الفصل والوصل.

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْالُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَّا بِطَارِدِ
الّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهِم مُلاَقُوا رَبِهِمْ وَلَكَتْنِيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن
يَنصُونِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدَتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكُّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلاَ أَقُولُ لَكُمُ عندي حَزَاتَنُ
اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْفَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لِينِي مَلَكْ وَلاَ أَقُولُ للّذِينَ تَزْدَرِي أَعْنَيْكُمْ لَن
يُؤْتِيهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَفْسِهِمْ إِنِي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

ثمّ أنكر نوح على قومه استثقالهم النكليف. والعاقل إنّما يستثقل الأمر إذا لزمته مؤونة ثقله. فقطع ﷺ هذا العذر بقوله: ﴿وَيَا قَـَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَـلَيْهِ﴾ عـلى التبليغ. وهو وإن لم يذكر إلّا أنّه معلوم متا ذكر. ﴿مَالًا﴾ جعلاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ فإنّه العأمول منه.

قيل: إنّهم كانوا يسألونه طرد المؤمنين ليؤمنوا به، أنفةً من أن يكونوا معهم على سواء. فقال نوح في جوابهم: ﴿ وَمَا أَنَا يِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ هَاَدَقُوا رَبِّهِمْ ﴾ فيخاصمون طاردهم عنده تعالى. أو إنّهم يلاقونه ويفوزون بقربه، فكيف أطردهم ؟! ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ بلقاء ربّكم، أو بأقدارهم وأنّهم خير منكم، أو في التماس طردهم، أو تتسفّهون عليهم، بأن تدعوهم أراذل.

﴿ وَيَا قَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ ﴾ من يمنعني من انتقام الله وعدابه ﴿ إِن طَرَدتُهُمْ ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة ﴿ أَفَالَا تَذَكَّرُونَ ﴾ لتعرفوا أنّ التماس الطرد وتوقيف الايمان عليه ليس بصواب، بل محض خطأ. ﴿ وَلاَ اقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ﴾ خزائن رزقه وأمواله، فأدّعي فضلاً عليكم كما تقولون في الدنيا، حتّى تجحدوا فضلي بقولكم: «وما نرى لكم علينا من فضل» ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ عطف على «عندي خزائن الله» أي: ولا أقول أنا أعلم الغيب حتّى تكذّبوني استبعاداً. أو حتّى أطّلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم، وأعلم أنّ هؤلاء اتّبعوني بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب. وعلى الثاني يجوز عطف على «أقول».

قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادُلْتَنَا فَأَكُثُرُتَ جِدَالْنَا فَأَنْنَا بِمَا تَعَدُنَا إِن كُنتَ مِنَ السَّادَقِينَ ﴿٣٣﴾ الصَّادِقِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجَزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلاَ يَنفُعُكُمْ نَصْحِيَ إِنْ أَرَدَتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُعْوِيكُمْ هُوَ وَلاَ يَنفُعُكُمْ نَصْحِيَ إِنْ أَرَدَتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُعْوِيكُمْ هُوَ وَلاَ يَنفُعُكُمْ وَاللّهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرُبْتُهُ فَعَلَيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرَيَ مُنَا تُجْرَمُونَ ﴿٣٤﴾ مَرَبُونَ ﴿٣٤﴾

ثمّ حكى سبحانه جواب قوم نوح عمّا قاله لهم، فقال: ﴿قَالُوا فِيا نُـوحُ قَدْ جَالَلْتُنَا﴾ خاصمتنا ﴿قَائِمُونَ چَدَالنّا﴾ فأطلته، أو أتيت بأنواعه ﴿قَائِمُنَا بِمَا تَعِدْنَا﴾ من العداب، فإنّا لا نؤمن بك ﴿إن كُنتَ مِنَ الصَّالِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد، فإنّ مناظرتك لا تؤثّر فينا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَاتِيكُمْ بِهِ اللهُ أَي: ليس الإنيان بالعذاب إليَّ. بل إنَّما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه ﴿إِنْ شَمَاءَ﴾ إن اقتضت حكمته عماجلاً وآجلاً ﴿ وَمَمَا انْمُتْمُ بِهُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب، أو الهرب منه.

﴿ وَلا يَنْفَكُمُ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ شرط، وجزاؤه محذوف دل عليه ما قبله. والجملة جواب قوله: ﴿إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيكُمْ ﴾ وتقدير الكلام: إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي. ومعنى الإغواء: أنه إذا عرف الله من الكافر الإصرار والعناد فخلاه وشأنه ولم يلجئه ستي إذلك إغواء وإضلالاً ، كماأنه إذا عرف منه أنّه يتوب ويرعوي فلطف به ستي إرشاداً وهداية. وقيل: «أن يغويكم» أن يهلككم، من: غوى الفصيل غوى إذا بشم (۱۱) من كثرة شرب اللبن فهلك. ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحي ؟! وهذا جواب لما أوهموا من أن جداله كلام باطل.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ خالقكم والمتصرف فيكم وفق حكمته ﴿وَإِلَــنِهِ تُـزَجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ الْفَتَرَاهُ قُلْ إِنِ الْفَتَرَيْتُهُ ﴾ إِن صبح وتبت أُنِّي افتريته ﴿ فَعَلَيْ إِجْرَامِي ﴾ عقوبة إجرامي وافترائي ﴿ وَانَّا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليَّ، فلا وجه لإعراضكم عني.

⁽١) في هامش النسخة الخطّية: «البَشَهُ محرّ كة مرض يقال له التحمة. منه».

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمنَ من قَوْمكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ نُبْتَسْنُ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَآصْنَع الْفُلُكَ بَأَعْيُننَا وَوَحْينَا وَلاَ تُخَاطَبْني في الّذينَ ظَلَمُوآ أَيْهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلُكَ وَكُلُّمَا مَرَّ عَلَيْه مَلاٌ مّن قَوْمه سَخْرُواْ مَنْهُ قَالَ إِن تَسْخُرُواْ مِنَا فَإِنَّا نَسْخَرُ مَنكُمْ كَمَا تَسْخُرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعَلَمُونَ مَن يَأْتِيه عَذَابٌ يُوْزِيه وَيِحلُّ عَلَيْه عَذَابٌ مُتيمٌ ﴿ ٣٩ ﴾ حَتَّى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ النُّنُورُ قُلْنَا احْمَلُ فيهَا من كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاّ مَن سَبَقَ عَلَيْه الْقُولُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَتُبُوا فيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَّبِي لَغَفُورٌ رَّحيمٌ ﴿٤١﴾ وَهميَ تَجْرِي بِهِمْ في مَوْج كَالْجَبَال وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ في مَعْزِل يَا بُنِيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تُكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿ ٤٢﴾ قَالَ سَآقِيَ إَلِى جَبَل يَعْصَمُني مَنَ الْمَآءَ قَالَ لاَ عَاصَمَ الْيُوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إلاَّ مَن رَّحمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٢٣﴾

﴿ وَاوِجِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنَ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ إلّا من قد وجد منه ما كان يتوقّع من إيمانه. و «قد» للتوقّع. ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ فلا تحزن حزن بائس مستكين ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْظُونَ ﴾ بِما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم. فأقنطه الله من إيمانهم، وأعلمه أنّ إيمانهم كالمحال الّذي لا يتعلّق به التوقّع، ونهاه أن يغتمّ بما فعلوه من التكذيب والايذاء.

﴿ وَاصْنَعِ الْقُلْكَ فِاعْيُنِنا ﴾ ملتبساً بمرأى منّا، أي: بحفظنا إيّاك من أن تزيغ في صنعتك عن الصواب. وأن يحول بينك وبين عملك أحد من أعدائك، حفظ الرائي لغيره إذا كان يدفع الضرر عنه. وذكر الأعين لتأكيد الحفظ. فعبر بكثرة آلة الحسّ الذي يحفظ به الشيء ويراعى عن الاختلال والزيغ _عن المبالغة في الحفظ والرعاية، على طريق التمثيل. ﴿ وَوَحْيِنا ﴾ إليك، وإلهامنا لك كيف تصنعها، فأوحى إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر.

﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تراجعني فيهم، ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ﴿ إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ﴾ محكوم عليهم بالإغراق. فلا سبيل إلى كفّه.

﴿ وَيَضْنَعُ الْفُلْكُ ﴾ حكاية حال ماضية ﴿ وَكُلُمًا مَرُ عَلَيْهِ مَلاً مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ استهزؤا به لعمله السفينة، فإنّه كان يعملها في برّية بعيدة من الماء جدّاً أوان عزّته، فكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجّاراً بعد ما كنت نبيّاً ﴿ قَالَ إِن تَسْخُرُوا مِنّا ﴾ أن المستقبل إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة ﴿ كَمَا تَسْخُرُونَ ﴾ منّا الساعة. وقيل: المراد بالسخريّة الاستجهال.

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَاتِيهِ ﴾ في محلّ النصب ب «تعلمون» أي: تعلمون الذي يأتيه ﴿ عَذَابُ يُخْزِيهِ ﴾ يعني به إيّاهم، وبالعذاب الغرق ﴿ وَيَجِلُ عَلَيْهِ ﴾ وينزل أو يحلّ عليه حلول الدين الذي لا انفكاك عنه ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ دائم، وهو عذاب النار. ويجوز أن تكون «من» استفهاميّة، وتكون تعليقاً.

قال الحسن: كان طول السفينة ألف ذراع ومائتي ذراع، وعـرضها سـتّمائة ذراع. ٢٧٤ زيدة التفاسير ـ ج ٣

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعاً، وارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وبابها في عرضها.

وقال ابن عبّاس: كانت ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للأنعام، وطبقة للهوام والموام والموام والموام والوحش، وجعل أسفلها للدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وكانت من خشب الساج.

وروت عائشة عن النبي الله تعالى، حتى إذا كان آخر زمانهم غرس شجرة خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، حتى إذا كان آخر زمانهم غرس شجرة فعظمت وذهبت كلّ مذهب فقطعها، وجعل يعمل على سفينته، وقومه يمرّون عليه فيسألونه فيقول: أعمل سفينة . فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة على البري فكف تجري ؟ فيقول: سوف تعلمون. فلمنا فرخ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أمّ صبي عليه، فكانت تحبّه حبّاً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى البعت ثلثه، فلمنا بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلمنا بلغ الماء رفبتها رفعت بيديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أمّ الصبي».

 أنفه زوج سنّور، وكان الّذين آمنوا به من جميع الدنيا ثمانين رجلاًّ(١).

وفي حديث آخر: أنّهم شكوا إليه العذرة. فأمر الله الفـيل فـعطس فسـقط الخنزير.

وروى الشيخ أبو جعفر في كتاب النبؤة، بإسناده عن حنان بن سدير عن أبي عبدالله ﷺ قال: «أمن مع نوح ثمانية نفر».

قيل: إن الحواريّين قالوا لعيسى على: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا عنها. فانطلق بهم حتّى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفّاً من ذلك التراب فقال: أتدرون من هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: هذا كعب بن حام.

قال: فضرب الكثيب بعصاه فقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب.

فقال له عبسي: أهكذا هلكت؟

قال: لا، متّ وأنا شابّ، ولكنّي ظننت أنّها الساعة فمن ثمّ شبت.

قال: حدّثنا عن سفينة نوح.

قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع. وعــرضها ســـتّمائة ذراع. وكــانت ثلاث طبقات: طبقة للدوات والوحوش. وطبقة للإنس. وطبقة للطير.

ثم قال على عد بإذن الله كما كنت، فعاد تراباً.

وقوله عزّ اسمه: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ غاية لقوله: «ويصنع الفلك» وسا بينهما حال من الضمير فيه. أو «حتى» هي التي يبتدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء. ﴿ وَقَارَ التَّنُورُ ﴾ نبع الماء منه وارتفع بشدّة اندفاع،

⁽١) تفسير القمّى ١: ٣٢٦_٣٢١.

كالقدر تفور. والتنّور تنّور الخبز. وهو تنّور كان لآدم ابتدأ منه النبوع على خرق العدة. وكان في الكوفة في موضع مسجدها. وهو مرويً عن ائتمتنا ﷺ أو فسي الهند. أو بعين وردة من أرض الجزيرة في دار نوح. وقيل: التنّور وجه الأرض. أو أشرف موضع فيها.

وروى المفضّل بن عمر عن أبي عبدالله ﷺ في حديث طويل قـال: «كـان التنّور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة مسجد الكوفة.

قال: قلت: وكيف كان بدء خروج الماء من ذلك التنُّور؟

قال: نعم إنّ الله أحبّ أن يري قوم نوح آية، ثم إنّ الله سبحانه أرسل عليهم المطر يفيض فيضاً، وفاض الفرات فيضاً، وفاضت العيون كلّها فيضاً فغرقهم، وأنجى نوحاً ومن معه في السفينة.

> فقلت: فكم لبث نوح في السفينة حتّى نضب الماء فخرجوا منها؟ فقال: لبث فيها سبعة أيّام بلياليها.

صان بنت بها سبد ایام بندیها

فقلت له: إنَّ مسجد الكوفة لقديم؟

قال: نعم، وهو مصلّى الأنبياء، ولقد صلّى فيه رسول الله ﷺ عين أسري به إلى السماء. قال له جبر ثيل: يا محمّد هذا مسجد أبيك آدم، ومصلّى الأنبياء، فانزل فصلّ فيه. ثمّ إنّ جبرئيل عرج به إلى السماء».

وفي رواية: أنّ السفينة استقلّت بما فيها، فجرت عملى ظهر العماء ممائة وخمسين يوماً بلياليها.

وروى أبو عبيدة الحذّاء عن أبي جعفر ﷺ قال: «مسجد كوفان وسطه روضة من رياض الجنّة، الصلاة فيه بسبعين صلاة، صلّى فيه ألف نبيّ وسبعون نبيّاً، وفيه فار التنّور وجرت السفينة، وهو سرّة بابل ومجمع الأنبياء ﷺ».

وقيل: معنى «فار التنّور» طلع الفجر وظهرت أمارات دخول النهار وتقضّى

الليل. من قولهم: نوّر الصبح تنويراً. روي ذلك عن عليّ ﷺ. وقيل: معناه: اشــتدّ غضب الله عليهم، ووقعت نقمته بهم.

﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿ مِن كُلُّ﴾ من كلَّ نوع من الحيوانات المنتفع بها ﴿ زَوْجَيْنِ النَّنْيْنِ﴾ ذكراً وأنثى. هذا على قراءة حفص، والباقون أضافوا (١٠، على معنى: احمل اثنين من كلّ زوجين، أي: من كلّ صنف ذكر وصنف أنثى. وعلى القراءة الأولى «اثنين» مفعول «احمل». وعلى الثانية صفة «زوجين».

﴿ وَالْهَلَكَ ﴾ عطف على «زوجين» على القراءة الأولى، و «اثنين» على الثانية. والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم. ﴿ إِلّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ بأنه من المغرقين. يريد ابنه كنعان وأمّه واعلة، فإنّهما كانا كافرين. ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ والمؤمنين من غيرهم ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلّا قَلِيلٌ ﴾. قيل: كانوا تسعة وسبعين، زوجته المسلمة، وبنوه الثلاثة: سام وحام ويافث، ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم.

﴿ وَقَالَ ازْ كَبُوا فِيهَا ﴾ أي: صيروا فيها. جعل ذلك ركوباً، لأنها في الساء كالمركوب في الأرض. ﴿ بِسَمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ متصل براركبوا» حال من الواو، أي: اركبوا فيها مسمّين الله، أو قائلين بسم الله، وقت إجرائها وإرسائها أو مكانهما، على أنّ المجرى والمرسى للوقت أو المكان أو المصدر، والمضاف محذوف، كقولهم: آتيك خفوق النجم، وانتصابهما بما قدّرناه حالاً. ويجوز رفعهما برسم الله»، على أنّ المراد بهما المصدر، أو جملة من مبتدأ وخبر، أي: إجراؤها بسم الله، على أنّ بسم الله خبر، أو صلة والخبر محذوف، وهي إمّا جملة مر تجلة لا تعري لها بما قبلها، أو حال مقدّرة من الواو أو الهاء، روي أنّه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يكون

⁽١) أي: قرأوا «كلِّ زوجين» مضافاً.

۲۷۸ زیدة التفاسیر ـج ۳

الاسم مقحماً، كقوله (١): ثمّ اسم السلام عليكما.

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم: مجراها بالفتح، من: جرى. واتفقوا على ضمّ الميم في «مُرساها» ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَقُورُ رَحِيمٌ﴾ أي: لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إيّاكم لما نجّاكم.

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ ﴾ متّصل بمحذوف دلّ عليه «اركبوا»، أي: فركبوا مسئين وهي تجري وهم فيها ﴿ فِي مَوْجٍ ﴾ من الطوفان. وهو ما يسرتفع من الساء عند اضطرابه. ﴿ كَالْجِبَالِ ﴾ أي: موجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها وعظمها. روي عن الحسن: أنّ الماء ارتفع فوق كلّ شيء وفوق كلّ جبل ثلاثين ذراعاً. وقيل: خمسة عشد ذراعاً.

وقيل: إنّ سفينة نوح سارت لعشر مضين من رجب، فسارت ستّة أشهر حتّى طافت الأرض كلّها لا يستقرّ في موضع، حتّى أنت الحرم فطافت بموضع الكعبة أسبوعاً، وكان الله تعالى رفع البيت إلى السماء، ثمّ سارت بهم حتّى انتهت إلى الجوديّ، وهو جبل بأرض الموصل، واستقرّت عليه اليوم العاشر من المحرّم.

وروى أصحابنا عن أبي عبدالله 樂: «أن نوحاً 幾 ركب السفينة في أوّل يوم من رجب، فصام وأمر من معه أن يصوموا ذلك اليوم.وقال: من صام ذلك اليوم تباعد عنه النار مسيرة سنة. فصارت سنّة».

﴿ وَنَادَىٰ نُوحُ ابْنَهُ ﴾ كنعان ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه. ومفعل للمكان، من: عزله عنه إذا أبعده. ﴿ يَا بُنْيُّ ارْكَبُ مَعْنَا ﴾ اركب معنا في السفينة بشرط الإيمان لتسلم من الغرق. قيل: هو منافق وأبوه لم يعلم نفاقه.

والجمهور كسروا الياء ليدلُّ على ياء الإضافة المحذوفة في جميع القرآن.

⁽١) للبيد بن ربيعة العامري، وتمامه:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

سورة هود، آية £2 ٤٤٠

غير ابن كثير ، فإنّه وقف عليها في لقمان ، في الموضع(١٠) الأوّل باتّفاق الرواة ، وفي الثالث(٢) في رواية قنبل ، وغير عاصم ، فإنّه فتح هاهنا اقتصاراً على الفتح من الألف المبدلة من ياء الإضافة ، واختلفت الرواية عنه في سائر المواضع .

> وقد أدغم^(٣) الباء في الميم أبو عمرو والكسائي وحفص، لتقاربهما. ﴿ **وَلَا تَكُنُ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾** في الدين والانعزال.

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبْلِ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ﴾ أن يغر قني ﴿قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَلْمَا يَعْمَ فَنَى ﴿قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَلَّهُ وَاللهِ عَلَى الْمُواللهِ اللهِ الراحم، وهو الله تعالى. أو إلاّ مكان من رحمهم الله، وهم المؤمنون، أي: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد، وهو مكان من رحمهم ونجّاهم، يعني: السفينة. فردّ بذلك أن يكون اليوم معتصم من جبل ونحوه يعصم العائذ به إلاّ معتصم المؤمنين، وهو السفينة. وقيل: «لا عاصم» بمعنى: لاذا عصمة، كقوله: في عيشة راضية، وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن من رحمه فهو معصوم.

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمُوجُ ﴾ بين نوح وابنه، أو ابنه والجبل ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ فصار من المهلكين بالماء.

وَقِيلَ يَآ أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِمِي وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعُداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

ثمّ بيّن سبحانه الحال بعد انتهاء الطوفان، فقال: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ اللَّهِي مَا غَكِ ﴾ انشفى ماءك الّذي نبعت به العيون، واشربيه حتّى لا يبقى على وجهك شيء منه،

⁽۲،۱) لقمان: ۱۳ و ۱۷.

⁽٣) أي: باء «اركب» في ميم «معنا».

من البلع بمعنى النشف ﴿ وَيَا سَمَاءُ اقْلِعِي﴾ أمسكي عن المطر، من الإقلاع بمعنى الإمساك. نوديا بما ينادى به أولوا العلم، وأمرا بما يؤمرون، تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما، بالآمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر امتثال أمره، مهابةً من عظمته، وخشية من أليم عقابه.

وفي الكشّاف: «أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من الدلالة عملى الاقتدار العظيم، وأنّ الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة عليه، كأنّها عقلاء مميّزون، قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته عملى كملّ مقدور، وتبيّنوا تحتّم طاعته عليهم وانقيادهم له. وهم يهابونه ويفزعون من التوقّف دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث»(١).

﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ نقص، من: غاضه إذا نقصه ﴿ وَقَصْبِيَ الْمَرُ ﴾ وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ﴿ وَاسْتَوَتُ ﴾ استوت السفينة ﴿ عَلَى الْجُودِيُ ﴾ جبل بالموصل. وقيل: بالشام. وقيل: بآمد. ﴿ وَقِيلِ بُبُعُداً ﴾ هلاكاً ﴿ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يقال: بعد بعداً إذا بقده بعداً بعيداً بحيث لا يرجى عوده، شمّ استعير للهلاك، وخصّ بدعاء السوء.

وفي الأنوار: «هذه الآية في غاية الفصاحة، لفخامة لفظها، وحسن نظمها، والدلالة على كنه الحال، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنّه متعيّن في نفسه، مستغني عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره، للعلم بأنّ مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد التهار»(٢).

⁽١) الكشَّاف ٢: ٣٩٧.

⁽٢) أنوار التنزيل ٣: ١١٠.

يقاربه كلام البشر ولا يدانيه. منها: أنّه خرج مخرج الأمر، وإن كانت الأرض والسماء من الجماد، ليكون أدلّ على الاقتدار. ومنها: حسن تقابل المعنى وائتلاف الألفاظ. ومنها: حسن البيان في تصوير الحال. ومنها: الايجاز من غير إخلال، إلى غير ذلك ممّا يعلمه من تدبّره، وله معرفة بكلام العرب ومحاوراتهم. ويروى أنّ كفّار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على لباب البرّ ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفوا أذهانهم، فلمّا أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين، وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا» (١٠).

وَنَادَى نُوحٌ رَّبُهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعُدَكَ الْحَقُ وَأَنتَ أَخْكُمُ الْحَاكِمِينَ ﴿ 60 ﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ أَخْكُمُ الْحَاكِمِينَ ﴿ 60 ﴾ فَلاَ يَنِي أَعظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهلِينَ ﴿ 60 ﴾ فَلاَ تَسْأَلنِ مَا يَنِي أَعظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهلِينَ ﴿ 60 ﴾ فَال رَبِّ إِنِي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلُكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عَلْمٌ وَإِلاَّ تُغْفِرُ لِي وَتَوْحَمْنِي أَكُن مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ 60 ﴾ أَكُن مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ 60 ﴾

ثمَّ حكى الله سبحانه تمام قصّة نوح، فقال: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبِّهُ ﴾ أي: أراد نداءه، بدليل عطف قوله: ﴿ فَقَالَ رَبُّ إِنَّ الْبَنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ فإنّه النداء ﴿ وَإِنَّ وَعُدَكَ الْحَقُّ ﴾ وإن كلّ وعد تعده حقّ لا يتطرّق إليه الخلف، وقد وعدت أن تنجى أهلى،

⁽١) مجمع البيان ٥: ١٦٥.

فما حاله أو فماله لم ينج؟ ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه ﴿وَأَنتَ أَخَدُمُ الْحَاكِمِينَ﴾ لآنك أعلمهم وأعدلهم. أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم، على أنَّ الحاكم من الحكمة، كالدارع من الدرع.

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ نَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ لقطع الولاية بين الكافر والمؤمن. وأشار إليه بقوله: ﴿ إِنَّهُ عَمَلُ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ فإنّه تعليل لنفي كونه من أهله. وأصله: إنّه ذو عمل فاسد، فجعل ذاته ذات العمل الفاسد للمبالغة. ثمّ بدّل الفاسد بغير الصالح، تصريحاً بالمناقضة بين وصفي الأهليّة وغير الصلاح، وانتفاء ما أوجب النجاة _ من صالح العمل _ لمن نجا من أهله عنه. وقرأ الكسائي ويعقوب: إنّه عَمِل، أي: عمل عملاً غير صالح.

وفيه إيذان بأنّ قرابة الدين غامرة لقرابة النسب. وفي الحديث القدسي: «خلقت الجنّة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشيّاً، وخلقت النار لمن عصاني ولو كان سيّداً قرشيّاً».

﴿ فَلَا تَسْائْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمُ ﴾ فلا تلتمس منّي التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ؟ حتّى تقف على كنهه. وإنّما سمّى نداءه سوالاً لتضمّن ذكر الوعد بنجاة أهله استنجازه في شأن ولده، أو استفسار المانع للإنجاز في حقّه. وإنّما سمّاه جهلاً وزجر عنه بقوله: ﴿إِنّي أَعِظُكُ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ لأنّ استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دلّه على الحال، وأغناه عن السؤال، لكن أشغله عنه حبّ الولد حتى اشتبه الأمر عليه.

وقرأ ابن كثير بفتح اللام والنون المشدّدة. وكذا نافع وابن عامر، غير أنّهما كسرا النون، على أنّ أصله: تسألنّي، فحذفت نون الوقاية، لاجتماع النونات، وكسرت الشديدة للياء، ثمّ حذفت اكتفاءً بالكسرة. وعن نافع إثباتها في الوصل.

والوعظ: الدعاء إلى الحسن، والزجر عن القبيح، على وجمه الترغيب

والترهيب. ومعنى الكلام: إنّي أدعوك إلى الحسن، وأزجرك عن القبائح، كراهة أن تكون، أو لئلا تكون من الجاهلين الذين يسألون شيئاً قبل أن يتأمّلوا فيه تأمّلاً تامّاً، ليعلموا صحّة سؤالهم عن فسادهم. ولا شكّ أنّ وعظه سبحانه يصرف عس الجهل وينزّه عن القبيح.

﴿قَالَ رَبَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْالَقَ﴾ أن أطلب منك فيما يستقبل ﴿ مَا لَيْسَ لِي
بِهِ عِلْمُ﴾ ما لا علم لي بصحّته، تأذباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك ﴿ وَإِلّا تَغْفِرْ لِي ﴾ وإن
لم تغفر لي ما فرط متى في السؤال الذي يكون تركه أولى. والمراد بالغفران هنا
لازمه، وهو إعطاء الثواب على فعل الأولى، وعدم حرمانه منه لتركه.
﴿ وَتَزَعْنِي ﴾ بالتوبة عن ترك الندب ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِدِينَ ﴾ أعمالاً، لتفويتي الثواب
الذي يتربّب على فعل الأولى، وقيل: قاله على سبيل الخضوع لله عزّ اسمه والتذلّل
له والاستكانة، وإن لم يسبق منه ذنب لعصحته.

قيلَ يَا نُوخُ اهْبِطْ سِسَلامٍ مِنْنَا وَبُركَاتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمْمٍ مِنَّن مَعَكَ وَأُمَّمْ سَنُمَتَعُهُمْ ثُمَّ يَمَسَّهُم مَنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ٤٨ ﴾ تلك مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا آلِيكُ مَا كُنتَ تَعُلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبُرُ إِنِّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ ٤٩ ﴾ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ ٤٩ ﴾

ثمّ حكى الله سبحانه ما أمر به نوحاً حين استقرّت سفينته على الجبل بعد خراب الدنيا بالطوفان، فقال: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَا﴾ انزل من السفينة مسلماً محفوظاً من المكاره من جهتنا، أو مسلّماً عليك مكرّماً ﴿وَبَرَكَاتِ عَلَيْكَ﴾ ومباركاً عليك مكرّماً ﴿وَبَرَكَاتِ عَلَيْكَ﴾ ومباركاً عليك حالاً بعد حال. والبركات: الخيرات الناميات. أو زيادات في نسلك

حتى تصير آدماً ثانياً. ﴿ وَعَلَىٰ أَمَمِ مِمَّن مَعَكَ ﴾ وعلى أمم هم الذين معك. سمّوا أمماً لتحرّبهم، أو لأنّ الأمم تتشعّب منهم. ف«من» للبيان. والأوجه أن تكون للابتداء. والمعنى: وعلى أمم ناشئة ممّن معك إلى آخر الدهر. والمراد بهم المؤمنون، لقوله: ﴿ وَاَمَمُ سَنْمُتَعْمُهُمْ ﴾ أي: وممّن معك أمم سنمتهم في الدنيا ﴿ فَمُ يَمَسُهُمْ مِنَا عَذَابُ اللهِ في الآخرة. والمراد بهم الكفّار من ذرّية من معه. وقيل: هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله عليهم، والعذاب مانزل بهم.

﴿ بِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح. ومحلّها الرفع بالابتداء، وخبرها ﴿ مِنْ النّباءِ الْغَيْبِ ﴾ أي: بعضها ﴿ نُوجِيهَا إِلَيْكَ ﴾ خبر ثانٍ. والضمير للقصّة، أي: موحاة إليك. أو حال من الأنباء، أو هو الخبر و «من أنباء» متعلّق به. أو حال من الهاء في «نوحيها». ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ خبر آخر، أي: مجهولة عندك وعند قومك من قبل إيحائنا إليك. أو حال من الهاء في «نوحيها» أو الكاف في «إليك» أي: جاهلاً أنت وقومك بها. وفي ذكر القوم تنبيه على أنه لم يتعلّمها، إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لمّا لم يسمعوها فكيف بواحد منهم؟ ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على مشاق الرسالة وأذيّة القوم كما صبر نوح ﷺ ﴿ إِنْ الْفَاقِينَةَ ﴾ في الدنيا بالظفر والنصرة، وفي الآخرة بالفوز ﴿ لِلْمُنْقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصي.

وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلّه غَيْرُهُ إِنْ أَشُمْ إِلاَّ مُفْتُرُونَ ﴿ ٥٠﴾ يَا قَوْمٍ لآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الّذِي فَطَرَنِيَ ۖ أَفَلاَ تَعْقُلُونَ ﴿ ٥٠﴾ وَيَا قَوْمٍ ٱلسَّغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا ۚ إِلَيْهِ يُوسِلِ فَطَرَنِيَ ۖ أَفَلاَ تَعْقُلُونَ ﴿ ٥٠﴾ وَيَا قَوْمٍ ٱلسَّغَفْرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا ۚ إِلَيْهِ يُوسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّ دُرَارًا وَيَزِدُكُمْ قَوَّةً إِلَى قَوْيَكُمْ وَلَا نَتَوَلُواْ مُجْرِمِينَ ﴿ ٥٠﴾

قَالُواْ يَا هُودُ مَا جُنَّنَا بَبَيْنَة وَمَا نَحْنُ بِنَارِكِيِّ آلَهَنَا عَن قَوْلكَ وَمَا نَحْنُ لكَ مُؤْمِنينَ ﴿٣٥﴾ إِنْ تَقُولُ إِلاَّ آغْرَاكَ مَعْضُ آلَهَنَا سِنُو ۚ قَالَ إِنِي أَشْهِدَ اللَّهَ وَٱشْهَدُواْ أَنِي بَرِيَ ۗ مَّمَّا تُشْرَكُونَ ﴿٤٥﴾ من دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظرُون ﴿٥٥﴾ إنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّه رَبِّي وَرَّبِّكُم مَّا من دَآبَة إلاَّ هُوَ آخذٌ بَنَاصِيَهَا ٓ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٩﴾ فَإِن تَوَلُّواْ فَقَدُ أَبَلْفُتُكُم مَّآ أُرْسُلْتُ بِهِ إِلَيْكُمُ وَيَسْتَخُلْفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمُ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلُّ شَيُّء حَفيظٌ ﴿ ٧٥ ﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمُرُنَا نَجَّئِنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بَرَحْمَة مَّنَا وَنَجَّيْنَاهُم مَّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿ ٨٠ ﴾ وَتَلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتٍ رِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلُهُ وَٱنَّبَعُواْ أَمْرَ كُلُّ جَبَار عَنيد ﴿٥٩﴾ وَأَنْبَعُواْ في هَذه الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيُوْمَ الْقَيَامَة أَلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَهَاد قَوْم هُود ﴿٦٠﴾

ثمّ عطف سبحانه قصّة هود ﷺ على قصّة نوح، فقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمُ ﴾ في النسب ﴿ هُوداً ﴾ عطف بيان. ﴿ وَالنَّبُ وَحَدُوه ﴿ وَاللَّهُ عَنْهُ إِلَّهُ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ على الله تعالى كذباً. باتّخاذكم الأوثان له شركاء، وجعلها شفعاء.

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْالُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ خاطب كلّ رسول به قومه إزاحة للتهمة وتمحيضاً للنصيحة، فإنّها لا تنجع ما دامت مشوبة ٢٨٦ زيدة التفاسير ـ ج ٣

بالمطامع ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تستعملون عقولكم، فتعرفوا المحقّ من المبطل. والصواب من الخطأ.

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغَفَرُوا رَبِّكُمْ ﴾ اطلبوا مغفرة الله بالإيمان ﴿ ثُمُ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تم توسّلوا إليها بالتوبة، فإنّ التبرّي عن الغير إنّما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ كثير الدرور، كالمغزار ﴿ وَيَرْدُكُمْ قُوفَةً إِلَىٰ فَقُوبَكُمْ ﴾ ويضاعف قوّتكم، وإنّما رغّبهم بكثرة المطر وزيادة القوّة، لأنّهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حرّاصاً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج إلى الماء والقوّة في صنع العمارات.

وقيل: حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين، فوعدهم هود ﷺ على النكاح بالتناسل.

﴿ وَلاَ تَتَوَلَّوْا ﴾ لا تعرضوا عمّا أدعوكم إليه ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على إجرامكم.

وفي الكشّاف عن الحسن بن عليّ على : «أنّه وفد على معاوية فلمّا خرج تبعه بعض حجّابه فقال: إنّي رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلّمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولداً. فقال: عليك بالاستغفار. فكان يكثر الاستغفار حتّى ربما استغفر في يموم واحد سبعمائة مرّة، فولد له عشرة بنين. فبلغ ذلك معاوية فقال: هلّا سألته ممّ قال ذلك؟ . فوفد وفدة أخرى، فسأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود على: «ويزدكم قوّة إلى قوّتكم» وقول نوح على: ﴿وَيُعْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ (١)، (٢٠).

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِنْتَنَا بِنِيَّنَةٍ ﴾ بحجّة تدلَّ على صحّة دعواك. وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات، كما قبالت قريش لرسول

⁽۱) نوح: ۱۲.

⁽٢) الكشَّاف ٢: ٤٠٢.

الله ﷺ: لولا أنزل عليه آية من ربّه، مع كثرة آياته من ربّه ومعجزاته. ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم ﴿ عَنْ قَوْلِكَ ﴾ صادرين عن قولك. حال من الضمير في «تاركي». ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إقناط له من الإجابة والتصديق.

وفي المجمع: «إنّما حملهم على دفع البيّنة مع ظهورها أشياء، منها: تـقليد الآباء والرؤساء. ومنها: اتهامهم لمن جاء بها، حيث لم ينظروا فـيها نـظر تأمل. ومنها: أنّه دخلت عليهم الشبهة في صحّتها. ومنها: اعتقادهم لأصول فاسدة دعتهم إلى جحدها. وإنّما حملهم على عبادة الأوثان أشياء، منها: اعتقادهم أن عبادتها تقرّبهم إلى الله زلفي. ومنها: أن الشيطان ربما ألقى إليهم أنّ عبادتها تحظيهم فـي الدنيا. ومنها: أنّهم ربما اعتقدوا مذهب المشبّهة، فاتّخذوا الأوثان عـلى صورته عندهم فعبدوها»(١٠).

﴿إِن نَقُولُ إِلَّا اَعْتَرَاكَ﴾ ما نقول إلّا قولنا: اعتراك، أي: أصابك، من: عـراه يعروه إذا أصابه ﴿ نِعَضُ آلِهَتِنَا بِسُوعِ﴾ بجنون، لسبّك إيّاها وصدّك عن عبادتها، ومن ذلك تهذي وتتكلّم بالخرافات. والجملة مقول القول، وإلّا لغو، لأنّ الاستئناء مفرّغ، أي: ما نقول شيئاً إلّا قولنا: اعتراك بعض آلهتنا بسوء.

﴿قَالَ إِنِّي﴾ أي: أجاب عن مقالتهم الحمقاء بأنّي ﴿ أَشْهِدُ اللهُ وَالشّهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِيهِ أي: أشهد الله على براءتي من آلهتكم وفراغي عن إضراركم، تأكيداً لذلك وتثبيتاً له. وأمرهم بأن يشهدوا عليه استهانةً بدينهم، وقلّة مبالاة بهم.

قال ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ﴾ أي: اجتمعوا على الكيد في إهلاكي ﴿ ثُمُّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ لا تمهلوني، فإنّي لا أبالي بكم وبكيدكم. وإنّما قال: «واشهدوا» ولم يقل: وأشهدكم على طبق «أشهد الله»، لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد

⁽١) مجمع البيان ٥: ١٧٠ .

صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده. وأمّا إشهادهم فما هو إلّا تهاون بدينهم، دلالة على قلّة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن لا يحبّه: اشهد على أنّى لا أحبّك، تهكّماً به واستهانة بحاله.

والذي بعثه على هذا القول أنهم إذا اجتهدوا في إهلاكه، ورأوا أنهم عجزوا من أرّلهم إلى آخرهم وهم الأقوياء الأشداء وان يضرّوه، لم يبق لهم شبهة أنّ الهتهم الّتي هي جماد لا يضرّ ولا ينفع لا تتمكّن من إضراره انتقاماً منه، فالزمت الحجّة عليهم. وهذا من جملة معجزاته، فإنّ مواجهة الواحد الجمم الففير من الجبابرة الفتّاك العطاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلّا لثقته بالله تعالى، وتتبّطهم عن إضراره ليس إلّا بعصمته إيّاه، ولذلك عقبه بقوله: ﴿إنّي تَوَكّلْتُ عَلَى الله رَبّي

والمعنى: أنّكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضرّوني، فإنّي متوكّل عـلى الله تعالى، واثق بحفظه، وهو مالكي ومالككم، فلا يحيق بي ما أردتم، ولا تـقدرون على إهلاكي، لأنّه يصرف كيدكم عنّى.

﴿ مَا مِنْ دَائِمَةٍ إِلَّا هُوَ آخِذُ بِنَاصِيْتِهَا﴾ أي: إلَّا وهو مالك لها قادر عليها، فهي ذليلة مقهورة له. والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك، فإنّ من أخذ بناصية غيره فقد قهره وأذله.

ولمَّا ذكر توكَّله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكّل عليه من قهره وسلطانه، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إِنَّه على الحقّ والعدل، لا يضيع عنده معتصم، ولا يفوته ظالم.

﴿ فَإِن تَوَلُوا ﴾ فإن تتولّوا لم أعاتب على التفريط في الإبلاغ ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ فقد أُدّيت ما عليّ من الإبلاغ والزام الحجّة، فأبيتم إلا تكذيب الرسالة، فلا تفريط منّي ولا عذر لكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ استئناف بالوعيد لهم، بأنّ الله يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم، يوحدونه ويعبدونه ﴿وَلا تَضُرُّونَهُ ﴾ بتولّيكم وإعراضكم ﴿شَيْناً ﴾ من الضرر، أي: لا ضرر عليه في إهلاككم، لأنّه لم يخلقكم لحاجة منه إليكم ﴿إنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلُ شَيءٍ حَفِيظٌ ﴾ رقيب، فلا تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم. أو حافظ مستولٍ عليه، فلا يمكن أن يضرّه شيء.

﴿ وَلَمُا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا، أو أمرنا بالعذاب ﴿ نَجْنِنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَتُهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿ وَنَجَيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ تكرير لبيان مانجّاهم منه. وهو السموم، كانت تدخل أنوف الكفرة وتـخرج مـن أدبـارهم، فتتقطّع أعضاؤهم. وقيل: أراد بالتنجية الثانية إنجاءهم من عـذاب الآخرة، تـعريضاً بأنَّ المهلكين كما عذّبوا في الدنيا بالسموم، فهم معذّبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

وَإِلَى ثَمُودَ أَحَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ هُوَ أَشَنَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَٱسْتَغْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفَرُوهُ ثُمَّ تُوبُواً إِلَيْهِ إِنَّ رَبِي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿ ١٦﴾ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدُ كُنتَ فِينَا مَرْجُواً فَثَلَ هَذا ۖ أَنْتَهَاناً أَن نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنْنَا لَفِي شَكَ مِّمَا تَدْعُوناً إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿ ١٧﴾ قَالَ يَا قَوْمٍ أَرْأَيْمُ إِن كُنتُ عَلَى بَيْنَةً مِّن رَبِي وَآثَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّه إِنْ عَصَيْبُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي عَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿ ١٣﴾ وَيَا قَوْمٍ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ الله وَلاَ تَمَسُّوهَا سِسُو ۚ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِبٌ ﴿ ١٠﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّمُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَلَةً أَيَّامٍ ذَلكَ وَعُدٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ ﴿ ١٠﴾ فَلَمَّا جَآءً أَمْرُنَا نَجَيْنَا صَالِحًا وَالذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَة مَنَا وَمِنْ خَرْي يَوْمَنْد إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُ الْعَزِيزُ ﴿ ١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبُحُواْ فِيهَا آلَآ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُ الْعَزِيزُ ﴿ ٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبُحُواْ فِيهَا آلَآ إِنَّ شُودَ كَفَرُواْ وَرَبُهُمُ أَلاَ يُعْدًا لَنْمُودَ ﴿ ٦٨﴾

﴿ وَتِلْكَ عَادُ﴾ أَنْتُ اسم الإشارة باعتبار القبيلة، أو لأنَّ الإشارة إلى قبورهم ﴿ جَحَدُوا ﴾ كفروا ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ لاَنَهم عصوا رسولهم، ومن عصى رسولاً فكأنّما عصى الكلّ ، لاَنَهم أمروا بطاعة كلّ رسول ﴿ وَانَّبِعُوا أَهْزَ كُلُّ جَبُارٍ عَنِيدٍ ﴾ يعني: كبراءهم الطاغين. و «عنيد» من: عَنَد يعنِدُ عنوداً إذا طفى. والمعنى: عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم الى الكفر وما يرديهم.

﴿ وَأَتْبِعُوا فِي هَذِهِ النَّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيْمَةِ ﴾ أي: جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين، يكبّهم في العذاب ﴿ أَلَا إِنْ عَاداً كَفُرُوا رَبِّهُمْ ﴾ جحدوه، أو كفروا نعمه، أو كفروا به، فحذف الجارّ ﴿ أَلَا بُعْداً لِعَالٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك. والمراد به الدلالة على أنّهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما صدر عنهم من الآثام العظام. وكرّر «ألا»، وأعاد ذكر عاد، ولم يكتف بالضمير، تفظيعاً لأمرهم، وحثاً على الاعتبار بعالهم ﴿ قَوْمٍ هُورٍ ﴾ عطف بيان لعاد. وفائدته تمييزهم عن عاد الثانية عاد إرم،

والإيماء إلى أنَّ استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود.

ثمّ عطف على ذلك قصّة صالح وقومه فقال: ﴿ وَإِلَىٰ ثَـَمُودَ ﴾ منع صرفه باعتبار التعريف والتأنيث، فإنّه بمعنى القبيلة ﴿ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اغبدُوا الشّقا لَكُمْ مِنْ إللهِ غَيْرُهُ هُوَ انشَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ هو كوتكم منها لا غيره، فإنّه خلق آدم ومواد النطف الّتي خلق نسله منها من التراب ﴿ وَاسْتَغْفَرَكُمْ فِيهَا ﴾ عمركم فيها واستبقاكم، من العمر، وعن الضحّاك: كانت أعمارهم من ألف سنة إلى ثلاثمائة سنة أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها، وقيل: هو من العمري، بمعنى أعمركم فيها دياركم، ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمرين دياركم، بأن تسكنوها مدّة عمركم ثمّ تتركونها لغيركم، فإنّ الرجل إذا ورّث داره من بعده فكأنما أعمره إيّاها، لأنّه يسكنها عمره ثمّ يتركها لغيره.

﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ من الشرك ﴿ ثُمُّ تُوبُوا إِلَــثِهِ ﴾ أي: دوموا على التوبة ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ﴾ قريب الرحمة ﴿ مُجِيبٌ ﴾ لداعيه.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُواً قَبْلَ هَذَا﴾ لما نرى فيك من مخائل رشدك والسداد، أن تكون لنا سيّداً ومستشاراً في الأمور، وأن توافقنا في الدين، فلمّا سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك ﴿أَتَفْهَانَا أَن نَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنا﴾ على حكاية الحال الماضية ﴿وَإِنْنَا لَفِي شَكُ مِثَا تَدْعُونا إِلْفِهِ﴾ من التوحيد والتبرّء عن الأوثان ﴿مُوبِهٍ﴾ موقع في الريبة، من: ارابه إذا أوقعه، أو ذي ريبة على الإسناد المجازي، من: أراب في الأمر إذا كان ذا ريبة.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَائِتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ ﴾ بيان وبصيرة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ حرف الشك باعتبار المخاطبين ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ ﴾ نبوّة ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ فمن يمنعني من عذابه ﴿إِنْ عَصَيتُهُ ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي ﴾ حينذٍ باستباعكم إيّاي ﴿غَيْرَ تَضْعِيرٍ ﴾ غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعرّض لعذابه. أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخســران. ويؤيّده ما روي عن ابن عبّاس أنّ معناه: ما تزيدونني إلّا بصيرة في خسـارتكم.

﴿ وَيَا قَوْمٍ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةُ ﴾ أشار الى ناقته الّتي جعلها معجزته، لأنّه سبحانه أخرجها لهم من جوف صخرة يشاهدونها على تلك الصفة، وخرجت كما طلبوه وهي حامل، وكانت تشرب يوماً جميع الماء فتنفرد به ولا ترد الماء معها دابّة، فإذا كان يوم لا ترد فيه وردت الواردة كلها الماء، وهذا أعظم آية ومعجزة. وأضافها إلى الله تشريفاً لها، كما يقال: بيت الله. ونصب «آية» على الحال، وعاملها معنى الإشارة . و«لكم» حال منها، تقدّمت عليها لتنكيرها.

﴿ فَذَرُوهَا﴾ فاتركوها ﴿ تَاكُلُ فِي أَرْضِ اللهِ ﴾ ترع نباتها، وتشرب ماءها ﴿ وَلاَ تَمْسُّوهَا﴾ ولا تصيبوها ﴿ بِسُوَّ ﴾ قتل أو جرح أو غيره ﴿ فَيَاخُذُكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ عاجل لا يتراخى عن مسّكم لها بالسوء إلّا يسيراً، وهو ثلاثة أيّام.

﴿ فَعَقُرُوهَا فَقَالَ تَعَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ﴾ عيشوا في منازلكم. سمّي المنزل والبلد داراً لأنّه يدار فيه بالتصرّف، أو في داركم الدنيا. ﴿ فَلَافَةَ أَيّامٍ ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة، ثمّ تهلكون. قيل: عقروها يوم الأربعاء، وهلكوا يوم السبت.

روي أنّهم لمّاعقروا الناقة صعد فصيلها الجبل ورغا ثلاث مرّات، فقال صالح: لكلّ رغوة أجل يوم. فاصفرّت ألوانهم أوّل يوم، ثمّ احمرّت من الغد، ثم اسودّت اليوم الثالث، فهو قوله: ﴿ ذَلِكَ وَعَدُ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ أي: غير مكذوب فيه، فاتّسع فيه بإجرائه مجرى المفعول به، كقولك: يوم مشهود. أو غير مكذوب على المجاز، وكأنّ الواعد قال له: أفي بك، فإن وفي به صدّقه، وإلّا كذّبه، أو وعد غير كذب، على أنّه مصدر، كالمجلود بمعنى الجلد، والمعقول بمعنى الإدراك، والصدوقة معنى الصدق.

روى جابر بن عبدالله الأنصاري: أنَّ النبيِّ ﷺ لمَّا نزل الحجر في غـزوة

تبوك قام فخطب الناس، وقال: أيّها الناس لا تسألوا نبيّكم الآيات، هـؤلاء قـوم صالح سألوا نبيّهم أن يبعث لهم الناقة، وكانت ترد من الفجّ فتشرب ماءهم يـوم وردها، ويحلبون من لبنها مثل الّذي كانوا يشربون من مائها يوم غبّها، فعتوا عن أمر ربّهم، فقال: «تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام» وكان وعداً من ألله غير مكذوب. ثمّ جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان في مشارق الأرض ومغاربها منهم إلّا رجلاً كان في حرم الله، فمنعه حرم الله من عذاب الله، يقال له: أبو رغال. قيل: يا رسول الله من أبو رغال؟ قال: أبو ثقيف.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْي يَوْمَنِدٍ ﴾
أي: ونجّيناهم من خزي يومئذٍ، وهو هلاكهم بالصيحة، أو ذلّهم وفضيحتهم يوم القيامة، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وباسمه. وقرأ نافع: يَوْمَيّذٍ بالفتح، على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه. ﴿إِنَّ رَبِّكَ هُوَ الْقَوِيُّ ﴾ القالب عليه.

﴿ وَاخْذَ الَّذِينَ طُلَمُوا الصَّنِحَةُ ﴾ أمر الله سبحانه جبرئيل فصاح بهم صيحة ماتوا عندها ﴿ فَاصْبَحُوا فِي بِيَارِهِمْ جَائِمِينَ ﴾ في منازلهم ميتين واقعين على وجوههم، وقيل: قاعدين على ركبهم.

﴿ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ كأن لم يكونوا في منازلهم قبط ، لانقطاع آشارهم بالهلاك ، من : غنى بالمكان أي : أقام ، وغنى أي : عاش ﴿ أَلَا إِنَّ فَقُودا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ ، نؤنه أبو بكر هاهنا وفي النجم (١) والكسائي في جميع القرآن ، وابن كثير ونافع وأبو عمرو في قوله (١) ؛ ﴿ أَلَا بُعْدَا لِفَقُودَ ﴾ ذهاباً إلى الحيّ ، فإنّه مذكّر ، أو الأب (١) الأكبر .

⁽١) النجم: ٥١.

⁽٢) أي: قرأوا: لثمودٍ.

⁽٣) أي: على هذين التقديرين يكون «ثمود» منصرفاً، لأنه مذكّر. وأمّا إذا فسّر بالقبيلة، يكون =

وَلَقَدُ جَآءَتُ رُسُلُنَآ [بِرَاهيمَ بِالْبَشْرَى قَالُواْ سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبثَ أَن جَاءَ بِعَجُل حَنيذ ﴿ ٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىَّ أَيدَيُهُمْ لاَ نَصلُ إِلَيه نَكرَهُمْ وَأَوْجَسَ منْهُمْ خيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفُ إِنَّا أَرْسُلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأْتُهُ فَاتَمَهٌ فَضَحَكَتُ فَبَشَرُنَاهَا بإسْخُقَ وَمِن وَرَآءَ اِسْخُقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتُ يَا وَٰلِلَّتِى ۚ أَأَلَدُ وَأَنَّا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓأَ أَتَعْجَبِينَ منْ أَمْرِ اللَّه رَحْمَتُ اللَّه وَيَرَكَانُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْت إنَّهُ حَميدٌ مَّجيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إَبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَآءُنُّهُ الْبَشْرَى يُجَادلُنَا في قَوْمِ لُوطِ ﴿ ٢٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهُ مُّنيبٌ ﴿ ٧٧ ﴾ يَآ إِبْرَاهِيمُ أَعُوضُ عَنْ هَذآ أَنْهُ قَدْ جَاءَ أَمُو رَبِكَ وَلِهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَوْدُود ﴿٧٦﴾

ثمّ ذكر سبحانه قصّة إبراهيم ولوط، فقال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ يعني: الملائكة. قيل: كانوا أربعة رابعهم اسمه كروبيل. وهذا منقول عن أبي عبدالله ﷺ. وقيل: تسعة. وقيل: أحد عشر. ﴿ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ ببشارة الولد ﴿ قَالُوا سَلَاماً ﴾ سلّمنا عليك سلاماً. ويجوز نصبه برهالوا» على معنى: ذكروا سلاماً. لتضمّن الذكر القول. ﴿ قَالَ سَلَامُ ﴾ أي: أمركم أو جوابي سلام، أو وعليكم سلام. رفعه إجابة بأحسن من تحيّتهم. وقرأ حمزة والكسائي: سِلْم. وكذلك في

غير منصرف بالتأنيث والعلميّة، فلا يدخله التنوين.

الذاريات(١١). وهما لغتان، كحِرْم وحرام. والمراد به الصلح.

﴿ فَمَا لَبِثُ أَن جَآءً بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ فما ابطأ مجيئه به، أو فما أبطأ في المجيء به، أو فما تأخّر عنه، والجار في «أن» مقدّر، والحنيذ المسويّ بالرضف، وهو الحجارة المحماة في أخدود من الأرض. وقيل: الذي يقطر دسمه، من: حنذتُ الفرس إذا عرّقته بالجلّ (٢٠) لقوله: بعجل سمين.

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ ﴾ فلمّا راى إبراهيم أيدي السلائكة ﴿ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ لا يمدّون إلى المجل الحنيذ أيديهم ﴿ فَعَرَهُمْ ﴾ أنكر ذلك، فإنّ نكر وأنكر واستنكر بمعنى ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وخاف أن يريدوا به مكروهاً، وذلك أنّ أهل ذلك الزمان إذا أكل بعضهم طعام بعض أمنه صاحب الطعام على نفسه، وقيل: إنّه ظنّهم لصوحاً يريدون به سوءً، والإيجاس الإدراك، وقيل: الإضمار.

﴿ قَالُوا﴾ له لمّا أحسّوا منه أثر الخوف ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّا أَرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ إِنَّا ملائكة مرسلة إليهم بالعذاب، وإنّما لم نمدّ إليه أيدينا لانّا لا نأكل. قيل: إنّهم دعوا الله فأحيا المجل الذي كان ذبحه إبراهيم وشواه فرغا، فعلم حينتُذٍ أنّهم رسل الله.

﴿ وَامْوَالْتُهُ قَالِمَتُهُ وَراء الستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة ﴿ فَضَحِكْتُ ﴾ سروراً بزوال الخيفة، أو بهلاك أهل الخبائث، أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطاً، فإنّي أعلم أنّ العذاب ينزل بهؤلاء القوم، وقبل: «فضحكت» من الضحك بفتح الضاد بمعنى: حاضت. يقال: ضحكت الأرنب إذا حاضت. ومنه: ضحكت السمرة إذا سال صمغها، وهي: سارة بنت هارون بن ياحور بن ساروع بن فالع، وهي كانت ابنة عمّ إبراهيم.

﴿ فَبَشَّرْنَاهَا وِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَآء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ نصب «يعقوب» ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسّره ما دلّ عليه الكلام. وتقديره: ووهبنا من وراء إسحاق

⁽١) الذاريات: ٢٥.

⁽٢) أي: ألقيت عليه الجلِّ وأجريته حتى عرق.

يعقوب. وقيل: إنّه معطوف على موضع «بإسحاق»، فإنّه مفعول بواسطة الجرّ. أو على لفظ «إسحاق»، وفتحته للجرّ، فإنّه غير منصرف. وردّ للفصل بينه وبين ما عطف عليه بالظرف. وقرأ الباقون بالرفع، على أنّه مبتدأ خبره الظرف، أي: ويعقوب مولود من بعده.

وعن ابن عبّاس: الوراء ولد الولد. ولعلّه ستي به لأنّه بعد الولد. وعلى هذا تكون إضافته إلى إسحاق ليس من حيث إنّ يعقوب وراءه، بل من حيث إنّه وراء إبراهيم من جهة إسحاق. وعن الشعبي: أنّه قيل له: هذا ابنك؟ قال: نعم من الوراء، وكان ولد ولده. وتوجيه البشارة إليها للدلالة على أنّ الولد المبشّر به يكون منها، ولأنّها كانت عقيمة حريصة على الولد.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ﴾ يا عجباً. وأصله في الشرّ، فأطلق على كلّ أمر فظيع. والألف فيه مبدلة عن ياء الإضافة. وكذلك: يا لهفاً ويا عجباً. ﴿اللهِ وَانَا عَجُوزُ﴾ ابنة تسعين، أو تسعة وتسعين ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ زوجي. وأصله القائم بالأمر. ﴿شَيْخا﴾ ابن مائة وعشرين. ونصبه على الحال، والعامل فيها معنى اسم الاشارة. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيبٌ﴾ يعنى: الولد من الهرمين.

وهو استعجاب من حيث الصادة الّتي أجراها الله، دون القدرة، ولذلك ﴿ قَالُوا ﴾ قالت الملائكة منكرين عليها: ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْوِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرْكَاتُهُ ﴾ بكثرة خيراته النامية الباقية ﴿ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ أي: إنّ هذه وأمثالها ممّا يكرمكم الله به أهل بيت النبوّة، فليست بمكان عجب، فإنّ خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوّة ومهبط المعجزات، وتخصيصهم بعزيد النعم والكرامات، ليس ببدع وعجيب، ولا حقيق بأن يستغربه عاقل، فضلاً عمّن نشأت وشابت في ملاحظة الآيات.

قال في الكشّاف: «قوله: ﴿ وحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ مستأنف على به إنكار التعجّب، كأنّه قيل: إيّاك والتعجّب، فإنّ أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم. وقيل: الرحمة النبوّة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل،

لأنّ الأنبياء منهم، وكلّهم من ولد إبراهيم»(١).

ونصب «أهل البيت» على المدح، أو النداء لقصد التخصيص، كقولهم: اللَّهم اغفر لنا أيّتها العصابة.

روي : «أنّ أمير المؤمنين ﷺ مرّ بقوم فسلّم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه. فقال ﷺ : لا تجاوزوا بنا ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم: ورحمة الله وبركاته أهل البيت».

﴿إِنَّهُ مَعِيدٌ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد ﴿ مَجِيدٌ ﴾ كثير الخير والإحسان.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ ما أوجس من الخيفة، واطمأن قلبه بعرفانهم أنهم الملائكة ﴿ وَجَاعَتْهُ البُسْنَرَى ﴾ بدل الروع ﴿ يُجَادِلُنا ﴾ يجادل رسلنا ﴿ فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ في شأنهم. وكانت مجادلته إيّاهم قوله لهم: إن كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونهم ؟ قالوا: لا . قال: فأربعون ؟ قالوا: لا . فما زال ينقص حتّى قال: فواحد؟ قالوا: لا . فقال: إنّ فيها لوطاً ؟ قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لنجّينّه وأهله.

وقيل: إنّه جادلهم وقال: بأيّ شيء استحقّوا عذاب الاستئصال؟ وهل ذلك واقع لا محالة، أم هو تخويف ليرجعوا إلى الطاعة؟ وبأيّ شيء يهلكون؟ وكيف ينجى المؤمنين؟

وقوله: «يجادلنا» إمّا جواب «لمّا»، جيء به مضارعاً على حكاية الحال. أو لأنّه في سياق الجواب بمعنى الماضي، كجواب «لو». أو دليل جوابه المحذوف، مثل: اجترأ على خطاب رسلنا، أو شرع في جدالهم. أو متعلّق بالجواب أقيم مقامه، مثل: أخذ أو أقبل يجادل رسلنا.

﴿إِنَّ إِبْزَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه ﴿ أَوَّاهُ ﴾ كثير التأوّه من الفرطات، والناسف على صدور ما هو تركه أولى ﴿ مُنِيبٌ ﴾ راجع إلى الله تعالى بما يحبّ ويرضى. وفيه بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقّة قلبه وفرط

⁽١) الكشّاف ٢: ٤١١.

۲۹۸ زیدة التفاسیر ـج ۳

ترحّمه، رجاء أن يرفع العذاب عنهم.

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ على إرادة القول، أي: قالت الملائكة: يا إبراهيم ﴿ أَغْوِضْ عَنْ هَذَا ﴾ عن الجدال، وإن كانت الرحمة ديدنك ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن حكمة، والعذاب نازل بهم لا محالة، وهمو أعلم بحالهم ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ غير مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

وَلَمَّا جَآءَتُ رُسُلُنَا لُوطًا سيٍّ ۚ بهمْ وَضَاقَ بهمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءُهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا فَوْمَ هََٰوُلآ ۚ بَنَاتِي هُنَ أَطْهَرُ لَكُمُ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُون في ضَيْفي ٓ أَلْيسَ منكُمْ رَجُلٌ رَّشيدٌ ﴿ ٧٨ ﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلَمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ منْ حَقَّ وَإِنَّكَ لَتُعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بَكُمْ قَوَّةً أَوْ آوَيَ إِلَى رُكُن شَديد ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَّبِكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ بَقَطْع مَنَ اللَّيل وَلاَ يُلْنَتُ منكُمُ أَحَدٌ إلاَّ امْرَأَتُكَ إِنَّهُ مُصيبُهَا مَآ أَصَابُهُمْ إِنَّ مَوْعدَهُمُ الصُّبُّحُ أَلْيَسَ الصُّبُحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافَلَهَا وَأَمْطَوْنَا عَلَيْهَا حَجَارَةً مِّن سَجِّيل مَّنضُود ﴿ ٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عندَ رَّبكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمينَ بَبعيد ﴿٨٣﴾ ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ ساءه مجيئهم، لأنهم جاؤه في صورة غلمان حسان الوجوه، فظن أنهم أناس، فخاف عليهم خبث قبومه وسوء سيرتهم، فيعجز عن مدافعتهم. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي: سيء وسيئت بإشمام السين الضمّ، وفي العنكبوت(١) والملك(٢). والباقون باختلاس حركة السين.

﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ وضاق بمكانهم صدره. وهو كناية عن شدّة الانقباض، للمجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه. ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، من: عصبه إذا شدّه.

قال الصادق الله : «جاءت الملائكة لوطاً وهو في زراعة قرب القرية فسلّموا عليه، ورأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض. فقال لهم: اثنوا المنزل، فتقدّمهم ومشوا خلفه. فقال في نفسه: أيّ شيء صنعت؟! آتي بهم قومي وأنا أعرفهم، فالتفت إليهم فقال: لتأتون شراراً من خلق الله. وكان قد قال الله لجبرئيل: لا تهلكهم حتى يشهد لوط عليهم ثلاث مرّات. فقال جبرئيل: هذه واحدة. ثمّ مشى لوط ثم التفت إليهم فقال: إنّكم لتأتون شراراً من خلق الله. فقال جبرئيل: هذه لنتان. ثمّ مشى ولمّا بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال مثل ذلك. فقال جبرئيل الله هنة حسنة هذه الثالثة. ثمّ دخل ودخلوا معه حتى دخل منزله، ولمّا رأت امرأته هيئة حسنة صعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا، فدخنت، فلمّا رأوا الدخان أقبلوا يهرعون، فذلك قوله: ﴿ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهُرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يسرعون إليه، كأنّهم يدفعون ودغل الشاحة. من أضافه.

⁽١) العنكبوت: ٣٣.

⁽٢) الملك: ٢٧.

﴿ وَمِن قَبْلُ﴾ أي: ومن قبل ذلك الوقت ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّنَاتِ﴾ الفواحش مع الذكور، فتمرّنوها ولم يستحيوا منها، حتَّى جاوًا يهرعون لها مجاهرين.

﴿ قَالَ يَا قَوْمٍ هَوُلاءِ بَنَاتِي﴾ فتر وجوهن . وكانوا يطلبونهن قبل فلا يجيبهم، لخبثهم وعدم كفاءتهم ، لا لحرمة المسلمات على الكفّار كما قبل ، فإنّه شرع مجدّد في الاسلام . وكذا كان أيضاً في مبدأ الاسلام ، فإنّ رسول الله ﷺ وَقِج ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل أن يسلما وهما كافران ، ثمّ نسخ ذلك . أو مبالغة في تناهي خبث ما يرومونه ، حتّى إنّ ذلك أهون منه . أو إظهار لشدّة غيظه من ذلك كي يرقوا له . وقبل: المراد بالبنات نساء قومه ، فإنّ كلّ نبيّ أبو أمته من حيث الشفقة والتربية .

﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أنظف فعلاً، وأحل عملاً. وهذا مثل قولك: الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه، ولا يلزم أن يكون في المغصوب طيب وحلية. فالأطهر بمعنى كثير النزاهة والطيب في نفسه.

﴿ فَاتَقُوا الله ﴾ في مواقعة الذكران، أو بترك جميع الفواحش ﴿ وَلاَ تَخُزُونِ ﴾ ولا تفضحوني، من الخزي، أو ولا تخجلوني، من الخزاية بمعنى الحياء. ﴿ فِي ضَيْفِي ﴾ في شأن أضيافي، فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلُ رَشِيدٌ ﴾ أي: في جملتكم رجل واحد يهتدي إلى سبيل الرشد وفعل الجميل، والكفّ عن القبيح.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقَّ﴾ من حاجة، لأنّ نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الّذي نحن عليه، فإنّا نرغب عن نكاح الإناث بـنكاح الذكـران ﴿وإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُوِيدُ﴾ وهو إتيان الذكران.

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي: لو قويت بنفسي على دفعكم ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنِ شَدِيدِ ﴾ إلى قوي أتمنّع به عنكم. شبّهه بركن الجبل في شدّته ومنعته. قال جبر ثيل سورة هود، آية ٧٧_٨٣. ٨٣٠

في جوابه: إنَّ ركنك لشديد. وعن النبيَّ ﷺ: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد». وجواب «لو» محذوف، تقديره: لدفعتكم.

وعن الصادق ﷺ: «كابر قوم لوط معه حتّى دخلوا البيت، فصاح به جبرئيل أن يا لوط دعهم يدخلوا، فلمّا دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم، فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا يقولون: النجاء النجاء (٢٠)، فإنّ في بيت لوط سحرة».

﴿ فَاسْدِ بِالْهَلِكَ﴾ بقطع الهمزة من الإسراء. وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن (٣) من السرى. ﴿ بِقِطْعِ مِنَ اللَيْلِ﴾ بطائفة منه. وعن ابن عبّاس: في ظلمة الليل. ﴿ وَلاَ يَنْتَقِبُ مِنْتُمُ أَحَدٌ ﴾ ولا يتخلف، أو لا ينظر إلى ورائه. والأول قول ابن عبّاس، والثاني قول مجاهد. والنهي في اللفظ لـ«أحد» وفي المعنى للوط. وعلى هذا، كأنّهم تعبّدوا بذلك للنجاة بالطاعة في هذه العبادة. ﴿ إِلّا امْرَأْتَكُ ﴾ استثناء

⁽١) القمر: ٣٧.

⁽٢) أي: أسرعوا أسرعوا.

⁽٣) الحجر: ٦٥، طَه: ٧٧، الشعراء: ٥٢، الدخان: ٢٣.

٣٠٢ زيدة التفاسير ـج ٣

من قوله: «فأسر بأهلك».

قال في الأنوار: «وهذا إنّما يصح على تأويل الالتفات بالتخلّف، فاإنّه إن فسر بالنظر إلى الوراء في الذهاب ناقض ذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالرفع على البدل من «أحد». ولا يجوز حمل القراءتين على الروايتين في أنّ الملائكة أمروا لوطاً أن يخلّفها في المدينة مع قومها أو يخرجها، فلمّا سمعت صوت العذاب التفتت وقالت: يما قوماه، فأدركها حجر فقتلها كما قال صاحب الكشّاف(۱) لأنّ القواطع لا يصحّ حملها على المعاني المتناقضة. والأولى جعل الاستثناء في القراءتين من قوله: «لا يلتفت» مئله في قوله: ﴿ مَا فَظُوهُ إِلاَّ قَلِيلً﴾ (۱). ولا يبعد أن يكون أكثر القرّاء على غير الأفصع، ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات، بل عدم نهيها عنه استصلاحاً، ولذلك علّه على طريقة الاستثناف لبيان هلاكها بل عدم نهيها عنه استصلاحاً، ولذلك علّه على طريقة الاستثناء منقطعاً على معهم _ بقوله: ﴿ إِنّهُ مُصِيبُهُا مَا أَصَائِهُمْ ﴾ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع»(۱).

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبْحُ ﴾ كأنّه علّة الأمر بالإسراء. روي: أنّه قال لوط: متى موعد هلاكهم ؟ قالوا: الصبح. فقال: أريد أسرع من ذلك، لضيق صدره بهم. فقالوا: ﴿ النِّسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ فهذا جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابه أو أمرنا بالعذاب. ويـؤيّده الأصل، وجـعل التعذيب مسبّباً عنه بقوله: ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فإنّه جواب «لمّا». وكان حقّه: جعلوا عاليها، أي: الملائكة المأمورون به، فأسند سبحانه إلى نفسه من حيث إنّه

⁽١) الجملة المعترضة من كلام المؤلّف، وليست من كلام البيضاوي، راجع الكشّاف ٢: ١٦٤.

⁽٢) النساء: ٦٦.

⁽٣) أنوار التنزيل ٣: ١١٦.

المسبّب، تعظيماً للأمر، فإنّه روي أنّ جبرئيل الله ادخل جناحه تـحت مـدائـنهم الأربع ورفعها إلى السماء، حتّى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثمّ قلبها عليهم.

﴿ وَأَمْطَزَنَا عَلَيْهَا ﴾ على المدن بعد التقليب، تغليظاً للمقوبة. أو على شذاذها. ﴿ حِجَارَةً مِنْ سِجِيْلٍ ﴾ من طين متحجّر، لقوله: ﴿ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ ((). وهذا معرّب، وأصله: سنك كل. وقيل: إنّه من: أسجله إذا أرسله، أو أدرّ عطبته. والمعنى: من مثل الشيء المرسل، أو من مثل العطيّة في الإدرار، أو من السجل، أي: ممّا كتب الله تعالى أن يعذّبهم به. وقيل: أصله من سجّين، أي: من جهنّم، فأبدلت نونه لاماً. ﴿ مَنضُورٍ ﴾ نضد معدّاً لعذابهم في السماء. أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً، كقطار الأمطار. أو نضد بعضه على بعض، وألصق به.

﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ معلمة للعذاب. وقيل: معلمة ببياض وحمرة، أو بسيماء تتميّز به عن حجارة الأرض، أو باسم من يرمى بها. ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ في خزائنه، أي: فيها علامات يدلّ على أنّها معدّة للعذاب ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظّلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ فإنّهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم. روي أنّ حجراً بقي معلّقاً بين السماء والأرض أربعين يوماً، يتوقع به رجل من قوم لوط كان في الحرم، حتّى خرج منها فأصابه. قال قتادة: وكانوا أربعة ألف ألف.

وفي خاتمة الآية وعيد لكلّ ظالم. وعنه ﷺ أنّه سأل جبر ثيل ﷺ فـقال: «يعني ظالمي أمّتك، ما من ظالم منهم إلّا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة».

وقيل: الضمير للقرى، أي: هي قريبة من ظـالمي مكّــة، يــمرّون بــها فــي

⁽١) الذاريات: ٣٣.

أسفارهم إلى الشام. وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مَنْ إِلَّه غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمُكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنْيَ أَرَاكُم بِخَيْرِ وَإِنْيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْم مُّحيط ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْم أَوْفُواْ الْمَكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقَسْطِ وَلَا تُبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمُ وَلاَ تَعْشُواْ في الأَرْضِ مُفْسدينَ ﴿ ٨٥﴾ بَقَيَّهُ اللَّه خَيْرٌ لَّكُمُ إِن كُتُتُم مُؤْمِنينَ وَمَآ أَنَّا عَلَيْكُم مِحْفيظ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتُوكَ مَا يَعْبُدُ آبَاقَنَا أَوْ أَن نَّفُعَلَ في أَمْوَالنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَليمُ الرَّشيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمُ أَرَأَيُّتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيْنَة مَن رَّبِي وَرَزَقَني مُنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالفَكُمُ إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنْيِبُ ﴿٨٨﴾

ثمّ عطف سبحانه قصّة شعيب على ما تقدّمها من قصص الأنبياء هيكا ، فقال :

﴿ وَإِلَى مَذَيْنَ أَخَاهُمْ شُعَيْدِا ﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم ، أو أهل مدين . وهو بلد
بناه ، فسمّي باسمه . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ
وَالْمِيزَانَ ﴾ أمرهم بالتوحيد أوّلاً ، فإنّه أصل الأمر . ثمّ نهاهم عما اعتادوه من
البخس المنافي للعدل ، المخلّ بحكمة التعاوض . ثمّ علّل لهذا النهي بقوله : ﴿ إِنّي
 أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ بسعة وثروة من الأموال تغنيكم عن البخس والتطفيف . أو بنعمة حقّها

سورة هود، آية ٨٤ ٨٨ ٨٨ ٣٠٥ ٨٨ ...

أن تتفضُّلوا على الناس شكراً عليها، لا أن تنقصوا حقوقهم. أو بسعة من الله، فلا تزيلوها عنكم بما أنتم عليه من البخس.

﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ لا يشذّ منه أحد منكم. وقيل: عذاب مهلك، من قوله: ﴿ وَأَحِيطُ بِفَكْرِهِ ﴾ (١). والمراد عذاب يحوم القيامة، أو عذاب الاستئصال. وأصله من إحاطة العدق. وتوصيف اليوم بالإحاطة _ وهي صفة العذاب _ لاشتماله عليه، فإنّ الزمان يشتمل على ما يحدث فيه.

ثمّ صرّح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضدّه مبالغة، فقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْقُوا الْمِكْيَالُ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي: أوفوا حقوق الناس في المكيلات والموزونات ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل والسويّة من غير زيادة ونقصان، فإنّ الازدياد فوق أصل الإيفاء مندوب غير مأمور به. وفيه تنبيه على أنّه لا يكفيهم الكفّ عن تمدّد التطفيف، بل يلزم السعي في الإيفاء، ولو بزيادة لا يتاتّى الإيفاء بدونها، كفسل اليد من باب المقدّمة.

وقوله: ﴿ وَلاَ تَتَخَسُوا النَّاسَ الشَّيَا عَمْمَ ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإنّه أعمّ من أن يكون في المقدار أو في غيره. وكذا قوله: ﴿ وَلاَ تَعْفُوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فإنّ العثور يعمّ تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد.

وقيل: المراد بالبخس مكس درهم مثلاً، إذ كانوا يأخذون من كلّ شيء يباع شيءًا. كما تفعل السماسرة، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك. والعثرة: السرقة وقطع الطريق والغارة. وفائدة الحال إخراج ما يقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر على المنافقة .

وقيل: معناه: ولا تعثوا في الأرض مفسدين أمر دينكم ومصالح آخر تكم. ﴿ بَقِيَّةُ اللهِ﴾ ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزّه عمّا حرّم عليكم ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ممّا تجمعون بالتطفيف.

⁽١) الكهف: ٤٢.

قال في الكشّاف: «إضافة البقيّة إلى الله من حيث إنّها رزقه الّذي يجوز أن يضاف إليه. وأمّا الحرام فلا يضاف إلى الله. ولا يسمّى رزقاً على مذهبنا»^(۱).

﴿إِنْ كُنتُمْ مُوْمِنِينَ ﴾ بشرط أن تؤمنوا، فإنّ خيريتها باستتباع الشواب مع النجاة، وذلك مشروط بالإيمان، أو إن كنتم مصدّقين لي في قولي لكم، وقيل: البقيّة الطاعة، فإنّه يبقى ثوابها أبداً والدنيا تنفنى، ويؤيّد، قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الطَّالِحَاتُ خَيْرٌ ﴾ (٣).

﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَقِيظٍ ﴾ أحفظكم عن القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها، وإنّما أنا ناصح مبلّغ، وقد أعذرت حين أنذرت. أو لست بحافظ عليكم نعم الله لولم تتركوا سوء صنيعكم.

﴿قَالُوا﴾ إنما أجابوه بعد أمرهم بالتوحيد استهزاءً وتهكّماً بصلاته ﴿يَا شَعْنِهُ اصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَتُرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُفَا﴾ من الأصنام. اشعروا بذلك أنّ مثل قولك لا يدعو إليه داع عقليّ، وأنّ ما دعاك إليه وساوس من جنس ما تواظب عليه. وكان عليه كثير الصلاة، فلذلك جمعوا وخصّوا الصلاة بالذكر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص على الإفراد. والمعنى: أصلواتك الّتي تداوم عليها ليلاً ونهاراً تأمرك بتكليف أن نترك، فحذف المضاف، لأنّ الرجل لا يؤمر بفعل غيره، وإسناد الأمر إلى الصلاة على طريق المجاز، كإسناد النهي إليها في قوله: ﴿إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَن الفَصْلَاءَ وَالْمُنْكَ ﴾ (٣).

﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْدَاءُ ﴾ عطف على «ما». أي: وأن نترك فعلنا ما نشاء في أموالنا. وهذا جواب النهي عن التطفيف والأمر بالإيفاء. وقيل: كان شعيب

⁽١) الكشّاف ٢: ١٩٤.

⁽٢) الكهف: ٦٦.

⁽٣) العنكبوت: ٤٥.

ينهاهم عن تقطيع الدراهم والدنانير، فأرادوا به ذلك. ثمّ قالوا تهكماً به: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتُ السَّفه والغيّ، المتليمُ الرّشبيد﴾ لأنّهم قصدوا بذلك وصفه بضدّ ذلك، وهو غاية السّفه والغيّ، فعكسوا ليتهكّموا به، كما يقال للشحيح: لو أبصرك حاتم لسجد لك. أو علّلوا إنكار ما سمعوا منه واستبعاده بأنّه موسوم بالحلم والرشد المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرْأَيْتُمُ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَهِ﴾ حجّة واضحة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة ﴿ وَرَوْقَنِي مِنْهُ ﴾ من عنده وبإعانته، بلا كدّ منّي في التحصيل ﴿ رِزْقاً حَسَنا ﴾ إشارة إلى ما آتاه الله تعالى من العال الحلال الطيّب غير مشوب بالنجس. وجواب الشرط محذوف، تقديره: فهل يصحّ لي مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانيّة والجسمائيّة أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه؟ وهل يصحّ لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي، والأنبياء لا يبعثون إلّا لذلك؟ وهو اعتذار عمّا أنكروا عليه من تغيير مألوفهم، والنهي عن دين آبائهم.

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِقُكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي: ما أريد أن أسبقكم إلى شهواتكم الله وانحي منها وأختارها لنفسي، فأستبدّ بها دونكم، فلو كانت صواباً لآثرتها ولم أعرض عنها، فضلاً عن أن أنهى عنها. يقال: خالفت زيداً إلى كذا إذا قصدته وهو مولٍ عنه، وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس.

﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِضْلَاحَ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم أموركم بأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ﴿ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ما دمت أستطيع الإصلاح، أي: فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه. و «ما» مصدرية واقعة موقع الظرف، اي: مدّة استطاعتي و تمكّني منه. وقيل: خبريّة بدل من لإصلاح، أي: المقدار اللذي استطعته، أو إصلاح ما استطعته، فحذف المضاف.

ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا الترتيب شأن، وهو التنبيه على أنّ الصاقل يجب أن يراعي في كلّ ما يفعله ويتركه أحد حقوق ثلاثة. أهمّها وأعلاها حقّ الله. وثانيها: حقّ النفس. وثالثها: حقّ الناس. فقال شعيب: كلّ ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به، وأنهاكم عمّا نهيتكم عنه.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ وَما كُونِي مَوقّقاً لإصابة الحقّ والصواب إلّا بهدايته ومعونته. والمعنى: أنّي أطلب التوفيق من ربّي في إمضاء الأمر على سننه، وأطلب منه التأييد والإظهار على عدوه. ﴿ عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ ﴾ وفوضت الأمور إليه، فإنّه القادر المتمكّن من كلّ شيء، وما عداه عاجز في حدّ ذاته، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب السلم بالمبدأ. ﴿ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد. وهو يفيد الحصر بتقديم الصلة على «أنيب»، كتقديم الصلة على «وكلّت».

وَيَا قَوْمٍ لَا يَجْرِمَنَكُمُ شَقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّلُ مَّا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مَنكُم بِبَعِيدِ ﴿٨٨﴾ وَٱسْتَغْفَرُواْ رَبّكُمُ ثُمَّ نُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿ ٩٠﴾ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَلَ نَفْقَهُ كَثِيرًا مَمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاً رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿ ١٩﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهُطِيّ أَعَزُ عَلَيْكُم مِنَ اللهِ وَاتَّخَدْتُمُوهُ وَرَاّ عَكُمْ ظَهْرُّا إِنَّ رَبِي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحيطٌ ﴿ ١٩﴾ وَيَا قَوْمٍ آغْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتُكُمْ إِنِي عَامِلْ سَوُفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيه عَذَابٌ يُخْزِيه وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَّارْتَشْبُواْ إِنِي مَعْكُمُ رَقِيبٌ ﴿ ٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءً أَمُرُنَا نَجَيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعْهُ بِرَحْمَةً مَنَّا وَقَيْدَتُ اللّٰذِينَ آمَنُواْ مَعْهُ بِرَحْمَةً مَنَّا وَأَخَذَت اللّٰذِينَ ظَلَمُواْ الصَيْحَةُ فَأَصُبَحُواْ فِي دَيَارِهِمْ جَاشِينَ ﴿ ٩٤﴾ كَأَن لَمْ وَيُعْدَلُ فِيهَا اللّٰهُ فِيدًا لِمَدّينَ كَمَا بَهِدَتْ ثُمُودُ ﴿ ٩٥﴾

﴿ وَيَا قَوْمٍ لَا يَجْوِمَنَكُمْ شِفَاقِي ﴾ لا يكسبنكم خلافي ومعاداتي ﴿ أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ من الغرق ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ من الربحة . و «أَن » بصلتها ثاني مفعولي «جرم» فيأنه يعدّى إلى واحد وإلى اثنين، ككسب. وعن ابن كثير: لا يُجرمنّكم بضمّ الياء. وهو منقول من المتعدّي إلى مفعول واحد، كما نقل أكسبه المال وكسب المال. والأوّل أقصح، كما أنّ «كسبته مالاً» أفصح من: أكسبته، فإن «أجرم وأكسب» أقلّ دوراناً على ألسنة الفصحاء.

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ زماناً أو مكاناً، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم، وعن قتادة: أن دارهم قريبة من داركم. أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمساوىء، فلا يبعد عنكم ما أصابهم، وإفراد البعيد لأنّ المراد: وما إهلاكهم أو وما هم بشيء بعيد، ولا يبعد أن يسوّى في أمثاله _كقريب وكثير وقليل _بين المذكّر والمؤنّت، لأنّها على زنة المصادر، كالصهيل وهو صوت الفرس، والنهيق صوت العمار.

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ ثُمُّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ داوموا على الاستففار والتوبة عنا أنتم عليه ﴿ وَنُودٌ ﴾ فاعل بهم ما يفعل البليغ المردة لمن يوده من اللطف والاحسان. وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الاصرار.

﴿قَالُوا﴾ قال قوم شعيب له حين سمعوا منه الوعظ والتخويف ﴿ يَاشُعَيْبُ مَا نَفْهُم ﴿ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ﴾ ما نفهم ﴿ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ﴾ كوجوب التوحيد وحرمة البخس، وما ذكرت دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكّرهم. وقيل: قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنّهم لم يلقوا إليه أذهانهم، لشدّة نفرتهم عنه.

﴿ وَإِنَّا لَنَواكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ لا قوّة لك فتمتنع منّا إن أردنا بك سوءً، أو مهيناً لا عزّ لك فيما بيننا. وقيل: أعمى بلغة حمير، كما يسمّى ضريراً، أي: ضرّ بذهاب بصره. وهو مع عدم مناسبته يردّه التقييد بالظرف وهو «فينا»، فإن من كان أعمى يكون كذلك كيف كان غير مختصّ ببعض مكان.

﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ ﴾ قومك وعزّتهم عندنا، لكونهم على ملّتنا لا لخوف من شوكتهم، فإنّ الرهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى التسعة ﴿ لَوَجَعْنَاكَ ﴾ لقتلناك برمي الأحجار، أو بأصعب وجه. ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي: لا تعزّ علينا ولا تكرم، فتمنعنا عزّتك عن الرجم. وهذا من عادة السفيه المحجوج اللجوج يـقابل الحجج والآيات بالسبّ والتهديد.

وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنّه قيل؛ وما أنت علينا بعزيز، بل رهطك هم الأعزّة علينا، ولذلك ﴿قَالَ﴾ في جوابهم ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُ ﴾ أعظم حرمة ﴿عَلَيْكُمْ مِنْ اللهِ ﴾ ؟ ولو قيل: وما عززت علينا، لم يصحّ هذا الجواب.

﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ وجعلتموه كالمنسيّ الصنبوذ وراء الظهر، لا يعبأ به بإشراككم به وإهانتكم رسوله. وهـ و يـحتمل الإنكـار والتـوبيخ. والردّ

والتكذيب. والظهريّ منسوب إلى الظهر، والكسر من تخييرات النسب، كالأمس يقال له: إمسيّ بالكسر.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطُ ﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها، فيجازي عليها.

ثمّ قال تهديداً لهم: ﴿ وَيَا قَوْمِ اغْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة ومقام ومقامة، أو يكون مصدراً من: مكن مكانة فهو مكين. والمعنى: اعملوا قارّين على جهتكم الّتي أنتم عليها من الشرك والشنآن لى، أو اعملوا متمكّين من عداوتى مطيعين لها.

﴿إِنِّي عَامِلُ﴾ على حسب ما يـو تيني الله مـن النصرة والتأييد ويـمكّنني ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَاتِيهِ عَذَابُ يُخْزِيهِ ﴾ يجوز أن تكون «من» استفهاميّة معلّقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنّه قيل: سوف تعلمون أيّنا يأتيه عذاب يخزيه وأيّنا هو كاذب. وأن تكون موصولة قد عمل فيها، كأنّه قيل: سوف تعلمون الشقيّ الّذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب. وذكر الفاء في «فسوف تعلمون» في سورة الأنعام (١) للتصريح بأنّ الإصرار والتمكّن فيما هم عليه سبب لذلك، وحذفها هاهنا الأنعام للنّه جواب سائل قال: فماذا يكون بعد ذلك؟ فهو أبلغ في التهويل.

﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبُ ﴾ عطف على «من يأتيه» لا لأنه قسيم له، كقولك: ستعلم الكاذب والصادق، بل لأنهم لما أوعدوه وكذّبوه قال: سوف تعلمون من المعذّب والكاذب منّي ومنكم. وقيل: كان قياسه: ومن هو صادق، لينصرف الأوّل إليهم والثانى إليه، لكنّهم لمّا كانوا يدعونه كاذباً قال: «ومن هو كاذب» على زعمهم.

﴿ وَارْتَقِبُوا ﴾ وانتظروا ما أقول لكم ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * منتظر. فعيل بمعنى الراقب كالصديم، أو المراقب كالعشير بمعنى المعاشر، أو المرتقب كالرفيع بمعنى

⁽١) الأنعام: ١٣٥.

٣١٢ زيدة التفاسير ـج ٣ المر تفع.

﴿ وَلَمُا جَاءَ أَمُرُنَا نَجُيناً شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعُهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ إنّا ذكره بالواو لا بالفاء كما في قصّة لوط وصالح، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له، بخلاف قصّتي صالح (١١) ولوط(٣)، فإنّه ذكر بعد الوعد، وذلك قوله: ﴿ وعددُ غَيْرٍ مَكُنُوب﴾ (٣) وقوله: ﴿ إِنّ موعدهم الصبح﴾ (٤)، فلذلك جاء بفاء السببيّة.

﴿ وَأَخْذَتِ الَّذِينَ طَلَمُوا الصَّـيْحَةُ ﴾ قيل: صاح بهم جبرئيل ﷺ فهلكوا ﴿ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ميّتين. وأصل الجثوم اللزوم في المكان.

﴿ خَانَ نَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ كأن لم يقيموا فيها ﴿ أَلَا بُعْداً لِعَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ شبّههم بهم، لأنّ عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أنّ صيحتهم كانت من تحتهم، وصيحة مدين كانت من فوقهم، و«بَعِد» بالكسر مخصوص، بمعنى البعد اللّذي يكون بسبب الهلاك، والبُعد بالضمّ مصدر: بَعْدَ وبَعِدَ، والبَعَد بالفتح مصدر المكسور خاصة، يقال: بَعِد بُعداً بعيداً بعيداً بعيداً بحيث لا يرجى عوده.

وَلَقَدُ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ شَيِنٍ ﴿ ٩٦﴾ إِلَى فَرْعَوْنَ وَمَلَنْهِ فَاتَّبِعُوَّا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿ ٧٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِشْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿ ٨٨ ﴾ وَأَتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيُومَ الْقِيَامَةِ بِنْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿ ٩١ ﴾

ثمّ عطف سبحانه قصّة موسى الله على ما تقدّم من قصص الأنبياء، فقال:

⁽۱، ۲) هود: ٦٦ و ۸۲.

⁽٣، ٤) هود: ٦٥ و ٨١.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بالتوراة أو المعجزات ﴿ وَسُلْطَانِ مُبِينِ﴾ هو المعجزة القاهرة المخلصة من التلبيس والتمويه على أتم وجه. وهي العصا. وإفرادها بالذكر لآنها أبهرها. ويجوز أن يراد بهما واحد، أي: ولقد أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وسلطاناً له على نبوّته، واضحاً في نفسه، أو موضحاً نبوّته، فإنّ «أبان» جاء لازماً ومتعدّياً. والفرق بين الآيات والسلطان المبين: أنّ الآية تعمّ الأمارة والدليل القاطع، والسلطان يخصّ بالقاطع، والمبين يخصّ بما فيه جلاء،

﴿ إِلَىٰ فِزِعَوْنَ وَمَلَاءِهِ فَاقَبْعُوا أَمْزَ فِزِعَوْنَ ﴾ فاتّبعوا أمره بالكفر بموسى ﷺ. أو فما اتّبعوا موسى الهادي إلى الحقّ المؤيّد بالمعجزات القاهرة الباهرة، واتّبعوا للهرط جهالتهم _ طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان، الداعبي إلى مالا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل. وذلك أنّه ادّعى الإلهيّة وهو بشر مشهم، وجاهر بالعسف والظلم والشرّ الّذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومشله بمعزل عن الإلهيّة ذاتاً وأفعالاً.

﴿ وَمَا أَمْرُ فِزْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ مرشد. أو ذي رشد. وإنّما هو غيّ محض وضلال صريح. وفيه تجهيل لمتّبعيه حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين.

﴿ يَقَدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إلى النار، كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال. يقال: قدم، بمعنى: تقدّم. والمعنى: أنّ فرعون يمشي بين يدي قومه يوم القيامة على قدميه حتى يهجم بهم على النار، كما كان يقدمهم في الدنيا يدعوهم إلى طريق النار. ﴿ فَأَوْرَدُهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه. ونزّل النار لهم منزلة الماء، فسمّى إتيانها وروداً، تهكّماً. ﴿ وَبِقْسَ الْوِزَدُ الْمَوْرُودُ ﴾ أي: بـئس السورد الذي وردوه، فإنّ الورد إنّما يراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش، والنار بالضدّ.

والآية كالدليل على قوله: «وما أمر فرعون برشيد»، فإنّ من كأن هذه عاقبته

٣١٤ زيدة التفاسير ـج ٣

لم يكن في أمره رشد. أو تفسير له، على أنّ العراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها.

﴿ وَأَتْبِعُوا فِي هَذِهِ أَي: هذه الدنيا ﴿ لَفَنَةٌ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: يلعنون في الدنيا والآخرة ﴿ بِنْسَ النَّوْقُ الْمَرْقُودُ ﴾ بئس العون المعان ، أو العطاء المعطى . وأصل الرفد ما يضاف إلى غيره ليعمده ، فإنّ رفد الدنيا عون ومعين لعذاب الآخرة ومدد له ، ورفد الآخرة معان لرفد الدنيا. وإنّماستاه رفداً ، لأنّه في مقابلة ما يعطى أهل الجنّة من أنواع النعم . والمخصوص بالذمّ محذوف ، أي: رفدهم ، وهو اللعنة في الدارين .

ذَلِكَ مِنْ أَنَبَآءَ الْقُرَى نَقُضُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَاتُمْ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمُ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسُهُمْ فَمَا أَغْنَتُ عَنْهُمْ الْهَيْهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّه مِن شَيْءٌ لِنَا جَآءَ أَمُرُ رَبِكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تُنْبِيبٍ ﴿١٠٠﴾ وَكَذَلِكَ أَخُذُ رَبِكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِي ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ فِي أَخُذُ رَبِكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِي ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخُذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَهُ لَكُ النَّاسُ وَذَلِكَ يُومٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا نُوَخَرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُود ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَثَّمُ نَفْسٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا نُوَخَرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُود ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَثَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَعَنْهُمْ شَعِي وَسَعَيدٌ ﴿١٠٠﴾ فَأَمَّا الذينَ شَعُواْ فَفِي النَارِ لَهُمْ فِيهَا رَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿ وَ١٠٠﴾ خَالدينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا

شَاءَ رَبُكَ إِنَّ رَبِّكَ فَعَالٌ لِمَا يُوبِدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذَيِنَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَّبُكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذِ ﴿١٠٨﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴿ ذَٰلُكَ النَّبا ۚ ﴿ مِنْ انْبَاءِ ﴾ بعض ﴿ الْقُرَى ﴾ أنباء بعض القرى المهلكة ﴿ نَقُصُهُ عَلَيْكَ ﴾ مقصوص عليك ﴿ مِنْهَا ﴾ من تلك القرى ﴿ قَائِمٌ ﴾ باقي، كالزرع المحصود. وهذه الجملة مستأنفة لا محل لها. وقيل: حال من الهاء في «نقصه». وليس بصحيح، إذ لا واو ولا ضمير.

﴿ وَمَا طَلَفْنَاهُمْ ﴾ بإهلاكنا إيّاهم ﴿ وَلَحِنْ طَلَقُوا الْنَفْسَهُمْ ﴾ بأن عرضوها للهلاك بارتكاب ما يوجبه ﴿ فَقَا اغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ فما قدرت أن تدفع عنهم ﴿ آلِهَتُهُمُ اللَّبِي يَدْعُونَ ﴾ يعبدونها ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ شيئاً من بأس الله . هي حكاية حال ماضية . ﴿ لَمَّا جَآءَ الحُرُ رَبُّكَ ﴾ أي: عذابه . و«لمّا» منصوب ب«مَا أَغْنَتْ » . ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَعْبِيدٍ ﴾ هلاك وتخسير . يقال: تبّ إذا خسر ، وتبّبه غيره إذا أوقعه في الخسران .

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مرفوع المحلّ، أي: مثل ذلك الأخذ ﴿ الْخَذَ وَالْخَذَ الْقَرَىٰ ﴾ اخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أي: أهلها ﴿ وَهِيَ طَالِمَةَ ﴾ حال من القرى. وهي في الحقيقة لأهلها، لكنّها لنّا أقيمت مقامه أجريت عليها، وفائدة هذه الحال الإشعار بأنّهم أخذوا لظلمهم، وإنذار كلّ ظالم ظلم نفسه أو غيره من وخامة العاقبة. ﴿ إِنَّ الْخَذَهُ أَلِيمُ شَوِيدَ ﴾ وجيع غير مرجو الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قصّ الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبها، أو إلى

ما نزل بالأمم الهالكة ﴿ لَآيَةُ﴾ لعبرة ﴿ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ﴾ يعتبر به عظمته، لعلمه بأنّ ما حاق بهم انموذج منا أعدّ الله تعالى للمجرمين في الآخرة، أو ينزجر به عن موجباته، لعلمه بأنّها من إله مختار، يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء، فإنّ من أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم - كالفلاسفة - لم يقل بالفاعل المختار، وجعل تلك الوقائع لأسباب فلكيّة اتفقت في تلك الأيّام، لا لذنوب المهلكين بها. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِعَنْ يَخْشَنَى ﴾ (١٠).

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، وإن لم يذكر صريحاً لكن دلَّ عليه قوله: «عذاب الآخرة» وقوله: ﴿ يَوْمُ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ . والتغيير من الفعليّة إلى الاسميّة للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنّ الثبات من شأنه لا محالة، وأنّ الناس لا ينفكّون عن هذا اليوم، فهو أبلغ من قوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ (١٦). ومعنى الجمع له: الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة.

﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمَ مَشْمُهُودَ ﴾ أي: مشهود فيه أهل السماوات والأرضين بحيث لا يغيب عنه غائب، فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به. ولو جعل اليوم مشهوداً في نفسه لا مشهوداً فيه، لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه عن سائر الايّام، فإنّ سائرها كذلك.

ثمّ أخبر سبحانه عن اليوم المشهود، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿ وَمَا نَوْخُرُهُ ﴾ أي: ذلك اليوم ﴿ إِلّا لِأَجْلِ مَعْدُودِ ﴾ إلّا لانتهاء مدّة معدودة متناهية، على حـذف المضاف وإرادة مدّة التأجيل كلّها بالأجل، من زمان حياتهم إلى المقدّر، لا منتهاها، فإنّه غير معدود.

⁽١) النّازعات: ٢٦.

⁽٢) التغاين: ٩.

﴿ يَوْمَ بِأَتِ﴾ أي: اليوم، كقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَأْتِيهُمُ السَّاعَةُ ﴾ (١). والمراد بإتيانه إتيان هوله وشدائده، إذ لولا هذا التقدير لزم أن يكون الزمان ظرفاً لنفسه. أو المراد: يأتي الله، أي: أمره تعالى، كقوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيهُمُ اللهُ ﴾ (٢).

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة: يأتِ بحذف الياء، اجتزاءً عنها بالكسرة.

وانتصب الظرف بدأذكر» أو بقوله: ﴿ لاَ تَحَتَّمُ نَفْسُ ﴾ لا تتكلّم بما ينفع وينجي، من جواب أو شفاعة ﴿ إلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ إلّا بإذن الله تعالى، كقوله: ﴿ لاَ يَتَكَلّمُونَ وَلاَ يُؤذُنُ لَهُمْ الْنِنَ لَهُ الرَّحْفِنُ وَلاَ يُؤذُنُ لَهُمْ أَنِنَ لَهُ الرَّحْفِنُ وَلاَ يُؤذُنُ لَهُمْ فَيَعْتَيْرُونَ ﴾ (عا في موقف آخر، فإنّ ذلك اليوم يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي فيعضها يجلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفّون عن الكلام، فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يكفّون عن الكلام، فلا يؤذن لهم، ونسهد بعضها يؤذن لهم فيتكلّمون، وفي بعضها يختم على افواههم، وتكلّم ايديهم وتشهد أرجلهم. أو المأذون فيه هي الجوابات الحقّة، والممنوع عنه في قوله: «ولا يؤذن لهم» هي الأعذار الباطلة.

﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ الضمير لأهل الموقف. ولم يذكروا، لأنَّ ذلك معلوم مدلول عليه بقوله: «لا تكلّم نفس». أو للناس في قوله: «مجموع له الناس». ﴿ شَقِيُّ ﴾ وجبت له النار بإساءته ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ وجبت له الجنّة بإحسانه.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا قَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ وهو إخراج النَّفَس ﴿ وَشَنهِيقٌ ﴾ وهو ردّ النّفس. واستعمالهما في أوّل النهيق وآخره. والمراد بهما الدلالة على شدّة كربهم وغمّهم، وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحبس فيه روحه،

⁽١) يوسف: ١٠٧.

⁽٢) البقرة: ٢١٠.

⁽٣) النبأ : ٣٨ .

⁽٤) المرسلات: ٣٥_٣٦.

۳۱۸ زیدة التفاسیر ـ ج ۳

أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ليس ذلك لارتباط دوامهم في النار بدوامهما، فإن النصوص القاطعة دالة على تأبيد دوامهم وعلى انقطاع دوامهما، فالمراد منه التعبير عن التأبيد والمبالغة بما كان العرب يعبّرون به عنه على سبيل التمثيل، كما قالوا: هو دائم ومؤبّد ما دام جبل قبيس باقياً، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأبيد عندهم، ومعلوم أنّها فانية. وعلى تقدير الارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السماوات والأرض زوال عذابهم، ولا من دوامه دوامهما، إلّا من قبيل مفهوم المخالف، ودلالة المفهوم ليست بحجة على المذهب الصحيح. وعلى تقدير حجّيته لا يقاوم المنطوق الصريح القاطع الدالً على التأبيد المؤبّد، وعدم الانقطاع.

أو المراد سماوات الآخرة وأرضها، ويدلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ يَسَوْمُ تُنِئَلُ الْأَرْضُ غَنْيَرُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ (١٠، وهما مخلوقتان للأبد. وأيضاً لابدّ لأهل الآخرة من مظلَّ ومقلَّ. وكلِّ ما علاك وأظلَّك سماء، وكلِّ ما أقلَّك أرض.

وهذا القول مرجوح، من حيث إنّه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلائق وجوده ودوامه، ومن عرفه فإنّما يعرفه بما يدلّ على دوام الثواب والعقاب، فكيف يجوز له التشبيه، إذ لابدّ من وجود الشبه فيه؟

﴿إِلَّا هَا شَمآ ةَ رَبُكَ﴾ استثناء من الخلود في النار، لأنّ بعضهم - وهم فساق الموحّدين - يخرجون منها، وذلك كافٍ في صحّة الاستثناء، لأنّ زوال الحكم عن الكلّ يكفيه زواله عن البعض. وهم المراد بالاستثناء الثاني، فإنّهم مفارقون عن الجنّة أيّام عذابهم، فإنّ التأبيد من مبدأ معيّن ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم.

⁽١) إبراهيم: ٤٨.

سورة هود، آية ۱۰۰ - ۱۰۸ - ۱۰۸ - ۲۱۹

وهذا مرويّ عن ابن عبّاس، وجابر بن عبدالله، وأبي سعيد الخدري، وقتادة. والسدّي، والضحّاك، وجمع من المفسّرين.

إن قيل: فعلى هذا لم يكن قوله: «فمنهم شقيّ وسعيد» تقسيماً صحيحاً، لأنّ شرط التقسيم أن تكون صفة كلّ قسم منتفية عن قسيمه.

قلنا: ذلك الشرط من حيث التقسيم، لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع، وهاهنا المراد مانع الخلق، فإنّ المعنى المراد: أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين، وحالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة، وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين.

وقيل: الاستثناء من الخلود باعتبار أنّ أهل النار لا يخلّدون في عذاب النار وحده، بل يعذّبون بالزمهرير، وبأنواع أخر من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلّها، وهو سخط الله عليهم وخسته لهم وإهانته إيّاهم، كما أنّ أهل الجنّة لهم سوى الجنّة ما هو أكبر منها وأجلّ موقعاً منهم، وهو رضوان الله، كما قال: ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنِينَ مَنْ اللهِ أَنْهُارُ وَمَسَاعِنَ طَيّبَةً في جَنّاتِ عَذِي وَرِضُوانَ مِنَ اللهِ أَخْبَرُ ﴾ [١٠]. فلهم ما يتفضّل الله به عليهم سوى ثواب الجنّة مما لا يعرف كنهه إلّا هو. فهو المراد من الاستثناء. والدليل عليه قوله: ﴿إِنَّ رَبِّكَ فَعَالُ لِمَا يُولِيدُ المَّذَابِ المخلّد، كما يعطي أهل الجنّة عطاءه الذي لاني لا انقطاع له.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ بطاعات الله ، وانتهائهم عن المماصي ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴾ غير مقطوع . وهو تصريح بأنّ الثواب لا ينقطم .

وقيل: «إلّا» بمعنى: سوى، كقولك: علىّ ألف إلّا الألفين القديمين. والمعنى:

⁽١) التوبة: ٧٧.

سوى ما شاء ربِّك من الزيادة الَّتي لا آخر لها على مدَّة بقاء السماوات والأرض.

وقرأ حمزة وحفص: سُعِدُوا على البناء للمفعول، من: سعده الله تعالى، بمعنى: أسعده. و«عطاءً» نصب على المصدر المؤكّد، أي: أعطوا عطاءً، أو الحال من «الجنّه»، فإنّه مفعول بواسطة.

فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَا يَعْبُدُ هَّوُلاَءٍ مَا يَعْبُدُونَ اِلاَّكَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوسٍ ﴿١٠٩﴾

ولمّا قصّ سبحانه قصص الكفّار، وما أحلّ بهم من نقمه، وما أعدّ لهم من عذابه، قال تسلية لرسوله، وعدة بالانتقام منهم، ووعيداً لهم: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِزِيَةٍ﴾ عذابه، قال تسلية لرسوله، وعدة بالانتقام منهم، ووعيداً لهم: ﴿فَقَا يَغْبُدُ هَوْلَاءُ﴾ «ما» شكّ بعد ما أنزل إليك من مآل الناس، من الشقاوة والسعادة ﴿مِقَا يَغْبُدُ هَوْلاء المشركين، في أنّها ضلال مؤدّ إلى مثل ما حلّ بمن قبلهم مين قصصنا عليك سوء عاقبة عبادتهم. أو موصولة، أي: من حال ما يعبدونه في أنّه يضرّ ولا ينفع.

﴿ مَا يَغَبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَغَبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ استئناف، معناه: تعليل النهي عن المرية، أي: هم وآباؤهم سواء في الشّرك، ما يعبدون إلاَّ كعبادة آبائهم، على تقدير الموصوليّة. المصدريّة. أو ما يعبدون شيئاً إلاّ مثل ما عبدوه من الأوثان، على تقدير الموصوليّة. وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك، فسيلحقهم مثله، لأنّ التماثل في الأسباب وهي عبادة الأوثان هنا _ يقتضي التماثل في المسبّبات، وهي العقوبات. ومعنى «كما يعبد»: كما كان يعبد، فحذف لدلالة «من قَبْلُ» عليه.

﴿ وَإِنَّا لَمُوفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظَّهم من العذاب كما وفّينا أباءهم. أو من الرزق، فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه. ﴿ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حال من النصيب، لإفادة معنى التوفية حقيقة، ورفع توهّم المعنى المجازي، فإنّك تقول:

وَلَقَدُ آتَئِنَا مُوسَى الْكَتَابَ فَاخْتُلُفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلَمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَقُضِيَ بَئِنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكَّ مِنْنُهُ مُرِبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كَلَاَّ لَنَا لَيُوفِّيَنَهُمْ رَبُّك أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿ ١١١﴾

ثمّ بيّن أنَّ تكذيب هؤلاء الكمَّار بالَّذي آتيناك، كـتكذيب أولئك بـالكتاب الَّذي آتيناه موسى، فقال: ﴿نَقَدْ آتَئِنا مُوسَىٰ الْكِتَابُ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فآمن بـه قـوم وكفر به قوم، كما اختلف هؤلاء في القرآن.

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعني: كلمة إنظار العذاب إلى يوم القيامة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين قوم موسى، أو بين قومك، بإنزال ما يستحقّه المبطل ليتميّز به عن المحقّ ﴿ وَإِنْهُمْ ﴾ وإن كفّار قومك ﴿ لَفِي شَكَّ مِنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الربة.

﴿ وَإِنَّ كُلَّا﴾ التنوين عوض المضاف إليه، أي: وإن كلَّ السختلفين فيه، المؤمنين منهم والكافرين. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف (١) مع الإعمال، اعتباراً للأصل. ﴿ لَمَّا تَشُوقُيَنَهُمْ ﴾ ربّهم ﴿ وَبُكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ اللام في «لمّا» موطنة للقسم، والثانية للتأكيد، أو بالعكس. و«ما» مزيدة بين اللامين للفصل. والمعنى: وإنّ جميعهم والله ليوفينهم ربّك جزاء أعمالهم، من حسن وقبح، وإيمان وكفر.

وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: لمّا بالتشديد، على أنّ أصله: لمن ما، فقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميمات، فحذفت أولاهنّ. والمعنى: لمن الّذين

⁽١) أي: بتخفيف «إنَّ».

۳۲۷ زیدة التفاسیر ـج ۳ یوفَینّهم ربّك جزاء أعمالهم.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

فَاسْتَقِمْ كُمَا ۚ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوُّا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

ولمّا بيّن أمر المختلفين في التوحيد والنبوّة، وأطنب في شسرح الوعمد والوعيد، أمر رسوله بالاستقامة مثل ما أمر بها، فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: فاستقم مثل الاستقامة الّتي أمرت بها، على جادّة الحقّ، غير عادل عنها.

وهذه الاستقامة شاملة للاستقامة في العقائد، كالتوسّط بين التشبيه والتعطيل، بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، وفي الأعمال، من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات، من غير إفراط وتفريط مفوّت للحقوق ونحوها. وهي في غاية العسر، ولذلك قال ﷺ: «شيّبتني سورة هود»، كما نقل عن ابن عبّاس أنّه قال: ما نزلت آية كانت أشدٌ ولا أشقٌ على رسول الله ﷺ من هذه الآية. ولهذا قال: «شيّبتني سورة هود والواقعة وأخواتهما».

وروي أنّ بعض أصحابه قال: «قد أسرع فيك الشيب. فقال: شيّبتني سورة هود. فقال: ما الذي شيّبك منها، أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله: «فاستقم كما أمرت».

وعن الصادق على: «فاستقم كما أمرت» معناه: افتقر إلى الله بصحّة العزم» (١٠٠. ﴿ وَمَن شَابٌ مَعْكَ ﴾ عبطف عبلى المستكن في «استقم» وإن لم يتوكّد بمنفصل، لقيام الفاصل مقامه. والمعنى: فاستقم أنت ليستقم من تاب من الشرك

⁽١) رواه في الكشّاف ٢: ٤٣٣.

﴿ وَلَا تَطْفُوا ﴾ ولا تخرجوا عمّا حدّ لكم من حدود الله ﴿ إِنَّــُهُ بِـِ مَا تَــَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فهو مجازيكم عليه. وهو في معنى التعليل للأمر والنهي.

وفي الآية دليل على وجوب اتّباع النصوص من غير تصرّف وانحراف، بنحو قياس واستحسان.

وَلاَ تَرْكُتُواْ لِلِى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِن دُونِ اللّهِ مِنْ أُولِيَآءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفي النَّهَارِ وَزَلَّفًا مِنَ اللَّيلِ لِنَّ الْمُعَسَنَاتُ يُذْهُبْنَ السَّيَّاتِ ذَلِكَ ذَكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرُ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسَنِينَ ﴿ ١١٥﴾

ثمّ نهى الله سبحانه عن المداهنة في الدين والميل إلى الظالمين، فقال: ﴿ وَلَا مَرْكُنُوا إِلَى الظّالمين، فقال: ﴿ وَلَا مَرْكُنُوا إِلَى الْذِينَ وَجَدَ مَنهم الظّلم ادنى ميل، فإنّ الركون هو الميل اليسير، كالتزيّي بزيّهم، وتعظيم ذكرهم، وكذا الرضا بفعلهم، ومما العين إلى زهرتهم ﴿ فَتَتَسَكُمُ الشَّالُ ﴾ بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمّى ظلماً كذلك، فما ظنّك بالركون إلى الظالمين _ أي: الموسومين بالظلم _ ثمّ بالميل إليهم كلّ الميل، ثمّ بالظلم نفسه، والانهماك فيه؟!

وقال سفيان: في جهنّم وادٍ لا يسلكها إلّا القرّاء الزائـرون للـملوك. وعـن الأوزاعي: مامن شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً. وعن محمّد بن مسلمة: الذباب على العذرة أحسن من قارىء على باب هؤلاء. ٣٢٤ زيدة التفاسير ـ ج ٣

وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يعصى الله فسي أرضه».

وقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برّيّة هل يسقى شربة ماء؟ قال: لا. فقيل: يموت؟ فقال: دعه يموت.

والآية أبلغ ما يتصوّر في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة الّتي هي العـدل، فـإنّ الزوال عـن الاستقامة بالميل إلى أحد طرفى إفراط وتفريط.

﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيْآءَ ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم. والواو للحال من قوله: «فتمسكم النّار» أي: فتمسّكم النار وأنتم على هذه الحال. ﴿ فُمُ لا تَنْصَرُونَ ﴾ أي: ثمّ لا ينصركم الله، إذ سبق في حكمه أن يعذّبكم ولا يبقي عليكم. و «ثمّ» لاستبعاد نصره إيّاهم، وقد أوعدهم بالعذاب عليه وأوجبه لهم.

قال في المجمع: «الركون إلى الظالمين المنهيّ عنه هو الدخول معهم في ظلمهم، وإظهار الرضا بفعلهم، أو إظهار موالاتهم. فأمّا الدخول عليهم أو مخالطتهم ومعاشرتهم دفعاً لشرّهم فجائز. وقريب منه ما روي عن أئتتنا بيجيّ (١٠).

﴿ وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَقَيِ النَّهَارِ ﴾ غدوة وعشية. وانتصابه على الظرف، لأنّه مضاف إلى النهار، كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار وأوّله وآخره. ﴿ وَزُلُفاً مِنَ اللَيْلِ ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، فإنّه من: أزلفه إذا قربه. وهو جمع زلفة.

وصلاة الغداة صلاة الصبح، لأنّها أقرب الصلوات من أوّل النهار. وصلاة العشيّة العصر. وقيل: المغرب. وقيل: الظهر والعصر، لأنّ مـا بـعد الزوال عشــيّ.

⁽١) مجمع البيان ٥: ٢٠٠.

وصلة الزلف: العشاء الآخرة. وقيل: صلاة طرفي النهار: الغداة والظهر والعصر.وصلاة زلف الليل: المغرب والعشاء الآخرة.

وعن رسول الله ﷺ: «المغرب والعشاء زلفتا الليل».

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذَهِبْنَ السَّيِّقَاتِ﴾ يكفّرنها. قال أكثر المفسّرين: إن الصلوات الخمس تكفّر ما بينها من الذنوب، لأنَّ الحسنات معرَّفة باللام. وقد تنقدّم ذكر الضلوات.

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى قوله: «فاستقم» وما بعده. وقيل: إلى القرآن. ﴿ ذِخْــَوْى لِلذَّاكِرِينَ﴾ عظة للمتعظين.

قيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري، كان يبيع التمر، فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إنّ في البيت أجود من هذا التمر. فذهبت إلى بيته، فضمتها إلى نفسه وقبّلها. فقالت له: اتّق الله. فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل. فقال: أنظر أمر ربّي. فلمّا صلّى صلاة العصر نزلت هذه الآية. فقال: نعم، اذهب فأنّها كفّارة لما عملت.

وروى الواحدي بإسناده عن حمّاد بن سلمة، عن عليّ بن زيد، عن أبي عثمان، قال: «كنت مع سلمان تحت شجرة، فأخذ غصناً يابساً منها فهزّه حتّى تحاتّ ورقه، ثمّ قال: يا أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إنّ المسلم إذا توضّاً فأحسن الوضوء ثمّ صلّى الصلوات الخمس تحاتّت خطاياه كما يتحاتّ هذا الورق، ثمّ قرأ هذه الآية: «وأقم الصلاة» إلى آخرها»(١).

وبإسناده عن أبي أمامة قال: «بينما رسول الله عليه المسجد ونحن قعود معه إذ جاءه رجل فقال: هل شهدت معه إذ جاءه رجل فقال: هل شهدت

⁽١) الوسيط ٢: ٥٩٥_٥٩٦.

٣٢٦ زيدة التفاسير ـ ج ٣

الصلاة معنا؟ قال: نعم، يا رسول الله. قال: فإنّ الله قد غفر لك حـدّك، أو قـال: ذنبك»(١).

وبإسناده عن الحارث، عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: «كنّا مع رسول الله في المسجد ننتظر الصلاة، فقام رجل فقال: يا رسول الله إنّي أصبت ذنباً. فأعرض عند. فلمّا قضى النبيّ ﷺ الصلاة قام الرجل فأعاد القول. فقال النبيّ ﷺ أليس قد صلّيت معنا هذه الصلاة وأحسنت لها الطهور؟ قال: بلى. قال: فإنّها كفّارة ذنك»(٢).

ورووا عن أبي حمزة الثمالي قال: «سمعت أحدهما ﷺ يقول: إنّ عليّاً ﷺ أقبل على الناس فقال: أيّ آية في كتاب الله أرجى عندكم؟

فقال بعضهم: ﴿إِنَّ اللهُ لَا يَفْوُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءَ﴾ "ا. فقال: حسنة، وليست إيّاها.

وقال بعضهم: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ (4).

قال: حسنة، وليست إيّاها.

وقال بعضهم : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَقُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ (٥) الآية.

فقال: حسنة، وليست إيّاها.

وقال بعضهم: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةُ أَوْ ظُلَمُوا ﴾ (١) الآية.

قال: حسنة، وليست إيّاها.

⁽١) الوسيط ٢: ٥٩٥ _ ٥٩٥ .

⁽٢) الرسيط ٢: ٥٩٥.

⁽٣، ٥) النساء: ٤٨ و ١١٠.

⁽٥) الزمر: ٥٣.

⁽٦) آل عمران: ١٣٥.

قال: ثمّ أحجم (١) الناس. فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟

فقالوا: لا والله ما عندنا شيء.

قال: سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: أرجى آية في كتاب الله: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ». وقرأ الآية كلّها. يا عليّ، والذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً إنّ أحدكم ليقوم من وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه، لم ينفتل (٢٢ وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أمّه، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك، حتى عدّ الصلوات الخمس.

ثمّ قال: يا عليّ إنّما منزلة الصلوات الخمس لأمّتي كنهر جارٍ على باب أحدكم، فما يظنّ أحدكم لو كان في جسده درن^(۱۲)، ثمّ اغتسل في ذلك النهر خمس مرّات، أكان يبقى في جسده درن؟! فكذلك والله الصلوات الخمس لأمّتى».

وقيل: «إنّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّمَاتِ» معناه: أنّ الدوام على فعل الحسنات يدعو إلى ترك السيّمات، فكأنّها تذهب بها.

وقيل: إنَّ المراد بالحسنات التوبة، فإنَّها تذهب السيَّنات، بأن تسقط عقابها. لأنَّه لا خلاف في أنَّ المقاب يسقط عند التوبة.

﴿ وَآصَ بِيرَ ﴾ على الطاعات، وعن المعاصي ﴿ فَإِنَّ اللهُ لَا يُضِيعُ أَجْنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ عدول عن المضمر ليكون كالبرهان على المقصود _ والَّذي هو الأمر بالصبر _ ودليلاً على أنَّ الصلاة والصبر إحسان دائماً.

وهذه الآيات اشتملت على الاستقامة، وإقامة الصلوات، والانستهاء عسن الطغيان، وعن الركون إلى الظلمة، وغير ذلك من الحسنات.

⁽١) أي : كفُّوا وامتنعوا.

⁽٢) أي: لم ينصرف.

⁽٣) الدَرَن: الوسخ.

٣٢٨ زيدة التفاسير _ ج ٣

فَلُولاً كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُواْ بَقِيَة يَنْهُونَ عَنِ الْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ اِلاَّ قَلِيلاً مَمَّنْ أَنَجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱنَّبَعَ الَّذِينَ طَلْمُواْ مَآ أَتُرِفُواْ فِيهِ
وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظْلَمٍ وَأَهْلُهَا
مُصْلحُونَ ﴿١١٧﴾

ولمّا ذكر سبحانه إهلاك الأمم الماضية والقرون الخالية، عقّب ذلك بأنّهم اتوا في هلاكهم من قبل نفوسهم، ولوكان فيهم مؤمنون يأمرون بالصلاح وينهون عن الفساد لما استاصلناهم رحمة منّا، ولكنّهم لمّا عشهم الكفر استحقوا عناب الاستئصال، فقال بياناً لذلك: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ﴾ أي: فهلا كان. وقد حكوا عن الخليل كلّ «لولا» في القرآن فمعناها: هلا، إلّا الّتي في الصافّات (١١) ﴿ لَوْلاَ ان تَدَارَكُهُ بِغَعْهُ مِنْ رَبِّهِ لَنُهِدَ بِالْعَرَاءِ﴾ (١) ﴿ وَلَوْلاً ان تَدَارَكُهُ بِغَمْهُ مِنْ رَبِّهِ لَنُهِدَ بِالْعَرَاءِ﴾ (١) ﴿ وَلَوْلاً ان شَبِّتْنَاكَ لَـقَدْ جِدْتَ مِنْ رَبِّهِ لِنُهِ إِلْمُواءً فَي المَا مَنْ مَنْ رَبِّهِ الْمَرَاءِ﴾ (١) ﴿ وَلَوْلاً ان شَبِّتْنَاكَ لَـقَدْ جِدْتَ مِنْ رَبِّهِ الْمُؤْمِدُونَ ﴾ (١) ﴿ وَلَـوْلاً ان شَبِّتْنَاكَ لَـقَدْ جِدْتَ مَنْ رَبِّهِ الْمَاءِ اللهِ اللهِي اللهِ الل

﴿ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيْةٍ ﴾ من الرأي والمقل، أو أولوا فضل وخير. وإنّما سمّي بقيّة لأنّ الرجل يستبقي أفضل ما يخرجه وأجوده، فصار مثلاً في الفضل والجودة، ومنه يقال: فلان من بقيّة القوم، أي: من خيارهم. ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى البقوى، كالتقيّة بمعنى التقوى، أي: ذوو بقاء على أنفسهم

⁽١) الصافّات: ٥٧.

⁽٢) القلم: ٤٩.

⁽٣) الفتح: ٢٥ .

⁽٤) الإسراء: ٧٤.

﴿ يَنْهُوْنَ عَنِ الفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمْنَ الْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لكن قليلاً منهم أنجيناهم، لأنهم كانوا كذلك. ولا يصحّ اتصال «إلاّ» إلّا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض.

﴿ وَاتَّبِعَ﴾ عطف على مضمر دلّ عليه الكلام، إذ المعنى: فعلم ينهوا عن الفساد واتبع ﴿ اللَّهِينَ ظَلْمُوا مَا أَثْرِفُوا فِيهِ﴾ ما أنعموا فيه من الشهوات، واهتمّوا بتحصيل أسبابها، وأعرضوا عمّا وراء ذلك ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ عطف على «اتّبع» أو اعتراض. ومعنى «مجرمين»: كافرين. كأنّه أراد أن يبيّن ما كان سبباً لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشو الظلم فيهم، واتباعهم للهوى، وترك النهي عن المنكرات، مع الكفر.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ ﴾ وما صحّ وما استقام ﴿ لِيُهْلِكَ الدَّوْقَ بِخَلَلْمٍ ﴾ اللام لتأكيد النفي. والظلم بمعنى الشرك، أي: لا يصحّ في حكمته أن يبهلك أهل القرى بسبب شركهم ﴿ وَالْفَلْهُا مُصْلِحُونَ ﴾ يتعاطون الحقّ فيما بينهم، ولا يضمّون إلى شركهم فساداً وتباغياً، كما روي عن النبي الشي الله قال: «وأهلها مصلحون» أي: أنصف بعضهم بعضاً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه، ومن ذلك قدّم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقّ العباد. وقيل: الملك يبقى مع الكفر، ولا يبقى مع الظلم.

وقيل: معناه: وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم منه، ولكن إنّما يهلكهم بظلمهم لأنفسهم، كما قال: ﴿ إِنَّ اللهُ لاَ يَطْلِمُ النَّاسُ شَيْئِكُ ١٠٠).

وقيل: المعنى لا يؤاخذهم بظلم واحد مع أنَّ أكثرهم مصلحون، ولكن إذا عمّ الفساد وظلم الأكثرون عذَّبهم.

⁽١) يونس: 12.

وَلُوْ شُمَاءَ رَبُكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَرَالُونَ مُخْلَفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتُ كَلِّمَةُ رَبِكَ لَأَمْلاَنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلاَّ نَقُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَبْبَاءَ الرُّسُلِ مَا نَشَبَتُ بِهِ فَوَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَقُل لَلَّذِينَ فَوَالَاكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمُوْعِظَةٌ وَذَكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ وقُل لَّلَذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا فَي هَذِهِ الْحَقُّ وَمُؤْعِظَةٌ وَذَكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ وَلَّل لَلْذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا أَيْنَا مُنتَظرُولَ إِنَّا مُنتَظرُولَ وَلَا لَكُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَلْهِ مُؤْجِعُ الْأَمْرُكُلُّهُ فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلُ وَ١٤٢ عَلَى مَنْ الْمُولِي اللَّهُ وَمَا رَبُكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن كمال قدرته، فقال: ﴿ وَلَوْ شَمَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أَمَّةُ وَاجدة، أي: ملّة واحدة، أي: ملّة واحدة، أي: ملّة واحدة، أوهي ملّة الاسلام، كقوله: ﴿ إِنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ أَمْةٌ وَاجدَدَهُ ﴿ (١). وذلك بأن يخلق في قلوبهم العلم بأنّهم لو راموا غير ذلك لمنعوا منه. ولكن ذلك ينافي التكليف، ويبطل الفرض بالتكليف، لأنّ الفرض استحقاق الثواب، والإلجاء يمنع من استحقاق الثواب، فلذلك لم يشأ الله ذلك، بل مكّنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، ليستحقوا الثواب، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل.

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي: في الأديان. يهوديّ ونصرانيّ ومجوسيّ وغير ذلك ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلّا ناساً من المؤمنين. فإنّه سبحانه هداهم ولطف بهم.

⁽١) الأنساء: ٩٢.

فاتّفقوا على ما هو أصول دين الحقّ. غير مختلفين فيه. والسعنى: ولا يــزالون مختلفين بالباطل إلّا من رحم الله بفعل اللطف لهم. وهم الّذين يؤمنون بجميع أنبيائه ورسله وكتبه. فإنّ من هذه صورته ناج من الاختلاف بالباطل.

﴿ وَلِدَٰلِكَ ﴾ إِشَارَة إلى ما دلَّ عَليه الكلام الأوّل. يعني: ولذلك التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ ليثيب الذي يختار الحقّ بحسن اختياره، ويعاقب من يختار الباطل بسوء اختياره.

أو إشارة إلى الرحمة في قوله: «رحم ربّك». وعدم تأنيث اسم الاشارة باعتبار معناه، وهو الفضل والإيعام والإحسان، كقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ (١) بتذكير الخبر باعتبار معناه.

وقيل: إشارة إلى الاختلاف، واللام للعاقبة. يريد: أنّ الله خلقهم وعــلم أنّ عاقبتهم تؤل إلى الاختلاف المذموم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرْافَا لِجَهَلَمْ﴾ (٢).

أو إشارة إلى اجتماعهم على الإيمان، وكونهم فيه أمّة واحدة، لقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٣٠).

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةٌ رَبُكَ ﴾ وعيده، أو قوله للملائكة: ﴿ لَأَشَلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ من عصاتهما ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل. ومعنى «تمّت»: وقع مخبرها على ما أخبر به، أو وجب قول ربّك، أو مضى حكم ربّك.

﴿ وَكُلْاً وَكُلْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكَ الخبرك به ﴿ مِنْ النَّبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُسْتَبُّ بِهِ فَوْانَكَ ﴾ بيان لدكلًا ، أو بدل منه. وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص، وهو زيادة يقينه، وطمأنينة قلبه، وثبات نفسه على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفّار، فإنّ تكاثر الأدلّة أثبت للقلب، وأرسخ للعلم. أو مفعول، و«كلاً ، منصوب

⁽١، ٢) الأعراف: ٥٦ و ١٧٩.

⁽٣) الذاربات: ٥٦.

٣٣٢ زيدة التفاسير ـ ج ٣

على المصدر ، بمعنى : كلّ نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك ما نتبت به فؤادك من أنباء الرسل.

﴿ وَجَنَّاتَكُ فِي هَذِهِ ﴾ السورة، أو الأنباء المقتصة عليك بالأساليب السختلفة ﴿ الْمَقَّ ﴾ أي: ما هو حقّ وصدق ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَيْكُرُىٰ ﴾ وتذكرة ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة.

﴿ وَقُل لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ من أهل مكّة وغيرهم ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَعَانَتِكُمْ ﴾ على حالكم الّتي أنتم عليها، مثل قوله: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِفْتُمُ ﴾ (١٠).

﴿إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ على حالنا ممّا أمرنا الله به.

﴿ وَاسْتَطِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿ إِنَّا مُنْتَعَلِرُونَ ﴾ أن ينزل بكم نحو ما قصّ الله من النقم النازلة على أمثالكم.

﴿ وَبِشِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خاصّة، لا يخفى عليه خافية ممّا فيهما، فلا يخفى عليه أعمالكم.

وما نقل عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ورواه (٢) عنه الخاص والعام من الإخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها، وكذا ما نقل عن أولاده المعصومين على الأمور الغيبية، فهو متلقى عن النبي الله من الأمور الغيبية، فهو متلقى عن النبي الله عنه الله عليه فلا معنى لنسبة من روى عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنه يعتقد كونهم عالمين بالغيب، كما اعترض ذلك بعض المخالفين على الشيعة الإمامية عناداً وتعصباً وعداوة. وهل هذا إلا سبب قبيح وتضليل لهم، بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذهب خبير؟ والله يحكم بينه وبينهم وإليه المصير، كما قال: ﴿ وَالَـنِهِ ﴾ وإلى حكمه ﴿ يُرْجَعُ الْأَمْنُ كُلُهُ ﴾ فيرجم لا محالة أمرهم وأمرك إليه، فينتقم لك منهم.

⁽١) فصّلت: ٤٠.

⁽٢) انظر الأحاديث الغيبيّة ٢: ١٢٩ وبعدها.

وقرأ نافع وحفص: يرجع على البناء للمفعول.

﴿ فَاعْبُدُهُ وَتَوَكُّلُ عَلَيْهِ ﴾ فإنّه كافيك أمرهم وناصرك عليهم. وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكّل تنبيه على أنّ التوكّل إنّما ينفع العابد. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِـ فَافِلِ عَـمًا تَعْتَلُونَ ﴾ أنت وهم، فيجازي ما تستحقّه. وقرأ نافع وابن عامر وحفض هنا وفي آخر النمل بالياء.

روي عن كعب الأحبار أنَّه قال: خاتمة التوراة خاتمة هود.



سورة يوسف

آيها مائة وإحدى عشرة آية بالاجماع. أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «علّموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنّه أيّما مسلم تلاها وعلّمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله تعالى عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً».

وروى أبو بصير عن أبي عبدالله ﷺ قال: «من قرأ سورة يوسف في كلّ يوم أوفي كلّ ليلة. بعثه الله يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف. ولا يصيبه فزع يوم القيامة، وكان من خيار عباد الله الصالحين. وقال: إنّها كانت في التوراة مكتوبة».

وروى إسماعيل بن أبي زياد عن أبي عبدالله ﷺ عن أبيه عن آبائه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنزلوا نساءكم الغرف، ولا تعلّموهنّ الكتابة، ولا تعلّموهنّ سورة يوسف، وعلّموهنّ المغزل وسورة النور».

بِسُمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرّ تُلك آيَاتُ الْكَتَابِ الْمُبِينِ ﴿ ١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْاَنًا عَرَبِيًّا لَمَلَكُمُ تَعْقِلُونَ ﴿ ٢﴾ نَخْنُ نَقُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا آلِيكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْله لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿ ٣﴾ ولمّا ختم الله تعالى سورة هود بذكر قصص الرسل، افتتح هذه السورة بأنّ من تلك القصص قصّة يوسف وإخوته، وأنّها من أحسن القصص، فقال: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرُّحْفَٰنِ الرَّحِيمِ اللّهِ بِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ المُبِينِ﴾ «تلك» إشارة إلى آيات السورة، وهي الرُّعجاز، المراد بالكتاب، أي: تلك الآيات آيات السورة الظاهر أمرها في الإعجاز، أوالواضحة معانيها، أو المبيّنة لمن تدبّرها أنّها من عند الله، أو لليهود ما سألوا، إذ روي أنّ علماءهم قالوا لكبراء المشركين: اسألوا محمّداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصّة يوسف؟ فنزلت.

﴿إِنَّا انْزَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب ﴿قُرْآناً عَرْبِيناً﴾ بدل من الهاء، أو حال. وهو في نفسه إمّا توطئة للحال التي هي «عربياً»، كما تقول: مررت بزيد رجلاً صالحاً، فإنّ «رجلاً» توطئة للحال، وهو «صالحاً». أو هو الحال، لأنّه مصدر بمعنى مفعول، أي: مقروءًا، و«عربيًاً» صفة له. أو حال من الضمير في القرآن. أو حال بعد حال. وفي كلّ ذلك خلاف.

وستى البعض قرآناً. لأنّه في الأصل اسم جنس يقع على الكلّ والبـعض. وصار علماً للكلّ بغلبة الاسميّة. كالنجم للثريّا.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ علَّة لإنزاله بهذه الصفة. أي: أنزلناه مجموعاً أو مقروءًا بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه، أو تستعملوا فيه عقولكم، فتعلموا أنَّ اقتصاصه كذلك مئن لم يتملّم القصص معجز لا يتصوّر إلّا بالإيحاء.

﴿ نَحْنُ نَقُضُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أحسن الاقتصاص، لأنه اقتص على أبدع أسلوب وأعجب نظم. وهو مصدر، تقول: قص الحديث يقصه قصصاً، كقولهم: شلّه يشلّه شللاً إذا طرده. أو «فَعَل» بمعنى مفعول، كالنّقض والسَّلَب، ونحوه النَّبَأ والخبر بمعنى: المنبأ والمخبر به، أي: أحسن ما يقصّ، لاشتماله على الحكم والآيات، والعبر والنكت، وسائر العجائب التي ليست في غيرها. واشتقاقه

سورة يوسف، آية ٤-٦....٠٠٠

من: قصّ أثره. إذا اتّبعه. لأنّ الّذي يقصّ الحديث يتّبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً. كما يقال: تلا القرآن إذا قرأه. لأنّه يتلو _أي: يتبع _ما حفظ منه آية بعد آية.

﴿ بِمَا اَوْحَيْنَا﴾ مصدريّة، أي: بإيحائنا ﴿ إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ﴾ يعني: السورة. ويجوز أن يكون «هذا» مفعول «نقُصُّ» على أن «أحسن القصص» نـصب عـلى المصدر.

ثمّ علّل لكونه موحى، فقال: ﴿ وَإِن كُنْتَ﴾ وإنّ الشأن كنت ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ قبل إيحائنا هذه القصّة إليك ﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ عنها، ولم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك قطّ. و«إن» هي المخفّفة من الثقيلة، واللام هي الفارقة.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَآ أَبِتِ إِنِي رَأَيتُ أَحَدَ عَشَرَ كُوكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنِيَ لاَ تَقْصُصُ رُوْياكَ عَلَى إِخْوَيْكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كُيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ الإِنسَانِ عَدُو ٌ شَيِنْ ﴿٥﴾ وَكَذَلكَ يَجْتَبِيكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كُيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ الإِنسَانِ عَدُو ٌ شَيِنْ ﴿٥﴾ وَكَذَلكَ يَجْتَبِيكَ رَبُكَ وَيُعَلَّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثُ وَيُتِمَ يَعْمَنُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلَ يَعْتُوبَ كَمَآ أَتَنَهَا عَلَى أَبْدِيكَ مِن قَبلُ إِبرَاهِيمَ وَإِسْخُقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

ثمّ ابتداً بقصة يوسف، فقال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ منصوب بتقدير: اذكر. أو بدل من «أحسن القصص» _إن جعل مفعولاً _بدل الاشتمال، لأنّ الوقت يشتمل على ما يقصّ فيه، ويوسف عبريّ، ولو كان عربيّاً لصرف.

﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ . وعن النبيّ ﷺ : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

﴿ يَا أَبْتِ﴾ أصله: يا أبي، فعوض عن الياء تاء التأنيث، لتناسبهما في الزيادة. ولذلك قلبها هاءً في الوقف ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. وكسرها، لانّها عوض حرف يناسب الكسرة، إلّا ابن عامر فإنّه فتحها في كلّ القرآن، لانّها حركة أصلها، أو لانّه كان: يا أبتا، فحذف الألف وبقي الفتحة. وإنّما جاز: يا أبتا، ولم يجز: يا أبتي، لانّه جمع بين العوض والمعوض. وإنّما لم تسكن التاء كأصلها، وهو: يا أبي، لأنّ التاء حرف صحيح نزّل منزلة الاسم، فيجب تحريكها، ككاف الخطاب.

﴿إِنَّى رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية ، لقوله: «لا تقصص رؤياك»، وقوله: «هذا تأويل رؤياي». ﴿ اَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمْرَ﴾.

روي عن جابر أنّ يهوديّاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «أخبرني يا محمّد عن النجوم الّتي رآهن يوسف. فسكت، فنزل جبرئيل فأخبره بـ ذلك. فـ قال: إن أخبرتك فهل تسلم؟ قال: نعم. قال ﷺ: جريان، والطارق، والذيّال، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ، ووثاب، وذو الكتفين، رآها يوسف ﷺ، والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له. فقال اليهوديّ: إي والله إنّها لأسماؤها».

وعن ابن عبّاس: أنّ يوسف رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر أحد عشر كوكباً نزلن من السماء فسجدن له، ورأى الشمس والقمر نزلا من السماء فسجدا له، فالشمس والقمر أبواه، والكواكب إخوته الأحد عشر.

وقيل: الشمس أبوه، والقمر خالته، وذلك أنَّ أمَّه راحيل قد ماتت.

ويجوز أن يكون الواو في «والقمر والشمس» بمعنى «مع» أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. وأخّر الشمس والقمر ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص، بياناً لفضلهما واستبدادهما بالعزيّة على غيرهما من الطوالع، سورة يوسف، آية ٤-٦.....

كما أخّر جبرئيل وميكائيل عن الملائكة ثمّ عطفهما عليها لذلك.

وقوله: ﴿ وَالْمِنْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ كلام مستأنف لبيان حالهم الّتي رآهم عليها _ على تقدير سؤال _ وقع جواباً، كأنّه قال له يعقوب: كيف رأيتها ؟ فقال: رأيتهم لي ساجدين، فلا تكرير. وإنّما أجريت مجرى العقلاء لوصفها بصفاتهم.

عن وهب: أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصاً طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، فإذا عصا صغيرة تئب عليها حتّى اقتلعتها وغلبتها. فوصف ذلك لأبيه، فقال: إيّاك أن تذكر هذا لإخوتك. ثمّ رأى وهو ابسن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصّها على أبيه. فقال له: لا تقصّها عليهم، فيبغوا لك الغوائل.

وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة. وقيل: ثمانون. وقال في الكشّاف^(۱) والأنوار^(۲): «إنّ يعقوب ﷺ عرف دلالة الرؤيا على أنّ يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوّة، ويفوّقه على إخوته، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فعل بآبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم».

﴿قَالَ يَا بُنَيْ﴾ تصغير ابن، صغّره للشفقة أو لصغر السنّ، لأنّه كان ابن اثنتي عشرة سنة. وقرأ حفص هاهنا وفي الصافّات(٣) بفتح الياء. ﴿لاَ تَقْصُصْ رُوْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَبَكَ فَيَكِيدُوا لِكَ كَيْداً﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة.

قال في الأنوار: «الرؤيا كالرؤية، غير أنّها مختصّة بما يكون في النوم، ففرّق بينهما بحرفي التأنيث، كالقربة والقربى. وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفـق المتخيّلة إلى الحسّ المشترك. والصادقة منها إنّما تكون باتّصال النفس بالملكوت،

⁽١) الكشَّاف ٢: ٤٤٤ .

⁽٢) أنوار التنزيل ٣: ١٢٧ .

⁽٣) الصافّات: ١٠٢.

وهي عالم المجرّدات، لما بينهما من التناسب، عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتصوّر بما فيها ممّا يليق بها من المعاني الحاصلة هناك. ثـمّ إنّ المستخيّلة تحاكيه بصورة تناسبه، فترسلها إلى الحسّ المشترك، فتصير مشاهدة. ثمّ إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى، بحيث لا يكون الشفاوت إلّا بالكلية والجرئيّة، استغنت الرؤيا عن التعبير، أي: وقع ما رآه بعينه، وإلّا احتاجت إليه»(١٠).

وإنّما عدّي «كاد» باللّام، وهو متعدّ بنفسه، لتضمّنه معنى فعل يتعدّى به، وهو: يحتالوا، ليفيد معنى الفعلين تأكيداً، ولذلك أكّد بالمصدر، وعلّل بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، لما فعل بآدم وحوّاء، فلا يألوا جهداً في سويلهم، وإثارة الحسد فيهم، حتّى يحملهم على الكيد.

روى أبو حمزة الثمالي عن زين العابدين على الله يقوب كان يذبح كلّ يوم كبشاً فيتصدّق به، ويأكل هو وعياله منه، وأنّ سائلاً مؤمناً صوّاماً اعتر (٢) ببابه عشيّة جمعة عند أوان إفطاره، وكان مجتازاً غريباً، فهتف على ببابه واستطعمهم وهم يسمعون، فلم يصدّقوا قوله. فلمّا يئس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر، وشكا جوعه إلى الله تعالى، وبات طاوياً، وأصبح صائماً حامداً للله. وبات يعقوب وآل يعقوب بطاناً، وأصبحوا وعندهم فنضلة من طعامهم، فابتلاه الله سبحانه بيوسف على أواصبح والصبر للمصائب.

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي: وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالّة على شرف وعزّ ، وكمال نفس وكبرياء شأن ﴿ يَجْتَعِيكَ رَبُّكَ ﴾ للنبوّة والملك ، أو لأمور عظام . والاجتباء من: جبيت الشّيء إذا حصّلته لنفسك .

⁽١) أنوار التنزيل ٣: ١٢٧ .

⁽٢) اعترَّ به: أتاه للمعروف من غير أن يسأل. والمعترَّ: الفقير .

﴿ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه الذي يفهم من «كذلك»، لأنّه يلزم أن يكون تعليم التعبير أيضاً سابقاً، فيلزم أن يعلم تعبير رؤياه قبل ذلك الوقت، وليس كذلك، لأنّ هذا التعليم في مستقبل الزمان، لقوله: ﴿ وَكَذٰلِكَ مَكَناً لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعُلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (١٠). كأنّه قيل: وهو يعلّمك.

﴿ مِنْ تَاوِيلِ الْاحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا. ستى التعبير تأويلاً. لأنّه يؤول أمره إلى ما رأى في المنام. وسمّى الرؤيا أحاديث، لأنّها أحاديث تلك الرؤيا إن كانت صادقة، وأحاديث النّفس أو الشيطان إن كانت كاذبة. أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى، وسنن الأنبياء، وكلمات الحكماء. وهو اسم جمع للحديث، كأباطيل اسم جمع للباطل.

روي: أنَّ يوسف أعبر الناس للرؤيا، وأصحَّهم عبارة لها.

﴿ وَيُتِمَّ نِفْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ معنى إنمام النعمة: أنّه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة، فجعلهم أنبياء وملوكاً، ثمّ نقلهم إلى نعيم الآخرة والدرجات العلى من الجنّة ﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ يريد أهله ونسله، بأن يثبّهم على ملّة الاسلام، ويشرّفهم بمكانك، ويجعل فيهم النبوّة. وأصل آل: أهل، بدليل أن تصغيره أهيل، إلا أنّه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، فيقال: آل النبيّ وآل الملك.

﴿ كَمَا أَتَمَهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ بِالرسالة. وقيل: على إبراهيم الله بالخلّة والإنجاء من النار، وعلى إسحاق بإنقاذه من الذبح، وفدائه بذبح عظيم. وقيل: بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. والقول الأخير قول أكثر المفسّرين. ﴿ وَمِنْ قَبْلُ مِن قَبْلُك، أُومِن قبل هذا الوقت ﴿ إِنْ وَإِسْ حَاقَ ﴾ عطف بيان الأأبويك» ﴿ إِنْ وَبُكَ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق الاجتباء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغى.

⁽١) يوسف: ٢١.

٣٤٢ زيدة التفاسير _ ج ٣

لَّقَدُ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّاتَلِينَ ﴿٧﴾

ثمّ أنشأ سبحانه في ذكر قصّة يوسف، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي: في قصّتهم ﴿آيَاتُ﴾ دلائل قدرة الله تعالى وحكمته، أو عبر وأعاجيب، أو علامات نبرّتك ﴿للسَّائِلِينَ﴾ لمن سأل عن قصّتهم فأخبرهم بالصحّة من غير سماع ولا قراءة كتاب.

والمراد بالإخوة بنو علاته الأحد عشر. والعلات إخوة من أمّهات شـتّى. وهم: يهوذا، وروبيل، وشمعون، وهو أكبرهم، ولاوي، وزبالون، ويشخر، ودينة. وهذه السبعة كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، تزرّجها أوّلاً، فلمّا توفّيت تزرّج أختها راحيل، فولدت له بنيامين ويوسف. وقيل: جمع بينهما، ولم يكن الجمع محرّماً حينانٍ. وأربعة آخرون: جاد، ودان، ونفتالي، وآشر، من سرّيتين: زلفة وبلهة.

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَحُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلال مُبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبِخُلُ لَكُمْ وَجُهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْده قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾

ثم أخبر سبحانه عمّا قال إخوة يوسف حين سمعوا منام يوسف وتأويل يعقوب إيّاه، فقال: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ ﴾ اللام للابتداء. وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة. ﴿وَالْخُوهُ ﴾ بنيامين. وتخصيصه بالاضافة لاختصاصه بالأخوّة من الطرفين. ﴿ أَحَبُ إِنِّي أَبِينَا مِثَا ﴾ وحده لأنّ «أفعل مِن» لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه، والتذكير والتأنيث، بخلاف أخويه، فإنّ الفرق واجب في المحلّى باللام جائز في المضاف.

﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةً ﴾ والحال أنّا جماعة أقوياء، أحق بالمحبّة من صغيرين لا كفاية للمهمّات فيهما. والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً. ستوا بذلك لأنّ الأمور تعصب بهم، أي: تشتدّ. ﴿ إِنَّ اَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ عن طريق الحقّ والصواب، لتفضيله المفضول، أو لترك التعديل في المحبّة.

روي أنّه كان أحبّ إليه، لما يرى فيه من الخصال الحسنة الرضيّة، والخلال السنيّة المرضيّة، وكان إخوته يحسدونه، فلمّا رأى الرؤيا ضاعف له المحبّة بحيث لم يصبر عنه، فزاد حسدهم حتّى حملهم على التعرّض له.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ من جملة المحكيّ بعد قوله: «إذ قالوا»، كأنّهم اتّفقوا على ذلك إلاّ من قال: لا تقتلوا، وقيل: إنّما قاله شمعون، وقيل: دان ورضي به الآخرون، ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضَكُ منكورة مجهولة بعيدة عن العمران، وهـو معنى تـنكيرها وإبهامها، ولذلك نصبت كالظروف المبهمة. ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجُهُ أَمِيكُمْ ﴾ جواب الأمر. والمعنى: يخلص لكم وجه أبيكم، فيقبل بكلّيته عـليكم، ولا يلتفت عـنكم إلى غيركم، ولا ينازعكم في محبّته أحد. فذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم، لأنّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. وقيل: «يَخْلُ» يـفرغ لكم من الشغل بيوسف.

﴿ وَتَكُونُوا ﴾ جزم بالعطف على «يخل»، أو نصب بإضمار أن ﴿ مِنْ بَغْدِهِ ﴾ بعد يوسف، أو الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه ﴿ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ تأثبين إلى الله تعالى عمّا جنيتم، أو صالحين مع أبيكم، يصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهّدونه، أو صالحين في أمر دنياكم، فإنّه ينتظم لكم بعد يوسف بخلو وجه أبيكم.

واعلم أنّ أكثر المفسّرين على أنّ إخوة يوسف كانوا أنبياء. وقال بعضهم: لم يكونوا أنبياء، لأنّ الأنبياء لا تقع منهم القبائح. وهـذا مـوافـق لأصـول مـذهب الاماميّة.

وقال علم الهدىﷺ: «لم تقم لنا الحجّة بأنّ إخوة يوسف الّذين فعلوا به ما فعلواكانوا أنبياء. ولا يمتنع أن يكون الأسباط الّذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوة الذين فعلوا بيوسف ما قصّه الله عنهم. وليس في ظاهر الكتاب أنَّ جميع إخوة يوسف وسائر الأسباط فعلوا بيوسف ما حكاه الله تعالى من الكيد. ويجوز أن يكون هؤلاء الإخوة في تلك الحال لم يكونوا بلغوا الحلم، ولا توجّه إليهم التكليف، وقد يقع ممّن قارب البلوغ من الغلمان مثل هذه الأفعال، ويعاتب عملى ذلك ويلام ويضرب (١٠٠٠). وهذا الوجه قول البلخي والجبائي. ويدلّ عليه قوله: «يرتع ويلعب». وقوله: «وتكونوا من بعده قوماً صالحين» لا ينافي ذلك، فإنّ المراهق يجوز أن يعلم ذلك خاصّة، خصوصاً إذا كان مربّى في حجر الأنبياء ومن أولادهم.

وروى أبو جعفر بن بابويه في في كتاب النبرّة بإسناده عن محمّد بن إسماعيل بن بزيع ، عن حنان بن سدير ، قال: «قلت لأبي جعفر ﷺ أكان أولاد يعقوب أنبياء؟ فقال: لا . ولكنّهم كانوا اسباطاً أولاد الأنبياء ، ولم يفارقوا الدنيا إلّا سعداء . تـابوا و تذكّروا ما صنعوا» . وقال الحسن: كانوا رجالاً بالفين ، ووقعت ذلك منهم صغيرة .

قَالَ قَاتَلٌ مَنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَارَة إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن واحد من جملتهم بقوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من إخوة يوسف، وهو يهوذا. وكان أحسنهم فيه رأياً، وهو الذي قال: ﴿فَالَنْ أَبْرَحُ الْأَرْضَ﴾ (٢) الآية. وقيل: روبيل، وهو ابن خالة يوسف، وقيل: لاوي، رواه علي بن إبراهيم (٢) في تفسيره. ﴿لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإنّ القتل أمر عظيم ﴿وَالْقُوهُ فِي غَيَابَتِ لِللَّهِ عَلَى الموضعين الناظر. وقرأ نافع غيابات في الموضعين

⁽١) تنزيه الأنبياء: ٤٤_٤٣.

⁽۲) بوسف: ۸۰.

⁽٣) تفسير القمّى ١: ٣٤٠.

على الجمع، كأنّه لتلك الجبّ غيابات، أي: اسافل. والجبّ البئر التي لم تطو، لأنّ الأرض تجبّ جبّاً، أي: تقطع. ﴿ يَلْتَقِطْهُ ﴾ يأخذه ﴿ يَغْضُ السَّيْارَةِ ﴾ بعض الذين يسيرون في الأرض ﴿ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ بمشورتي. أو إِن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم، وهو التفريق بينه وبين أبيه، فإنّ هذا رأيي.

واختلف في ذلك الجبّ، فقال قتادة: هو بئر بيت القدس. وعن كعب: بئر بين مدين ومصر. وعن وهب: بئر بأرض الأردنّ. وقال مقاتل: بئر على رأس شلاث فراسخ من منزل يعقوب.

قَالُواْ مِلَ أَبَّانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿ ١١ ﴾ أَرْسُلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنني ۖ أَن تَذْهْبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلُهُ الذَّنْبُ وَأَتُنُمْ عَنْهُ غَافلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَنَ أَكَلُهُ الذُّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ آلِيهِ لَتُنْبَثَّتُهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓا أَبَاهُمْ عَشَاءً يُبِكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَآ أَبَانَا ٓ إِنَّا ذَهَبُنَا نَسْنَبِقُ وَتَرَكَّنَا يُوسُفَ عندَ مَاّعنَا فَأَكَّلُهُ الذَّنْبُ وَمَآ أَنْتَ بِمُؤْمِن لَنَا وَلُو كُنَا صَادقينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُوا عَلَى قَسِصه بدَم كَذِب قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْهُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبُرٌ جَميلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصفُونَ ﴿١٨﴾ ثم بين سبحانه أنهم عند اتفاق آرائهم فيما تآمروا فيه من أمر يوسف، كيف سألوا أباهم، فقال: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا قَامَناً عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لِمَ تخافنا عليه؟ ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ مخلصون في إرادة الخير له والشفقة عليه. وفي هذا دلالة على أنّه يالله كان يأبى عليهم أن يرسله معهم، لظهور حسدهم ليوسف عليه، فأرادوا استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم، لما تنسّم (١) من حسدهم. والمشهور «تأمنًا» بالإدغام مع الإشمام. وعن نافع ترك الاشمام.

﴿ أَرْسِلْهُ مَعْنَا غَدَا﴾ إلى الصحراء ﴿ فَزَيْعَ﴾ نتسع في أكل الفواكه ونحوها، من الرتعة، وهي الخصب ﴿ وَنَلْفَبُ ﴾ بالاستباق والانتضال لقتال العدوّ، لا لمجرّد اللهو. وإنّما سمّوه لعباً لانّه في صورته، وقرأ ابن كثير: نرتع بكسر العين، على أنّه من: ارتعى يرتعي. ونافع بالكسر والياء فيه وفي «نلعب». وقرأ الكوفيّون ويعقوب بالياء وسكون العين، على إسناد الفعل إلى يوسف. ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَـصَافِظُونَ ﴾ أن يناله مكروه.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْرُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ لشدّة مفارقته عليّ، وقلة صبري عنه ﴿ وَالْحَافُ ﴾ عليه إن ذهبتم به إلى الصحراء ﴿ أَن يَاكُلُهُ الذَّنبُ ﴾ لأنّ الأرض كانت مذأبة. وقيل: لأنّ يعقوب رأى في منامه كأنّ يوسف قد شدّ عليه عشرة أذؤب ليقتلوه، وإذا ذئب يحمي عنه، وكأنّ الأرض انشقّت فدخل فيها يوسف، فلم يخرج منها إلّا بعد ثلاثة أيّام. وقد همزها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية اليزيدي، وأبو عمرو درجاً ووقفاً، وعاصم وحمزة درجاً. واشتقاقه من: تذاءبت الريح إذا هبّت من كلّ جهة. ﴿ وَانتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللّعب، أو لقلّة اهتمامكم بحفظه.

﴿ قَالُوا لَذِنْ أَكَلُهُ الذُّنبُ وَنَحْنُ عُصْبَةً ﴾ اللام موطَّئة للقسم، وجوابه: ﴿ إِنَّا إِذاً

⁽١) تنسّم فلانُ الخبر: تلطّف في التماسه شيئاً فشيئاً.

سورة يوسف، آية ١١ ـ ١٨ ٢٤٧

لَخَاسِرُونَ﴾ ضعفاء عجزة مغبونون، كالذين تـذهب عـنهم رؤوس أمـوالهـم. أو مستحقّون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار. والواو في «ونحن» للحال.

﴿ فَلَمّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبّ ﴾ وعزموا على إلقائه فيها. وجواب «لئا» محذوف، مثل: فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد روي أنهم لئا برزوا به إلى البرّيّة أظهروا له العداوة، وأخذوا يؤذونه ويضربونه، وكلّما استغاث بواحد منهم لم يغنه إلا بالإهانة والضرب، حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصبح: يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء. فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه ؟ فلمّا أرادو إلقاءه في الجبّ تعلّق بثيابهم، فنزعوها من يديه ، فتعلّق بحائط البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه. فقال: يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أتوارى به. وإنّما نزعوه ليلطّخوه بالدم، ويحتالوا به على أبيهم. فقالوا له: أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً يلبسوك ويؤنسوك. ودلوه في البئر، فلمّا بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثمّ آوى إلى صخرة، فقام عليها وهو يبكي. فنادوه، فظن في البئر ماء فسقط فيه، ثمّ آوى إلى صخرة، فقام عليها وهو يبكي. فنادوه، فظن أيه باططعام.

وقيل: إنّ الجبّ أضاء له وعذب ماؤه حتّى أغناه عن الطعام والشراب. وعن مقاتل: كان الماء كدراً فصفا وعذب، ووكّل الله به ملكاً يحرسه ويطعمه.

ويروى أنَّ إبراهيم صلوات الله عليه حين ألقي في النار جرَّد عن ثيابه، فأتاه جبرئيل بقميص من حرير الجنَّة فألبسه إيّاه، فدفعه إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة (١) علقها في عنق يوسف، فجاءه جبرئيل فألبسه إيّاه، وهو القميص الذي وجد يعقوب ربح يوسف فيه. وأوحى إليه كما قال عـرَّ

 ⁽١) التّعييمةُ: خَرزَة أو ما يشبهها كان الأعراب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين ودفع الأرواح.

اسمه: ﴿ وَاوَحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ وكان ابن سبع عشرة سنة. وقيل: كان مراهقاً أوحي إليه في صغره، كما أوحي إلي يحيى وعيسى بين الله ﴿ لَتَنْتَبْنَةُهُمْ بِامْرِهِمْ هَذَا ﴾ لتحدّثنهم بسما فعلوا بك بعد أن تتخلّص ممّا أنت فيه ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُونَ ﴾ أنك يوسف، لعلو شأنك، وكبرياء سلطانك، وبعده عن أوهامهم، وطول العهد المغيّر للحليّ والهيئات. وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر حين دخلوا عليه ممتارين _ أي: يشترون الغلّة _ فعرفهم وهم له منكرون. فبشّره جبرئيل على في البئر بما يؤل إليه أمره إيناساً له وتطيباً لقلبه. وقيل: «وهم لا يشعرون» متصل بدأوحينا»، أي: آنسناه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

وفي كتاب النبرّة عن الحسن بن محبوب، عن الحسن بن عمارة، عن مسمع أبي سيّار، عن الصادق على قال: «لمّا ألقي إخوة يوسف إيّاه في الجبّ نزل عليه جبرئيل فقال له: يا غلام من طرحك؟

فقال: إخوتي، لمنزلتي من أبي حسدوني، ولذلك طرحوني.

فقال: أتحبّ أن تخرج من هذا الجبّ؟

قال: ذلك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

فقال له جبر ثيل: فإنّ إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب يقول لك قل: اللّهم إنّي أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلاّ أنت، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أن تصلّي على محمد وآل محمد، وأن تجعل من أمري فرجاً ومخرجاً، وترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب.

فقالها يوسف، فجعل الله له من الجبّ يومئذٍ فرجاً، ومن كيد المرأة مخرجاً، وأتاه ملك مصر من حيث لم يحتسب».

· وروى على بن إبراهيم: «أنّ يوسف على قال في الجبّ: يـا إلـه إبراهيم

﴿ وَجَآءُوا أَبَاهُمْ عِشْمَاءَ﴾ آخر النهار ﴿ يَبْكُونَ ﴾ متباكين ليوهموه أنهم صادقون. وفيه دلالة على أنّ البكاء لا يوجب صدق دعوى الباكي في دعواه. روي أنّه لمّا سمع بكاءهم فزع وقال: ما لكم يا بنيّ هل أصابكم في غنمكم؟ قالوا: لا قال: فما لكم وأين يوسف؟

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نتسابق في العدو أو في الرمي. وقد يشترك الافتعال والتفاعل، كالانتضال والتناضل. ﴿وَتَرْكَنَا يُوسُفَ عِنْدُ مَتَاعِنَا فَاكَلُهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَذَا﴾ بمصدّق لنا، لسوء ظنّك بنا، وفرط محبّتك ليوسف ﴿وَلَوْ كُتُا صَادِقِينَ﴾ من أهل الصدق والثقة عندك.

﴿ وَجَآءُوا عَلَىٰ قَبِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبِ﴾ أي: ذي كذب، بمعنى مكذوب فيه. ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة، كزيد عدل. و«على قميصه» في موضع النصب على الظرف، أي: فوق قميصه، أو على الحال من الدم إن جوّز تقديمها على الحجرور.

روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا قميصه بدمها، وزلَّ عنهم أن يمزّقوه، ولمّا سمع يعقوب بخبر يوسف صاح وسأل قميصه، فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتّى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تألله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزّق عليه قميصه، ولذلك ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْواً﴾ أي: سهلت لكم أنفسكم، وهو الاسترخاء.

قيل: إنّه كان في قميص يوسف ثلاث آيات: حين قدّ من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه فارتدّ بصيراً، وحين جاءوا عليه بدم كذب. فتنبّه يعقوب على أنّ الذئب لو أكله لخرق قميصه.

⁽١) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣٤١.

وقيل: لمّا قال لهم يعقوب ذلك قالوا: بل قتله اللصوص. فقال ﷺ: فكـيف قتلوه وتركوا قميصه، وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله؟!

﴿ فَصَنِدٌ جَمِيلٌ ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل أوأحسن أو أمثل أو أولى، وفي الحديث: «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق». ﴿ وَاللهُ المُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي: بالله أستعين على دفع ما تصفونه، أو على احتمال ما تصفونه من هلاك يوسف.

وَجَاءَتْ سَنَارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَذُلَى ذُلُوهُ قَالَ يَا بُشُرَى هَذَا عُلَكُمْ
وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلَيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَشَرَوْهُ بِشَنِ بَخْس دَرَاهِمَ
مَعْدُودَة وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِن مَصْرً لائراً تَهِ
أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى ۖ أَن يَنفَعَنَا أَوْ تَتَّخِذَهُ وَلَذًا وَكَذَلكَ مَكَمَا لَيُوسُفَ فِي
الأَرْضِ وَلِتُعَلَّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَا لَلْغَ أَشُدَهُ آشَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكُذَلكَ نَجْزِي
الْمُحْسنينَ ﴿٢٢﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن حال يوسف بعد إلقائه في الجبّ، فقال: ﴿ وَجَاءَتُ سَيَّارَةُ ﴾ رفقة يسيرون من مدين إلى مصر، فنزلوا قريباً من الجبّ، وكان ذلك بعد ثلاثة أيّام من إلقائه فيه، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً منه، وكان الجبّ في قفره بعيدة من العمران، وإنّما هو للرعاة، وكان ماؤه ملحاً فعذب ﴿ فَارْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾

سورة يوسف، آية ١٩ ـ ٢٢ ٢٥١

الذي يرد الماء ويستقي لهم. وكان هو مالك بن ذعر الخزاعي. ﴿ فَاذَلَىٰ دَلْوَهُ ﴾ فأرسلها في الجبّ ليملأها، فتدلّى يوسف بالحبل، فلمّا خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون من الفلمان ﴿ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَمٌ ﴾ نادى: البشرى، بشارة لنفسه أو لقومه، كأنّه قال للبشارة: تعالى فهذا أوانك، وقيل: هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على إخراجه، وقرأ غير الكوفيين: يا بشراى بالإضافة.

قال النبيّ ﷺ: «أعطي يــوسف شــطر الحســـن، والنــصف الآخــر لســـائر الناس».

وقال كعب الأحبار: كان يوسف حسن الوجه جدّاً. جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والعضدين، خميص البطن، صغير السرّة. وكان إذا تبسّم رأيت النور في ضواحكه، وإذا تكلّم رأيت في كلامه شعاع النور يلتهب عن تناياه. وكان حسنه كضوء النهار عند الليل. كان يشبه خلق آدم ه يوم خلقه الله في وصوّره ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية. ويقال: إنّه ورث ذلك الجمال من جدّته سارة، وكانت قد أعطيت سدس الحسن.

فلمًا رآه المدلي ﴿وَاسَرُوهُ﴾ أي: الوارد وأصحابه من سائر الرفقة. وقيل: أخفوا أمره، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وعن ابن عبّاس: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أنّ يهوذا كان يأتيه كلّ يوم بالطعام، فأتاه يومئذٍ فلم يجده فيها، فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وأسرّوه، أي: كتموا أنّه أخوهم، فقالوا: هذا غلامنا أبق منّا، فاشتروه من إخوته، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه.

﴿ بِضَاعَةُ ﴾ نصب على الحال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة. واشتقاقه سن البضع، بمعنى القطع، فإنّه ما بضع من المال للتجارة. ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ بما يصنعون، لم يخف عليه أسرارهم، أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم.

﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ أي: باعوه، أو اشتروه من إخوته. وفي مرجع الضمير الوجهان.

٣٥٢ زيدة التفاسير _ ج٣

﴿ بِثَمَنِ بَخْسِ ﴾ مبخوس، لزيفه أو نقصانه نقصاناً ظاهراً ﴿ دَرَاهِمَ ﴾ بدل من الثمن ﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ قليلة، فإنهم كانوا يزنون ما بلغ الأوقية، ويعدّون ما دونها. قيل: كان عشرين درهماً. وقيل: اثنين وعشرين. وقيل: عشرة. فاقتسموها درهمين. درهمين.

﴿ وَكَانُوا فِيهِ ﴾ في يوسف ﴿ مِنَ الزَّهدِينَ ﴾ الراغبين عنه. والضمير في «وكانوا» إن كان للإخوة فظاهر. وإن كان للرفقة وكانوا باتعين من العزيز، فزهدهم فيه لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به، خائف من انتزاعه، مستعجل في بيعه وإن كانوا مبتاعين من الإخوة، فلانهم اعتقدوا أنّه آبق. و «فيه» متعلّق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف. وإن جعل بمعنى «الّذي» فهو متعلّق بمحذوف يبيّنه «الزاهدين»، لأنّ متعلّق الصلة لا يتقدّم على الموصول.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْنِ ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر. واسمه قطفير أو اطفير ، والعزيز لقبه ، ومن كان بمكانه يسمّى بالعزيز ، لعزّته عند الناس ، ولهذا لمّا عبر يوسف رؤيا الملك سمّي العزيز وجعل مكان العزيز . وكان الملك يومننٍ ريّان بن الوليد العمليقي ، وقد آمن بيوسف حين شاهد منه المعجزات، ومات في حياته .

وقيل: كان فرعون موسى، عاش أربعمائة سنة، وكان إلى زمىن موسى، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (١).

والمشهور أنّ فرعون موسى من أولاد فرعون يموسف، والآيمة ممن قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء. روي أنّه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشر سمنة. ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره الريّان وهو ابن ثلاثين سمنة، وآتماه العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفّى وهو ابن مائة وعشرين سنة.

^{12.46.1}

واختلف فيما اشتراه به من جعل شراءه غير الأؤل، فقيل: عشرون ديـناراً، وزوجا نعل، وثوبان أبيضان. وقيل: وزنه فضّة. وقيل: ذهباً. وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه. فترافعوا في ثمنه، حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحـريراً، فـابتاعه قطفير بذلك المبلغ.

﴿ لِإِمْرَاتِهِ ﴾ راعيل، ولتبها زليخا. وهي المشهورة. ﴿ اَكْوِمِي مَثْوَاهُ ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً، أي: حسناً مرضيًا. والمعنى: أحسني تعهده حتّى تكون نفسه طيّبة في صحبتنا، ساكنة في كنفنا. روي: أنّه سأله عن نفسه فأخبره بنسبه، فعرفه وأمر زوجته بإكرامها له. ﴿ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا ﴾ في ضياعنا وأموالنا، ونستظهر به في مصالحنا ﴿ أَوْ نَتُحْدَهُ وَلَدَا ﴾ تتبناه، وكان عقيماً، لما تفرّس فيه من الرشد.

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي: وكما مكنّا محبّة يوسف في قلب العزيز، أو كما مكنّاه في منزله، أو كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز ﴿ مَكِنّا بِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ جعلناه ملكاً يتصرّف فيها بأمره ونهيه ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَاوِيلِ الْأَصَادِيثِ ﴾ عطف على مضمر، تقديره: ليتصرّف فيها بالمدل ولنعلّمه، أي: كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل، ويدبّر أمور الناس، ويعلّم كتاب الله وأحكامه فينفذها، أو يعبّر المنامات المنبّهة على الحوادث الكائنة ليستعدّ لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحلّ، كما فعله لسنه ات القحط.

﴿ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْوِهِ ﴾ لا يرده شيء، ولا ينازعه فيما يشاء. أو على أمر يوسف، يعني: إخوة يوسف أرادوا به شيئاً، وأراد الله تعالى غيره، فلم يكن إلا ما أراده ودبره. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْفَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنّ الأمر كلّه بيده، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُ ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته، وهو سنّ الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين. وقيل: النّ الشباب، ومبدؤه بلوغ الحلم. وقيل: الأشدّ ثماني ٣٥٤ زيدة التفاسير ــج ٣

عشرة سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل: أقصاه ثمنتان وستون. ﴿ آغَيْنَاهُ حُكُما ﴾ حكمة، وهو العلم المؤيد بالعمل. أو حكماً بين الناس، أو النبؤة. ﴿ وَعِلْما ﴾ يمني: علم تأويل الأحماديث، أو علم الشريعة ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْصِنِينَ ﴾ تنبيه على أنّه تعالى إنّما آتاه ذلك جزاءً على إحسانه في عمله، واتّقائه في عنفوان أمره، وعن الحسن: من أحسن عبادة ربّه في شيبته، آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

وَرَاوَدَتُهُ اللّٰهِ إِنّٰهُ رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنّٰهُ لَا يُفْلِحُ الطَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدُ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّٰهِ إِنّٰهُ رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنّٰهُ لَا يُفْلِحُ الطَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدُ هَمَّتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاً أَن رَأْى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرِفَ عَنْهُ السُتُوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنّٰهُ مِنْ عَبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَلْسُبَقًا الْبَابَ وَقَدَتُ قَمِيصَهُ مِن دُبْرٍ وَأَلْفَيَا سَيّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتُ مَا جَزَآءٌ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا لِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن امرأة العزيز وما همّت به، فقال: ﴿ وَرَاوَدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ طلبت منه وتمحّلت(١) أن يواقعها، من: راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه: الرائد. كأنَّ المعنى: خادعته عن نفسه، أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه

⁽١) تمحّل الشيء: احتال في طلبه.

ويأخذه منه. وهي هاهنا عبارة عن التمحّل لمواقعته إيّاها. وهذا الكلام أبلغ من: راودته امرأة العزيز أو زليخا. لاستهجان ذكر المرأة في المراودة.

﴿ وَغَلَقْتِ الْآبُوابَ ﴾ قيل: كانت سبعة. والتشديد للتكثير، أو للمبالغة في إيثاقها. ﴿ وَقَالَتْ هَنِيَ لَكَ ﴾ أي: أقبل وبادر، أو تهيّأت. و «هيت» على الوجهين اسم فعل بني على الفتح، ك: أين. واللام للتبيين، كالّتي في: سقياً لك، كأنّه قال يوسف: لمن تهيّأتِ؟ فقالت: لك. وكذا في: سقياً.

وقرأ ابن كثير بضمّ التاء وفتح الهاء، تشبيهاً له بـ«حيث». ونافع وابن عــــامر برواية ابن ذكوان بفتح التاء وكسر الهاء من غير همز، كـ: عيط صوت يصاح به الفنم. وهي لغة فيه. وهشام كذلك، إلّا أنّه يهمز. وقد روي عنه ضمّ التاء.

﴿ قَالَ مَعَادَ اللهِ ﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿ إِنَّهُ ﴾ إِنَّ الشَّأَن ﴿ رَبِّي ﴾ سيّدي قطفير ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَائِ ﴾ أحسن تمهّدي، إذ قال لكِ في: أكرمي مثواه، فليس جزاؤه أن أخونه في أهله. وقيل: الضمير لله تعالى، أي: أنّه خالقي وأحسن منزلتي، بأن عطف عليّ قلب قطفير، فلا أعصيه. ﴿ إِنَّهُ لاَ يُقْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي: المجازون الحسن بالسيّء. وقيل: الزناة.

وفي هذه دلالة على أنّ يوسف لم يهمّ بالفاحشة ولم يردها بقبيح، لأنّ من همّ بالقبيح لا يقول مثل ذلك. فقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ معناه: قصدت مخالطته قصداً اختياريًا، فإنّ الهمّ بالشيء قصده والعزم عليه، ومنه الهمّام اللّذي إذا هممّ بشيء أمضاه. ﴿وَهَمْ بِهَا﴾ ومال إلى مخالطتها ميلاً طبيعيّاً بشريّاً غير اختياريّ، مع المنازعة إليها عن شهوة الشباب الّتي هي تحت القدرة والاختيار.

فالمراد بهمّه إيّاها ميل الطبع البشري مع الامتناع عنه، لا القصد الاختياري والعزم على الفعل الّذي هو ممّا يدخل تحت التكليف. والحقيق بالمدح الجميل والأجر الجزيل من الله الجليل مَنْ يكفّ نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهمّ، ولولم يكن ذلك الميل الشديد _ المستى هماً لشدّته _ لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع عنه. لأنّ استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدّته. ولو كان همّه كهمّها عن عزيمة اختياريّة، لما مدحه الله بأنّه من عباده الصالحين.

أو المراد بهمته مشارفة الهمّ، كقولك: قبتلته لو لم أضف الله تعالى، تبريد مشارفة القتل. أو من قبيل: هممت بفلان، أي: بضربه وإيقاع المكروه به. ومن حقّ القارىء أن يقف على «ولقد همّت به» ويبتدىء قوله «وهمّ بها»، لاختلاف معنى الهمّين.

ولا يخفى على من له أدنى مسكة لو وجدت من يوسف الله أدنى زلّه لنعيت على ، وذكرت توبته واستغفاره، كما نعيت على آدم الله زلّته، وهي تبرك الأولى، وكذا على داود، وعلى نوح وعلى أيّوب وعلى ذي النون، وذكرت توبتهم واستغفارهم. كيف وقد أثني عليه وستي مخلصاً؟! فعلم بالقطع أنّه ثبت في هذا المقام الدّحض(۱)، وهو أنّه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوّة والعزم، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحقّ من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأوّلين، ثمّ في القرآن الذي هو حجّة على سائر كتبه ومصداق لها، ولم يقتصر إلّا عملى استيفاء قصّته وضرب سورة كاملة عليها، ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لهذه الخليل إبراهيم الله ، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العقّة وطيب الازار.

﴿ نَوْلاً أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ في قبح الرنا وسوء عاقبته لخالطها، لشبق (٢) الغلمة وكثرة المبالغة منها. ولا يجوز أن يجعل «وهمّ بها» جواب «لولا»، فإنّها في حكم أدوات الشرط، فلا يتقدّم عليها جوابها، بل الجواب محذوف يدلٌ عليه قوله:

⁽١) المكان الدَحْضُ: إذا كان مزلّة لا تثبت عليها الأقدام.

⁽٢) أي: اشتداد الشهوة.

﴿ كَذَلِكَ﴾ الكاف في محلّ النصب، أي: مثل ذلك التثبيت ثبتناه، أو في محلّ الرفع، أي: الأمر مثل ذلك ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشَّوعَ﴾ خيانة السيّد ﴿ وَالفَحْشَاءَ﴾ الزنا ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَائِنَا المُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كلّ القرآن إذا كان محلّى باللام، أي: الذين أخلصوا دينهم لله تعالى.

فأخزى الله الحشويّة والجبريّة حيث أوردوا هذه القصّة على وجه يؤدّي إلى أنّ يوسف صلوات الله عليه عزم على ارتكاب الزنا الّذي هو أقبح القبائح وأفحش الفواحش، فقالوا: إنّه حلّ تكّة سراويله، وجلس من زليخا مجلس المجامع، وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها. وفشروا البرهان بأنّه سمع صوتاً: إيّاك وإيّاها، فلم يكترث، فسمعه ثانياً فلم يعمل به، فسمع ثالثاً: أعرض عنها، فلم ينجع فيه، حتّى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته، وضرب بيده في صدره، فخرجت شهوته من أنامله.

وقالوا: كلّ ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلّا يوسف، فإنّه ولد له أحد عشر ولداً، من أجل ما نقص من شهوته حين همّ.

وقالوا صبح بيوسف: لا تكن كالطائر كان له ريش فلمًا زنى قعد لا ريش له. وقالوا: بدت كفّ فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم، مكتوب فيها: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ (١) فلم ينصرف. ثمّ رأى فيها: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشْمَةُ وَسَاءً صَبِيدًا ﴾ (١) فلم ينتبه. ثمّ رأى فيها: ﴿ وَاتَقُوا يَوْما تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى

⁽١) الانفطار: ١٠ _ ١١.

⁽٢) الإسراء: ٣٢.

٣٥٨ زيدة التفاسير _ ج ٣

الله ﴿ (١) فلم ينجع فيه. فقال الله لجبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يـصيب الخـطيئة. فانحطّ جبرئيل وهو يقول: يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟!

وقالوا: رأى تمثال العزيز .

وغير ذلك من الأقاويل الباطلة وتقولاتهم الحسوية. فياله من مذهب ما أفحشه! ومن ضلال ما أبينه! الذي يتضمن الجبر والقسر الذي يرتفع معه الاختيار الذي هو مناط التكليف، ويقتضي أن لا يستحق على الامتناع من القبيح مدحاً ولا ثواباً. فلعنة الله عليهم، وعلى من يعتقد معتقدهم، حتى قال قائل من قبلهم؛ إن قوله: «ولقد همت به وهم بها» خرجا مخرجاً واحداً، فلِمَ جعلتم همها به متعلقاً بالقبيح، وهمه بها متعلقاً بغيره؟

قلنا: إنّ من الظاهر أنّ الظاهر لا يكون دليلاً وحجّة إذا عارضه الدليل العقلي والنقلي. أمّا النقلي على أنّه ما همّ بالفاحشة فقوله: ﴿ عَذَلِكَ لِنَصْوِفَ عَنْهُ السُّوةَ وَالْفَحْشَاءَ إِنْهُ مِنْ عِبَادِهَا الْمُخْلَصِينَ ﴾، وقوله: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَخُنَهُ بِالْغَنْبِ ﴾ (""، ووقوله: ﴿ قَالَنَ حَاشَ بِشِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوّعٍ ﴾ (""). ولا شبهة في أن المرم على الفاحشة من السوء. وأمّا العقلي فلأنه ﷺ نبيّ، والنبيّ لابد أن يكون معصوماً من جميع الصغائر والكبائر، والقبائح والفواحش، كما قرّر في الكتب الكلاميّة بأوضح وجه.

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي: تسابقا إلى الباب. فحذف الجارّ. أوضمّن الفعل معنى الابتدار، فلا يحتاج إلى تقدير صلة. وذلك أنّ يوسف ﷺ فرّ منها ليخرج ويتخلّص

⁽١) القرة: ٢٨١.

⁽٢) يوسف: ٥٢.

⁽٣) يوسف: ٥١.

منها. وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. روي عن كعب أنّه لمّا هرب يوسف جـعل فراش(١٠) القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الباب.

﴿ وَقَدْتَ قَعِيصَهُ مِنْ دُبُو﴾ اجتذبته من ورائه فانقد قميصه. والقدّ الشقّ طولاً. والقطّ الشقّ عده. وتسمية والقطّ الشقّ عرضاً. ﴿ وَٱلْفَقِيا سَيْدَهَا ﴾ وصادفا زوجها ﴿ لَذَى الْبَابِ ﴾ عنده. وتسمية الزوج بالسيّد لآنه مالك أمرها، أو لأنّ العرأة تقول لبعلها: سيّدي. وقيل: إنّها لم يقل سيّدهما لأنّ ملك يوسف لم يصحّ، فلم يكن سيّداً له على الحقيقة.

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءَ مَنْ أَرَادَ بِأَهْكِ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴾ إيهاماً بأنّها فرّت منه، تبرثة لساحتها عند زوجها، وتغييره على يوسف، وإغراءه به انتقاماً منه. و«ما» نافية أو استفهاميّة، بمعنى: أيّ شيء جزاؤه إلّا السجن؟ كما تقول: من في الدار إلّا زيد؟ وقيل: العذاب الأليم الضرب بالسياط ضرباً وجيعاً.

قَالَ هِيَ رَاوَدُنْتِي عَن نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مَنْ أَهْلِهَا آبِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنَ دُبُرِ قُدُ مِن قَبُلٍ فَصَدَقَتُ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرِ قَالَ إِنَّهُ مِن فَكَذَبَتُ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرِ قَالَ إِنَّهُ مِن كَذَبُتِ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴿٧٧﴾ فُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفُرِي لِذَنْبِكِ كَنْ لِذَنْ فِي لِذَنْبِكِ إِنَّا لَكِي كُتَ مِنَ الْخَاطِيْنَ ﴿٧٨﴾ فُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفُرِي لِذَنْبِكِ إِنَّاكُ كُت مِنَ الْخَاطِيْنَ ﴿٢٩﴾

ولمّا عرّضته له من السجن أو العذاب، وأغرته به، ووجب عليه دفع هـذا

⁽١) فراش القفل: ما ينشب ويدخل فيه، سمّى بذلك لرقّته.

الضرر عن نفسه ﴿قَالَ﴾ لدفعه ﴿هِنَ رَاوَدَتْنِي عَن نَفْسِي﴾ طالبتني بالمؤاتاة ﴿ وَشَهِد شَاهِدُ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ قبل: ابن عمّها، وكان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره، وهو جالس مع زوجها عند الباب. وقبل: ابن خالها صبياً في المهد. وهذا أصمّ. ويؤيده ما روي عن النبي ﷺ: «تكلّم أربعة صغاراً: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى». وإنّما ألقى الله الشهادة على لسان أهلها لتكون ألزم عليها حجّة، وأوثق دليلاً، وأنفى للتهمة عنه.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدُّ مِنْ قَبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَادِبِينَ﴾ لأنّه يدلُ على أنّها قدّت قميصه من قدّامه بالدفع عن نفسها، أو أنّه أسرع خلفها فتحرَّر بذيله فانقدّ جيبه.

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قَدُ مِنْ دُبُرٍ فَكَنَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ لأنّه يدلً على أنّ ابعته فاجتذبت ثوبه فقدّته. والشرطيّة محكيّة على إرادة القول، أو على أنّ فعل الشهادة من القول، كأنّه قيل: وشهد شاهد فقال: إن كان قحيصه. وتسميتها شهادة وإن لم يكن بلفظ الشهادة، ولم يكن مرئيّاً، لأنّها أدّت مؤدّاها. والشرط وإن كان ماضياً ولكنّه في تأويل المضارع، وهو: إن يعلم أنّه كان. فجاز الجمع بين «إن» الذي هو للاستقبال وبين «كان». ونظيره قولك: إن أحسنت إليّ فقد أحسنت إليك من قبل، أي: وإن تمنن عليّ بإحسانك أمنن عليك بإحساني. السابق.

﴿ فَلَمَّا زَائُ وَطَفِير ﴿ فَعَيِصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ﴾ وبه علم براءة يبوسف وصدقه وكذبها ﴿ فَالَ إِنَّهُ ﴾ إن قولكِ: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا»، أو إنّ السّوء، أو إنّ هذا الأمر ﴿ مِنْ كَيْدِكُنْ ﴾ من حيلتكنّ. والخطاب لها ولأمثالها، أو لسائر النساء. ﴿ إِنْ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ استعظم كيد النساء وإن كان في الرجال، لأنّ كيدهنّ أعلق بالقلب، وألطف به، وأشدّ تأثيراً في أنفس الرجال، فإنّ قليل حيل النساء أسبق إلى

سورة يوسف، آية ٣٠ـ ٣٥ ٣٦٠

قلوب الرجال من كثير حيل الرجال، ولأنهن يبواجهن به الرجال، والشيطان يوسوس به مسارقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرَ النَّفَائَاتِ فِي الْمُقَدِ ﴾ (أ. وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر من أن أخاف من الشيطان، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ كَيْدُ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (")، وقال للنساء: «إنّ كيدكنّ عظيم » .

﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء، لقربه وتفطّنه للمحديث ﴿أَغْدِضْ عَنْ هَذَا﴾ اكتمه ولا تحدّث به ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يا راعيل ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من القوم المتعمّدين الذنب. يقال: خطىء إذا أذنب متعمّداً. والتذكير للتغليب.

قيل: إنّ قطفيراً لم يكن غيوراً، سلبه الله الله الفيرة لطفاً منه بيوسف، حتّى كفى شرّه. ولذلك قال ليوسف: «أعرض عن هذا» واقتصر على هذا القدر.

وَقَالَ سَنُوهٌ فِي الْمَدينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَاَهَا عَن نَفْسه قَدْ شَغَفَهَا حُبُّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَال مُّبَينَ ﴿٣٠﴾ فَلَمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتُ إِلَيهِنَ وَأَغَدَتُ لَهَنَ مُنَكَّا وَقَالَت ٱخْرُجُ عَلَيْهِنَ فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطْعَنَ أَيدَيُهِنَ وَقُلْنَ حَاشَ لِله مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلكُ رَأَيْنَهُ أَكْبُرْنَهُ وَقَطْعَنَ أَيدَيُهِنَ وَقُلْنَ حَاشَ لِله مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلكُ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلكَنَ الذي لُمُنتَنِي فيه وَلَقَدُ رَاوَدَتُهُ عَن نَفْسه فَاستَعْصَمَ وَلَن نَهُ مَعْمَلُ مَا آمَرُهُ لَيَسْجَنَنَ وَلَيكُونًا مَنَ الصَاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ

⁽١) الفلق: ٤.

⁽٢) النساء: ٧٦.

رَبِ السَّجْنُ أَحَبُ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيَ إِلَيهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِي كَلِدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِي كَلِدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيهِ وَاللَّهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَلِدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِن بَعْدِ مَا رَأُواْ الآياتِ لَيَسْجُنُنَهُ حَتَّى حِين ﴿٣٥﴾

ثمّ ذكر سبحانه شياع هذه القصّة، فقال: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةً ﴾ هي اسم لجمع امرأة لا جمع، من قبيل القوم والرهط للرجال. وتأثيثه بهذا الاعتبار غير حقيقيً، ولذلك جرّد فعله عن التاء. ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ظرف ارهال»، أي: أشعن الحكاية في مصر، أو صفة لـ «نسوة» أي: نسوة كائنة في المدينة. وكنّ خمساً: زوجة الحاجب، والساقي، والخبّاز، والسجّان، وصاحب الدواب، أي: رائضها (١٠).

﴿امْرَاهُ الْفَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ تطلب مواقعة غلامها إيّاها. يـقال: فتاي وفتاتي، أي: غلامي وجاريتي، والعزيز بلسان العرب الملك، وأصل فتى فتي، لقولهم: فتيان، والفتوّة شاذّة. ﴿قَدْ شَفْقَهَا كُبّا﴾ شقّ شفاف قلبها _ وهو حجابه _ حتى وصل إلى فؤادها حبّاً، ونصبه على التمييز، لصرف الفعل عن يوسف، ويعلم أنّ الحبّ شغفها، إذ التمييز في الأصل فاعل. ﴿إِنَّا لَقَرَاهَا فِي ضَـاكلٍ مُبِينٍ﴾ في ضلال عن الرشد، وبعد عن الصواب.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَ ﴾ باغتيابهنّ ، وهو قولهنّ : امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني . وإنّما سمّاه مكراً لأنّهنّ أخفينه ، كما يخفي الماكر مكره . أو قبلن ذلك لتربهنّ يوسف . أو لأنّها استكتمتهنّ سرّها ، فأفشينه عليها . ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَـنْهِنَ ﴾

⁽١) الرائض: الذي يعلُّم الدوابِّ السير ويذلُّلها ويطوَّعها.

تدعوهن لاستضافتهن. قيل: دعت أربعين اسرأة فيهن الخمس المذكورات. ﴿ وَاعْتَدْتُ لَهُنْ مُتَّكُنا﴾ ما يتكنن عليه من الوسائد ﴿ وَآتَتْ كُلُ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينا﴾ حتى يتكنن والسكاكين بأيديهن، ليقطعن به الأترج (١) وغيره من الفواكه، كما هو العادة بين الناس.

وقيل: «متّكتاً» يعني: طعاماً أو مجلس طعام، لآنهم كانوا يـتّكتون للـطعام والشراب ترفأ واستراحة، كعادة المترفين، ولذلك نهي أن يأكل الرجل متكتاً. وقيل: المتّكاً طعام يحرّ حرّاً، كأنّ القاطم يتّكي، عليه بالسكّين.

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجُ عَلَيْهِنَ فَلَمُا رَأْئِينَهُ اكْبَرْفَهُ ﴾ عظمنه، وهبن حسنه الفائق، وجماله الرائق. وعن النبي ﷺ : «رأيت يوسف في السماء الشانية ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر». وقيل: كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران، كما يسرى نبور الشمس من الماء عليها. وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف، فيبهتن ويشغلن عن نفوسهن، فتقم أيديهن على أيديهن، لزوال اقتدارهن، وذهاب عقولهن.

وقيل: أكبرن بمعنى: حضن، من: أكبرت العرأة إذا حاضت، لأنّها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر، والهاء ضمير مصدر: أكبرن، أو ليوسف على حذف اللام، أي: حضن له من شدّة الشبق، كما قيل: العرأة إذا اشتدّت غلمتها حاضت، أي: كلّما رأين حسنه الفائق حضن لشدّة الشبق.

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيهَهُنَّ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ بِشِ ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز، وتعجّباً من قدرته على خلق مثله. وأصله: حاشا، كما
قرأه أبو عمرو في الدرج لافي الوقف، فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً. وهو حرف
يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، تقول: أساء القوم حاشا زيد، فوضع موضع
التنزيه. واللام للبيان، كما في قولك: سقياً لك. فمعنى حاشا لله: براءة الله وتنزيهه

⁽١) الأُتْرُج: واحدته الأُترُجّة، شجر من جنس الليمون.

٣٦٤ زيدة التفاسير ـ ج ٣

عن صفات العجز. والتعجّب من قدرته على خلق مثله في فرط الحســن وغــاية الجمال.

وقيل: «حاشا» فعل من الحشا الذي هو الناحية، وفاعله ضمير يوسف، أي: صار في ناحية بعيدة لله تعالى ممّا يتوهّم فيه من عجزه عن خلق جميل مثله، وأمّا قوله: ﴿ حَاشَ بِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ (١) فتعجّب من قدرته على خلق عفيف مثله.

﴿ مَا هَذَا بَشَرا﴾ لأنّ هذا الجمال غير معهود للبشر. وهو على لغة العجاز في إعمال «ما» عمل «ليس»، لمشاركتهما في نفي الحال. ﴿إِنْ هَذَا إِلّا مَلَكُ تَوِيمُ ﴾ فإنّ الجمع بين الجمال الراثق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة. أو لأنّ جماله فوق جمال البشر، ولا يفوقه فيه إلّا الملك، لما هو مركوز في الطباع أنّه لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبّه كلّ متناه في الحسن والقبح بهما.

﴿قَالَتْ فَذَلِكَنَّ﴾ أي: فهو ذلك العبد الكنماني ﴿الَّذِي لَمْتُلَنِّي فِيهِ﴾ في الافتتان به قبل أن تتصوّرنه حتى تصوّره، ولو تصوّرته بما عاينتن لعدرتنني. أو فهذا هو الذي لمتنّني فيه، فوضع «ذلك» موضع «هذا» رفعاً لمنزلة المشار إليه.

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ فامتنع أشد استناع، واجتهد في الاستزادة من العصمة طالباً لها. ونحوه: استمسك. أقرّت لهنّ حين عرفت أنّهن يعذرنها، كي يعاونها على إلانة عريكته. وهذا برهان قويٌ على أنّ يوسف بريء منا أضاف إليه الحشوية من همّ المعصية.

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلُ مَا آمُرُهُ ﴾ أي: ما آمر به، فحذف الجارّ. أو أمري إيّاه، بمعنى: موجب أمري، فيكون الضمير ليوسف على . ﴿ لَــ يُسْجَنَنَ ﴾ ليحبسنّ في

⁽١) يوسف: ٥١.

السجن ﴿ وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلاء. وهو من: صغِر بالكسر يـصغر صـغراً. وصفاراً. والصغير من: صغر بالضمّ صغراً.

فلتا رأى يوسف إصرارها على ذلك وتهديدها له اختار السجن على المعصية ﴿قَالَ رَبُّ السَّجْنُ﴾ قرأ يعقوب بفتح السين على المصدر ﴿أَحَبُّ إِلَى مِمّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أي: أخف عليّ واسهل من مواتاتها زنا، نظراً إلى العاقبة، وإن كان هذا ممّا تشتهيه النفس، وذلك ممّا تكرهه، وإسناد الدعوة إليهنّ جميعاً لأنهن خوّفنه من مخالفتها، وزيّن له مطاوعتها، وقلن له: أطع مولاتك، فإنّها مظلومة وأنت تظلمها. أو دعونه إلى أنفسهنّ، لما روى أبو حمزة عمن عليّ بمن الحسين ﷺ: «أنّ النسوة لمّا خرجن من عنده أرسلت كلّ واحدة منهنّ إلى يوسف ـ سرّاً من صاحبته ـ تسأله الزيارة».

وقيل: إنّما ابتلي بالسجن لقوله: «ربّ السّجن أحبّ إليّ»، وإنّما كان الأولى به أن يسأل الله تعالى العافية، ولذلك ردّ رسول الله الله على من كان يسأل الصبر.
﴿ وَإِلّا تَصْرِفْ عَنِي ﴾ وإن لم تصرف عنّي ﴿ كَيْدَهُنْ ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة. فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزموا عليه ووطنوا عليه أنفسهم، ﴿ أَصْبُ إِنَيْهِنَ ﴾ أمل إلى جانبهنّ، أو إلى أنفسهنّ، بطبعي ومقتضى شهوتي، والصبوة الميل إلى الهوى، ومنه الصبا، لأنّ النفوس تستطيبها وتميل إليها. ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه، فإنّ الحكيم لا يفعل القبيح، أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم والجهّال سواء.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ فأجاب الله دعاءه الذي تضمّنه قوله: «وإلاّ تصرف» . لأنَّ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ﴿ فَصَنرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فتبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقّة السجن، وآثرها على اللذّة المتضمّنة للعصيان ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٣٦٦ زيدة التفاسير ـ ج ٣

السَّمِيعُ﴾ لدعاء الملتجئين إليه ﴿الْفَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

﴿ مُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ ثمّ ظهر للعزيز وأهله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَاوُا الآيَاتِ ﴾ الشواهد الدالّة على براءة يوسف، كشهادة الصبيّ، وقدّ القميص، وقطع النساء أيديهنّ، واستعصامه عنهنّ. وفاعل «بدا» مضمر، وهو: رأي، يفسّره قوله: ﴿ لَيَسْجُنُنَهُ حَتَّى جِينٍ ﴾ وذلك لأنّ راعيل خدعت زوجها، وحملته على سجنه زماناً حتّى تبصر ما ترصّدت منه، أو يحسب الناس أنّه المجرم، فلبث في السجن سبع سنين.

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَنَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا ۚ إِنْيِ أَرَانِي أَعْصُرُ خَفْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْملُ فَوْقَ رَأْسي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مُنْهُ نَبُّنَا بَأُولِله إِنَّا نَزاك منَ الْمُحْسِنينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرُزَقَانه إلاَّ تَبَأَثُكُمَا بَـَأُوبِله قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلَكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَبَعْتُ مَلَّهَ آبَآئِي إَبْرَاهيمَ وَاسْخُقَ وَيُفْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَنْ نْشُرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيُّ ۚ ذَلكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاس وَلَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسَ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحَبَيِ السَّجْنِ أَأْرِّبَابٌ مُّنَوَّتُونَ خَيْرٌ أَم اللَّهُ الْوَاحَدُ الْقَهَارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ من دُونِه اللَّا أَسْمَاءً سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمُ وَآبَآوَكُمُ مَاۤ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلطًانِ إِن الْحُكُمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوآ إِلَّا آبِاهُ

ذَلكَ الدّينُ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿ ٤٠ ﴾ يَا صَاحِبَيِ السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَثْرُ الَّذِي فَلَ أَنَّكُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَثْرُ الَّذِي فَلَ أَنَّهُ فَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَالُ ذَكُر رَبِهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعُ سَنِينَ ﴿ ٤٢ ﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن حال يوسف في السجن، فقال: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ فَتَكَانِ ﴾ أي: اتّفق أن أدخل مع يوسف السجن حينئذٍ آخران من عبيدالملك، فإنّ «مع» يدلّ على معنى الصحبة، فيجب أن يكون دخولهما السحن مصاحبين له. وهما شرابية وخبّازه، للاتهام بأنهما يريدان أن يسمّاه. ﴿ قَال أَحَدُهُمُنَ ﴾ يعني: الشرابي ﴿ إِنِّي ازَانِي ﴾ أي: في المنام، وهي حكاية حال ماضية، ﴿ أغصِرُ خَفرا ﴾ أي: عنباً، وسمّاه بما يؤل إليه، كما يقال: فلان يطبخ الدبس والآجر، وإنّما يطبخ العصير واللبن. ﴿ وَقَالَ الآخَرُ ﴾ أي: الخبّاز ﴿ إِنِّي أَزَانِي أَخْبِلُ قَوْقَ رَاسِي خُبْراً تَاكُلُ الطّير واللبن. ﴿ وَقَالَ الآخَرُ ﴾ أي: الخبّاز ﴿ إِنِّي أَزَانِي أَخْبِلُ قَوْقَ رَاسِي خُبْراً تَاكُلُ الطّيرُ مِنْهُ ﴾ تنهش (١) منه.

عن الشعبي أنّهما تحالما له ليمتحناه، فقال الشرابي: إنّي أراني في المنام في بستان فإذا أنا بأصل حبلة (٢) عليها ثلاثة عناقيد من عنب، فقطفتها وعصرتها في كاس الملك، وسقيته إيّاه، وقال الخبّاز: إنّي أراني في المنام فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة، فإذا سباع الطير تنهش منها.

⁽١) في هامش النسخة الخطّية: «النهش أول ما يأخذ الطير بمنقاره. منه».

 ⁽۲) في هامش النسخة الخطية: «الحَبَلة _ بالتحريك _ القـضيب مـن الكـرم. وربـما جـاء بالتسكين. منه».

ثمّ قالا ليوسف: ﴿ فَبَثْنَا بِتَاوِيلِهِ ﴾ بتعبير ما نقص عليك وما يؤل إليه أمره ﴿ إِنَّا فَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا. أو من العالمين، يقال: أحسنه إذا علمه. وإنّما قالا ذلك لانّهما رأياه في السجن يعظ الناس ويعبّر رؤياهم. أو من المحسنين إلى أهل السجن، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

روي أنّه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا ضاق أوسع له، وإذا احتاج جمع له.

قيل: إنّ الفتيين قالا له: إنّا لنحبّك من حين رأيناك. فقال: أنشدكما بالله أن لا تحبّاني، فوالله ما أحبّني أحد قطّ إلّا دخل عليّ من حبّه بلاء. لقد أحبّتني عمّتي فدخل عليّ من حبّها بلاء. ثمّ أحبّني أبي فقد دخل عليّ من حبّه بلاء، ثمّ أحبّتني زوجة صاحبي فدخل عليّ بلاء، فلا تحبّاني بارك الله فيكما.

ولمّا استعبراه ابتداً بوصف نفسه بما هو فوق علم العلماء. وهو الإخبار بالغيب. ليتيقّنا صدق تعبيره ووقوع ما يعبّره عليهما، وليدعوهما إلى التوحيد، ويرشدهما إلى الطريق القويم، قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه، كما هو طريقة الأبياء والنازلين منازلهم من العلماء في الهداية والإرشاد. فلهذا ﴿قَالَ﴾ أولاً: ﴿لاَ يَاتِيكُمَا طَعَامُ تُزرَقَانِهِ إِلاَ تَبْائُكُمَا بِتَاوِيلِهِ﴾ بتأويل الطمام، يعني: ماهيّته وكيفيّته، فإنّه يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿قَبْلُ أَن يَاتِيكُمَا﴾ أي: لا يأتيكما فإنّه يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿قَبْلُ أَن يَاتِيكُمَا﴾ أي: لا يأتيكما ذلك طعام من منزلكما إلا أخبرتكما بصفة ذلك الطعام وكيفيّته قبل أن يأتيكما ذلك الطعام. وهذا مثل قول عيسى ﷺ: ﴿وَانَبَنْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدُخُرُونَ فِي

وقيل: معناه: لا يأتيكما طعام ترزقانه في منامكما إلَّا نبَّأتكما بتأويله وبيان عاقبته في اليقظة قبل أن يأتيكما التأويل. والأوّل أشهر وأصحّ.

⁽١) آل عمران: ٤٩.

﴿ذَلِكُمَا﴾ أي: ذلك التأويل. ﴿مِمَّا عَلَمْنِي رَبِّي﴾ بالإلهام والوحـي، وليس من قبيل التكهِّن أو التنجيم.

﴿إِنِّي تَرَكَثُ مِلْةَ قَوْمٍ لَا يُؤمِنُونَ فِاشْ وَهُمْ فِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِزُونَ﴾ تعليل لما قبله. أي: علّمني ذلك لاتّي تركت ملّة الذين لا يؤمنون بالوحدانيّة وبيوم البعث والنشور. أراد بهؤلاء القوم أهل مصر، ومن كان الفتيان على دينهم.

﴿ وَانَّبِعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أو كلام مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنّه من أهل بيت النبوّة، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق عليه. ولذلك جوز للخامل أن يصف نفسه حتّى يعرف فيقتبس منه وينتفع به في الدين، ولم يكن ذلك من باب التزكية. وتكرير ضمير «هم» للدلالة على تأكيد كفرهم بالآخرة.

﴿ مَا كَانَ لَنَا﴾ ما صحّ لنا معشر الأنبياء ﴿ أَن نُشُولَ بِاللهِ مِنْ شَنيَ ، ﴾ أيّ شيء كان ، من ملك أو جنّي أو إنسيّ ، فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر .

﴿ ذَلِكَ﴾ التوحيد ﴿ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي ﴿ وَعَلَى النَّـاسِ ﴾ وعـلى سائر الناس ببعثنا لإرشادهم، وتثبيتهم عليه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ المبعوثون نحن إليهم ﴿ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ هذا الفضل، فيعرضون عنه ولا يتنبّهون.

وقيل: معناه: ذلك فضل الله علينا وعليهم بنصب الأدلّة وإنزال الآيات، ولكنّ أكثرهم لا ينظرون إليها، ولا يستدلّون بها، فيلغونها، كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السَّجْنِ ﴾ أي: يا ساكنيه، كقوله عزّ اسمه: ﴿ أَصَحَابُ النَّاوِ وَأَصْحَابُ النَّالِ وَ الصَحَابُ النَّالِ وَ الصَحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ (١٠). أو يا صاحبيَّ فيه، فأضافهما إليه على الاتساع، كقوله: يا سارق الليلة أهل الدار. فكما أنّ الليل مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنّما المصحوب غيره، وهو يوسف ﷺ ﴿ وَأَزْبَابُ

⁽١) الحشر: ٢٠.

مُتَفَرِّقُونَ﴾ أملاك شتّى متعدّدة متباينة . من حجر وخشب وغيرهما ﴿خَمَيْوُ أَمِ اللهُ الْوَاجِدُ﴾ المتوحّد بالألوهيّة ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب الّذي لا يعادله ولا يقاومه غـيره؟! والهمزة للإنكار. وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر ﴿ إِلّا الشَمْآءُ سَمَيْتُمُوهَا النَّمُ وَآبَاؤُكُمُ مَا النَّزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ من حجّة غالبة، أي: إلّا أشياء باعتبار أسامي أطلقتم عليها، من غير حجّة تدلّ على تحقّق مستياتها فيها، فكأنّكم لا تعبدون إلا الأسماء المجرّدة. والمعنى: أنّكم سمّيتم ما لم يمدل على استحقاقه الألوهيّة عقل ولا نقل آلهة، ثمّ أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها.

﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ في أمر العبادة ﴿إِلَّا يَقِهِ ﴾ لآنه المستحقّ لها بالذات، من حيث إنّه الواجب لذاته، والموجد للكلّ، والمالك لأمر، ﴿أَمْنَ ﴾ على لسان أنبيائه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ ﴾ الحقّ النّابت بالدلائل، وأنتم لا تميّزون المعوجّ عن القويم.

وهذا من التدرّج في الدعوة وإلزام الحجّة، لأنّه بيّن لهم أؤلاً رجحان التوحيد على اتّخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثمّ برهن على أنّ ما يسمّونها آلهة ويعبدونها لا تستحقّ الإلهيّة، فإنّ استحقاق العبادة إمّا بالذات وإمّا بالغير، وكلا القسمين منتفي عنها، ثمّ نصّ على ما هو الحقّ القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره، ولا يرتضى العلم دونه.

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لعدولهم عن النظر والاستدلال ، فيخبطون في جهالاتهم .

ثمّ عبر رؤياهما فقال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمًا ﴾ يعني: الشرابي ﴿ فَيَسْقِي رَبُّهُ ﴾ أي: سيّده ﴿ خَمْراً ﴾ كما كان يسقيه قبل، ويعود إلى ما كان عليه ﴿ وَأَمَّا الْآخَرُ ﴾ يريد به الخبّاز ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَاكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ .

روي أنّه قال يوسف في تعبير الساقي: أمّا العناقيد الثلاثة فإنّها ثلاثة أيّام تبقى في السجن، ثمّ يخرجك الملك اليوم الرابع وتعود إلى ما كنت عليه. وقال للخبّاز: بئس ما رأيت، أمّا السلال الثلاث فإنّها ثلاثة أيّام تبقى في السجن، تسمّ يخرجك الملك فيصلبك فتأكل الطير من رأسك. فقال عند ذلك: ما رأيت شيئاً وكنت ألعب. فقال يوسف: ﴿قَمْنِيَ الْأَمْرُ الّذِي فِيهِ تَسْتَقْتِيَانِ﴾ أي: قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وهو ما يؤل إليه أمركما، ولذلك وحّده، فإنّهما وإن استفتيا في أمرين، لكنّهما أرادا استبائة عاقبة ما نزل بهما.

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ أي: علم بطريق الوحي ﴿ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَتِّي طُلَقٍ حِسَابِيَه ﴾ (١) أي: علمت. وقيل: المراد بالظان الناجي الذي هو الشرابي لا يوسف، فرطن » باق على معناه الحقيقي. ﴿ الْأَكْرُنِي عِنْدَ رَبَّك ﴾ اذكر حالي عند الملك الذي يربيك بأني محبوس ظلماً كي يخلصني ﴿ فَانْسَاهُ الشّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّه ﴾ فأنسى الشرابي أن يذكره لربّه. فأضاف إليه المصدر لملابسته له، فإنّ الربّ لا يكون فاعلاً ولا مفعولاً. أو على تقدير: ذكر أخبار ربّه. قيل: أنسى الشيطان يوسف ذكر ربّه في تلك الحال حين وكل أمره إلى غيره واستغاث بمخلوق. والأوّل أليق بمذهبنا، والاستعانة بالمباد في كشف الشدائد وإن كانت محدودة في الجملة، لكنّها لا تليق بمنصب الأنبياء، وتركه أولى.

﴿ فَلَبِثَ﴾ لأجل ذلك ﴿ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع ما بين الشلاث إلى التسع ، من البضع وهو القطع ، كأنّه يقطع من العشرة، وقيل: البضع ما بين الثلاث إلى الخمس، وقيل: إلى السبع، وقيل: لبث في السجن سبع سنين بعد أن كان خمساً. والأصحّ أن مدّة مكثه في السجن سبع سنين، فإنّه منقول عن عليّ بن الحسين وأبي عبدالله هير ، ومأثور عن ابن عبّاس.

⁽١) الحاقّة: ٢٠.

روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «عجبت من أخيي يـوسف كـيف اسـتغاث بالمخلوق دون الخالق».

وروي أنَّه ﷺ قال: «لولا كلمته ما لبث». يعني قوله: «اذكرني عند ربِّك».

وروي عن أبي عبدالله على أنّه قال: «جاء جبرئيل إلى يوسف فقال: يا يوسف من جعلك أحسن الناس؟ قال: ربّي. قال: فمن حبّبك إلى أبيك دون إخوتك؟ قال: ربّي. قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربّي. قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربّي. قال: فمن صرف عنك كيد النسوة؟ قال: ربّي. قال: فمن حسرف عنك كيد النسوة؟ قال: ربّي. قال: فإنّ ربّك يقول: ما دعاك إلى أن تنزل حاجتك بمخلوق دوني؟! البث في السجن بما قلت بضع سنين».

وعنه ﷺ في رواية أخرى قال: «فبكى يوسف عند ذلك حتّى بكى لبكـائه الحيطان، فتأذّى ببكائه أهل السجن، فصالحهم على أن يبكي يوماً ويسكت يوماً. فكان في اليوم الذي يسكت أسوء حالاً».

روي عن أبي عبدالله على قال: «علّم جبرئيل على يوسف في محبسه فقال: قل في دبر كلّ صلاة فريضة: اللّهم اجعل لي فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث أحتسب، ومن حيث لا أحتسب».

وروى شعيب العقرقوفي عند ﷺ قال: «لمّا انقضت المدّة وأذن له في دعاء الفرج وضع خدّه على الأرض، ثمّ قال: اللّهمّ إن كانت ذنوبي قد أخلقت وجـهي عندك، فإنّي أتوجّه إليك بوجوه آبائي الصالحين إسراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ففرّج الله عنه. قال: فقلت له: جعلت فداك أندعوا نعن بهذا الدعاء؟ فقال: أدعوا بمثله: اللّهمّ إن كانت ذنوبي قد أخلقت عندك وجهي، فإنّي أتوجّه إليك بوجه نبيّك نبيّ الرحمة وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأثمّة ﷺ».

وَقَالَ الْمَلكُ اِنْيَ أَرَى سَبْعَ بَقَرَات سمَان يَأْكُلُهَنَّ سَبْعٌ عجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلات خُضْر وَأُخَرَ يَاسِنات يَآ أَيُّها الْمَلَا أَقْتُرنِي في رُؤْيَايَ إن كُنتُمْ للرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿ ٤٣﴾ قَالُوٓاً أَضْغَاثُ أَحْلَام وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمينَ ﴿ ٤٤ ﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مُنْهُمَا وَاذْكُرَ بَعْدَ أُمَّةً أَنَّا أُنْبَكُمُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون ﴿ ٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِّيقُ أَفْنَنَا في سَبْع بَقَرَات سمَان يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عجَافٌ وَسَبْع سُنبُلات خُضْر وَأُخَرَ يَاسِنات لَّعَلِّيَّ أَرْجِعُ إِلَى النَّاس لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبُّعَ سنينَ دَأَّبًا فَمَا حَصَدتُمْ فَذَرُوهُ في سُنبُله إلاَّ قَليلاً مَّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي من بَعْد ذَلكَ سَبْعٌ شدَادٌ يَأْكُلُنَ مَا قَدَّمُتُمْ لَهَنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مَّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي من بَعْد ذَلكَ عَامٌ فيه يُغَاثُ النَّاسُ وَفيه يَعُصرُونَ ﴿٤٩﴾

ثُمَّ أُخبر سبحانه عن سبب نجاة يوسف وقت دنوِّها، فقال: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾

الريّان بن الوليد ﴿إِنِّي أَرَىٰ سَبْقَ بَقَرَاتِ سِمَانِ﴾ خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات مهازيل ﴿ فَاكُلُونَ سَبْقَ عِجَافَ ﴾ أي: ابتلعت المهازيل السمان ﴿ وَسَبْقَ سُـ فَبُلَاتِ مَطُونِ ﴾ وأرى في منامي سبع سنبلات قد انعقد حبّها ﴿ وَأَخْرَ فِالمِسَاتِ ﴾ وسبعاً أخر يابسات قد أدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبت عليها. وإنّما استغنى عن بيان حالها ـ وهي سبع يابسات كالخضر _ بما قصّ من حال البقرات. وأجرى السمان على المميّز دون المميّز وهو «سبع»، لأنّ التمييز بها. ووصف السبع الثاني بالعجاف، لتعدّر التمييز بها مجرّداً عن الموصوف، فإنّ التمييز لبيان الجنس. وقياس عجاف عجفا، وأفعل فعلاء لا يجمع على فعال، لكنّه حمل على سمان، لأنّه جمع عجفاء، وأنعل لنظير على النظير والنقيض على النقيض. سمان، لأنّه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض.

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَا ﴾ أشراف قومي. وقيل: هم السحرة والكهنة. ﴿ أَفْتُونِي فِي رُوْيَايَ ﴾ عبروها ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّوْيَا مُفْبُرُونَ ﴾ إِن كنتم عالمين بعبارة (١) الرؤيا. وهي الانتقال من الصور الخياليّة إلى المعاني النفسانيّة الّتي هي مثالها، من العبور، وهو المجاوزة. و«عبرت الرؤيا عبارة» أثبت (١) من: عبرتها تعبيراً، كما قال صاحب الكشّاف (١) من أنّه لم ينقل من الأثبات (١) التعبير والمعبّر، بل العبارة والعابر، لأنّه من العبور. وحقيقة «عبرت الرؤيا» ذكرت عاقبتها، كما يقال: عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه. واللام للبيان أو لتقوية العامل، فإنّ الفعل لمّا أخّر عن مفعوله ضعف فقرّي باللام، كاسم الفاعل إذا قيل: هو عابر للرؤيا، لانحطاطه عن الفعل في القرّة، أو لتضمّن «تعبرون» معنى فعل يعدّى باللام، كأنّه قيل: إن كنتم الفعل في القرّة، أو لتضمّن «تعبرون» معنى فعل يعدّى باللام، كأنّه قيل: إن كنتم

⁽١) مصدر: عَبَر يَعبُرُ عَبْراً وعِبارةً.

⁽٢) في هامش النسخة الخطّية: «أي: أشدّ تثبّتاً وحجّة. مند».

⁽٣) الكشَّاف ٢: ٤٧٤.

⁽٤) الأثبات: ثقات القوم، جمع الثَّبَت، وهو الثقة.

﴿قَالُوا﴾ هي ﴿ أَضَفَاتُ أَخَلَامٍ ﴾ أي: تخاليطها. جمع ضغت. وأصله ما جمع من أخلاط النبات وحزم، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنّما جمعوا الأحلام للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان، كقولهم: فلان يركب الخيل، وإنّما يسركب فرداً منها. أو لتضمّن الحلم أشياء مختلفة. والإضافة بمعنى «من» أي: أضغات من أحلام. ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَاوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصّة، أي: ليس لها تأويل عندنا، وإنّما التأويل للمنامات الصادقة. فهو كأنّه مقدّمة ثانية للعذر في جهلهم بتأويله.

وعند ذلك تذكّر الساقي حديث يوسف، فجثا بين يدي الملك وقال: أيّها الملك إنّي قصصت أنا وصاحب الطعام على رجل في السجن منامين، فخبرنا بتأويلهما، وصدق في جميع ما وصف، فإن أذنت مضيت إليه وأتيتك من قبله بتفسير هذه الرؤيا. وذلك قوله عزّ اسمه: ﴿ وَقَالَ الّذِي نَجَا مِنْهُمًا ﴾ من صاحبي السجن، وهو الشرابي ﴿ وَادْكَرَ بَعْدَ أُمْةٍ ﴾ وتذكّر يوسف ع بعماعة من الزمان مجتمعة، أي: مدّة طويلة. والجملة اعتراض، ومقول القول قوله: ﴿ إِنَا أَنْبَنْكُمْ بِتَاوِيلِهِ فَانْسِلُونِ ﴾ فابعنوني إلى من عنده علمه، أو إلى السجن.

فأرسل إلى يوسف فجاء، فقال له: ﴿ يُوسُفُ ﴾ أي: يا يوسف ﴿ أَيُهَا الصَّدْيقُ ﴾ أبنا يوسف ﴿ أَيْهَا الصَّدْيقُ ﴾ البليغ في الصدق. وإنّما وصفه بصيغة السبالغة، الأنّم جرّب أحواله، وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه. ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعٍ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٍ سَمْبُكُتِ خُصْرٍ وَأَخْرَ يَالِسَاتٍ ﴾ أي: في رؤيا ذلك ﴿ نَعَلُي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾ أعود إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد، إذ روي عن ابن عبّاس أنّ السجن لم يكن فيه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تأويلها، أو فضلك ومكانك، فيطلبوك

٣٧٦ زيدة التفاسير ـ ج ٣

ويخلّصوك من محنتك. وإنّما لم يجزم الكلام فيهما، لأنّه لم يكن جازماً بالرجوع. فربما اخترم دونه. ولا بعلمهم. فربما لم يعلموا.

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبا﴾ أي: على عادتكم المستمرّة. وانتصابه على الحال، بمعنى: دائبين، أو المصدر، بإضمار فعله، أي: تدأبون دأباً، وتكون الجملة حالاً. وقرأ حفص: دَأَباً بفتح الهمزة، وكلاهما مصدر: دأب في العمل إذا اعتاد فيه، وقيل: «تزرعون» خبر في معنى الأمر، أخرجه في صورة الخبر مبالغة في تحقّق الفعل، لقوله: ﴿ فَمَا حَصَدَتُمْ فَنَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ كيلا يأكله السوس، وهو على أنّه خبر لا أمر _ نصيحة خارجة عن العبارة، ﴿ إلا قَبِيلاً مِمًا تَأْكُلُونَ ﴾ في تلك السنين.

﴿ ثُمُّ يَاتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادُ يَاكُنُنَ مَا قَدْمَتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يأكل أهلهن ما الخرتم لأجلهن، وذلك متعارف، كما يقال: الخرت العبوب للسنين وإن كان في الحقيقة لأهلها، فأسند إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبر _ وهو البقرات والسنبلات _ والمعبر به، وهو السنين. ﴿ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِدُونَ ﴾ تحرزون وتخبؤن لبذور الزراعة.

ثمّ بشّرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثاني يجيء مباركاً خصيباً، كثير الخير، غزير النعم، فقال: ﴿ ثُمَّ يَاتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامُ فِيهِ يُعَانُ النَّاسُ ﴾ يمطرون، من الغيث. أو يغاثون من القحط، من الغوث. ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ ما يعصر، كالعنب والزيتون والسمسم، لكثرة الثمار. وقيل: يحلبون الضروع. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على تغليب المستفتي. وهذه بشارة بشّرهم بها بعد أن أوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة، وعلم ذلك كلّه بالوحي، ويحتمل أن علم ذلك بأن انتهاء الجدب

وَقَالَ الْمَلْكُ ٱثْنُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءُهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعُ إِلَى رَبِكَ فَاسْأَلُهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّزِي قَطَّعْنَ أَيْدَيُهِنَّ إِنَّ رَبِي بِكَلْيدهِنَّ عَلِيمٌ ﴿ ٥٠ ﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدَتُنَ يُوسُفَ عَن نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلَمْنَا عَلَيْهِ مِن سُتُوء قَالَتِ امْرَأَهُ الْهَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدَتُهُ عَن نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ ٥٠ ﴾

ولمّا رجع الرسول إلى الملك، وقصّ عليه ما سمع من يوسف من التعبير، اشتاق لقاء، ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ الْمُتُونِي بِهِ فَلَمّا جَآءَهُ الرّسُولُ ﴾ ليخرجه من السجن ﴿ قَالَ الْجِعْ إِلَىٰ رَبّكُ ﴾ سيّدك ﴿ فَاسْالُهُ مَا بَالُ النّسُوةِ اللّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيهُنّ ﴾ وإنّما تأتى في الخروج، وقدّم سؤال النسوة وفحص حالهنّ، لتظهر براءة ساحته وطهارة ذيله، ويعلم أنه سجن ظلماً، فلا يقدر الحاسد أن يتوسّل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنّه ينبغي أن يجتهد في نفي التهم، ويتقي مواقعها. وإنّما قال: «فاسأله ما بال النسوة» ولم يقل: فاسأله أن يفتّس عن حالهنّ أو عن شأنهنّ، تهييجاً له على البحث وتحقيق الحال. وإنّما لم يتعرّض لسيدته مع ما صنعت به كرماً ومراعاة للأدب، فإنّها سيّدته وزوجمة خليفة الملك.

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ حين قلن لي: أطع مولاتك. وفيه تعظيم كيدهنّ.

زيدة التفاسير _ ج ٣

والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه، وعلى أنَّه برىء ممَّا قذف به، والوعيد لهنَّ على كىدھنّ.

عن ابن عبّاس: لو خرج يوسف يومئذِ قبل أن يعلم الملك بشأنه ما زالت في نفس العزيز منه حالة، يقول: هذا الّذي راود امرأتي.

وقيل: أشفق يوسف من أن يراه الملك بعين مشكوك في أمره متّهم بفاحشة. فأحبّ أن يراه بعد أن يزول عن قلبه ما كان فيه.

روى عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ـ والله يغفر له .. حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبر تهم حتّى أشترط أن يخرجوني من السجن. ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ـ والله يغفر له ـ حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربّك، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة، وبادرتهم الباب، وما ابتغيت العذر، إنَّـه كـان لحليماً ذا أناة».

﴿ قَالَ مَا خَطْنُكُنَّ ﴾ قال الملك لهنَّ: ما شأنكنٍّ. والخطب أمريحق أن يخاطب فيه صاحبه. ﴿إِذْ رَاوَدِتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ شُهُ تَنزيه له تعالى وتعجّب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ مَا عَلَمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ مِن ذنب. ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ ثبت واستقرّ، من: حصحص البعير إذا ألقي مباركه ليناخ. أو ظهر، من حصّ شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه. ﴿ أَنَا رَاوَدتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في قوله: «هي راودتني عن نفسي». ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة، واعترافهن على أنفسهن بأنَّه لم يتعلَّق بشيء ممَّا قر فنه(١) به، لأنَّهنَّ خصومه، وإذا اعترف الخصم بأنَّ صاحبه على الحقَّ وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال.

(١) قرف فلاناً بكذا: عابه أو اتهمه به.

ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنِي لَمْ أَحْنُهُ بِالْغَنِيبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُهْدِي كَلِيدَ الْحَآتَيْيِنَ ﴿ ٢٥ ﴾ وَمَآ أَبْرِيءُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوَّءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِيَّ إِنَّ رَبِي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ ٢٣ ﴾

ثمّ قال يوسف لمّا عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهنّ: ﴿ ذَلِكَ أَي: ذلك الله فعلت من التأنّي في السجن، وعدم سرعة الإجبابة إلى الخروج منه، وردّ رسول الملك إليه في شأن النسوة ﴿ لِيَقِلَمَ ﴾ العزيز ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنهُ بِالْقَيْبِ ﴾ بظهر النيب. وهو حال من الفاعل أو المفعول، أي: لم أخنه وأنا غائب عنه، أو وهو غائب عنّي. أو ظرف، أي: بمكان النيب، وهو الخفاء والاستتار وراء الأستار والأبواب المغلقة. ﴿ وَأَنَّ اللهُ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ لا ينفذه ولا يسدده. أو لا يهدي الخائين بكيدهم، فأوقع الفعل على الكيد مبالغة.

وفيه تعريض براعيل في خيانتها زوجها. وتوكيد لأمانته. وأنّه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سدّده.

ثمّ أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكياً، وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول الله ﷺ ولا الله عليه ولا أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنّما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته، فقال: ﴿ وَمَا أَبْرَىءُ نَفْسِي ﴾ ولا أنزّهها ﴿ إنّ المنفس ﴿ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ من أبرىءُ نَفْسِي ﴾ ولا أنزّهها ﴿ إنّ المنفس ﴿ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ من حيث إنّها بالطبع مائلة إلى الشهوات، فتهم بها، وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كلّ الأوقات. وعن ابن كثير ونافع: بالسق، على قلب الهمزة واواً ثمّ الإدغام. ﴿ إلّا مَا رحمه الله تعالى من النفوس، فعصمه من رَحِمة ربّي، أو إلا ما رحمه الله تعالى من النفوس، فعصمه من تلك التهم.

وقيل: الاستثناء منقطع، أي: ولكن رحمة ربّي هي الّتي تصرف الإساءة.

وقيل: الآية حكاية قول راعيل، والمستثنى نفس يوسف وأضرابه. والمعنى: ذلك الذي قلت من براءة ساحة يوسف، وإسناد المراودة إلى نفسي، ليعلم يوسف أنّي لم أكذب عليه في حال الغيبة، وصدقت فيما سئلت عنه، وما أبرّىء نفسي من الخيانة، فإنّي خنته حين قذفته وقلت: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءً إلاّ أن يسجن». ثمّ قالت اعتذاراً ممّا كان منها: إنّ كلّ نفس لأمّارة بالسوء إلّا نفساً رحمها الله بالعصمة، كنفس يوسف.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يغفر همم النفوس، ويرحم من يشاء بالعصمة. وعلى القول الأخير: يغفر للمستغفر لذنبه، المعترف على نفسه، ويرحمه ما استرحمه ممّا ارتكبه. والقول الأوّل أشهر، والثاني أجود.

وَقَالَ الْمَلْكُ ٱلْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلْنَا كَلْمَهُ قَالَ إِنْكَ الْيُوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿ ٤٥ ﴾ قَالَ آجْعَلْنِي عَلَى حَزَآتِنِ الأَرْضِ إِنِي حَفَيظٌ عَلِيمٌ ﴿ ٥٥ ﴾ وَكَذَلَكَ مَكَفًا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَنَبَوَأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نَصِيبُ بِرَحْمَتَنَا مَن نَشَآءُ وَلا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٥٩ ﴾ وَلاَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلْدِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿ ٥٧ ﴾

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ الْنُتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ ﴾ أجـعله خــالصاً ﴿لِـنَفْسِي ﴾ وأرجــع إليه في تدبير مملكتي ﴿ فَلَمَّا كُلْمَنَهُ ۖ فلمّا أتوا به وكلّمه، وشاهد منه الرشد وذكاء العقل وفطانة الفهم ﴿قَالَ إِنَّكَ الْـيَوْمَ لَـدَيْنَا مَكِــينَ ﴾ ذو مكــانة ومــنزلة ﴿ أمِــينَ ﴾

روي أنّه لمّا خرج من السجن كتب على بابه: «هذا قبور الأحياء، وبست الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء». ثمّ اغتسل وتنظّف ولبس ثياباً جدداً، وهو يومئذٍ كان ابن ثلاثين سنة، فلمّا رآه الملك شابّاً حدث السنّ قال: يا غلام أنت مأوّل رؤياى؟ قال: نعم، فأقعده قدّامه، وقصّ عليه رؤياه.

وروي: أنّه لمّا دخل على الملك قال: اللّهمّ إنّي أسألك بخيرك من خــيره. وأعوذ بعرّ تك وقدرتك من شرّه. ثمّ صلّم عليه ودعا له بالعبرانيّة.

فقال: ما هذا اللسان؟

قال: لسان آبائي. وكان الملك يعرف سبعين لساناً. فكلُّمه بـها. فأجـابه بجميعها. فتعجّب منه، فقال: أحبّ أن أسمع رؤياي منك شفاهاً.

فقال يوسف: نعم، أيّها الملك رأيت سبع بقرات سمانٍ شهب حسان، كشف لك عنهنّ النيل، فطلعن عليك من شاطئه، تشخب أخلافهنّ (١) لبناً.

فبينا تنظر إليهن ويعجبك حسنهن، إذ نضب (٢) النيل فغار ماؤه وبدا يسبه، فخرج من حمثه ووحله سبع بقرات عجاف شعث غبر، مقلصات (٢) البطون، ليس لهن ضروع وأخلاف، ولهن أنياب وأضراس، وأكف كأكف الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع. فاختلطن بالسمان، فافترستهن افتراس السبع، فأكلن لحومهن، ومزّقن جلودهن، وحطّمن عظامهن، وتمششن (٤) مخهن.

فبينا أنت تنظر وتتعجّب إذا سبع سنابل خضر وأخر سود في منبت واحد.

⁽١) الأخلاف جمع الخِلْف، وهو: حَلَمة ضرع الناقة، أي: مكان مصّ الحليب من الثدي.

⁽٢) نضب الماءُ: غار في الأرض.

⁽٣) أي: انكمشت بطونهن هزالاً.

⁽٤) تمشَّش العظمَ: مصَّه واستخرج منه المخّ.

٣٨٢ زيدة التفاسير ــج ٣

عروقهنّ في الثرى والماء.

فبينا أنت تقول في نفسك: أنّى هذا وهؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سـود يابسـات، والمنبت واحد، وأصولهن في الماء؟ إذ هبّت ريح فـذرّت الأوراق مـن اليابسات السود على الثمرات الخضر، فاشتعلت فيهنّ النــار وأحــرقتهنّ، وصــرن سوداً متغيّرات. فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا، ثمّ انتبهت من نومك مذعوراً.

فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا بأعجب ممّا سمعته منك، فما ترى في رؤياي أيّها الصديق؟

فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، فتجمع الحبوب بقصبها وسنبلها لتأمن من السوس، ويكون القصب والسنبل علفاً للدواب. ويأتيك الخلق من النواحي، فيمتارون منك بحكمك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد ذلك.

فقال الملك: ومن لي بهذا؟ ومن يجمعه ويبيعه، ويكفي الشغل فيه؟

فعند ذلك ﴿قَالَ الْجَعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ولّني أمر أرض مصر ﴿إنّي كَفِيظُ﴾ لها مثن لا يستحقها ﴿عَلِيمُ﴾ بوجوه التصرّف فيه. وإنّما قال ذلك لأنّه ﷺ لمّا رأى أنّه يستعمله لا محالة آثر ما تعمّ فوائده وتجلّ عوائده، فيتوصّل بذلك إلى إمضاء أحكام الله، وبسط العدل، ووضع الحقوق موضعها.

وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنّه مستعدّ لها، والتولّي من يــد الكافر. إذا علم أنّه لا سبيل إلى إقامةالحقّ وسياسة الخلق إلّا بالاستظهار به.

روي: أنّ الملك أجلسه على السرير، وفوّض إليه أمره. وقيل: توفّي قطفير في تلك السنين فنصبه في منصبه، وزوّج منه راعيل، فوجدها عـذراء، وولدت له أفرائيم وميشا.

وروي: أنَّ الملك كان يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه في كلِّ مـا رأى،

فكان في حكم التابع له والمطيع. وعن مجاهد: أنَّ الملك أسلم على يده.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم بن هاشم قال: «المّا مات العزيز وذلك في سنيّ البحدبة افتقرت امرأة العزيز واحتاجت حتّى سألت الناس. فقالوا لها: ما يضرك لو قعدت للعزيز؟ وكان يوسف يسمّى العزيز، وكلّ ملك كان لهم سعّوه بهذا الاسم. فقالت: استحي منه. فلمّا كثر اضطرارها وعجزها قعدت له. فأقبل يوسف في موكبه فقامت إليه زليخا، وقالت: سبحان من جعل الملوك بالمعصية عبيداً، وجعل المبيد بالطاعة ملوكاً. فقال لها يوسف: أأنت تيك؟ قالت: نعم. فقال لها: هل لك فيّ؟ قالت: دعني أنهزأ بي؟ قال: لا. قالت: نعم. فأمر بها فحوّلت إلى منزله، وكانت هرمة، فقال لها يوسف: ألست فعلت بي كذا وكذا؟ قالت: يما نبيّ الله لا تلمني، فإنّي بليت ببليّة لم يبتل بها أحد. قال: وما هي؟ قالت: بليت بحبّك، وبليت بزوج عنّين. فقال لها يوسف: فما حاجتك؟ قالت: تسأل الله أن يردّ عليّ شبابي. فسأل الله فردّ عليها، فتزوّجها وهي بكر شابّة» (١٠).

روي عن ابن عبّاس عن رسول الله عليه الله الله الله الله الله أخي يوسف لولم يقل: «رحم الله أخي يوسف لولم يقل: «اجعلني على خزائن الأرض» لولاه من ساعته، ولكنّه أخر ذلك سنة». قال ابن عبّاس: فأقام في بيت الملك سنة، فلمّا انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة، دعاه الأمير فتوّجه وختّمه بخاتمه وأعطاه سيفه، وأمر بأن يوضع له سرير

من ذهب مكلّل بالدرّ والياقوت، ويضرب عليه كلّة (٢) من استبرق، شمّ أمره أن يخرج متوّجاً، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه. فانطلق حتّى جلس على السرير، ودانت له الملوك، فعدل بين الناس، وأحبّه الرجال والنساء. وذلك قوله عزّ اسمه: ﴿ وَكَثَلِكُ ﴾ مثل ذلك الإنعام الّذي أنعمنا على

⁽١) تفسير عليّ بن إبراهيم ١: ٣٥٧.

⁽٢) الكِلَّة: ستر رقيق يخاط كالبيت يتوقّى به من البعوض.

يوسف ﴿ مَكُنَّا لِيُوسُفَ ﴾ أقدرناه ما يريد ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ في أرض مصر ﴿ يَتَبَوُّا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءً ﴾ ينزل من بلادها في كلّ مكان يهوى، لاستيلائه على جميها. وقرأ ابن كثير: نشاء بالنون. ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا ﴾ بعطائنا ﴿ مَنْ نَشَاءً ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَلا نَصْبِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً.

﴿ وَلَا جُرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتْقُونَ ﴾ الشرك والفواحش، لعظمه ودوامه.

روي: أنّه لمّا استوزره الملك أقام العدل، واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الفلّات، حتّى دخلت السنون المجدبة، وعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما، وتوجّه إليه الناس، فباعها.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن علي بن بنت إلياس، قال: «سمعت الرضا الله يقول: وأقبل يوسف على جمع الطمام، فجمع في السبع سنين المخصبة، فكبسه في الخزائن. فلمّا مضت تلك السنون وأقبلت المجدبة، أقبل يوسف على بيع الطمام، فباعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير، حتّى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم إلا صار في ممكته.

ثمّ باعهم في السنة الثانية بالحليّ والجواهر . حتّى لم يبق بمصر وما حولها حليّ ولا جواهر إلا صار في مملكته.

وباعهم في السنة الثالثة بالدوابّ والمواشي، حتّى لم يبق بمصر وما حولها دابّة ولا ماشية إلا صارت في مملكته.

وباعهم في السّنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتّى لم يبق بمصر عبد ولا أمة إلا صار في مملكته.

وباعهم في السنة الخامسة بالدور والعقار، حتّى لم يبق بمصر وما حولها دار

ولا عقار إلا صار في مملكته.

وباعهم في السنة السادسة بالعزارع والأنهار، حتّى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلا صار في مملكته.

وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حرّ إلا صار عبد يوسف، فملك أحرارهم وعبيدهم. وقال الناس: ما رأينا ولا سمعنا بملك أعطاه الله من الملك ما أعطى هذا الملك حكماً وعلماً وتدبيراً.

ثمّ قال يوسف للملك: أيّها الملك لما ترى فيما خوّانني ربّي من ملك مـصر وأهلها، أشر علينا برأيك، فإنّي لم أصلحهم لأفسدهم، ولم أنجهم من البلاء لأكون بلاءً عليهم، ولكنّ الله تعالى أنجاهم على يديّ.

قال له الملك: الرأي رأيك.

قال: أشهد الله وأشهدك أيّها الملك بأنّي قد أعتقت أهل مصر كلّهم، ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم، ورددت عليك أيّها الملك خاتمك وسريرك وتاجك، على أن لا تسير إلّا بسيرتي، ولا تحكم إلا بحكمي.

قال له الملك: إنّ ذلك لزيني وفخري، فلا أسير إلا بسيرتك، ولا أحكم إلا بحكمك، ولولاك ما قويت عليه ولا اهتديت له، ولقد جعلت سلطاني عزيزاً لا يرام، وإنّي أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّك رسوله. فأقم على ما ولّيتك، فإنّك لدينا مكين أمين».

وقيل إن يوسف الله كان لا يمتلي شبعاً من الطعام في تلك الأيّام المجدبة. فقيل له: تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: إنّي أخاف أن أشبع فأنسى الجياع.

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عِلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّرَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ انْتُونِي بِأَخٍ لَكُم مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِيَ أُوفِي

الْكُيْلَ وَأَنَّا خَيْرُ الْمُنزلِينَ ﴿ ٥٩ ﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عندى وَلاَ نَّقَرُنُون ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعلُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ لَفْتَيَانِه ٱجْعَلُوا بِضَاعَتُهُمْ في رحَالِهُمْ لَعَلْهُمْ يَعُرِفُونَهَا إِذَا ٱتَقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهُمْ لَعَلْهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ ٦٢﴾ فَلَمَّا رَجِعُوآ إِلَىَّ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَآ أَبَانَا مُنعَ مَنَّا الْكَلِلُ فَأَرْسلُ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتُلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافظُونَ ﴿٣٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ الْإَكْمَآ أَمْنُكُمْ عَلَى أَخيه من قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَنَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتُهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ كَإَ أَبَانَا مَا نَبْغي هَذه بضَاعَتُنَا رُدَّتُ الِْيَنَا وَنَسِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَلِلَ بَعِيرِ ذَلكَ كَلِلْ يَسِيرٌ ﴿ ٦٠ ﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُون مَوْثَقًا مَنَ اللَّه لَتَأْتُنني به إلاَّ أَن يُحَاطَ بكُمْ فَلَمَا ٓ اتَّوْهُ مَوْثَقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿ ٦٦ ﴾ وَقَالَ يَا بَنيّ لَا تَدْخُلُواْ من بَابِ وَاحد وَّٱدْخُلُواْ منْ أَبِوَابِ مُتَفَرَّقَة وَمَآ أَغْني عَنكُم مَنَ الله من شَيْء إن الْحُكُمُ إِلاَّ للَّه عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْه فَلْيَتُوكُّل الْمُتَوَكُّلُونَ ﴿٣٧﴾

وكان في السنين المجدبة قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البـــلاد. فــجمع يعقوب بنيه غير بنيامين. وقال: بلغني أنّه يباع الطعام بــمصر وأنّ صـــاحبه رجـــل صالح، فاذهبوا إليه. فتجهّزوا وساروا حتى وردوا مصر للميرة (١٠) كما قال الله في وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ له ليمير أوا من مصر كما امتار غيرهم. وكان لا يبيع أحداً من المعتارين أكثر من حمل بعير، تقسيطاً بين الناس. ﴿ فَنَخْلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفْهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ أي: عرفهم يوسف ولم يعرفوه، لطول العهد ومفارقتهم إيّاه في سن الحداثة، ونسيانهم إيّاه، وتوهمهم أنه هلك، وبعد حاله الّتي رأوه عليها من حاله حين فارقوه، وقلّة تأمّلهم في حلاه، ولأنّ الملك ممّا يبدّل الزيّ ويلبس صاحبه من المهابة والاستعظام ما ينكر له المعروف.

وقيل: رأوه على زيّ فرعون عليه ثياب الحرير، جالساً على سرير، في عنقه طوق من ذهب، وعلى رأسه تاج، فما خطر ببالهم أنّه هو.

وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج. وإنّما عرفهم لأنّه فارقهم وهم رجال، ورأى زيّهم قريباً من زيّهم إذ ذاك، ولأنّ هئته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمّل ويتفطّن.

﴿ وَلَمَّا جَهُزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ والجهاز ما يعدّ من الأمتعة للنقلة، كعدد السفر، وما يحمل من بلدة إلى أخرى، وما تزفّ به المرأة إلى زوجها. والمعنى: ولمّا أصلحهم بعدّتهم، وأوقر ركائبهم بما جاؤا لأجله ﴿ قَالَ الْمُتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ يعني: بنيامين.

والباعث على صدور هذا القول منه ـ على ما قال عليّ بـن إبـراهـيم فـي تفسيره(٢)، والزمخشري في الكشّاف(٢) ـ أنّهم لمّا دخلوا عليه قال: من أنتم ومـا

 ⁽١) في هامش النسخة الخطّية: «الميرة: الامتيار. وهو ابتياع الفلّات. والميرة: الغـلة التـي
تطلب. منه».

⁽٢) لم نجده في تفسيره.

⁽٣) الكشَّاف ٢: ٤٨٤.

٣٨٨ زيدة التفاسير _ ج ٣

أمركم، فإنّي أنكركم؟

قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار.

فقال: لعلَّكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادى؟

قالوا: معاذ الله نحن بنو أبٍ واحد. وهو شيخ صدّيق، نبيّ من الأنبياء اسمه يعقوب.

قال: كم أنتم؟

قالوا كنّا اثنى عشر، فذهب أحدنا إلى البرّيّة فهلك.

قال: فكم أنتم هنا؟

قالوا: عشرة.

قال: فأين الحادي عشر؟

قالوا: عند أبينا يتسلّى به عن الهالك.

قال: فمن يشهد لكم؟

قالوا: لا يعرفنا هاهنا من يشهد لنا.

قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة، واثنوني بأخيكم من أبيكم حتّى أصدّقكم. فاقترعوا فأصابت شمعون.

وقيل: كان يوسف يعطي لكلّ نفس حملاً، فسألوا حملاً زائداً لأخ لهم من أبيهم، فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم. ثمّ رغّبهم في أن يأتوا بأخيهم، فقال: ﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ أتمّه ﴿ وَأَنا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ للضيف والمضيفين لهم. وكان ﷺ أحسن إنزالهم وضيافتهم.

ثمُ رهّبهم من حرمانهم عن الكيل إن لم يأتوا به، فقال: ﴿فَإِن لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ﴾ فليس لكم ﴿عِندِي﴾ طعام أكيله عليكم ﴿وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ أي: لا تقربوني، ولا تدخلوا دياري. وهو إمّا نهي، أو نفي مجزوم معطوف على الجزاء،

وهو قوله: «فلاكيل لكم». كأنَّه قال: فإن لم تأتوني تحرموا ولا تقربوا.

﴿قَالُوا سَنُرُاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه ﴿ وَإِنَّا لَقَاعِلُونَ﴾ ذلك لا نتواني فيه.

﴿ وَقَالَ لِمِقِتْنَائِهِ ﴾ لغلمانه الكيّالين. جمع فتى (١٠). وقرأ حمزة والكسائي وحفص: لفتيانه على جمع الكثرة، ليوافق الرحال في قوله: ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتُهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ فإنّه وكّل بكلّ رحل واحداً يعبّى، فيه بضاعتهم الّتي شروا بها الطعام، أي: يجعل في رحالهم خفية كيلا يفهموا. واحدها: رحل. يقال للوعاء رحل، وللمسكن رحل. وأصله: الشيء المعدّ للرحيل. وكانت البضاعة نعالاً وادماً. وإنّما ردّ عليهم البضاعة توسيعاً وتفضّلاً عليهم، وترفّماً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم، وخوفاً من أن لا يكون عند أبيهم ما يعيشون به.

﴿لَعَلَّهُمْ يَغْرِفُونَهَا﴾ لملّهم يعرفون حتى ردّها، أو لكي يعرفوها ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ الصرفوا ورجعوا ﴿إِنَى أَهْلِهِمْ﴾ وفتحوا أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلّ معرفتهم ذلك الإحسان التامّ تدعوهم إلى الرجوع إلينا لطلب الميرة ثانياً.

قيل: معناه: أنّ ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة الّتي لا يستحلّون إمساكها، فيرجعون لأجلها. ولم يعرّف يوسف نفسه، مع علمه بشدّة حزن أبيه وقلقه واحتراقه على ألم فراقه، لأنّه لم يؤذن له في التعريف، استتماماً للمحنة عليه وعلى يعقوب، ولما علم الله من الحكمة والصلاح في تشديد البليّة، تعريضاً للسنزلة السنيّة.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ حكم بمنعه بعد هذا إن لم نذهب ببنيامين ﴿ فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ﴾ بنيامين ﴿ نَكَتَلَ ﴾ أي: نأخذ ما نحتاج إليه من الطعام بالكيل، ونرفع المانع منه. وقرأ جمزة والكسائي بالياء، على إسناده إلى

⁽١) أي: على قراءة: لفتيته.

٣٩٠ زيدة التفاسير ـ ج٣

الأخ، أي: يكتل لنفسه، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا. ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿قَالَ هَلْ آهَنَكُمْ عَلَيْهِ﴾ على بنيامين ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى الْجِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وقد قلتم في يوسف: «وإنَّا له لحافظون» ثمّ لم تـفوا بـضمانكم ﴿ فَالله خَيْرُ حَافِظاً﴾ فأتوكّل عليه، وأفوّض أمري إليه. وانتصابه على التمييز. وقرأ حـمزة والكسائي وحفص: حافظاً. وهو يحتمل التمييز والحال، كقولهم: لله درّه فارساً. ﴿ وَهُوَ أَرْحُهُ الرَّجِهِينَ ﴾ فأرجو أن يرحم ضعفي وكبر سنّي، فيحفظه ويردّه عـليّ، ولا يجمع على مصيبتين.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتُهُمْ رُدَّ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ استفهاميّة، أي: ماذا نطلب؟ هل من مزيد على ذلك، أكرمنا، وأحسن مثوانا، وباع منّا، وردّعلينا متاعنا؟! أو نافية، أي: لا نطلب وراء ذلك إحساناً. أو لا نبغي في القول، ولا نزيد فيما حكينا لك من إحسانه.

ثمّ استأنفوا كلاماً موضحاً لقولهم: «ما نبغي» ،فقالوا: ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدُتُ الْنِنَا﴾ فلا ينبغي أن تخاف على أخينا متن قد أحسن إلينا هذا الإحسان ﴿ وَنَعِينُ الْمَنَا﴾ فلا ينبغي أن تخاف على أخينا متن قد أحسن إلينا هذا الإحسان ﴿ وَنَعِينُ الْمَنَا ﴾ ونجلب إليهم الطعام. وهو معطوف على محذوف، أي: ردّت إلينا، فنستظهر بها، ونمير أهلنا بالرجوع إلى الملك. ﴿ وَنَخْفَظُ أَخَانًا ﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا ﴿ وَنَزْدَادُ ﴾ باستصحاب أخينا ﴿ وَيَنْخَفَظُ أَخَانًا ﴾ عن المخاوف في ذهابنا أباعرنا، فأيّ شيء نطلب وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا؟! ﴿ ذَلِكَ ﴾ اللّذي جئناك به ﴿ كَثِلُ يَعِيدٍ ﴾ أي: مكيل قليل لا يكفينا. استقلّوا ما كيل لهم، فأردوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك، ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، أو «ذلك» إشارة إلى «كيل بعير»، أي: ذلك شيء قليل لا يضايقنا فيه الملك ولا يتعاظمه، بل

شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد.

﴿ فَالَ لَنَ أَوْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ إذ رأيت منكم ما رأيت في يوسف ﴿ حَتَّى تُحْوَيُونِ مَوْقِهَا مِنَ اللهِ حَتّى تعطوني ما أتوتق به من عند الله ، أي: عهداً مؤكّداً بدذكر الله تعالى ﴿ لَتَانَتُنِي بِهِ ﴾ جواب القسم، إذ المعنى: حتّى تحلفوا بالله لتأتني به ، أي: لتردّونه إليّ . روي عن ابن عبّاس: يعني: حتّى تحلفوا لي بحقّ محمد خاتم النبيّين وسيد المرسلين ألّا تغدروا بأخيكم . ﴿ إِلّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا فلم تقدروا على الإتبان به ، أو إلا أن تهلكوا جميعاً . وهو استثناء مفرّغ من أعم الأحوال . والتقدير: لتأتني به على كلّ حال من الأحوال إلا حال الإحاطة بكم . أو من أعم العلل ، على أنّ قوله: «لتأتني به » في تأويل النفي ، أي: لا تمتنعون من الإتبان به لعلد من العلل إلا لعلة الإحاطة بكم ، كقولهم: أقسمت بالله إلا فعلت ، أي: ما أطلب الإعلك .

﴿ فَلَمَّا أَتَوْهُ مُوْفِقَهُمْ ﴾ ما يوثق به من العهود والأيمان ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ ﴾ من طلب الموثق وإتيانه ﴿ وَكِيلُ ﴾ رقيب مطّلع. إن أخلفتم بعدما أحلفتم.

﴿ وَ﴾ لمّا تجهّزوا للمسير إلى مصر ﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَانْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَقَرِّقَةٍ ﴾ لأنّهم كانوا ذوي جمال وأبّهة، مشتهرين في مصر بالقربة والكرامة عند الملك، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا. وإنّما لم يوضّهم بذلك في الكرّة الأولى، لأنّهم كانوا مجهولين حينتذٍ، أو كان الداعي إليها خوفه على بنيامين.

واعلم أنّه خلاف بين العلماء في تأثير العين، وجوّزه كثير من المحقّقين. وروي فيه الخبر عن النبيّ ﷺ: «أنّ العين حتّى، والعين تستنزل الحالق». والحالق: المكان المرتفع من الجبل وغيره. فجعل ﷺ العين كأنّها تـحطّ ذروة الجبل، من قوّة أخذها وشدّة بطشها.

وروي في الخبر: أنّه كان يعوّذ الحسن والحسين ﷺ، بأن يقول: أعيذكما بكلمات الله التامّة. من كلّ شيطان وهامّة. ومن كلّ عين لامّة.

وروي أنّ إبراهيم ﷺ عوّذ ابنيه، وأنّ موسى ﷺ عـوّذ ابـني هــارون بـهذه العوذة.

وروي أنّ بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً. فقالت أسماء بـنت عميس: يا رسول الله إنّ العين إليهم سريعة، أفأسترقي لهم من العين؟ فقال ﷺ: نعم.

وروي أنّ جبرئيل ﷺ رقى رسول الله ﷺ، وعلّمه الرقية. وهي: بسم الله أرقيك من كلّ عين حاسد، الله يشفيك.

وروي عن النبيَّ ﷺ أنَّه قال: «لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين».

ثمّ اختلفوا في وجه الإصابة بالمين، فروي عن عمرو بن بحر الجاحظ أنّه قال: لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة، فتتصل به وتؤثّر فيه، ويكون هذا المعنى خاصّية في بعض الأعين، كالخواصّ في الأشياء، وليس ببعيد أن يحدث الله تعالى عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه وخللاً من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاءً من الله وامتحاناً لعباده، والله أعلم بحقائق الأمور.

﴿ وَمَا أَغْنِي ﴾ وما أدفع ﴿ عَنْكُمْ ﴾ بما أشرت به إليكم من التفرّق ﴿ مِنَ اللهِ مِنْ اللهِ اللهِ مَا قضى عليكم من المصيبة، فإنّ الحذر لا يمنع القدر ﴿ إِنِ الْحُكُمُ إِلَّا لللهِ يَصِيبكم لا محالة إِن قضى عليكم سوءًا، ولا ينفعكم ذلك ﴿ عَلَيْهِ تَوَكُلْتُ ﴾ فرضت إليه أمري ﴿ وَعَلَيْهِ قَلْيَتْوَكُلُو الْمُتَوَكُلُونَ ﴾ جمع بين الواو والفاء في عطف الجملة على الجملة، لاختصاص التوكّل به، فكأنّ الواو للعطف، والفاء لإفادة التسبّب، فإنّ فعل الأنبياء صلّى الله عليهم سبب لأن يقتدى بهم.

وَلَمَّا دَخَلُواْ مَنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنَى عَنْهُم مَنَ اللَّه من شَيْء إلاَّ حَاجَةً في نَفْس يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عَلْمَ لَمَا عَلَمْنَاهُ وَلَكَنَّ أَكْثَرَ النَاس لاَ يَعْلَمُونَ ﴿ ٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى َ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنْ ِ أَنْ أَخُوكَ فَلاَ تُبْتَسُنُ بِمَا كَانُواْ يُعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَارِهمْ جَعَلَ السَّفَايَةَ في رَحْل أَخيه ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقَدُ صُوَاعَ الْمَلك وَلَمَن جَآءً بِه حِمْلُ بَعِيرِ وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ ثَاللَّهِ لَقَدْ عَلَمْتُم مَّا جِنَّنَا لَنَفْسدَ في الأَرْض وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمُ كَاذِبينَ ﴿٤٤﴾ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجدَ في رَحْله فَهُوَ جَزَآؤُهُ كَذَلكَ نَجْزي الظَّالمينَ ﴿ ٥٧ ﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهُمْ قَبْلَ وعَآءَ أُخيه ثُمُّ اسْتَخْرَجَهَا من وعَآءَ أُخيه كَذَلكَ كَدُنَا لْيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ في دينِ الْمَلك إلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَزْفَعُ دَرَجَات مَّن نَشَاءً وَفَوْقَ كُلُّ ذِي عِلْمِ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ﴾ أي: من أبواب متفرّقة في البلد ﴿ مَا كَانَ يُغْفِي عَنْهُمْ ﴾ رأي يعقوب واتّباعهم له في دخولهم متفرّقين ﴿ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ممًا قضاه عليهم، فسرّقوا(١) وافتضحوا بذلك، وأخذ بنيامين بوجدان الصواع في رحله، وتضاعفت المصيبة على يعقوب ﴿إلاَّ هَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهًا﴾ أظهرها ووصّى بها. والاستثناء منقطع، أي: ولكن حاجة في نفسه، يعني: إظهار شفقته عليهم، ودغدغته من أن يعانوا.

﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمِ لِهَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي: حصل له العلم بتعليمنا إيّاه بطريق الوحي ونصب الحجج، ولذلك قال: «وما أغني عنكم من الله من شيء»، ولم يغترّ بتدبيره ﴿ وَلَكِنَّ الْكُثْرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ سرّ القدر، وأنّه لا يغني عنه الحذر. أو لا يعلمون مرتبة يعقوب في العلم، أو ما ألهم الله أولياءه.

﴿ وَلَمَّا نَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضمّ إليه بنيامين على الطعام، أو في المنزل.

روي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به. فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون أجره عندي. فأنزلهم وأكرمهم، ثمّ أضافهم فأجلسهم مثنى مثنى على مائدة. ولمّا أجلس كلّ اثنين على مائدة وبقي بنيامين وحيداً بكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته، وجعل يؤاكله. ثمّ قال: لينزل كلّ اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات عنده، وقال له: أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك؟ اولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فبكى يوسف وقام إليه وعانقه. ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا لَخُوكَ فَلا تَنْبَتْكِسُ ﴾ فلا تحزن. افتعال من البؤس، وهو الحزن. ﴿فِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يعمل إخوتنا في حقنا، فإنّ الله قد أحسن إلينا وجمعنا.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ ﴾ المشربة ﴿ فِي رَحْلِ الْجِيهِ ﴾ أي: أمر حتى جعلها في متاع أخيه. وإنّما أضاف الله تعالى ذلك إليه لوقوعه بأمره. روي أنّها

⁽١) في هامش النسخة الخطّية: «التسريق إسناد السرقة إلى الغير. منه».

مشربة جعلت صاعاً في السنين الشداد القحاط يكال بها، فهي الصواع. وقيل: كان يسقى بها الملك، ثمّ جعلت صاعاً يكال به. وقيل: كانت الدوابّ تسقى بها، ويكال بها روي أنّها كانت إناءً مستطيلاً يشبه المكّوك(١). وقيل: هي المكّوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، تشرب به الأعاجم، وكانت من فضّة مموّهة بالذهب. وقيل: كانت من ذهب مرصّعة بالجواهر. وروي أنّهم ارتبحلوا وأمهلهم يوسف حتى كانت أمر بردّهم فأدركوا وحبسوا.

﴿ فُمُّ الْأَنْ مُؤَذِّنٌ ﴾ نادى منادٍ. يقال: أذنه إذا أعلمه، وأذّن: إذا أكثر الإعلام، ومنه: المؤذّن، لكثرة ذلك منه. ﴿ الْمُتُهَا الْمِيرُ إِنْكُمُ لَسَارِ قُونَ ﴾ والعير القافلة. وهو السم الإبل الّتي عليها الأحمال، لآنها تعير، أي: تذهب وتجيء، فقيل لأصحاب العير، كقوله ﷺ: يا خيل الله اركبي، بمعنى: يا صاحب الخيل، وقيل: جمع عير، وأصله: فَعْل، كَسَقْف وسُقْف، فعل به ما فعل ببيض. يطلق على قافلة الحمير، ثمُ الستعير لكلٌ قافلة.

قيل: إنّما قال ذلك بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غير أمره، ولم يعلم بما أمر به يوسف من جعل الصاع في رحالهم.

وقيل: إنَّ يوسف أمر المنادي بأن ينادي به، ولم يرد به سرقة الصاع، وإنَّما عنى به أنَّكم سرقتم يوسف عن أبيه والقيتموه في الجبَّ.

وقيل: إنّ الكلام يجوز أن يكون خارجاً مخرج الاستفهام. كأنّه قال: أإنّكم لسارقون. فأسقط همزة الاستفهام.

ويؤيّده ما روي عن هشام بن الحكم، عن أبي عبدالله ﷺ أنّه قال: «ما سرقوا ولاكذب».

⁽١) المَكُّوك: مكيال يسع صاعاً ونصف صاعٍ، أو نحو ذلك، أو طاس يشرب فيه. وجمعه مكاكيك.

وقيل: كان تعبئة السقاية والنداء على السرقة برضا بنيامين.

وكانت عبارة الكشّاف هكذا: «وروي أنّه قال له: أنا لا أفارقك. قال: قد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمّه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل. قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك. قال: فإنّي أدس صاعي في رحلك، ثمّ أنادي عليك بأنّك قد سرقته، ليتهيّأ لي ردّك بعد تسريحك معهم. قال: افعل»(١).

أقول: ظاهر هذه الرواية غير مطابق لأصول الكلام كما لا يخفى.

وقال في المجمع: «ويجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى. وروي أنّه أعــلم أخاه بذلك ليجعله طريقاً إلى التمسّك به»^(٧).

﴿ قَالُوا﴾ قال أصحاب العير ﴿ وَاقْتِلُوا عَلَيْهِمْ ﴾ حال كونهم مقبلين على أصحاب يوسف ﴿ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ أيّ شيء ضاع عنكم ؟ والفقد غيبة الشيء عن المصر بحيث لا يعرف مكانه.

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ جِنْلُ بَعِيرٍ ﴾ من الطمام، جعلاً له ﴿ وَأَنَا بِهِ زُعِيمٌ ﴾ كفيل أُودّيه إلى من ردّه، وفيه دليل على جواز الجعالة وضمان الجعل قبل تمام العمل.

﴿ قَالُوا تَاشِ﴾ قسم فيه معنى التعجّب. والتاء بدل من الباء، مختصة بالله سبحانه. ﴿ لَقَدْ عَلِفَتْمْ مَا جِنْنَا لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم، لما عرفوا منهم في كرّتي مجيئهم ومداخلتهم للملك ممّا يدلّ على فرط أمانتهم، كردّ البضاعة الّتي جعلت في رحالهم، وكمر ٣٠ أفواه الدوابّ لثلّا تتناول

⁽١) الكشَّاف ٢: ٤٨٩.

⁽٢) مجمع البيان ٥: ٢٥٢.

⁽٣) كَفَمَ البعيرَ كَعْماً: شدّ فمه لئلًا يعضّ أو يأكل.

زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل الأسواق. ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ وما كنّا نوصف قطّ بالسرقة، فالسرقة منافية لحالنا.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ فما جزاء السارق أو السرق أو الصواع، عملى حدف المضاف، أي: جزاء سرقة الصواع ﴿إِن كُنتُمْ كَانِبِينَ﴾ في ادّعاء البراءة.

﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أي: جزاء سرقته أخذ مَنْ وجد في رحله، واسترقاقه سنة. هكذا كان شرع يعقوب ﷺ. وقوله: «فهو جزاؤه» تقرير للحكم وإلزام له، أو خبر «من» والفاء لتضمّنها معنى الشرط، أو جواب لكلمة «من» على أنّها شرطيّة. والجملة كما هي خبر «جزاؤه» على إقامة الظاهر فيها مقام الضمير، كأنّه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو. ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ما ذكرناه من الجزاء ﴿ نَجْزِي الظّالِمِينَ ﴾ بالسرقة، يعني: إذا سرقوا استرقوا.

﴿ فَبَداً بِالْوَعِيَتِهِمْ ﴾ فبدأ المؤذن. وقيل: بدأ يوسف بأوعيتهم، لآنهم ردّوا إلى مصر. ﴿ قَبْلُ وِعَاءِ آخِيهِ ﴾ بنيامين نفياً للتهمة ﴿ ثُمُّ السّتَخْرَجَهَا ﴾ أي: السقاية أو الصواع، لآنه يذكّر ويؤنّث ﴿ مِنْ وِعَاءِ آخِيهِ ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الأمر الخفيّ الذي هو في صورة الكيد والبهتان لا حقيقة، كما مر (١١) في تفسير قوله: «ثمّ أذّن موذّن... إلخ» ﴿ كِذْنَا لِيُوسُفَ﴾ بأن علّمناه إيّاه وأوحينا به إليه ليتوصّل بما يتهيّأ له أن يعبس أخاه، ليكون ذلك سبباً لوصول خبره إلى أبيه ﴿ مَلكانَ لِيَاهُذَ أَهَاهُ فِي بِينِ الْمَلِكِ﴾ ملك مصر، لأنّ دينه الضرب و تغريم ضعف ما أخذ، دون الاسترقاق. وهو بيان للكيد ﴿ إلاّ أن يَشْاءَ الله ﴾ إلا بمشيئة الله وإذنه أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك. فالاستثناء من أعمّ الأحوال. ويجوز أن يكون منقطعاً، أي: لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه.

﴿ نَزْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَمَاءُ ﴾ بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف ﴿ وَفَوْقَ كُلُّ ذِي

⁽۱) راجع ص: ۳۹۵.

۳۹۸ زیدة التفاسیر ـ ج ۳

عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أرفع درجة منه في علمه. حتّى ينتهي إلى الله تعالى العالم لذاته. فــلا يختصّ بمعلوم دون معلوم. فيقف عليه ولا يتعدّاه.

قَالُواْ إِن يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخْ لَهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَهَا 'يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنَتُمْ شَرِّ مَكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَآ أَنَّهَا الْعَزِيرُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَزَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ هُولِاً لَهُ أَبًا مَنَاعَنَا عِندُهُ إِنَّا إَذًا هُرِهُ ﴾ قَالَ مَقَاذَ اللّهِ أَن نَّاخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدُنَا مَنَاعَنَا عِندُهُ إِنَّا إِذًا فَظَالِمُونَ ﴿٧٧﴾

روي: أنّهم لمّا استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياءً، وأقبلوا عليه وقالوا له: ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسوّدت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ ثمّ ﴿قَالُوا إِن يَسْوِقَ﴾ بنيامين ﴿قَقَدْ سَرَقَ أَحُ لَهُ﴾ يعنون يوسف ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فليست سرقته بأمر بديم، فإنّه اقتدى بأخيه يوسف.

قيل: ورثت عمّته من أبيها منطقة (١) إبراهيم، وكانت تحضن يوسف وتحبّه حبّاً شديداً، فلمّا ترعرع أراد يعقوب انتزاعه منها، فشدّت المنطقة على وسطه ثمّ أظهرت ضياعها، فتفحّص عنها فوجدت محزومة عليه، فصارت أحـق بـه فـي شريعتهم.

⁽١) المِنْطَقَة: ما ينتطق به، اى: يشدّ على الوسط.

وقيل: كان لأبي أمّه صنم. فسرقه وكسره وألقاه في الجيف. وقيل: كان في البيت عناق أو دجاجة فأعطاها السائل.

والقول الأوّل أشهر وأكثر. ومرويّ عن أئمّننا ﷺ وابن عبّاس والضحّاك والجبائي.

﴿ فَاسَرُهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ فأخفى يوسف تلك الكلمة الّتي قالوها , أو تلك الإجابة ، أو نسبة السرقة إليه ﴿ وَلَهُ يُبْنِهَا لَهُمْ ﴾ ولم يظهرها لهم . وقيل : الضمير كناية بشريطة التفسير ، وتفسيرها قوله : ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرَّ مَكَاناً ﴾ فإنّه بدل من «أسرّها» . والمعنى : قال في نفسه : أنتم شرّ مكاناً ، أي : منزلة في السرقة ، لسرقتكم أخاكم ، أو في سوء الصنيع ممّا كنتم عليه من ظلمكم على أخيكم وعقوق ابيكم . وتأنيث هذا القول باعتبار الكلمة أو الجملة . وفيه نظر ، إذ المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن . ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ وهو يعلم أنّه ليس الأمر كما تصفون ، ولم يصح لي ولأخي سرقة .

ثمّ رقّتوا في القول واستعطفوه بذكر أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَيُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ اباً شَيْخاً عَبِيراً ﴾ في القدر أو السنّ ﴿فَخُذْ أَحْدَنَا مَكَانَهُ ﴾ بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد، فإنّ أباه تكلان على أخيه الهالك، مستأنس به ﴿إِنَّما شَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ ﴾ إِمّا متعدٍّ، ومعناه: من المحسنين إلينا، فأتمم إحسانك. أو لازم، ومعناه: من الذين عادتهم الإحسان، فلا تغيّر عادتك.

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَاخُذَ﴾ نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به، وحذف «من» ﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ هذا كلام موجّه بوجهين، ظاهره: أنّ أخذ غيره ظلم على فتواكم، فلو أخذنا أحدكم مكانه ﴿إِنَّا إِنَّا إِنَّا لَلْفَا لِمُونَ﴾ في مذهبكم هذا، فلا تطلبوا منّي ما تعرفون أنّه ظلم. وباطنه: أنّ الله تعالى أذن في أخذ من وجدنا الصاع في رحله، لمصلحته ورضاه عليه، فلو أخذت غيره كنت ظالماً عاملاً بخلاف ما أمرت به.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْاسُوا مِنْهُ ﴾ ينسوا من يوسف وإجابته إيّاهم. وزيادة السين والتاء للمبالغة، مثل: استعصم. وعن البرّي: استأيس، بالألف وفتح الياء من الهمزة، وإذا وقف حمزة ألقى حركة الهمزة على الياء على أصله. ﴿ خَلَصُوا ﴾ انفردوا عن الناس واعتزلوا بحيث لا يخالطهم سواهم ﴿ نَجِيّا ﴾ متناجين. وإنّما وحّده لائه مصدر أو بزنته، كما قيل: هم صديق. وجمعه أنجية، ك: نديّ وأندية. أو كان التقدير: ذوي نجوى، أو فوجاً نجياً، أي: متناجياً. وكان تناجيهم في تدبير أمرهم، أيرجعون أم يقيمون؟ وإذا رجعوا فماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ في السنّ، وهو روبيل ابن خالة يوسف، وهو الّذي نهى إخوته عن قتله. أو في الرأي والعلم، وهو شمعون، وكان رئيسهم، وقيل: في الشجاعة، وهو يهوذا. وعن محمّد بن إسحاق وعلىّ بن إبراهيم بن هاشم(١١) أنّـه

⁽١) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣٤٩.

لاوي. ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَلِمَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْفِقاً مِنَ اللهِ ﴾ عهداً وثيقاً. وإنّما جمعل حلفهم بالله موثقاً منه، لأنّه بإذن منه وتأكيد من جهته. ﴿ وَمِنْ قَبْلُ ﴾ ومن قبل هذا ﴿ مَا فَرَّطَتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ قصّرتم في شأنه.

و«ما» مزيدة. ويجوز أن تكون مصدراً، على أنّ محلّ المصدر الرفع على الابتداء، وخبره الظرف، وهو «من قبل». ومعناه: ووقع من قبل تـفريطكم فـي يوسف. أو النصب عطفاً على مفعول «ألم تعلموا»، وهو «أنّ أباكـم». ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف. كأنّه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عـليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف. وأن تكون موصولة، بمعنى: ومن قبل هذا ما قدّمتموه في حقّه من الخيانة العظيمة. ومحلّه ما تقدّم.

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿ حَتَّىٰ يَأَذَنَ بِي ابِي ﴾ في الانصراف إليه ﴿ أَوْ يَحْتُمُ اللهُ بِي ﴾ أو يقضي لي بالخروج منها، أو بخلاص أخي منهم، أو بالمقاتلة معهم لتخليصه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ لأنَّ حكمه لا يكون إلا بالحقّ.

﴿ (رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيعُمْ قَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْتُكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر ﴿ وَمَا شَهِذَا إِلَّا بِمِنَا عَلَيْنَا ﴾ بأن رأينا أنّ الصواع استخرج من وعائه ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ ﴾ للأمر الخفيّ ﴿ حَافِظِينَ ﴾ فلا ندري أنّه سرق، أو سُرق ودسّ الصواع في رحله. أو وماكنّا للعواقب عالمين، فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنّه سيسرق، أو أنّك تصاب به كما أصبت بيوسف.

﴿ وَاسَالِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر. والعرب تسمّي الأمصار والمدائن قرى. أو قرية بقربها لحقهم المنادي فيها لطلب السقاية. والمعنى: أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصّة. ﴿ وَالْعِيزَ النَّتِي أَقَبُلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير الَّتي توجّهنا فيهم وكنّا معهم. وهم كانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب. وقيل: من

أهل صنعاء. وإنّما قالوا ذلك لأنّهم كانوا أهل تهمة عند يعقوب. ﴿ وَإِنَّا لَصَالِقُونَ﴾ تأكيد في محلّ القسم.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْسُكُمْ أَمْرًا فَصَبُّرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِينِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٨﴾ وَقَوَّلَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَآ أَسَغَىٰ عَلَى يُوسُفَ وَابْيضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُو كَعْلِيمٌ ﴿٨٨﴾

فلمّا رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال أخوهم ﴿قَالَ﴾ ما عندي أنّ الأمر على ما تقولونه ﴿ بَلْ سَوْلَتُ ﴾ أي: زيّنت وسهّلت ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أردتموه فقد تموه، وإلّا فما أدرى الملك أنّ السارق يؤخذ بسرقته لولا تعليمكم ﴿ فَصَبْرُ جَمِيلٌ ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَاتِينِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ بيوسف وبنيامين وأخيهما الذي توقّف بمصر ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْطَلِيمُ ﴾ بحكمة بحالي في الحزن والأسف، وبحالهم ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في تدبيره، لم يبتلني إلّا بحكمة ومصلحة.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما صادف منهم ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي: يا أسفاً، تعال فهذا أوانك. والأسف أشدّ الحزن والحسرة. والألف بدل من ياء المتكلّم. وإنّما تأسّف على يوسف دون أخويه والأمر الحادث هو مصببتهما، لأنّ مصببة يوسف وإن كانت قديمة، لكن كانت قاعدة المصببات التي تربّبت عليها الرزايا في ولده. أو لأنّ الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً طريّاً عنده، آخذاً بمجامع قلبه. ولاتّه كان واثقاً بحياتهما دون حياته.

عن ابن عبّاس أنّه قال: لم تعط أمّة من الأمم «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» عند

المصيبة إلا أمّة محمد ﷺ . ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال: «يا أسفى على يوسف».

﴿ وَالْبَيْضَاتُ عَيْدَاهُ﴾ لكثرة بكائه ﴿ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ والغمّ الشديد، فكأنّ العبرة محقت سواد العين، وقلبته إلى بياض كدر، وقيل: ضعيفة. وقيل: إنّه عمي ستّ سنين، وروي: ما جفّت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على الأرض أكرم على الله من يعقوب. قيل اشترى يعقوب يوماً جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت، ولأجل ذلك ابيضّت عيناه من كثرة البكاء في فراق يوسف.

وفيه دليل على جواز التأسّف والبكاء عند التفجّع. ولعلّ أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف، فإنّه قلّ من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله الله الله على ولده إبراهيم وقال: القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الربّ، وإنّا عليك يا إبراهيم لمحزونون.

﴿ فَهُوَ كَفِلِيمٌ ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه، ولا يظهره. فعيل بمعنى مفعول، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعْظُومٌ ﴾ (١١). من: كظم السقاء إذا شدّه على ملئه. أو بمعنى فاعل، كقوله: ﴿ وَالْكَاظِينِ الْفَيْظَ ﴾ (١٦). من: كظم الغيظ إذا اجترعه. وأصله: كظم البعير جرّته (١٦) إذا ردّها في جوفه.

وعن رسول الله ﷺ «أنّه سأل جبرئيل ما بسلغ من وجد يعقوب عملى يوسف؟ قال: وجد سبعين ثكلي. قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد. وما ساء ظنّه بالله ساعة قطّ».

⁽١) القلم: ٤٨.

⁽٢) آل عمران: ١٣٤.

⁽٣) الجِرَّةُ: ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه.

قَالُواْ تَاللَهِ تَفْتُواْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكَينَ ﴿ ٥٨﴾ قَالَ إِنَّمَاۤ أَشْكُوا بَشِي وَحُزْنِيٓ إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿ ٨٨﴾ يَا بَنِيَّ اذْهُبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يُئِيَّاسُ مِن رَوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿ ٨٧﴾

﴿قَالُوا تَاشِهِ تَفْتَوُا﴾ أي: لا تفتأ ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يُـوسُفَ﴾ تـفجّعاً عـليه. فحذف «لا»، كما في قول امرىء القيس(١٠ حين ذهب ذات ليلة إلى قصر بـنت قيصر ملك الروم، فقالت: حضرت الرقباء، ولم يتيسر الوصال ـ:

فــقلت يــمين الله أبــرح قــاعداً ولو قطّعوا رأسي لديك وأوصالي

لأنّه لا يلتبس بالإتبات، فإنّ القسم إذا لم تكن معه علامة الإثبات كان على النغي، ولو كان إثباتاً لم يكن بدّ من اللام والنون.

﴿ حَتَّى تَكُونَ حَوَضا﴾ مريضاً مشرفاً على الهلاك. وقيل: الحرض الذي أذابه هم أو مرض. وهو في الأصل مصدر، ولذلك لا يؤنّث ولا يجمع. والنعت بالكسر، كدنف ودَنِف. وهو المرض الذي لا يرجى زواله. ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْـهَالِكِينَ﴾ من الميّين.

قيل: دخل على يعقوب جار له فقال: يا يعقوب قد تهشّمت وفنيت، وبلغت من السنّ ما بلغ أبوك. فقال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله بم من هم يوسف. فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا ربّ خطيئة أخطأتها فاغفر لي. فكان بعد ذلك إذا سئل ﴿قَالَ إِنْمًا أَشْكُوا بَشِي﴾ همّي الذي لا أقدر الصبر

⁽۱) ديوان امرىء القيس: ١٤١.

عليه، من البتّ بمعنى النشر ﴿ وَحُزْنِي ﴾ روشدة غمّي ﴿ إِلَى اللهِ ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم، فخلّوني وشكايتي ﴿ وَأَعْلَمُ مِنْ اللهِ ﴾ من صنعه ورحمته، وأنه لا يخيب داعيه، ولا يدع الملتجى، إليه. أو وأعلم من الله بنوع من الإلهام. ﴿ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف.

وقيل: إنّه أوحي إلى يعقوب: إنّما وجدت عليكم لأنّكم ذبحتم شاة فـقام ببابكم مسكين فلم تطعموه، وإن أحبّ خلقي إليّ الأنبياء ثم المساكين، فـاصنع طعاماً وادع عليه المساكين لأرجع إليك يوسف، فصنع ذلك. ولهذا قال: «وأعلم من الله ما لا تعلمهن».

وقيل: رأى ملك الموت في المنام فسأله عن يوسف، فقال: هو حيّ.

وفي كتاب النبوّة بالإسناد عن سدير الصيرفي عن أبي جمعفر ﷺ قمال: إنّ يعقوب دعا الله سبحانه في أن يهبط عليه ملك الموت، فأجابه. فقال: ما حاجتك؟ قال: أخبرني هل مرّ بك روح يوسف في الأرواح؟ فقال: لا. فعلم أنّه حيّ.

وقيل: علم من رؤيا يوسف أنّه لا يموت حتّى يخرّ له إخوته سجّداً. ولذلك قال: ﴿ يَا بَنِيُ الْهَبُوا فَتَصَّسُوا﴾ أي: فتجسّسوا وتفحّسوا ﴿ مِنْ يُوسُفَ وَاخِيهِ ﴾ فتعرّفوا منهما. والتحسّس تطلّب الإحساس، وهو المعرفة. وكذا بالجيم. ﴿ وَلاَ تَتَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ﴾ ولا تقنطوا من فرجه وتنفيسه. وقيل: من رحمته. ﴿ إِنّهُ لاَ يَتْنَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ بالله تعالى وصفاته، فإنّ المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال عند البلاء.

قال الجبائي: العلّة في خفاء أخبار يوسف على يعقوب في المدّة الطويلة مع قرب المسافة، وعدم إخبار يوسف حاله له، أنّه حمل إلى مصر فبيع من عزيز فألزمه داره، ثمّ لبث في السجن بضع سنين، فانقطعت أخبار الناس عنه، فلمّا تمكّن احتال في إيصال خبره بأبيه على الوجه الّذي أمكنه، وكان لا يأمن لو بعث

٤٠٦ زيدة التفاسير ـج ٣

رسولاً إليه أن لا يمكّنه إخوته من الوصول إليه.

وقال المرتضى غين : «يجوز أن يكون ذلك ليوسف ممكناً، وكان عليه قادراً، لكن الله سبحانه أوحى إليه بأن يعدل عن اطلاعه على خبره تشديداً للمحنة عليه. ولله سبحانه أن يصعب التكليف وأن يسهله (١٠).

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيهِ قَالُواْ يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِنَّنَا بِبِضَاعَة مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَلِّلَ وَتَصَدَقُ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُنَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

ولمّا قال يعقوب لبنيه: «اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه» رجعوا إلى مصر رجعة ثانية ﴿ فَلَمّا نَحْلُوا عَلَيْهِ ﴾ على يوسف ﴿ قَالُوا يَا أَيُهَا الْحَزِيرُ مَسْنَا وَاهْلَنَا الشَّرُ ﴾ الهزال من شدّة الجوع. شكوا إلى يوسف ما نالهم من القحط وهلاك المواشي. ﴿ وَجِنْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾ رديئة أو قليلة، تردّ وتدفع رغبة عنها، من: أزجيته إذا دفعته، ومنه تزجية الزمان. قيل: كانت دراهم زيوفاً (الا تنفق في ثمن الطعام. وقيل: صوفاً وسمناً. وقيل: الصنوبر والحبّة الخضراء. وقيل: الأقط (الم

﴿ فَأَوْفِ﴾ فأتمم ﴿ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقُ عَلَيْنَا﴾ بالمسامعة وقبول المزجاة، والإغماض عن رداءته، أو بالزيادة على ما يساويها، وقيل: بردّ أخينا، ﴿ إِنَّ اللهُ يَجْزِي الْمُتَصَدُقِينَ ﴾ أحسن الجزاء، والتصدّق التفضّل مطلقاً، ومنه قوله ﷺ في القصر (٤)؛ «هذه صدقة تصدّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته». لكنّه اختصّ عرفاً

⁽١) تنزيه الأنبياء: ٥٧.

⁽٢) الزُّيُوف جمع الزائف، وهو: الدرهم الرديء المردود الذي دخله غشّ.

⁽٣) الأقطُ: الجبن.

⁽٤) أي: في قصر الصلاة في السفر.

بعطيّة يبتغى بها ثواب من الله. وتسميتهم ما هو فضل وزيادة صدقة. لا يلزمها صدقة حقيقة. لأنّ الصدقات محظورة على الأنبياء. وقيل: كانت تحلّ لغير نبيّنا ﷺ.

قَالَ هَلْ عَلَمْتُم مَّا فَعَلَّتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَتُمْ جَاهِلُونَ ﴿ ٨٩﴾ قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَّا يُوسُفُ وَهَذَا ٓ أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ٓ إِنَّهُ مَن يَتَق وَيَصْبُرُ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٩٠﴾ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرُكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُمَّا لَخَاطِيْنَ ﴿ ٩١﴾ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيُوْمَ يَفْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُو أَرْحَمُ الزَّاحِينَ ﴿ ٩٢﴾

ولمّا رأى يوسف من عجزهم وتمسكنهم لم يتمالك إلّا أن عرفهم نفسه و ﴿قَالِ لهم استفهاماً عن وجه القبح ﴿ هَلْ عَلِفتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ ﴾ من إذلاله وإبعاده عن أبيه، وإلقائه في البئر، والاجتماع على قتله، وبيعه بثمن بخس وأخيه إلى من إذراده عن يوسف، والتفريق بينهما، حتّى صار ذليلاً فيما بينكم، لا يستطيع أن يكلّمكم إلا بعجز وذلّة ﴿إذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ قبحه، فلذلك أقدمتم عليه، أو عاقبته. وإنّما قال ذلك تنصيحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم، لا معاتبة وتثريباً، وإنّما جهّلهم لأنّ فعلهم كان فعل الجهّال، أو لأنّهم كانوا حينئذٍ صياناً مشرفين الحلم طياشين(١٠).

⁽١) الطيّاش: من لا يقصد وجهاً واحداً لخفّة عقله.

وقيل: أعطوه كتاب يعقوب مضمونه: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر. أمّا بعد، فإنّا أهل بيت موكّل بنا البلاء. أمّا جدّي، فشدّت يداه ورجلاه ورمي به في النسار ليحرق، فنجّاه الله، وجعلت النار عليه برداً وسلاماً. وأمّا أبي، فوضع السكّين على قفاه ليقتل، ففداه الله. فأمّا أنا، فكان لي ابن وكان أحبّ أولادي إليّ وقرّة عيني وثمرة فؤادي، فذهب به إخوته إلى البريّة، ثمّ أتوني بقميصه ملطّخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه. ثمّ كان لي ابن، وكان أخاه من أمّه، وكنت أتسلّى به، فذهبوا به ثمّ رجعوا وقالوا: إنّه سرق، وإنّك حبسته عنّي وفجعتني به. وقد اشتدّ لفراقه حزني، حتّى تقوّس لذلك ظهري، وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلدسارقاً، فإن ردته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، والسلام.

فلمّا قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وزال صبره، ووضعه على عينيه، وانتحب حتّى بلّت دموعه القميص الذي عليه. ثمّ أقبل عليهم فقال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟

﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَاَنْتَ يُوسُفُ ﴾ استفهام تقرير ، ولذلك حقّق بداإنَّ » ودخول اللام عليه . وقرأ ابن كثير على الايجاب (١) قيل: عرفوه بزيّه وشمائله حين كلّمهم بسه وقيل: تبسّم فعرفوه بثناياه ، فإنّها كانت كالؤلؤ المنظوم . وقيل: رفع التاج عن رأسه ، فرأوا علامة بناصيته تشبه الشامة (٦) البيضاء ، وكانت لسارة ويعقوب مثلها .

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَنَا أَخِي﴾ من أبي وأمّي. ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدَ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ بالسلامة والكرامة، والاجتماع بعد طول الفرقة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَقَى﴾ يخف الله ﴿وَيَصْبِرَ﴾ على البليّات، أو على الطاعات

⁽١) أي: إنَّكَ، بدون همزة الاستفهام.

⁽٢) الشامة : الخال ، أي : بثرة سوداء في البدن حولها شعر .

وعن المعاصي ﴿ فَإِنَّ اللهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وضع «المحسنين» موضع الضمير للتنبيه على أنّ المحسن من جمع بين التقوى والصبر.

﴿ قَالُوا تَاشِ لَقَدُ آفَرُكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضّلك علينا بالحلم والعقل والعلم والعلم والعلم والملك. وحسن الصورة وكمال السيرة ﴿ وَإِن كُنّا لَخَاطِئِينَ ﴾ والحال إنّ شأننا أنّا كنّا مذنبين عمداً بما فعلنا معك، فلا جرم أنّ الله أعرّك وأذلّنا.

﴿ قَالَ لَا تَدْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ لا تعيير عليكم. تفعيل من الثرب، وهو الشحم الذي يغشي الكرش. ومعناه: إزالة الثرب، فاستعير للتقريع الذي يمزّق العرض ويذهب ماء الوجه. ﴿ النّيوْمَ ﴾ متعلّق بالتثريب، أو بالمقدّر للجاز الواقع خبراً أدرلا تثريب». والمعنى: لا أثرّبكم اليوم الذي هو مظنّة التثريب، فما ظنّكم بسائر الأيّام؟! أو بقول: ﴿ فَقَوْرُ اللهُ لَكُمْ ﴾ لأنّه صفح عن جريمتهم حين اعترفوا بها.

روي: أنَّ رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يـوم الفـتح، فـقال لقريش: ما ترونني فاعلاً بكم؟ قالوا: نظنٌ خيراً، أخ كريم وابن أخ كـريم، وقـد قدرت. فقال: أقول ما قال أخي يوسف: «لا تثريب عليكم اليوم».

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فإنّه يففر الصفائر والكبائر، ويتفضّل على التائب. ومن جملة كرم يوسف أنّهم لمّا عرفوه أرسلوا إليه وقالوا: إنّك تدعونا بالبكرة والعشيّ إلى الطعام، ونحن نستحي منك لما فرط منّا فيك. فقال: إنّ أهل مصر كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلّغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلّغ، ولقد شرّفت بكم وعظّمت في عيونهم حيث علموا أنّكم إخوتي، وأنّي من حفدة إبراهيم ﷺ.

ادْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجُه أَبِي يَأْت بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلَكُمُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِي لأَجِدُ رِبِحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن نُهَندُونِ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ تَالله إِنَّكَ لَهِي ضَاكِلكَ الْقَدْيِمِ ﴿٥٠﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشْيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجُهِهِ فَارْتَدَ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلَ لَكُمُ إِنِي ٓأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُواْ يَا آَبَانَا ٱسْتَغْفُرُ لَنَا ذَنُوبَيَاۤ إِنَّا كُمُّا خَاطِيْنَ ﴿٧٧﴾ قَالَ سَوُفَ أَسْتَغْفُرُ لَكُمْ رَبِي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٧٨﴾

وروي أنّه على لمّا عرّفهم نفسه سألهم عن ابيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه. فقال: ﴿ الْمَهُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ وهو القميص الذي كان عليه. قيل: القميص المتوارث من إبراهيم الذي كان في التعويذ. وهو الأصحّ. وهذا كان معجزاً منه، إذ لا يعرف أنه يعود بصيراً بإلقاء القميص على وجهه إلّا بالوحي، كما قال مجاهد: إنّ جبرئيل أمره أن أرسل إليه قميصك، فإنّ فيه ربح الجنّة، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلّا صحّ وعوفى.

﴿ فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَاتِ بَصِيرِا﴾ يرجع ذا بصر، أو يأت أبي وهو بصير ﴿ وَاتُونِي﴾ أنتم وأبى ﴿ بِالْمَلِكُمُ الْجَعِينَ﴾ بنسائكم وذراريكم ومواليكم.

قيل: يهودا هو حامل القميص، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطِّخاً بالدم إليه، فأفرِّحه كما أحزنته.

وقيل: حمله وهو حافٍ حاسر من مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثــمانين فرسخاً. وكان معه سبعة أرغفة. فلم يستوف الأرغفة في الطريق.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ من مصر، وخرجت من عمرانها. يقال: فصل من البلد فصولاً، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه. ﴿قَالَ الْبُوهُمْ﴾ لمن حضره من حفده ﴿ إِنِّي لَاجِدُ رِيحَ يُوسُفُ﴾ روي عن أبي عبدالله ﷺ قال: «وجد يعقوب ريح يوسف حين فصلت العير من مصر وهو بفلسطين، من مسيرة عشرة ليالٍ». وعن ابن عبّاس: مسيرة ثمان ليالٍ. وعنه أيضاً أنّ ريحاً هاجت فحملت ريح يوسف من قميصه. وذكر أنّ الصبا استأذنت ربّها أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها، فأته بها، ولذلك يتروّح كلّ محزون بريح الصبا.

فلمّا وصلت الربح إلى يعقوب قال: إنّي لأجد ربح يوسف ﴿ لَـوْلا أَن تَفْلُونِ ﴾ لولا أن تنسبوني إلى الفند. وهو نقصان عقل يحدث من هرم، ولذلك لا يقال: عجوز مفنّدة، لأنّ نقصان عقلها ذاتيّ. وجواب «لولا» محذوف، تقديره: لصدّقتموني، أو لقلت: إنّه قريب.

﴿قَالُوا﴾ أي: الحاضرون ﴿قَاشِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْـقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عـن الصواب قدماً، بإفراط محبّتك ليوسف، وإكثار ذكره، وتوقّعك للقائه، وكان عندهم أنّه قد مات.

﴿ فَلَمَّا أَن جَآءَ الْبَشِيرُ ﴾ يهوذا ﴿ الْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَازِتَدَّ بَصِيراً ﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القرّة ﴿ قَالَ اللّهُ أَقُل لَكُمْ إِنّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف وإنزال الفرج. وقيل: «إنّي أعلم» كلام مبتداً، والمقول «لا تيأسوا من روح الله»، أو «إنّى لأجد ريح يوسف».

روي: أنّه سأل البشير كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر. قال: ما أصنع بالملك؟! على أيّ دين تركته؟ قال: على دين الاسلام. قال: الآن تمّت النعمة.

ولمّا اجتمع الإخوة عند أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَـنَا نُنُـونِنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ومن حقّ المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسأل له المغفرة.

﴿قَالَ سَوْفَ السَّقَفْقِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّجِيمُ ﴾ أَخَره إلى السحر، أو إلى صلاة الليل، أو إلى ليلة الجمعة، تحرياً لوقت الإجابة، أو ليتعرف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، أو إلى أن يستحلّ لهم يوسف، أو يعلم أنّه عفا عنهم، فإنّ ٤١٢ زيدة التفاسير ـج ٣

عفو المظلوم شرط المغفرة.

وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر، فلمّا فرغ رفع يديه فقال: اللّهمّ اغفر لي جزعي على يوسف، وقلّة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم. فأوحي إليه: أنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين.

وروي: أنّهم قالوا ليعقوب وقد علتهم الكآبة: إن لم يوح إليك بالعفو عنّا فلا قرّت لنا عين أبداً. فاستقبل القبلة قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمّن، وقام إخوته خلفهما، أذلّة خاشعين عشرين سنة، حتّى بلغ جهدهم، وظنّوا أنّ الهلكة وقسعت عليهم. فنزل جبرئيل ﷺ: قد أجاب دعوتك في ولدك.

وروي: أنّ يوسف وجّه إلى أبيه جهازاً وماثتي راحلة ليتجهّز إليه بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند، والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكّأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس، فقال يا يهوذا: أهذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ولدك.

فَلَمَّا دَحَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إلِيه أَبُويه وَقَالَ ادْخُلُواْ مَصْرَ إِن شَاءَ اللّهُ آمَنِينَ ﴿ ٢٩﴾ وَرَفَعَ أَبُويهِ عَلَى الْمَرْشِ وَخَرُواْ لَهُ سُجَدًا وَقَالَ يَآ أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُوْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِنَ الْبَدُو مِن بَعْد أَن نَزعَ الشّيطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبّي لَطيفٌ لَمَا يَشَآءُ إِنّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿ ٢٠٠﴾

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ فلمّا لقيه يعقوب وأهله في موضع خارج من

سورة يوسف، آية ٩٩ ــ ١٠٠

مصر أو في بيت هناك، قال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن محمد بن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله على النبوة بالإسناد عن محمد بن أبي عبدالله على الستقبله، فلمّا رآه همّ أن يترجّل له، ثمّ نظر إلى ما هو فيه من الملك فلم يفعل. فلمّا سلّم على يعقوب نزل عليه جبرئيل، فقال له: يا يوسف إنّ الله جلّ وعلا يقول: منعك أن تنزل إلى عبدي الصالح ما أنت فيه، أبسط يدك، فبسطها فخرج من بين أصابعه نور، فقال: ماهذا يا جبرئيل؟ قال: هذا إنّه لا يخرج من صلبك نبيّ أبداً، عقوبة بما صنعت بيعقوب، إذ لم تنزل إليه».

وعلى تقدير صحّة هذه الرواية فالعتاب على يوسف لأجل ترك ندب وأدب صدر منه، لا ترك واجب، لمكان العصمة فيه.

قيل: إنّ يوسف قال له لمّا التقيا: يا أبت بكيت عليّ حتّى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟ فقال: بلي، ولكن خشيت أن يسلب دينك، فيحال بيني وبينك.

وقيل: إنّ يعقوب وولده وسائر أهله دخلوا مصر، وهم اثنان وسبعون رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستّمائة ألف وخـمسمائة وبـضعة وســتين رجلاً، سوى الذرّيّة والهرمى، وكانت الذرّيّة ألف ألف ومائتى ألف.

وحين دخلوا عملى يموسف ﴿آوَىٰ إِلَمْيَهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضمّ إليمه أباه وخالته واعتنقهما. نزّلها الله تعالى منزلة الأمّ تنزيل العمّ منزلة الأب في قوله: ﴿ وَإِلٰهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (١). أو لأنّ يعقوب تزرّجها بعد أمّه، والرابة تدعى أمّاً.

﴿ وَقَالَ الْخُلُوا مصر إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ من القحط وأصناف المكاره. وحذف الجزاء لدلالة الكلام عليه. والمشيئة متعلّقة بالدخول المكيّف بالأمن.

⁽١) البقرة: ١٣٣.

وقال عليّ بن إبراهيم: «حدّثني محمد بن عيسى بن عبيد بن يقطين أنّ يحيى بن أكثم سأل موسى بن محمد بن عليّ بن موسى مسائل، فعرضها على أبي الحسن عليّ بن محمد يعقوب وولده ليوسف؟ عليّ بن محمد يعقوب وولده ليوسف؟ فأجاب أبو الحسن على أمّ اسجود يعقوب وولده فإنّه لم يكن ليوسف، وإنّما كان ذلك منهم طاعة لله وتحيّة ليوسف، كما أنّ السجود من الملائكة لآدم كان منهم طاعة لله وتحيّة لادم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم»(١).

﴿ وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَاوِيلُ رُؤْنِايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ رأيتها آيّام الصبا ﴿ قَدْ جَعَلَهُا رَبِّي حَقّا ﴾ صدقاً ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾ يقال: أحسن بي وإليّ، وأساء بي وإليّ ﴿ إِذْ أَخْرَ جَنِي مِنَ السَّجْنِ ﴾ ولم يذكر الجبّ لئلّا يكون تثريباً عليهم ﴿ وَجَآهَ بِحُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ من البادية، لأنّهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو ﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَزَعُ السَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ أفسد بيننا وحرش، من: نزغ الرائض (الدابّة، إذا نخسها وحملها على الجرى.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِهَا يَشْمَأُهُ لطيف في تدبير عباده، إذ ما من صعب إلَّا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهّل دونها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بوجوه المصالح في تـدابــــر العباد ﴿الْمَكِيمُ﴾ الذي يفعل كلّ شيء في وقته، وعلى وجه تقتضي الحكمة.

روي: أنّ يوسف ﷺ أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه. فأدخله خزائن

⁽١) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣٥٦.

⁽٢) الرائض: الَّذي يعلُّم الدوابُّ السير ويذلُّلها ويطوَّعها.

سورة يوسف، آية ١٠١ ٤١٥

الورق والذهب وخزائن الحلميّ وخزائن الثياب وخزائن السلاح، وغير ذلك. فلمّا أدخله خزائه القراطيس وما كتبت إليّ على أدخله خزانه القراطيس وما كتبت إليّ على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبرئيل. قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط منّي إليه فاسأله. فقال جبرئيل: الله أمرني بذلك، لقولك: «وأخاف أن يأكله الذئب». قال: فهمّا خفتني.

وفي كتاب النبوّة بالإسناد عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر ﷺ، قال: «قلت له: كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال: عاش حولين. قلت: فمن كان الحجّة لله في الأرض، يعقوب أم يوسف؟ قال: كان يعقوب الحجّة، وكان الملك ليوسف، فلمّا مات يعقوب حمله يوسف في تابوت إلى أرض الشام فدفنه في بيت المقدس، وكان يوسف بعد يعقوب الحجّة. قلت: وكان يوسف رسولاً نبيّاً؟ قال: نعم، أما تسمع قوله ﷺ؛ ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات﴾ ؟».

وفي رواية أخرى: أنّ يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثمّ مات. وأوصى أن يدفنه في الشام إلى جنب أبيه إسحاق. فمضى بنفسه ودفنه، ثمّ عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة.

وبالإسناد عن أبي خالد عن أبي عبدالله ﷺ قال: «دخل يوسف السجن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ومكث فيها ثماني عشرة سنة، وبقي بعد خروجه ثمانين سنة، فذلك ماثة وعشر سنين».

رُبِّ قَدُ آثَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيي فِي الدُّثَيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسُلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

ولمّا جمع الله سبحانه له شمله، وأقرّ له عينه، وأتمّ له رؤياه، ووسّع عليه في

ملك الدنيا ونعيمها، علم أنّ ذلك لا يبقى له ولا يدوم، فطلب من الله سبحانه نعيماً لا يفنى، وتاقت نفسه إلى الجنّة، فتمنّى الموت ودعا به، ولم يتمنّ ذلك من قبله ولا بعده أحد من الأنبياء، فقال: ﴿ رَبُّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ بعض ملك الدنيا، وهو ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَصَادِيثِ ﴾ الكتب أو الرؤيا. و«من» أيضاً للتبعيض، لأنّه لم يؤت كلّ التأويل.

﴿ فَاطِرَ السَّمُوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما. وانتصابه على أنّه صفة المنادى، أو منادى برأسه. ﴿ انتَ وَلِينِي﴾ ناصري، أو متولّي أمري ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما ﴿ تَوَقَّنِي﴾ اقبضني عند انقضاء أجلي ﴿ مُسْلِماً وَالْجَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ والصَّالِحِينَ ﴾ والصَّالِحِينَ ﴾ المَّالِحينَ أَلَّهُ والكرامة.

روي أنّ يوسف لمّا توفّاه الله طيّباً طاهراً تخاصم أهل مصر في مدفنه حتّى همّوا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمرّ عليه الماء، ثمّ يصل إلى مصر، ليكونوا شرعاً فيه. ثمّ نقله موسى ﷺ إلى مدفن آبائه. وقد ولد له من راعيل ميشا وأفرائيم. وهو جدّ يوشع بن نون ورحمة امرأة أيّوب ﷺ.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءَ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواَ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَهْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف. والخطاب للرسول ﷺ. وهمو مبتدأ ، وقوله: ﴿ مِنْ أَنْفِيَاءِ الْغَيْبِ نُوجِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبران له. وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْتُكُرُونَ ﴾ كالدليل على هذين الخبرين.

والمعنى: أنَّ هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بوحي، لانَّك لم تحضر إخوة يوسف حين عزموا على ماهمّوا به من أن يجعلوه في غيابة الجبّ، وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذّبيك أنّك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلّمته منه. وإنّما حذف هذا الشقّ استغناءً بذكره في غير هذه القصّة، كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (١١). وهذا تهكّم بقريش وبمن كذّبوه.

وَمَا آَكُثُرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرِ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذُكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيْنِ مِن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكُثُرُهُمْ بِاللّه إِلاَّ وَهُم مُشْرِكُونَ ﴿١٠٥﴾ أَقَامَنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ عَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيهُمُ السَّاعَةُ مَشْرِكُونَ ﴿١٠٥﴾ أَقَامَنُواْ أَن تَأْتِيهُمْ عَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيهُمُ السَّاعَةُ مَثْمَا لاَ يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

ولمّا تقدّم ذكر الآيات والمعجزات الّتي لو تفكّر وا فيها عرفوا الحقّ من جهتها فلم يتفكّروا، بيّن عقيبها أنّ التقصير من جهتهم حيث رضوا بالجهل، وليس سن جهته سبحانه، لأنّه نصب الأدلّة والبيّنات، ولا من جهتك، لأنّك دعوتهم، فقال: ﴿ وَمَا أَكْثُو النَّاسِ ﴾ يريد العموم، وعن ابن عبّاس: أراد أهل مكّة. ﴿ وَلَوْ حَرْضَتَ ﴾ على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات عليهم ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لعنادهم، وتصميمهم على الكفر، والشرطيّة معترضة.

﴿ وَمَا تَسْالُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ على الأنباء، أو القرآن ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ جعل، كما يعطى حملة الأخبار، فيصدّهم ذلك عن الإيمان، فأعذارهم منقطعة ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا يَكُنُّ ﴾ عظة

⁽۱) هود: ٤٩.

من الله ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ عامّة.

﴿ وَعَائِنَ مِنْ آیَةٍ ﴾ وكم من علامة ودلالة من الدلائل على وجود الصانع وحكمته، وكمال قدرته و توحيده ﴿ فِي السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الشمس والقمر، والسحاب والنجوم والجبال، والشجر وألوان النبات، وأحوال المتقدّمين، وآشار الأمم السالفة في الأرض ﴿ يَمُزُونَ عَلَيْهَا ﴾ على الآيات ويشاهدونها ﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرضُونَ ﴾ لا يتفكّرون فيها، ولا يعتبرون بها.

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ فِي إقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ ﴾ بعبادة غيره، أو باتخاذ الأحبار أرباباً. أو نسبة التبني إليه، أو القول بالنور والظلمة، أو النظر إلى الأسباب كأهل التنجيم، أو الذين يشبّهون الله بخلقه. وقيل: هم مشركوا مكة. وقيل: المنافقون. وقيل: أهل الكتاب.

وعن الباقر ﷺ : «أنّه شرك الطاعة لا شرك العبادة. أطاعوا الشيطان في ارتكاب المعاصي».

وروي عن أبي عبدالله ﷺ: «في شأن رجل يقول: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لضاع عيالي، جعل لله شريكاً في ملكه تعالى. يرزقه ويدفع عنه».

وروى محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا ﷺ أنّه قال: «إنّه شــرك لا يبلغ به الكفر».

﴿ أَفَامِنُوا أَن تَاتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِن عَذَابِ اللهِ ﴾ عقوبة تنغشاهم وتشملهم ﴿ أَوْ تَاتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها، غير مستعدّين لها.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِيَّ أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَّا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبُحَانَ اللهِ وَمَآ أَنَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِيَ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلَهُمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقُواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿ قُلْ هَذِهِ ﴾ يعني: الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمعاد ﴿ سَبِيلي ﴾ ثم فسر السبيل بقوله: ﴿ أَنْ هُوا إِلَى الشِّهِ إلى توحيده وعدله. قبل: هو حال من الياء. ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ بيان وحجّة واضحة غير عمياء ﴿ أَنَا ﴾ تأكيد للمستتر في «أدعو» أو «على بصيرة». ﴿ وَمَنْ التَّبَعْنِي ﴾ عطف عليه ﴿ وَسُبْحَانَ اللهِ ﴾ وأنزّه لله من الشركاء ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وأنزّه تنزيهاً من الشركاء.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً ﴾ رد لقولهم: ﴿ لَوْ شَآءَ رَبُنَا لَانْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ (١٠. وقيل: معناه نفي استنباء النساء. ﴿ فُوجِي إِلَيْهِمْ ﴾ كما يوحى إليك، ويميّزون بذلك عن غيرهم. وقرأ حفص: نوحي، في كلّ القرآن. ووافقه حمزة والكسائي في سورة الانبياء (١٠). ﴿ مِنْ أَهْلِ التَّقْرَىٰ ﴾ لأنّ أهلها أعلم وأحلم من البدو، وأهل البوادي من أهل الجفاء والقسوة.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من المكذّبين بالرسل والآيات، فيحذروا تكذيبك. أومن المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها، فيقلعوا عن حبّها ﴿ وَلَذَازُ الْآخِرَةِ ﴾ ولدار الحال، أو الساعة، أو الحياة الآخرة ﴿ خَيْرُ لِلَّذِينَ اتّقَوْا ﴾ الشرك والمعاصي ﴿ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا أنّها خير.

⁽١) فصّلت: ١٤.

⁽٢) الأنساء: ٧.

روى أبو سعيد الخدري عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «شيء يسير من الجنَّة خير من الدنيا وما فيها».

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء، حملاً على قوله: «قُــلْ هــذهِ سبيلي»، أي: قل لهم: أفلا تعقلون.

حَتَّىٰ إِذَا آسْتَيَّاسَ الرُّسُلُ وَظُنُواۚ أَهُمْ قَدْ كُذُبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُتَخِيَ مَن نَّشَآءٌ وَلاَ يُرِدُ بِأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِلْأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بُيْنَ يَدَيْثِهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن حال الرسل مع أممهم تسلية للرسول ﷺ ، فقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْفَسَ الرُّسُلُ ﴾ غاية محذوف دلِّ عليه الكلام ، أي : لا يغررهم تمادي أيّامهم ، فإنّ من قبلهم أمهلوا حتّى أيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا ، أو عن إيمانهم ، لانهماكهم في الكفر ، مترفّهين متمادين فيه من غير مانع . أو التقدير : وما أرسلنا قبلك إلّا رجالاً قد تأخّر نصرنا إيّاهم ، كما أخّرناه عن هذه الأمّة ، حتّى إذا استيأس الرسل .

﴿ وَظُنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُوا﴾ أي: كذّبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنّهم ينصرون. أو كذّبهم القوم بوعد الإيمان. وقيل: الضمير للمرسل إليهم، أي: وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذّبوهم بالدعوة والوعيد. وقيل: الأوّل للمرسل إليهم، والتّاني للمرسل، أي: وظنّوا أن الرسل قد كُذبوا وأخلفوا فيما وعد لهم من النصر، وخلط الأمر عليهم. وما روي عن ابن عبّاس: أنّ الرسل ظنّوا أنّهم أخلفوا ما وعدهم الله من النصر. إن صحّ فقد أراد بالظنّ ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشريّة، وأما الظنّ الذي هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر، فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربّهم، وأنّه متعال عن خلف الميعاد، منزّه عن كلّ قبيح؟!

وقرأ غير الكوفيين بالتشديد، أي: وظنّ الرسل أنّ القوم قد كـذّبوهم فـيما أوعدوهم.

﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَتَجِينَ مَن نَشَآءُ﴾ النبيّ والمؤمنين. وإنّما لم يعيّنهم للدلالة على أنّهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم، لا يشاركهم فيه غيرهم.وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: فتُجِيّ (١٠)، على لفظ الماضي المبنيّ للمفعول. ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَالسُنَا عَنِ الْفَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ إذا نزل بهم.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِ فَى قصص الأنبياء وأمهم، أو في قصّة يوسف وإخوته ﴿ عِبْرَةً ﴾ وبصيرة وموعظة ﴿ لِأَوْلِي الْأَنْبَابِ ﴾ لذوي السقول السبرّأة عن الشوائب، والركون إلى الحسّ وسائر الأغراض، فإنّ من تفكّر بالعقل الخالص أنّ نبيّنا الله الله على حسن نظمه ومعانيه بحيث لم يقدر أحد من إتيان مثل ذلك، لعلم أنّه أوضح برهان على صحة نبوته.

﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ ﴾ ما كان القرآن حديثاً مفترى ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب الإلهيّة ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلُّ شَيْعٍ ﴾ يحتاج إليه في الدين ، إذ ما من أمر دينيّ إلا وله سند من القرآن ، فإنه القانون الذي يستند إليه السنّة والإجماع والقياس المنصوص العلّة ﴿ وَهُدئ ﴾ من الضلال ﴿ وَرَحْمَةُ ﴾ ينال بها خير الدارين ﴿ فَوَمْ مُؤْمِدُونَ ﴾ يصدّقونه . إنّما خصّهم بذلك لأنهم المنتفعون به دون غيرهم .

⁽١) وفي قراءة أُخرى: فَنُنَجِّي، على لفظ المضارع.

en de la companya de Mangana de la companya de la company Mangana de la companya de la companya

e e



سورة الرعد

مكيّة، وهي ثلاث وأربعون آية. أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ سحاب مضى وكلّ سحاب يكون إلى يوم القيامة، وكان يوم القيامة من الموفين بعهد الله تعالى».

وقال أبو عبدالله ﷺ: «من أكثر قراءة الرعد لم يصبه الله بصاعقة أبداً، وإن كان مؤمناً أدخل الجنّة بغير حساب، وشفع في جميع من يعرف من أهمل بسته وإخوانه».

ولمًا ختم الله سبحانه سورة يوسف ﷺ بذكر قصص الأنبياء ﷺ ، افتتح هذه السورة بأنّ جميع ذلك آيات الكتاب، وأنّ الذي أنزله هو الحقّ، فقال:

بِسُمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّرِّ بِنْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيِّ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِكَ الْحَقُّ وَلَكِنَ أَكْثَرَ

الَّنَاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿ ١ ﴾

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْمَرَّ ﴾ قد فسّرناه في أوّل سورة البقرة، وبيّنًا سا

قيل فيه. روي أن معناه: أنا الله أعلم وأرى. ﴿قِلْكُ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني بـالكتاب السورة. و«تلك» إشارة إلى آياتها، أي: تلك الآيات آيـات السـورة الكـاملة، أو القرآن.

﴿ وَالَّذِي أَنْزِلَ إِلْيَكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وهو القرآن. ومحلّه الجرّ بالعطف على الكتاب، عطف العامّ على الخاصّ، أو عطف إحدى الصفتين على الأخرى. أو الرفع بالابتداء، وخبره ﴿ الْحَقُّ ﴾ . والجملة كالحجّة على الجسلة الأولى. وعلى الأوّل خبر مبتدأ محذوف، أي: الآيات الجامعة للوصفين هي الحقّ. وتعريف الخبر وإن دلّ على اختصاص المنزل بكونه حقّاً، فهو أعمّ من المنزل صريحاً أو ضمناً، كالمثبت بالقياس المنصوص العلّة والإجماع، وغير ذلك ممّا نطق المنزل بحسن البّاعد. ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنْاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ لإخلالهم بالتأمّل والنظر فيه.

الله الذي رَفَعَ السَّمَاوَات بِغَيْر عَمَد تَرُوْهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمَّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِلُ الآيات لَعَلَكُم بِلِقاء رَبِكُمْ تُوقِتُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الشَّمَوَات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ الْنَيْنِ يُعْشِي اللَّيلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي وَلَيْ الْمَرْتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ الْنَيْنِ يُعْشِي اللَّيلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي وَلَيْ لَلْمَاتِ لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مَنْ أَعْضَهَا وَرَاتٌ وَجَنَاتُ مِنْ مَنْ فِي اللَّرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتُ مِنْ مَنْ عَلَى يَعْضَ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتُ مَنْ عَلَى يَعْضَ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتُ مِنْ مَنْ عَلَى يَعْضَى فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَعَنَاتُ مَنْ عَلَى يَعْضَ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَاعِلًا مُعْضَلِ مُعْمَلِ مُعْمَلًا مُعْضَمَا وَيَعْمَلُ مُعْمَى اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّوْمُ مَنْ فِعْلَمُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ مَنْ اللَّهُ اللْفَعَلَ اللَّهُ مَنْ مِنْ اللَّهُ مُنْ مَنْ اللَّهُ الْعَلَى اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ مِنْ اللَّهُ اللْهُ اللَّهُ اللْهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ اللَّهُ الْمُؤْمِ الْمُعْمَالِ اللَّهُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمُ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمُ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُومُ الْمُؤْمِ الْمُؤْمُ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمِ الْمُؤْمُ

ولتا ذكر سبحانه أنّهم لا يؤمنون، بين الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق، فقال: ﴿اللهُ الَّذِي يَوجِب التصديق بالخالق، فقال: ﴿اللهُ النَّذِي رَفّعَ السَّفْوَاتِ﴾ مبتدأ وخبر. ويجوز أن يكون الموصول صفة، والخبر «يدبّر الأمر». ﴿بِغَيْرِ عَمْدٍ﴾ أساطين(١١. جمع عماد، كإهاب وأهب، أو جمع عمود، كأديم وأدم. ﴿ تَرَوْنَهَا﴾ صفة الاعمد». أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السماوات كذلك.

وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، فإنّ ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرميّة، واختصاصها بما يقتضي ذلك، لابـدّ وأن يكون بمخصّص ليس بجسم ولا جسماني، يرجّح بعض الممكنات على بعض بإرادت. وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات الآتية.

﴿ ثُمُّ اسْتَوَى عَلَى الْفَرْشِ ﴾ بالحفظ والتدبير . وقد مضى (٢) تفسير استوائه على العرش غير مرّة .

﴿ وَسَخْرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ ذلَّلهما لما أراد منهما، كالحركة المستمرّة على حدّ معين من السرعة تنفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَعَى ﴾ لمدّة معيّنة يتمّ فيها أدواره، أو لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره، وهي: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُورَتْ وَإِذَا الشَّمْسُ . كُورَتْ وَإِذَا الشَّمْسُ . كُورَتْ وَإِذَا الشَّمْسُ . كُورَتْ وَإِذَا الشَّمْسُ .

﴿ يُدَبِّرُ الْأَهْرَ ﴾ أمر ملكوته وأمور خلقه، من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة، وغير ذلك، على الوجه الذي توجبه الحكمة ﴿ يُسَفَّسُلُ الآيَاتِ ﴾ يسبتنها مفصّلة في كتبه المنزلة، أو يحدث الدلائل واحداً بعد واحد ﴿ لَسَعْلَكُمْ بِلِقَآءِ رَبُّكُمْ تُوقِئُونَ ﴾ لكى تنفكروا فيها، وتتحقّقوا كمال قدرته، فتعلموا أنَّ من قدر على خلق

⁽١) في هامش النسخة الخطّية: «أساطين جمع أسطون، معرّب ستون. منه».

⁽٢) راجع ج ٢ ص ٥٣١.

⁽٣) التكوير: ١ _ ٢ .

هذه الأشياء وتدبيرها قدر على الإعادة والجزاء، وأنّ هذا المدبّر والمفصّل لابدّ لكم من الرجوع إليه.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَ الْأَرْضَ ﴾ بسطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام، ويتقلّب عليها الحيوان ﴿ وَبَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت، من: رسا الشيء إذا ثبت، جمع راسية. والتاء للتأنيث، على أنّها صفة أجبل، أو للمبالغة. ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ ضمّها إلى الجبال، لأنّ الجبال أسباب لتولّدها.

﴿ وَمِن كُلُّ النَّمْوَاتِ ﴾ متعلَّق بقوله: ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي: وجمعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين، كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والرطب واليابس، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة. وذكر «اثنين» للتأكيد.

﴿ يُفْشِي النَيْلَ النَّهَارَ ﴾ يلبس ظلمة الليل ضياء النهار، فيصير الجوّ مظلماً بعد ما كان مضيئاً. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: يغشّي بالتشديد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكِّرُونَ﴾ فيها، فإنّ تكوّنها وتخصّصها بوجه دون وجه دليل على وجود الصانع الحكيم الذي دبّر أمرها وهيّأ أسبابها.

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِمْعُ مُتَجَاوِرَاتُ﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متقاربة، بعضها طيّبة، وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادر موقع لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضيّة، وما يلزمها ويعرض لها بتوسّط ما يعرض من الأسباب السماويّة، من حيث إنّها متضامّة متشاركة في النسب والأوضاع.

﴿ وَجَنَّاتُ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَزَعُ وَنَخِيلٌ ﴾ أي: وبساتين فيها أنواع الأشجار والزروع. وتوحيد الزرع لأنّه مصدر في أصله. ﴿ صِنْوَانُ ﴾ نخلات اصلها واحد،

فإنّها جمع صنو^(۱)، وهي النخلة الّتي لها رأسان وأصلهما واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانِ﴾ ومتفرّقات مختلفات الأصول. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص: زرعٌ ونخيلٌ وصنوانٌ وغيرُ صنوان بالرفع عطفاً على «جنّات». وقرأ حفص: صُنوان بالضمّ. وهو لغة تميم، كقنوان^(۱) جمع قنو.

﴿ يُسْقَىٰ﴾ ما ذكر من الأعناب والزروع والنخيل المختلفة ﴿ بِمَاءٍ وَاجِدٍ وَنُفَضُّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضِ فِي الأَكْلِ ﴾ في الثمر شكلاً وقدراً ورائحة وطعماً. وذلك أيضاً من أوضح الدلالات على الصانع الحكيم، فإنّ اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: يسقى بالتذكير، على تأويل: ما ذكر. وقرأ حمزة والكسائي: يفضّل بالياء، ليطابق قوله: «يدبّر الأمر».

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ دلالات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم بالتفكّر فيها، ويستدلّون بها.

روي عن جابر قال: «سمعت النبي ﷺ يقول لعلي ﷺ: الناس من شجر شتّى، وأنا وأنت من شجرة واحدة. وقرأ: ﴿وَفِي الأَرْضِ قطع منجاورات وجنّات من أعناب﴾ الآية».

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَنْذَا كُمَّا تُرَابًا أَتَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَهِمْ وَأُوْلِكَ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمُ

 ⁽١) الصنو: إذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصل واحد فكـل واحـدة مـنها صِـنو، وجـمعها:
 صنوان.

⁽٢) القِنْو: العدَّق، وهو من النخل كالعنقود من العنب، وجمعه: قُنُوان.

فيها خَالدُونَ ﴿ ٥ ﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيْنَةُ قَبْلَ الْحَسَنَةَ وَقَدْ حَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثْلَاتُ وَإِنَّ رَبِّكَ لَذُو مَغْفَرَةً لَلْنَاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبِّكَ لَشَدِيدُ الْهِقَابِ ﴿٦ ﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِهِ إِنِّمَاۤ أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَاد ﴿٧﴾

ولمّا تفدّم ذكر الأدلّة على أنّه سبحانه قادر على الإنشاء والإعادة، عقبه بالتعجّب من تكذيبهم بالبعث والنشور، فقال: ﴿ وَإِن تَفَجّبُ ﴾ يا محمّد من قول هؤلاء الكفّار في إنكارهم البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق ﴿ فَعَجَبُ قَوْلُهُمْ ﴾ أي: حقيق بأن يتعجّب منه، فإنّ من قدر على إنشاء ما قصّ عليك من الصنائع العجيبة والفطرة البديعة، ولم يعي بخلقهنّ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، والآيات المعدودة كما هي دالله على وجود المبدأ، فهي دالّة على ومكان إلاعادة، من حيث إنّها تدلّ على كمال علمه وقدرته، وقبول الموادّ لأنواع تصرّفاته.

وقوله: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابِاً إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بدل من «قولهم»، أو مفعول له. والفاعل في «إذا» محذوف دلّ عليه «أإنّا لفي خلق جديد». ومعناه: أنبعث ونعاد بعدما صرنا تراباً؟! هذا ممّا لا يمكن. وهذا القول منهم نهاية في الأعجوبة، فإنّ الماء إذا حصل في الرحم استحال علقة ثمّ مضغة ثمّ لحماً، فإذا مات ودفن استحال ترآباً، فإذا جاز أن يتعلّق الإنشاء بالاستحالة الأولى، فلِمّ لا يجوز تعلّقه بالاستحالة النائدة؟!

﴿ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ أولئك المتمادون في كـفرهم الكـاملون فـيه. لأنّهم كفروا بقدرته على البعث مع وجود هذه الدلالات الواضحة عـلى صحّته ﴿ وَاوْنَذِنَكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْمَاقِهِمْ ﴾ مقيّدون بالضلال تخلية وخدْلاناً، لا يسرجسى خلاصهم. أو يغلّون يوم القيامة. ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْمَانُ النَّمَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا ينفكّون عنها. وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفّار.

﴿ وَيَسْتَغْجِلُونَكَ بِالسَّيْفَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ بالعقوبة قبل العافية، وذلك أنهم استمجلوا ما هدّدوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿ وَقَدْ خَلَتُ ﴾ مضت ﴿ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَمْلَاتُ ﴾ العقوبات لأمثالهم من المكذّبين، فما لهم لم يعتبروا بها، ولم يجوّزوا حلول مثلها عليهم ؟! والمثلة بفتح الثاء وضمّها، كالصدقة والصدقة من العقوبة، لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّنَةٍ سَيِّنَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (١١). ومنه المثال للقصاص، يقال: أمثلتُ الرجل من صاحبه، إذا اقتصصته منه.

﴿ وَإِنَّ رَبِّكَ لَذُو مَفْقِرَةٍ لِلتَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ أي: ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحلّه النصب على الحال، بمعنى: ظالمين الأنفسهم. والعامل فيه المغفرة، والتقييد به دليل على جواز العفو قبل التوبة، فإنّ التائب ليس على ظلمه، كما قال المرتضى رائ في هذا دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة، الآنه سبحانه دلّنا على أنّه يغفر لهم مع كونهم ظالمين، الأنّ قوله: «على ظلمهم» إشارة إلى الحال الّتي يكونون فيها ظالمين. ومن منع ذلك خصّ الظلم بالصغائر المكفّرة لمجتنب الكبائر، أو أوّل المغفرة بالستر والامهال.

﴿ وَإِنَّ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ للكفّار، أو لمن يشاء قبل التوبة.

وعن سعيد بن المسيّب: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه لما هنأ أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتّكل كلّ أحد».

وتلا مطرف يوماً هذه الآية فقال: لو يعلم الناس قدر رحمة الله ومغفرة الله وعفو الله وتجاوز الله لقرّت أعينهم، ولو يعلم الناس قدر عذاب الله وبأس الله ونكال

⁽١) الشورى: ٤٠.

الله ونقمة الله ما رقاً(١) لهم دمع، ولا قرّت أعينهم بشيء.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفُرُوا لَوْلَا انزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة عليه، واقتراحهم لنحو ما أوتي موسى وعيسى ﴿ من نحو تفجير العيون، وإحياء الموتى، وجعل الصفا ذهباً، وغير ذلك.

ولا يخفى على من له أدنى مسكة أنّ الآيات متساوية في حصول صحّة الدعوى بها، فلذا خاطبه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّهَا أَنتَ مُنْذِرٌ﴾ مرسل للإنذار من سوء العاقبة كفيرك من الرسل.وما عليك إلا الإتيان بما يصحّ به أنّك رسول منذر، من جنس المعجزات، لا بما يقترح عليك.

﴿ وَلِكُلُّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ عطف على «منذر» أي: إنّما أنت لكلَّ قوم هادٍ، لأنك مبعوث إلى الناس جميعاً إلى يوم القيامة. أو يكون «هادٍ» مبتدأ و «لكلَّ قوم» خبره. ومعناه: لكلَّ أمّة من الأمم نبيّ مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم، يهديهم إلى الحقّ، ويدعوهم إلى الصواب، ولم يجعل الله الأنبياء شرعاً سواء في الآيات والمعجزات، أو قادر على هدايتهم، وهو الله.

وقرأ ابن كثير: هادٍ، ووال (^{٢٧)}، وواقٍ ^(٣)، ﴿ وَمَاعِنْدُ اللهِ بَـاقِ﴾ ^(٤) بالتنوين فـــي الوصل، وإذا وقف وقف بالياء في هذه الأربعة الأحــرف حــيث وقــعت لا غـير. والباقون يصلون بالتنوين، ويقفون بغير ياء.

عن ابن عبّاس قال: لمّانزلت هذه الآية قال رسول ﷺ: «أنا المنذر، وعليّ الهادي من بعدي، يا عليّ بك يهتدي المهتدون».

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل بالإسناد عن

⁽١) رَقَأُ الدمعُ: جفُّ وانقطع.

⁽٢، ٣) الرعد: ١١ و ٣٤.

⁽٤) النحل: ٩٦.

ابي إبراهيم بن الحكم بن ظهير، عن أبيه، عن حكيم بن جبير، عن أبي بردة الأسلمي، قال: «دعا رسول الله الله بالطهور وعنده عليّ بن أبي طالب الله ، فأخذ رسول الله الله الله بعد ما تطهر فألزقها بصدره، ثمّ قال: إنّما أنت منذر. ثمّ ردّها إلى صدر عليّ، ثم قال: لكلّ قوم هادٍ. ثمّ قال: إنّك منارة الأنام، وغاية الهدى، وأمير القرّاء، وأشهد على ذلك أنّك كذلك يا عليّ »(١).

اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أَنشَى وَمَا تَعْيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَوْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارِ ﴿ ﴿ ﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿ ﴿ ﴾ سَوَآءٌ مَنكُم مَّنُ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَن جَهْرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْف بِاللّيلِ وَسَارِبٌ بِالنّهَارِ ﴿ ﴿ ﴾ مَنكُم مَّن أَسُرَ اللّه إِنَّ اللّه لاَ ﴿ ﴿ ﴾ لَهُ مُعَقَبَاتٌ مِن بَيْنِ يَدِيْهِ وَمِنْ خَلْفِه يَخْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّه إِنَّ اللّه لاَ يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُواْ مَا بِأَنْهُ مِهُمْ وَإِذَا آزَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سَوَءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿ ﴿ ١٠﴾

ثمّ أردف الله سبحانه ذلك بما يدلّ على كمال علمه وقدرته، وشمول قضائه وقدره، تنبيهاً على أنّه قادر على إنزال ما اقترحوه، وإنّما لم يعنزل لعالمه بأنّ اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد، وأنّه قادر على هدايتهم جبراً وقسراً، وإنّما لم يهدهم لعلمه بمنافاة الجبر للتكليف الذي مناطه الاختيار، فقال: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أَنْفَىٰ﴾ «ما» مصدريّة أو موصولة، أي: يعلم حملها، أو ما تحمله على أيّ حال.

⁽١) شواهد التنزيل ١: ٣٠١ ح ٤١٤.

ذكورة وأنوثة، وتماماً وخداجاً (١٠، وحسناً وقبحاً، وطولاً وقصراً، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة.

﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ نقصها وازديادها. أو ما تنقصه وما تزداده في الجنّة، والمدّة، وأقصى مدّة الحمل وأقلها، وعدد الولد، فإنّ الرحم يشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأكثر. وقال الشافعي: أخبرني شيخ باليمن أنّ امرأته ولدت بطوناً، في كلّ بطن خمسة. وقيل: المراد نقصان دم الحيض وازدياده.

و «غاض» جاء متعدّياً ولازماً. يقال: غاض الماء وغضته أنا. ومنه:

و غِيضَ الْمَاءُ (**). وكذا: ازداد. يقال: زدته فزاد بنفسه، وازداد، وازددت منه كذا.
ومنه: قوله تعالى: ﴿ وَارْدَادُوا تِسْعاً ﴾ (**). فإن جعلتهما لازمين تعيّن أن تكون «ما»
مصدريّة. وإسنادهما إلى الأرحام على المجاز، من قبيل تسمية الشيء بما يجاوره،
أو تسمية المحاط بما يحيط به.

﴿ وَكُلَّ شَنِيَ عِنْدَهُ بِمِقْدَارِ﴾ بقدر لا يجاوزه ولا ينقص عنه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَنِيَ حَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (^ش)، فإنّه تعالى خصّ كلّ حادث بوقت وحال معيّنين. وهيًا له أسباباً مسوقة إليه، تقتضى ذلك على ما توجبه الحكمة.

﴿ عَالِمُ الْغَنْبِ﴾ الغائب عن الحسّ ﴿ وَالشَّمَهَادَةِ ﴾ الحاضر له ﴿ الْخَبِيلُ ﴾ المستعلي على كلّ شيء العظيم الشأن، الذي لا يخرج عن علمه شيء ﴿ الْمُتَعَالُ ﴾ المستعلي على كلّ شيء بقدرته. أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

 ⁽١) خدجت الدائّة: ألقت ولدها ناقص الخلق أو قبل تمام الأيّام. فهي خادج، وولدها خدوج،
 وجمعه خداج.

⁽٢) هو د: ٤٤.

⁽٣) الكهف: ٢٥.

⁽٤) القم: ٤٩.

ثمّ قرّر كمال علمه وشموله بقوله: ﴿ سَوَآءٌ مِنْكُمْ مَنْ الْسَوَ الْقَوْلَ ﴾ في نفسه ﴿ وَمَن جَهَرَ بِهِ ﴾ لغيره ﴿ وَمَن هُوَ مُسَتَخْفِ بِالنّبِل ﴾ طالب للخفاء في مختباً بالليل ومظلمة ﴿ وَسَالِبٌ ﴾ وذاهب في سَربه بالفتح، أي: في طريقه. يقال: سرب في الأرض سروباً، إذا برز في ذهابه، أي: بارز في الذهاب ﴿ بِالنّبَهارِ ﴾ بحيث يراه كلّ أحد. فهو عطف على «مَن» أو «مستخفٍ»، على أنّ «مَن» في معنى الانتين، كأنّه قال: سواء منكم اثنان مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار.

﴿ لَهُ ﴾ لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب ﴿ مُعَقَبَاتُ ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه. جمع معقبة، من: عقبه مبالغة: عقبه، إذا جاء على عقبه، كأنّ بعضهم يعقب بعضاً، أو لأنّهم يعقبون أقواله وأفعاله، فيكتبونها ويحفظونها. أو من: اعتقب، فأدغمت التاء في القاف. والتاء للمبالغة، أو لأنّ المراد بالمعقبات جماعات.

﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ من جوانبه، أو من الأعمال ما قدّم وأخّر ﴿ يَخْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ من بأسه ونقمته متى أذنب باستمهالهم، أي: مسألتهم ربّهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب. أو استغفارهم له. أو يحفظونه من المضارّ. قال كمب: لولا أنّ الله وكّل بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطممكم ومشربكم وعوراتكم، لتخطفتكم الجنّ. أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى.

وعن الحسن: هم أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر. وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُوْلَنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ (١). وقد روي ذلك أيضاً عن أئتنا ﷺ.

وعن ابن جبير وقتادة ومجاهد: أنّها الملائكة يتعاقبون. تعقّب ملائكة الليل ملائكة النهار، وملائكة النهار ملائكة الليل. وهم الحفظة. يحفظون عملى العبد عمله.

وقيل: إنَّهم الأمراء والملوك في الدنيا، الَّذين يمنعون الناس عـن المـظالم.

⁽١) الإسراء: ٧٨.

ويكون لهم الأحراس والشُرَط يحفظونهم. وهذا مرويّ عن عكرمة. ومرويّ عـن ابن عبّاس أيضاً.وتقديره: ومن هو سارب بالنهار. له أحراس وأعوان يحرسونه. وقيل: «من» بمعنى الباء. وقيل: «من أمر الله» صفة ثانية لـ«معقّبات».

﴿إِنَّ اللهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِانفُسِهِمْ ﴾ من الأحوال الجميلة إلى الأحوال القبيحة.

عن ابن عبّاس: إذا أنعم الله على قوم فشكروها زادهم، وإذا كفروا سلبهم. وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين ﷺ بقوله: «إذا أقبلت عليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر».

﴿ وَإِذَا أَزَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدً لَهُ ﴾ فلا رادٌ له. والعامل في «إذا» مــا دلَّ عليه الجواب. ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَالِ ﴾ مـّن يلي أمرهم، فيدفع عنهم السوء.

هُوَ الَّذِي يُوبِكُمُ الْبَرُقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِيءُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسْبَحُ الرَّغُدُ بِحَمْده وَالْمَلَآتَكَةُ مِنْ خيفته وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمُ يُجَادلُونَ فِي اللَّه وَهُوَ شُديدُ الْمحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعُوهُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِه لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْء اللَّ كَبَاسِط كَنَّيْه إلَى وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِه لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْء اللَّ كَبَاسِط كَنَّيْه إلَى الْمَآء لِيبُلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِه وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ اللَّ فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهُم بِالْغَدُو وَلِلَّه يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكُوهًا وَظِلالُهُم بِالْغَدُو وَالْآصَال ﴿١٥﴾

ثمّ أخبره سبحانه وتعالى عن كمال قدرته، فقال: ﴿ هُوَ اللَّذِي يُبرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً ﴾ من أذاه ﴿ وَطَمَعاً ﴾ في النيث، وانتصابهما على العلّة بتقدير المضاف، أي: إرادة خوف وطمع، أو بتأويلهما بالإخافة والإطماع. أو على الحال من البرق، كأنّه في نفسه خوف وطمع، أو المخاطبين على إضمار «ذو». أو إطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. وقيل: يخاف المطر من يضرّه، ويطمع فيه من ينفعه.

﴿ وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء ﴿ الثَّقَالَ ﴾ بالماء. وهو جمع ثقيلة. يقال: سحابة ثقيلة وسحاب ثقال، كما يقال: امرأة كريمة ونساء كرام. وإنَّما وصف به السحاب، لأنَّه اسم جنس في معنى الجمم.

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعَدُ ﴾ ويسبِح سامعوه ﴿ بِحَفدِهِ ﴾ ملتبسين به، فيضجّون برسبحان الله والحمد لله ». وعن النبيّ ﷺ أنّه كان يقول: «سبحان من يسبّح الرّعد». أو بحمده». وعن علي ﷺ أنّه كان يقول: «سبحان من سبّحت له إذا اشتدّ الرعد». أو يدلّ الرعد بنفسه على وحدانيّته تعالى وكمال قدرته، ملتبساً بالدلالة على فضله وزول رحمته.

وعن ابن عبّاس: أنّ اليهود سألت النبيّ ﷺ عن الرعد ما هو ؟ فقال: «ملك موكّل بالسحاب، معه مخاريق، جمع مخاريق، والمخاريق: جمع مخراق، وهو الخشب، أو الخرقة الملفوفة الّتي يلعب بها الصبيان. والمراد هنا آلة يزجر بها الملائكة ليسوقه.

وقالت المتصوّفة: الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم.

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ جَيفَتِهِ ﴾ من خوف الله تعالى وإجلاله. وقيل: الضمير للرعد. ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءَ ﴾ فيهلكه ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ ﴾ حيث يكذّبون رسول الله ﷺ فيما يصفه به من كـمال العـلم والقـدرة، والتـفرّد 273 زيدة التفاسير ـج ٣

بالألوهيّة، وإعادة الناس ومجازاتهم.

والجدال التشدد في الخصومة، من الجدال(١١)، وهو الفتل، والواو إمّا لعطف الجملة على الجملة، أو للحال، فإنّه روي: «أنّ عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذه عامر بالمجادلة، ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف، فتنبّه له الرسول ﷺ فقال: اللّهم أكفنيهما بما شئت. فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة فقتلته، ورمى عامراً بنخدة فمات في بيت سلوليّة. وكان يقول: غدّة كفدة البعير، وموت في بيت سلوليّة. فنزلت هذه الآية». والفدّة طاعون الإبل، قلّما سلم منه. وسلوليّة امرأة من قبيلة بني سلول، وهم موصوفون بالذلّ.

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ﴾ شديد المماحلة والمماكرة والمكائدة لأعدائه، من: محل بفلان، إذا كايده وعرضه للهلاك. ومنه: تمحّل إذا تكلّف استعمال الحيلة. ولعلّ أصله المحل، بمعنى القحط. والمعنى: أنّه شديد المكر بأعدائه، يأتيهم بالهلاك من حيث لا يحتسبون.

وقيل: فعال من المحل بمعنى القوّة.

وقيل: مفعل من الحول أو الحيلة، أعلُّ على غير قياس.

ويجوز أن يكون بمعنى شديد الفقار، فيكون مثلاً في القوّة والقدرة، كقولهم: فساعد الله أشدّ، وموساه (٢٠) أحدّ.

وما روي عن أمير المؤمنين ﷺ معناه: شديد الأخذ، وعمن قستادة: شمديد القرّة، يقرّي القولين الأخيرين.

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ الدعاء الحقّ، فإنّه الّذي يحقّ أن يعبد، أو يدعى إلى

⁽١) جَدَلَ الحبلُ: فتله، أي: لواه.

⁽٢) المُوسَى: آلة من فولاذ يحلق بها.

عبادته دون غيره. أوله الدعوة المجابة، فإنّ من دعاه أجابه. ويـؤيّده مـا بـعده. والحقّ على الوجهين ما يناقض الباطل. وإضافة الدعوة إليه لكونها مختصّة بـه، وبينهما ملابسة، وهو بمعزل عن الباطل. أو على تأويل دعوة المدعوّ الحقّ الذي يسمع ويجيب.

وعن الحسن: الحقّ هو الله، وكلّ دعاء إليه دعوة الحقّ. وعن ابن عبّاس: أنّ دعوة الحقّ هي كلمة التوحيد.

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي: يدعوهم المشركون، فحذف الراجع، أو والمشركون الذين يدعون الأصنام، فحذف المفعول، لدلالة «من دونه» عليه. ﴿ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴾ من الطلبات ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ ﴾ أي: إلّا استجابة كاستجابة الماء من بسط كمّيه إليه ﴿ لِيَبْلُغُ قَاهُ ﴾ يطلب منه أن يبلغه ﴿ وَمَا هُـوَ بَبِالِغِهِ ﴾ لأنّه جماد لا يشعر بدعائه، ولا ببسط كمّيه، ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر على إجابته والإتيان بغير ما جبل عليه، وكذلك ما يدعونه من جماد، فإنّه جماد لا يحسّ بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم.

وقيل: شبّهوا في قلّة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه، فبسط كفّيه ليشربه ناشراً أصابعه، فلم تلق كفّاه منه شيئاً. ولم يبلغ طلبته من شربه.

﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ إلَّا في ضياع وخسار وباطل.

﴿ وَشِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمُوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْها ﴾ طائعين وكارهين ، أو

لطوعهم ولكراهتهم.ويحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فبإنّه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتي الشدّة والرخاء. والكفرة كرهاً حال الشدّة والضرورة، فإنّهم لا يمكنهم أن يمتنعوا من الخضوع لله تعالى، لمايحلّ بهم من الآلام والأسقام.

﴿ وَظِلَالُهُم﴾ ويسجد له ظلال من فيهما بىالعرض. وأن يراد بالسجود انقيادهم لإحداث ما أراده منهم من أفعاله، شاؤا أو كرهوا، وانقياد ظلالهم لتصريفه إيّاها بالمدّ والتقليص على وفق مشيئته.

وقوله: ﴿ بِالْفُدُوّ وَالْآصَالِ ﴾ ظرف لديسجد». والمراد بهما الدوام. أو حال من الظلال. وتخصيص الوقتين لأنّ الامتداد والتقلّص أظهر فيهما. والغدو جمع غداة ، كقنيّ جمع قناة. والآصال جمع اصيل. وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل: الغدوّ مصدر.

قُلْ مَن رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَا تَنحَذْتُم مِن دُونِهِ أَوْلِيَآ ۖ لاَ يَمْلكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرَّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلْمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ للهِ شُرُكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

لمّا بيّن سبحانه في الآية الأولى أنّه المستحقّ للمعبادة، وأنّ له من في السماوات والأرض، عقبه بما يجري مجرى الحجّة على ذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يما محمد لهؤلاء الكفّار ﴿قُلْ رَبُّ الشَّفْوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومدبرهما ومتولى

سورة الرعد، آية ٦٦ ٤٣٩

أمرهما، فإذا استعجم (١) عليهم الجواب، ولم يمكنهم أن يقولوا: الأصنام ﴿ قُلِ اللهِ ﴾ أجب عنهم بأنّ ربّهما الله، إذ لا جواب لهم سواه، ولأنّه البيّن الّذي لا مراء فيه. أو لقّنهم الجواب به.

﴿قُلْ أَفَاتَّكَذَتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ألزمهم بأن اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل، فإنهم ﴿لا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ﴾ لا يقدرون أن يجلبوا إليها ﴿نَفْعا وَلا ضَوْاً﴾ ولا يدفعوا عنها ضراً، فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضرّ عنه، وقد آثر تموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب؟ فما أبين ضلالتكم ا وهو دليل ثانٍ على ضلالهم وفساد رأيهم في اتّخاذهم أولياء رجاء أن يشفعوا لهم.

ثمّ ضرب سبحانه لهم مثلاً بعد إلزام الحجّة، فقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ ﴾ أي: المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها. وقيل: المعبود الغافل عنكم. ﴿ وَالْبَصِيرُ ﴾ والموحّد العالم بذلك، أو المعبود المطّلع على أحوالكم.

ثمّ زاد في الإيضاح بقوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الشرك والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء.

﴿ أَمْ جَعَلُوا﴾ الهمزة للإنكار، أي: بل أجعلوا ﴿ بِشِ شُرَكَآءَ﴾؟ وقوله: ﴿ خَلَقُوا كَخُلْقِهِ﴾ صفة لـ«شركاء» داخلة في حكم الإنكار ﴿ فَتَشَابَهُ الْخُلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ خلق الله وخلقهم.

والمعنى: أنّهم ما اتّخذوا لله شركاء خالقين مثله حتّى يتشابه عليهم الخلق، فيقولوا: هؤلاء خلقوا كما خلق الله، حتّى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقّوا العبادة كما استحقّها. ولكنّهم اتّخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عمّا يقدر عليه الخالق.

﴿ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلُّ شَمَىٰءٍ ﴾ لا خالق غيره فيشاركه في العبادة. جعل الخلق

⁽١) أي: صعب واستبهم، أو عجزوا عن الجواب.

موجب العبادة ولازم استحقاقها، ثم نفاه عمن سواه، ليبدل عبلى قبوله: ﴿وَهُسُوَ الْوَاجِدُ﴾ المتوحّد بالألوهيّة والربوبيّة ﴿النّقَهَّارُ﴾ الغالب على كلّ شيء، وما عداه مربوب مقهور.

استدلّت المجبّرة بقوله: «الله خالق كلّ شيء» على أنّ أفعال العباد مخلوقة لله ، لأنّ ظاهر العموم يقتضي دخول أفعال العباد فيه. وبقوله: «أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه». قالوا: لأنّه أنكر أن يكون خالق خلق كخلقه.

وأجيبوا عن ذلك: بأنّ الآية وردت حجّة على الكفّار، ولو كان المراد ما قالوا لكان فيها حجّة لهم على الله، لاله عليهم، لأنّه إذا كان الخالق لعبادتهم الأصنام هو الله، فلا يتوجّه التوبيخ إلى الكفّار، ولا يلحقهم اللوم بذلك، بل يكون لهم أن يقولوا: إنّك خلقت فينا ذلك، فلِمَ توبّخنا على فعل فعلته فينا ؟ فيبطل حينئذٍ فائدة الآية. وأيضاً عند الأكثر معنى الخلق الاختراع، ولا يقدر العباد عليه، وما أسند إلى العباد هو الفعل والإحداث.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءَ مَآءً فَسَالَتُ أُوْرِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبْدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيه فِي النَّارِ آلِيَغَاءَ حِلْية أَوْ مَاّعٍ زَبَدٌ مَثْلُهُ كَذَلِكَ يَضُرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبِهُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضُرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧٧﴾ للَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لَرِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ آسْتَجَابُوا لَوَّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ آسْتَجَيْبُوا لَهُ لَوْ أَنَ لَهُم مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهُ مَعَهُ لاَفَتَدَوا بِهِ أَنْ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوا بِهِ أَنْ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوا بِهِ أَنْ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوا بِهِ الْمُهَادَ ﴿١٨﴾

ثمّ ضرب سبحانه مثلين للحقّ وأهله والباطل وأهله، فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب، أو من جانب السماء، أو من السماء نفسها، فإنّ المبادىء منها ﴿ مَاءً ﴾ مطراً ﴿ فَسَالَتُ أَوْدِيَةً ﴾ أنهار، جمع وادٍ، وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة، فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه، وتنكيرها لأنّ المطر يأتي على تناوب بين البقاع، فيسيل بعض الأودية دون بعض.

﴿ بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الّذي علم الله تعالى أنّه نافع غير ضارّ. أو بمقدارها في الصغر والكبر، أي: الصغير على قدره، فسال كـلّ نهر بـقدره ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبِداً﴾ أي: منتفخاً مرتفعاً. ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبِداً﴾ أي: منتفخاً مرتفعاً. فشبّه سبحانه الحقّ والإسلام بالماء الصافي النافع، والبـاطل بـالزبد الذاهب غـير النافع.

ثمّ ذكر المثل الآخر بقوله: ﴿ وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ عبارة جامعة لأنواع الفلزّات، كالذهب والفضّة والحديد والنحاس، مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به، كما هو هجّير (٢) المسلوك ﴿ الْبِتِفَاءُ جِلْيَةٍ ﴾ طلب حليّ ﴿ اَوْمَتَاعٍ ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصود من ذلك بيان منافعها ﴿ زَبّ مِثْلُهُ ﴾ أي: وممّا يوقدون عليه زبد مثل زبد الماء، وهو خبثه، و«من» للابتداء أو للتبعيض، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء، على أنّ الضمير للناس.

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقِّ وَالْبَاطِلَ ﴾ مثل الحقّ والباطل، فإنّه مثل الحقّ في إفادته وثباته بالماء الَّذي ينزل من السماء، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة، فينتفع به أنواع المنافع، ويمكث في الأرض، بأن يشبت بعضه في

⁽١) الوضر : خبث الغليان ، ووسخ الدسم .

⁽٢) الهجِّيرُ: العادة والدأب.

مناقعه (١٠)، ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنيّ والآبار. وبالفلزّ الّذي ينتفع به في صوغ الحليّ، واتّخاذ الأمتعة المختلفة، ويدوم ذلك مدّة متطاولة. ومثّل الباطل في قلّة نفعه وسرعة زواله بزبدهما.

وبيَّن ذلك بقوله: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذَهَبُ جُفَآءٌ﴾ يجفاً به، أي: يرمي به السيل أو الفلزّ المذاب، وانتصابه على الحال. ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسُ ﴾ كالماء الصافي وخلاصة الفلزّ ﴿ فَيَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ينتفع به أهلها ﴿ كَذَلِكَ يَضْوِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ ﴾ لإيضاح المشتبهات.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ للمؤمنين الّذين استجابوا ﴿لِرَبُّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الاستجابة الحسنى ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَـهُ﴾ وهم الكفرة، واللام متعلّقة بريضرب»، على أنّه جعل ضرب العثل لشأن الفريقين ضرب العثل لهما.

قال قتادة: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد. شبّه نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، وشبّه القلوب بالأودية والأنهار. فمن استقصى في تدبّره وتفكّر في معانيه أخذ حظاً عظيماً منه، كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير. ومن رضي بما أدّاه إلى التصديق بالحقّ على الجملة، كان أقلّ حظاً منه، كالنهر الصفير، فهذا مثل واحد.

ثمّ شبّه الخطرات ووساوس الشيطان بالزبد يعلو على الماء، وذلك من خبث التربة لاعين الماء. وكذلك ما يقع في النفس من الشكوك فمن ذاتها لا من ذات الحقّ. فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفوة الماء، كذلك يذهب مخائل الشكّ هباءً باطلاً ويبقى الحقّ. فهذا مثل ثان.

والمثل الثالث قوله: «وممّا يوقدون عليه في النار» إلى آخره. فالكفر مــثل هذا الخبث الّذي لا ينتفع به. والإيمان مثل الماء الصافي الّذي ينتفع به.

⁽١) المناقع جمع المَنْقَع ، وهو الموضع يستنقع _أي: يجتمع _ فيه الماء.

وتمّ الكلام عند قوله: «يضرب الله الأمثال»، شمّ استأنف بـقوله: «للّـذين استجابوا».

وقيل: «وَالَّذِين لم يستجيبوا» مبتدأ خبره ﴿لَوْ انَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلُهُ مَعْهُ لَافْتَدُوا بِهِ﴾. وهو على الأوّل كلام مبتدأ لبيان مآل غير المستجيبين.

﴿ أَوْلَئِكَ لَهُمْ سُوّةُ الْحِسَابِ﴾ وهو المناقشة فيه، بأن يحاسب الرجل بذنبه، لا يغفر منه شيء، كما في الحديث: «من نوقش في الحساب عذّب». وعن النخعي أيضاً: أنّ سوء الحساب هو أن يحاسب الرجل بذنبه كلّه، لا يغفر منه شيء. وعن الصادق ﷺ: «سوء الحساب أن لا يقبل لهم حسنة، ولا يغفر لهم سيّئة» لسوء عقيدة صاحبه.

﴿ وَمَا وَاهُمْ﴾ ومرجعهم ﴿ جَهَنَّمُ وَبِنْسَ الْمِهَادُ﴾ المستقرّ. والمخصوص بالذمّ محذوف. وأصل المهاد الفراش الّذي يوطّأ لصاحبه.

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنْمَا أَنْوِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذَكُرُ أُولُواْ الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيبَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوَءَ الحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالذِينَ صَبَرُواْ أَبِنَعَاءَ وَجُه رَبِهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَأَنفَقُواْ مَنَا رَزُقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلاَئِيةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَدُرَيَّاتِهِمْ وَالْلَابَكَةُ يَدُخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَابٍ ﴿٣٣﴾ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِنَا صَبَرْتُمُ فَنِغُمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

ثمّ بين سبحانه الفرق بين المؤمن والكافر بقوله: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنْمَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْمَقُ ﴾ فيستجيب ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ عمى القلب، لا يستبصر فيستجيب. والهمزة لإنكار أن تقع شبهة في تشابههما بعد ما ضرب من المثل. يعني: لا شبهة في أنَّ حال من علم أنَّ ما أنزل إليك من ربّك فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، كبعد ما بين الزبد والماء، والخبث غير النافع وخلاصة الفلزّة التي ينتفع بها.

﴿إِنَّمُا يَتَذَكَّرُ أَوْلُوا الْآلْبَابِ﴾ ذوو العقول المبرّأة عن مشايعة الأهواء ومعارضة الأوهام، فإنّ أرباب العقول الصافية يتفكّرون ويستبصرون، فيعلمون قضايا عقولهم.

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا «بلى». أو ما عهد الله عليهم في كتبه. ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد. وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَوَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ من الرحم، وموالاة المؤمنين، والإيمان بجميع الأنبياء. ومنه وصل قرابة رسول الله عليه وهم أهل بيته المعصومون عليه وذرّيتهم، والإحسان إليهم، والذبّ عنهم، ونصرتهم، والنصيحة لهم، وعيادة مرضاهم، وحضور جنائزهم.

روى محمد بن الفضيل عن موسى بن جعفر الكاظم على في هذه الآية قال: هي صلة آل محمّد معلّقة بالعرش تقول: اللهمّ صل من وصلني، واقطع من قطعني». ويندرج فيه أيضاً مراعاة صلة الرحم وجميع حقوق الناس. روى أصحابنا أنّ أبا عبدالله الله لما حضرته الوفاة قال: «أعطوا الحسن بن الحسين بن علي بن الحسين _ وهو الأفطس _ سبعين ديناراً. فقالت له أمّ ولد له: تعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة! فقال: ويحك أما تقرئين قول الله تعالى: «والذين يصله؟!».

﴿ وَيَخْشُونَ رَبِّهُمْ ﴾ وعيده كلّه عموماً ﴿ وَيَخَافُونَ سُوَّءَ الْحِسَابِ ﴾ خصوصاً. فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهـوى، مـن أوامـر الله وسائر مشاق التكليف. والمصائب في النفوس والأموال. وعن المعاصي ﴿ البَيْفَاءَ وَجُهِ رَبِّهِمْ ﴾ طلباً لرضاه، لا لغرض آخر من الأغـراض الدنـيويّة، كسـمعةوطمع عوض وغيرهما.

﴿ وَاقَاهُوا الصَّلَاةَ ﴾ المفروضة ﴿ وَانْفَقُوا مِثَا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ بعضه الّـذي وجب عليهم إنفاقه من الحلال، لأنّ الحرام لا يكون رزقاً ﴿ سِبرَاً ﴾ لمن لم يعرف بالمال ﴿ وَعَلَائِينَهُ ﴾ لمن عرف به، دفعاً للتهمة.

﴿ وَيَذرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّدَةَ ﴾ ويدفعونها بها، فيجازون الإساءة بالإحسان. عن ابن عبّاس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم. وعن الحسن إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا. أو يتبعون السيّئة الحسنة، فتمحوها، كما في الحديث: «أتبع السيّئة الحسنة تمحقها». وأيضاً قال عليه علا عملت سيّئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها».

﴿ أَوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عاقبة الدار وما ينبغي أن يكون مآل أهلها. وهي الجنّة، لأنها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا وصرجع أهلها. الجملة خبر الموصولات إن رفعت بالابتداء. وإن جعلت صفات ا«أولي الألباب» فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

٤٤٦ زيدة التفاسير ـج٣

﴿ جَنَّاتُ عَدْنِ﴾ بدل من «عقبى الدار». أو مبتدأ خبره ﴿ يَذْخُلُونَهَا﴾. والمدن الإقامة، أي: وسطها. وعن ابن عبّاس: هي الدرجة العليا، وسكّانها الشهداء والصدّيقون. وقيل: قصر من ذهب، لا يدخله إلّا نبيّ أو صدّيق أو شهيد أو حاكم عدل.

﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَدُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ عـطف عـلى المرفوع فـي
«يدخلون». وإنّما ساغ للفصل بالضمير الآخر، أو مفعول معه، والآباء جمع أبوي
كلّ واحد منهم، فكأنّه قال: من آبائهم وأمّهاتهم. والمعنى: أنّه يلحق بهم من صلح
من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم، تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، كما قال: ﴿ الْحَقْنَا بِهِمْ

دُرْيَّتَهُمْ ﴾ (١٠). وهو دليل على أنّ الدرجة تعلو بالشفاعة. أو أنّ الموصوفين بـتلك
الصفات يقرن بعضهم ببعض ـ لما بينهم من القرابة والوصلة ـ في دخول الجنّة زيادة
في أنسهم. وفي التقييد بالصلاح دلالة على أنّ مجرّد الأنساب لا تنفع.

﴿ وَالْمَكَدَّئِكَةُ يَذْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف، قائلين: ﴿ سَلَامُ عَلَيْكُمْ ﴾ بشارة بدوام السلامة ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ على الطاعة، وعن المعاصي، وهنو متعلق بر عمليكم»، أو بمحذوف، أي: هذا بما صبرتم لا بسلام، فإنّ الخبر فاصل، والباء للسببيّة، أو للبدليّة. ﴿ فَبَعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ الأصل: نَوِم، فسكن العين بنقل كسرتها إلى الفاء بعد حذف الفتحة.

وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيُقطَعُونَ مَا آَمُرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوَّلِكَ لَهُمُ اللَّهَنَةُ وَلَهُمْ سُتُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللّهُ

(١) الطور: ٢١.

يُبسُطُ الرَّرْقَ لَمَنْ يَشَاءَ وَيَقُدرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخَرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُ مَن يَشَاءُ وَيَهُدي إلِيهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٧٧﴾ الذين آمَنُواْ وَعَمُواْ الصَّالِحَاتِ بِذَكْرِ اللّه أَلا بِذِكْرِ اللّه تَطْمَئُنُ الْقُلُوبُ ﴿٧٧﴾ الذين آمَنُواْ وَعَمُلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسُنُ مَآبٍ ﴿٧٧﴾

ولمّا ذكر سبحانه الذين يوفون بعهد الله ، ووصفهم بالصفات الّتي يستحقّون بها الجنّة ، عقبه بذكر الذين حالهم على خلاف حالهم ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْرَ اللهِ على خلاف حالهم ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْرَ اللهِ لِمِنْ بَغْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بظلم العباد، وتهييج الفتن بينهم ، وإضلالهم عن الحقّ ﴿ أَوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّفَنَةُ وَلَهُمْ سُوءً الدَّارِ ﴾ عذاب جهنّم، أو سوء عاقبة الدنيا .

﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرَّرْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يوسّعه ويضيّقه وفق المصلحة، دون غيره ﴿ وَفَرِحُوا ﴾ أهل مكّة ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بما بسط لهم في الدنيا ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ ﴾ في جنب الآخرة ﴿ إلاَّ مَنَاعٌ ﴾ متعة لا تدوم، كمعبالة (١) الراكب وزاد الراعي، والمعنى: أنهم أشروا(٢) بما تالوا من الدنيا، ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة، واغترّوا بما هو في جنب نعيم الآخرة حقير قليل النفع

⁽١) عُجالةُ الراكب: ما يتعجّله من طعام أو شراب.

⁽٢) أي: فرحوا فرح بطر وأشر وتكبّر.

٤٤٨ زيدة التفاسير ـج ٣ سر يع الزوال.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفُرُوا لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةً ﴾ اقترحناها ﴿ مِنْ رَبِّهِ ﴾ لمّا جحدوا آياته الكثيرة التي لم يؤتها نبي قبله، ومن أعظمها القرآن الذي يعجزون عن الإتيان بمثله مع أنّهم أبلغ بلغاء زمانهم، ولم يعتدوا بها عناداً وإنكاراً ولجاجاً، فجعلوها كانّها لم تنزل عليه قطّ، وقالوا ذلك تعجّباً واستنكاراً.

﴿ قُلْ إِنَّ اللهُ يُضِيلُ مَنْ يَشَاءُ﴾ خذلاناً وتخلية، باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَفَابَ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد. وهذا جواب يجري مجرى التعجّب من قولهم، كأنّه قال: قل لهم ما أعظم عنادكم } إنّ الله يضلّ من يشاء مثن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن أنزلت كلّ آية، ويهدي إليه من أناب بما جئت به من الآيات.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل من «من»، أو خبر مبتدأ محدوف، أي: هم الذين آمنوا ﴿ وَتَطَمَّئِنَّ قُلُوبُهُمْ بِذِخْوِ اللهِ ﴾ أنساً به، واعتماداً عليه، ورجاءً منه. أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، كقوله: ﴿ ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِخْوِ اللهِ ﴾ (١٠. أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته. أو بكلامه، يعني: القرآن اللّذي هو أقوى المعجزات ﴿ أَلا بِذِخْرِ اللهِ تَطْمَئِنَ الْقُلُوبُ ﴾ تسكن إليه.

وهذا حتّ للعباد على تسكين القلب إلى ما وعد الله به من النعيم والثواب، والطمأنينة إليه، فإنّ وعده سبحانه صادق، ولا شيء تطمئنّ النفس إليه أبــلغ مــن الوعد الصادق.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بدل من «الَّذين آمنوا و تطمئنَ قلوبهم بذكر الله». أو مبتدأ خبره ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ هو فعلى من الطيب، قلبت ياؤه واواً، لضمّة ما قبلها . مصدر لا «طاب» ، كبشرى وزلفى . ومعنى «طوبى لك» : أصبت خيراً وطيباً .

⁽١) الزمر: ٢٣.

واللام للبيان، مثلها في: سقياً لك. ومعناه: لهم عيش طيّب وقرّة عين. ويجوز فيه النصب.

وقيل: إنّ طوبى شجرة في الجنّة، أصلها في دار النبي ﷺ، وفي دار كلّ مؤمن منها غصن. وهو قول عبيد بن عسير، ووهب، وأبي هريرة، وشهر بن حوشب. ورواه أبو سعيد الخدري. وهو المرويّ عن أبي جعفر ﷺ. قال: لو كان راكب مجدّ سار في ظلّها مائة عام ما خرج منها. ولو أنّ غراباً طار من أصلها ما بلغ أعلاها حتى يبيضٌ هرماً. ألا في هذا فارغبوا، إنّ المؤمن نفسه منه في شغل والناس منه في راحة.

وروى علي بن إبراهيم عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رئاب، عن أبي عبيدة الحدّاء، عن أبي عبدالله على قال: «كان رسول الله الله يكثر تقبيل فاطمة على، فأنكرت عليه بعض نسائه ذلك. فقال الله الله السري بي إلى السماء دخلت الجنّة، فأدناني جبرئيل على من شجرة طوبي، وناولني منها تفّاحة، فأكلتها، فحوّل الله ذلك في ظهري ماءً، فهبطت الى الأرض وواقعت خديجة، فحملت بفاطمة على، فكلّما اشتقت إلى الجنّة قبّلتها، وما قبّلتها إلا وجدت رائحة شجرة طوبي منها، فهي حوراء إنسيّة».

وروى الثعلبي بإسناده عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس، قـال: طوبى شجرة أصلها في دار عليّ ﷺ في الجنّة، وفي دار كلّ مؤْمن مـنها غـصن. ورواه أبو بصير عن أبي عبدالله الصادق ﷺ.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن موسى بن جعفر ﷺ، عن أبيه، عن آبائه، قال: شجرة أصلها في داري، وفرعها على أهل الجنّة. ثمّ سئل عنها مرّة أخـرى. فـقال: هـي فـي دار

عليّ ﷺ. فقيل له في ذلك. فقال: إنّ داري ودار عليّ ﷺ في الجنّة بمكان واحد»(١٠). ﴿ وَحُسْنُ مَآبِ﴾ ولهم حسن مرجع.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّة قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أَمَّمْ لَتُتُلُواْ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحُئِنَا ۚ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكُفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِي لَا إِلَهَ الِلَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَالَيْهِ مَنَابِ ﴿٣٠﴾

ولمّا ذكر سبحانه النعمة على من تقدّم ذكره بالنواب وحسن المآب، عقبه بذكر النعمة على من أرسل إليه النبيّ الشيّة، فقال: ﴿ عَذَلِكَ ﴾ مثل إرسال الرسل قبلك ﴿ ارْسَلْنَاكَ فِي أَمّةٍ قَدْ خَلْتُ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ أي: في أمّة قد تقدّمتها ﴿ أَمْمُ ﴾ كثيرة أرسلوا إليهم، فليس ببدع إرسالك إليها، وهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء المثينة ﴿ لِتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْمَيْنَا إلَيْكَ ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحيناه إليك ﴿ وَهُمْ يَكُفُرُونَ بِاللهِ الوسع الرحمة البليغ الإحسان، الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كلّ شيء رحمته، فلم يشكروا نعمه، وخصوصاً ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن المعجز الدي هو مناط المنافم الدينية والدنيوية عليهم.

قيل: نزلت في مشركي أهل مكّة حين قيل لهم: اسجدوا للرحمن، فـقالوا: وما الرحمن؟

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي ﴾ أي: الرحمن خالقي ومتولّي أمري ﴿ لَا إِلْهَ إِلَّا هُـوَ ﴾ لا مستحق للعبادة سواه، متعالياً عن الشركاء والأنداد ﴿ عَلْمُهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في نصرتي

⁽١) شواهد التنزيل ٢٩٦٦ ـ ٤١٧ .

سورة الرعد، آية ٣١ ٣١

عليكم ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ مرجعي ومرجعكم، فيثيبني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

وَلُو أَنَّ قُرْآنًا سُيَرِتْ بِهِ الْجَبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلِ اللهُ اللهُ لَهِدَى النَّاسَ جَمِيعًا بَلِ اللهِ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِن دَارِهِمُ حَتَّى يَأْتِي وَعُدُ الله إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلَفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

ولمّا تقدّم كفرهم بالرحمن عظّم شأن القرآن، وبالغ في رسوخهم في الكفر، وتوغّلهم في الكفر، وتوغّلهم في العقر، وتوغّلهم في العناد، وتصميمهم على الإنكار، مع وضوح حقيقة القرآن، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيُرَتْ بِهِ الْمِجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابه، أي: ولو أنّ كتاباً زلزلت وزعت به الجبال عن مقارّها.

﴿ أَوْ قُطُّفُتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴾ تصدّعت من خشية الله تعالى عند قراءته. أو شقّقت فجعلت أنهاراً وعيوناً.

﴿ أَوْ كُلُمْ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾ فتقرؤه به، أو فتسمع، وتجيب عند قراءته، لكان هذا القرآن، لأنّه الفاية في الإعجاز، والنهاية في التذكير والإنذار، كما قال: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا القَرْآنَ عَلَى جَبْلٍ لَوْ أَيْنَكُ خَاشِها مُنَصَدّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ (١٠). أو لما آمنوا به، كقوله: ﴿ وَلَوْ أَنْنَا نَرْلُنَا إِلْنَهِمُ الْمَكَوْبَكَةَ ﴾ (١٣) الآية. وتذكير «كُلَّم» خاصّة لاشتمال الموتى على المذكر الحقيقى.

وقيل: إنّ أبا جهل وطائفة من قريش قالوا: يا محمّد: إن سـرّك أن نـتّبعك فسيّر بقرآنك الجبال عن مكّة، حتّى تتسم لنا فنتّخذ فيها بساتين وقطائع، أو سخّر

⁽١) الحشر: ٢١.

⁽٢) الأنعام: ١١١.

لنا به الريح لنركبها ونتَّجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصيّ بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلّمونا في صدقك، فنزلت. وعلى هذا فتقطيم الأرض قطعها بالسير.

وقيل: الجواب مقدّم، وهو قوله: «وهم يكفرون بـالرحــمن»، ومـا بـينهما اعتراض.

ثمّ أضرب عمّا تضمّنته «لو» من معنى النفي، فقال: ﴿ بَلِ شِوْ اتَّمْرُ جَمِيعاً ﴾ بل لله القدرة على كلّ شيء، فإنّه قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، لكنّ الإرادة لم تتعلّق بذلك، لعلمه بأنّه لا تلين له شكيمتهم، ولا يزول رسوخ عنادهم وشدّة كفرهم، أو قادر على أن يلجئهم إلى الايمان، ولكن بناء أمر التكليف على الاختيار، فلم يلجئهم، ولذلك قال: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أفلم يمقنطوا عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم.

وذهب أكثرهم إلى أنّ معناه: أفلم يعلم؟ لما روي أنّ عليّاً ﷺ وابن عبّاس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤا: أفلم يتبيّن. وهو تفسيره وإنّما استعمل اليأس بمعنى العلم، لأنّه مسبّب عن العلم، فإنّ اليائس عن الشيء عالم بأنّه لا يكون، كما استعمل الرجاء بمعنى الخوف لذلك.

وعلى هذا قوله: ﴿أَن لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهُدى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ متعلَّق ب«ييأس»، أي: أفلم يعلم المؤمنون أن لو يشاء الله مشيئة جبر وقسر لهداهم؟ وعلى الأوّل متعلَّق بمحذوف تقديره: أفلم ييأس الّذين آمنوا عن إيمانهم، علماً منهم أن لو يشاء الله مشيئة جبر لهداهم جميعاً. ويجوز أن يكون المعنى: لو أراد أن يهدي الخلق كلّهم إلى جنّته لهداهم، لكنّه كلّفهم لينالوا الثواب بطاعاتهم على وجه الاستحقاق.

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ تَقَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنعُوا﴾ من الكفر وسوء الأعمال ﴿ قَارِعَةُ ﴾ داهية تقرعهم وتقلقلهم، من صنوف المصائب في نفوسهم وأموالهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ ﴾ ، فيفزعون منها، ويتطاير إليهم شررها.

وقيل: الآية في كفّار مكّة، فإنّهم لا يـزالون مـصابين بـما صـنعوا بـرسول الله ﷺ، فإنّه كان لا يزال يبعث السرايا فينزلون حواليهم، ويختطفون مواشـيهم.

من دارهم عام الحديبية. ﴿ حَتَّىٰ يَاتِينَ وَعَدُ اللهِ ﴾ الموت، أو القيامة، أو فتح مكّة ﴿إِنَّ اللهُ لا يُخلِفُ

﴿ حَتَّىٰ يَاتِمَ وَعَدُ اشِهِ﴾ الموت، او القيامة، او فـتح مكـــة ﴿ إِنَّ اللهُ لَا يُـــَّـٰكِكُ الْمِيعَادَ﴾ لامتناع الكذب في كلامه.

وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَكَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

ثمّ قال تسلية لرسوله ﷺ، وتوعّداً للمشركين المقترحين عليه: ﴿وَلَـ قَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَامْنَيْتُ لِلَّذِينَ كَفُرُوا﴾ الإملاء أن يترك شيء ملاوة _ أي: مقداراً _ من الزمان في دعة وأمن، كالبهيمة تملى في المرعى ﴿ثُمُّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابٍ﴾ أي: عقابي إيّاهم.

أَفَمَنْ هُوَ قَائَمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسِ بِمَا كَسَبَتُ وَجَعَلُواْ لِلَهِ شُرَكَاءَ قُلُ سَتُوهُمْ أَمْ تَنْبُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ رَٰبِنَ لِلَّذِينَ كَمُرُواْ مَكُرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ كَمْرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشْقُ وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِن وَاق ﴿٣٤﴾

ثمّ احتجّ على المشركين في إشراكهم بالله، فقال: ﴿ أَفَمَنْ هُـوَ قَـاَئِمٌ ﴾ أي:

رقيب ﴿ عَلَى كُلُ نَفْسٍ بِهَا تَسَبَتْ ﴾ من خير أو شرّ، بحيث لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، ولا يفوت عنده شيء من جزائهم. والخبر محذوف تقديره: كمن ليس كذلك. ﴿ وَجَعَلُوا بِشِهُ شُرَكَاتَ ﴾ استئناف، أو عطف على «كسبت» إن جعلت «ما» مصدرية. أو تقدير الخبر: لم يوحدوه، «وجعلوا» عطف عليه. ويكون الظاهر فيه موضع المضمر للتنبيه على أنّه المستحق للعبادة.

ثمّ نبّه على أنّ هؤلاء الشركاء لا يستحقّون العبادة، فقال: ﴿ قُلْ سَمُوهُمْ ﴾ بالأسماء الّتي هي صفاتهم، أي: صفوهم فانظروا هل لهم ما يستحقّون به العبادة ويستأهلون الشركة ؟ ﴿ أَمْ تُغَبِّقُونَهُ ﴾ بل أتنبّونه ﴿ بِمَا ﴾ بشركاء له يستحقّون العبادة، أو بصفات لهم يستحقّونها لأجلها ﴿ لا يَعلَمُ فِي الأَرْضِ ﴾ لا يعلمهم فيها، وهو العالم بكلّ شيء، فإذا لم يعلمهم فإنّهم ليسوا بشيء يتعلّق بهم العلم، والمراد نفي أن يكون له شركاء، ونحوه: ﴿ قُلْ اتَّنبَتُونَ الله بِمَا لا يَعلَمُ فِي السَّمْوَاتِ وَلا فِي الأَرْضَ ﴾ (١).

﴿أَمْ بِطَلَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أَمْ تسمّونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنى، كتسمية الزنجي كافوراً، كقوله: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِالْفَوَاهِ لِهِمْ﴾ (٢) ﴿مَا تَعْنَدُونَ مِنْ دُونِه إِلَّا أَسْمَاتُ سَمَّنتُمُوهَا﴾ (٣).

وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب، ينادي بلسان فصيح أنه ليس من كلام البشر، بل محض الإعجاز.

﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَقُرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ تمويههم، فتخيّلوا أباطيل ثمّ خالوها حقّاً، أو كيدهم للاسلام بشركهم ﴿ وَصُنُوا عَن السَّبِيل ﴾ سبيل الحقّ. وقرأ نافع وأبو عمرو

⁽۱) يونس: ۱۸.

⁽٢) التوبة: ٣٠.

⁽٣) يوسف: ٤٠.

سورة الرعد، آية ٣٥٢٥

وابن عامر: وصدّوا بالفتح، أي: وصدّوا الناس عن الإيمان.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ ﴾ يخذله في الضلالة ويخلّه فيها، لفرط عناده ورسوخ كفره ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يوفّقه للهدى، أو يقدر على هدايته.

﴿ لَهُمْ عَذَابُ ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أغلظ وأبلغ، لشدّته ودوامه ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ ﴾ عـذاب ﴿ اللهِ مِنْ وَاقَ ﴾ حافظ يدفع عنهم عذابه.

مَّثُلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْيَّهَا الأَثْهَارُ أَكْلُهَا دَاتِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينِ اتَّقَواْ وَعُمْبَى الْكَافِرِينِ النَّارُ ﴿٣٠﴾

ولمّا ذكر ما أعدّ للكفّار عقبه بذكر ما أعدّ للمؤمنين، فقال: ﴿ فَثُلُ الْجَنَّةِ النَّتِي وُعِدَ الْمُتَقُونَ ﴾ أي: صفتها الّتي هي مثل في الغرابة. وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه، أي: فيما قصصنا عليكم مثل الجنّة، وعند غيره خبره ﴿ تَجْوِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ على طريقة قولك: صفة زيد أسمر. وعن الزجّاج الموصوف محذوف، أي: مثل الجنّة جنّة تجري من تحتها الأنهار، أو على زيادة المثل، وهو على قول سيبويه حال من العائد المحذوف، أو من الصلة.

﴿ أَكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ لا ينقطع شمرها، كقوله: ﴿ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَعْنُوعَةٍ ﴾ (١) ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أي: وظلَّها كذلك، لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

﴿ تِلْكُ ﴾ أي: الجنّة الموصوفة ﴿ عُقْبَى النِّينَ اتَّقَوْا ﴾ مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ لا غير . وفي ترتيب النظمين إطماع للمتّقين وإضناط للكافرين.

⁽١) الواقعة: ٣٣.

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِنَابَ يَشْرَحُونَ بِمَآ أَنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلُ إِنَّمَآ أُمْرُتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزُلْنَاهُ حُكْمًنا عَرَبِيًّا وَلَنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِي وَلاَ وَاقٍ ﴿٣٧﴾

ولتا تقدّم ذكر الوعد والوعيد أخبر سبحانه عن حال المتقين والكافرين في الدنيا، فقال: ﴿ وَالنِّينَ آتَيْنَاهُمُ الْعِتَابَ يَقْرَحُونَ بِمَا أَنزِلَ إِلْيَكَ ﴾ يعني: المسلمين من أهل الكتاب، كابن سلام وأصحابه، ومن آمن من النصارى، وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة. أو عامّتهم، فإنّهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم.

﴿ وَمِنَ الْأَخْزَابِ ﴾ يعني: كفرتهم الّذين تحزّبواعلى عداوة رسول الله ، ككعب بن الأشرف وأصحابه والسيّد والعاقب وأشياعهما ﴿ مَنْ يُمنكِنُ بَعْضَمَهُ ﴿ وهـ و ما يخالف شرائعهم ، أو ما يوافق لما حرّفوه منها ، فإنّ الأقاصيص والأحكام الّتي هي ثابتة في كتبهم لا ينكرونها .

﴿ قُلْ﴾ في جواب المنكرين ﴿إِنَّمَا أُمِزْتُ﴾ فيما أنزل إلي ﴿ أَنْ أَعْبُدُ اللهُ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ﴾ بأن أعبدالله وأوحده. وهو العمدة في الدين، ولا سبيل لكم إلى إنكاره. وأمّا ما تنكرونه لمايخالف شرائعكم، فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلْهيّة في جزئيّات الأحكام.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ لا إلى غيره ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ وإليه مرجعي للجزاء، لا إلى غيره. وهذا هو القدر المتّفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فممّا يختلف

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ ومثل ذلك الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها، أو كما أنزل الكتب إلى من تقدّم من الأنبياء بلسانهم ﴿ الْذَلْفَاهُ هُكُما ﴾ يحكم في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة ﴿ عَرَبِفا ﴾ مترجماً بلسان العرب، ليسهل لهم فهمه وحفظه، وانتصابه على الحال.

﴿ وَلَئِنِ اتَّبِعْتَ أَهُوَآءَهُمُ ﴾ الّتي يدعونك إليها، كتقرير دينهم، والصلاة إلى قبلتهم حين حوّلت عنها ﴿ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بنسخ ذلك ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِي وَلاَي وَاللهِ مِنْ اللهِ مِنْ اللهومنين ويميح للمؤمنين على التصلّب في دينهم، والتثبّت فيه من الزلّة عند الشبهة بعد الاستمساك بالحجّة، والله فكان رسول الله الله الله الشكيمة بمكان عظيم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرَيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُول أَن يَأْتِيَ بِآيَة إِلاَّ بِإِذْنِ اللّه لَكُلِّ أَجَلِكَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُشْبِتُ وَعِندُهُ أَمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٦﴾ وَإِن مَّا نُرِيَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَتُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٠٠﴾

روي أنهم كانوا يعيبون رسول الله ﷺ بكثرة تنزوّج النساء، كما كانوا يقولون: ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامُ﴾ (١٠) وكانوا يمقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ. فقال الله سبحانه ردّاً عليهم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ﴾ بشراً مثلك ﴿ وَجَعْلَنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرْيَةً ﴾ نساءً وأولاداً، كما هي لك.

⁽١) الفرقان: ٧.

٤٥٨ زيدة التفاسير ـج٣

﴿ وَمَا كَانَ لِزَسُولِ﴾ وما صحّ له ولم يكن في وسعه ﴿ أَن يَالَّتِيَ بِآلَيَةٍ﴾ تقترح عليه، وبحكم يلتمس منه ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنّه المقتدر لا غيره.

ثمّ ردّ إنكار النسخ بقوله: ﴿لِكُلُّ الْجَلِ كِتَابُ﴾ لكلَّ وقت وأمد حكم يكـتب على العباد، على ما يقتضيه استصلاحهم.

﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه ﴿ وَيُـ ثَبِثُ ﴾ ما تـقتضيه حكمته.

وقيل: يمحو سيتات التائب، ويثبت الحسنات مكانها، كقوله: ﴿إِلَّا هَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَالًا صَالِحاً فَأَوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَلِيَّاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (١٠).

وقيل: يمحو من كتاب الحفظة ما لا يتعلّق به جزاء، ويترك غيره مثبتاً، فإنّهم مأمورون بكتبة كلّ قول وفعل.

أو يمحو ما يشاء من ذنوب المؤمنين فضلاً. فيسقط عقابها. ويثبت ذنوب من يريد عقابه عدلاً.

عن ابن مسعود: أنّه عامٌ في كلّ شيء، فيمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويثبت، ويمحو السعادة والشقاوة ويثبتهما. أو يثبت ما رآه وحده فمي صميم قلبه.

وقيل: يمحو ما يشاء من القرون، ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ ثُمُّ أَنشَانًا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ (٧).

وقيل: يمحو الفاسدات، ويثبت الكائنات.

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي: ويثبّت بالتشديد.

﴿ وَعِنْدُهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكُتب، وهو اللوح المحفوظ. إذ ما من كائن إلّا وهو مكتوب فيه.

⁽١) الفرقان: ٧٠.

⁽٢) المؤمنون: ٣١.

روى أبو قلابة عن ابن مسعود أنّه كان يقول: اللّهمّ إن كنت كمتبتني فسي الاشقياء. فامحني من الأشقياء، واثبتنى في السعداء، فإنّك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمّ الكتاب. وروي مثل ذلك عن أثمّتنا ﷺ في دعواتهم المأثورة.

وروى عكرمة عن ابن عبّاس قال: لله كتابان: كتاب سوى أمّ الكتاب، يمعو الله منه ما يشاء ويثبت، وأمّ الكتاب لا يغيّر منه شيء. ورواه عمران بن حصين عن النبي ﷺ.

وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر على قال: «سألته عن ليلة القدر. فقال: ينزل الله فيها الملائكة والكتبة إلى السماء الدنيا، فيكتبون ما يكون من أمر السنة، وما يصيب العباد، وأمر ما عنده موقوف له فيه المشيئة، فيقدّم منه ما يشاء ويؤخّر مايشاء، ويعحو ويثبت، وعنده أمّ الكتاب».

وروى الفضيل قال: «سمعت أبا جعفر ﷺ يقول: العلم علمان: علم عـلّمه ملائكته ورسله وأنبياءه، وعلم عنده مخزون لم يطّلع عليه أحد. يحدث فـيه مـا يشاء».

وروى زرارة عن حمران، عن أبي عبدالله ﷺ قال: «هـما أمـران: مـوقوف ومحتوم، فما كان من محتوم أمضاه، وما كان من موقوف فله فيه المشيئة. يقضي فيه ما يشاء».

وقيل: المراد من الآية أنّ الله يغيّر الأرزاق والمحن والمصائب. ويثبته فــي الكتاب. ثمّ يزيله بالدعاء والصدقة. ففيه حثّ على الانقطاع إليه سبحانه.

﴿ وَإِن مَّا نُوِيَكُ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَيْتُكَ ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك بعض ما أوعدناهم، أو توفيناك قبله ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاعُ ﴾ لا غير ﴿ وَعَلَيْنَا الْجِسَابُ ﴾ للمجازاة لا عليك، فلا تحزن _ أي: بإعراضهم _ ولا تستعجل بعذابهم، فإنّا فاعلون له إمّا عاجلاً وإمّا آجلاً.

وفي هذه دلالة على أنّ الاسلام سيظهر على سائر الأديان، ويبطل الشرك

في أيَّامه وبعد وفاته، وقد وقع المخبر به على وفق الخبر.

أُوَلُمْ يَرَوُّا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَخْكُمُ لاَ مُعَيِّبَ لحُكْمه وَهُوَ سَرِيعُ الْحسَابِ ﴿ ٤١﴾

ثم ذكر سبحانه ما يكون للكفّار كالبيّنة على الاعتبار، فقال: ﴿ أَوْلَمْ يَرُوا أَنّا نَاتِي الْأَرْضَ)﴾ أرض الكفّار ﴿ نَنْقَصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ننقص دار الحرب، ونزيد في دار الاسلام بما نفتحه على المسلمين منها. والمعنى: عليك البلاغ، ولا يهمّنك ما وراء ذلك، فنحن نكفيكه، ونتم ما وعدناك من الظفر وإعلاء كلمة الاسلام، فلا يضجرك تأخّره، فإنّ ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها.

﴿ وَاللهُ يَحْكُمُ ﴾ يفصل الأمر ﴿ لا مُعَقَّبُ لِحُكْمِهِ ﴾ لا ناقض لحكمه، ولا راد القضائه. وحقيقته الله ي يعقب الشيء ويكر عليه ليبطله، ومنه قيل لصاحب الحقّ: معقب، لأنّه يقفو غريمه بالاقتضاء، والمعنى: أنه حكم للاسلام بالإقبال، وعلى الكفر بالإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره، ومحلّ «لا» مع المنفيّ النصب على الحال، أي: يحكم نافذاً حكمه.

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عمّا قليل في الآخرة. بعدما عدِّبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَلَهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْس وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُفْبَى الدَّارِ ﴿ ٤٠٤﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفُرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلُّ كَفَى بالله شَهِيدًا بَبْنِي وَبِيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿ ٢٣﴾ ثمّ بين سبحانه أنّ مكرهم يضمحلّ عند نزول العذاب بهم، فقال: ﴿ وَقَدْ مَكْنَ النَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين منهم ﴿ قَلِلَّهِ الْمَكْنُ جَمِيعاً ﴾ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره، فإنّه يردّ مكرهم ويعذّبهم من حيث لا يشعرون.

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فلا يخفى عليه ما يكتسبه الانســـان مــن خــير وشرّ. لأنّه عالم بجميع المعلومات. فيعدّ جزاءها.

وقيل: يعلم ما يمكرونه في أمر رسول الله ﷺ ، فيبطل أمرهم، ويظهر أمره ودينه.

﴿ وَسَيَطَتُمُ الْتَقُارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ من الحزبين حيثما يأتيهم من العذاب المعدّ لهم، وهم في غفلة منه. وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم، لأنّ من علم ما تكسب كلّ نفس وأعدّ لها جزاءها فهو المكر كلّه، لأنّه يأتيهم من حيث لا يشعرون ممّا يراد بهم. واللام تدلّ على أنّ المراد بالعقبى العاقبة المحمودة، مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: الكافر على إرادة الجنس.

وفي الآية تهديد لهم بأنّهم سوف يعلمون من تكون عــاقبته الجــنّـة، حــين يدخل المؤمنون الجنّـة والكافرون النار.

وقيل: معناه: سيعلمون لمن العاقبة المحمودة، لكم أم لهم، إذا اظهر الله دينه.
﴿ وَيَقُولُ النَّذِينَ كَقُرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ قيل: المراد بهم رؤساء اليهود ﴿ قُلْ كَفَىٰ
عِللهُ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنّه أظهر من الدلالات على رسالتي ما يغني عن شاهد
يشهد عليها ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِنْهُ الْجَتَابِ ﴾ علم القرآن وما ألف عليه من النظم المعجز.
أو علم التوراة، وهو ابن سلام وأضرابه. أو علم اللوح المحفوظ، وهو الله تعالى.
والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة، وبالذي لا يعلم ما فى اللوح المحوظ إلّا هو،

شهيداً بيني وبينكم، فيخزى الكاذب منّا. وارتفاع علم الكتاب بالظرف. فإنّه معتمد

٤٦٧ زيدة التفاسير ـج ٣

على الموصول.

وروي عن أبي عبدالله ﷺ : «أنّ المراد بمن عنده علم الكتاب عليّ بن أبي طالب وأثمّة الهدى ﷺ .

روى بريد بن معاوية عن أبي عبدالله ﷺ أنّه قال: «إيّانا عنى. وعلمي أوّلنا. وأفضلنا. وخيرنا بعد النبيّ ﷺ».

وروى عنه عبدالله بن كثير: «أنَّه وضع يده على صدره ثمَّ قال: عندنا والله علم الكتاب كملاً».

ويؤيّد ذلك ما روي عن الشعبي أنّه قال: ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبيّ من عليّ بن أبي طالب ﷺ.

وروى عاصم بن أبي النجود عن أبي عبدالرحمن السلمي قـال: مـا رأيت أحداً أقرأ من عليّ بن أبي طالب للقرآن.



سورة إبراهيم

مكّية، وهي اثنتان وخمسون آية. أُبيّ بن كعب قال: قال رســول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم ﷺ أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من عبدالأصنام، وبعدد من لم يعبدها».

وروى عبينة بن مصعب عن أبي عبدالله ﷺ قال: «من قرأ سورة إبراهيم في ركعتين جميعاً في كلّ جمعة، لم يصبه فقر ولا جنون ولا بلوى».

بِسُمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّرَكَابُ أَنْوَانَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِهِمُ إِلَى صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَسِيدِ ﴿١﴾ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيُلْ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحْبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيْبْغُونَهَا عَوَجًا أُوْلَكَ فِي ضَلالٍ ولمّا ختم الله سورة الرعد بإثبات الرسالة وإنزال الكتاب، افتتح هذه السورة ببيان الغرض في الرسالة والكتاب، فقال: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الرَّ﴾ أنا الله أعلم وأرى. وباقي الوجوه فيه مزبور في أوّل سورة البقرة.

﴿ حِتَابُ﴾ أي: هو كتاب ﴿ انْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجُ النَّاسُ ﴾ بدعائك إيّاهم إلى ما تضمّنه ﴿ مِنَ الظُّلْمَاتِ ﴾ من أنواع الضلال ﴿ إِلَى النَّورِ ﴾ إلى الهدى ﴿ بِإِذْنِ رَبُهِمْ ﴾ بتيسيره وتسهيله. مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب. والمراد ما يمنحهم من التوفيق والألطاف. وهذا صلة «لتخرج»، أو حال من فاعله أو مفعوله.

﴿إِلَىٰ صِوَاطِ الْغَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: «إلى النور» بتكرير العامل. أو استئناف على أنّه جواب لمن يسأل عنه. وإضافة الصراط إلى الله تعالى، إمّا لأنّـه مقصده، أو المظهر له. وتخصيص الوصفين للتنبيه على أنّـه لا يـذلّ سـالكه، ولا يخيب سابله.

﴿اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بالرفع، على أنّه مبتدأ والموصول صفته، أي: هو على أنّه مبتدأ والموصول صفته، أي: هو الله الذي. وقرأ الباقون بالجرّ، على أنّه عطف بيان للعزيز، لأنّه كالعلم _كما غلّب النجم في الثريّا _ لاختصاصه بالمعبود على الحقّ.

ثمّ أوعد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور، فقال:
﴿ وَوَثِلُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ الويل نقيض الوأل، وهو النجاة. وأصله النصب،
لأنّه مصدر، إلّا أنّه لم يشتق منه فعل، لكنّه رفع الإفادة الثبات، كما يقال: سلام
عليك. والمعنى: أنّهم يولولون من عذاب شديد، ويضجّون منه فيقولون: يا ويلاه،
كقوله: ﴿ دَعَوْا هَمْالِكَ فَيُوراً ﴾ (١).

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ يختارونها عليها، فإنّ المختار

⁽١) الفرقان: ١٣.

للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها من غيره ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾
بتعويق الناس عن الإيمان ﴿ وَيَبْقُونَها عِوْجا ﴾ ويبغون لها زيغاً ونكوباً عن الحق ليقدحوا فيه. فحذف الجارّ وأوصل الفعل إلى الضمير. والموصول بصلته يحتمل الجرّ صفة للكافرين، والنصب على الذمّ، والرفع عليه، أو على أنّه مبتداً خبره ﴿ أَوْتَبْكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي: ضلّوا عن الحقّ، ووقفوا دونه بمراحل. والبعد في الحقيقة للضالّ، لأنّه متباعد عن الطريق، فوصف به فعله للمبالغة، كما تقول: جدّ جدّه. ويجوز أن يراد: في ضلال ذي بعد، أو للأمر الذي به الضلال، فوصف به للملابسة.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولِ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيَبَيْنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَهُدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْمَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَحْرِجُ قَوْمَكَ مِنَ الظَّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرُهُمْ بِأَيَامِ اللّه إِنَّ فِي ذَلكَ لآيَاتِ لَكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُورُا شَمَةَ اللّه عَلَيكُمْ إِذْ أَجَاكُم مِنْ آلَ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمُ سُتُو الْعَذَابِ وَيَذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْبُونَ نِسَاءَكُمُ

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولِ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ إِلَّا بِلغة قومه الّذي هو منهم وبعث فيهم ﴿ لِيُنْيِئِنَ لَهُمْ ﴾ ما أمروا به، فيفقهوه عنه بيسر وسرعة، ثمّ ينقلوه ويترجموه لغيرهم، فإنّهم أولى الناس إليه بأن يدعوهم، وأحق بأن ينذرهم، ولذلك أمر

النبيّ ﷺ بإنذار عشيرته أوّلاً. ولو نزّل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على ألستهم استقلّ ذلك بنوع من الإعجاز،ولكن أدّى إلى اختلاف الكلمة. وإضاعة فضل الاجتهاد في تعلّم الألفاظ ومعانيها والعلوم المتشعّبة منها، وما في إنـعاب القرائح وكذّ النفوس من القرب المقتضية لجزيل الثواب.

وقيل: الضمير في «قومه» لمحمد ﷺ، وأنه تعالى أنزل الكتب كلّها بالعربيّة، ثمّ ترجمها جبرئيل ﷺ أو كلّ نبيّ بلغة المنزل عليهم.

﴿ فَيُضِلُّ اللهُ ﴾ فيخلّي في الضلال خذلاناً، بمنع الألطاف وأسباب التوفيق ﴿ مَنْ يَشَاءً﴾ من هو راسخ في الكفر ومصمّم على العناد ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءً﴾ ويوفّق للهداية من هو طالب الرشاد والصواب، مثل قوله: ﴿ فَ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤمِنٌ ﴾ (١) ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فلا يغلب على مشيئته ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فلا يخذل إلّا أهل الطف.

ثمّ ذكر سبحانه إرسال موسى على تخصيصاً بعد التعميم، فقال: ﴿ وَلَقَدُ الْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ يعني: اليد والعصا وسائر معجزات ﴿ أَنْ أَخْرِجَ ﴾ «أَن» مفسّرة، فمعناه: أي أخرج، لأنّ الإرسال فيه معنى القول، فكأنّه قال: أرسلناه وقلنا له: أن أخرج ﴿ قَوْمَكُ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ ظلمات الكفر ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ إلى نور الاسلام. ويجوز أن تكون مصدريّة، أي: بأن أخرج، فإنّ صيغ الأفعال سواء في الدلالة على المصدر، فيصح أن توصل بها «أن» الناصبة.

﴿ وَذَكَرْهُمْ بِائِهِمِ اللهِ ﴾ بوقائعه الّتي وقعت على الأمم الدارجة، ومنه أيّام العرب، أي: حروبها وملاحمها. وعن ابن عبّاس: هي نعماؤه وبلاؤه، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتِ لِكُلُّ صَبْارٍ ﴾ يصبر على بلائه ﴿ شَكُورٍ ﴾ يشكر على نعمائه، فإنّه إذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء، وأفيض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبّه لما يجب عليه

⁽١) التغابن: ٢.

وقيل: المراد لكلّ مؤمن. وإنّما عبّر عنهم بذلك تنبيهاً على أنّ الصبر والشكر عنوان المؤمن ومن سجاياه. فإنّ التكليف لا يخلو من الصبر والشكر.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي: اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائه إتاكم. ويجوز أن ينتصب برعليكم » إن جعلت مستقرّة غير صلة للنعمة، لأنّه إذا كان صلة لم يعمل فيه، أي: اذكروا نعمة الله مستقرّة عليكم وقت إنجائكم، وذلك إذا أريدت بها العطيّة دون الإنعام، ويجوز أن يكون بدلاً من «نعمة الله » بدل الاشتمال، أي: اذكروا وقت انحائكم.

وقوله: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبُحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَخْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ أحوال من آل فرعون، أو من ضمير المخاطبين. والمراد بالعذاب هاهنا غير المراد به في سورة البقرة (١) والأعراف (٢)، لأنّه ثمّ مفسّر بالتذبيح والقتل، ومعطوف عليه التذبيح هنا. وهو إنّا جنس العذاب، أو استعبادهم واستعمالهم بالأعمال الشاقة.

﴿ وَفِي ذَلِكُمْ ﴾ من حيث استعبادهم بإقدار الله تعالى إيّاهم، وتمكينهم وإمهالهم فيه ﴿ بَلا مُ مِنْ كَمْ عَظِيمُ ﴾ ابتلاء منه. ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء. والمراد بالبلاء النعمة.

وَاِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَنِ شَكَرْتُمُ لَأَرِيدَنَّكُمْ وَلَنِ كَفَرْتُمُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىَ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنْتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

⁽١) البقرة: ٤٩.

⁽٢) الأعراف: ١٤١.

حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتَكُمُ شَأَ الَّذِينَ مِن قَبْلَكُمْ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَتُمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدَهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءَتُهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيْنَاتِ فَرَدُّواً أَيْدِيُهُمْ فِيَ أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرُنَا بِمَا أَرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩٩﴾

ولمًا تقدّم ذكر النعم أتبعه سبحانه بذكر ما يلزم عليها من الشكر، فقال: ﴿وَإِذْ قَاذَنَ رَبُّكُمُ ﴾ هو ايضاً من كلام موسى ﷺ. و«تأذّن» بمعنى: آذن، ك: تـوعّد وأوعد، غير أنّه أبلغ، لما في التفعّل من معنى التكلّف والمبالغة، ولابدّ في «تفعّل» من زيادة معنى ليس في «أفعل». كأنّه قال: وإذ أذن ربّكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك.

﴿ نَئِنْ شَعَوْتُمْ ﴾ يا بني إسرائيل ما أنعمت عليكم ﴿ لَأَزِيدَتُكُمْ ﴾ نعمة إلى نعمة ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ ﴾ جحدتم نعمتي ﴿ إِنَّ عَدَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ بمعنى: أعلَّبكم على الكفران عذاباً شديداً. ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرّح بالوعد ويعرّض بالوعيد. والجملة مقول قول مقدّر، أو مفعول «تأذّن»، على أنّه جارٍ مجرى «قال»، لأنّه ضرب منه.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكَفُّرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَهِيعاً ﴾ من الثقلين ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيُ ﴾ من شكركم، وأنتم محاويج إليه ﴿ حَهِيدٌ ﴾ مستحق للحمد في ذاته، محمود تحمده الملائكة، وتنطق بنعمته ذرّات المخلوقات، فما ضررتم بكفرانكم إلا أنفسكم، حيث حرّمتموها مزيد الإنعام، وعرّضتموها للعذاب الشديد.

قال أبو عبدالله الصادق على في هذه الآية: «أيّما عبد أنعمت عليه نعمة فأقرّ بها بقلبه، وحمد الله تعالى عليها بلسانه، لم ينفذ كلامه حتّى يأمر الله له بالزيادة». ﴿ أَلَمْ يَاتِكُمْ نَبُا أَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَشَمُودَ﴾ من كلام موسى، أو كلام مبتدأ من الله خطاباً لأمّة نبيتا ﷺ ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ ﴾ جملة وقعت اعتراضاً. أو «الذين من بعدهم» في محل الجرّ عطفاً على قوم نوح، و«لا يعلمهم» اعتراض. والمعنى: أنّهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلّا الله تعالى. ولذلك قال ابن مسعود حين قرأ هذه الآية: كذب النسّابون.

وقيل: إنّ بين عدنان وإسماعيل ثلاثين أباً لا يعرفون. وقيل: إنّ النبيّ ﷺ كان لا يجاوز في انتسابه معد بن عدنان.

﴿ جَآءَتْهُمْ وَسُلُهُمْ بِالْبَيْنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيْهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ فعضّوا على أصابع أيديهم من شدّة الفيظ والضجر ممّا جاءت به الرسل، كقوله: ﴿ عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلُ مِنَ الْفَيْظِ ﴾ (١). أو وضعوها عليها تعجّباً منه، أو استهزاءً عليه، كمن غلبه الضحك، أو إسكاتاً للأنبياء وأمراً لهم بإطباق الأفواه، أي: اسكتوا عمّا تدعوننا إليه، أو أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقت به، من قولهم: إنّا كفرنا، تنبيهاً على أن لا جواب لهم سواه، أوردوها في أفواه الأنبياء عين عنعونهم من التكلّم.

وقيل: الأيدي بمعنى الأيادي، أي: ردّوا أيادي الأنبياء الّتي هي أجلّ النعم. وهي مواعظهم وما أوحي إليهم من الحكم والشرائع في أفواههم، لآنهم إذا كذّبوها ولم يقبلوها فكأنّهم ردّوها إلى أفواههم، ورجعوها إلى حيث جاءت منه، على طريق المثل.

﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ على زعمكم ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكَّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إلَيْهِ ﴾ من الإيمان ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة ، أو ذي ريبة . وهي قلق النفس بحيث لا تطمئن إلى شيء .

⁽١) آل عمران: ١١٩.

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكِّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُم مِّن ذَنُوبِكُمْ وَيُؤَخِرَكُمْ إِلَى َ أَجَلِ مُّسَمَّى قَالُوَاْ إِنْ أَنَتُمْ إِلاَّ بِشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿ ١٠﴾

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكَ ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف. لأنّ الكلام في المشكوك فيه وأنّه لا يحتمل الشكّ، لا في الشكّ، أي: إنّما يدعوكم إلى الله، وهو لا يتطرّق إليه الشك، لكثرة الأدلّة، وظهور دلالتها عليه. وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿ فَاطِو السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ صفة أو بدل. و«شكّ» مرتفع بالظّرف.

﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى الإيمان ببعثه إيّانا ﴿ لِيَفْقِرَ لَكُمْ ﴾ أو يدعوكم إلى المعفرة، كقولك: دعوته لينصرني، على إقامة المفعول له مقام المفعول به ﴿ وِمِنْ ذُنُوبِكُمْ بعض ذنوبكم، وهو ما بينكم وبينه، فإنّ الاسلام يجبّه دون المظالم. وقيل: جيء برمن » في خطاب الكفّار دون المؤمنين في جميع القرآن، تفرقةً بين الخطابين. ويحتمل أن يكون المعنى فيه: أنّ المففرة حيث جاءت في خطاب الكفّار مرتبة على الإيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنّب عن المعاصى، فتناول الخروج عن المظالم.

﴿ وَيُؤَخِّرُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمِّى ﴾ إلى وقت سمَّاه الله تعالى، وجمعله آخر أعماركم.

وفي هذه الآية دلالة على أنّه سبحانه لا يريد الكفر والشرك. وإنّـما يــريد الخير والإيمان. وأنّه إنّما بعث الرسل إلى الكفّار رحمة وفــضلاً. وإنــعاماً عــليهم ليؤمنوا. فإنّه قال: «يَدعوكم ليففر لكم» إلى آخرها.

﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرُ مِثْلُنَا﴾ لا فضل لكم علينا ، فلم تخصّون بالنبوّة دوننا ؟

ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلاً لبعث من جنس أفضل، وهم السلائكة ﴿ تُوِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ بهذه الدعوى ﴿ فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾
يدلً على فضلكم واستحقاقكم لهذه العزيّة، أو على صحّة ادّعائكم النبوّة. وقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات والحجج لكن لم يعتبروها عناداً، واقترحوا عليهم آية أخرى تعنّناً ولجاجاً.

قَالَتُ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بِشَرٌ مَثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّاتِيكُم سِسُلْطَانِ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا ٓ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوِّكُلُونَ ﴿١٢﴾

ثمّ حكى جواب الرسل للكفّار، فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَـخَنُ إِلّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَ اللهَ يَمُنُ عَلَىٰ مَن يَشَاءً﴾ سلّموا مشاركتهم إيّاهم في البشريّة، وجمعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبرّة فضل الله تعالى ومنّه عليهم، ولم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم، فاقتصروا على قولهم: «ولكنّ الله يمن على من يشاء» ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بالنبرّة، لأنّه قد علم أنّه لا يختصهم بتلك الكرامة إلّا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم.

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَاتِيَكُمْ بِسُلطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي: ليس إلينا الإتيان بالآيات. ولا يستبدّ به استطاعتنا حتّى نأتي بما اقترحتموه، وإنّما هو أمر يتعلّق بمشيئة الله تعالى، فيخصّ كلّ نبيّ بنوع من الآيات:

﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ عمّموا الأمر بالتوكّل للإشعار بما يـوجب

التوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوّليّاً، وأمروها به، كانّهم قالوا: ومن حقّنا أن نتوكّل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، ولهذا قالوا بعد ذلك: ﴿ وَمَا لَنَا اللّهِ نَتَوَكّل على اللهِ ﴿ وَقَدْ هَنَانا سُبُلْنَا﴾ وقد الله نتوكّل على ﴿ وَقَدْ هَنَانا سُبُلْنَا﴾ وقد فعل بنا ما يوجب توكّلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كلّ واحد منّا إلى السبيل الّذي يجب عليه سلوكه في الدين. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف هاهنا وفي العنكبوت(١٠).

﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ جواب قسم محذوف، أكدوا توكلهم وعدم مبالاتهم بما يجري من الكفّار عليهم ﴿ وَعَلَى الشِّ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُقُوَكِّلُونَ ﴾ فليثبت المتوكّلون على ما استحدثوه من توكّلهم المسبّب عن إيمانهم. فالمراد بالتوكّل الأوّل استحداثه، وبالثاني التوكّل عليه.

وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلُهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مَنْ أَرْضَنَا أَوْ لَتُعُودُنَ فِي مَلَّنَا فَأُوحَى اللَّهِمُ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكُنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنْسُكُنَنَكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدَهِمُ فَلَكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيد ﴿١٤﴾ وَاسْتَقْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنيد ﴿١٥﴾ مَن وَرَآتِه جَهَنَّمُ ويُسْتَقَى مِن مَآءَ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلاً عَنيد ﴿١٥﴾ مِن وَرَآتِه جَهَنَّمُ ويُسْتَقَى مِن مَآءَ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلاً يَكُونُ مِن مَآءَ صَدِيدٍ ﴿١٤﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكُلُ مُكَانٍ وَمَا هُو بِمَيْتٍ وَمِن وَرَآتِهِ عَذَابٌ عَذَابٌ غَلَيظٌ ﴿١٧﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَتُّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ حلفوا

⁽١) العنكبوت: ٦٩.

سورة إبراهيم، آية ١٣ ــ ١٧

على أنّه لابدّ من أحد الأمرين: إمّا إخراجهم للرسل من بلادهم، أو عـودهم إلى ملّتهم. والعود هاهنا بمعنى الصيرورة، لأنّهم لم يكونوا على ملّتهم قطّ. ويجوز أن يكون الخطاب لكلّ رسول ولمن آمن معه، فغلّبوا الجماعة على الواحد.

﴿ فَأَوْ حَنْ إِلَيْهِ ﴾ إلى رسلهم ﴿ رَبُّهُمْ لَنَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ على إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجراه، لأنّه نوع منه.

﴿ وَلَنَسُكِنَتُكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي: أرضهم وديارهم، كقوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقُوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ (١٠). وفي الحديث: «من آذي جاره ورّئه الله داره».

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الموحى به ، وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ موقفي ، وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة . أو قيامي عليه ، وحفظي لأعماله . وقيل : المقام مقحم .

﴿ وَخَافَ وَعِيدٍ ﴾ أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفّار.

﴿ وَاسْتَقْتَحُوا﴾ سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعاديهم، من الفتاحة، كقوله: ﴿ وَبُنا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ (؟). وهـ و معطوف على «فأوحى». والضمير للأنبياء. وقيل: للكفرة، ظناً منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل. وقيل: للفريقين، فإنّ كلّهم سألوه أن ينصر المحق ويهلك العبطل.

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَنَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي: ففتح لهم فأفلح المؤمنون، وخاب كلَّ جـبّار عات متكبّر على الله الله معاند للحق فلم يفلح.

﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي: من بين يدي هذا الجبّار، فإنَّه مرصد بها، واقف على

⁽١) الأعراف: ١٣٧.

⁽٢) الأعراف: ٨٩.

٤٧٤ زيدة التفاسير _ ج ٣

شفيرها في الدنيا، مبعوث إليها في الآخرة. وقيل: من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك. ﴿ وَيُسْفَىٰ مِنْ مَآمِ ﴾ عطف على محذوف تقديره: من ورائه جهنّم يلقى فيها ما يلقى، ويسقى من ماء ﴿ صَدِيدٍ ﴾ عطف بيان لرهاء». وهو ما يسيل من جلود أهل النار من القيح والدم.

وعن أبي عبدالله الصادق ﷺ : «هو الدم والقيح من فروج الزواني في النار». وهذا قول أكثر المفسّرين.

روى أبو امامة عن النبي ﷺ في قوله: «ويسقى من ماء صديد»، قال: «يقرّب إليه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة (١١) رأسه، وإذا شرب قطع أمعاءه حتّى يخرج من دبره، يقول الله تعالى: ﴿وَسُنقُوا مَآءَ حَمِيماً فَقَطْعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (٣). ويقول: ﴿ وَإِنْ يَسْتَقِيدُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهُلِ يَشْوِي الْوُجُوة ﴾ (٣)».

قال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوماً، فإن مات وفي بطنه شيء من ذلك كان حقّاً على الله الله أن يسقيه من طينة خبال، وهي صديد أهل النار، ومايخرج من فروج الزناة، يجمع ذلك في قدور جهنّم، فيشربه أهل النار، فيصهر به ما في بطونهم والجلود». رواه شعيب بن واقد، عن الحسين بن زيد، عن الصدين بن

﴿ يَتَجُزَّعُهُ ﴾ يتكلّف جرعه. وهو صفة الاماء»، أو حال من الضمير في «يسقى». ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيعُهُ ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه ؟ كقوله: ﴿ لَمْ يَكُدُ يَرَاهُ ا﴾ (٤) أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ؟ بل يغصّ به فيطول عـذابـه.

⁽١) الفروة: جلدة الرأس بشعرها.

⁽٢) محمد: ١٥.

⁽٣) الكهف: ٢٩.

⁽٤) النور: ٤٠.

سورة إبراهيم، آية ١٨............٢٥

والسوغ جواز الشراب على الحلق بسهولة وقبول نفس.

﴿ وَيَاتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي: أسبابه من الشدائد، فتحيط به من جميع الجهات. وقيل: من كلّ مكان من جسده، حتى من أصول شعره وإسهام رجله. ﴿ وَمَا هُو بِمَيْتٍ ﴾ فيستريح ﴿ وَمِنْ وَرَآتِهِ ﴾ ومن بين يديه ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ يستقبل في كلٌ وقت عذاباً أشد وأغلظ مما هو عليه. عن ابن عبّاس: هو الخلود في النار. وعن الفضيل: هو حبس الأنفاس.

وقيل: الآية منقطعة عن قصّة الرسل، نازلة في أهل مكّة، طلبوا الفتح الذي هو المطر في سني القحط التي أرسل الله تعالى عليهم بدعوة رسوله، فخيّب رجاءهم فلم يسقهم، ووعد لهم أن يسقيهم صديد أهل النار في جهنّم بدل سقياهم في الدنيا.

مَّلُلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادِ اشْنَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لِاَ يَقْدرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴿﴿١٨﴾

ثمّ أخبر سبحانه عمّا ينال الكمّار من الحسرة فيما تكلّفوه من الأعمال، فقال: ﴿ مَثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي: فيما يبتلى عليكم صفتهم الّتي هي مثل في الفرابة. وقوله: ﴿ اعْمَالُهُمْ كَزَمَادٍ ﴾ جملة مستأنفة لبيان مثلهم، على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد. وقيل: أعمالهم بدل من المثل، والخبر «كرماد».

﴿السَّتَذُتْ بِهِ الرِّيخِ﴾ حملته وأسرعت الذهاب به. وقرأ نافع: الرياح. ﴿فِي يَوْمِ عَاصِفِهُ العصف اشتداد الريح. وصف به زمانه للمبالغة، كقولهم: يوم ماطر، ونهاره صائم، وليله قائم. شبّه صنائعهم _من الصدقة وصلة الرحم وإغاثة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم، في حبوطها، لبنائها على غير أساس من

٤٧٦ زيدة التفاسير ـ ج ٣

معرفة الله والتوجّه بها إليه ـ أو أعمالهم للأصنام. برماد طيّر ته الريح العاصف. فكما لا يقدر أحد على جمع ذلك الرماد المتفرّق والانتفاع به. فكذلك هؤلاء الكفّار.

﴿لَا يَشْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ مَن أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَنِيمٍ﴾ لحبوطه، فلا يرون له أثراً من الثواب. وهو فذلكة التمثيل. ﴿ ذَلِكَ إِسَارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنّهم محسنون ﴿ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ فإنّه الغاية في البعد عن طريق الحقّ.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول المجبّرة. لآنه أضاف العــمل إليهم، ولو كان مخلوقاً له سبحانه لما صحّ إضافته إليهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ حَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأُ يُذُهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخُلْقِ جَدِيدِ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٧٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّمَفَا ۗ لِلَّذِينَ ٱسْتُكْبُرُوا ۚ إِنَّا كُمَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَشُم مُّغُنُونَ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدُيْنَاكُمْ سَوَا ۗ عَلَيْنَا ٓ أَجَزِعُنَا ۖ أَمُ

ثمّ بين سبحانه أنّه إنّما خلق الخلق ليعبدوه وليؤمنوا به، لا ليكفروا، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَى ﴾ خطاب للنبيّ ﷺ ، والمراد به أمّته، وقيل: لكلّ واحد من الكفرة على التلوين. ﴿ أَنَّ اللهُ خَلَقَ السَّمُوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ بالحكمة والوجه الّذي يحق أن تخلق عليه، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة، وقرأ حمزة والكسائي: خالق السماوات.

﴿إِن يَشَا يُذْمِنِكُمْ ﴾ يعدمكم ﴿ وَيَاتٍ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ويخلق مكانكم خلقاً آخر. رتب ذلك على كونه خالقاً للسماوات والأرض استدلالاً به عليه، فإنّ من خلق أصولهم وما يتوقّف عليه تخليقهم، ثمّ كوّنهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع، قدر أن يبدلهم بخلق آخر، ولم يمتنع عليه ذلك، كما قال: ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذر أو متعسر، بل هو يسير، فإنّه قادر لذاته، لا اختصاص له بمقدور دون مقدور. ومن كان هذا شأنه كان حقيقاً بأن يعبد ويؤمن به، رجاءً لثوابه، وخوفاً من عقابه يوم الجزاء.

﴿ وَبَرَزُوا بِشِهِ جَمِيعا﴾ أي: يبرزون من قبورهم ويتخرجون منها يسوم القيامة لأمر الله ومحاسبته. أو لله على ظنّهم، فإنّهم كانوا يخفون ارتكاب الفواحش، ويظنّون أنّها تخفى على الله، فإذا كان ينوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم، وعلموا أنّ الله لا تخفى عليه خافية. وإنّما ذكر بلفظ الماضي لتحقّق وقوعه. ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّبَةِ أَصْحَابُ النَّالِ ﴾ (١). ونظائره، والمعنى: وبرّزهم الله، والله لا يتنوارى عنه شيء حتى يبسرز له كما ظنّها.

﴿ فَقَالَ الضَّعَفُوُ ا﴾ أي: الأتباع، جمع ضعيف. يريد به ضعاف الرأي، وإنّما كتبت بالواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو. ﴿ لِللَّذِينَ السَتَخِبُرُوا﴾ لروّسائهم الّذين استبعوهم واستغووهم، وصدّوهم عن الاستماع إلى الأثبياء ﴿ إِنّا كُنّا لَكُمْ تَبَعا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم. وهو جمع تابع، كفائب وغَيّب. أو مصدر، نحو خادم وخدم، نعت به للمبالغة، أو على إضمار مضاف، أي: ذوي تبع.

⁽١) الأعراف: ٤٤.

﴿ فَهَلَ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَناً ﴾ دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ «من» الأولى للبيان واقعة موقع المفعول، أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله. ويجوز أن تكونا للتبعيض، أي: بعض شيء هو بعض عذاب الله. والإعراب ما سبق. ويحتمل أن تكون الأولى مفعولاً والثانية مصدراً، أي: فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الإغناء.

﴿ قَالُوا﴾ أي: الذين استكبروا جواباً عن معاتبة الأتباع، واعتذاراً عمّا فعلوا بهم ﴿ لَوْ هَنَانَا الله ﴾ للإيمان ﴿ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن ضللنا فأضللناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا. وهذا كقوله تعالى: ﴿ لَوْ شَآءَ اللهُ مَا الشَّرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ (١٠). ﴿ لَوْ شَآءَ اللهُ مَا الشَّرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ (١٠). ﴿ لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْعِ ﴾ (١٠). يقولون ذلك في الآخرة، كما كانوا يقولون ذلك في الاخرة، كما كانوا يقولون ذلك في الدنيا. أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم، وسلكنا بكم طريق النجاة، وانقطعت حيلتنا ويئسنا من النجاة، ولكن سدّ دوننا طريق النجاة.

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر. فالهنزة و«أم» للتسوية. ونحوه ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ (٣). ﴿ مَا لَنَا مِنْ مَجِيصٍ ﴾ أي: منجي ومهرب من العذاب. من الحيص، وهو العدول على جهة الفرار. وهو يحتمل أن يكون مكاناً كالمبيت والمضيف، ومصدراً كالمغيب والمشيب. ويجوز أن يكون قوله: ﴿ سَواءٌ علينا﴾ من كلام الفريقين. ويؤيده ما روي أنّهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك، شمّ يقولون: سواء علينا.

⁽١) الأنعام: ١٤٨.

⁽٢) النحل: ٣٥.

⁽٣) الطور : ١٦ .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَنَا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعُدَ الْحَقِّ وَوَعَدَّتُكُمْ فَأَخُلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانِ الِلَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواَ أَنْفُسَكُم مَّا آنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا آنَتُمْ بِمُصْرِحِيَّ إِنِي كَفَرْتُ بِمَا أَشَا أَشْرُكُنُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ٢٢ ﴾

ولمّا تقدّم وعيد الكفّار ووصف يوم الحشر، وما يجري فيه من الجدال بين الأتباع والمتبوعين، عقّب ذلك سبحانه بكلام الشيطان في ذلك اليوم، فقال: ﴿ وَقَالَ الشّيْطَانُ ﴾ وهو إبليس باتفاق المفسّرين ﴿ لَمّا تُحْمِي الْأَمْرُ ﴾ أحكم وفرغ منه، ودخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار، خطيباً في الأشقياء من التقلين: ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقّ ﴾ وعداً من حقّة أن ينجز، أو وعداً أنجزه، وهو الوعد بالبعث والجزاء ﴿ وَوَعَدتُكُمْ ﴾ وعد الباطل، وهو أن لابعث ولاحساب، وإن كانا فالأصنام تشغ لكم ﴿ فَالْحَلَقُلُمُ ﴾ لم أوف بما وعدتكم، جعل تبيّن خلف وعده كالإخلاف منه.

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانِ ﴾ تسلّط، فأقسركم على الكفر والمعاصي، وألجئكم إليها ﴿ إِلّا أَن مَعْوَنَكُمْ ﴾ إِلّا دعائي إيّاكم إلى الضلالة بوسوستي و تزييني. وليس الدعاء من جنس السلطان والقهر والقسر، ولكنّه على طريقة قولهم: تحيّة بينهم ضرب وجيع. ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً. ﴿ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أسرعتم إجابتي.

﴿ فَلَا تَلُومُونِي ﴾ بوسوستي، فإنّ من صرّح العداوة لا يلام بأمثال ذلك ﴿ وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ حيث أطعتموني، إذ دعو تكم من غير دليل وبرهان، ولم تطيعوا

8.۸۰ زیدة التفاسیر ــج ۳

ربّكم لما دعاكم بالأدلّة الواضحة والحجج الباهرة.

وهذا دليل على أنّ الانسان هو الّذي يختار الشقاوة أو السعادة، ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلّا التمكين، ولا من الشيطان إلّا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبّرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم، فإنّ الله قمد قمضى عمليكم الكمفر وأجبركم عليه.

لا يقال: هذا قول الشيطان، فلا يجوز التمسك به في بطلان قول المجبّرة. لائنا نقول: لو كان صدور هذا القول من الشيطان باطلاً لبيّن الله بطلانه، وأظهر إنكاره، فتقريره دالً على صحّته.

﴿ مَا أَنَا مِمُصرِ حِثْمُ ﴾ بمغيثكم من العذاب ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيُ ﴾ بمغيثي. وقرأ حمزة بكسر الياء، على الأصل في التقاء الساكنين. وهو أصل مرفوض في مثله، لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات. مع أنَّ حركة ياء الإضافة هي الفتح، فإذا لم تكسر وقبلها ألف _ نحو: عصاي ورحاي _ فبالحريِّ أن لا تكسر وقبلها ياء.

﴿إِنِّي كَفُرْتُ بِمَا أَشْرَكَتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ «ما» إمّا مصدريّة، و«من» متعلّقة به «أشركتموني»، أي: كفرت اليوم بإشراككم إيّاي من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا، بمعنى: تبرّأت منه واستنكر ته، كقوله: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخَفُرُونَ مِشْبِرْكِكُمْ ﴾ (١٠. أو موصولة، بمعنى «من»، نحو «ما» في قولهم: سبحان ما سخّركن لنا، و«من» متعلّقة بدكفرت»، أي: كفرت بالذي أشركتمونيه ـ وهو الله تعالى ـ بطاعتكم إيّاي فيما دعو تكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها من قبل إشراككم، حين رددت أمره بالسجود لآدم، و«أشركت» منقول من: شركت زيداً للتعدية إلى مفعول ثانٍ، فتقول: شركت زيداً للتعدية إلى مفعول ثانٍ، فتقول: شركت زيداً للتعدية إلى مفعول ثانٍ، فتقول:

⁽١) فاطر: ١٤.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابُ اللِيمُ ﴾ تتمة كلامه، أو ابتداء كلام من الله تعالى. وفي حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين، وإيقاظ لهم حتّى يحاسبوا أنفسهم، ويتدبّروا عواقبهم.

وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْيَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِهِمْ تَحَيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴿٢٣﴾

ولمَّا تقدَّم وعيد الكافرين، عقَّبه سبحانه بالوعد للمؤمنين، فقال: ﴿ وَأَنْضِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَالُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ بإذن الله وأمره. والمدخلون هم الملائكة. ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامً﴾ أي: تحييهم الملائكة فيها بالسلام بإذن ربّهم.

أَلْمُ تَرَكَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلْمَةً طَيْبَةً كَشَجَرةً طَيْبَة أَصُلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآء ﴿ ٢٤ ﴾ تُوتِي أَكُلُها كُلَّ حين بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿ ٢٥ ﴾ وَمَثَلُ كَلَمَةً خَبِيثَة كَشَجَرَة خَبِيثَة الأَمْثَالَ لِلنَاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿ ٢٥ ﴾ وَمَثَلُ كَلَمَةً خَبِيثَة كَشَجَرَةً خَبِيثَة الخُنَيَّتُ مِن فَوْق الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿ ٢٦ ﴾ يُنتَبِّتُ اللّهُ الذِينَ آمَنُوا بِالْقُولُ اللّهُ مَا النَّابِ فِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا لَيْنَاءُ ﴿ ٢٧ ﴾

ثمّ ضرب سبحانه مثلاً يقرّب من أفهام السامعين، ترغيباً للخلق في اتّباع

الحقّ، فقال: ﴿ أَلَهُ مَتَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَلْاً ﴾ كيف اعتمده ووضعه ﴿ خَلِمَةُ طَيْبَةً ﴾ منصوبة بفعل مضمر، أي: جعل كلمة طيّبة ﴿ كَتَشَجْرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ زاكية نامية. وهو تفسير لقوله: «ضرب الله مثلاً»، كما تقول: أكرم الأمير زيداً، كساه حلّة، وحمله على فرس. ويجوز أن تكون «كلمة» بدلاً من «مثلاً» و«كشجرة» صفتها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي كشجرة، وأن تكون أول مفعولي «ضرب»، إجمراءً لها مجرى «جعل».

﴿ أَصُلُهَا تَابِتُ ﴾ في الأرض، ضارب بعروقه فيها، راسخة أصولها فيها ﴿ وَقَرْعُهَا ﴾ وأعلاها ﴿ فِي السَّمَاء ﴾ في جهة العلق والصعود. أراد به المبالغة في الرفعة. ويجوز أن يريد: وفروعها، أي: أفنانها(١)، على الاكتفاء بلفظ الجنس، لاكتسابه الاستغراق من الإضافة.

﴿ تُؤْتِي أَكْلَهَا﴾ تعطي ثمرها ﴿ كُلُّ حِينٍ ﴾ وقته الله الإثمارها، وعن سعيد بن جبير :أراد بذلك أنه يؤكل ثمرها في الصيف، وطلعها في الشتاء. وما بين صرام (٢٠) النخلة إلى حملها ستّة أشهر . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقها وتكوينه.

وقيل: معناه في جميع الأوقات، لأنّ ثمر النخل يكون أوّلاً طلعاً. ثمّ يصير بلحاً. ثمّ بسراً. ثمّ رطباً. ثمّ تمراً. فيكون ثمره موجوداً في الأوقات كلّها.

﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لأنَّ في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنّه تصوير للمعانى وإدناء لها من الحسّ.

والكلمة الطيّبة هي كلمة التوحيد، كما نقل عن ابن عبّاس أنّها شهادة أن لا إله إلّا الله. وقيل: كلَّ كملمة حسنة، كمالتسبيحة والتحميد والتوبة والاستغفار والدعوة، وسائر ما أمر الله تعالى به. وإنّما سمّاها طيّبة، لأنّها زاكية بالخيرات، نامية

⁽١) الأفنان جمع الفنن، وهو الغصن المستقيم.

⁽٢) أي: قطع تمرها.

وأمًا الشجرة فكلّ شجرة مثمرة طيّبة الثمار، كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمّان، وغير ذلك. وعن ابن عبّاس: شجرة في الجنّة.

وروى ابن عقدة عن الباقر ﷺ : «أنّ الشجرة رسول الله ﷺ ، وفرعها عليّ ﷺ ، وعنصر الشجرة فاطمة ﷺ ، وثمرتها أولادها، وأغسانها وأوراقها شيعتنا». ثمّ قال: «إنّ الرجل من شيعتنا ليموت فتسقط من الشجرة ورقة، وإنّ المولود من شيعتنا ليولد فيورق مكان تلك الورقة ورقة».

وروي عن ابن عبّاس قال: قال جبرئيل ﷺ للنبيّ ﷺ: أنت الشجرة. وعليّ غصنها، وفاطمة ورقها، والحسن والحسين ﷺ ثمارها، وشيعتكم أوراقها.

وقيل: إنّه سبحانه شبّه الإيمان بالنخلة، لثبات الإيمان في قلب المؤمن كثبات النخلة في منبتها. وشبّه علو مرتبة الإيمان عند الله بارتفاع فروع النخلة. وشبّه ما يكسبه المؤمنون من بركة الإيمان وثوابه في كلّ وقت وحين، بما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلّها، من الرطب والتمر.

وقبل: إنَّ معنى قوله: ﴿تُؤتِي أَكلها كلَّ حين بإذن ربّها﴾ ما يفتي به الأنُمَّة من آل محمد ﷺ وشيعتهم في الحلال والحرام.

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَلِيقَةٍ خَشَجَرَةٍ خَبِيقَةٍ اجْتَثُتُ ﴾ استؤصلت وأخذت جتّها بالكلّية ﴿ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾ لأنّ عروقها قريبة منه ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَالٍ ﴾ استقرار. يقال: قرّ الشيء قراراً، كقولك: ثبت ثباتاً، في مقابلة قوله: «أصلها ثابت». شبّه بها القول الذي لم يعضد بحجّة، فهو داحض غير ثابت. وهذه الكلمة كلمة الشرك، والدعاء إلى الكفر، وتكذيب الحقّ، أو كلّ كلمة مضلّة على العموم. وفسّرت الشجرة بالحنظلة والكشوث(١)، وعن الناقي الله : أنّها نتو أميّة.

⁽١) الكَثُوث: نبات طفيليّ ، لا جذر له ولا ورق ، يلتفّ بأغصان الشجر .

﴿ يُذَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الظَّابِتِ﴾ أي: أَلَذي ثبت بالحجّة عندهم، وتمكّن في قلوبهم، فاعتقدوه، واطمأنت إليه أنفسهم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يزلون إذا فتنوا في دينهم، كزكريًا ويحيى وجرجيس وشمعون، والذين فتنهم أصحاب الأخدود ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف، ولا تدهشهم أهوال يوم القيامة.

وقيل: معناه الثبات عند سؤال القبر. وهذا قول أكثر المفسّرين، منقول عن ابن عبّاس وابن مسعود. وهو العرويّ عن أئمّتنا ﷺ.

وعن سويد بن غفلة عن أمير المؤمنين عليّ ﷺ: قال: «إنّ الدؤمن الصالح إذا كان في آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة، أتاه عمله الصالح أطيب الناس ريحاً، وأحسنهم منظراً، وأحسنهم رياشاً، فقال: أبشر بروح وريحان وجنّة نعيم، ومقدمك خير مقدم.

فيقول له: من أنت؟

فيقول: أنا عملك الصالح، ارتحل من الدنيا إلى الجنّة، وإنّه ليعرف غاسله. ويناشد حامله أن يعجّله.

فإذا أدخل قبره أتاه ملكا القبر يجرّان أشعارهما، ويخدّان الأرض بأنيابهما. أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقولان له: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟

فيقول: الله ربّى، وديني الاسلام، ونبييّ محمد ﷺ.

فيقولان: ثبتك الله فيما تحبّ وترضى. وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة ﴾ . ثمّ يفسحان له في القبر قدّ بصره، ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنّه، ثمّ يقولان له: نم قرير العين نوم الشابّ الناعم، فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَـوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَوّاً وَاحْسَنُ مُقَالًا ﴿ (١)».

⁽١) الفرقان: ٢٤.

عن البراء بن عازب أنّ رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثمّ يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره، ويقولان له: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نببّك؟ فيقول: ربّي الله، وديني الاسلام، ونبيّي محمّد ﷺ. فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي. فذلك قوله: «يتبّت الله الذين آمنوا بالقول التّابت».

﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الطَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالاقتصار على تقليد شيوخهم وكبارهم وآبائهم، فقالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ (١٠). وإضلالهم الله في الدنيا أُنَّهم لا يشتبون في مواقف الفتن، تخلية وخذلاناً.

﴿ وَيَقْفَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ ولا يشاء إلّا ما توجبه الحكمة، من تثبيت المؤمنين وتأييدهم، وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين، أي: خذلانهم والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نَعْمَةُ اللّهِ كُفُرًا وَأَحَلُواْ قَوْمُهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَمَ يَصُلُوْهَا وَبِشْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٨﴾ وَجَعَلُواْ لَلّهِ أَندَادًا لَيْضِلُواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَنَّعُواْ وَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لَمِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ فَلْ تَشَعُواْ مَمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلائِيَةً مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ يُبْعٌ فِيهِ وَلاَ خَلالٌ ﴿٣١﴾

﴿ أَلَمْ تَزَ إِلَى الَّذِينَ يَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْراً ﴾ أي: شكر نعمته كفراناً، بأن وضعوا مكانه كفراً، فكانهم غيروا الشكر إلى الكفر، وبدّلوه تبديلاً. ونحوه: ﴿ وَتَسْجَعُلُونَ

⁽١) الزخرف: ٢٢.

٤٨٦ زيدة التفاسير ـ ج٣

رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١)، أي: شكر رزقكم، حيث وضعتم التكذيب موضعه.

وعن أمير المؤمنين ﷺ وابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد والضحّاك: أنّهم كفّار قريش، كذّبوا نبيّهم، ونصبوا له الحرب والعداوة.

فالمعنى: أنّ الله سبحانه خلق كفّار مكّة وأسكنهم حرمه، وجعلهم قوّام بيته، ووسّع عليهم أبواب رزقه، وشرّفهم بمحمّد ﷺ. فبدّلوا نفس النعمة كفراً، فسلبت منهم، فقحطوا سبع سنين، وأسروا وقتلوا يوم بدر، وصاروا أذلّاء، فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر، حاصلاً لهم الكفر بدلها.

﴿ وَأَخَلُوا قَوْمُهُمْ﴾ الّذين شايعوهم في الكفر ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ دار الهلاك. بحملهم على الكفر.

﴿جَهَنَمْ﴾ عطف بيان لها ﴿ يَصْلَوْنَهَا﴾ حال منها، أو من القوم، أي: داخلين فيها مقاسين لحرّها، أو مفسّر لفعل مقدّر ناصب الجهنّم».

﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أي: وبئس المقرّ جهنّم.

وعن الصادق ﷺ أنّه قال: «نحن والله نعمة الله الّتي أنعم بها على عباده، وبنا يفوز من فاز من دار البوار». ذكره عليّ بن إبراهيم (٣) في تفسيره.

﴿ وَجَعَلُوا بِثِهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الّذي هو التوحيد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بفتح الياء. وليس الضلال والإضلال غرضهم في اتّخاذ الأنداد، لكن لمّا كان نتيجته جعل كالغرض على طريق التشبيه.

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ بشهواتكم أو بعبادة الأوثان، فإنَّها من قبيل الشهوات الَّـتي

⁽١) الواقعة: ٨٢.

⁽٢) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣٧١.

يتمتّع بها. وفي التهديد بصيغة الأمر إيذان بأنّهم لانغماسهم في التمتّع لا يـعرفون غيره ولا يريدونه، فكأنّهم مأمورون به. قد أمرهم آمر مطاع. وأنّ المهدّد عليه ـ أي: التمتّع ـكالمطلوب، لإفضائه إلى المهدّد به، وهو النـار، وأنّهما مـتلازمان، ولذك علّه بقوله: ﴿ قَانَ مَصِيرَكُمْ ﴾ مرجعكم ﴿إلَى الفَّارِ﴾ إلى نار جهنّم.

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خصّهم بالإضافة تنويهاً لهم، وتنبيهاً على أنّهم المقيمون لحقوق العبوديّة. ومفعول «قل» محذوف يدلّ عليه جوابه، أي: قبل لعبادي الذين آمنوا اقيموا الصّلاة وأنفقوا. ﴿ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمّا رَزْقَنَاهُمُ ﴾ فيكون إيذاناً بأنّهم لفرط مطاوعتهم للرسول بحيث لا ينفك فعلهم عن أمره، وأنّه كالسبب الموجب له.

وقيل: لام الأمر مقدّر فيهما، أي: ليقيموا ولينفقوا، ليصحّ تعلّق القول بهما. وإنّما جاز حذف اللام، لأنّ الأمر الذي هو «قل» عوض منه. ولو قيل ابتداءً: ليقيموا الصلاة وينفقوا، لم يجز.

وقيل: هما جوابا «أقيموا» و«أنفقوا» يقامان مقامهما.

وهو ضعيف، لأنّه لابدّ من مخالفه ما بين الشرط وجوابه، ولأنّ أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة إذا كان الفاعل واحداً.

﴿ سِرَا وَ عَلاَئِنِيَةً ﴾ منتصبان على المصدر، أي: إنفاق سرّ وعلانية. أو على الحال، أي: ذوي سرّ وعلانية، بمعنى: مسرّين ومعلنين، أو على الظرف، أي: وقتي سرّ وعلانية. والأفضل إعلان الواجب إذا كان صاحبه متّهماً، وإلّا إخفاؤه أفضل. وفي المتطوّع به الأفضل الإخفاء مطلقاً.

﴿ مِنْ قَبْلِ أَن يَاتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْتُمْ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصّر ما يتدارك به تقصيره. أو يفدي به نفسه ﴿ وَلَا جَلالَ ﴾ ولا مخالّة فيشفع له خليل. أو من قبل أن يأتي يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالّة، وإنّما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالفتح فيهما، على النفى العامّ. اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءَ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمُّ وَسَخَّرَ لَكُمُّ الْفُلْكَ لَتَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُّ الأَثْهَارَ ﴿٣٣﴾ وَسَخَرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآتَبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ فِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَآ إِنَّ الإِنسَانَ لَظُلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

ثمّ بين سبحانه أنّه المستحقّ للإلهيّة، فقال: ﴿اللهُ اللَّذِي خَلَقَ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مبتدأ وخبر. وبدأ بذكرهما لعظم شأنهما وغيرهما من المكوّنات في ضمنهما. ﴿ وَانزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءَ فَاخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمْرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ﴾ تعيشون به. وهو يشمل المطعوم والملبوس. وهذا مفعول لاأخرج»، و«من الثمرات» بيان له وحال منه. ويحتمل عكس ذلك. ويجوز أن يراد به المصدر، فينتصب بالعلّة أو المصدر، لأنّ «أخرج» في معنى: رزق.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ القُلُكَ لِلْجَدِيّ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ بـمشيئته إلى حـيث تـوجّهتم ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ فجعلها معدّة لانتفاعكم وتـصرّفكم. وقـيل: تسـخير هـذه الأشياء تعليم كيفيّة اتّخاذها.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِئِيْنِ ﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما ، وإصلاح ما يصلحانه من المكوّنات ﴿ وَسَــخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم .

﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَالْتُمُوهُ ﴾ أي: بعض جميع ما سألتموه، نظراً في

مصالحكم. أو بعضاً من كلّ من الأصناف سألتموه، فإنّ الموجود من كـلّ صـنف بعض ما في قدرة الله تعالى. ويحتمل أن يكون المراد برهما سألتموه» ما كان حقيقاً بأن يسأل، لاحتياج الناس إليه سئل أو لم يسأل. ويحتمل أن تكون «ما» موصولة ومصدريّة، ويكون المصدر بمعنى المفعول.

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُخصُوهَا ﴾ أي: لا تقدروا على إحصائها وحصرها. ولا تطيقوا عد أنواعها، فضلاً عن أفرادها، فإنّها غير متناهية. وفيه دليل عملى أنّ المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَلُومٌ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها، أو يـظلم نـفسه، بأن يعرّضها للحرمان ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران لنعم ربّه. وقيل: ظلوم في الشدّة يشكو ويجزع، كفّار في النعمة يجمع ويمنع.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَا آمَنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿ ٣٥ ﴾ رَبَّ إِنَّهِنَّ أَصْلَانَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَعَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ عَفُولا رَّحِيمٌ ﴿ ٣٦ ﴾ رَّبْنَا إِنِي أَسْكَنتُ مِن ذُرَيِّي بِوَاد غَيْر ذِي رَرَع عند بَيْكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيقِيمُوا الصَّلاَة فَاجْعَلُ أَفَدَة مِنَ النَّاسِ تَهُويَ الْكِيمُ وَارْزُقُهُم مِنَ النَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشُكُونَ ﴿ ٣٧ ﴾ رَبْنَا أَيْلَكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ مَا نُخْفِي اللّه مِن شَيْء فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَمَاء ﴿ ٣٨ ﴾ الْحَمْدُ لِلهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى اللّه مِن شَيْء فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَمَاء ﴿ ٣٨ ﴾ الْحَمْدُ لِلهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَاسْخُقَ إِنْ رَبِي لَسَمِيمُ

الدُّعَآءِ ﴿٣٦﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرَّيِّي رَّبَنَا وَتَقَبَّلُ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَّبَنَا اغْفِرْ لِي وَلَوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يُومَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

ولمّا نهى الله سبحانه عن عبادة الأصنام، وأمر بعبادة الله وحده، عقّبه بما كان عليه إبراهيم على من التشدّد في إنكار عبادة الأصنام، والدعاء بما دعا بمه، فقال عطفاً على الجمل السابقة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ ﴾ بلدة مكة ﴿ آمِناً﴾ عطفاً على الجمل السابقة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا البلد ذا أمن لمن فيها. والفرق بين قوله: اجعل هذا البلد آمناً، وبين قوله: اجعل هذا البلد آمناً، أنّ المسؤل في الأوّل جعله من جملة البلاد الّتي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني إخراجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدّها من الأمن، كأنّه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً، فاستجاب الله دعاء إبراهيم على متى كان الانسان يرى قاتا أبيه فيها فلا يتعرّض له، وتدنو الوحوش فيها من الناس فتأمن منهم.

﴿ وَاجْنَبْنِي وَبَنِيُ﴾ بعدني وإيّاهم ﴿ أَن نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ﴾ أي: ثبتني وبنيّ على اجتناب عبادة الأوثان. والمعنى: الطف لي ولبنيّ لطفاً نتجنّب به عن عبادة الأصنام إلى آخر العمر. وأراد بنيه من صلبه، كما هو المتبادر، فلا يتناول أحفاده وجميع ذرّيّته. وفيه دليل على أنّ عصمة الأنبياء بتوفيق الله وحفظه إيّاهم.

وزعم ابن عيينة أنَّ أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم، محتجًا به، وإنَّما كانت لهم حجارة يدورون بها، ويسمّونها الدوار ـ بتخفيف البار وتشديدها ـ ويقولون: البيت حجر فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلته.

قيل: إنّ إبراهيم على لمّا فرغ من بنك الله دعا بهذا الدعاء ثمّ قال: ﴿ رَبُ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ تَكِيراً مِنَ الدَّاسِ ﴾ فلذلك من ملك العصمة، واستعذت بك من إضلالهنّ. وإسناد الإضلال إليه الله والسببيّة، كقوله: ﴿ وَعَـرَّتُهُمُ الْمَيْاةُ

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ على ديني ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ هو بعضي، لفرط اخـتصاصه بسي وملابسته لي. ومثل ذلك قولهم: «من غشّنا فليس منّا»، أي: ليس بعض المؤمنين، لأنّ الغشّ ليس من أفعالهم وأوصافهم. والمعنى: فإنّه لا ينفكّ عنّى في أمر الدين.

﴿ وَمَنْ عَصَائِي قَائِنًا غَقُورٌ ﴾ تستر على العباد معاصيهم ﴿ رَجِيمٌ ﴾ بهم في

﴿رَبُّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيِّتِي﴾ أي: بعض ذرّيّتي. أو ذرّيّـة مـن ذرّيّـتي. فحذف المفعول، وهم إسماعيل ومن ولد منه، فإنّ إسكانه متضمّن لإسكانهم.

وروي عن الباقر 變 أنّه قال: «نحن بقيّة تلك العترة». وقــال 蟣: «كــانت دعوة إبراهيم 繼 لنا خاصّة».

﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قطّ، كقوله: ﴿ قُرْآمَا عُرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوْجٍ ﴾ (٢). بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلّا الاستقامة. يعني: وادي مكّة، فإنّها حجريّة لا تنبت.

﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرِّمِ﴾ الذي حرّمت التعرّض له والتهاون به، بحيث لا يحلّ انتهاكه أصلاً، وما حوله محرّم بحرمته، أو لم يزل محترماً معظماً ممنّعاً تهابه الجبابرة. أو منع منه الطوفان، فلم يستول عليه، ولذلك سمّي عتيقاً، أي: أعتق منه. ولو دعا بهذا الدعاء أوّل ما قدم، فتسميته بالبيت باعتبار ما كان، أو ما سيؤل إليه. وإنّما أضاف البيت إليه سبحانه، لأنّه مالكه لا يملكه أحد سواه، وماعداه من البيوت قد ملكه غيره من العباد.

وروى أنَّ هاجر كانت لسارة، فوهبتها لإبراهيم ﷺ، فولدت منه إسماعيل.

⁽١) الأنعام: ٧٠.

⁽٢) الزمر: ٢٨.

فعرضت لها الغيرة، فناشدته أن يخرجهما من عندها. فأخرجهما إلى أرض مكّة. فأظهر الله عين زمزم. ثمّ إنّ جرهم رأو ثمّ طيوراً فقالوا: لا طير إلّا على الساء. فقصدوه فرأوهما وعندهما عين، فقالوا: أشركينا في مائك نشسركك فسي ألباننا. ففعلت. وتفصيل هذه القصّة مرّت قبل(١٠).

﴿ رَبُّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاقَ﴾ اللام لام «كي» متعلّقة ب«أسكنت» أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع من كلّ مرتفق ومرتزق إلاّ لإقامة الصلاة عند بيتك المحرّم. وتكرير النداء وتوسيطه للإشعار بأنّها المقصودة بالذات من إسكانهم ثمّة، والمقصود من الدعاء توفيقهم لها.

وقيل: لام الأمر. والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة، كأنّــه طــلب مــنهم الإقامة، وسأل من الله أن يوفّقهم لها.

﴿ فَاجْعَلْ أَفْلِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي: أفئدة من أفئدة الناس. و«من» للتبعيض. ويدلَّ عليه ما روي عن مجاهد: لو قال: أفئدة النّاس، لازدحمت عليهم فارس والروم. وعن سعيد بن جبير: لو قال: افئدة الناس، لحجبّت اليهود والنصارى والمجوس. أو للابتداء، كقولك: القلب منّي سقيم، أي: أفئدة ناس. ﴿ تَهْوِي إِلْنَهِمْ ﴾ تسرع إليهم شوقاً ووداداً.

﴿ وَازْدُقَهُمْ مِنَ الطَّمُواتِ ﴾ مع سكناهم وادياً لا نبات فيه، بأن تجلب إليه من البلاد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ في أن يرزقوا أنواع الثمرات، حاضرة في وادٍ ليس فيه زرع ولا شجر ولا ماء. فأجاب الله دعوته، فجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء، حتى يوجد فيه الفواكه الربيعيّة والصيفيّة والخريفيّة في يوم واحد.

﴿ رَبُّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ تعلم سرّنا كما تعلم علننا. والمعنى: أنَّك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا منّا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكنّا

⁽١) راجع ج ١ ص ٢٣٢ ذيل الآية ١٢٦ من سورة البقرة.

ندعوك إظهاراً للعبوديّة لك. وتخشّعاً لعظمتك. وتـذلّلاً لعـزّتك. وافـتقاراً إلى مـا عندك. واستعجالاً لنيل مواهبك. وولهاً إلى رحمتك، كما يتملّق العبد بين يدي سيّده رغبة في إصابة معروفه. مع توفّر السيّد على الوجه الحسن.

﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: هـو عـلام الغيوب في كلَّ مكان من الأرض والسماء، لآنّه العالم بعلم ذاتيّ يستوي إلى كـلّ معلوم. و«من» للاستغراق.

﴿ الْمُمَدُنَةِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبْرِ﴾ أي: مع الكبر، كقول الشاعر: إنّي على ما ترين من كبري... وهو في موضع الحال، أي: وهب لي وأنا كبير آيس من الولد ﴿ إسْمَاعِيلَ وَإِسْمَاقَ﴾ قيّد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس، من أجلً النعم وأحلاها في نفس الظافر، وإظهاراً لما فيها من آلائه. روي أنّه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة واثنتى عشرة سنة.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ أي: لمجيبه، من قولك: سمع الملك كلامي، إذا اعتدّ به. وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، أضيف إلى مفعوله. ويجوز أن يكون من قبيل إضافة الفعل إلى فاعله، فيجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي، والمراد سماع الله الدعاء. وفيه إشعار بأنّه دعا ربّه وسأل منه الولد حال اليأس، فأجابه ووهب له سؤله حينما وقع اليأس منه.

﴿ زَبُّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ هذا سؤال من إبراهيم من الله بأن يلطف له اللطف الذي عنده يقيم الصلاة، معدّلاً لها مواظباً عليها ﴿ وَمِنْ ذُرَيَّتِي ﴾ عطف على المنصوب في «اجعلني». والتبعيض لعلمه بإعلام الله أنّه يكون في ذرّيّته كفّار، وذلك قوله: ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

⁽١) البقرة: ١٢٤.

﴿ رَبُنَا وَتَقَبُّلُ دُعَاءٍ﴾ أي: واستجب دعائي، أو وتقبّل عبادتي. فـإنّ قـبول الدعاء إنما هو الاجابة، وقبول الطاعة الإثابة.

﴿ رَبُّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيّ﴾ في هذا دلالة على أنّ أبويه لم يكوناكافرين، وإنّما كان آزر عمّه أو جدّه لأمّه على الخلاف، لأنّه سأل المغفرة لهما يوم القيامة، فلو كانا كافرين لما سأل ذلك، لأنّه قال: ﴿ فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ أَنّهُ عَدُوًّ بِشِ تَبَرُأُ مِنْهُ ﴿ ١٠ وَمِن قال: إنّما دعا لأبيه لأنّه كان وعده أن يسلم، فلمّا مات على الكفر تبرأ منه، على ما روي عن الحسن، فقول فاسد، لأنّ إبراهيم ﷺ إنّما دعا بهذا الدعاء بعد الكبر، وبعد أن وهب له إسماعيل وإسحاق، وقد تبيّن له في هذا الوقت عداوة أبيه الكافر نه، فلا يجوز أن يقصده بدعائه.

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يثبت. مستمار من قيام القائم على الرجل، كقولهم: قامت الحرب على ساقها. أو يقوم إليه أهله، فحذف المضاف، أو أسند إليه قيامهم مجازاً.

وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا 'يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَّبِصَارُ ﴿ ٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يُرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرُفْهُمْ وَأَفْنِدَتُهُمْ هَوَآ ۖ ﴿ ٤٣﴾

ولمّا ذكر سبحانه يوم الحساب بيّن أنّه لا يمهل الظالمين عن غفلة من أفعالهم التبيحة . لكن لتأكيد الحجّة ، فقال وعيداً للظالم وتسلية للمظلوم : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهُ عَافِلاً عَمْلًا لِنَعْمُلُ الظّالِمُونَ ﴾ خطاب للرسول ﷺ . والمراد به تثبيته على ما هـو

⁽١) التوبة: ١١٤.

عليه. من أنّه مطّلع على أحوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه خافية. ووعيدهم بأنّه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة. أو خطاب لكلّ من توهّم غفلته، جهلاً بصفاته. واغتراراً بإمهاله.

﴿إِنَّمَا يُؤَخُّرُهُمْ﴾ يؤخّر عذابهم. وعن أبي عمرو بالنون. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: تشخص فيه أبصارهم، فلا تقرّ في أماكنها من هول ما ترى في ذلك اليوم.

﴿ مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين في المحشر إلى الداعي. وقـيل: الإهـطاع أن تـقبل ببصرك على ما ترى، تديم النظر إليه لا تطرف. فـالمعنى: مـقبلين بأبـصارهم لا يطرفون هيبة وخوفاً. فإنَّ أصل الكلمة هو الإقبال على الشيء.

﴿ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ ﴾ رافعيها ﴿ لا يَرْتَدُ إِلَيْهِمْ طَرْفَهُمْ ﴾ لا ترجع إليهم أعينهم، فلا يضضونها ولا يطبقونها، بل بقيت عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان. أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم.

﴿ وَالْفَئِدَتُهُمْ هَوَآءَ﴾ خلاء . أي : خالية عن الفهم ، كفؤاد ذي الحيرة والدهشة . ومنه يقال للأحمق وللجبان : قلبه هواء . أي : لا رأي فيه ولا قوّة . وقيل : خالية عن الخير ، خاوية عن الحقّ .

وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَّبَنَآ أَخْرُنَآ إِلَى الْجَلِ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعُونَكَ وَتَنَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالِ ﴿ ٤٤ ﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمُ كَلِفَ فَعُلْنَا بِهِمْ وَضَرَئِنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿ وَ٤ ﴾ ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يَاتِبِهِمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: يوم القيامة ، أو يوم الموت، أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، فإنّه أوّل أيّام عذابهم. وهو مفعول ثمانٍ لمأنذر».

﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ طَلَمُوا ﴾ نفوسهم بالشرك والتكذيب ﴿ رَبَّنَا أَخَرْنَا إِلَىٰ أَجَلِ
قَرِيبٍ ﴾ أخر العذاب عنّا. أو ردّنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى حدّ من الزمان قريب. أو
أخر أجالنا، وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ونجيب دعوتك ﴿ وَنُحِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَبِعِ
الرُّسُلَ ﴾ جواب للأمر. ونظيره: ﴿ لَوْلاَ أَخْرَتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَاصَّدَقَ وَاكُنْ مِنَ
الصَّالحدرَ ﴾ (١٠).

فيقول الله تعالى مخاطباً لهم، أو يقول الملائكة بأمره: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا الْمَسْمَتُمْ
مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ من انتقال إلى دار أخرى. وهو على إرادة القول، و«ما
لكم» جواب القسم، جاء بلفظ الخطاب على المطابقة دون الحكاية. ولو حكى لفظ
المقسمين لقيل: ما لنا من زوال. والمعنى: أقسمتم أنكم باقون في الدنيا، لا تزالون
بالموت. ولعلّهم أقسموا بطراً وغروراً، لما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه،
أو دلً عليه حالهم، حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً.

وقيل: أقسموا أنّهم لا ينتقلون إلى دار أخرى، يعني: أنّهم كـفروا بـالبعث، كقوله: ﴿ وَاقْمَنَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَائِهِمْ ﴾ (٣). ﴿ لاَ يَبْعُثُ اللهُ مَنْ يَمُوثُ ﴾ (٣).

﴿ وَسَكَنْتُمْ ﴾ من السكون، أو السكنى ﴿ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَسْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي، كعاد وثمود. وأصل «سكن» أن يعدّى ب«في» كقرّ وغني وأقام. وقد يستعمل بمعنى التبوّء، فيجرى مجراه، كقولك: سكنت الدار، والمعنى:

⁽١) المنافقون: ١٠.

⁽٢) النور: ٥٣.

⁽٣) النحل: ٣٨.

اطمأننتم فيها طيّبي النفوس، سائرين سيرة من قبلكم في الظلم.

﴿ وَتَنِينَ لَكُمْ ﴾ بالأخبار المتواترة عندكم أو بالمشاهدة ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ كيف أهلكنا بِهِمْ أنكم مثلهم في كيف أهلكنا هم ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ من أحوالهم، أي: بيتنا لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب، أو في صفات ما فعلوا وفعل بهم اللي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة.

وَقَدُ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٢٦﴾ فَلاَ تَحْسَبَنَ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

ثمّ أبان سبحانه عن مكر الكفّار ودفعه ذلك عن رسله، تسلية لنبيّنا ﷺ فقال: ﴿ وَقَدْ مَكْرُوا مَخْرَهُمْ ﴾ المستفرغ فيه جهدهم لإبطال الحقّ وتقرير الباطل ﴿ وَعِنْدُ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ يمكن أن يكون مضافاً إلى الفاعل، على معنى: ومكتوب عنده مكرهم، فهو مجازيهم عليه. أو مضافاً إلى المفعول، يعني: وعنده ما يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يأتيهم به من حيث لا يحتسبون، جزاءً لمكرهم وإبطالاً له.

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ بالأنبياء قبلك في العظم والشدّة ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ مسوى الإزالة الجبال.

وقيل: «إن» نافية، واللام مؤكّدة لها، كقوله: ﴿ وَمَسَا كَمَانَ اللهُ لِيُعَذَّبُهُ ﴿ (١). ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْفِيهُ إِلهُ اللهِ عَلَيْهُ ﴿ (١). أي: وما كان مكرهم لتزول منه ما هـ و مـثل

⁽١) الأنفال: ٣٣.

⁽٢) البقرة: ١٤٣.

الجبال الراسية _ من دلائل النبيّ وشرائعه _ في الثبات والتمكّن. يعني: لا تزول منه الجبال، فكيف يزول منه الدين الّذي هو أثبت من الجبال؟!

وقيل: مخفّقة من الثقيلة، أي: وإنّه كان مكرهم ليزيلوا به ما هـو كـالجبال الراسية ثباتاً وتمكّناً. من آيات الله وشرائعه. يعني: أنّ مكرهم وإن بلغ كلّ مبلغ فلا يزيل دين الله، ولا يضرّ ذلك أنبياءه، ولا يزيل أمرهم، ولا سيّما أمر محمّد المُشْتِينَ ، فإنّه أثبت من الجبال.

وقرأ الكسائي بالفتح والرفع، على أنَّها المخفّقة، واللام هي الفاصلة. ومعناه: تعظيم مكرهم.

قيل: إنّ المراد به نمرود بن كوش بن كنعان، حين أخذ التابوت، وأخذ أربعة من النسور فأجاعها أيّاماً، وعلّق فوقها لحماً، وربط التابوت إليها، وطارت النسور بالتابوت وهو ووزيره فيه، إلى أن بلغت حيث شاء الله تعالى، وظنّ أنّه بلغ السماء، ففتح باب التابوت من أعلاه فرأى بعد السماء منه كبعدها حين كان في الأرض، وفتح باباً من أسفل التابوت فرأى الأرض قد غابت عنه، فهاله الأمر، فصوّب النسور، وسقط التابوت، وكانت له وجبة. وهذا القول مرويّ عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَ اللهُ مُخْلِفَ وَغَدِهِ رُسُلَهُ ﴾ مثل قوله: ﴿ إِنَّا لَـنَنْصُرُ رُسُـلَنَا ﴾ (١٠. ﴿ كَتَبَ اللهُ غَلْبَنُ أَنَا وَرُسُلِيهِ ﴾ (١٠. وأصله: مخلف رسله وعده، فقدّم المفعول الثاني إيذاناً بأنّه لا يخلف وعده أصلاً، كقوله: ﴿ إِنْ الله لا يُخْلفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١٣. وإذا لم يخلف وعده أحداً فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته ؟!

⁽١) غافر: ٥١.

⁽٢) المجادلة: ٢١.

⁽٣) آل عمران: ٩.

سورة إبراهيم، آية ٤٨ ـــ ٥٢

﴿إِنَّ اللهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يماكر، قادر لا يدافع ﴿ ذُو انتِقَامٍ ﴾ لأوليائه من أعدائه.

يُوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ عَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلَهِ الْوَاحِدِ الْتَهَارِ ﴿ ٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يُومَنْ مُقَرَّبِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿ ٤٨﴾ سَرَابِبلُهُم مِن قَطْرَان وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿ ٥٠﴾ لَيَجْزِيَ اللَّهُ كُلِّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتُ إِنَّ قَطْرَان وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿ ٥٠﴾ لَيَجْزِيَ اللَّهُ كُلِّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتُ إِنَّ اللَّهُ سَرِّيمُ الْحِسَابِ ﴿ ١٥﴾ هَذَا بَلاَغْ لَلنَّاسِ وَلَيْنذَرُواْ بِهِ وَلِيعُلَمُواْ أَنْمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيدَنَّرُواْ بِهِ وَلِيعُلَمُواْ أَنْمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيدَنَّرُواْ بِهِ وَلِيعُلَمُواْ أَنْمَا هُوَ إِلَهُ

﴿ يَوْمَ تَبَدُلُ الْأَرْضُ﴾ أي: الأرض الّتي تعرفونها ﴿ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرضاً أخرى غيرها. وهو بدل من «يوم يأتيهم»، أو ظرف للانتقام، أو مقدّر ب: اذكر، أو: لا يخلف وعده. ولا يجوز أن ينتصب ب«مخلف»، لأنّ ما قبل «أن» لا يعمل فيما بعده.

﴿ وَالسَّمُواتُ ﴾ عطف على «الأرض». وتقديره: والسماوات غير السماوات. والتبديل يكون في الذات، كقولك: بدّلت الدراهم دنانير. وعليه قوله: ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ لَمُنْوَيْهُ مَنْتَيْنِ ﴾ (٢). وفي الصفة، كقولك: بدّلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسوّيتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل. وعليه قوله:

⁽١) النساء: ٥٦.

⁽٢) سبأ: ١٦.

٥٠٠ زيدة التفاسير ـ ج٣

﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (١). والآية تحتملهما.

وعن عليّ الله : «تبدّل أرضاً من فضّة ، وسماوات من ذهب».

وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء. لم يخطىء عليها أحد خطيئة.

وفي تفسير أهل البيت عبدالله الإسناد عن زرارة ومحمد بن مسلم وحمران بن أعين، عن أبي جعفر وأبي عبدالله هي قالا: «تبدّل الأرض خبزة نقية، يأكل الناس منها حتّى يفرغ من الحساب، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَاكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ (٣). وهو قول سعيد بن جبير ومحمد بن كعب.

وروي عن ابن مسعود أنّه قال: تبدّل الأرض بنار، فتصير الأرض كلّها يوم القيامة ناراً، والجنّة من وراثها، يرى كواعبها وأكوابها، ويلجم الناس العرق، ولم يبلغ الحساب بعد.

وقال كعب: تصير السماوات جناناً، ويصير مكان البحر النار، وتبدّل الأرض غيرها. ويؤيده قوله: ﴿ كَلَا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرُ الِ لَفِي عِلنَّيْدِينَ﴾ (٣). وقوله: ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجُارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٤).

وعُن أبي أيّوب الأنصاري قال: أتى النبيّ ﷺ حبر من اليهود فقال: أرأيت إذ يقول الله في كتابه: «يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات» فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه.

وقيل: تبدَّل الأرض لقوم بأرض الجنَّة، ولقوم بأرض النار.

وعن ابن عبّاس: هي تلك الأرض، وإنّما تغيّر صفاتها. ويدلّ عليه ما روى

⁽١) الفرقان: ٧٠.

⁽٢) الأنبياء: ٨.

⁽٣، ٤) المطفّفين: ١٨ و٧.

أبو هريرة أنه ﷺ قال: «تبدّل الأرض غير الأرض، فتبسط وتمدّ مدّ الأديـم(١) العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً». وأمّا تبدّل السماء صفة فـيكون بـانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً.

﴿ وَبَرَزُوا بِشِهِ مِن قبورهم ﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَارِ ﴾ لمحاسبته ومجازاته. وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أنّ الأمر في غاية الصعوبة، كقوله: ﴿ لِمَنِ الْمُلُكُ الْمَيْوَمُ بِشِهِ الْوَاحِدِ الْقَهَارِ ﴾ (٢) فإنّ الأمر إذا كان لواحد غلّاب لا يغالب، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار.

﴿ وَتَزَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَثِنِ مُقَرِّنِينَ ﴾ قرن بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم في المقائد الزائفة والأعمال السيّئة ، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا النَّقُوسُ زُوجَتُ ﴾ (^{٣)} أو بأن يقرن كلّ كافر مع شيطان كان يضلّه. وهو المنقول عن ابن عبّاس ، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . ﴿ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ متعلّق ب «مقرّنين» ، أو حال من ضمير ه ، والصفد القيد . وقيل : الغلّ . وأصله الشدّ .

﴿ سَرَابِيلُهُمْ ﴾ قمصانهم ﴿ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ وقطران وقطران أيضاً _ بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء _ لفتان، وإن لم يقرأهما أحد من القرّاء العشرة. وهو ما يتحلّب من شجر يسمّى الأبهل، فيطبخ فتطلى به الإبل الجربى (٤)، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته. وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به. وهو أسود اللون، منتن الربح، لزج. فتطلى به جلود أهل النار، حتّى

⁽١) الأديم: الجلد المدبوغ. والعكاظي منسوب إلى سوق عكاظ بمكّة في الجاهليّة.

⁽٢) غافر: ١٦.

⁽٣) التكوير: ٧.

 ⁽٤) الجَرْبئ جمع الأجرب، وهو الإبل أصابه الجَرَب. وهو داء يحدث في الجلد بثوراً صغاراً لها حكّة شديدة.

يكون طلاؤه لهم كالسراويل. ليجتمع عليهم أربع: لذع القطران وحرقته. وإسراع النار في جلودهم. واللون الوحش. وتنن الربح. على أنّ التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. وكلّ ما وعد الله أو أوعد الله في الآخرة. فبينه وبين ما يشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره. فكأنّه ماعندنا إلّا الأسامي والعسميّات ثمّة.

وعن يعقوب: قطر آنِ. والقطر: النحاس أو الصفر المذاب، والآني: المتناهي حرّه. والجملة حال ثانية من مفعول «ترى». أو حال من الضمير في «مقرّنين».

﴿ وَتَغْشَىٰ وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ لأنّهم لم يتوجّهوا بها إلى الحقّ، ولم يستعملوا في
تدبّره مشاعرهم وحواسهم الّتي خلقت فيها لأجله، كما تطّلع على أفئدتهم، لأنّها
فارغة عن المعرفة، مملوءة بالجهالات. ونظيره قوله: ﴿ أَفَهَن يَمْتَقِي بِوَجْهِهِ سُموءَ
الْعَذَابِ يُوْمَ الْقَيَامَة﴾ (١٠)، وقوله: ﴿ يُوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِ﴾ (١٠).

﴿ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلُّ نَفْسِ ﴾ أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كلَّ نفس مجرمة ﴿ مَاكَسَبَثُ ﴾ أو كلَّ نفس مجرمة أو مطيعة، لأنه إذا بيّن أنَّ المجرمين يعاقبون لأجرامهم، دلَّ على أنَّ المطيعين يثابون لطاعتهم. ويتعين ذلك إن علّى اللام ب«برزوا». ﴿ إِنَّ اللهُ سَوِيعُ الْجَسَابِ ﴾ لا يشغله حساب عن حساب.

﴿ هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، أو السورة، أو ما فيه من العظة والتذكير، أو ما وصفه من قوله: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنُ اللهُ ﴾ (٣) ﴿ بَلاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ كفاية لهم في الموعظة ﴿ وَلِينْذَرُوا بِهِ ﴾ عطف على محذوف، أي: لينصحوا ولينذروا بما في هذا البلاغ من الوعيد. فتكون اللام متعلّقة بالبلاغ. ويجوز أن تتعلّق بمحذوف تقديره: ولينذروا به أنزل أو تلى.

⁽١) الزمر: ٢٤.

⁽٢) القمر : ٤٨ .

⁽٣) إبراهيم: ٤٢.

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنْمًا هُوَ إِنْهُ وَاحِدُ ﴾ بالنظر والتأمّل في الأدلّة المؤدّية إلى التوحيد، المثبتة في القرآن من الآيات الدالّة عليه. ﴿ وَلِيَذَّكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ذوي العقول والنهى، فير تدعوا عمّا يرديهم، ويتدرّعوا بما يحظيهم.

واعلم أيّها الطالب للرشاد ذخراً ليوم المعاد، أنّ في هذه الآية دلالة على أنّ القرآن كافٍ في جميع ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين، لأنّ جميعها _ جملها وتفاصيلها _ يعلم بالقرآن، إمّا بنفسه، وإمّا بواسطة. فيجب على المؤمن المجتهد المهتمّ بأمور الدين أن يشمّر عن ساق الجدّ في طلب علوم القرآن، ليوفّق بمعرفة ما فيه من بدائع الحكمة ومواضع البيان، ويكتفي به عمّا سواه، لينال السعادة في دنياه وعقاه.

وفي قوله: «وليعلموا أنّما هو إله واحد» دلالة على أنّه سبحانه أراد من الناس علم التوحيد، خلافاً لأهل الجبر في قولهم إنّه سبحانه أراد من النـصارى إشبات التثليث، ومن الزنادقة القول بالتثنية، تعالى الله عن ذلك.

وفي قوله: «وليذّكّر أولوا الألباب» دلالة على أنّه أراد من الجـميع التـدبّر والتذكّر. وعلى أنّ العقل حجّة، لأنّ غير ذوي العقول لا يمكنهم الفكر والاعتبار.

واعلم أيضاً أنّه سبحانه ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد، هي الغاية في إنزال الكتب: تكميل الرسل للناس. واستكمالهم القوة النظريّة الّتي منتهى كمالها التوحيد. واستصلاح القوّة العمليّة، الّذي هو التدرّع بلباس التقوى. اللّهمّ اجعلنا من الموقّين لهما، بحقّ نبيّك النبيه، ووليّك الوليه، وآلهما المعصومين أجمعين.



سورة الحجر

مكّية، وهي تسع وتسعون آية بالإجماع. أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد ﷺ».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّرْ تَلْكَ آيَاتُ الْكَتَابُ وَقُرُآنَ شُبِينِ ﴿ ﴿ ﴾ رَّبُمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسلمينَ ﴿ ٢ ﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَنَمَنَّهُواْ وَيُلْهِيمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ وَمَآ مُسلمينَ ﴿ ٢ ﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُواْ وَيَنَمَّعُواْ وَيُلْهِيمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ وَمَآ أَهْلَكُمُنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿ ٤ ﴾ مَّا تَسْبُقُ مِنْ أَنَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿ ٥ ﴾

ولمّا ختم سبحانه سورة إبراهيم الله بذكر القرآن، وأنّه بلاغ وكفاية الأهل الاسلام، افتتح هذه السورة بذكر القرآن، وأنّه مبيّن للأحكام، فقال: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرّحَفٰنِ الرّحِيمِ الرّبَ الْعَنَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينِ ﴾ إشارة إلى آيات السورة. والكتاب

هو السورة. وكذا القرآن. أو المراد بهما الكتاب والسورة جميعاً. وتنكيره للتفخيم، أي: آيات المنزل الجامع بين كونه كتاباً كاملاً وقرآناً يبيّن الرشد من الغيّ، كاملاً في البيان.

﴿ زُبْمًا يَوَدُّ الَّذِينَ كَقُرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ربما يتمنّى الكفّار الاسلام حين عاينوا حال المسلمين عند نزول النصر، أو عند حلول الموت، أو في القبر، أو يوم القيامة.

روى مجاهد عن ابن عبّاس قال: ما يزال الله يدخل الجنّة ويرحم ويشفع حتّى يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنّة، فحينتذٍ يودّ الَّذين كفروا لو كانوا مسلمين.

وروي مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة، قال الكفّار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع الله الله قالوه، فأمر من كان في النار من أهل الاسلام فأخرجوا منها. فحينئذ يقول الكفّار: يا ليتنا كنّا مسلمين».

وقال الصادق للله: «ينادي منادٍ يوم القيامة يسمع الخلائق: أنّــه لا يــدخل الجنّة إلّا مسلم، فئم يودّ سائر الخلق أنّهم كانوا مسلمين».

وقرأ نافع وعاصم: ربما بالتخفيف. و«ما» كافّة تكفّه عمن الجسر، فيجوز دخوله على الفعل. وحقّه أن يدخل على الماضي، لكن لنّا كان المترقّب في أخبار الله تعالى كالماضى في تحقّقه، أُجرى المضارع مجرى الماضى.

وقيل: «ما» نكرة موصوفة، كقوله:

رُبَما(١) تكره النُّقُوسُ مِنَ الأمْرِ ﴿ ﴿ لَكَ فَسَرِجَكُ كَسَحُلُّ العِسْقَالِ

⁽١) أي: ربّ شيء تكرهه النفوس.

. ومعنى التقليل فيه: الإيذان بأنّهم لو كانوا يودّون الاسلام مرّة فـبالحريّ أن يسارعوا إليه. فكيف وهم يودّونه كلّ ساعة ا

وقيل: تدهشهم أهوال القيامة، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الآنات من سكرتهم تمنّوا ذلك.

وقوله: «لو كانوا مسلمين» حكاية ودادهم. وإنّما جيء بها على لفظ الغيبة لأنّهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلنّ. ولوقيل: لو كنّا مسلمين، وحلف بالله لأفعلنّ، لكان حسناً، لكن إيثار الحكاية هو الأحسن، لئلّا يلتبس بقول المتكلّم الحاكي.

﴿ ذَرْهُمْ﴾ أي: اقطع طمعك منهم، ودعهم عن النهي عمّا هم عليه، والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلّهم ﴿ يَاكُلُوا وَ يَتْمَتَّكُوا ﴾ بدنياهم وتنفيذ شهواتهم ﴿ وَيُلْهِهُمُ الْأَمْلُ ﴾ ويشغلهم أملهم وتوقّهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمعاد ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه، والغرض إقناط الرسول من ارعوائهم، وإيذائه بأنّهم من أهل الخذلان، فلا ينفعهم الوعظ، ولا ينجع فيهم النصح، فنصحهم بعد اشتغال بما لا طائل تحته.

وفيه إلزام للحجّة، وتحذير عن إيثار التنعّم وما يـوَدّي إليـه طـول الأمـل. ومبالغة في الإنذار منه، وتنبيه على أنّ الانسان يجب أن يكون مقصور الهمّة على أمور الآخرة، مستعدّاً للموت، مسارعاً إلى التوبة، ولا يأمل الآمـال المـودّية إلى الصدّ عنها.

وروي عن أمير المؤمنين ﷺ أنّه قال: «أخوف ماأخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل، فإنّ اتّباع الهوى يصدّ عن الحقّ، وطول الأمل ينسي الآخرة». وعن بعض العلماء: التمرّغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

﴿ وَمَا أَهْلَكُنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا عِنَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ مكتوب مقدّر معين، وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ. والمستثنى جملة واقعة صفة الدقرية». والأصل أن

لا تدخلها الواو، كما في قوله: ﴿ وما أهلكنا من قرية إلاّ لها منذرون﴾ (١) لكن لمّا شابهت صورتها صورة الحال أدخلت عليها تأكيداً، للصوقها بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد وعليه ثوب.

﴿ مَا تَسْدِقُ مِنْ أَمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ موضع كتابها، أي: لم تكن أمَّة فيما مضى تسبق أجلها الذي قدّر لها، فتهلك قبل ذلك ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه، بل إذا استوفت أجلها أهلكها الله لا محالة، وتذكير ضمير «أمَّة» فيه للحمل على السعنى، فإنها بعضى القوم.

وَقَالُواْ يَآ أَيُّهَا الَّذِي نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكُرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿ ﴿ ﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا الْمَلَاثِكَة إِن كُنت مِن الصَّادَقِينَ ﴿ ﴿ ﴾ مَا نُنزِلُ الْمَلَاثِكَة إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُنظَوِينَ ﴿ ﴿ ﴾ ﴾ وَأَن الذَّكُرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿ ﴾ ﴾ وَلَقَدُ أَرْسُلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شَبِع الْأَوْلِينَ ﴿ ﴿ ﴾ ﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِن رَسُولِ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ مِن قَبْلِكَ فِي شَبِع الْأَوْلِينَ ﴿ ﴿ ﴾ ﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِن رَسُولِ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ مَن شَبُولِ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ مَن شَبْكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿ ٩ ﴾ ﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوْلِينَ ﴿ ٩ ﴾ وَوَلُ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَآءَ فَظُلُواْ فِيهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوْلِينَ ﴿ ٩ ﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَآءَ فَظُلُواْ فِيهِ لَمُرْجُونَ ﴿ ٩ ﴾ فَالُواْ أَيْمَا سُكَوَتُ أَبْصَارُنَا بِلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿ ٩ ﴾ فَالْوَا فَيْهِ مَا السَّمَآءَ فَظُلُواْ فِيهِ اللْمَانِ اللَّهُ مَن السَّمَآءَ فَظُلُواْ فِيهِ لَا مُن السَّمَآءَ فَظُلُواْ فِيهِ اللْمُؤْنِ وَا اللَّهُ مِنْ وَالْمَا مُنَالِمُ الْمَالُونُ فَا اللَّهُ مِنْ السَّمَآءَ فَظُلُواْ فَيْهِ اللْمُؤْنِ وَالْمَالُولُونَ ﴿ وَمَا لَمُ اللَّهُ مِنْ السَّمَآءَ فَلَالُونَ فَا اللَّهُ مِنْ السَّمَاءَ فَطَلُواْ فَيْهِ مَا إِلَيْ الْمُلْمُ الْمُؤْلُونَ فَيْ اللْمَالُونُ اللَّهَالَوْلُونَ الْمَالَعُونَ الْمُسُولِ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلُولُ اللَّهُ مِنْ اللْمَالُولُولُ اللَّهُ الْمُهِمِ الْمُؤْلُولُ اللَّهُ الْمُؤْلِي الْمُؤْلِقُولُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُولُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللْمِيْلِي اللْمَالَالُولُونُ اللْمُؤْلُولُ اللْمُؤْلُولُ اللَّلْولُولُ اللَّهُ اللْمُؤْلُولُ اللَّهُ الْمِلْمُ اللْمُؤْلِلْمُ اللْمُلْلُولُ اللْمُؤْلِقُولُولُ اللَّهُ اللْمُؤْلِقُولُ اللْمُؤْلُولُ اللْمُؤْلِمُ اللْمُؤْلُولُ اللْمُؤْلُولُ اللْمُؤْلُولُولُ اللْمُؤْلُولُولُولُولُولُ اللْمُؤْلُولُولُ الْمُؤْلُولُ اللْمُؤْلُولُ اللْمُؤْلُولُولُ الْمُؤْلُولُولُولُولُولُولُولُولُولُولُولُولُ اللْمُؤْلُولُ اللْمُؤْلُولُولُولُولُولُولُولُولُولُ الْمُؤْلُولُولُولُولُولُولُولُولُ اللْمُؤْلُولُولُولُولُولُولُولُولُولُ

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزُلَ عَلَيْهِ الذَّكُرُ ﴾ نادوا النبيّ ﷺ على التهكّم. ألا ترى إلى ما نادوه له، وهو قولهم: ﴿ إِنَّكَ لَـ مَجْنُونَ ﴾ . ونظير ذلك قبول فسرعون: ﴿ إِنَّ

⁽١) الشعراء: ٢٠٨.

رَسُولَكُمُ الَّذِي أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونَ ﴿ (۱). والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع، منها: ﴿ فَبَشُرْهُم بِعَدَابِ أَلِيمٍ ﴾ (۱). ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (۱). وقد يوجد في كلام العجم. والمعنى: أنَّكُ لتقول قول المجانين حين تدَّعى أنَّ الله نزَّل عليك الذكر، أي: القرآن.

﴿ نَوْ مَا تَآتِينَا﴾ ركّبت «لو» مع «ما» كما ركّبت مع «لا» لمعنيين: لامتناع الشيء لوجود غيره، والتحضيض، والمراد هاهنا الشاني، أي: هلّا تأتينا. ﴿ بِالْمُلَاّئِكَةِ ﴾ ليصدّقوك ويعضدوك على الدعوة، كقوله تعالى: ﴿ نَوْلاً انْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكُ فَيَكُونَ مَعَهُ نَزِيراً﴾ (عُ. أو للعقاب على تكذيبنا لك، كما أتت الأمم المكذّبة قبل. ﴿ إِنْ كُنتُ مِنَ الطّمادِقِينَ ﴾ في دعواك.

﴿ مَا نَنُزَّلُ الْفَلَاقِكَةُ ﴾ بالياء مسند إلى ضمير اسم الله. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وعاصم: ننزّل بالنون. وأبوبكر: تُنزَّلُ الملائكة، بالتاء والبناء للمفعول ورفع الملائكة. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إلاّ تنزيلاً ملتبساً بالحقّ، أي: بالوجه الذي قدّره واقتضته حكمته، ولا حكمة في أن يأتيكم بصور تشاهدونها، فإنّه لا يزيدكم إلاّ لبساً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة، فإنّ علمنا يتعلّق بأنّ منكم ومن ذراريكم من سيؤمن. وقيل: الحقّ الوحي، أو العذاب.

﴿ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ ﴾ ممهلين مؤخّرين. «إذاً» جواب لهم وجزاء الشرط مقدّر، أي: ولو نزّلنا الملائكة ما كانوا منظرين، بل عذّبوا بلامهلة.

ثمّ زاد سبحانه في البيان، فقال: ﴿إِنَّا نَـٰ فِنُ نَـٰؤَلُنَا الذُّكُـرَ ﴾ ردّ لإنكارهم

⁽١) الشعراء: ٢٧.

⁽٢) آل عمران: ٢١.

⁽٣) هود: ۸۷.

⁽٤) الفرقان: ٧.

واستهزائهم، ولذلك أكّده من وجوه، وهي: إيراد حرف التحقيق، وتأكيد الضمير، والإسناد إلى نفسه، وصيغة المبالغة، وتقريره بقوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أي: من كلّ زيادة ونقصان، وتغيير وتحريف، بخلاف الكتب المتقدّمة، فإنّه لم يتولّ حفظها، وإنّما يستحفظها الربّانيّون والأحبار، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه، ليكون إلى آخر الدهر معجزاً مبايناً لكلام البشر، لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان، فتنقله الائمة عصراً بعد عصر على ما هو عليه، فيكون حجّة على الخلق.

وقيل: الضمير في «له» للنبئ ﷺ، لقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١).

﴿ وَلَقَدُ أَرْسَلُنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يا محمّد رسلاً. حذف المفعول لدلالة الإرسال عليه. ﴿ فِي شِيعِ الأَوْلِينَ ﴾ في فرقهم. جمع شيعة، وهي الفرقة المتفقة على طريق ومذهب، من: شاعه، إذا تبعه. والمعنى: نبّأنا رجالاً فيهم وجعلناهم رسلاً فيما بينهم.

﴿ وَمَا يَاتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِعُونَ ﴾ كما يفعل هؤلاء. وهو تسلية للنبيّ ﷺ. و«ما» للحال لا يدخل إلا مضارعاً بمعناه، أو ماضياً قريباً منه. وهذا على حكاية الحال الماضية.

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ ندخل الذكر ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْوِمِينَ ﴾ والسلك إدخال الشيء في الشيء، كالخيط في المخيط، والرمح في المطعون.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ مِهِ حال من مفعول «نسلكه». والمعنى: مثل ذلك السلك الذكر ونلقيه في قلوب المجرمين مكذّباً غير مؤمن به، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها باللئام، يعني: مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضيّة. أو يكون قوله: «لا يؤمنون» بياناً للجملة المتضمّنة للضمد.

⁽١) المائدة: ٧٧.

وقال بعض الأشعريّة: إنّ المعنى نسلك الاستهزاء في قـلوبهم. وهـذا غـير صحيح، لأنّه لو كان الله قد سلك الاستهزاء في قلوبهم لسقط عنهم الذمّ والعقاب، لأنّ ذلك ليس من فعلهم، بل من فعل الله سبحانه فيهم، فلهم أن يقولوا مـحتجّين عليه: عتبتنا وذممتنا، وعذّبتنا بشيء أنت تخلقه فينا، وليس لنا فيه اختيار، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثمّ قال تهديداً لهم على تكذيبهم: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُفّةُ الْأَوْلِينَ ﴾ طريقتهم الّتي سنّها الله في إهلاكهم حين كذّبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم. وهو وعيد لأهل مكّة على تكذيبهم.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ على هؤلاء المعاندين المقترحين ﴿ بَابِاً مِنَ السَّمَاءِ فَظُلُوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون إليها ويرون عجائبها طول نهارهم. وتخصيص ذلك بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقيل: الضمير للملائكة، أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً.

﴿ لَقَالُوا﴾ من غلوهم في العناد وتشكيكهم في الحق ﴿ إِنَّمَا سُكُرَتُ الْبَصَارُنَا﴾ سدّت عن الإيصار بالسحر، فإنّ اشتقاقه من الشكر بمعنى السدّ. ويدلّ عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف. أو حيّرت من الشكر، أي: حارت كما يحار السكران. والمعنى: أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها، وشاهدوا ملكوت السماء، أو رأو صعود الملائكة في السماء من العيان، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حققة له.

﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمُ مَسْحُورُونَ﴾ بل قالوا: قد سحرنا محمّد بذلك، كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات. وإنّما قال: «إنّما» ليدلّ على أنّهم يقطعون بأنّ ذلك ليس إلاّ تسكيراً لأبصارهم.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءُ بُرُوجًا وَزَّيَنَاهَا لِلْنَاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفظُنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٧٧﴾ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَنْبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿٨٨﴾

ثم ذكر سبحانه دلالات التوحيد رداً عليهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً ﴾ اثني عشر تسير الشمس والقمر فيها، مختلفة الهيئات والخواص ﴿ وَزُيْنَاها ﴾ بالأشكال الحسنة والهيئات البهيّة من الكواكب المنيرة ﴿ لِلشَّاطِرِينَ ﴾ المعتبرين المستدلّين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها.

﴿ وَ مَفِظْنَاهَا ﴾ وحفظنا السماء ﴿ وَمِن كُلُّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ مرجوم مرميّ بالشهب، أو ملعون مشؤوم، فلا يقدر أن يصعد إليها، ويوسوس أهلها، ويتصرّف في أمرها، ويظّلع على أحوالها، وحفظ الشيء جعله على ما ينفي عنه الضياع. فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه حتّى لا ينسى، وحفظ المال إحرازه حتّى لا يضيع، وحفظ السماء من الشيطان بالمنع حتّى لا يدخلها، ولا يبلغ إلى موضع يتمكّن فيه من السراق السمع، لما أعدّ له من الشهاب، كما قال جلّ وعزّ: ﴿إِلّا مَنِ السَّقَرَقَ السَّفَعَ ﴾ بدل «من كلّ شيطان».

واستراق السمع اختلاسه سرّاً. شبّه به خطفتهم اليسيرة من قطّان السماوات. لما بينهم من المناسبة في الجوهر، أو بالاستدلال من أوضاع الكواكب وحركاتها ليخبروا بها الكهنة.

وعن ابن عباس: أنّه كان في الجاهليّة كهنّه، ومع كلّ واحد شيطان، فكان يقعد من السماء مقاعد للسمع، فيستمع من الملائكة ما هو كائن في الأرض، فينزل ويخبر به الكاهن، فيفشيه الكاهن إلى الناس، فلمّا ولد عيسى ﷺ منعوا من ثلاث

سماوات، ولمّا ولد محمّد ﷺ منعوا من السماوات كلّها بالشهب. فالشهاب مسن معجزات نبيّنا ﷺ؛ لأنّه لم ير قبل زمانه.

وقيل: الاستثناء منقطع، أي: ولكن من استرق السمع ﴿فَاتْبَعَهُ فَتَبَعَهُ ولحقه ﴿شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر للمبصرين. والشهاب شعلة نار ساطعة. وقد يطلق للكواكب والسنان، لعا فيهما من البريق.

وَالْأَرْضَ مَدَدُنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنَبَنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونِ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَ مِن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآتِتُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلاَّ بِقَدَر مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرّبَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزُلْنَا مِنَ السَّمَآءَ مَآءً فَأَسْتَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٣٢﴾

ولمّا تقدّم ذكر السماء وما فيها من الأدلّة والنعم، أتبعه بذكر الأرض، فقال:
﴿ وَالنّرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ بسطناها طولاً وعرضاً ﴿ وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت
﴿ وَانْتَبْتَنَا فِيهَا ﴾ في الأرض، أو فيها وفي الجبال ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ مقدّر
بمقدار معيّن وزن بميزان الحكمة. أو مستحسن مناسب، من قولهم: كلام موزون.
أو ما يوزن ويقدّر في العادة، كالفضّة والذهب. أو له وزن في أبواب النعم والمنفعة.

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس ﴿ وَمَن لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ عطف على معايش، أو على محلّ «لكم». كأنّه قيل: وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا من لستم له برازقين. ولا يجوز عطفه على ضمير «لكم»، لأنّه لا يعطف على الضمير المجرور. والمراد به العيال والخدم والمماليك، وسائر ما يظنّون أنّهم يرزقونهم ظنّاً كاذباً. فإنّ الله يرزقهم وإيّاهم.

وفذلكة الآية: الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بسقدار وشكل معينين مختلفة الأجزاء في الوضع، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز أن لا تكون كذلك _ على كمال قدرته، وتناهي حكمته، والتفرّد في الألوهيّة، والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك، ليوحدوه ويعبدوه.

ثمّ بالغ في ذلك وقال: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدُنَا خَزَآئِنَهُ﴾ أي: وما من شيء إلّا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه. فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كـلّ مقدوراته. أو شبّه مقدوراته بالأشياء المخزونة الّتي لا يحوج إخراجها إلى كـلفة واحتهاد.

وقيل: المراد به الماء الّذي منه النبات، وهو مخزون عنده تعالى إلى أن ينزله، ونبات الأرض وثمارها إنّما ينبت بماء السماء.

﴿ وَمَا نَنزُلُهُ ﴾ وما نوجده وما نعطيه، أو ما ننزّل المطر في بقاع الأرض ﴿ إِلّا يِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ نعلم أنّه مصلحة. فحدّه الحكمة، وتعلّقت به المشيئة، فإنّ تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات، مشتملاً على بعض الصفات والحالات، لابدّ له من مخصّص حكيم.

ويؤيّد التفسير الثاني قوله: ﴿ وَأَرْسَلْفَا الرَّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ حوامل. شبّه الريح التي جاءت بخير ـ من إنشاء سحاب ماطر _ بالحامل، كما شبّه ما لا يكون كذلك بالعقيم. أو ملحقات للشجر أو السحاب. ونظيره الطوائح، بمعنى المطيحات، في قوله: ومختبط ممّا تطيح الطوائح.

﴿ فَانْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ فجعلناه لكم سقياً ﴿ وَمَا اسْتُمْ لَـهُ بِخَازِنِينَ ﴾ قادرين متمكّنين من إخراجه. نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: « وإن

من شيء إلَّا عندنا خزائنه». أو حافظين في الغدران والعيون والآبار، ثم نخرجه منها بقدر الحاجة، ولا يقدر أحد على إحراز ما يحتاج إليه من الماء في موضع. وذلك أيضاً يدلّ على المدبّر الحكيم، كما تدلّ حركة الهواء في بعض الأوقات من بعض الجهات على وجه ينتفع به الناس، فإنّ طبيعة الماء تقتضي الغور، فوقوفه دون حدّ لابلًا له من سبب مخصّص.

﴿ وَإِنَّا لَنَضُ نَحْدِي ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ بإزالتها. وقد أوّل الحياة بما يعمّ الحيوان والنبات. وتكرير الضمير للدلالة على الحصر. ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِدُونَ ﴾ الباقون إذا هلك الخلق كلّه. وهو استعارة من وارث الميّت، لأنه يبقى بعد فناء الموروث منه، ومنه قوله ﷺ: «واجعله الوارث منّا». أو المراد: نحن الوارثون جميع الأشياء كلّها إذا مات الخلائق، فتصير جميع الأشياء كلّها راجعة إلينا ننفرد بالتصرّف فيها.

وَلَقَدُ عَلِمُنَا الْمُسْتَقَدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمُنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

ثمّ بين كمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فقال: ﴿ وَلَـقَدُ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْمِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَاخِرِينَ ﴾ من استقدم ولادة وموتاً ومن استأخر من الأولين والآخرين. أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد. أو من تقدّم في الاسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة أو تأخّر، لا يخفى علينا شيء من أحوالكم.

وقيل: رغّب رسول الله ﷺ في الصفّ الأول، وقال: «خير صفوف الرجال أولها، وشرّها أولها». وقال ﷺ: ا أولها، وشرّها أخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرّها أولها». وقال ﷺ: ا «إنّ الله وملائكته يصلّون على الصفّ المقدّم». فازدحم الناس، وكانت دور بني عذرة بعيدة عن المسجد، فقالوا: لنبيعن دورنا، ولنشترين دوراً قريبة من المسجد، حتى ندرك الصفّ المقدّم، فنزلت هذه الآية. فعلى هذا يكون المعنى: أنّا نـجازي الناس على نيّاتهم.

وقيل: إنّ امرأة حسناء كانت تصلّي خلف رسول الله ﷺ . فتقدّم بعض القوم لئلًا ينظر إليها. وتأخّر بعض ليبصرها، فنزلت الآية المذكورة. فقال: ﴿ وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ يَخشُرُهُمْ﴾ لا محالة للجزاء.

و توسيط الضمير للدلالة على أنّه القادر والمتولّي لحشرهم، والعالم بحصرهم ـ مع كثرتهم وتباعد أطراف عددهم ـ لا غير.

وتصدير الجملة بداإنّ لتحقيق الوعد. والتنبيه على أنّ ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدلّ على صحّة الحكم، كما صرّح بـــه بقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ باهر الحكمة، متقن في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ وسع علمه كلّ شيء.

وَلَقَدُ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالِ مِّنْ حَمَا مَّسُنُونِ ﴿٢٦﴾ وَالْجَاَنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبُلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٧٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ الْمَاكَتَكَة إِنِي خَالِقٌ بَشَرًا مِن صَلْصَالُ مِّنْ حَمَا مَّسُنُونِ ﴿٨٧﴾ فَإِذَا سَوَيْتُهُ وَنَفَخُتُ فيه مِن رُوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاَجِدِينَ ﴿٢٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَآتِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَسَجَدَ الْمَلَآتِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٠﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَنِي أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ يَآ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ يَآ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَ تَكُونَ

حَمَا مِ مَسْنُونِ ﴿ ٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿ ٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّغَنَةَ الْمِي يَوْمِ اللَّهِ مِنْهَا فَإِنَّكَ مِنَ الْمَعْنُونَ ﴿ ٣٣﴾ وَالْ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُعْلَوْمِ ﴿ ٣٨﴾ قَالَ وَاللَّهُ فَإِنَّ عَلَيْكَ مِنَ الْمُعْلُومِ ﴿ ٣٨﴾ قَالَ رَبّ بِمَآ أَغُونِيتَنِي لأَرْيَنَ الْمُعْلُومِ ﴿ ٣٨﴾ قَالَ رَبّ بِمَآ أَغُونِيتَنِي لأَرْيَنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغُويِيّهُم أَجْمَعِينَ ﴿ ٣١﴾ إِلاَّ عَبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿ ٣١﴾ قَالَ مَذَا صِرَاطٌ عَلَي مُسْتَقِيمٌ ﴿ ٤١﴾ إِلَّ عَبَادِي لَيسَ لَكَ عَلَيْهِمُ سُلُطًانٌ إِلاَّ مَنِ انْبَعَكَ مِنَ الْفَاوِينَ ﴿ ٤١﴾ وَإِنَّ عَبَادِي لَيسَ لَكَ عَلَيْهِمُ سُلُطًانٌ إِلاَّ مَنِ انْبَعَكَ مِنَ الْفَاوِينَ ﴿ ٤١﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٤١﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُوعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ

ولمًا ذكر سبحانه الإحياء والإماتة والنشأة الثانية، عتبه ببيان النشأة الأولى، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَفْنَا الْإِنْسُانَ مِن صَلْصَالِ﴾ طين يابس يصلصل _أي: يصوّت إذا نقر _ وهو غير مطبوخ، فإذا طبخ فهو فخار. وقيل: هو من: صلصل إذا أنتن، تضعيف: صلّ، فإنّه يقال: صلّ اللحم وأصلّ إذا أنتن.

﴿ مِنْ هَمَا ﴾ طين تغيّر واسود من طول مجاورة الماء. وهو صفة صلصال، أي: كائن من حما ﴿ مَسْفُونِ ﴾ مصور، سنّة الوجه، أي: صورته. أو مصبوب مفرّغ لييبس، كالجواهر المذابة تصبّ في القوالب، من السنّ وهو الصبّ، كأنّه أفرغ الحما فصوّر منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتّى إذا نقر صلصل، ثمّ غير ذلك طوراً بعد طور، حتّى سوّاه ونفخ فيه من روحه. أو منتن، من: سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، فإنّ ما يسيل بينهما يكون منتناً، ويستى السنين.

﴿ وَالْجَآنَ ﴾ أبا الجنّ. وقيل: إبليس. ويجوز أن يراد به الجنس، كماهو الظاهر من الانسان، لأنّ تشعّب الجنس لمّا كان من شخص واحد خلق من مادة واحدة، كان الجنس بأسره مخلوقاً منها. وانتصابه بفعل يفسّره قوله: ﴿ فَلَقَنَاهُ ﴾ من قبل خلق الانسان ﴿ مِنْ فَارِ السَّقُومِ ﴾ من نار الحرّ الشديد النافذ في المسامّ.

وقيل: هي نار لا دخان لها، والصواعق يكون منها. ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام البسيطة، كما لا يمتنع خلقها في الجواهر المجرّدة، فضلاً عن الأجساد المؤلّفة الّتي الغالب فيها الجزء الناري، فإنّها أقبل لها من الّتي الغالب فيها الجزء الأرضى. وقوله: «مَن نار» باعتبار الغالب، كقوله: ﴿ فَلَقَكُمْ مِنْ تُوابِ ﴾ (١).

قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزءًا من سموم النار الَّتي خلق الله منها الجانّ.

ومساق الآية كما يدلُّ على كمال قدرته وبيان بدء خلق الثقلين. فهو كالتنبيه على المقدّمة الثانية الَّتي يتوقَّف عليها إمكان الحشر، وهـو قـبول المـوادَّ للـجمع والإحياء.

واعلم أنّ أصل آدم ﷺ كان من تراب، وذلك قوله: ﴿ مِنْ تُرُابٍ ﴾ (٣). ثمّ جعل التراب طيناً، وذلك قوله: ﴿ خَلْقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ (٣). ثمّ ترك ذلك الطين حتّى تنفيّر واسترخى، وذلك قوله: «من حماً مسنون» ثمّ ترك حتّى جفّ، وذلك قوله: «من صلصال». فهذه الأقوال لا تناقض فيها، إذ هي إخبار عن حالاته المختلفة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ واذكر وقت قوله: ﴿ لِلْمُلَاثِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً ﴾ يعني: آدم، وستي بشراً لاته ظاهر الجلد، لا يواريه شعر ولا صوف. ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمالٍ

⁽١) الروم: ٢٠.

⁽٢) آل عمران: ٥٩.

⁽٣) الأنعام: ٢.

﴿ فَإِذَا سُوَّيْتُهُ ﴾ عدَّلت خلقته وكمَّلته. وهيَّأته لنفخ الروح فيه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ حتى جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيى.

قال في الكشّاف: «معناه: وأحييته، وليس ثمّ نفخ ولا منفوخ، وإنّـما هـو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه»(١).

وقال في الأنوار: «أصل النفخ إجراء الربح في تجويف جسم آخر، ولمّا كان الروح يتعلّق أوّلاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، وتفيض عليه القوّة الحيوائيّة، فيسري حاملاً لها في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلّقه بالبدن نفخاً، وإضافة الروح إلى نفسه للتشريف» (٢).

﴿ فَقَعُوا ﴾ فاسقطوا ﴿ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أمر من: وقع يقع.

﴿ فَسَجَدَ الْمُلَافِكَةُ كُلُهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ أكّد بتأكيدين للمبالغة في التعميم، ومنع توهّم احتمال التخصيص.

وقيل: أكّد بالكلّ للإحاطة. وبأجمعين للدلالة على أنّهم سجدوا مجتمعين دفعة. وفيه بحث، إذ لو كان الأمر كذلك كان الثاني حالاً لا تأكيداً.

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ إن جعل منقطعاً اتصل به قوله: ﴿ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي: ولكن إبليس امتنع أن يسجد معهم واستكبر. وإن جعل متصلاً كان استئنافاً، على أنّه جواب سائل قال: هلا سجد؟ فقيل: أبى أن يكون من الساجدين.

واستثنى إبليس من الملائكة، لأنّه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلّب اسم الملائكة ثمّ استثنى بعد التغليب، كقولك: رأيتهم إلّا هذا. وقد سبق^(٣) القول في

⁽١) الكشَّاف ٢: ٧٧٥.

⁽٢) أنوار التنزيل ٣: ١٦٨.

⁽٣) راجع ج ١ ص ١٢٣ ذيل الآية (٣٤) من سورة البقرة.

۵۲۰ زیدة التفاسیر ـ ج ۳

أنَّ إبليس هل كان من الملائكة أولم يكن؟ باختلاف العلماء فيه، وما لكلَّ واحد من الفريقين من الحجج في سورة البقرة، فلا معنى للإعادة هاهنا.

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ ﴾ حرف الجرّ محذوف، أي: أيّ غرض لك في أن لا تكون ﴿ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ لآدم؟!

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِاسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: لا يصحّ منّي وينافي حالي أن أسجد ﴿ لِبَشَرِ﴾ جسماني كثيف وأنا جسم لطيف ﴿ خَلَقْتُهُ مِن صَـلْصَالٍ مِنْ خَما مَسْنُونٍ﴾ وهو أخسّ العناصر، وخلقتني من نار وهي اشرفها. استنقص آدم ﷺ باعتبار النوع والأصل. وقد سبق (١) الجواب عنه في سورة الأعراف.

﴿ قَالَ فَاخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: من السماء، أو الجنّة، أو زمر الملائكة. وقيل: من الرئاسة. ﴿ فَإِنَّكُ رَجِيمٌ﴾ مطرود من الخير والكرامة، مبعد من الرحمة، فإنّ من يطرد يرجم بالحجر. أو شيطان يرجم بالشهب. وهو وعيد يتضمّن الجواب عن شبهته.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّفْنَةَ ﴾ هذا الطرد والإبعاد ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ضرب يوم الدين حداً للعنة، إمّا لأنّه أبعد غاية يضربها الناس _ كقوله: ﴿ مَا دَامَتِ السَّفْوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ (٢٠ _ في التأبيد. وإمّا أن يراد: أنّك مذموم مدعوّ عليك باللعنة في السماوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذّب، فإذا جاء ذلك اليوم عذّبت بما ينسى اللعن معه. أو لأنّ اللعنة إلى يوم الدين يناسب أيّام التكليف. وما في قوله: ﴿ فَاذَنْ مُؤذَّنُ بَيْنَهُمْ أَن لَعَنْهُ الشِّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) بمعنى آخر، وهو العذاب الأليم والعقاب العظيم.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِزْنِي﴾ فأخّرني. والفاء متعلّقة بمحذوف دلّ عليه «فاخرج

⁽١) راجع ج٢ ص ٤٩٨ ذيل الآية (١٢) من سورة الأعراف.

⁽۲) هود: ۱۰۷.

⁽٣) الأعراف: ٤٤.

منها فإنّك رجيم». ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ سأل الإنظار إلى اليوم الّذي فيه يبعثون لئلاً يموت، بل ﴿ قَالَ فَإِنَّكُ مِنْ يعون لئلاً يموت، بل ﴿ قَالَ فَإِنَّكُ مِنْ المُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ المُعْلُومِ﴾ المسمّى فيه أجلك عند الله، أو انقراض الناس كلّهم، وهو النفخة الأولى.

ويجوز أن يكون المراد بالأيّام الشلائة يموم القيامة، واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات. فعبّر عنه أوّلاً بيوم الجزاء لما عرفته، وثانياً بيوم البعث، إذ به يحصل العلم بانقطاع التكليف واليأس عن التضليل، وثالتاً بالمعلوم، لوقوعه في الكلامين. ولا يلزم من ذلك أن لا يموت، ويمكن أن يموت أوّل اليوم ويبعث مع الخلائق في تضاعيفه. وهذه المخاطبة وإن لم تكن بواسطة لم تدلّ على منصب إبليس، لأنّ خطاب الله له على سبيل الإهانة والإذلال.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغُويْتَتِنِي﴾ الباء للقسم، و«ما» مصدريّة، وجوابه ﴿ لأَزَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ . والمعنى: أقسم بإغوائك إيّاي لأزيّن لهم المعاصي في الدنيا الّتي هي دار الغرور. ومعنى إغوائه إيّاه تسبيبه لفيّه، بأن أمره بالسجود لآدم، فأفضى ذلك إلى غيّه. وما الأمر بالسجود إلّا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله ، وكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيّه ومسن إرادته والرضا به، كما هو رأي الأشعريّة، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. ونحو ذلك قوله: ﴿ فَلِهِزَّتِكُ لأَغْوِيَنَهُمْ ﴾ (١) في أنّه إقسام، إلّا أنّ أحدهما إقسام بصفته، والآخر إقسام بغعله.

ويجوز أن لا تكون الباء للقسم، بل للسببيّة، ويقدّر قسم محذوف. والمعنى: بسبب تسبيبك لإغوائي أقسم لأفعلنّ بهم نحو ما فعلت بي من التسبيب لإغوائهم. بأن أزيّن لهم المعاصى.

⁽١) ص: ٢٨.

﴿ وَلِأُغُونِنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ولأحمانهم أجمعين على الغواية، وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم في الدنيا التي هي دار الغرور، كقوله: ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعُ هَوَاهُ (١٠). أو أراد: أنّي أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدر. أو أراد: لأجعلن مكان التزيين عندهم الأرض، ولأوقعن تزييني فيها، أي : لأزيّنتها في أعينهم، ولأحدّثهم بأنّ الزينة في الدنيا وحدها حتى يستحبّوها على الآخرة، ويطمئنوا إليها دونها.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ اللذين أخاصتهم لطاعتك، وطهرتهم من الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي.

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيُ ﴾ حقّ عليّ أن أراعيه ﴿ مُسْتَقِيمٌ ﴾ لا انحراف عنه. وهذا إشارة إلى ما تضمّنه الاستثناء، وهو تخليص المخلصين من إغوائه. أو إلى الإخلاص، على معنى أنّه طريق عليّ يؤدّي إلى الوصول إليّ من غير اعوجاج وضلال.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانَ إِلَّا مَنِ الْتَبْعَكُ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ تصديق لإبليس فيما استثناه. وتغيير الوضع لتعظيم السخلصين، ولأنَّ السقصود بيان عصمتهم، وانقطاع مخالب الشيطان عنهم. أو تكذيب له فيما أوهم أنَّ له سلطاناً على من ليس بمخلص من عباده، فإنَّ منتهى تزيينه التحريض والتدليس، كما قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِي بمخلص من عباده، فإنَّ منتهى تزيينه التحريض والتدليس، كما قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ (٣). وعلى هذا يكون الاستثناء من شرط أن يكون المستثنى أقل من الباقي، منقطعاً. وعلى الأول يدفع قول من شرط أن يكون المستثنى أقل من الباقي، وعكس

⁽١) الأعراف: ١٧٦.

⁽٢) إبراهيم: ٢٢.

نى، ئىلدون ئى من العربيين الى من المحر واحر. ﴿ وَإِنَّ جَهَلْمُ لَمُوْعِدُهُمْ ﴾ لموعد الغاوين أو المستّبعين ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد

روين بهم صويدهم) عو عداد ويون و عداين را مصاب على تقدير مضاف، ومعنى اللضمير، أو حال. والعامل فيها العوعد إن جعلته مصدراً على تقدير مضاف، ومعنى الإضافة إن جعلته اسم مكان، فإنّه لا يعمل.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ يدخلون منها لكثرتهم. أو طبقات يمنزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة، كما روي عن أمير المؤمنين ﷺ: «أنّ جهنّم لها سبعة طبقات بعضها فوق بعض، ووضع إحدى يديه على الأخرى فقال: هكذا، وإنّ الله وضع الجنان على العرض، ووضع النيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنّم، وفوقها لظى، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية». وفى رواية الكلبى: أسفلها الهاوية، وأعلاها جهنّم.

وعن ابن عبّاس: أنّ الباب الأوّل جهنّم، والثاني سعير، والثالث سقر، والرابع جحيم، والخامس لظي، والسادس الحطمة، والسابع الهاوية.

ولعسلَّ تسخصيص العدد لانحصار مجامع المهلكات في الركون إلى المحسوسات، ومتابعة القوة الشهويّة والغضبيّة، أو لأنَّ أهلها سبع فرق.

﴿لِكُلُ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ من الأتباع في الدنيا ﴿ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ نصيب أفرز له، فأعلاها للموخدين العصاة، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين.

وعن ابن عبّاس: أنَّ جهنّم لمن ادّعى الربوبيّة، ولظى لعبدة النار، والحطمة لعبدة الأصنام، وسقر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحّدين.

وقرأ أبوبكر: جُزُءٌ بضتين. و«منهم» حال منه، أو من المستكن في الظرف لا في «مقسوم»، لأنّ الصفة لا تعمل فيما تقدّم موصوفها. إِنَّ الْمُتَّيِنَ فِي جَنَّاتِ وَعُيُونِ ﴿ ٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ ﴿ ٤٦﴾ وَيَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَّالِلِينَ ﴿ ٤٧﴾ لاَ يَسْتُهُمْ فِيهَا نَصَبْ وَمَا هُم مَنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿ ٤٨﴾

ولمّا ذكر سبحانه عبادة المخلصين عقبه بذكر حالهم في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَقِينَ﴾ من اتّباعه في الكفر والفواحش، فإنّ غيرهما مكفّرة بالصلوات وغيرها ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لكلّ واحد جنّة وعين. أو لكلّ عدّة منهما، كقوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (١٦) وقوله: ﴿ مَثلُ اللّجَنَّةِ وَاللّهِ وَهِذَا لُمُتَقُونَ فِيهَا أَنْهَارُ مِنْ مَامٍ غَيْر آسِنِ ﴾ الآية (١٣).

وقرأ نافع وأبوعمرو وحفص وهشام: وعُنيون، حـيث وقـع بـضمّ العـين. والباقون بكسر العين.

﴿انشُلُوهَا﴾ على إرادة القول ﴿ بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ سالمين. أو مسلّماً عليكم، يسلّم عليكم الملائكة. أو آمنين من الإخراج.

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ في الدنيا بما ألّفنا بين قلوبهم، أو في الجنّة بتطييب نفوسهم ﴿ مَا فِي صُدُودِهِم مِنْ غِلً ﴾ من حقد كان في الدنيا. والمعنى: وأزلنا ما كان في قلوبهم من أسباب العداوة في الدنيا. أو طهّرنا قلوبهم من أن يتحاسدوا على درجات الجنّة ومراتب القرب.

﴿إِخْوَاناً﴾ حال من الضمير في «جنّات»، أو فاعل «ادخلوها»، أو الضمير

⁽١، ٢) الرحمن: ٤٦ و ٦٢.

⁽٣) محمد: ١٥.

في «آمنين»، أو الضمير المضاف إليه، والعامل فيها معنى الإضافة. وكذا قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُثَقَابِلِينَ﴾ كائنين على مجالس السرر متواجهين، ينظر بعضهم إلى وجه بعض. وعن مجاهد: تدور بهم الأسرّة حيثما داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين. ويجوز أن يكونا صفتين لد إخواناً»، أو حالين من ضميره، لأنّه في معنى: متصافّين، وأن يكون «متقابلين» حالاً من المستتر في «على سرر».

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبُ﴾ تعب وعناء. استئناف، أو حال بعد حال، أو حال من الضمير في «متقابلين». ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُشْرَجِينَ ﴾ فإنّ تمام النعمة بالخلود.

نَبِيءُ عَبَادِيَ أَنِي أَنا الْفَغُورُ الرَّحِيمُ ﴿ ٤٩﴾ وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿ ٥٠﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ الْأَلِيمُ ﴿ ٥٠﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَامًا قَالَ إِنَّا نَبْشَرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ سَلامًا قَالَ إِنَّا نَبْشَرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿ ٥٠﴾ قَالَ أَبْشَرُونَ ﴿ ٥٠﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلُ إِنَّا نَبْشَرُونَ ﴿ ٥٠﴾ قَالُواْ بِعَلَى مَا الْمَا يَعْمَى الْمَكِبُرُ فَبِمَ تَبَشَرُونَ ﴿ ٥٠﴾ قَالُواْ بَشَرُونَ ﴿ ٥٠﴾ قَالُواْ بَشَرُونَ ﴿ ٥٠﴾ قَالُواْ بِعُدَى إِلَّا الضَّالُونَ ﴿ ٥٠﴾ إِلاَّ الضَّالُونَ ﴿ ٥٠﴾

ثمّ قرُّر ما ذكره من الوعد والوعيد، ومكّنه في نفوسهم بقوله: ﴿ نَبُّىءُ عِبَادِي أنِّي أَنَا الْغَفُّورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ وفي ذكر المغفرة دليل على أنّه لم يرد بالمتّقين من يتّقي الذنوب بأسرها، كبيرها وصغيرها. وفي تـوصيف ذاتــه بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده. وعن ابن عبّاس: غفور لمن

تاب، وعذابه لمن لم يتب.

وعطف قوله: ﴿ وَنَبَيْنُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ على «نتىء عبادي» ليتخذوا ما أحلٌ من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها، ويعلموا أنّ رحمة الله على المتقين، وسخط الله وانتقامه من المجرمين، فيتحققوا عنده أنّه هو الغفور الرحيم، وأنّ عذابه هو العذاب الأليم. وضيف إبراهيم كانوا أحد عشر ملكاً في صورة أمارد.

﴿إِذْ نَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً﴾ أي: نسلّم عليك سلاماً، أو سلّمنا عليك سلاماً ﴿قَالَ إِنّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون. وذلك لآنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت، أو لائهم امتنعوا من الأكل. والوجل اضطراب النفس لتوقّع مكروه.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلُ ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل. أرادوا: أنّك بمثابة الآمن العبشر، فلا توجل، فإنّ العبشر لا يخاف منه. وقرأ حمزة: نبشرك، من البشر. ﴿ بِعُلَامٍ ﴾ هو إسحاق، لقوله: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ (١) ﴿ عَلِيم ﴾ إذا بلغ.

﴿ قَالَ أَبْشَرْتُمُونِي ﴾ بالمولود ﴿ عَلَىٰ أَن مَسَّنِيَ الْحَبَرُ ﴾ تعجّب من أن يولد له مع مس الكبر إيّاه، أو إنكار لأن يبشّر به في مثل هذه الحالة. وكذلك قوله: ﴿ فَبِمَ تَبْشُرُونَ ﴾ «ما» استفهاميّة دخلها معنى التعجّب، كأنّه قال: فبأيّ أعجوبة تبشّرون؟! أو أراد: أنّكم تبشّرونني بما هو غير متصوّر في العادة، فبأيّ شيء تبشّرونني؟! فإنّ البشارة بما لا يتصوّر وقوعه عادة بشارة بغير شيء.

وقرأ ابن كثير بكسر النون مشدّدة في كلّ القرآن، على إدغام نون الجمع في نون الوقاية وكسرها.

﴿ قَالُوا بَشَّرْ ثَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ بما يكون لا محالة، أو باليقين الّذي لا لبس فيه، أو بطريقة هي حقّ، وهو قول الله وأمره ﴿ فَلَا تَكُن مِنَ الْقَائِطِينَ ﴾ من الآيسين من ذلك،

⁽١) الصافّات: ١١٢.

فإنّه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ وعجوز عاقر؟!

وكان استعجاب إبراهيم باعتبار العادة دون القدرة، ولذا ﴿قَالَ وَمَن يَقْفَطُ مِنْ رَحْمَةٍ رَهِهِ ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا يقنط ألبتّة منها ﴿إلّا الضَّالُونَ ﴾ أي: المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمة الله وكمال علمه وقدرته، كما قال: ﴿ لَا يَيْنَاسُ مِنْ رَوْحٍ اللهِ إِلّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١٠). فكأنّه قال: لم استنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً للعادة الّتي أجراها الله في الخلق، وقرأ أبو عمرو والكسائى: يَقْبِطُ بالكسر.

قَالَ فَمَا حَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالُواَّ إِنَّا أَرُسِلْنَاۤ إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٠﴾ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ إِلاَّ اَمُوَأَنَّهُ قَدَّرُنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمُ الْهُهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: فما شأنكم الّذي أرسلتم لأجله سوى البشارة ؟ لأنهم كانوا عدداً، والبشارة لا تحتاج إلى العدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريًا ومريم. أو لانهم بشروه في تضاعيف الحال لإزالة الوجل، ولو كانت تمام المقصود لابتدؤا بها.

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ يمني: قوم لوط ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ إن كان استثناء من «قوم» كان منقطعاً، إذ القوم موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنسان. وإن كان استثناء من الضمير في «مجرمين» كان متصلاً، والقوم والإرسال شاملين للمجرمين وآل لوط المؤمنين به. وكأنّهم قالوا: إنّا أرسلنا إلى قوم أجرم

⁽١) يوسف: ٨٧.

كلُّهم إلا آل لوط منهم، لنهلك المجرمين، وننجِّي آل لوط منهم.

ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمُ أَجْمَعِينَ ﴾ منا يعذّب به القوم. وهو استئناف إذا اتصل الاستثناء، كأنّ إبراهيم قال لهم: فما حال آل لوط؟ قالوا: إنّا لمنجّوهم. ومتعلّق ب«آل لوط» جارٍ مجرى خبر «لكن» إذا انقطع، لأنّ المعنى: لكن آل لوط منجّون.

وعلى هذا جاز أن يكون قوله: ﴿إِلا امْزَاقَهُ ﴾ استثناء من آل لوط أو من ضميرهم. لاختلاف الحكمين، لأنَّ آل لوط متميرهم، لاختلاف الحكمين، لأنَّ آل لوط متملّق بر «أرسلنا» أو برهجرمين»، و«إلا امرأته» متملّق بر «منجّوهم»، فأنّى يكون استثناء من استثناء ؟ فإنَّ الاستثناء من الاستثناء إنّما يكون فيما اتّحد الحكم فيه، بأن يقال: أهلكناهم إلاّ آل لوط إلاّ امرأته، كما اتّحد الحكم في قول المطلّق: أنت طالق ثلاثاً إلاّ ثنتين إلاّ واحدة، وفي قول المقرّ: لفلان عليّ عشرة دراهم إلاّ ثلاثة إلا درهماً. اللّهم إلاّ أن يجعل «إنّا لمنجّوهم» اعتراضاً. وقرأ حمزة والكسائي: أكنْخو هُمْ مخفّفاً.

﴿ قَذَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْفَابِرِينَ ﴾ الباقين مع الكفرة لتهلك معهم. وقرأ أبوبكر عن عاصم: قَدْرْنَا، هنا وفي النمل(١) بالتخفيف. وإنّما علَّق فعل التقدير ، والتعليق من خواصٌ أفعال القلوب، لتضمّنه معنى العلم، ولذلك فسّر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم.

وفي المدارك: «لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح «إِنَّ»، لأنَّ «إنَّ» مع اسمه وخبره مفعول ﴿قدرنا﴾ ٢٦.

ويجوز أن يكون «قدّرنا» أجري مجرى «قلنا» لأنّ التقدير بمعنى القضاء. وهو بمعنى القول. وأصله جعل الشيء على مقدار غيره.

⁽١) النمل: ٥٧ .

⁽٢) مدارك التنزيل للنسفى المطبوع بهامش تفسير الخازن ٣: ٩٩.

وإسناد الملائكة التقدير إلى أنفسهم وهـو فـعل الله. لمـا لهـم مـن القـرب والاختصاص به. كما يقول خاصّة الملك: دبّر نا كذا وأمرنا بكذا، والمدبّر والآمر هو الملك لاهم، وإنّما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنّهم لا يتميّزون عنه.

فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوط الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ فَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جَنْناكَ بِالْحَقّ وَإِنَّا لَصَادَقُونَ ﴿٦٢﴾ وَأَنْيِنَاكَ بِالْحَقّ وَإِنَّا لَصَادَقُونَ ﴿٦٤﴾ فَالُواْ بَلْ جَنْناكَ بِالْحَقّ وَإِنَّا لَصَادَقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْر بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَيْلِ وَاتَبعُ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يُلْتَفَتُ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُوفِير وَهَ ﴾ وقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوَلاَ مُتَطُوعٌ مَعْطُوعٌ مَعْطُوعٌ مَصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَنْكُرُونَ﴾ غير معروفين، تنكركم نفسي وتنفر عنكم، مخافة أن تطرقوني بشرً.

﴿ قَالُوا بَلْ حِنْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي: ماجتناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما يسرّك ويشفي لك من عدوّك، وهو العذاب الذي توعّدتهم به، فيمترون فيه، أي: يشكّون.

﴿ وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ باليقين من عذابهم ﴿ وَإِنَّا لَـصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به من نزول العذاب عليهم.

﴿ فَاسْدِ بِاهْبِكِ فَاذَهِب بهم في الليل. وقرأ الحجازيّان بوصل الهمزة، من السّرى. وهما بمعنى. ﴿ فِقِطْعِ مِنَ اللَّذِي ﴾ في طائفة من الليل بعد ما يمضي أكثره ﴿ وَاتَّبِعُ انْبَازِهُمْ ﴾ اقتفِ آثارهم، وكن وزاءهم تسرع بهم، وتطلّع على حالهم، لئلاً يتخلّف أحد منهم.

﴿ وَلَا يَلْتَقِتْ مِنكُمْ أَحَدُ﴾ لا ينظر ما وراءه، فيرى من الهول ما لا يطيقه، أو فيصيبه ما أصابهم. أو ولا ينصرف أحدكم ولا يتخلّف، فيصيبه العذاب. وقيل: نهوا عن الالتفات ليوطّنوا نفوسهم على المهاجرة، ولا يشتغل بمن خلفهم قلوبهم، ولا يتحسّروا على مفارقة أوطانهم ومن به.

﴿ وَا مَضُوا حَيْثُ تُؤَمَّرُونَ ﴾ اذهبوا إلى الموضع الذي أمرتم بالذهاب إليه، وهو الشام أو مصر . وعدّي «امضوا» إلى «حيث» كما يعدّى إلى الظرف المبهم، لأنّ «حيث» مبهم في الأمكنة. وكذلك الضمير (١٠ في «تؤمرون».

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أوحينا إليه مقضياً مبتوناً ، ولذلك عدّي برالي ﴿ ذَلِكَ الْأَمْزَ ﴾ مبهم يفسّره ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَوُلَاء مَقْطُوعٌ ﴾ ومحلّه النصب على البدل منه . وفي ذلك تفخيم للأمر وتعظيم له . ودابر الشيء آخره . والمعنى : يستأصلون عن آخرهم حتّى لا يبقى منهم أحد . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصبح . وهو حال من «هؤلاء» ، أو من الضمير في «مقطوع» . وجمعه للحمل على المعنى ، فإنّ دابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء .

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتُبْشُرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّ هََٰوُلاً عَنْ الْعَالَمِينَ

تَفْضَحُونِ ﴿٨٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْرُونِ ﴿٩٦﴾ قَالُواۤ أُولَمْ ثَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ
﴿٧٧﴾ قَالَ هََوُلاً ۚ بَنَاتِي إِن كُتُتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٧﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكُونَهِمْ
تَعْمَهُونَ ﴿٧٧﴾

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾ وهي قرية سدوم ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يبشّر بعضهم بعضاً

⁽١) أي: الضمير المحذوف في: تؤمرونه.

سورة العجر، آية ٦٧ ــ ٧٢ ـ

بنزول من هو في صورة أضياف لوط، طمعاً فيهم.

﴿قَالَ إِنَّ هَوُّ لَا عَضْيْفِي فَلَا تَقْضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفي، فإنَّ من اسيء إلى ضيفه فقد أسىء إليه.

﴿ وَاتَّقُوا اللهُ ﴾ في ركوب الفاحشة ﴿ وَلاَ تُخْزُونِ ﴾ ولا تذلُّوني بإذلال ضيفي. من الخزي وهو الهوان. أو لا تخجلوني فيهم، من الخزاية وهو الحياء.

﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهُكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ عن أن تجير منهم أحداً، أو تضيفه، أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرّضون لكلّ أحد، وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وسعه، أو عن ضيافة الناس وإنزالهم.

﴿قَالَ هَوُلآءِ بِنَاتِي﴾ فانكحوهنّ، فلا تتعرّضوا لهم، يعني: نساء القوم، فإنّ نبيّ كلّ أمّة بمنزلة أبيهم. وفيه وجوه ذكرت في سورة هود(١١). ﴿إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ قضاء الوطر، أو ما أقول لكم. فهذا شكّ في قبولهم لقوله.

﴿ لَعَمْرُتُ ﴾ قسم بحياة المخاطب، وهو النبي ﷺ. قال ابن عبّاس: ما خلق الله ﷺ ولا ذراً ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلاّ بحياته، فقال: لعمرك. وقيل: قسم بحياة لوط، قالت الملآئكة له ذلك. وإلاً صحّ الأوّل. والتقدير: بحياتك ومدّة بقائك قسمي، والعُمر والعَمر واحد، إلاّ أنّهم خصّوا القسم بالمفتوح، لإيثار الأخفّ فيه، لأنّه كثير الدوران على ألسنتهم، ولذلك حذفوا الخبر، وهو قسمي.

﴿إِنَّهُمْ نَفِي سَكَرْتِهِمْ ﴾ لفي غوايتهم، أو شدّة غلمتهم (٢) التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه، وبين الصواب الذي يشار به إليهم، من ترك البنين إلى البنات ﴿يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيّرون. فكيف يسمعون نصحك ؟! وقيل: الضمير لقريش، والجملة معترضة.

⁽١) راجع ص ٣٠٠ ذيل الآية ٧٨ من سورة هود.

⁽٢) الغُلْمَةُ: اشتداد الثهوة واهتياجها.

فَأَحَذَثْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيْهَا سَافَلَهَا وَأَلْمَلُونَا عَلَيْهِمْ حِجَارةً مِن سَجِيلٍ ﴿٤٧﴾ إِنَّ فِي ذَلْكَ لَآيَاتِ لَلْمُتَوسَمِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلِ مُعْمِمٍ ﴿٧٧﴾ إِنَّ فِي ذَلْكَ لَآيَةً لْلْمُومِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّهَا لَبِيمَامٍ مُبينِ ﴿٧٧﴾ وَالنَّقَمُنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِيمَامٍ مُبينِ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ كَذَبُ اللَّهُمُ وَالْهُمَا لَبِيمَامٍ مُبينٍ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ كَذَبُ المُرسَلِينَ ﴿٨٧﴾ وَالنَّيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٧﴾ وَكَانُوا عَنْهَا أَمْنِينَ ﴿٨٧﴾ وَالْمُؤْمِنَ ﴿٤٨﴾ وَالْمُؤْمِنَ ﴿٤٨٨﴾ فَأَخَذَتُهُم مَا كَانُوا يُكْسَبُونَ ﴿٨٤﴾ فَأَخذَتُهُم مَا كَانُوا يُكْسَبُونَ ﴿٤٨٨﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن كيفيّة عذاب قوم لوط بقوله: ﴿ فَاخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ الصوت الهائل المهلك. وهي صيحة جبرئيل. ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيهَا﴾ عالى مدينتهم، أو عالى قريتهم ﴿سَافِلَهَا﴾ وصارت منقلبة بهم ﴿ وَأَمْطَرُنَا عَلَيْهِمْ جِجَارَةً مِنْ سِجَيلِ﴾ من طين متحجّر، أو طين عليه كتاب من السجل، بدليل قوله تعالى: ﴿ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (١) أي: معلّمة بكتاب. وقد سبق (٢) مزيد بيان لهذه القصّة في سورة هود.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فيما سبق ذكره من إهلاك قوم لوط ﴿ لآيَاتٍ لِلمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للمتفرّسين المتأمّلين. وحقيقة المتوسّمين النظّار المتثبّون في نظرهم حتّى يعرفوا

⁽١) الذاريات: ٣٣ ـ ٣٤.

⁽٢) راجع ص ٣٠٣ ذيل الآية ٨٣ من سورة هود.

حقيقة الشيء بسمته. يقال: توسّمت في فلان كذا. أي: عرفت وسمه فيه. وعمن النبيّ ﷺ: اتّقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله. وقال: إنّ لله عمباداً يـعرفون الناس بالتوسّم، ثمّ قرأ هذه الآية.

﴿ وَإِنَّهَا﴾ وإنّ المدينة أو القرى ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ ثــابت يســلكه النـــاس. ويرون آثارها. وهو تنبيه لقريش، كقوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ (١).

ذكر عليّ بن إبراهيم في تنفسيره أنّه روي عن أبني عبدالله هيد: «نحن المتوسّمون، والسبيل فينا مقيم، والسبيل طريق الجنّة»(٢).

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالله ورسله. خصّهم بالذكر ، لأنّهم هم المنتفعون مها.

﴿ وَإِن كَانَ﴾ وإنّه كان ﴿ أَصْحَابُ الْأَيْئَةِ لَظَالِمِينَ﴾ هم قدم شعيب كانوا يسكنون الغيضة، فبعثه الله إليهم فكلّبوه فأهلكوا بالظلّة. والأيكة الشجرة المتكاثفة.

﴿ فَانْتَقَدْنَا مِنْهُمْ ﴾ بالإهلاك. روي: أنَّهم أهلكوا بالظلَّة الَّتي احترقوا بنارها.

﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ يعني: سدوم والأيكة. وقيل: الأيكة ومدين، فإنه كان مبعوتاً إليهما، فكان ذكر إحداهما منبّها على الأخرى. ﴿ لَبَلِهَامٍ هُبِينٍ ﴾ لبطريق واضح يؤتمّ ويتّبع ويهتدى به باعتباره. والامام اسم ما يؤتمّ به، فسمّي به اللوح الذي يكتب فيه ومطمر البناء ـ وهو حبل يقدّر به البناء ـ لأنّه متا يؤتمّ به.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبُ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُزْسَلِينَ ﴾ يعني: ثمود كذَّبوا صالحاً، ومن كذَّب واحداً من الرسل فكأنّما كذّب الجميع. ويجوز أن يراد بالمرسلين صالحاً ومن معه من المؤمنين. والحجر وادٍ بين المدينة والشام يسكنونه.

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مَعْرضِينَ ﴾ يعنى: آيات الكتاب المنزل على

⁽١) الصافّات: ١٢٧.

⁽٢) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣٧٧.

نبيّهم. أو معجزاته، كالناقة وسقبها(١) وشربها ودرّها. أو ما نصب لهم من الأدلّة.

﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بَيُوتَا آمِنِينَ ﴾ من الانهدام، لاستحكامها جداً. أو من نقب اللصوص وتخريب الأعداء، لوثاقتها. أو من العذاب، لفرط غفلتهم، أو حسبانهم أنّ الجبال تحميهم منه.

﴿ فَاخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ ﴾ فما دفع عنهم العذاب ﴿ مَا كَانُوا يَحْسِبُونَ ﴾ من بناء البيوت الوثيقة، واستكثار الأموال والعدد.

عن جابر قال: مررنا مع رسول الله على الحجر فقال لنا: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلّا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء». ثمّ زجر رسول الله عليه فأسرع حتى خلّفها.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا ٓ بَئِنَهُمَا الِاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحُ الْجَمِيلَ ﴿ ٥٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَاقُ الْعَلِيمُ ﴿ ٨٦﴾

ثمّ بيّن سبحانه أنّ إهلاك هؤلاء الأمم لأجل أنّهم خالفوا الحقّ، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ خلقاً ملتبساً بالحقّ لا يلائم استمرار الفساد ودوام الشرور، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء، وإزاحة فسادهم من الأرض.

﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِينَةً ﴾ فينتقم الله لك فيها متن كذّبك من أعدائك، ويجازيك وإيّاهم على حسناتك وسيّاتهم، فإنّه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا لذلك ﴿ فَاضَفْحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ فأعرض عنهم إعراضاً جميلاً، فلا تعجل بالانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، وقيل: هو منسوخ بآية السيف (٢)، ويجوز

⁽١) السَقْبُ: ولد الناقة ساعة يولد.

⁽٢) التوبة: ٥ و ٢٩.

أن يكون المراد به المخالقة(١). فلا يكون منسوخاً.

﴿إِنَّ رَبِّكَ هُوَ الْخَلَّقُ﴾ الذي خلقك وخلقهم، وبيده أمرك وأمرهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم، فهو حقيق بأن تكل ذلك إليه ليحكم بينكم. أو هو الذي خلقكم وعلم الأصلح لكم، وقد علم أنّ الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح.

وَلَقَدُ آتَٰيۡنَاكَ سَبُعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرُآنَ الْعَظيمَ ﴿٨٧﴾ لاَ تُمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مَنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفَضْ جَنَاحَكَ لْلُمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إَنْيَ أَنَا التَذيرُ الْمُبينُ ﴿٨٩﴾ كَمَاۤ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقَسَمينَ ﴿ ٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرُآنَ عضينَ ﴿ ٩١﴾ فَورَّبِكَ لَنَسْأَلَتُهُمْ أَجْمَعْيْنَ ﴿ ١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ ١٤﴾ إِنَّا كُفَّيْمَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ ﴿ ١٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّه إِلَمًا آخَرَ فَسَوُفَ يُعْمَلُونَ ﴿ ٩٦﴾ وَلَقَدُ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدَّرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿ ٩٧﴾ فَسَنَحُ بِحَدْدِ رَبِّكَ وَكُن مَّنَ السَّاجِدِينَ ﴿ ٩٨﴾ وَاعْبُدُ رَبُّكَ حَتَّى يَأْتَيْكَ الْيَقَينُ ﴿ ٩٩﴾

ثم ذكر سبحانه ما خصّ به نبيّه ﷺ من النعم، لتطيب نفسه في احتمال

⁽١) أي: المعاشرة بخلق حسن.

المشاق والمتاعب في التبليغ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَـنِيْنَاكُ سَبْعاً﴾ سبع آيات، وهمي الفاتحة. وهو قول علي ﷺ، وابن عبّاس، والحسن، وأبي العالية، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، ومجاهد، وقتادة. وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله ﷺ.

وقال ابن مسعود والضحّاك وابن عمر: هي سبع سور، وهي الطوال. واختلف في سابعتها، فقيل: الأنفال والتوبة، فإنهما في حكم سورة، ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية. وقيل التوبة. وقيل: يونس، أو الحواميم السبع. وقيل: سبع صحائف، وهي الأسباع.

﴿ مِنَ الْمَثَانِي ﴾ بيان للسبع. والمثاني جمع المثناة أو المثنية . من التثنية أو الثناء ، فإنّ كلّ ذلك مثنّى، تكرّر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه، أو مثنيً عليه بالبلاغة والإعجاز، أو مثنِ على الله بما هو أهله من صفاته العظمى وأسمائه الحسنى. ويجوز أن يراد بالمثاني القرآن أو كتب الله كلّها، فتكون «من» للتبعيض.

﴿ وَالْقُرْآنَ الْمُفْطِيمَ ﴾ إن أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكلّ على البعض. وإن أريد به الأسباع فمن عطف أحد الوصفين على الآخر. يعني: ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين النعتين، وهـو التثنية أو الثناء والعظم. ووجه عظمه أنه يتضمّن جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين، بأوجز لفظ، وأحسن نظم، وأتمّ معنى.

ولمّا علمت أنّ القرآن أعظم النعم، وما دونه بالنسبة إليه حقير جداً، من النعم الدنية الفانية الدنياويّة، فعليك أن تستغني به و ﴿ لا تَعُدُنُ عَيْنَيْكَ ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِثْهُمْ ﴾ أصنافاً من الكفّار من أنواع النعم، فإنّه مستحقر جداً بالإضافة إلى ما أوتيته، فإنّه كمال مقصود بالذات، مفضٍ إلى دوام اللذّات، وفي الحديث: «من أوتي القرآن فرأى أنّ أحداً أوتي من الدنيا أفضل

ممّا أوتي، فقد صغّر عظيماً، وعظّم صغيراً».

قيل وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البرّ^(۱) والطيب والجوهر وسائر الأمتعة. فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقرّينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله. فقال لهم الله سبحانه: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع. والمعنى: لا تتمنّ أموالهم، ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا، فيتقوّى بمكانهم الاسلام، وينتعش بهم المؤمنون.

﴿ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ ﴾ أنّهم لم يؤمنوا. وقيل: إنّهم المتمتّعون بـه. ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلمُؤْمِنِينَ ﴾ وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وارفق بهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ أنذركم ببيان وبرهان أنَّ عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ ﴾ أي: عذاباً مثل العذاب الذي أنزلنا عليهم. فهو وصف لمفعول «النذير» أقيم مقامه.

والمقتسمون هم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكّة، فقعدوا في كلّ مدخل متفرّقين أيّام الموسم لينفّروا الناس عن الإيمان بالرسول، يقول بعضهم: لا تغترّوا بالخارج منّا، فإنّه ساحر، ويقول الآخر: كذّاب، والآخر شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر. أو الرهط الذين اقتسموا، أي: تقاسموا على أن يبيّتوا صالحاً على أي: يقتله وللداً.

وقيل: هو صفة مصدر محذوف، يدلَّ عليه قوله: «ولقد آتيناك» فإنه بمعنى: أنزلنا إليك. والمعنى: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب المقسمين.

⁽١) البَرِّ: السلاح، والثياب من الكتّان أو القطن.

﴿ الدِّينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: جرَّوه أجزاء حيث قالوا بعنادهم وشدّة عداوتهم وحسدهم: بعضه موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتسموه إلى حتى وباطل. وواحد عضين عضة، بمعنى الجزء. وأصلها عضوة، من: عضى الشاة، إذا جعلها أعضاء. وقيل: أسحاراً، من: عضهته إذا بهته (١٠). وفي الحديث: «لعن رسول الله العاضهة (٢) والمستعضهة»، وإنّما جمع جمع السلامة جبراً لما خذف منه.

وقيل: كانوا يستهزؤن، فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي.

ويجوز أن يراد بالقرآن ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأنّ اليهود أقرّت ببعض التوراة وكذّبت ببعض، والنصارى أقرّت ببعض الإنجيل وكذّبت ببعض.

وهذه تسلية لرسول الله عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم، وقبولهم: إنّه سحر وشعر وأساطير الأولين، بأنّ غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نـحو فعلهم.

والموصول بصلته صفة لـ«المقتسمين»، أو مبتدأ خبره ﴿فَوَرَبَّكَ لَـنَسْالَنَهُمْ الْجَمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من التقسيم، فنجازيهم عليه. وقيل: هو عام في كلّ ما فعلوا من الكفر والمعاصي. عن أبي العالية: يسأل العباد عن خلّتين: عمّا كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. وأضاف الله سبحانه نفسه إلى نبيّنا ﷺ تشريفاً لله، وتنبيهاً للخلق على عظم منزلته عنده. وهذا سؤال تقريع وتوبيخ، بأن يقول لهم: لم عصيتم؟ وما حجّتكم في ذلك؟ فيظهر عند ذلك خزيهم وفضيحتهم.

⁽١) أي: اتّهمته.

⁽٢) العاضهة: الساحر بلغة قريش.

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُوْمَرُ ﴾ فأظهر، من: صدع بالحجّة إذا تكلّم بها جهاراً. أو فافرق به بين الحقّ والباطل. وأصله الإبانة والتمييز. و«ما» مصدريّة، أي: بأمرك، مصدر من المبنيّ للمفعول. أو موصولة، والراجع محذوف، أي: بما تؤمر به من الشراع، ﴿ وَاغْوِضْ عَنِ الْمُشْوِكِينَ ﴾ ولا تلتفت إلى ما يقولون.

﴿إِنَّ كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْوْبِئِينَ ﴾ بقمعهم وإهلاكهم. روي: أنّهم كانوا خمسة نفر ذووا أسنان وشرف: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن العطّلب، والحارث بن قيس _ وقيل: ستّة، سادسهم الحارث بن الطلاطلة _ يبالغون في إيذاء النبيّ والاستهزاء به. فقال جبرئيل لرسول الله كالله المرت أن أكفيكهم، فأوماً إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلّق بثوبه سهم، فلم ينعطف أمرت أن أكفيكهم، فأوماً إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيه شوكة، فقال: لدغت مقطعه فمات. وأوماً إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيه شوكة، فقال: لدغت الدغت، وانتفخت رجله حتّى صارت كالرحى ومات. وأشار إلى أنف الحارث بن الطلاطلة فامتخط (الله فعمي، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة، الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة، فأصابه العطش، فما زال يشرب حتّى نفخ بطنه فمات. وعن ابن عبّاس: ماتوا كلّهم قبل وقعة بدر.

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلْهَا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين. ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ انْكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من الشرك، والطعن في القرآن، والاستهزاء بك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَدْدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلى الله فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك المهمّ، ويكشف الغمّ عنك، أو فنزّهه عمّا يقولون، حامداً له على أن هداك

⁽١) أي: أخرج القيح، وهو ما يسيل من الجراحة والقرح.

للحق. ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ من المصلِّين. وكان ﷺ إذا حزبه(١) أمر فـزع إلى الصلاة.

﴿ وَاعْدُدْ رَبِّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْمَقِينُ ﴾ أي: الموت. فإنّه متيقن لحاقه كـلّ حـيّ مخلوق. ويحتمل أن يكون اراد: حتّى يأتيك العلم الضروري بالموت والخروج من الدنيا، الذي يزول معه التكليف. والمعنى: فاعبده ما دمت حيّاً، ولا تخلّ بالعبادة لحظة.

⁽١) أي: اصابه غمّ وأمر شديد، ومنه: الحزيب، أي: الأمر الشديد.



سورة النحل

مكِّيّة غير ثلاث آيات نزلت في انصراف النبيّ ﷺ من أحد، وهي: «وإن عاقبتم فعاقبوا» إلى آخر السورة، نزلت بين مكّة والصدينة. وهمي مائة وثـمان وعشرون آية بلا خلاف.

أُبِيِّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ قال: «من قرأها لم يحاسبه الله بالنعم الّتي أنعمها عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلة كان له من الأجر كالّذي مات وأحسن الوصيّة».

وروى محمّد بن مسلم عن أبي جعفر ﷺ قال: «من قرأ سورة النحل في كلّ شهر كفي المغرم في الدنيا، وسبعين نوعاً من أنواع البلاء، أهونه الجنون والجــذام والبرس، وكان مسكنه في جنّة عدن، وهي وسط الجنان».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى ۚ أَمُّرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُيَزِّلُ الْمَلَآتِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءً مِنْ عَبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواً أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلاَّ أَنَّا فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾ ولمّا ختم الله سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفّار، افتتح هذه السورة بوعيدهم أيضاً. وروي أنّ كفّار مكة كانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول الله يقد من الله يقام الساعة أو إهلاك الله إيّاهم _كما فعل يوم بدر _استهزاءً وتكذيباً، ويقولون: إن صحّ ما تقوله فالأصنام تشفع لنا وتخلّصنا منه، فنزلت: ﴿ بِسِنمِ اللهِ اللّهِ خَفْنِ الرَّحِيمِ أَمَّى أَفَنُ اللهِ عَنْ اللهِ عَنْ اللهِ بَعْنَز له الآتي المتحقّق، من حيث إنّه واجب الوقوع، وفي الحديث عن النبي الله الله الله الله آتٍ، وكلٌ ما هو آتٍ قريب دانٍ». ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فلا تستعجلوا وقوعه، فإنّه لا خير لكم فيه، ولا خلاص لكم منه.

وقيل: لمّا نزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ (١) قال الكفّار فيما بينهم: إنّ هذا يزعم أنّ القيامة قد قربت، فأسكوا عن بعض ما تعملون حتّى ننظر ما هو كائن. فلمّا تأخّرت قالوا: ما نرى شيئاً. فنزلت: ﴿اقْتَرَبُ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ (١٠. فأشفقوا واننظروا قربها. فلمّا امتدّت الأيّام قالوا: يا محمّد ما نرى شيئاً ممّا تخوّفنا به. فنزلت: «أتى أمر الله». فوثب رسول الله، ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت: «فلا تستعجلوه» فاطمأنوا.

﴿ سُبْخَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرّاً وجلّ عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم، فتكون «ما» موصولة. أو عن إشراكهم، فتكون مصدريّة. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على وفق قوله: «فلا تستعجلوه»، والباقون بالياء على تلوين الخطاب، أو على أن الخطاب للمؤمنين، أو لهم ولغيرهم.

﴿ يُنَزِّلُ الْمُلْآئِكَةَ بِالرُّوحِ ﴾ بالوحي أو القرآن، فإنّه يحيي به القالوب الميتة بالجهل، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد. وذكره عقيب ذلك إشارة إلى

⁽١) القمر : ١ .

⁽٢) الأنساء: ١.

الطريق الَّذي به علم الرسول ما تحقِّق موعدهم به ودنوٍّه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: يُنزِلُ. من: أنزل. وعن يعقوب مثله. وعنه: تَنَوُّل. بمعنى: تتنزّل. وقرأ أبوبكر: تَنَزَّلُ، على المضارع المبنيّ للمفعول. من التنزيل.

﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ من أجله، أو بأمره، ونظيره قوله: ﴿ يَخْفُظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ (١) أيذروا، أي: بأمره، ﴿ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ممّن يصلح للنبوّة ﴿ أَن أَنذِرُوا ﴾ بأن أنذروا، أي: أعلموا، من: نذرت بكذا، إذا علمته ﴿ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلّا أَنا فَانتَّقُونِ ﴾ أي: خوفوا أهل الكية والمعاصي بأنّه لا إله إلا أنا، وقوله: «فاتقون» رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود. و«أنّ» مفسّرة، لأنّ الروح بمعنى الوحي الدال على القول، أو مصدريّة في موضع الجرّ بدلاً من الروح، أو النصب بنزع الخافض، أومخقفة من الثقيلة، أي: أن الشأن لا إله إلا أنا.

والآية تدلَّ على أنَّ نزول الوحي بواسطة الملآئكة، وأنَّ الغرض منه التنبيه على التوحيد الَّذي هو منتهى كمال القوَّة العلميّة، والأمر بالتقوى الَّذي هو أقصى كمال القوّة العمليّة.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُطْفَة فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ شَبِينٌ ﴿٤﴾ وَالأَنعَامَ حَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْيِحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢﴾ وَتَكُمُ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْيِحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢﴾ وَتَكُمُ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْيِحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢﴾ وَتَكُمُ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِ الأَنفُسِ إِنَّ رَبِّكُمُ

⁽١) الرعد: ١١.

012 زيدة التفاسير ــ ج ٣

لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرَكَّبُوهَا وَزِيِنَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

ثم دل على وحدائيته بما ذكر ممّا لا يقدر عليه غيره، من خلق السماوات والأرض، وخلق الانسان وما يصلحه، وما لا بدّله منه من خلق البهائم، فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة، قدّرها وخصّصها بحكمته ﴿ تَعَالَىٰ عَمّا يُشْرِكُونَ ﴾ منهما، أو ممّا يفتقر في وجوده أو بقائه اليهما، ممّا لا يقدر على خلقهما.

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ ﴾ جماد لاحس بها ولا حراك، سيّالة لا تحفظ الوضع والشكل ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ منطيق، مجادل، مكافح للخصوم ﴿ مُبِينٌ ﴾ للحجّة بعد ما كان نطفة من منيّ، جماداً لا حسّ به ولا حركة. أو خصيم لربّه، منكر على خالقه، قاتل: ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (١١)، وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتمادي في كفران النعمة.

وقيل: نزلت في أبيّ بن خلف، أتى النبيّ ﷺ بعظم رميم وقال: يا محمّد. أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمّ^(۲۲)؟

﴿ وَالْأَنْعَامَ ﴾ الإبل والبقر والغنم. وانتصابها بمضمر يفسره ﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾. أو بالعطف على الانسان. و «خلقها لكم» بيان ما خلقت لأجله، وما بعده تفصيل له. وهو قوله: ﴿ فِيهَا دِفَّ ﴾ ما يدفأ به من لباس معمول من الصوف والشعر _ ك: ملء، السم ما يملأ به _ فيقي البرد.

⁽۱) يىتى: ۷۸.

⁽٢) رمّ العظم: بَلِيَ .

﴿ وَمَنَافِعُ﴾ نسلها ودرِّها وظهورها. وإنَّما عبّر عنها بالمنافع ليتناول عوضها.

﴿ وَمِنْهَا تَاكُلُونَ﴾ أي: تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان. وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي، أو لأنّ الأكل منها هو المعتاد المعتمد عليه في المعاش. وأمّا الأكل من سائر الحيوانات المأكولة ــكالصيود البـرّيّة والبحريّة، كالدجاج والبطّـــفعلى سبيل التداوي أو التفكّه(١٠).

﴿ وَلَكُمُ فِيهَا جَمَالُ ﴾ زينة ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ تردّونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي ﴿ وَحِينَ تَسْوَحُونَ ﴾ تخرجونها بالغداة إلى العراعي، فإنّ الأفنية تنزيّن بها في الوقتين، ويجلّ أهلها في أعين الناظرين إليها، ويفرح أربابها. ونحوه: ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةٌ ﴾ (٣) ﴿ يُوَارِي سُوّعَتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ (٣). وتقديم الإراحة لأنّ الجمال فيها أظهر، فإنّها تقبل ملأى البطون حافلة (٤) الضروع، ثمّ تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها.

﴿ وَتَحْمِلُ الْقَانَكُمْ ﴾ أحمالكم ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ ﴾ إن لم تكن الأنعام ولم تخلق، فضلاً أن تحملوها على ظهوركم إليه. فلأجل هذه الإفادة لم يقل: لم تكونوا حامليها إليه، ليطابق قوله: «وتحمل أثقالكم». ﴿ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ إلّا بكلفة ومشقّة، وأصله: النصف، كأنّه ذهب نصف قرّته بالتعب.

﴿إِنَّ رَبِّكُمْ لَرَّعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم، وتيسير الأمر عليكم.

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ ﴾ عطف على الأنعام ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ أي:

⁽١) أي: التلذُّذ والتمتُّع.

⁽٢) النحل: ٨.

⁽٣) الأعراف: ٢٦.

⁽٤) أي: ممتلئة ضروعها لبناً.

ولتتزيّنوا بها زينة. وقيل: هي معطوفة على محلّ «لتركبوها». وتغيير النظم لأنّ الزينة بفعل الخالق، والركوب ليس بفعله. ولأنّ المقصود من خلقها الركوب، وأمّا التزيّن بها فحاصل بالعرض. وليس فيه مايدلّ على تحريم أكل لحومها، كما استدلّ به بعض العامّة، إذ لا يلزم من تعليل الفعل بمايقصد منه غالباً أن لا يقصد منه غيره أصلاً. وقد روى البخاري في الصحيح (١١ مرفوعاً إلى اسماء بنت أبي بكر قالت: أكنا لحم الفرس على عهد رسول الله عليه الم

ولمّا فضل العيوانات الّتي يحتاج إليها غالباً _ احتياجاً ضروريّاً أو غير ضروريّ أو غير ضروريّ أو غير ضروريّ _ أجمل غيرها، فقال: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَغْلَمُونَ ﴾ ويجوز أن يكون إخباراً بأنّ له من الخلائق ما لا علم لنا به، من الحشرات في المفاوز والبحار.وأن يراد به ما خلق في الجنّة والنار ممّا لم يخطر على قلب بشر، ليزيد دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك، وإن طوى عنّا علمه، لحكمة ما في طيّه.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآثِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمُ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾

﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ أي: بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحق. فالقصد مصدر بمعنى الفاعل، وهو القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد، أي: مستقيم، كأنّه يقصد الوجه الذي يؤمّه السالك لا يعدل عنه. أو المعنى: إقامة السبيل وتعديلها. أو عليه قصد السبيل، يصل إليه من يسلكه لا محالة، أي: واجب عليه هداية الطريق الموصل إلى الحقّ، كقوله: ﴿إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (٢). والمعنى: واجب عليه لفريق الموصل إلى الحقّ، كقوله: ﴿إنَّ عَلَيْنًا لَلْهُدَىٰ﴾ (٢). والمعنى: واجب عليه لفريق عدله بيان الطريق المستقيم، وبيان الهدى من الضلالة، والحلال من

⁽١) صحيح البخاري ٧: ١٢٣.

⁽٢) الليل: ١٢.

الحرام، لينتفع المكلِّف بالهدى والحلال، ويتجنَّب عن الضلالة والحرام.

والمراد بالسبيل الجنس، ولذلك أضاف إليه القصد وقال: ﴿ وَمِنْهَا جَاتِوْ﴾ ماثل عن القصد، أو عن الله. وغير الأسلوب ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيل ومليه وما لا يجوز. ولو كان الأمر كما تزعم المجبّرة لقيل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها، أو وعليه الجائر. أو ليعلم أنّ المقصود بيان سبيله، وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنّما جاء بالعرض.

﴿ وَلَوْ شَلَمْ اللهُ اللهُ مُعِينَ﴾ أي: ولو شآء هدايتكم أجمعين مشيئة جبر وقسر لهداكم قسراً إلى قصد السبيل، هداية مستلزمة للاهتداء، ولكنّ القسسر والإلجاء ضدّ التكليف الذي هو مدار أعمال العباد، كما بيّن غير مرّة.

هُو الَّذِي َ أَنْوَلَ مِنَ السَّمَاءَ مَاءً كُكُم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسْيِعُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلَّ تُسْيِعُونَ ﴿١٠﴾ وَسَخَرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْنَ وَالْقَارَ وَالنَّهَارَ وَالنَّهَارَ وَالنَّهَارَ وَالنَّهَارَ وَالنَّهُ لِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لَقَوْمٍ يَعْقَلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمُ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَقَوْمٍ يَعْقَلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمُ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَقَوْمٍ يَعْقَلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَقَوْمٍ يَعْمَالُونَ ﴿١٣﴾

ثمّ عدّ سبحانه نعمة أخرى دالّة على كمال قدرته ووحدانيّته. فقال: ﴿هُــُو الّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمْآءِ﴾ من السحاب. أو من جانب السماء ﴿مَآءَ﴾ أي: مطراً ﴿لَكُمْ جِنْهُ شَرَابُ﴾ ما تشربونه. و«لكم» صلة «أنزل»، أو خبر «شراب»، و«من» تبعيضيّة متعلّقة به. وتقديمها يوهم حصر المشروب فيه. ولا بأس بــه، لأنّ مــياه العــيون والآبار منه، لقوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَعْلَهِمْ ۖ لاَا، وقوله: ﴿فَاسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (٢٪.

﴿ وَمِنْهُ شَجْرٌ ﴾ ومنه يكون شجر. قبل: معناه: لكم من ذلك العاء شراب، ومنه شرب شجر، فحذف المضاف. أو لكم من سقيه شجر، فحذف المضاف إلى الهاء في «منه». والعراد بالشجر الذي ترعاه المواشي. وقيل: كلّ ما نبت على الأرض شجر.

﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ترعون أنعامكم من غير كلفة والتزام مؤونة لعلفها. من: سامت الماشية إذا رعت، وأسامها صاحبها. وأصله: السومة، وهي العلامة، لأنّها تؤثّر بالرعى علامات في الأرض.

﴿ يُنْبِتُ تَكُمْ بِهِ ﴾ بذلك المطر ﴿ الزَّرْعَ ﴾ وقرأ أبوبكر بالنون على التنفخيم ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّجِينَ وَالنَّجِينَ وَالنَّجِينَ وَالنَّجَةُ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّجِينَ وَالنَّجَةُ وَالنَّجِينَ وَالنَّجَةُ . ولعلَّ تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه، لأنه سيصير غذاءً حيوانياً هو أشرف الأغذية، ومن هذا تقديم الزح والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتبها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِـقَوْم يَتَفَكَّرُونَ﴾ على وجود الصانع وكمال حكمته وقدرته، فإنّ من تأمّل أن الحبّة تقع في الأرض، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أعلاها، ويخرج منه عروقها، ثمّ ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار، ويشتمل كلّ منها على أجسام مختلفة الأشكال والطباع، مع اتّحاد الموادّ ونسبة الطبائع السفليّة والتأثيرات الفلكيّة إلى الكلّ، علم أنّ ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدّس عن منازعة الأضداد

⁽۱) الزمر : ۲۱ .

⁽٢) المؤمنون: ١٨.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرَ وَالنَّجُومُ ﴾ بأن هيَّاها لمنافعكم ﴿ مُسَخَّرَاتُ بِامْرِهِ ﴾ حال من الجميع، أي: نفعكم بها حال كونها مسخّرات للله خلقها ودبّرها كيف شاء. أو مسخّرات لماخلقن له بأمره بإيجاده وتقديره، أو لحكمه. ويجوز أن يكون نصب «مسخّرات» بالمصدريّة، وجمع لاختلاف النوع، أي: سخّرها أنواعاً من التسخير. وقرأ حفص: والنجومُ مسخّرات، على الابتداء والخبر، فيكون تعميماً للحكم بعد تخصيصه. ورفع ابن عامر الشمس والقمر أيضاً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جمع الآية وذكر العقل، لأنَّ الآثار العلويّة أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة. ولانَّها تدلُّ أنواعاً من الدلالة ظاهرة لذوي العقول السليمة، غير محوجة إلى استيفاء فكر، كأحوال النبات.

﴿ وَمَا ذَرَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ عطف على الليل، أي: وسخّر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات ومعدن ﴿ مُفْتَلِفاً الْوَانَهُ ﴾ أصنافه، فإنّها تتخالف باللون غالباً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ التسخير ﴿ لآيَةُ لِقَوْمٍ يَذَكّرُونَ ﴾ أنّ اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلا بصنع صانع حكيم.

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حَلْبَةً تُلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهَ وَلَنْبَنَغُواْ مِن فَصْلِهِ وَلَقَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ ١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمْيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ نَهْدُونَ ﴿ ١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿ ١١﴾ ثمّ عدّد سبحانه نوعاً آخر من أنواع نعمه . فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّوْ الْبَحْوَ ﴾ جعله بحيث تتمكّنون من الانتفاع به بالركوب والاصطياد والغوص ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ ﴾ بالاصطياد ﴿ لَخَما طَرِيّاً ﴾ هو السمك . ووصفه بالطراوة ، لأنّه أرطب اللحوم ، يسرع إليه الفساد ، فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه ، ولإظهار قدرته في خلقه عذباً طرياً في ماء زعاق (١١).

وتمسّك به مالك والثوري على أنّ من حلف أن لا يأكل لحماً حنث بأكل مك.

وأجيب عنه بأنّ مبنى الأيمان على العرف، وهو لا يفهم منه عند الإطلاق. ألا ترى إذا قال الرجل لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحماً. فجاء بالسمك كان حقيقاً بالإنكار. ونظيره أنّ الله سمّى الكافر دابّة في قوله: ﴿إِنَّ شَوَّ الدَّوْآبُ عِنْدَ اللهِ الذِينَ كَفُرُوا﴾ (٢). ولا يحنث الحالف على أن لا يركب دابّة بركوب الكافر.

﴿ وَتَسْتَخْوِجُوا مِنْهُ حِلْيَةٌ تَلْبَسُونَهَا ﴾ كاللؤلؤ والمرجان، أي: تلبسها نساؤكم، فأسند إليهم لأنهن من جملتهم، ولأنهن يتزيّن بها لأجلهم.

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن ﴿ مَوَاجْرَ فِيهِ ﴾ شواقٌ في البحر، وقواطع لمائه. يعني: في حالة الجريان تشقّ البحر بحيز ومها^{٣١}. من المخر، وهو شقّ الماء. وعن الفرّاء: هو صوت جري الفلك بالرياح.

﴿ وَلِتَنْتَقُوا مِنْ فَضَلِهِ ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ وَلَعَلَّمُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي: تعرفون نعم الله فتقومون بحقها. ولعلَّ تخصيصه بتعقيب الشكر، لأنه أقوى نعمة من نعم المنعم، من حيث إنّه جعل مظان الهلاك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش.

⁽١) الزُعَاقُ: الماء المرّ لا يطاق شربه.

⁽٢) الأنفال: ٥٥.

⁽٣) في هامش النسخة الخطّية : «هو وسط الصدر . منه» .

﴿ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِنِ ﴾ جبالاً عالية ثابتة واحدها راسية. ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ كراهة أن تميل بكم، أو لئلا تميل بكم وتضطرب. وذلك لأنّ الأرض قبل خلق الجبال فيها كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع، وكان من شأن الكرويّات أن تتحرّك بالاستدارة كالأفلاك، وأن تتحرّك بأدنى سبب للتحريك، فلمّا خلقت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها، وتوجّهت الجبال بنقلها نحو المركز، فصارت كالأوتاد التي تعنمها عن الحركة.

وروي: أنّ الله سبحانه لمّا خلق الأرض جعلت تمور (١٠). فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، ولم تدر الملائكة ممّ خلقت.

﴿وَاثْهَاراً﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً. لأن «ألقى» فيه معنى: جعل ﴿وَسُبُلاً﴾ وطرقاً ﴿لَقَاصُدُكُم، أو إلى معرفة الله.

﴿ وَعَلَامَاتٍ﴾ ومعالم الطرق، وكلّ ما يستدلّ به السابلة من جبل ومنهل ونحو ذلك ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري والبحار. والمراد بالنّجُم الجنس، كما يقال: كثر الدرهم في أيدي الناس. ويبدلٌ عبليه القراءة الشاذّة: وبالنجم، بضمّتين، وضمّ وسكون، على الجمع. وعن السدّي: هو الثريّا والفرقدان وبنات النعش، والحدى.

وعن ابن عبّاس: سألت رسول الله عنه فقال: الجدي علامة قسبلتكم. وبـــه تهتدون في برّكم وبحركم.

ولعلَّ الضمير لقريش، لأنَّهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة، مشهورين بالاهتداء في مسايرهم بالنجوم، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب، وتقديم النجم، وإقحام الضمير للتخصيص، كأنَّه قيل: إنَّ للناس _ خصوصاً لقريش _ اهـتداء

⁽١) أي: تضطرب وتتحرّك كثيراً وبسرعة من جهة إلى أخرى.

بالنجوم في أسفارهم. فكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم. فكان الشكر عليه ألزم لهم. وأوجب عليهم.

وعن الصادق ﷺ: «نـحن العــلامات، والنـجم رســول الله». وقــال رســول الله ﷺ: «إنّ الله جعل النجوم أماناً لأهل السماء، وجعل أهل بيتي أمــاناً لأهــل الأرض».

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

وبعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وتناهي حكمته ، والتـفرُد بخلق ما عدد من مبدعاته ، أنكر عبادة المشركين الأصنام، فقال: ﴿ افْفَنْ يَخْلُقُ كَمَن لاَيكْلُقُ﴾ يعني: كيف يساوي ويستحقّ مشاركته ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك، بل على إيجاد شيء ما.

والمراد ب«من لا يخلق» كلّ ما عبد من دون الله، سواء كان من أولي العلم أم لا. فغلّب أولو العلم على غيرهم لشرافتهم.

أو المراد به الأصنام، فجيء برسمن الذي لأولي العلم، إمّا لأنّهم ستوها آلهة وعبدوها، فأجروها مجرى أولي العلم. ألا ترى إلى قبوله عبلى أشره: «واللّذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون». وإمّا للمشاكلة بينه وبين «من يخلق». وإمّا للتنبيه على أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده؟!

وكان حقّ الكلام: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟ لأنّه إلزام للّذين عبدوا الأوثان، وسمّوها آلهة تشبيهاً بالله. فجعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حقّ الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكنّه عكس تنبيهاً على أنّهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، وسرّوا بينه وبينه. فقد جعلوا

الله من جنس المخلوقات، شبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: «أفمن يخلق كمن لا يخلق»، أي: أجعلتموه من جنس المخلوقات العجزة وشبّهتموه بها؟

﴿ أَفَلَا تَذَكُّرُونَ﴾ أفلا تتذكّرون أيّها المشركون، فتعرفوا فساد ذلك؟! فمإنّه لجلائه كالّذي حصل عند العقل بأدني نذكّر والتفات.

وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةُ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ٓ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

ولمّا عدّد النعم وألزم الحجّة على تفرّده باستحقاق العبادة . نبّه العباد على أنّ ما وراء ما عدّد نعماً لا تنحصر، فحقّ عبادته غير مقدور . فقال: ﴿ وَإِن تَغَذُّوا بَغْفَةَ اللهِ ﴾ وإن أردتم تعداد نعم الله عليكم ومعرفة تفاصيلها ﴿ لاَ تُخصُوهَا ﴾ لا تضبطوا عددها، ولم يمكنكم إقصاؤها، ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطيقوا القيام بشكرها ﴿ إِنَّ اللهُ لَقَفُورٌ ﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكرها ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لا يقطعها لتفريطكم فيه، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

ولمّا قدّم سبحانه الدعاء إلى عبادته بذكر نعمه وكمال قدرته، عقّبه ببيان علمه بسريرة كلّ أحد وعلانيته، فقال: ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسُؤُونُ وَمَا تُعْلِنُونُ﴾ من عقائدكم وأعمالكم، فيجازيكم على حسبهما، إذ لا يخفى عليه الجليّ والخفيّ من أحوالكم. وهذا وعيد للكافر الكفور، وتزييف للشرك باعتبار العلم.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمُواتْ غَيْرُ أَخْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

ولمّا نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق، يتن أنّهم لا يخلقون شيئاً. لينتج أنّهم لا يشاركونه، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي: والآلهة الّـذين يعبدونهم من دونه. وقرأ عاصم ويعقوب بالياء. ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً ﴾ فكيف يجوز أن يكونوا شركاء لله في الألوهيّة؟!

ثمّ أكّد ذلك بأن أثبت لهم صفات تنافي الألوهيّة، فقال: ﴿ وَهُمْ يُسْخَلَقُونَ ﴾ لانّها ذوات ممكنة مفتقرة الوجود إلى التخليق، والإلْه ينبغي أن يكون واجب الوجود.

﴿ أَمْوَاتُ﴾ هم أموات لا تعتريهم الحياة، أو أموات حالاً أو مآلاً ﴿ غَيْرُ الْحَيْرَةِ بِاللّذَات لِيعتريه الْحَيْرَةِ بِاللّذَات لِيعتريه الممات ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ولا يعلمون وقت بعث عبدتهم، وفيه تهكم بالمشركين، وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم؟! والأله ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب، مقدراً للثواب والمقاب، وفيه تنبيه على أنّ البعث من توابع التكليف، فإنّه لابدّ للتكليف من الجزاء، وهو بعد العث.

الِهَكُمُ الِله وَاحد فَالَذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُنكِرَةٌ وَهُم مُسْتَكُبْرُونَ ﴿٢٢﴾ لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يُعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُ الْمُسْنَكُبرِينَ ﴿٢٢﴾

ولمّا أقام الله سبحانه الحجج على بطلان الشرك والشركاء، ذكر المدّعي وهو الوحدانيّة، فقال: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَهُ وَاجِدُ﴾ . ثمّ بين ما اقتضى إصرارهم على الشرك بعد وضوح الحقّ، من عدم إيمانهم بالآخرة، فقال: ﴿فَالَّذِينَ لا يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ جاحدة للحقّ، مستبعدة لما يرد عليها من المواعظ ﴿وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الانقياد للحقّ، دافعون له من غير حجّة، فإنّ المؤمن بالآخرة يكون طالباً للدلائل، متأمّلاً فيما يسمع، فينتفع به، والكافر بها يكون حاله بالعكس. يعني: أنكرت قلوبهم ما لا يعرف إلّا بالبرهان، اتّباعاً للأسلاف، وركوناً إلى المألوف، فإنّه ينافي النظر، واستكبرت عن اتّباع الرسول وتصديقه، والالتفات إلى قوله، والأوّل هو العمدة في هذا الباب، ولذلك رتّب عليه الآخرين.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقّاً ﴿ أَنَّ اللهُ يَطْلُمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُطْلِنُونَ﴾ فيجازيهم. وهو ني موضع الرفع به «جرم»، لأنّه فعل أو مصدر. ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْـمُسْتَكْبِوِينَ ﴾ فضلاً عن الذين استكبروا عن توحيده أو اتباع رسوله.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنِّلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لَيَحْمَلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامَلَةً قِيمَ الْقَيَامَة وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءً مَا يَرْرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدُ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلَهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْفَوَاعِد فَخَرَ عَلَيْهِمُ السَّعْفُ مِن الْفَوَاعِد فَخَرَ عَلَيْهِمُ السَّعْفُ مِن فُوقِهِمْ وَأَنَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ عَلَيْهِمُ السَّعْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَنَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ عَلَيْهِمُ الْقَيَامَة يُخْرِهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرِكَاتِي الّذِينَ كُتُنَمُ تُشَاقُونَ فِيهِمْ قَالَ الّذِينَ أَوْدَالُهُمُ أَلْوَالْ الْذِينَ أَلُونُونَ ﴿٢٧﴾ الذينَ تَوَفَّاهُمُ أُونُواْ الْعُلْمَ إِنَّ الْخُرْيَ الْبُونَ وَلِهُمْ وَالسُّوَءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الذينَ تَوَفَّاهُمُ

الْمَلَآئِكَةُ ظَالِمِيَ أَنفُسِهِمْ فَأَلَقُواْ السَّلَمَ مَا كُمَّا نَعْمَلُ مِن سُوَءٍ بَلَىّ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ فَادْخُلُواْ أَبُوابَ جَهَنَمَ خَالِدِينَ فَيِهَا فَلَبِنْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ ٢٩ ﴾

ثمّ أبان سبحانه عن أحوال المشركين وأقوالهم، فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَاذَا النَّرُلُ رَبُّكُمُ ﴾ القائل بعضهم على التهكّم، أو الوافدون عليهم، أو المسلمون. و«ماذا» إما منصوب بدأنزل بعضه، أي شيء أنزل ربّكم؟ أو مرفوع بالابتداء، بمعنى: اي شيء أنزله ربّكم؟ فإذا نصبت فعنى قوله: ﴿ قَالُوا اَسَاطِيرُ الْأَوْلِينَ ﴾ : ما تـدّعون نزوله أساطير الأوّلين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأوّلين، وإنما سعّوه منزلاً على التهكّم، أو على فرض أنّه منزل فهو أساطير الأولين لا تحقيق فيه. والقائلون قيل: هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكّة ينقّرون عن رسول الله والما أما وود الحاج عمّا أنزل على رسول الله قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم.

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ اللام للعاقبة. والمعنى: كمان عماقبة أمرهم إذا فعلوا ذلك أن حملوا أوزار ضلالهم تامّة، فإنّ إضلالهم نتيجة رسوخهم في الضلال.

﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُصْلُونَهُمْ ﴾ وبعض أوزار ضلال من يضلّونهم، وهو حصّة التسبّب، يعني: حملوا أوزار إضلالهم وإغوائهم، ولم يحملوا أوزار ضلالهم.

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حال من المفعول، أي: يضلّون من لا يعلم أنّهم ضلّال. وإنّما وصف بالضلال من لا يعلم، لأنّه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميّز بـين المحقّ والمبطل.

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بئس شيئاً يزرونه فعلهم. عن النبيُّ ﷺ: «أيُّـما داع

دعا إلى الهدى فاتّبع، فله مثل أجورهم، من غير أن ينقص من أجـورهم شـي.. وأيّما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتّبع عليه، فإنّ عليه مثل أوزار من اتّبعه، من غـير أن ينقص من أوزارهم شيء».

﴿ قَدْ مَكَنَ النَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمَ ﴾ أي: جعلوا وسائل ليمكروا بها رسل الله ﴿ قَانَى النهُ
بُنْيَانَهُمْ مِنَ القَوَاعِدِ ﴾ فأتاها أمره من جهة اساطين البناء الَّتي بنوا عليها، بأن
ضعضعت ﴿ فَخَرُ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن قَوْقِهِمْ ﴾ وصار سبب هلاكهم ﴿ وَأَتَاهُمُ الْفَذَابُ مِنْ
حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ لا يحتسبون ولا يتوقعون. وهو على سبيل التمثيل لاستئصالهم.
والمعنى: أنّهم سوّوا منصوبات ليمكروا رسل الله بها، فجعل الله هلاكهم في تلك
المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فأتى البنيان من الأساطين،
بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا.

وعن ابن عبّاس: المراد به نمرود بن كنعان، بنى الصرح ببابل، سمكه خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها بزعمه، أو ليترصد أمر السماء، فأهبّ الله الربح فخرّ عليه وعلى قومه فهلكوا. وقيل: ألقت رأس الصرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي. والأوّل أليق، وأفيد للمعموم، وأليق بكلام العرب، كما قالوا: أتي فلان من مأمنه، أي: أتاه الهلاك من جهة مأمنه. وذكر الفوق مع حصول العلم بأنّ السقف لا يكون إلّا من فوق للتأكيد، كما يقال: مشبت برجلى، وتكلّمت بلساني.

﴿ ثُمُّ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُخْرِيهِمْ ﴾ ثمّ يذلّهم أو يعذّبهم بالنار، كقوله: ﴿ رَبُّنَا إِنَّكَ مَنْ
تُنْخِلِ النَّارَ فَقَدْ الْخَرْيَقَةُ ﴾ (١٠) ﴿ وَيَقُولُ ﴾ على سبيل التوبيخ لهـ م والتهجين ﴿ أَيْنَ
شُرَكَآئِيَ النِّينَ كُنْتُمْ ﴾ تشركونهم معي في العبادة. فأضاف إلى نفسه استهزاءً، أو
حكاية لإضافتهم زيادة في توبيخهم. وقرأ البرّي بخلاف عنه: أين شركاي بغير

⁽١) آل عمران: ١٩٢.

همزة، والباقون بالهمز. ﴿ تُشَاقُونَ فِيهِمْ ﴾ تعادون المؤمنين في شأنهم. وقرأ نافع بكسر النون، بمعنى: تشاقونني، فإنّ مشاقة المؤمنين كمشاقة الله.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: الأنبياء أو العلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد، فيشاقونهم وينكرون عليهم، أو العلائكة ﴿إِنَّ الْجَزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوَءَ﴾ الذلّة والعذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وفائدة قولهم إظهار الشماتة بهم، وزيادة الإهمائة. وحكايته لأن يكون لطفاً لين سمعه.

﴿الَّذِينَ تَتَوَقَّاهُمُ الْمَلَاتِكَةُ﴾ وقرأ حمزة بالياء. وموضع الموصول يمحتمل الأوجه الثلاثة. ﴿فَالَقِمِ الْفُسِهِمُ﴾ بأن عرّضوها للعذاب المخلّد ﴿فَالَقُوا السَّلَمُ﴾ فساستعمل في فسالموا وأخبتوا حين عاينوا الموت. وأصل الإلقاء في الأجسام، فاستعمل في إظهارهم الانقياد، إشعاراً بغاية خضوعهم واستكانتهم، وأنّها كالشيء الملقى بين يدي الغالب القاهر، قائلين: ﴿مَا كُنَّا مَعْمَلُ مِن سُوّمٍ﴾ كفر وعدوان، فجاءوا بخلاف ماكانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر، ويجوز أن يكون تفسيراً للسلم، على أنّ المراد به القول الدال على الاستسلام.

﴿بَلَىٰ﴾ أي: فتجيبهم الملائكة بلى ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَـَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي، فهو يجازيكم عليه.

وقيل: قوله: «فألقوا السلم... إلغ» استئناف ورجوع إلى شرح حالهم يوم القيامة. وعلى هذا أوّل من لم يجوّز الكذب يومئذ «ما كنّا نعمل من سوء» بأنّا لم نكن في زعمنا واعتقادنا فاعلين سوءً. واحتمل أن يكون الرادّ عليهم هو الله أو أولوا العلم. وهذا أيضاً من الشماتة. وكذلك ﴿فانخُلُوا أَيُوَابُ جَهَنَمُ ﴾ كلّ صنف بابها المعدّ له. وقيل: أبواب جهنّم طبقات جهنّم ودركاتها المتضمّنة أصناف عذابها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْنُسُ ﴾ جهنّم ﴿مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ ﴾ المتعظّمين عن قبول الحقّ. واللام للتأكيد.

وَقِيلَ للَّذِينَ اَتَقُواْ مَاذاآ أَنَوَلَ رَبِّكُمُ قَالُواْ خَيْرًا لَّلَذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنَيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَيْعُمَ دَارُ الْمُتَقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَاتُ عَدُنَ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشْاَؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَقِينَ ﴿٣١﴾ الذَيْنَ تَتُوفَاهُمُ الْمَلَاثِكَةُ طَيِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَةَ بِمَا كُنتُمُ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

ولمّا قدّم سبحانه ذكر أقوال الكافرين فيما أنزل على نبيّه ﷺ عقبه بذكر أقوال المؤمنين في ذلك ، فقال : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتّقَوْا ﴾ يعني : المؤمنين ﴿ مَاذَا أَسْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً ﴾ أي: أنزل خيراً. وفي نصبه دليل على أنّهم لم يتلعنموا(١) في الجواب، وأطبقوه على السؤال، معترفين بالإنزال، على خلاف الكفرة، فصلاً بين جواب المقرّ وجواب الجاحد. فهؤلاء أطبقوا الجواب على السؤال فقالوا: خيراً، أي: أنزل خيراً. وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء.

روي أنَّ أحياء العرب كانوا يبعثون أيّام الموسم من يأتيهم بخبر النبيَّ ﷺ. فإذا جاء الوافد المقتسمين قالوا له ما قـالوا، وإذا جـاء المـؤمنين قـالوا له ذلك. فيخبرونه بصدقه وأنّه نبىّ مبعوث. فهم الذين قالوا خيراً.

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ مكافأة في الدنيا ﴿ وَلَـدَارُ الْآخِرَةِ

⁽١) أي: لم يتوقَّفوا ولم يتانُّوا. يقال: تلعثم في الأمر، أي: توقَّف فيه وتانَّمي.

خَيْرُ﴾ أي: ولثوابهم في الآخرة خير منها. وهو وعد للذين اتّقوا على قولهم خيراً. ويجوز أن يكون «للّذين أحسنوا» وما بعده حكاية لقولهم، بدلاً وتفسيراً لـ«خيراً». على أنّه منتصب بـ«قالوا». ﴿ وَلَـنِعْمَ دَارُ الْـمُثّقِينَ﴾ دار الآخــرة. فـحذفت لتـقدّم ذكرها.

وقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنِ ﴾ خبر مبتدأ محدوف. ويجوز أن يكون السخصوص بالمدح ﴿ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْقِهَا الأَنْهَالُ لَهُمْ فِيهَا مَا يُشَاعُونَ ﴾ من أنواع المشتهيات. وفي تقديم الظرف تنبيه على أنّ الانسان لا يجد جميع ما يريده إلّا في الحنّة.

﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل هذا الجزاء ﴿ يَجْزِي الله السُمُتَقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ السَمَاذِئَةُ طَيْبِينَ ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي، لأنّه في مقابلة ظالمي أنفسهم. وقيل: فرحين ببشارة الملآئكة إيّاهم بالجنّة. أو طيّبين بقبض أرواحهم، لتوجّه نفوسهم بالكليّة إلى حضرة القدس.

﴿ يَقُولُونَ سَلَامُ عَلَيْكُمُ﴾ لا يحيقكم بعد مكروه ﴿ انْخُلُوا الْجَنَّةُ بِمَا كُنْتُمُ تَعْمَلُونَ﴾ إنّما يقولون ذلك لهم عند خروجهم من قبورهم. وقيل: إذا أشرف العبد على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليّ الله، الله يقرئك السلام ويبشّرك بالجنّة.

هَلْ يَنظُرُونَ اِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلَآتِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمُرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُواَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيْنَاتُ مَا عَملُواْ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴿٣٤﴾ سورة النحل، آية ٣٥٠٠٠ المام المام النحل. آية ٣٥

ثم أشار إلى توعيد الكفّار، فقال: ﴿ مَنْ يَنْفُرُونَ ﴾ ما ينتظر الكفّار المارّ ذكرهم ﴿ إِلَّا أَنْ تَافِيَهُمُ الْمُقَانِكَةُ ﴾ لقبض أرواحهم. وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿ أَوْ يَاتِيَ أَمْوُ رَبِّكَ ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فأصابهم ما أصابوا ﴿ وَمَنا ظَلَمَهُمُ اللهُ ﴾ بتدميرهم ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدّية إليه.

﴿ فَاصَابَهُمْ سَيِّدُاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أي: جزاء سيتات أعمالهم، على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها، كما قال: ﴿ وَجَزَاؤَا سَيِّنَةٍ سَيِّنَةً مِثْلُهَا ﴾ (١) ﴿ وَجَزَاؤُه، والحيق لا يستعمل إلّا في الشرّ. الشرّ.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشُوكُواْ اَوْ شَآءَ اللّهُ مَا عَبَدُنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ اَبَاقَوْنَا وَلاَ حَرَّمُنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ اِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

ثمّ عاد إلى حكاية قول المشركين، فقال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اَشْوَكُوا ﴾ مع الله إلهاً آخر ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبْدْنَا مِن دُونِهِ مِنْ شَيءٍ ﴾ من الأصنام وغيرها ﴿ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا ﴾ الّذين اقتدينا بهم ﴿ وَلا حَرْمَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بل شاء منّا، وأراد فعلنا. وهذا القول من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم، من شركهم بالله وإنكار وحداثيته بعد قيام الحجج، وإنكار البعث، واستهزائهم به، وتكذيبهم الرسول،

⁽١) الشورى: ٤٠.

وشقاقهم واستكبارهم عن قبول الحق. يعني: أنّهم أشركوا بالله. وحرّموا ما أحلّ الله من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثمّ نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل. وهذا مذهب المجبّرة بعينه.

﴿ فَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فأشركوا بالله، وحرّموا حلّه، وردّوا رسله.

ثمّ أنكر سبحانه هذا القول عليهم، فقال: ﴿فَهَلَ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَائِخُ الْمُبِينُ﴾ إلاّ أن يبلغوا الحقّ بالبرهان والبيان، ويطلعوهم على بطلان الشرك وقبحه، وأنّ الله لا يشاء الشرك والمعاصي منهم، وعلى براءة الله من أفعال العباد، وأنّهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، والله باعثهم على جميلها، وموفّقهم وزاجرهم عسن قبيحها، وموعدهم عليه.

وَلَقَدُ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَبُواْ الطَّاغُوتَ فَيْنُهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ النُّكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

ثمّ بين أنَّ بعثة الرسل أمر جرت به السنّة الإلهيّة في الأمم كلّها. سبباً لهداية من استرشد واستهدى، وزيادة لضلالة من عاند واستهدى، كالغذاء الصالح، فبإنّه ينفع العزاج السويّ ويقوّيه، ويضرّ المنحرف ويفنيه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ بَ عَثْنَا فِي كُلّ أَيْهَ كُلّ جماعة وقرن ﴿ رَسُولاً﴾ كما بعثناك على أُستك ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللهُ لِيقول لهم: اعبدوا الله ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاعُونَ ﴾ أي: عبادة الشيطان وكلّ داعٍ يدعو إلى الضلالة.

سورة النحل، آية ٣٧٣٧

﴿ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى الله ﴾ وفقهم للإيمان بإرشادهم، لاسترشادهم. أو هداهم الله إلى طريق الجنّة. ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أي: من أعرض عمّا دعا إليه الرسول عناداً وانهماكاً في الجحود، مع وضوح الحقّ عليه، فخذله وخلاه، فنبتت عليه الضلالة ولزمته. أو حقّت عليه عقوبة الضلالة. فسمّى الله العقاب ضلالاً، كقوله: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِهِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (١٠).

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرض المكذّبين يا معشر قريش إن لم تصدّقوني ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَهُ الْمُكَذّبِينَ﴾ من عاد وثمود وغيرهم، لعلّكم تعتبرون كيف حقّت عليهم العقوبة وحلّت بهم، حتى لا يبقى لكم شبهة في أنّي لا أقدّر الشرّ ولا الإساءة حيث أفعل بالأشرار.

إِن تَحْرِصُ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّنِ نَّاصرِينَ ﴿٣٧﴾

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله على إيمانهم، فقال: ﴿إِن تَـخْوِضُ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ على أن يـؤمنوا بك ﴿فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي﴾ لا يـوفّق ﴿مَن يُحْمِلُ﴾ ولا يلطف بمن يخذل، أي: يريد ضلاله ويخلّيه، لانهماكه في الكفر وتصميمه على العناد، لأنّ اللطف في حقّه عبث، والله متعالٍ عن العبث، لأنّه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه. وقرأ غير الكوفيّين: لا يُهْدَىٰ، عـلى البناء للمفعول. وهو أبلغ.

﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ فَاصِوِينَ﴾ من ينصر هم بدفع العذاب عنهم. وهذا دليل على أنَّ المراد بالضلال الخذلان الَّذي هو نقيض النصرة.

⁽١) القمر: ٤٧.

وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْنَاهِمْ لاَ يُبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلِكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيَبَيْنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُتَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن تَعُولَ لَهُ كُن فَيْكُونُ ﴿٤٤﴾

روي: أنّه كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، فوقع في كلامه: والّذي أرجوه بعد الموت أنّه لكذا وكذا. فقال المشرك: إنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت، وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فنزلت: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِ ﴾ حلفوا بالله مجتهدين في أيمانهم. والمعنى: بلغوا في القسم كلّ مبلغ. ﴿ لا يَبِيْعُ ثَاللهُ لا يحيي ﴿ مَنْ يَمُوتُ ﴾ عطف ذلك على «وقال الّذين أشركوا» إيذاناً بأنّهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين عليه، زيادة في البتّ على فساده،

فرد الله عليهم أبلغ ردّ، فقال: ﴿ بَلَنَى ﴾ يبعثهم ﴿ وَعَدا ﴾ مصدر مؤكّد لنفسه، أي: وعدكم البعث والجزاء وعداً واجباً ﴿ عَلَيْهِ ﴾ إنجازه، لامتناع الخلف في وعده، أو لأنّ البعث مقتضى حكمته ﴿ حَقاً ﴾ صفة أخرى للوعد، أي: وعداً ثابتاً عند الله ﴿ وَلَٰكِنَّ النَّاسِ لَا يَسْفَلُمُونَ ﴾ أنّهم يبعثون، إمّا لعدم علمهم بأنّه من مواجب الحكمة الّتي جرت عادته بمراعاتها، وإمّا لقصور نظرهم بالمألوف، فيتوهّمون امتناعه.

ثمّ إنّه تعالى بيّن الأمرين فقال: ﴿لِيثِينَنَ نَهُمُ﴾ أي: يبعثهم ليبيّن لهم ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهموالحقّ ﴿وَلِينَالُمَ اللَّهِ عَنْهُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَانْبِينَ﴾ فيما كانوا يزعمون. وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البحث، المقتضي له من

حيث الحكمة. وهو المعيّر بين الحقّ والباطل، والمحقّ والمبطل، بالثواب والعقاب.

ثمّ قال بياناً لإمكانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَمْعِ إِنَا أَرْدَنَاهُ ﴾ أي: إذا أردنا وجوده، فليس إلا ﴿أَن نَقُولُ لَهُ كُنْ قَيْكُونُ ﴾ أي: احدث فيحدث ذلك بلا توقّف. وهذا مثل في أنّ مراد الله لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته مثل وجود المأمور به عند أمر الامطاع إذا ورد على المأمور العطيع المتمثّل، ولا قول هناك. والمحنى: أنّ إيجاد كلّ مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شقّ المقدورات؟!

وتقرير البيان أنَّ تكوين الله بمحض قدرته ومشيئته لا توقّف له على سبق الموادّ والمدد وإلّا لزم التسلسل، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداءً بلا سبق مادّة ومثال، أمكن له تكوينها إعادة بعده.

ونصب ابن عامر والكسائي «فَيَكُونَ» هاهنا وفي يس(١١، عطفاً على «نَقُولَ»، أو جواباً للأمر.

وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي الله مِن بَعْدِ مَا ظُلْمُواْ لَنَبَوَّتَنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِهِمْ يَوَكُونَ ﴿٤٢﴾

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ والَّذين فارقوا أوطانهم وديارهم وأهلهم فـراراً بـدينهم واتّباعاً لنبيّهم ﴿ فِي اللهِ ﴾ في حقّه ولوجهه خالصاً ﴿ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ ما ظلمهم

⁽۱) يىن: ۸۲.

المشركون وعذّبوهم بمكّة. وهم رسول الله وأصحابه المهاجرون، ظلمهم قـريش ففرّوا بدينهم إلى الله، منهم من هـاجر إلى الحـبشة ثـمّ إلى المـدينة فـجمع بـين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة.

وقيل: هم الذين كانوا متحبوسين معذّبين بمكّة بعد هجرة رسول الله ﷺ . وكلّماخرجوا تبعوهم فردّوهم، منهم بلال وصهيب وخباب وعمّار وعـابس وأبــو جندل وسهيل.

وقوله: ﴿ لَنَنُوفَنَقُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةُ ﴾ صفة للمصدر، أي: تبوئة حسنة. وقيل: مباءة حسنة. وقيل: مباءة حسنة. وهي المدينة، حيث آواهم أهلها ونصروهم، وعلى النزليهم في الدنيا منزلة حسنة، وهي الغلبة على أهل مكّة الّذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب.

﴿ وَثَلْجُرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ متا يعجّل لهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَطْلُمُونَ ﴾ الضمير للكفّار ، أي: لو علموا أنّ الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافـقوهم. أو للمهاجرين ، أي: لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ منصوب المحلّ أو مرفوعه على المدح، تقديره: أعني اللذين، أو هم اللذين صبروا على الشدائد، كأذى الكفرة، ومفارقة الوطن اللذي هو حرم الله المحبوب في كلّ قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم؟! وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله. ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكّلُونَ ﴾ منقطعين إلى الله، مفوضين إليه الأمر كله.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن فَثْبِلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِيَ إِلْيُهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهُلَ الذَّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تُعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ بِالْبَيِنَاتِ وَالزُّهِرِ وَأَنزُلنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرِ لِثَبَيْنِ لِلنَّاسِ مَا نُزِلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَهُمْ يَنَفَكَّرُونَ ﴿ ٤٤﴾ أَفَامِنَ الَّذِينَ مَكُرُواْ السَّيَّاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿ ٥٠ ﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلِّهِمْ فَمَا هُم مِبْعُجزِينَ ﴿ ٤٦ ﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿ ٤٤ ﴾

روي أنّ قريش قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أو لا يرسل الله إلينا بشراً مثلنا، فنزلت: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ أي: جرت السنّة الإلهيّة بأن لا يبعث للدعوة العامّة إلّا بشراً يوحي إليه على ألسنة الملائكة، والحكمة في ذلك مذكورة في سورة الأنعام (١١، فإن شككتم فيه ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلُ الذَّهُر﴾ أهل الكتاب أو علماء الأحبار ليعلموكم ﴿ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وفي الآية دلالة على أنّه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكاً للدعوة العامّة. وأما قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ (٢) معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء. وقيل: لم يعثوا إلى الأنبياء إلّا متمثّلين بصورة الرجال. وردّ بما روي أنّه اللّي رأى جبر ئيل الله على صورته الّتي هو عليها مرّتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.

﴿ بِ الْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي: أرسلناهم بالبيّنات والزبر، أي: المعجزات والكتب، كأنّه جواب قائل قال: بم أرسلوا؟ ويجوز أن يتعلّق برها أرسلنا» داخلاً في الاستثناء مع «رجالاً»، أي: وما أرسلنا إلّا رجالاً بالبيّنات، كقولك: ما ضربت

⁽۱) راجع ج۲ ص ۳٦٣.

⁽٢) فاطر: ١.

٥٦٨ زيدة التفاسير ـ ج ٣

إلا زيداً بالسوط، لأنّ اصله: ضربت زيداً بالسوط، أو صفة لهم، أي: رجالاً ملتبسين بالبيّنات. أو ب«نوحي» على المفعوليّة، أو الحال من القائم مقام فاعله. وعلى هذه الوجوه قوله: «فاسألوا أهْلَ الذِّكْر» اعتراض. أو ب«لا تعلمون» على أن الشرط للإلزام والتبكيت.

﴿ وَانْزَلْنَا إِلْيَكَ الدُّحْرَ﴾ أي: القرآن. وإنّما سمّي ذكراً لأنّه موعظة وتنبيه للفافلين. ﴿ لِنَبْئِينَ لِلنَّاسِ مَا نُؤَلَ إِلَى فِهِمْ ﴾ في الذكر بتوسّط إنزاله إليك ممّا أمروا به ونهوا عنه، أو ممّا يتشابه عليهم. والتبيين أعمّ من أن ينصّ بالمقصود، أو يرشد إلى ما يدلّ عليه، كالقياس المنصوص العلّة ودليل العقل. ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وإرادة أن يتأمّلوا فيه فيتنبّهوا للحقائق. وفي هذا دلالة على أنّ الله تعالى أراد من جميعهم التفكّر والنظر المؤدّي إلى المعرفة، بخلاف ما يقوله أهل الجبر.

﴿ أَفَامِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّنَاتِ﴾ أي: المكرات السيّئات. وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء، أو الذين مكروا رسول الله، ودبّروا التدابير في إطفاء نور الاسلام وإيذاء المؤمنين، وراموا صدّ أصحابه عن الإيمان. ﴿ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ كما خسف بقارون ﴿ أَوْ يَاتِيْهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بغتة من جانب السماء، كما فعل بقوم لوط. قال ابن عبّاس: يعني يوم بدر، وذلك أنّهم أهلكوا يوم بدر، وما كانوا يقدّرون ذلك ولا يتوقّعونه.

﴿ أَوْ يَاٰخُذُهُمْ فِي تَقَلِّبِهِمْ ﴾ أي: منقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم. وهو خلاف قوله: «من حيث لا يشعرون». ﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ .

﴿ أَوْ يَالْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ على مخافة بأن يهلك قــوماً قـبلهم، فـيتخوّفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوّفون ومتوقّعون. أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء فــي أنفسهم وأموالهم حتّى يهلكوا. من: تخوّفته إذا تنقّصته. روي أنّ عمر قــال عــلى المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا. فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التــخوّف:

التنقّص. فقال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوّف الرحل منها تـــامِكاً قــرداً كما تخوّف عُودَ النَبعةِ^(١) السَّــفَنُ فقال: عليكم بديوانكم لا تضلّوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجــاهليّة، فإنّ فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

أُو لَمْ يَرُواْ الِمَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٌ يَفَتَيَأُ طَلِاللّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَا َلْلِ سُجَّدًا لِلهِ وَهُمُ دَاخِرُونَ ﴿ ٤٨﴾ وَلِله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَةٍ وَالْمَلَاثِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبَرُونَ ﴿ ٤١﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِمْ وَيْفْعُلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿ ٥٠﴾

﴿ فَإِنَّ رَبُّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة مع استحقاقكم.

ثمّ بين دلائل قدرته، فقال: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ﴾ أو لم ينظر هؤلاء الكفّار الذين جحدوا وحدانيّته وكذّبوا نبيّه. والهمزة للإنكار، أي: قد رأو أمثال هذه الصنائع، فما بالهم لم يتفكّروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فسخافوا منه؟! و«ما» موصولة مبهمة بيانها.

﴿ مِنْ شَيْءٍ يَتَقَيَّوْا ظِلَالُهُ ﴾ أي: أولم ينظروا إلى المخلوقات الَّتي لها ظلال

⁽١) في هامش النسخة الخطية: «النبعة: الشجرة الذي تتّخذ منها أخشاب القوس، منه». والتامك: سنام البعير المرتفع، والقرد: الذي أكله القراد من كثرة أسفارها. والسّفن: العبرد الحديد الذي ينحت به الخشب، والمعنى: تنقّص رحلها سنامها المرتفع الذي تنقب من كثرة السفر، كما تنقّص المبرد عود النبعة.

متفيّتة ؟! وقرأ حمزة والكسائي: تروا بالتاء، وأبو عمرو: تتفيّق بالتاء، ﴿ عَنِ النّبِينِ وَالشّمَآئِلِ ﴾ عن أيمانها وشمائلها، أي: عن جانبي كلّ واحد منها وشقيه، استعارة من يمين الانسان وشماله، ولعلّ توحيد السمين وجمع الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى، فإنّ «من شيء» في معنى: ما خلق الله من كلّ شيء، فيكون جمعاً معنى، كتوحيد الضمير في «ظلاله» وجمعه في قوله: ﴿ سُجَّداً بِنهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ ﴾ وهما حالان من الضمير في «ظلاله».

والمراد من السجود الاستسلام، سواء كان بالطبع أو الاختيار. يقال: سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل، وسجد البعير إذا طأطاً رأسه ليركب.

ويحتمل أن يكون «سجّداً» حالاً من الظلال، و«هم داخرون» حالاً من الضمير في «ظلاله»، لأنّه بمعنى الجمع كما عرفت آنفاً. والمعنى: يرجع الظلال ابارتفاع الشمس وانحدارها، أو باختلاف مشارقها ومغاربها، بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب، منقادة لما قدّر لها من التفيّق، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد، والأجرام في أنفسها أيضاً داخرة، أي: صاغرة منقادة لافعال الله فيها. وجمع «داخرون» بالواو لأنّ من جملتها من يعقل فغلب، أو لأنّ الدخور من أوصاف العقلاء.

وقيل: المراد باليمين والشمائل يسمين الفلك، وهو جانبه الشرقي، لأنّ الكواكب تظهر منه آخذة في الارتفاع والسطوع، وشسماله وهو الجانب الفربي المقابل له، فإنّ الظلال في أوّل النهار تبتدىء من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض، وعند الزوال تبتدىء من المغرب واقعة على الربع الشرقي من الأرض، جنّت قدرته وعظمته.

وعن الكلبي: معنى تفيّوُ الظلال يميناً وشمالاً: أنّ الشمس إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة كان الظلّ قدّامك، وإذا ارتفعت كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك

كان خلفك، وإذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك، فهذا تفيَّوه عن اليمين والشمال.

وقد نبّه الله تعالى بهذه الآية على أنّ جميع الأشياء تخضع له، بما فيها من الدلالة على الحاجة إلى خالقها ومدبّرها، بما لولاه لبطلت ولم يكن لها قوام طرفة عين، فهي في ذلك كالساجد من العباد بفعله الخاضع الذليل، ولهذا قال: ﴿ وَيَشِهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمُوْاتِ وَمَا فِي الرَّرْضِ ﴾ أي: ينقاد انقياداً يعمّ الانقياد لإرادته وتأثيره طبعاً، والانقياد لتكليفه وأمره طوعاً، ليصحّ إسناده إلى عامّة أهل السماوات والأرض.

وقوله: ﴿ مِنْ دَآبَةٍ ﴾ بيان لما في السماوات والأرض جميعاً، لأنّ الدبيب هو الحركة الجسمائيّة، سواء كان في أرض أو سماء. ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ عطف على المبيّن به عطف جبرئيل على الملائكة للتعظيم، أو عطف المجرّدات على الجسمائيّات. وبه احتجّ من قال: إنّ الملائكة أرواح مجرّدة.

أو بيان (١) إرها في الأرض». ويراد بما في السماوات الملائكة الساكنة فيها. وحينئذ و الملائكة» تكرير لما في السماوات، وتعيين له إجلالاً وتعظيماً، فائهم أعبد الخلائق. أو المراد بها ملائكتها من الحفظة وغيرهم. «وما» لمّا استعمل للعقلاء كما استعمل لغيرهم، كان استعماله حيث اجتمع القبيلان أولى من إطلاق «من» تغليباً للعقلاء. ﴿ وَهُمْ لا يَسْتَكَثِرُونَ ﴾ عن عبادته.

﴿ يَخَافُونَ رَبُّهُمْ مِنْ فَوَقِهِمْ ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم. وتخصيص هذه الجهة أنَّ أكثر العقاب المهلك إنّما يأتي من فوق. أو يخافونه وهو فوقهم، أي: قاهراً غالباً عالياً عليهم، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عَبَادِهِ ﴾ (٢) ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ

⁽١) عطف على قوله: بيان لما في السماوات والأرض، قبل أربعة أسطر.

⁽٢) الأنعام: ١٨.

قَاهِرُونَ﴾(١٠). وعلى الأوّل يتعلّق ب«يخافون». وعلى الشاني حال من «ربّهم». والجملة الفعليّة حال من الضمير في «لا يستكبرون»، أو بيان لنـفي الاسـتكبار وتقرير له، لأنّ من خاف الله لم يستكبر عن عبادته.

وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَحَذُواً الِمُمْنِ اثْنَيْنِ إَنْمَا هُوَ اِللّهِ وَاحِدٌ فَآيَايَ فَارُهَبُونِ ﴿ ٥٠ ﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَالأَرْض وَلَهُ الدّبِنُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللّه تَتَّوُنَ ﴿ ٥٠ ﴾ وَمَا بِكُم مِن نَعْمَة فَمِنَ اللّه ثُمَّ إِذَا مَسَكُمُ الضُّرُ فَإِلَيْهِ تَجُأَرُونَ ﴿ ٥٠ ﴾ وَمَا بِكُم مِن نَعْمَة فَمَنَ اللّه ثُمَّ إِذَا فَرِيقٌ مَنكُم بِرَهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿ ٥٠ ﴾ لَيكُفُرُواْ بِمَا آثَيْنَاهُمُ فَتَمَتَّوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ ٥٠ ﴾

ولمّا بيّن سبحانه دلائل قدرته وألوهيّته. عقّبه بالتنبيه على وحدانيّته، فقال: ﴿ وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُوا لِلْهَيْنِ الْفَنَيْنِ ﴾ ذكر العدد مع المعدود لم يجر في الاثنين

⁽١) الأعراف: ١٢٧.

والواحد، وإنّما يجري فيما عداهما، كقولك: رجال ثـلاثة وأفـراس أربعة، لأنّ المعدود فيما عداهما عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص، بخلاف رجل ورجلان، فإنّهما يدلّان على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد ورجلان اثنان، لكن ذكر هاهنا ليدلّ دلالة صريحة على أنّ المقصود نهى الاثنينيّة لا ذات المعدود.

أو إيماء بأنّ الاثنينيّة تنافي الألوهيّة، كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِنْمَا هُوَ إِلْهُ وَاجِدٌ﴾ للدلالة على أنّ المقصود إثبات الوحدائيّة دون الإلهيّة. ألا ترى أنّك لو قلت: إنّما هو إله، ولم تؤكّده بواحد، خيّل أنّك تثبت الإلهيّة لا الوحدائيّة الّتي قصدت قصدتها، فكذا إذا قلت: لا تتّخذوا إلهين بدون ذكر العدد، لخيل أنّك قصدت المعدود لا العدد، ولنّا شمّعتهما بذكر الاثنين دلّ دلالة صريحة على أنّ مقصودك نفى الاثنينية لا الجنسيّة، أو للتنبيه على أنّ الوحدة من لوازم الإلهيّة.

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ نقل من الغيبة إلى التكلّم مبالغة في الترهيب، وتصريحاً بالمقصود، فكأنّه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإيّاى فارهبون لا غير.

عن بعض الحكماء: أنّه قال: نهاك ربّك أن تتّخذ إلْهين فاتّخذت آلهة، عبدت نفسك وهواك ودنياك وطبعك ومرادك، وعبدت الخلق، فأنّى تكون موحّداً؟!

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً ﴿ وَلَـهُ الدَّينُ ﴾ أي: الطاعة ﴿ وَاصِباً ﴾ ثابتاً لازماً، لما تقرّر من أنّه الإله وحده، وأنّه الحقيق بأن يرهب منه. وقيل: واصباً من الوصب، أي: وله الدين ذا كلفة. وقيل: الدين الجزاء، أي: وله الجزاء دائماً، لا ينقطع ثوابه لمن آمن، وعقابه لمن كفر. وعلى التقادير، هو حال عمل فيه الظرف.

﴿ أَفَفَيْرَ اللهِ تَتَقُونَ ﴾ ولا ضار حقيقة سواه، كما لا نافع غيره، كما قال: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ وأيّ شيء اتّصل بكم من نعمة فهو من الله. و «ما» شرطيّة، أو موصولة متضمّنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإنّ استقرار النعمة ۵۷٤ زيدة التفاسير ـ ج ٣

لهم يكون سبباً للإخبار بأنّها من الله لا لحصولها منه.

﴿ ثُمُّ إِذَا مَسْتُكُمُ الضُّرُّ﴾ من المرض وسائر الشدائد ﴿ فَإِلَيْهِ شَجْنَزُونَ﴾ فـما تتضرّعون إلّا إليه. والجؤار رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة.

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وهم كفّاركم.

﴿لِيَكَفُرُوا﴾ بعبادة غيره. هذا إذا كان الخطاب في قوله: «وما بكم من نعمة فمن الله... إلخ» عامّاً. فإن كان خاصًا بالمشركين كان «من» للبيان، كأنّه قال: وإذا فريق منهم وهم أنتم. ويحتمل أن يكون للتبعيض، على أن يعتبر بعضهم الذي كان أشدً عناداً منهم، كقوله: ﴿ فَلَمَا نَجَاهُمْ إِلَىٰ النّبُرّ قَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ (١١).

﴿ بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنّهم قصدوا بكفرهم كفران النعمة. أو إنكار كونها من الله و اللام للعلّة، أي: جعلوا غرضهم من الشرك كفران النعمة. ويجوز أن يكون للأمر تخلية وخذلاناً، كقوله: ﴿فَتَنَقَعُوا﴾ فإنّه أمر تهديد ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحلّ بكم في العاقبة من العقاب وأليم العذاب. حذف المفول لدلالة الكلام عليه، وهذا أغلظ وعيد.

وَيَجْمَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مَمَّا رَزُقْنَاهُمْ ثَاللّهِ لَتُسْأَلْنَ عَمَّا كُمُّتُمْ

تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْمَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبُحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا

بُشْرَ أَحَدُهُمْ بِالْأَشَى ظَلَّ وَجُهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٥﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ

مِن سُوِّ مَا بُشِرَ بِهِ أَيْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُهُ فِي التَّرَابِ أَلاَ سَآءَ مَا

⁽١) لقمان: ٣٢.

يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيرُ الْحَكيمُ ﴿٦٠﴾

ثم ذكر سبحانه فعلاً آخر من أفعال المشركين دالاً على جهلهم، فقال:

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لآلهتهم الّتي لا علم لها، لأنها جماد، فيكون الضمير لرها». أو الّتي لا يعلمونها، فيعتقدون فيها جهالات، مثل أنّها تنفعهم وتشفع لهم عند الله، وليس كذلك، فإنّ حقيقتها أنّها جماد لا يضرّ ولا ينفع، فهم إذاً جاهلون بها، على أنّ العائد إلى رسا» محذوف. أو لجهلهم، على أنّ رسا» مصدريّة، والمجعول له محذوف للعلم به. ﴿ نَصِيبِا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من زروعهم وأنعامهم، وهي لا تشعر بذلك.

ثمّ أوعدهم الله بذلك، فقال تأكيداً للوعيد: ﴿ تَاللَّهِ لَـنُسُأَلُنَّ ﴾ في الآخـرة ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ تكذبون في الدنيا من أنّها آلهة حقيقة بالنقرّب إليها.

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم فقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ بِثْهِ الْبَنَاتِ ﴾ الضمير لخزاعة وكنانة، فإنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له من قولهم أو تعجّب منه ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني: البنين. ويجوز في «ما يشتهون» الرفع بالابتداء، أو النصب بالعطف على البنات، على أنّ الجعل بمعنى الاختيار. وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد، لكنّه لا يبعد تجويزه في المعطوف.

﴿ وَإِنَّا بُشُرَ احْدُهُمْ بِالْاَتْثَىٰ ﴾ أخبر بولادتها ﴿ طَلَّ وَجَهُهُ ﴾ صار . أو دام النهار كلّه ﴿ مُسْوَدَا﴾ من الكآبة والحزن والحياء من الناس. واسوداد الوجه كناية عسن شدّة الاغتمام. ﴿ وَهُوَ تَعْلِيمٌ ﴾ مملوء غيظاً على المرأة.

﴿ يَتَوَازَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ يستخفي منهم ﴿ مِن سُـوَّءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ من سـوء

المبشر به عرفاً، ومن أجل تعييرهم ﴿ أَيُمْسِكُهُ﴾ محدّثاً نفسه، متفكّراً في أن يتركه ﴿ عَلَىٰ هُونٍ﴾ هوان وذلّ ﴿ أَمْ يَدْشُهُ فِي التّرابِ ﴾ أم يخفيه فيه ويشده، وتذكير الضمير للفظ «ما». ﴿ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عمن الولد ما هذا محلّه عندهم، ويجعلون لأنفسهم من هو على العكس، وهذا غاية الجهل.

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ صفة السوء، وهي الحاجة إلى الولد المنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم، وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشحّ البالغ، أو صفة النقص من الجهل والعجز.

﴿ وَيَشِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ الصفة العليا، وهي الوجوب الذاتي، والفنى السطلق، والجود الفائق، والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿ وَهُوَ الْـَعَزِيزُ الْـَحَكِيمُ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

وَلُوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَةٍ وَلَكِن يُؤَخَّرُهُمُ الْبَيْ أَجَلُ مَن اللّهَ النّاسَ بِظُلْمهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَةٍ وَلَكِن يُؤخَّرُهُمُ الْبَيْ أَجَلُ مُونَ اللّهَ أَجَلُهُم لا يَسْتَثُمُ الْكَذَبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ هِنَا يَكُرَهُونَ وَتَصِف أَلْسَنَتُهُمُ الْكَذَبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّارَ وَأَنَّهُم مُّفُرَطُونَ ﴿ ٢٣ ﴾ تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسُلْنَآ إِلَى أَمَمٍ مِن قَبْلِكَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّارَ وَأَنَّهُم مُهُو وَلَيْهُمُ الْيُومَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ٣٣ ﴾

﴿ وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ بكفرهم ومعاصيهم، ويعاجلهم بالعقوبة

﴿مَا تَوَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض. وإنّما أضمرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابّة عليها ﴿مِن دَابَةِهِ﴾ أي: ممن يستحق العقوبة من الظالمين. ويؤيّده ما روي عن ابن عبّاس: أنّ معناه من مشرك يدبّ عليها. أو من دابّة ظالمة. أو لأهلك الدوابّ كلّها بشؤم ظلم الظالمين. وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم. وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء.

وقيل: معنى الآية: لو يؤاخذهم بذنوبهم لحبس المطر عنهم حتى يهلك كلّ دابّة. وعلى هذا العذاب للظالم عقوبة. ولغير الظالم عبرة ومحنة، فيكون كالأمراض النازلة بالأولياء وغير المكلّفين، فيعوّضون عنها.

وقيل: إنّه إذا هلك الظلمة ولم يبق مكلّف لا يبقى غيرهم من الحيوانــات. لأنّها إنّما خلقت للمكلّفين. فلا فائدة في بقائها بعدهم.

﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمَى ﴾ سمّاه لأعمارهم أو لعذابهم كي يستوالدوا ﴿ فَإِذَا جَاءَ اجَلَهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ بل هلكوا أو عذّبوا حينئذٍ لا محالة. ولا يلزم من عموم الناس وإضافة الظلم إليهم أن يكونوا كلّهم ظالمين حتى الأنبياء ﷺ ، لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم.

﴿ وَيَجْعَلُونَ شِهِ مَا يَحْرَهُونَ ﴾ أي: ما يكرهونه لأنفسهم، من البنات، والشركاء في الرئاسة، والاستخفاف برسلهم، والتهاون برسالتهم، وجعلهم له أرذل الأموال، ولأصنامهم أكرمها.

﴿ وَتَصِفُ السِنَتُهُمُ الْحَذِبَ ﴾ مع ذلك ، وهو ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي : عند الله ، كقوله : ﴿ وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَجِّي إِنَّ لِي عِنْدُهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ (١). هذا بدل من «الكذب» ، إذ هو قولهم : لنا البنون ولله البنات .

﴿ لَا ﴾ أي: ليس الأمر على ما وصفوه ﴿ جَرَمَ ﴾ ثبت وحقاً ﴿ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾

⁽١) فصّلت: ٥٠.

ردً لكلامهم، وإثبات لضدّه ﴿وَأَنَّهُمْ مُقْرَطُونَ﴾ مقدّمون إلى النار. من: أفرطته في طلب الماء إذا قدّمته. وقرأ نافع بكسر الراء، على أنّه من الإفراط في المعاصي.

﴿ تَاسِّ لَقَدُ ارْسَلْنَا إِلَىٰ أَمْمِ مِنْ فَتَلِكَ فَرَيْنَ لَهُمُ السَّيْطانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فأصروا على قبائحها، وكفروا بالمرسلين ﴿ فَهُوْ وَلِيُهُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي: قرينهم وناصرهم في الدنيا. عبر باليوم عن زمانها. أو فهو وليهم حين كان يزيّن لهم. أو يوم القيامة، على أنّه حكاية حال ماضية، كأن يزيّن لهم الشيطان أعمالهم فيها، أو حال آتية، وهي حال كونهم معذّبين في النار، أي: فهو ناصرهم اليوم ولا ناصر لهم غيره، فيكون نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه، ويجوز أن يكون الضمير لقريش، أي: زيّن الشيطان للكفرة المتقدّمين أعمالهم، فهو وليّ هؤلاء اليوم، فيغرّهم ويغويهم، وأن يقدّر مضاف، أي: فهو وليّ أمثالهم. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْمِيمَ ﴾ في القيامة.

وَمَآ أَنْزُلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدَّى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءَ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ٓ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿ ٢٠﴾

ثمّ بين سبحانه أنّه قد أقام الحجّة وأزاح العلّة وأوضح الحقّ، فقال: ﴿وَهَا الزَلْنَا عَلَيْكَ الْجَتَابَ إِلَّا لِلْبَعِيْنَ لَهُمُ ﴾ للناس ﴿الَّذِي اخْتَلَقُوا فِيهِ ﴾ من التوحيد، وأحوال المعاد، وأحكام الحلال والحرام ﴿وَهُدئ﴾ ودلالة على الحقّ ﴿وَرَهُمَةُ لِقَوْمٍ يُونُونَ ﴾. وهما معطوفان على محلّ «لتبيّن»، إلّا أنّهما انتصبا على أنّهما مفعول الهما، لأنّهما فعلا الذي أنزل الكتاب، ودخل اللام على «لتبيّن» لأنّه فعل المخاطب. وإنّما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعلّل.

﴿ وَاللهُ أَنزَلُ مِنَ السَّمَاءَ مَاءً ﴾ غيثاً ﴿ فَاحْيَا بِهِ ﴾ بـذلك الساء ﴿ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبّر وإنصاف، لأنّ من لم يسمع بقلبه فكأنّه أصمّ لا يسمع أصلاً.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نُسْقَيكُم مَنَا فِي بُطُونِهِ مِن بُنِنِ فَرْثِ وَدَمٍ لَّبَنَا خَالِصًّا سَاَتَنَاً لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَثْقِلُونَ ﴿٧٧﴾

ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم من دلائل التوحيد وعجائب الصنعة وبدائع الحكمة، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْ عَامٍ ﴾ الإيل والبقر والغنم ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ دلالة يعبر بها من الجهل إلى العلم ﴿ نُسْقِيكُمْ مِثَا فِي بُطُونِهِ ﴾ استئناف لبيان العبرة. وإنّما ذكّر الضمير ووحده هاهنا للفظ، وأنّمه في سورة المؤمنين (١) للمعنى، فإنّ الأنعام اسم جمع، ولذلك عدّه سيبويه في العفردات المبنيّة على أفعال، كأخلاق وأكباش (٢). ومن قال: إنّه جمع «نَعَم» جعل الضمير للبعض، فإنّ المراد به فإنّ المراد به الجنس.

وقرأ نافع وابن عــامر وأبــوبكر ويــعقوب: نَســقيكُم بــالفتح، هــاهنا وفــي المؤمنين.

⁽١ ، ٣) المؤمنون: ٢١ .

⁽Y) في هامش النسخة الخطّية: «ضرب من النبات غزل مرّ تين. وقيل: ضرب من برود اليمن. منه»

﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَنَمْ لِنَبَا﴾ فإنّه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولّد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث، وهي الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش.

وعن ابن عبّاس: «أنّ البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلف في كرشها. كمان أسفله فرئاً. وأوسطه لبناً. وأعلاه دماً» الحديث. فالكبد مسلّطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسّمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، وتبقى الفرث في الكرش. فسبحان الله ما أعظم قدرته، وألطف حكمته، لمن تفكّر وتأمّل.

قال صاحب الأنوار بعد ذكر هذا الحديث: «إن صعّ هذا النقل فلعلّ المراد أنّ أوسطه يكون مادّة اللبن، وأعلاه مادّة الدم الّذي يغذّي البدن، لأنّهما لا يتكوّنان في الكرش، بل الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش، ويسبقى شفله وهو الفرث، ثمّ يمسكها ريشما يهضمها هضماً ثانياً، فيحدث أخلاطاً أربعة معها مائيّة، فتميّز القوّة المميّزة تلك المائيّة بما زاد على قدر الحاجة من المرّتين، وتدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال، ثمّ يوزّع الباقي على الأعضاء بحسبها، فيجري إلى كلّ حقّه على ما يليق به، بتقدير العليم الحكيم.

ثمّ إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها، لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أولاً إلى الرحم لأجل الجنين، فإذا انفصل انصبّ ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع، فيبيض بمجاورة لحومها الغدديّة البيض، فيصير لبناً. ومن تدبّر صنع الله في إحداث الأخلاط والألبان، وإعداد مقارّها ومجاريها، والأسباب المولدة لها، والقوى المتصرّفة فيها كلّ وقت على ما يليق به، اضطرّ إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهى رحمته، (١٠).

واعلم أنّ «من» الأولى تبعيضيّة. لأنّ اللبن بعض ما في بطونها، كقولك:

⁽١) أنوار التنزيل ٣: ١٨٥ .

أخذت من مال زيد ثوباً. والثانية ابتدائية، كقولك: سقيت من الحوض، لأنّ بين الفرث والدم المحلّ الذي يبتدأ منه الإسقاء. وهي متعلّقة بر«نسقيكم». أو حال من «لبناً»، قدّم عليه لتنكيره، وللتنبيه على أنّه موضع العبرة.

سئل شقيق عن الإخلاص، فقال: تعييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم.

﴿ خَالِصا ﴾ صافياً لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث. أو مصفّى عمّا يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه. ﴿ سَاتِفاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ سهل المرور في حلقهم.

بئز سبحانه في هذه الآية لمن ينكر البعث أنَّ من قدر على إخراج لبن أبيض سائغ من بين الفرث والدم من غير أن يختلط بهما، قادر على إخراج الموتى مسن الأرض من غير أن يختلط شيء من أبدانهم بأبدان غيرهم.

ثمّ قال تعداداً لنعمة أخرى: ﴿ وَمِن شَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ﴾ متعلّق بمحذوف، أي: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب، أي: من عصيرهما. وحذف لدلالة «نسقيكم» قبله عليه.

وقوله: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً﴾ استئناف لبيان الإسقاء، أو يتعلّق ب«تتُخذون». و«منه» تكرير للظرف تأكيداً، كقولك: زيد في الدار فيها، أو خبر لمحذوف صفته «تتّخذون» أي: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتُخذون منه. وتذكير الضمير على الوجهين الأوّلين، لأنّه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأنّ الثمرات بمعنى الثمر، والسكر مصدر: سَكِر يَسكَرُ سَكراً وسُكْراً، سمّي به الخمر، ﴿ وَوِزْقاً صَنْعَا﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخلّ. والآية جامعة بين العتاب والمنة.

روى الحاكم في صحيحه بالإسناد عن ابن عبّاس أنّه سئل عن هذه الآيــة فقال: «السكر ما حرّم من ثمرها، والرزق الحسن ما أحلّ من ثمرها». وهذا القول ٥٨٢ زيدة التفاسير ـ ج ٣

أيضاً مرويّ عن ابن مسعود وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد وغيرهم.

وقال قتادة: نزلت الآية قبل تحريم الخمر ، ونزل تحريمها بعد ذلك في سورة المائدة (١).

وقال أبو مسلم: لا حاجة إلى ذلك، سواء كان حراماً أو حلالاً، لانّه تعالى خاطب المشركين وعدّد إنعامه عليهم بهذه الثمرات، والخمر من أشربتهم، فكانت نعمة عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ آلِيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمّل في الآيات. بين سبحانه بذلك أنكم تستخرجون من الثمرات عصيراً يخرج من قشر قد اختلط به، فكذلك يستخلص الله سبحانه ما تبدّد من الميّت ممّا هو مختلط به من التياب.

وَأَوْحَى رَّبُكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجَبَالِ بُيُونًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٨٦﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ النَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِكِ ذَلَلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْم يَفَكُرُونَ ﴿ ٩٦﴾

ثم ذكر نعمة أخرى من نعمه التي تتضمن كمال قدرته، فقال: ﴿وَاوْحَنَى رَبُّكَ إلى النَّخْلِ﴾ ألهمها وقذف في قلوبها، وعلّمها على وجه لا سبيل إلى الوقوف عليه. وأصل الوحى عند العرب أن يلقى الانسان إلى صاحبه شيئاً بالاستتار والإخفاء.

⁽١) المائدة: ٩٠ ـ ٩١.

﴿ أَنِ اتَّخِذِي﴾ بأن اتَّخذي. ويجوز أن تكون «أن» مفسّرة، لأنّ في الإيحاء معنى القول. وتأنيث الضمير على المعنى، فإنّ النحل مذكّر.

﴿ مِنَ الْجِبَالِ بَثِيوتا ﴾ تتعسل فيها ﴿ وَمِنَ الشَّبَوِ وَمِمًا يَـ غَرِشُونَ ﴾ أي: من الكرم، لأنه الذي يعرش ويتّخذ منه العريش. أو ما يرفعون من سقوف البيوت، فإنّ العرش سقف البيت. والمعنى: ما يبني الناس للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن الّتي تتعسّل فيها، ولولا إلهام الله إيّاها ما كانت تأوي إلى ما بني لها من بيوتها.

وإنّما أتى بلفظ الأمر وإن كانت النحل لا تعقل الأمر ولا تكون مأمورة. لأنّه لمّا أتى بلفظ الوحي أجرى عليه لفظ الأمر اتّساعاً. وذكر بحرف التبعيض. لأنّها لا تبني في كلّ جبل وكلّ شجر وكلّ ما يعرش من كرم أو سقف، ولا في كلّ مكان منها.

وإنّما سمّي ما تبنيه لتتعسّل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الانسان، لما فيه من حسن الصنعة وصحّة القسمة، الّتي لا يقوى عليها حدّاق السهندسين إلّا بآلات وأنظار دقيقة.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر: يعرُشون بضمّ الراء.

﴿ فُمُّ عَلِي مِنْ كُلُّ الطَّمْرَاتِ ﴾ من كلَّ ثمرة تشتهينها، فإذا أكلتها ﴿ فَاسْلُكِي سُئِلَ وَبُكِ ﴾ أي: الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل. أو إذا أكلت الشمار في المواضع البعيدة من بيوتك، فاسلكي راجعة إلى بيوتك اللّتي هي سبل ربّك، لا تضلّين فيها. أو فاسلكي ما أكلت في مسالك ربّك، الّتي يحيل فيها بقدرته النّور(١٠) المرّ عسلاً من أحوافك.

﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذلول. وهي حال من السبل، أي: مذلَّلة ذلَّلها الله وسهَّلها لك.

⁽١) النُّور : الزهر .

أو من الضمير في «اسلكي» أي: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به.

﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ كأنّه عدل به عن خطاب النحل إلى خطاب الناس، لأنّه محلّ الإنعام عليهم، والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم ﴿ شَوابُ ﴾ يعني: العسل، لأنّه ممّا يشرب. واحتج به من زعم أنّ النحل تأكيل الأزهار والأوراق العطرة، فتستحيل في بطنها عسلاً، ثمّ تقيء ادّخاراً للشتاء. وفسّر البطون بالأفواه من زعم أنّها تلتقط بأفواهها أجزاءً طليّة (۱۱) حيلوة صغيرة متفرّقة عبلى الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادّخاراً، فإذا اجتمع في بيوتها شيء كثير منها كيان العسل.

﴿ مُشْتَبِفُ الْوَائُهُ ﴾ أبيض وأصفر وأحمر وأسود، بسبب اختلاف سنّ النحل والفصل ﴿ فِيهِ شِفْاً لِلنَّاسِ ﴾ إمّا بنفسه كما في الأمراض البلغميّة، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلّما يكون معجون إلاّ والعسل جزء منه. وليس الغرض أنّه بنفسه شفاء لكلّ مرض، كما أنّ كلّ دواء كذلك. والدليل عليه أنّ التنكير مشعر بالتبعيض. ويجوز أن يكون للتعظيم، فإنّه سبب لدفع معظم الأمراض.

وعن ابن بابويه في كتاب الاعتقادات: «اعتقادنا في العسل أنّه شفاء للأمراض البلغميّة».

وعن قتادة: أنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ أخي يشتكي بطنه. فقال: اسقه العسل. فذهب ثمَّ رجع فقال: قد سقيته فما نفع. فقال: اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك. فسقاه فبرىء، فكأنَّما أنشط من عقال».

وعن عبدالله بن مسعود أنّه قال: عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل. وقيل: الضمير للقرآن، أو لما بيّن الله من أحوال النحل.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمِ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإنّ من تدبّر اختصاص النحل بتلك العلوم

⁽١) أي: ناعمة غضّة.

سورة النحل، آية ٧٠٧٠ الله ما ٧٠ ٥٨٥

الدقيقة والأفعال العجيبة حقّ التدبّر، علم قطعاً أنّه لابدّ له من خالق قادر حكـيم يلهمها ذلك ويحملها عليه.

قال صاحب المجمع: «ومن جملة عجائبه خروج العسل من فيه. ومنها: جعل الشفاء في موضع السمّ، فإنّ النحل يلسع. ومنها: ما ركّب الله من البدائع والعجائب فيه وفي طباعه. ومن أعجبها أن جعل الله سبحانه لكلّ فئة يعسوباً هو أميرها، يقدّمها ويحامي عنها، ويدبّر أمرها ويسوسها، وهي تتبعه وتقتفي أثره، ومتى فقدته انحلّ نظامها، وزال قوامها، وتفرّقت شذر مذر. وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين ﷺ في قوله: «أنا يعسوب المؤمنين»(١).

وَاللَّهُ خَلَقَكُمُ ثُمَّ يَنَوَفَّاكُمُ وَمِنكُم مَن يُوَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمِ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَديرٌ ﴿٧٠﴾

ثمّ بين سبحانه نعمته علينا في خلقنا وإخراجنا من العدم إلى الوجود، فقال:
﴿ وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمُّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بآجال مختلفة ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرزَدُ ﴾ يماد ﴿ إلَى ازَذَٰلِ
الْعُفُو ﴾ أخسته وأوضعه، يعني: الهرم الذي يشابه الطفوليّة في نقصان القوّة والعقل. وقيل: هو خمس وتسعون سنة. وقيل: خمس وسبعون. وهذا مرويّ عن النبي المؤمنين الله . ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْنَا ﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفوليّة في النسيان وسوء الفهم.

﴿إِنَّ اللهُ عَلِيمُ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِينُ﴾ يميت الشابّ النسيط، ويبقى الهرم الفاني. وفيه تنبيه على أنّ تفاوت آجال الناس ليس إلاّ بتقدير قادر حكيم، ركّب أبنيتهم، وعدّل أمزجتهم على قدر معلوم، ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ.

⁽١) مجمع البيان ٦: ٣٧٢.

وَاللَّهُ فَضَلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرَزْقِ فَمَا الَّذِينَ فَضَلُواْ بِرَآدَي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَالُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِيْعُمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٧﴾

ثم عدد سبحانه نعمة منه أخرى، فقال: ﴿ وَانتُهُ فَضَّلُ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضِ فِي الرُزْقِ ﴾ أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فعنكم غني ومنكم فقير، ومنكم موالٍ يتولون رزقهم ورزق غيرهم، ومنهم مماليك حالهم على خلاف ذلك، وهمم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردّوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبي ذرّ على عنه أنه سمع رسول الله عليه الله يقول: «إنّما هم إخوانكم، فاكسوهم ممّا تلبسون، وأطعموهم ممّا تطعمون، فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه، وإزاره إزاره من غير تفاوت».

﴿ فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَآدَي رِزْقِهِمْ ﴾ بمعطي رزقهم ﴿ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ على مماليكهم، فإنّ ما يردّون عليهم رزقهم الذي جعله الله في أيديهم ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءً ﴾ فالموالي والمماليك سواء في أنّ الله رزقهم، فلا يحسبن الموالي أنّهم يردّون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق، فإنّما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم. وهذه الجملة لازمة للجملة المنفيّة أو مقررة لها.

قيل: هذا مثل ضربه الله للّذين جعلوا له شركاء. فقال لهم: أنتم لا تسؤون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء. ولا ترضون ذلك لأنفسكم . فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟!

﴿ أَفَينِ فَمَةِ اللهِ يَجْدُونَ﴾ أفبهذه النعم الّتي عدّدتها واقتصصتها يبحد هؤلاء الكفّار . حيث يتخذون له شركاء ؟! فإنّه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم ، ويجحدوا أنّه من عند الله . أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعدما أنعم الله عليهم بإيضاحها. والباء لتضمّن الجحود معنى الكفر . وقرأ أبوبكر : تجحدون بالتاء . لقوله : «خلقكم» و«فضّل بعضكم».

وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيبَاتِ أَفْبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿ ٧٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴿ ٣٧﴾ فَلاَ تَضْرُبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿ ٧٤﴾

ثمّ عدّد سبحانه نعمة أخرى، فقال: ﴿ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجِا﴾ أي: من جنسكم لتأنسوا بها، ولتكون أولادكم مثلكم. وقيل: هو خلق حوّاء من ضلع آدم.

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ مَنِينَ ﴾ تسرّون بهم وتريّنون بهم ﴿ وَحَقَدَهُ ﴾ وأولاد أولاد أو بنات، فإنّ الحافد هو الّذي يحفد، أي: يسرع في الطاعة وفي الخدمة، والبنات يخدمن في البيوت أتمّ خدمة. وقيل: هم الأختان (١١) على البنات. وهو مرويّ عن أبي عبدالله على اوعن ابن مسعود. وقيل: الربائب. ويجوز أن يراد بها البنون أنفسهم. والعطف لتغاير الوصفين، كقوله: ﴿ سَخَراً وَرِزْقاً خَسَنا ﴾ (١٦). فكأنّه قيل: وجعل لكم منهنّ أولاداً هم بنون وهم حافدون، أي: جامعون بين الأمرين.

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من اللذائذ الَّتي قد أباحها لكم. و«من» للتبعيض،

⁽١) الأختان جمع الخَتَن، وهو الصهر، أي: زوج الابنة.

⁽٢) النحل: ٦٧.

لأنَّ كلِّ الطيّبات في الجنّة، وما طيّبات الدّنيا إلّا أنموذج منها.

وقيل: الباطل ما يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب وغيرهما، ونعمة الله ما أحلّ لهم في السماوات والأرض، فأضافوا نعمه إلى الأصنام، أو حرّموا ما أحلّ الله لهم.

وتقديم الصلة على الفعل إمّا للاهـتمام. أو لإيـهام التـخصيص مـبالغة. أو للمحافظة على الفواصل.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ وِزْقاً مِنَ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ شَينَا﴾ من مطر ونبات. و«ررقاً» إن جعلته مصدراً ف«شيئاً» منصوب به. وإن أردت المرزوق كان «شيئاً» بدلاً منه، بمعنى: قليلاً منه. و«من السماوات والأرض» صلة للرزق إن كان مصدراً، بمعنى: لا يرزق من السماوات مطراً، ولا من الأرض نباتاً. أو صفة إن كان اسماً لما يرزق.

﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ليس فيه تقدير راجع، وإنّما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفيّة عنهم أصلاً، لأنهم موات. أو يقدّر الراجع، ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة التوكيد. أو يراد: أنّهم لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتّى ذلك منهم، وعلى التقادير، لا يكون معنى قوله: «لا يملك» و«ولا يستطيعون» شيئاً واحداً ليلزم التكرار. وجمع الضمير في «لا يستطيعون» وتوحيده في «لا يملك»، لأنّ «ما» مفرد في معنى الآلهة. في «لا يستطيع هؤلاء _ مع أنّهم أحياء متصرّفون _ ويجوز أن يعود إلى الكفّار، أي: ولا يستطيع هؤلاء _ مع أنّهم أحياء متصرّفون _

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا بِشِهِ الْأَمْثَالَ ﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به أو تقيسونه عليه من فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال ﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ ﴾ فساد ما تعوّلون عليه من القياس، على أنّ عبادته ﴿ وَانْتُمْ لا القياس، على أنّ عبادته عبيد الملك أدخل في التعظيم من عبادته ﴿ وَانْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك، ولو علمتموه لما جرّأتم عليه أو أنّ الله يعلم كنه ما تفعلون وعظمه، وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم، لأنّ العقاب على مقدار الإثم، وأنتم لا تعلمون كنهه وكنه عقابه، فذاك هو الذي جرّكم إليه وجرّأكم عليه، فهو تعليل للنهي. أو أنّه يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيكم دون نصه. ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، فإنّه يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون.

ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمُلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَا رِزُقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهُرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمُ لاَ يَشْتُوونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمُ لاَ يَشْتُونَ ﴿٥٧﴾

ثمّ علّمهم كيف يضرب مثارً لنفسه ولمن عبد دونه، فقال: ﴿ضَرَبُ اللهُ مَثَلاً﴾ بين الله تبييناً فيه بيان المقصود، تقريباً للخطاب إلى أفهامهم. ثمّ أبدل من المثل قوله: ﴿عَنِداً مَثَلُوكاً لاَ يَقْبِرُ﴾ من أمره ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ﴾ وحررًا رزقاه وملكناه مالاً ونعمة ﴿مِنَا رِزقاً حَسَناً فَهُو يَنْقِقُ مِنْهُ سِرًا وَجَهُراً﴾ لا يخاف من أحد ﴿ هَلَ يَسْتَوُونَ ﴾ لم يقل: يستويان، لأنه أراد بقوله: «ومن رزقناه» وقوله: «عبداً مملوكاً» الشيوع في الجنس لا التخصيص، فإنّ المعنى: هل يستوي

وتقييد العبد بالمملوك للتمييز بينه وبين الحرّ، فإنّه أيضاً عبدالله. وسلب القدرة عنه للتمييز عن المكاتب والمأذون. وجعله قسيماً للمالك المتصرّف يدلّ على أنّ المملوك لا يملك. و«من» موصوفة، كأنّه قيل: وحرّاً، ليطابق: عبداً. ولا يمتنع أن تكون موصولة.

مثل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرّف رأساً، ومثل نفسه بالحرّ المالك الذي رزقه الله مالاً كثيراً، فهو يتصرّف فيه وينفق منه كيف يشاء. واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما، مع تشاركهما في الجنسيّة والمخلوقيّة، على امتناع التسوية بين الأصنام الّتي هي أعجز المخلوقات، وبين الله الغنيّ القادر على الاطلاق.

وتوضيح المعنى: أنّ الاثنين المتساويين في الخلق. إذا كان أحدهما مالكاً قادراً على الإنفاق. والآخر مملوكاً لا يمكن أن يكون مالكاً لشيء مًا، لا يستويان. فكيف يستوي بين الحجارة الّتي لا تعقل بل لا تتحرّك، وبين الله القادر على كـلّ شىء، الخالق الرازق لجميم خلقه؟!

وقيل: إنّ هذا المثل للكافر والمؤمن، فإنّ الكافر لا خير عنده، والمؤمن، يكسب الخير. نبّه سبحانه بذلك على اختلاف حالهما، فدعا إلى حال المؤمن، وصرف عن حال الكافر.

ولمّا ذكر هذا المثال، وكان مثلاً مطابقاً للغرض، كاشفاً عن المقصود، قال: ﴿الْحَمْدُ شِيْ﴾ الذّي دلّنا على توحيده ومعرفته، وهدانا إلى شكر نعمته، وأوضح لنا السبيل إلى جنّته. أو كلّ الحمد له، لا يستحقّه غيره، فضلاً عن العبادة، لائم مولى النعم كلّها. ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُعْلَمُونَ ﴾ فيضيفون نعمه إلى غيره، ويعبدونه لأجلها.

وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبُكُمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلِّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوجِهِهُ لاَ يَأْت بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٩﴾

ثمّ ضرب سبحانه مثلاً آخر، فقال: ﴿ وَضَرَبُ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَهُ ﴾ من الصنائع والتدابير، ولد أخرس لا يفهم ولا يُعفهم ﴿ لاَ يَقْبُرُ عَلَىٰ شَعْرِعُ ﴾ من الصنائع والتدابير، لنقصان عقله ﴿ وَهُو كُلُّ عَلَىٰ مَوْلاَهُ ﴾ ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿ أَيْنَمَا يُوجَهُهُ ﴾ حيثما يرسله مولاه في طلب حاجة ومهم ﴿ لاَ يَاتِ بِخَنْرٍ ﴾ بنجح وكفاية مهم .

﴿ مَلْ يَسْتَوِي هُوَ ﴾ هذا الأبكم الموصوف بهذه الصفة ﴿ وَمَنْ يَامُرُ بِالْعَدَلِ ﴾ ومن هو فهم منطبق ذو كفاية ورشد، ينفع الناس بحثّهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل ﴿ وَهُوَ ﴾ في نفسه ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، لا يتوجّه إلى مطلب إلّا ويبلغه بأقرب سعي. وإنّما قابل تلك الصفات بهذين الوصفين، لأنهما كمال ما يقابلهما.

وهذا تمثيل ثانٍ ضربه الله لذاته السفيض رحــمته وألطـافه ونــعمه الديـنيّة والدنيويّة، وللأصنام الّتي هي أموات لا تضرّ ولا تنفع، لإبطال المشاركة بينه وبينها، أو للمؤمن والكافر.

وَلِلهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا ٓ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِن بُطُونِ

أُمَّهَا يَكُمُّ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَمْعَ وَالأَبِصَارَ وَالأَفْدِدَةَ لَعَلَكُمُ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾

ثم وصف سبحانه نفسه مؤكّداً لما قدّم ذكره من أوصاف الكمال. فقال: ﴿ وَلِلْهِ غَيْبُ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم. وقيل: يوم القيامة، فإنّ علمه غائب عن أهل السماوات والأرض، ولم يطّلع عليه أحد منهم.

﴿ وَمَا أَمْنُ السَّاعَةِ ﴾ وما أمر قيام القيامة في سرعته وسهولته ﴿ إِلَّا كَلَفْحِ الْبُصُوبِ ﴾ إلّا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ﴿ أَوْ هُوَ أَقْوَبُ ﴾ أو أمرها أقرب منه، بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة، بل في الآن الذي تبتدى عفيه، فإنّه تعالى يحيي الخلائق دفعة، وما يوجد دفعة كان في آنٍ. و «أو» للتخيير، أو بمعنى: بل.

وقيل: معناه: أنّ قيام الساعة وإن تراخى فهو عند الله كالشيء الّذي تقولون فيه: هو كلمح البصر أو هو أقرب، مبالغة في استقرابه.

ووجه اتّصاله بما قبله: أنّ أمر القيامة من الأسور الغـائبة. ومـن أعـظمها وأهمّها، لما فيه من الئواب والعقاب، والانصاف والانتصاف.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلُ شَمَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على أن يقيم الساعة، وأن يحيي الخلائق دفعة، كما قدر أن أحياهم متدرّجاً.

ثمّ دلّ على قدرته، فقال: ﴿ وَاللهُ أَخْرَجُكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمُهَاتِكُمْ ﴾ وقرأ الكسائي بكسر الهمزة على أنّه لغة، أو إتباع لما قبلها. وحمزة بكسرها وكسر الميم، والهاء مزيدة، مثل: أراق وأهراق، والأصل: أمّات. ﴿ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئَا ﴾ في موضع الحال، أي: غير عالمين شيئاً من حقّ المنعم الذي خلقكم في البطون، وسؤاكم وصوّركم،

سورة النحل، آية ٧٩٧١ الله على ١٩٣٠.

ثمّ أخرجكم من الضيق إلى السعة، مستصحبين جهل الجماديّة. ويجوز أن يكون «شيئاً» مصدراً، أي: لا تعلمون علماً.

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ وركّب فيكم هذه الآلات والأدوات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به، من معرفة المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم، فإنّكم أوّلاً تحسّون بمشاعركم جزئيّات الأشياء فتدركونها، ثمّ تتنبّهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بينها، بتكرّر الإحساس حتّى تتحصّل لكم العلوم البديهيّة، وتتمكّنوا من تحصيل المعالم الكسبيّة بالنظر فيها.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله عليكم طوراً بعد طور فتشكروه. والأفئدة جمع الفؤاد، كالأغربة في غراب. وهي من جموع القلّة الّتي جرت مجرى جموع الكثرة.

أَلَمْ يَرَوُاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ ٧٩﴾

ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم من الدلائل بدلالة أخرى، فقال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ويتفكّروا ﴿ إِلَى الطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويمقوب بالتاء، على أنّه خطاب للعامّة ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذلّلات للطيران صاعدة ومنحدرة، ذاهبة وجائية، بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المؤاتية لذلك ﴿ فِي جَوَّ السَّمَاءَ ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلق ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ ﴾ فإنّ ثقل جسدها يقتضي سقوطها، ولا علاقة فوقها، ولا دعامة تحتها تمسكها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في تسخير الطير للطيران، بأنَّ خلقها خلقة يمكن معها الطيران، وخلق الجوّ بحيث يمكن الطيران فيه، وإمساكها في الهواء على خلاف طبعها ﴿ لَآيَاتِ﴾ على وحدانيّته وكمال قدرته ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّهم هم المنتفعون بها.

وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِن بُيُوتِكُمْ سَكُنَّا وَجَعَلَ لَكُمْ مِن جُلُود الْأَنعَامِ بُيُوتًا

تَسْتَخَفُّونَهَا يَوْمَ ظَفَّنكُمْ وَيُوْمَ إِقَامَتكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا

وَمَنَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿ ٨٠﴾ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِنّا حَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْجِبَالِ أَكْثَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ مَنَ الْجَبَالِ أَكْثَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ مَنَ الْجَبَالِ أَكْثَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلَكَ الْجَبَالِ أَكْثَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ تَسُلِمُونَ ﴿ ١٨﴾ فَإِن تَوَلَّوا فَإِن تَوَلُّوا فَإِن عَلَيْكُ الْبَلاَعُ الْبَلاَعُ اللّهَ اللّهَ عَلَيْكُ الْبَلاَعُ اللّهَ عَلَيْكَ الْبَلاعُ اللّهَ عَلَيْكَ الْبَلاعُ اللّهَ عَلَيْكَ الْبَلاعُ اللّهَ عَلَيْكَ اللّهَ عَلَيْكَ الْبَلاعُ اللّهَ عَلَيْكَ الْبَلاعُ اللّهَ عَلَيْكَ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكَ اللّهَ اللّهُ عَلَيْكَ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكَ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكَ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكَ اللّهُ عَلَيْكَ الْهَالِكُولُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللّهُ عَلَيْكُمْ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ

ثمّ عدّد سبحانه نعماً أخر، فقال: ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنا﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم، مما يتّخذ من العجر والمدر. فقل بمعنى مفعول. وذلك بأن خلق سبحانه الخشب والمدر، والآلة التي يمكن بها تسقيف البيوت وبناؤها. ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هي القباب والأبنية المتّخذة من الأدم والأنطاع. ويجوز أن يتناول المتّخذة من الوبر والصوف والشعر، فإنّها من حيث إنّها نابتة على جلودها يصدق عليها أنّها من جلودها. ﴿ تَسْتَحَقُّونَهَا ﴾ تجدونها خفيفة، يخفّ عليكم حملها ونقضها ونقلها ﴿ يَوْمَ ظَفْئِكُمْ ﴾ وقت ترحالكم من بلد إلى آخر ﴿ وَيَوْمَ إِلَّامَتِكُمْ ﴾ وقت الحضر، أو النزول. واليوم بمعنى الوقت، يعني: يخفّ عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً. وقرأ الحجازيّان والبصريّان: يُومَ ظَفَئِكُمْ ﴾

﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ الصوف للضأن، والوبر للإبل، والشعر للمعز. وإضافتها إلى ضمير الأنعام لاَنها من جملتها. ﴿ أَثَاثَا﴾ ما يلبس ويفرش ﴿ وَمَتَاعَا ﴾ ما يتَجر به ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلى وقت أن يبلى ويفنى، أو إلى حين مماتكم، أو إلى أن تقضوا منه أوطاركم.

﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ﴿ ظِلَالاً﴾ تتّقون بها من حرّ الشمس ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ مواضع تسكنون بها، من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها. جمع كنّ.

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ قصاناً وثياباً من الصوف والكتّان والقطن وغيرها ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرُ ﴾ خصّه بالذكر اكتفاءً بأحد الضدّين، أو لأنَّ وقاية الحرّ كانت أهم عندهم، وقلّما يهمّهم البرد، لأنّهم أهل حرّ في بلادهم، محتاجون إلى ما يقي الحرّ أكثر ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَاسَكُمْ ﴾ يعني: الدروع والجواشن (١١). والسربال يحمّ كلَّ ما يلبس من حديد وغيره.

﴿ كَذَلِكَ ﴾ كإتمام هذه النعم الّتي تقدّمت ﴿ يُبِتُم بِنفَتَهُ عَلَيْكُم ﴾ يريد نعمة الدنيا، لقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ ﴾ أي: تنظرون في نعمه فتؤمنون به، وتنقادون لحكمه. وقال ابن عبّاس: معناه: لعلّكم يا أهل مكّة تعلمون أنّه لا يقدر على هذا غيره، فتوحّدوه وتصدّقوا رسوله.

﴿ فَإِن تَوَلُوْا﴾ أعرضوا عن الإيمان، ولم يقبلوه منك ﴿ فَإِثْمَا عَلَيْكَ الْمُعِينُ ﴾ تبليغ ما أرسلت به، وقد بلّغت. فذكر سبب العذر _ وهو البلاغ _ ليدلّ على المسبّب، فهو من إقامة السبب مقام المسبّب. وهذا تسلية للنبئ ﷺ.

⁽١) الجوشن: الصدر والدرع، وجمعه: جواشن.

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿ ٨٣﴾ وَيَوْمَ شَعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهَيِدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لَلّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتُونَ ﴿ ٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴿ ٨٥﴾

ثمّ أخبر عن حال الكفرة، فقال: ﴿ يَعْدِفُونَ بِفعَةَ اللهِ ﴿ أَي عِرف المشركون نعته اللهِ عَدها عليهم وغيرها، حيث يعترفون بها وبأنّها من الله ﴿ ثُمّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بعبادتهم غير المنعم بها، وقولهم: هي من الله ولكنّها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب قولهم: ورثناها من آبائنا، أو قولهم: لولا فلان ما أصبت كذا، أو بإعراضهم عن أداء حقوقها. وقيل: نعمة الله نبرة محمد الله الله عنه على المعجزات، ثمّ أنكروها عناداً. ﴿ وَاكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وذكر الأكثر إمّا لأنّ بعضهم لم يعرف الحقّ، لنقصان المقل، أو لم تقم عليه الحجّة، لأنّه لم يبلغ حدّ التكليف. وإمّا لأنّه يقام مقام الكلّ، كما في قوله: ﴿ قِلْ الْمُثَرُهُمُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠).

وفي هذه الآية دلالة على فساد قول المجبّرة: أنّـه ليس لله سبحانه على الكافر نعمة، وأنّ جميع ما فعله بهم إنّما هو خذلان ونقمة، لأنّه سبحانه نصّ في هذه الآية على خلاف قولهم.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَتُ مِنْ كُلِّ أَمَّةٍ شَهِيداً ﴾ وهو نبيّها، يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق، والكفر والتكذيب. والمعنى: لا حجّة لهم ولا عذر. وكذا العدول من كلّ عصر يشهدون على الناس بأعمالهم. وقال الصادق ﷺ: «لكلّ زمان وأمّة إمام، تبعث كلّ أمّة مع إمامها».

⁽١) النحل: ٧٥.

وفائدة بعث الشهداء مع علم الله سبحانه بذلك: أنّ ذلك أهول في النفس، وأشدّ في الفضيحة، إذا قامت الشهادة بحضرة الملاً، مع جلالة الشهود وعدالتهم عند الله تعالى، لآنهم إذا علموا أنّ العدول عند الله يشهدون عليهم بين يدي الخلائق، فإنّ ذلك يكون زجراً لهم عن المعاصى.

﴿ ثُمُّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفُرُوا ﴾ في الاعتذار، إذ لا عذر لهم صحيح. وقيل: في الرجوع إلى الدنيا. و«ثم» لزيادة ما يحيق بهم من شدّة المنع عن الاعتذار، لما فيه من الإقناط الكلّي على ما يمنون (١) به من شهادة الأنبياء ﷺ. والمعنى: لا حجّة لهم، فدلّ بترك الإذن على أنّ لا حجّة لهم ولا عذر. ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ولا هم يسترضون، من العتبى، وهي الرضا، أي: لا يقال لهم: أرضوا ربّكم، لأنّ الآخرة ليست بدار عمل.

وانتصاب «يوم» بمحذوف تقديره: اذكر. أو خـرّفهم. أو يـحيق بـهم مـا يحيق.وكذا قوله: ﴿ وَإِنّا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ أي: عذاب جهنّم ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: العذاب ﴿ وَإِنّا هُمْ يُنْظُرُونَ ﴾ يمهلون.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءَهُمْ قَالُواْ رَّبَنَا هََوُّلَاء شُرَكَاقُوَّا الَّذِينَ كَنَا نَدْعُوًا مِن دُونِكَ فَالْقَوَّا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنِّكُمْ لَكَادُبُونَ ﴿ ٨٦ ﴾ وَأَلْقَوُّا إِلَى اللهِ يُؤمِّذُ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿ ٨٧ ﴾ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلُ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسدُونَ ﴿ ٨٨ ﴾

ثمّ أبان سبحانه عن حال المشركين يوم القيامة، فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ

⁽١) أي: يبتلون ويختبرون، يقال: مناه الله بكذا، أي: ابتلاه.

أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ ﴾ أوثانهم الّتي دعوها شركاء، أو الشياطين الذين شاركوهم في المَّمر بَالحَمْ اللهِ المُحرِين اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ الل

﴿ فَالْقَوْا اِلنَهِمُ الْقَوْلَ ﴾ إلقاء المعنى إلى النفس إظهاره لها حتى تدركه متميّزاً عن غيره، أي: فقالت الأصنام وسائر ما كانوا يعبدون من دون الله ، بإنطاق الله إيّاهم الهؤلاء ﴿ إِنَّكُمُ لَكَاذِبُونَ ﴾ يعني: أجابوهم بالتكذيب في أنّهم شركاء الله . أو أنّهم ما عبدوا أهواءهم، كقوله: ﴿ كَلَّا سَيْكَفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ (١٠). أو في أنّهم حملوهم على الكفر وألزموهم إيّاه، كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سَلْطَانٍ إلا أن مَوْقَتُكُمْ فَاسَنْجَنْتُمْ مِنْ سَلْطَانٍ إلا أن مَوْقَتُكُمْ فَاسَنْجَنْتُمْ لِي ﴾ (١٠).

﴿ وَالْقَوْا ﴾ وأَلْقَى الَّذِين ظلموا ﴿ إِلَى اللهِ يَومَثِذِ السَّلَمَ ﴾ الاستسلام لأمره وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وضاع عنهم وبطل ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أنَّ لله شركاء، وأنَّهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كلَّبوهم وبرُوا منهم.

﴿ الَّذِينَ كَفُرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ ومنعوا الناس عن الاسلام، وحملوهم على الكفر ﴿ زِدْنَاهُمْ عَدَابِ ﴾ أي: عندبناهم على صدّهم عن دين الله ﴿ فَوَقَ الْعَذَابِ ﴾ المستحقّ بكفرهم، أي: زيادة على عذاب الكفرة ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ بكونهم مفسدين الناس بصدّهم عن سبيل الله.

عن سعيد بن جبير: زيادة عذابهم حيّات أمثال البخت والفيلة، وعقارب

⁽۱) مريم: ۸۲.

⁽٢) إبراهيم: ٢٢.

سورة النحل، آية ٨٩٩١٥

أمثال البغال الدلم(١١)، تلسع إحداهنّ اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفاً.

وعن ابن مسعود: زيادة عذابهم الأفاعي والعقارب في النار، لها أنياب كالنخل الطوال.

وعن ابن عبّاس: هي أنهار من صفر مـذاب كــالنار يــعذّبون بــها. وقــيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدّة برده إلى النار.

وَيُوْمَ بَبْعَثُ فِي كُلِّ أَنَّة شَهِيدًا عَلَيْهِم مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هََوُلِآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِنَّابَ ثِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيُءٍ وَهُدَّى وَرَحْمَةً وَبُشُوَى لِلْمُسُلِمِينَ ﴿٨٨﴾

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلُّ اللهِ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ انْفُسِهِمْ ﴾ يعني: نبتهم الذي أرسل إليهم، أو الحجّة الذي هو إمام عصرهم ﴿ وَجِنْنَا بِكَ ﴾ يا محمّد ﴿ شَهِيداً عَلَىٰ هَوُلاَعِ﴾ على أمّتك. وإنّما أفرده بالذكر تشريفاً له.

﴿ وَنَزَلْنَا عَلَيْكَ الْعِتَابَ ﴾ استئناف أو حال بإضمار «قد». ﴿ تِبْيَانَا ﴾ بياناً بليغاً ﴿ لِنَا شَنِ عِ ﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال، فإنّه ما من شيء إلّا وقد بيّن في القرآن، إمّا بالنصّ عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم، من بيان النبيّ والحجج القائمين مقامه، أو إجماع الأمّة، أو القياس المنصوص العلّة، فحكم الجميع مستفاد من القرآن.

﴿ وَهُدى ﴾ ودلالة إلى الرشد ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ ونعمة للجميع، لما فيه من الشرائع والأحكام، وإنّما حرمان المحروم من تفريطه ﴿ وَبُشْرَى ﴾ وبشارة بالثواب الدائم

⁽١) أي: السود، جمع الأدلم، وهو الطويل الأسود.

٦٠٠ زيدة التفاسير ـج ٣

والنعيم المقيم ﴿ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ خاصّة.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدُل وَالإِحْسَانِ وَابِيَّآءَ ذِي الْقُرْبَى وَيَّنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَر وَالْبَغْي يَعِظُكُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٠٠﴾

﴿إِنَّ اللهَ يَامُنُ بِالْعَدَالِ﴾ بالتوسط في الأمور اعتقاداً، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، وعملاً كالتعبّد بأداء الواجبات المتوسّط بين البطالة والترهّب. وخلقاً كالجود المتوسّط بين البخل والتبذير.

﴿ وَالْإِحْسَانِ﴾ إحسان الطاعات. وهو إمّا بحسب الكمّية كالتطوّع بالنوافل، أو بحسب الكيفيّة، كما قال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك». وقيل: العدل أن تنصف و تنتصف، والإحسان أن تنصف ولا تنتصف. وقيل: العدل في الأفعال، والإحسان في الأقوال، فلا يفعل إلّا ما هـو عـدل، ولا يقول إلاّ ما هو حسن. وعن ابن عبّاس: العدل التوحيد، والإحسان أداء الفرائض.

﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه. وهو تخصيص بعد تعميم للمبالغة. وقيل: المراد بذي القربى قرابة النبي ﷺ الذين ارادهم الله بقوله: ﴿ فَانَّ بِشِهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (١٠). وهو المرويّ عن أبي جعفر ﷺ، فإنّه قال: نحن هم.

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾ عن الإفراط في متابعة القرّة الشهويّة كالزنا. فانّه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها ﴿ وَالْمُتْكُو ﴾ ما ينكر على متعاطيه في إثارة القورة الغضبيّة ﴿ وَالْمَبْغَيِ ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس، وطلب التطاول بالظلم والتجبّر عليهم، فإنّها الشيطنة التي هي مقتضى القرّة الوهميّة. ولا يوجد من الانسان

⁽١) الأنفال: ٤١.

سورة النحل، آية ٩٠٩٠

شرٌ إلا وهو مندرج في هذه الأقسام، صادر بتوسّط إحدى هذه القوى الشلات. ولذلك قال ابن مسعود: هي أجمع آية في القرآن للخير والشرّ، ولو لم يكـن فـي القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنّه تبيان لكلّ شيء وهدى ورحـمة للـعالمين. ولعلّ إيرادها عقيب قوله: «ونزّلنا عليك الكتاب» للتنبيه عليه.

﴿ يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي، والتمييز بين الخير والشرّ، وسائر ما تضمّنت هذه الآية من مكارم الأخلاق ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكّرُونَ﴾ تتعظون.

وجاءت الرواية أنَّ عثمان بن مظعون قال: كنت أسلمت استحياءً من رسول الله ﷺ، لكثرة ما كان يعرض عليِّ الاسلام ولم يقرّ في قلبي. وكمنت ذات يموم عند فشخص بصره نحو السماء. كأنَّه يستفهم شيئًا، فلمّا سرى عنه سألتمه عن حاله. فقال: نعم، بينا أنا أحدّثك إذ رأيت جبرئيل في الهواء فأتاني بهذه الآية: «إنّ الله يأمر بالعدل والاحسان»، وقرأها على إلى آخرها.

فقرٌ الاسلام في قلبي، وأتيت عمّه أبا طالب فأخبرته، فقال: يا آل قريش اتّبعوا محمّداً ترشدوا. فإنّه لا يأمركم إلاّ بمكارم الأخلاق.

وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية، فقال: إن كان محمّد قاله فنعم ما قال، وإن قاله ربّه فنعم ما قال. فأنزل الله: ﴿ أَفَرَائِينَ اللَّهِ عَوَلَى وَأَعْطَىٰ فَعَمِ ما قال. ومعنى قوله: «وأكدى» أنّه لم يقم على ما قاله وقطعه.

⁽١) الكشَّاف ٢: ٦٢٩.

⁽٢) النجم: ٣٤ _ ٣٤.

وعن عكرمة قال: إنّ النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة. فقال: يابن أخي أعد. فأعاد، فقال: إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وما هو قول البشر.

وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدَتُمْ وَلاَ تَنْقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَلَيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿ ١١ ﴾ وَلاَ تَكُونُواْ كَالّتِي فَصَتْ عَزْلَهَا مِن بَعْدَ قُوَّةٍ أَنكَانًا تَتَخذُونَ أَيْمَانكُمْ دَحَلاً بَيْنكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِي فَيْضَتْ عَزْلَهَا مِن بَعْدَ قُوتُهِ أَنْكَمُ اللّهُ بِهِ وَلَيْبَيْنَنَ لَكُمْ يَوْمُ الْقِيَامَة مَا كُنتُمْ فِيهِ لَنَجَلُهُونَ ﴿ ١٤ ﴾ وَلَوْ شِنَآءً اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءً اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءً وَقَهْدِي مَن يَشَآءً وَلَكُن يُضِلُّ مَن يَشَآءً وَلَكُن هُوهِ ١٠ ﴾

ولمّا تقدّم الأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن المنكر والعدوان، عقّبه سبحانه بالأمر بالوفاء بالعهد، والنهي عن نقض الأيمان، فقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدَتُمْ ﴾ يعني: البيعة لرسول الله على الاسلام، لقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِشْمًا يُنَامِعُونَ اللهَ ﴾ (١).

وقيل: العهد كلّ أمر يجب الوفاء به. وهو الّذي يـحسن فـعله، وعـاهد الله ليفعلنّه، فإنّه يصير واجباً عليكم، كالنذر وشبهه.

﴿ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ ﴾ أيمان البيعة، أو مطلق الأيمان ﴿ بَعْدَ تَوْجِيدِهَا ﴾

⁽۱) الفتح: ۱۰.

توثيقها بذكر الله. ومنه: أكّد، بقلب الواو همزة. ﴿ وَقَدْ جَمَعْلَتُمُ اللهُ عَلَيْكُمْ حَقِيلًا ﴾ شاهداً بتلك البيعة، فإنّ الكفيل مراع لحال المكفول به، رقيب عليه ﴿ إِنْ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من نقض الأيمان والعهود والوفاء.

﴿ وَلاَ تَكُونُوا ﴾ في نقض الأيمان ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَـزْلَهَا ﴾ ما غزلته. مصدر بمعنى المفعول ﴿ مِنْ بَعْدِ قُوْمٍ ﴾ متعلّق ب«نقضت» أي: نقضت غزلها من بعد إبرام وإحكام ﴿ أَنْكَانًا ﴾ طاقات نُكِتَ فتلها، جمع نِكْت. وانتصابه عملى الحمال من «غزلها»، أو المفعول الثاني الانقضت»، فإنّه بمعنى: صيرّت. والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه، وهو من ينكث فتله.

قيل: هي ريطة بنت سعد بن تيم القرشيّة، فإنّها كمانت حمقاء خرقاء^(۱). اتّخذت مغزلاً قدر ذراع، وصنّارة^(۱) مثل أصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل مع جواريها إلى انتصاف النهار، ثمّ تأمرهنّ فينقضن ما غزلن.

﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ نَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ حال من الضمير في «ولا تكونوا»، أو من الجاز الواقع موقع الخبر، أي: ولا تكونوا متشبهين بـامرأة هـذا شأنها. متخذي أيمانكم دخلاً، أي: مفسدة وخيانة وغدراً بينكم. وأصل الدخل ما يدخل الشيء ولم يكن منه.

﴿ أَن تَكُونَ أَمَّةً ﴾ لأجل أن تكونوا، أو بسبب أن تكونوا جماعة ﴿ هِنِي أَرْبَىٰ ﴾ أي: أزيد عدداً وأوفر مالاً ﴿ مِنْ أَمَّةٍ ﴾ من جماعة حلفتم له. والمعنى: لا تغدروا بقوم لكثر تكم وقلتهم، أو لكثرة منابذتهم وقوتهم كقريش، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم، وحالفوا أعداءهم.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ الضمير («أن تكون أمَّة» لأنَّه بمعنى المصدر، أي:

⁽١) مؤنَّث الأخرق، وهو الأحمق الذي لم يحسن عمله.

 ⁽٢) الصِفّارةُ: الحديدة المعقّفة في رأس المغزل.ومنها الصنّارة التي تستعملها النساء لحياكة قمصان الصوف وغيرها.

٦٠٤ زيدة التفاسير ـج ٣

يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسّكون بحبل الوفاء بمهد الله وبيعة رسوله. أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم، وقلّة المؤمنين وضعفهم؟ وقيل: الضمير ا«أربي». وقيل: للأمر بالوفاء. وتحقيقه أنّه يعاملكم معاملة المختبر ليميّز المحقّ من المبطل ليقع الجزاء بحسب العمل.

ولتا كان بناء الإثابة والتعذيب على التكليف اللذي صداره الاختيار لا الإجبار، قال بعد ذلك: ﴿ وَلَلْهُمِينَنَّ﴾ وليظهرنَّ ﴿ لَكُمْ يَـوْمَ اللَّقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب.

﴿ وَلَوْ شَلَةَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أَمَّةً وَاجِدَةً ﴾ متفقة على الاسلام قسراً وجبراً ﴿ وَلَكِنَ يُضِلُ مَنْ يَشَدَاءَ ﴾ يخذله في الضلالة ويخلّيه فيها، لعلمه بفرط كفره، وانهماكه في يغضلُ مَنْ يَشَدَاءَ ، وتوغّله في إنكاره، مع وضوح طريق الحقّ لديه ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَدَاءَ ﴾ يوفقه طريق الاهتداء، لعلمه باسترشاده واستصوابه، فإنّه بنى الأمر على الاختيار، وعلى ما يستحقّ به اللطف والخذلان والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإجبار، وحقق ذلك بقوله: ﴿ وَلَتُسْأَلُنُ عَمّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ سؤال تبكيت ومجازاة.

وَلاَ تَنْحِدُواْ أَيْمَانَكُمُ دَحَالاً بَيْنَكُمُ فَتَرِلَ قَدَمْ بَعْدَ ثُبُونِهَا وَيَدُوقُواْ الْسُتُونَ مِمَا صَدَدَتُمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظَيمٌ ﴿ ١٤﴾ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللهِ ثَمْنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ ١٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنجْزَيِنَ الّذِينَ صَبَرُواا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿ ١٩٩﴾ ثمّ صرّح بالنهي عن نقض العهد بعد التضمين، تأكيداً ومبالغة في قبع المنهيّ، فقال: ﴿ وَلَا تَتَخِذُوا أَيْمَانَكُمْ مَضَلَا بَيْنَكُمْ ﴾ أي: خيانة وخديعة كما مرّ. ﴿ فَتَزِلُ قَدَمُ ﴾ عن محجّة الاسلام ﴿ بَعْدَ ثُنُوتِهَا ﴾ عليها. والمراد أقدامهم. وإنّما وحّد ونكّر للدلالة على أنّ زلل قدم واحدة عظيم، فكيف بأقدام كثيرة ؟! ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾ العذاب في الدنيا ﴿ بِمَا صَدَدَتُمُ عَنْ سَمِيلِ اللهِ بسبب صدودكم عن الوفاء، فإنّ من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنّة لغيره ﴿ وَلَكُمْ عَنَاكُ عَظِيمَ ﴾ في الآخرة.

روي عن سلمان الفارسي أنّه قال: تهلك هذه الأمَّة بنقض مواثيقها. وروي عن أبي عبدالله ﷺ أنّه قال: «نزلت هذه الآيات في ولاية عليّ ﷺ. وما كان مسن قول رسول الله ﷺ: سلّموا على علىّ بإمرة المؤمنين».

﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ﴾ ولا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله ﴿ ثَمْنَا قَلِيلاً﴾ عرضاً يسيراً من الدنيا، وهو ما كانت قريش يعدون لضعفاء المسلمين ويسمنونهم ويشترطون لهم على الارتداد ﴿ إِنَّمَا عِنْدُ اللهِ ﴾ من النصر والتعنيم في الدنيا، والتواب في الآخرة ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ممّا يعدونكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَسْفَلُمُونَ ﴾ أي: كنتم من أهل العلم والتمييز.

﴿ مَا عِنْدَكُمْ ﴾ من أعراض الدنيا ﴿ يَنَفُنُ ﴾ ينقضي ويفنى ﴿ وَمَا عِنْدُ اللهِ ﴾ من خزائن رحمته ﴿ بَاقِ ﴾ لا ينفد. وهو تعليل للحكم السابق، ودليل على أنَّ نعيم أهل الجنّة باق.

﴿ وَلَنَجْزِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ ﴾ على الفاقة وأذى المسركين، أو على مشاق التكاليف. وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون. ﴿ بِاحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بما يرجّح فعله من أعمالهم، كالواجبات والمندوبات، أو بجزاء أحسن من أعمالهم.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرِ أَوْ أَشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحُبِيَنَهُ حَيَاةً طَبِبَةً وَلَنَجْزَبَنَهُمْ أَجْرَهُم بِأَخْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

روي عن ابن عبّاس: أنّ رجلاً من حضرموت يقال له عبدان الأشرع قال: يا

٦٠٦ زيدة التعاسير ـ ج٣

رسول الله إنّ امرء القيس الكندي جاورني في أرضي فاقتطع من أرضي. فذهب بها منّى، والقوم يعلمون أنّى لصادق، ولكنّه أكرم عليهم منّى.

فسأل رسول الله ﷺ امرء القيس عنه. فقال: لا أدري ما يقول. فأمره أن يحلف.

فقال عبدان: إنّه فاجر لا يبالي أن يحلف.

فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه.

فلمًا قام ليحلف أنظره، فانصرفا، فـنزل قـوله: «ولا تشـــتروا بـعهــد الله» الآيتان.

فلمًا قرأهما رسول الله ﷺ قال امرؤ القيس: أمّا ما عندي فينفد، وهمو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه، ولم أدر كم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء. ومثلها معها بما أكلت من ثمرها.

فنزل فيه: ﴿ مَنْ عَبِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنخَى ﴾ بيّنه بالنوعين دفعاً للتخصيص ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنَ ﴾ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب ﴿ فَلَنَحْيِنَةُ حَيَاهُ طَيْبَةً ﴾ في الدنيا يعيش عيشاً طيّباً، فإنّه إن كان موسراً فظاهر، وإن كان معسراً يطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر، فإنّه إن كان موسراً لم يدعه الحرص وخوف النوات أن يتهنّا بعيشه.

وعن ابن عبّاس: الحياة الطبّبة الرزق الحلال. وعن قتادة: يمعني بمها فمي الآخرة. وقيل: هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

﴿ وَلَنَجْزِيَنَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الطاعة، كقوله: ﴿ فَآتَاهُمُ اللهُ ثُوَاتِ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآجَرَةِ ﴾ (١٠).

⁽١) آل عمران: ١٤٨.

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرُآنَ فَاسُتَعَذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلُطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩١٠﴾ إِنَّمَا سُلُطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلُّونَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

ولمّا كان الشيطان يوسوس العباد في ترك الطاعة والإقدام على المعصية، وكلّما كانت العبادة أعظم كان الشيطان في وسوسته أجهد، ومعظم العبادة تلاوة القرآن، كما قال النبيّ ﷺ: «أفضل عبادة أمّتي تلاوة القرآن»، عقب ذكر العمل الصالح بالاستعادة من الشيطان عند تلاوته، ليأمن من وسوسته في طاعته، فقال: ﴿فَإِذَا مُؤْذَا مُؤْزَانَ الْفُرْآنَ ﴾ أي: إذا أردت قراءته، والتعبير عن إرادة الفعل بلفظ الفعل من قبيل تسمية السبب باسم المسبّب، فإنّ الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه، فكان منه بسبب قويّ وملابسة ظاهرة، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَىٰ الطّمُودَ ﴾ (أذا قُمْتُمْ إلىن

﴿ فَاسْتَعِدْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فاسأل الله أن يعيذك من وساوسه، لنلا يوسوسك في القراءة. والاستعاذة استدفاع الأدنى بالأعلى على وجــه الخـضوع. وهي عند التلاوة مستحبّة غير واجبة بلا خلاف، في الصلاة وخارج الصلاة.

وعن ابن مسعود: «قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبرئيل ﷺ عن القلم عن اللوح المحفوظ».

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ تسلُّط وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهُمْ

⁽١) المائدة: ٦.

يَتَوَكُلُونَ﴾ أي: على أولياء الله المؤمنين به والمتوكّلين عليه، فإنّهم لا يطيعون أوامره، ولا يقبلون وساوسه، إلّا فيما يحتقرون على ندور وغفلة، ولذلك أمروا بالاستعاذة، فذكر نفي السلطنة بعد الأمر بالاستعاذة، لئلا يتوهّم أنّ له سلطاناً.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ يحبّرنه ويطيعونه في إغوائه ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ ﴾ بالله ، أو بسبب الشيطان ﴿ مُشْرِكُونَ ﴾ .

وَإِذَا بَدَّلُنَا آيَةً مَّكَانَ آيَة وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواً أَيْمَا أَنْتَ مُفْتَرِ بَل أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلُهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِكَ بِالْحَقِّ لِيُتَبْتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِي مَّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

ثمّ قال مخبراً عن إسناد الكفّار الافتراء إلى رسول الله عَلَيْتُ بالنسبة إلى القرآن، فقال: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةُ مَكَانَ آيَةٍ ﴾ بالنسخ، فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُمَزَّلُ ﴾ من المصالح، فلعلّ ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه الله، وما لا يكون مصلحة حينئذٍ يكون مصلحة الآن فيثبته مكانه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ينزل بالتخفيف.

وهذا اعتراض لتوبيخ الكفّار على قولهم، والتنبيه على فساد سندهم، واقع بين الشرط وبين جوابه، وهو قوله: ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفرة ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ متقوّل على الله، تأمر بشيء ثمّ يبدو لك فتنهى عنه.

وروي عن ابن عبّاس: أنّهم كانوا يقولون إنّ محمّداً يسخر مـن أصـحابه. يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فياً تيهم بما هو أهون. ولقد افتروا. فقد كــان ينسخ الأشق بالأهون. والأهون بالأشق، والأهون بالأهون، والأشق بالأشق. لأنّ الغرض المصلحة لا الهوان والمشقّة.

﴿ بِلْ أَغْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة الأحكام، ولا يميّزون الخطأ من الصواب.

﴿ قُلْ﴾ رداً لقولهم: ﴿ مَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني: جبرئيل. وإضافة الروح إلى القدس _ وهو الطهر _ كقولهم: حاتم الجود وزيد الخير. والمراد الروح المقدّس، أي: المطهّر من المآثم، وقرأ ابن كثير: رُوحُ القَدْسِ بالتخفيف. وفي «يمنزّل» و«نزّله» تنبيه على أنّ إنزاله مدرّجاً على حسب المصالح إنّما يقتضي التبديل. ﴿ مِنْ وَبُكُ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحكمة.

﴿ لِيُثَنِّتُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الإيمان بأنّه كلامه، فبإنّهم إذا سمعوا الناسخ وتدبّروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة، رسخت عقائدهم، واطمأنّت قلوبهم. ومعنى تثبيته: استدعاؤه لهم بألطافه ومعونته إلى الثبات على الإيمان.

﴿وَهُدَى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه. وهما معطوفان على محلّ «ليثبّت» أي: تثبيتاً وهداية وبشارة. وفيه تعريض بحصول أضداد ذلك لغيرهم.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بِشَوْ﴾ يعنون جبر الرومي غلام عامر بن الحضرمي. وقيل: عبدان: جبر ويسار، كانا يصنعان السيوف بمكّة، ويقران التوراة والإنجيل، وكان الرسول ﷺ يمرّ عليهما ويسمع ما يترآنه. وقيل: عائشاً أو يعيش غلام حويطب بن عبد العزّى، وقد أسلم وحسن إسلامه، وكان صاحب كتب. وقيل:سلمان الفارسي، قالوا: يتملّم القصص منه. وعن ابن عبّاس: قالت قريش: إنّما يعلّمه بلعام، وكان قيناً (١) بمكّة روميًا نصرانياً.

ثمّ ألزمهم الله تعالى الحجّة وأكذبهم بأن قال: ﴿لِسَانُ الَّذِي﴾ أي: لغة الرجل الذي ﴿ يُلْجِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أعجميّة عبريّة ﴿ يُلْجِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أعجميّة عبريّة ﴿ وَهَذَا﴾ القرآن ﴿ لِسَانُ عَرَبِينٌ مُبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحة.

⁽١) القَيْنُ: العبد والحدّاد.

وقرأ حمزة والكسائي: يَلحَدون بفتح الياء والحاء. يقال: ألحد القبر ولخده وهو ملحد وملحود. إذا أمال حفره عن الاستقامة. فحفر في شقّ منه. ثمّ استعير لكلّ إمالة عن استقامة. فقالوا: ألحد فلان في قوله. وألحد في دينه. ومنه الملحد. لأنّه أمال مذهبه عن الأديان كلّها، لم يمله عن دين إلى دين.

والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم. وتقريره من وجهين:

أحدهما: أنّ ما سمعه منه كلام أعجميّ لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن عربيّ تفهمونه بأدني تأمّل. فكيف يكون ما تلقّفه منه؟!

وثانيهما: هب أنّه تعلّم منه المعنى باستماع كلامه، لكن لم يتلقّف منه اللفظ، لأنّ ذلك أُعجميّ، وهذا عربيّ، والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى، فهو معجز من حيث اللفظ، مع أنّ العلوم الكثيرة الّتي في القرآن لا يمكن تعلّمها إلاّ بملازمة معلّم فائق في تلك العلوم مدّة متطاولة، فكيف تعلّم جميع ذلك من غلام سوقيّ، سمع منه بعض أوقات مروره عليه كليمات أعجميّة، لعلّهما لم يعرفا معناها؟! وطعنهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة الواهية دليل على غاية عجزهم. كذا قال صاحب الأنوار(١٠).

إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّه لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلِنَكَ هُمُ الْكَادُبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكُوهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَنِنٌ بِالإِيمَانِ وَلَكِنِ مَن شرَحَ بِالْكُفُرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

⁽١) أنوار التنزيل ٣: ١٩٢.

ثمّ أتبع سبحانه هذه الآية بذكر الوعيد للكفّار على ما قالوه، فقال: ﴿إِنَّ النِّهِ اللهُ ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ إِلَى النَّهِ اللهُ اللهِ مَا تَهَا من عند الله ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ إِلَى الحقّ، أي: لا يلطف بهم، بل يخذلهم، لأنّهم أهل التخلية والخذلان، لفرط عنادهم ومكابرتهم، مع أنّ حقية القرآن واضح لديهم. وقيل: إلى الجنّة. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمُ ﴾ في الآخرة.

ولمّا أماط شبهتهم، وردّ طعنهم، قلب الأمر عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْتَغْنِ اللَّذِينَ لَا يُوْمِنُونَ مِآيَاتِ الللهِ لا يَخافون عقاباً يردعهم عنه ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى اللّذين كفروا، أو إلى قريش ﴿ هُمُ الْتَائِبُونَ ﴾ أي: الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب، لأنّ تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافات أعظم الكذب، أو الذين عادتهم الكذب، ولا يبالون به في كلّ شيء، ولا يصرفهم عنه دين ولا مروءة، أو الكاذبون في قولهم: «إنّما أنت مفتر» «إنّما يعلّمه بشر».

﴿ مَنْ كَفَقَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَائِهِ ﴾ بدل من «الله ني يومنون» وما بينهما اعتراض. والمعنى: إنّما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه. واستثنى منهم المكره. أو من «أولئك» أو من «هم الكاذبون». أو مبتدأ خبره محذوف، دلّ عليه قوله: «فعليهم غضب». كأنّه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب إلاّ من أكره... إلخ. ويجوز أن ينتصب بالذمّ، وأن تكون «من» شرطيّة محذوفة الجواب.

﴿إِلَّا مَنْ أَغْدِهَ﴾ على الافتراء أو كلمة الكفر . استثناء متَّصل، لأنَّ الكفر لغة يعمّ القول والمقد، كالإيمان ﴿وَقَلْلُهُ مُطْفَئِنَّ بِالْإِيمَانِ﴾ لم تتغيّر عقيدته.

﴿ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالنَّفْوِ صَدْراً﴾ اعتقده وطاب به نفساً ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا شيء أعظم من جرمه.

روي: أنّ ناساً من أهل مكّة فتنوا فارتدّوا عن الاسلام بعد دخولهم فيه. وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان. منهم عمّار، وأبواه _ ياسر وسمية _ وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم، عذّبوا. فأمّا سميّة فقد ربطوها بين بعيرين ووجى و(١) بحربة في قبلها، وقالوا: إنّك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتلوا ياسراً. وهما أوّل قتيلين في الإسلام، وأمّا عمّار فقد أعطاهم بلسانه ما أرادوا مكرهاً. فقيل: يا رسول الله إنّ عمّاراً كفر، فقال: كلّا، إنّ عمّاراً ملى ايماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الايمان بلحمه ودمه. فأتى عمّار رسول الله وهو يبكي، فجعل رسول الله يسمح عينيه، وقال: مالك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت.

وهو دليل على جواز التكلّم بالكفر للإكراه، وإن كان الأفضل أن يتجنّب عنه إعزازاً للدين، كما فعله أبواه، لما روي: أنّ مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمّد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول في ؟ فقال: أنت أيضاً. فخلّاه. وقال للآخر: ما تقول في محمّد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول في ؟ قال: أنا أصمّ. فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أمّا الائل فقد أخذ برخصة الله. وأمّا الثاني فقد صدع بالحق، فهنياً له.

ذَلِكَ بِأَنْهُمُ اسْنَحَبُواْ الْحَيَاةَ الْدُنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿ ١٠٧﴾ أُولَئكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَلُولِينَ ﴿ ١٠٧﴾ لَا جَرَمَ أَنْهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ وَلَولَكَ هُمُ الْخَاسِرونَ ﴿ ١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنْهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ ﴿ ١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنْهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ ﴿ ١٠٨﴾

⁽١) وَجَأَ فلاناً بالسكِّين أو بيده: ضربه في أيِّ موضع كان.

إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن يَّهُ نَفْسِهَا وَتَوْفَى كُلُ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

﴿ أَوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَالْبَصَارِهِمْ ﴾ برفع التوفيق واللطف عنهم، فيخليهم لفرط عنادهم ولجاجهم، فأبت قلوبهم وحواسهم عن الاعتراف بالحق ﴿ وَأَوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الكاملون في الغفلة، فلا أغفل منهم، لأنهم غفلوا عن تدبّر عاقبة حالهم في الآخرة، وذلك غاية الغفلة ومنتهاها.

﴿ لَا جَرَمَ النَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ النَّفَاسِرُونَ﴾ إذ ضيَّعوا أعمارهم، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلّد.

﴿ فُمُّ إِنَّ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتِنُوا ﴾ أي: عذّبوا، كعمّار وأصحابه. و«ثمّ» لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك. يعني: إنّ ربّك لهم لا عليهم، بمعنى: أنّه وليّهم وناصرهم، لا عدوّهم وخاذلهم. وقرأ ابن عامر: فَتَنُوا بالفتح، أي: بعد ما عذّبوا المؤمنين، كالحضرمي أكره مولاه جبراً حتّى ارتد ثمّ أسلما وهاجرا، كما قال: ﴿ فُمُ جَاهَدُوا وَصَعَرُوا ﴾ على الجهاد وما اصابهم من المشاق ﴿ إِنَّ رَبُكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لما فعلوا قبل ﴿ وَحِيمٌ ﴾ يستعم عليهم مجازاة على ما صنعوا بعد.

﴿ يَوْمَ تَاتِي كُلُّ نَفْسِ﴾ منصوب بالرحيم، أو با أذكر، والمراديوم القيامة. ﴿ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ عن ذاتها، وتسعى في خلاصها، لا يهتها شأن غيرها، فتقول: نفسي نفسي. ومعنى المجادلة: الاحتجاج عنها والاعتذار لها، كقولهم: ﴿ هَـــؤُلاَةٍ ٦١٤ زيدة التفاسير ـج ٣

أَضَلُونَا﴾ (١) ونحو ذلك. ﴿ وَتُوفِّن كُلُ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ جزاء ما عملت ﴿ وَهُمْ لَا يُطْلَمُونَ ﴾ لا ينقصون أجورهم.

وَضَرَبَ اللّهُ مَثَالًا قَرْبَةً كَانَتُ آمَنَةً مُّطْمَنَنَةً يَأْتِهَا رِزْقَهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانِ فَكَفَرَتُ بِأَنْهُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمُ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

ثمّ أنذر المشركين بقوله: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً ﴾ أي: جعلها مثلاً لكلّ قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة فكفروا، فأنزل الله بهم نقمته. أو الأهل مكّة. ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ ذات أمن، أي: يأمن أهلها من أن يغار عليهم ﴿ مُطْمَئِنَةً ﴾ قارّة ساكنة بأهلها، لا ينزعجون خوف العدو، فإنّ الطمأنينة مع الأمن، والانزعاج والقلق مع الخوف.

﴿يَاتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتها ﴿رَغَداً﴾ واسعاً ﴿مِنْ كُلُّ مَكَانٍ﴾ مـن نـواحـيها وجوانبها، كما قال: ﴿يُجْبَنِ إِنْيَهِ فَمَرَاتُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ (٣).

﴿ فَكَفَرْتُ ﴾ فَكفَرْتُ ﴾ فكفر أهل تلك القرية ﴿ بِانْهُمِ الشِّ ﴾ بنعمه. جمع نعمة، على ترك الاعتداد بالتاء، كدِرع وأدرع، أو جمع نُعْم، كبؤس وأبؤس. وفي الحديث: «نادى مناد النبيّ ﷺ بالموسم بمنى: إنّها أيّام طعم ونعم فلا تصوموا».

﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ استعار الذوق لإدراك أثر الضرر،

⁽١) الأعراف: ٣٨.

⁽٢) القصص: ٥٧.

سورة النحل، آية ١١٤١١٥ المسابق ١١٥ المسابق ١١٥ المسابق ١١٥ المسابق ١١٥ المسابق ١١٥ المسابق المسا

واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له، وهو ماغشيهم.

قال صاحب الكشّاف: «أمّا الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة، لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البـوس والضرّ وأذاقه العذاب، شبّه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع. وأمّا اللباس، فقد شبّه به لاشتماله على اللابس ما غشي الانسان والتبس به من بعض الحوادث. وأمّا إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنّه لمّا وقع عبارة عمّا يغشى منهما ويلابس فكأنّه قـيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف،

﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ بصنيعهم.

﴿ وَلَقَدْجَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ ﴾ يعني: محمداً ﷺ. والصمير الأهل مكة، عاد إلى ذكرهم بعد ما ذكر مثلهم. ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَاخَذَهُمُ الْعَدَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي: حال التباسهم بالظلم والعذاب ما أصابهم من الجدب الشديد سبع سنين، حتى أكلوا القدّ (١) والعلمز، وهو الوبر يمخلط بالدم ويـوّكل، ومع ذلك كانوا خائفين من النبي ﷺ وأصحابه، وذلك حين دعا عليهم فقال: اللّهم اشدد وطأتك على مضر، واجعل عليهم سنين كسنتي يوسف. أو وقعة بدر.

فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُمُّتُمْ أَيِّاهُ تَعْدُونَ ﴿١١٤﴾

(١) الكشّاف ٢: ٦٣٩.

⁽٢) القَدِّ: حلد السخلة.

ولمّا زجرهم عن الكفر، وأوعدهم بما ذكر من التمثيل، صدّاً لهم عن صنيع الجاهليّة ومذاهبها الفاسدة، أمرهم بأكل ما أحلّ الله لهم، وشكر ما أنعم عليهم، الخالف؛ ﴿فَكُلُوا نِفْقَةُ اللهِ ﴾ إنعامه بذلك ﴿إنْ كُنْتُمْ إِنَّا كُنْتُمْ اللهُ عَلَيْهِ أَنْ مُنْتُمْ أَنَّكُم تعبدون الله بعبادة الآلهة، لأنَّها شفعاؤكم عنده.

إِنْمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْنَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْحَنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَن اضْطُرُّ غَيْرَ الخ وَلاَ عَادِ فَإِنَّ اللهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ ١١٥ ﴾

ولمّا أمرهم بتناول ما أحلّ لهم، عدّد عليهم ما حرّم عليهم، فقال: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْنَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْجَنْزِيرِ وَمَا أَهِلَّ لِقَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرُّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللهُ عَفُورٌ رَجِيمٌ ﴾ مقتضى سياق الكلام وتصدير الجملة بدرانما، حصر المحرّمات في الأجناس الأربعة، إلّا ما ضمّ إليه دليل كالسباع. وهذه الآية والّتي قبلها مفسّرتان في سورة البقرة، فليطالع ثمّة(١).

وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ الْكَذَبَ هَذَا حَلاَلْ وَهَذَا حَرَامْ لِتَفْتُرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذَبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴿١٦٦﴾ مَتَاعْ عَلَى اللهِ الْكَذَبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴿١٦٦﴾ مَتَاعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَعَلَى الّذينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٨٨﴾

⁽١) راجع ج ١ ص ٢٨٥ ذيل الآية ١٧٢ _ ١٧٣ من سورة البقرة.

ثمّ أكّد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم، فقال: ﴿ وَلاَ مَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السِنتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالُ وَهَذَا حَرَامُ ﴾ كما قالوا: ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْ عَامِ خَالِصَةُ لِذُكُورِنَا ﴾ (١١ الآية. وانتصاب الكذب برالا تقولوا». ورهـذا حـلال وهـذا حرام» بدل منه. أو متعلق برتصف» على إرادة القول، أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقولوا: هذا حلال وهذا حرام. أو مفعول (لا تقولوا»، والكذب منصوب برتصف»، ورما » مصدرية، أي: ولا تقولوا: هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب. والمعنى: لا تحلّلوا ولا تحرّموا بمجرّد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل.

ووصف ألسنتهم الكذب مبالغة في وصف كالامهم بالكذب، كأنّ حقيقة الكذب كانت مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرّفها بكلامهم هذا، ولذلك عدّ من فصيح الكلام، كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر.

﴿ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْعَذِبَ ﴾ اللام للعاقبة، لأنّ الافتراء ما كان غرضاً، كقوله: ﴿ عَدُواً وَحَزْنا ﴾ (*) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْعَذِبَ لاَ يُسْقِحُونَ ﴾ لا يسنجون من عذاب الله ، ولا ينالون خيراً.

ولمّا كان المفتري يفتري لتحصيل مطالبه الدنيويّة نفى عنهم الفلاح، وبـيّنه بقوله: ﴿مَثَاعُ قَلِيلُ﴾ أي: ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تـنقطع عـن قريب ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الِيمُ﴾ في الآخرة.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي: في سورة الأنعام في قوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُر ﴾ (٣) ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ متعلَّق ب«قصصنا» أو

⁽١) الأنعام: ١٣٩.

⁽٢) القصص: ٨.

⁽٣) الأنعام: ١٤٦.

«حرّمنا» ﴿ وَمَا ظَلَفْنَاهُمْ ﴾ بتحريم ذلك عليهم ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسُهُمْ يَ ظَلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم، وأنّه كما يكون للمضرّة يكون للعقوبة. واتّصل قوله: «وعلى الذين هادوا» الآية بما تقدّم ذكره من التحريم والتحليل، ليبيّن أنّ ما كانوا يحرّمونه ويحلّلونه بزعمهم ليس في التوراة، كما أنّه ليس ذلك في القرآن.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لَلَذِينَ عَمِلُواْ السُّتُوَ ۚ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَٱبُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلُحُوَآ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

ثمّ ذكر سبحانه التائبين بعد تقدّم الوعد والوعيد، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبُّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ بسببها، أو ملتبسين بها، ليعمّ الجهل بالله وبعقابه، وعدم التدبر في العواقب لفلبة الشهوة، والسوء يعمّ الافتراء على الله وغيره. ﴿ ثُمُّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ من بعد سوء الفعل ﴿ وَأَصْلَكُوا ﴾ نيّاتهم وأفعالهم ﴿ إِنَّ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ من بعد التوبة ﴿ لَفَقُورٌ ﴾ لذلك السوء ﴿ رَحِيمٌ ﴾ يثيب على الإنابة.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَمَّةً قَانَاً لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ مِنَالُمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ مُنَالُهُ فِي الْدُنُيَا مُسْتَقِيمٍ ﴿ ١٢١﴾ وَأَنْيَنَاهُ فِي الْدُنُيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآتِيلَ أَنِ الْتَبْعُ مِلَةً حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيُّنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعُ مِلَةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ ١٢٢﴾

وبعد ذمّ المشركين وأهل الكتاب، وتهديدهم بعقائدهم الزائعة وصفاتهم

سورة النحل، آية ١٢٠ ـ ١٢٣ ـ ١٠٠٠ ـ ١٢٣ ـ ١٠٠٠ ـ ١١٩

السيّئة. بيّن خلال إبراهيم الخليل ونعته الجليل ليقتدوا به. فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَشْقُ﴾ أي: كان وحده أمّة من الأمم. لكماله في جميع صفات الخير. واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلاّ مفرّقة في أشخاص كثيرة. كقوله:

ليس مــن الله بــمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وهو رئيس الموحّدين، وقدوة المحقّقين، اللذي جادل فرق المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة. ولذلك عقّب أحوال المشركين بذكره تزييفاً لمذاهبهم الزائفة، من الشرك، والطعن في النبوّة، وتحريم ما أحله. أو لأنّه كان وحده مؤمناً، وكان سائر الناس كفّاراً.

وقيل: هي فعلة بمعنى مفعول، كالرحلة بمعنى ما يرتحل إليه، والنخبة بمعنى ما ينتخب به، من: أمّه إذا قصده أو اقتدى به، فإنّ الناس كانوا يؤمّونه للاستفادة، ويقتدون بسيرته، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ (١). قال ابن الأعرابي: يقال للرجل العالم أمّة، لأنّه قدوة معلّم الخير.

﴿ قَائِنَا بِشِهِ مطيعاً له، قائماً بأوامره دائماً ﴿ حَنِيفاً ﴾ مائلاً عن الباطل إلى الاسلام، مستقيماً على الطاعة وطريق الحق ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْوِكِينَ ﴾ كما زعموا، فإنّ قريشاً كانوا يزعمون أنّهم على ملّة إبراهيم.

﴿ شَاكِراً لِأَنْكُمِهِ﴾ معترفاً بها. ذكر بلفظ القلّة للتنبيه على أنّه كان لا يخلّ بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة ؟! روي أنّه كان لا يتغدّى إلّا مع ضيف. فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخّر غداءه، فإذا هو بفوج من الملآثكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام، فخيلوا له أنّ بهم جذاماً، فقال: الآن وجبت مؤاكلتكم شكراً لله على أنّه عافاني وابتلاكم.

﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ واصطفاه للنبوّة ﴿ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ في الدعوة إلى الله.

⁽١) البقرة: ١٧٤.

﴿ وَآتَٰفِنَاهُ فِي الدُّنْفِا حَسَفَةً ﴾ بأن حبّبه إلى الناس، حتّى إنّ أربـاب المـلل جميعاً يتولّونه ويثنون عليه، ورزقه أولاداً طيّبة، وعمراً طويلاً في السعة والطاعة. وقيل: هي قول المصلّي منّا: كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم.

﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لمن أهل الجنّة، كما سأله بقوله: ﴿ وَالْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١). وناهيك بهذا ترغيباً في الصلاح، ولم يقل: لفي أعلى منازل الصالحين، مع اقتضاء حاله ذلك، ترغيباً في الصلاح، فإنّه عزّ اسمه بيّن أنّه الله عنه منازل الصالحين، مع علوّ رتبته وشرف منزلته، تشريفاً لهم وتنويهاً بذكر من هو منهم.

﴿ مُمُّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمّد. وذكر «ثمّ» إمّا لتعظيم منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محلّه، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلّ ما أولي من النعمة، اتباع رسول الله ﷺ ملّته، فإنّها دلّت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها، أو لتراخى أيّامه.

﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَنِيفاً﴾ في التوحيد والدعوة إليه بالرفق، وإيراد الدلائل مرّة بعد أخرى، والمجادلة مع كلّ أحد على حسب فهمه ﴿ وَصَاكَانَ مِنَ النَّسْرِكِينَ﴾ بل كان قدوة الموحّدين.

إِنْمَا جُعِلَ السَّبَتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣٤﴾

ولمّا أمر سبحانه باتّباع الحقّ، حذّر من الاختلاف فيه، بما ذكر من أحوال المختلفين في السبت، كيف شدّد عليهم فرضه، وضيّق عليهم أمره، فقال: ﴿إِنَّهَا

⁽١) الشعراء: ٨٣.

سورة النحل، آية ١٢٥١٢٥ قيم ١٢٥

جُعِلَ السَّنِتُ ﴾ أي: تعظيم السبت، أو التخلّي فيه للعبادة ﴿ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَقُوا قِيهِ ﴾ أي: في نبيّهم. وهم اليهود، أمرهم موسى ﷺ أن يتفرّغوا للعبادة يوم الجمعة، فأبوا عن ذلك وقالوا: نريد يوم السبت، لأنّه فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض، فألزمهم الله السبت، وشدّد الأمر عليهم، إلّا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة، فأذن الله لهم الصيد في السبت، وابتلى المسبتين بتحريم الصيد فيه.

وقيل: معناه: إنّما جعل وبال السبت ـ وهو المسخ ـ على الّذين اختلفوا فيه، فأحلّوا الصيد فيه تارة وحرّموه أخرى، واحتالوا له الحيل، وكان الواجب عليهم أن يتّفقوا في تحريمه على كلمة واحدة، بعد ما حتّم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه. وعلى هذا، المعنيّ في ذكر ذلك نحو المعنيّ في ضرب القرية الّتي كفرت(١) بأنعم الله مثلاً لمزيد تهديد المشركين.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ مَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِقُونَ﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق من الآبين والمعظّمين بما يستحقّه.

آدُعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادْلُهُم بِالَّتِي هِيَ الْحُسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَّدُيِنَ ﴿ ١٢٥﴾ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَّدُينَ ﴿ ١٢٥﴾

ثمّ أمر سبحانه نبيّه بالدعاء إلى الحقّ، فقال: ﴿ انْعُ ﴾ من بعثت إليهم ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبُّكَ ﴾ إلى دين ربّك، وهو الاسلام ﴿ بِالْحِكْمَةِ ﴾ بالمقالة المحكمة. وهو الدليل الموضح للحقّ، المزيح للشبهة. ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْخَسَنَةِ ﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة. فالأولى لدعوة خواصّ الأمّة الطالبين للحقائق، والثانية لدعوة عوامهم.

⁽١) النحل: ١١٢.

وقيل: الحكمة هي القرآن. وسئي حكمة لأنّه يتضنن الأمر بالحسن، والنهي عن القبيح. وأصل الحكمة المنع، ومنه حكمة اللجام. والموعظة الحسنة: هي الصرف عن القبيح، على وجه الترغيب في تركه، والتزهيد في فعله. وفي ذلك تلبين القلوب بما يوجب الخشوع.

﴿ وَجَادِلْهُمْ ﴾ وجادل معانديهم ﴿ بِالَّتِي هِـيَ أَحْسَنُ ﴾ بالطريقة الَّـتي هـي أحسن طرق المجادلة، من الرفق واللين من غير فظاظة وتعنيف، وإيشار الوجـه الأيسر فالأيسر، والمقدّمات الَّتي هي أشهر، فإنّ ذلك أنفع في تسكين لهبهم وتليين شغبهم.

﴿إِنَّ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل، فكأنّك تضرب منه في حديد بارد. وإنّما عليك البلاغ والدعوة، وأمّا حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك، بل الله أعلم بالضالين والمهتدين، وهو المجازي لهم.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَكُنِ صَبَرْتُمُ لَهُوَ خَيْرٌ

لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾

ولمّا بين أمره بالدعوة وعلّمه طرقها، أشار إليه وإلى من يتابعه بمراعاة العدل مع من يناصبهم، فإن الدعوة لا تنفكّ عنه، من حيث إنها تتضمّن رفض العادات وترك الشهوات، والقدح في دين الأسلاف، والحكم عليهم بالكفر والضلال، فقال:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ أي: أردتم معاقبة غيركم على وجه المجازاة ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ ولا تزيدوا عليه.

وقيل: كان المشركون مثَّلوا بقتلى أحد، وبقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم.

وقتل حمزة وقد مثّل به. وأخذت هند كبده. فجعلت تلوكه. وجدعوا أنفه وأذنه. فقال المسلمون: لئن أمكننا الله منهم لنمثّلنّ بالأحياء فضلاً عن الأموات. فنزلت.

وفيه دليل على أنّ للمقتصّ أن يماثل الجاني، وليس له أن يجاوزه. وحتّ على العفو تعريضاً بقوله: ﴿ وَلَئِنْ صَنِزتُمْ لَهُوْ ﴾ أي: الصبر ﴿ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ من الانتقام للمنتقمين.

وَاصْبِرُ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مَمَّا يُمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَقَواْ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

ثمّ صرّح بالأمر به لرسوله. لأنّه أولى الناس به، لزيادة علمه بالله، ووثوقه عليه، فقد ووثوقه عليه، فقال: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلّا بِاللهِ ﴾ إلّا بتوفيقه وتثبيته ﴿ وَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ ﴾ على الكافرين في إعراضهم عنك، أو على قتلى بدر، أو على المؤمنين وما فعل بهم ﴿ وَلَا تَكُ فِي صَنِق صدر من مكرهم بك وبأصحابك، فإنّ الله يردّ كيدهم في نحورهم، ويحفظكم من شرورهم.

وقرأ ابن كثير: في ضِيقٍ، هنا وفي النمل^(١). وهما لغتان، كـالقول والقـيل. ويجوز أن يكون الضيق تخفيف ضَيَّق.

﴿إِنَّ اللهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والكبائر بالنصرة والحفظ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِئُونَ﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل. أو مع الَّذين اتّقوا بتعظيم أمره، والَّذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. والله أعلم بالصواب.

⁽١) النمل: ٧٠.



فهرس الموضوعات

سورة الأنفال (٨)

المبقحة	الموضوع
o	الآية: ١
۸	الآية: ٢ ـ ٦
\£	الآية: ٧ ــ ١٤ ـــــــــــــــــــــــــــــــ
19	الآية: ١٥ ـ ١٨
YY	الآية: ١٩ ـ ٣٣
Υο	الآية: ٢٤ ـ ٢٥
۲۸	
Y9	
٣٢	الآية: ۲۹ ــ ۳۰ ــــــــــــــــــــــــــــــــ
ΨΣ	الآية: ٣١ ـ ٣٢
Ψο	الآية: ٣٣ ـ ٣٤
٣٧	الآية: ٣٥
٣٨	الآية: ٣٦_ ٣٧
٣٩	الآية: ٣٨ _ ٤٠
٤١	الآية: ١١ ــ ٤٤
٤٩	الآية: ٤٥ ــ ٤٥
o£	الآية: ٥٥ ـ ٥٦
00	
٥٧	الآية: ٥٩ ــ ٣٣

٠٠	الآية: ٢٤_٦٩
٠٠٠٥٠	الآية: ٧٠ ــ ٧١ ــــــــــــــــــــــــــــــ
٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	الآية: ٧٧_٧٧
٠٨٨	الآية: ٧٤ ــ ٧٥
(4)	سورة التوبة
٧١	الآية: ١ ـ ٢
٧٦	الآية: ٣_ ٤
٧٨	الآية: ٥ ــ ٦
۸٠	الآية: ٧ ــ ١٢
۸٤	الآية: ١٣
۸٥	الآية: ١٤ _ ٢١
	'لآية: ١٧ _ ١٨
۸۹	لآية: ١٩ ـ ٢٢
91	لآية: ٢٣ ــ ٢٤
97	لآية: ٢٥ ـ ٧٧
٩٧	لآية: ۲۸
99	لآية: ٢٩
1.1	لآية: ٣٠_ ٣٥
١٠٨	لآية: ٣٦
11	لآية : ٣٧
117	 لآية: ٣٨_ ٤٠
110	- لآية: ١١ ـ ٢ ع
117	رِية: ٤٣
114	- لآية: ١٤ ـ ٥٤

YYF	فهرس الموضوعات
١١٨	الآية: ٢٦
119	الآية: ٤٧ ـ ٥٢
177	الآية: ٥٣ ـ ٥٧
١٢٤	الآية: ٨٨ ـ ٥٩
٠٢٦	الآية: ٦٠
١٢٨	الآية: ٢١
١٣٠	الآية: ٢٢
181	الآية: ٢٣ ــ ١٤
17T	الآية: ٦٥ ــ ٦٩
١٣٦	الآية: ٧٠
١٣٧	الآية: ٧١ _ ٧٢
179	الآية: ٧٣ _ ٧٤
181	الآية: ٥٥ ـ ٧٨
187	الآية: ۷۹
187	الآية: ٨٠
١٤٥	الآية: ٨١_ ٨٢
١٤٧	الآية: ٨٤_ ٥٨
١٤٨	الآية: ٨٦ ـ ٨٨
189	الآية: ٩٠
١٥٠	الآية: ٩١ ـ ٩٣ ـ
107	الآية: ٩٤_ ٩٦
101	الآية: ٩٧ _ ٩٩ _ ١٠
107	=
109	-
17	. v = 5/1

زيدة التفاسير ـج ٣	٦٢٨
171171	الآية: ١٠٣ ـ ١٠٥
١٦٤	الآية: ١٠٦
٠٦٥	الآية: ۱۰۷ ــ ۱۱۰ ــــــــــــــــــــــــــــ
١٧٠	الآية: ١١١ ـ ١١٢
177	الآية: ١١٣ ــ ١١٤
١٧٤	الآية: ١١٥ ـ ١١٦
١٧٥	الآية: ۱۱۷ ـ ۱۱۸
177	الآية: ١١٩
١٧٨	الآية: ١٢٠ ــ ١٢١
۱۸۰	الآية: ۱۲۲
١٨١	الآية: ١٢٣ ـ ١٢٥
١٨٣	الآية: ١٢٦ ـ ١٢٧
١٨٤	الآية: ۱۲۸ ـ ۱۲۹
('	سورة يونس(١٠)
١٨٥	لآية: ١ ـ ٢
١٨٨	لآية: ٣ ـ ٢
19	لآية: ٧ ـ ٨
191	لآية: ٩ ـ ١٠
197	لآية: ١١
198	لآية: ١٢
198	لآية: ١٣ _ ١٤
190	لآية: ١٥ ــ ١٧ ــــــــــــــــــــــــــــــ
197	لآية: ١٨ ــ ٢١ ــــــــــــــــــــــــــــــ
۲۰۰	لآنة: ٢٢_٣٢

	فهرس الموضوعات
Y · Y	الآية: ٢٤
۲۰۳	الآية: ٢٥ ــ ٢٧
٢٠٢	الآية: ۲۸ ــ ۳۰
Y·V	الآية: ٣١_٣٣
Y·A	الآية: ٣٤_٣٦
71.	الآية: ٣٧_ ٣٩
717	الآية: ٤٠ ـ ٧٤
717	الآية: ٤٨ ــ ٥٦ ــ ٥٠
Y19	٧٥ ــ ٨٥
YY1	الآية: ٥٩ ـ ٢٠
YYY	
YYW	-
٢٢٥	الآنة: ٢٦
777	_
YYA	
777	-
٢٣٥	
YYV	
۲٤٠	
Y£1	
Y£Y	
720	
727	
Y£A	
719	
۲۵۰	

ج ۳	زيدة التفاسير	 			· • • •	 • • •	 	 	٦٣٠
		(11).	ة هو د	سور	u				

الآنة: ١ = ٤ الآنة: ٦............... |\bar{V}_\text{\sigma} \ |\bar{V}_\text{\sigm 1\Z.z. P _ 1 / A A الآلة: ١٧ الآنة: ٢٥ ـ ٨٧ Y79 Y7 _ Y9 : IV ٧٧٠ ٢٧ - ٣٥ - ٣٢ : ١٨٠ الآنة: ٢٦ - ٣٣. الآنة: ٤٤ الآنة: ٥٤ ـ ٧٤ 17. /r_ \r. الآتة: ٢٩ _ ٢٧. الآبة: ۷۷_۳۸ الآنة: ١٤ ـ ٨٨ ـ ٨٨ ـ ٢٠٤ الآبة: ٦٦ _ ٩٩ _ ٩٦ : ١٣١٢

١٣١	فهرس الموضوعات
۳۱۵	الآية: ۱۰۰ ـ ۱۰۸
٣٢٠	الآية: ١٠٩
٣٢١	الآية: ١١٠ ـ ١١١
٢٢٢	الآية: ۱۱۲
٢٢٣	الآية: ١١٣ ــ ١١٥
rya	الآية: ١١٦ _ ١١٧
۳۳۰	الآية: ١١٨ ـ ١٢٣
يوسف (۱۲)	سورة
ryo	الآنة: ١ ـ ٣ ـ
rvv	-
rey	
TEE	
TEO	-
ro·	-
TOE	_
	-
۳٥٩	
ሾ ٦٢	-
٣٦٧	
٣٧٣	
٣٧٧	
٣٧٩	
٣٨٠	الآية: ٥٤ ـ ٥٧
٣٨٦	الآية: ٨٨ ــ ٧٧

زيدة التفاسير _ج ٣	٦٣٢
۲۹۳	الآية: ٦٨ ـ ٧٦ ـ
T9.A	الآية: ٧٧ ــ ٧٩
٤٠٠	الآية: ٨٠ ـ ٨٢
٤٠٢	الآية: ٨٣ ـ ٤٤
٤٠٤	الآية: ٨٥ ـ ٨٧
r·3	الآية: ٨٨
٤٠٧	الآية: ٨٩_ ٩٢_
٤١٠	الآية: ٩٣ ـ ٩٨
٤١٢	الآية: ٩٩ ـ ١٠٠
٤١٥	الآية: ١٠١
٤١٦	الآية: ١٠٢
٤١٧	الآية: ١٠٧_ ١٠٧
٤١٨	الآية: ۱۰۸ ــ ۱۰۹
٤٢٠	الآية: ١١٠ ـ ١١١
(سورة الرعد (١٣)
٤٢٣	الآية: ١
٤٧٤	الآية: ٢ ــ ٤
٤٢٨	الآية: ه ـ ٧
٤٣١	الآية: ٨ ـ ١١
٤٣٤	الآية: ١٢ ــ ١٥
٤٣٨	الآية: ١٦
٤٤٠	الآية: ١٧ ــ ١٨
٤٤٤	الآمة: ١٩ _ ٢٤

744	فهرس الموضوعات
£ £ V	الآية: ٢٥ ـ ٢٩
٤٥٠	الآية: ٣٠
٤٥١	الآية: ٣١
٤٥٣	الآية: ٣٢ ـ ٣٤
٤٥٥	الآية: ٣٥
	الآية: ٣٦_ ٣٧
£ 0 V	الآية: ٣٨ ـ ٤٠
٤٦٠	الآية: ٤١ ـ ٣٤
سورة إبراهيم (١٤)	
٤٦٣	الآية: ١ ـ ٣
٤٦٥	الآية: ٤ ــ ٦ ـــــــــــــــــــــــــــــــ
٤٦٨	الآية: ٧ ــ ٩
٤٧٠	الآية: ١٠
٤٧١	الآية: ١١ ـ ١٢
£ V Y	الآية: ١٣ ـ ١٧
£ Yo	الآية: ١٨
£V7	الآية: ١٩ ـ ٢١
£ V 9	الآية: ٢٢
٤٨١	الآية: ٢٣ ـ ٢٧
٤٨٥	الآية: ۲۸ ـ ۳۱ ـ
£ AA	الآية: ٣٢_ ٣٤
٤٩٠	الآية: ٣٥_ ١٤
191	الآنة: ٤٢_٤٢

زيدة التفاسير ـج ٣	٦٣٤
٤٩٥	الآية: ٤٤ ـ ٤٥
٤٩٧	الآية: ٢٦_٧٤
٤٩٩	الآية: ٤٨ ــ ٥٢ ــ
(10	سورة الحجر (
0 • 0	الآية: ١ ـ ٥
٥٠٨	الآية: ٦ ـ ١٥
٥١٢	الآية: ١٦ ـ ١٨
017	الآية: ١٩ ـ ٣٣
٥١٥	الآية: ٢٤ ـ ٢٥
٥١٧	الآية: ٢٦ _ ٤٤
o Y £	الآية: ٤٥ ــ ٨٤
٥٢٥	الآية: ٤٩ ــ ٥٦ ــــــــــــــــــــــــــــــــ
٥٢٧	الآية: ٥٧ ـ ٦٠
٥٢٩	الآية: ٢١ ـ ٢٦ ـ
٥٣٠	الآية: ٢٧ ــ ٢٧
٥٣٢	الآية: ٧٣ _ ٨٤
٥٣٤	الآية: ٨٥_ ٨٨
٥٣٥	الآية: ۸۷ _ ۹۹
(1)	سورة النحل (٦
٥٤١	لآية: ١ ـ ٢
o££	لآية: ٣ ـ ٨
٥٤٦	لآية: ٩

۳۰	فه المشاعات
£Y	
	الآية: ١٤ ــ ١٦
70	الآية: ١٧
00	الآية: ۱۸ ـ ۲۱
oo£	الآية: ٢٢ ـ ٣٣
	الآية: ٢٤ ـ ٢٩
	الآية: ٣٠_٣٢
······································	
	-
	-
376	-
070	
VFC	
٠٧٥ ٥٧٥	
٠٧٨	
٥٧٩	
٠٨٢	الآية: ٦٨ ـ ٦٩
٥٨٥	الآية: ٧٠
۰۲۸	الآية: ٧١
0 AV	الآية: ٧٢ _ ٧٤

λ 	الآية: ٧٥
991	الآية: ٧٦
	الآية: ٧٧ ـ ٧٨
	الآية: ٧٩
٠٩٤	الآية: ٨٠_ ٨٢
	الآية: ٨٣ ــ ٨٥
٠٩٧	الآية: ٨٦ ــ ٨٨
999	الآية: ٨٩
1	الآية: ٩٠
1 · Y	الآية: ۹۱ ـ ۹۳ ـ
1 • £	
١٠٥	الآية: ۹۷
١٠٧	الآية: ۹۸ ـ ۱۰۰ ــــــــــــــــــــــــــــــــ
٠٠٨	
11•	الآية: ١٠٤_٢٠١
117	الآية: ۱۰۷ ـــــــــــــــــــــــــــــــــــ
٠٠١٤	
٠٠٠٠٥١١٥	الآية: ١١٤
<i></i>	
٠٠٠٨٨١٨	الآية: ١١٩ ـ ١٢٣
٠٢٠	
771	
777	الآية: ٢٢٦
٦٢٣	الآية: ١٢٧ ـ ١٢٨